دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (٢)

عصر الحروب الصليبية

الفرسان الإسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي

تأليف

الدكتور / مصطفى محمد الحناوي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكليات التربية للبنات بالقصيم
رئيس قسم الدراسات الاجتماعية بكلية المعلمين
(في عرعر) سابقا

مكتبة الرشد
ناشرون

عصر الحروب الصليبية

الفرسان الاستبارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي

تأليف

الدكتور / مصطفى محمد الحناوي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية التربية للبنات بالقصيم
رئيس قسم الدراسات الاجتماعية بكلية المعلمين
(في عرعر) سابقاً

مكتبة الرشد
ناشرون

١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م



مكتبة الرشد

ناشرون

المملكة العربية السعودية

الرياض

شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن

(طريق الحجاز)

ص . ب : ١٧٥٢٢ - الرياض ١١٤٩٤

هاتف : ٤٥٩٣٤٥١

فاكس : ٤٥٧٣٣٨١

E-mail : alrushd@alrushdryh.com
www. rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

الرياض :	فرع طريق الملك فهد - غرب وزارة البلدية والقروية	هاتف :	٢٠٥١٥٠٠
○ فرع مكة المكرمة :	شارع الطائف مقابل مستشفى علوي التونسي :	هاتف :	٥٥٨٤٠١-٥٥٨٣٥٠٦
○ فرع المدينة المنورة :	شارع أبي ذر الغفاري :	هاتف :	٨٣٤٠٦٠٠
○ فرع جدة :	مقابل ميدان الطائرة :	هاتف :	٦٧٧٦٣٣١
○ فرع القصيم :	بريدة - طريق المدينة :	هاتف :	٣٢٤٢٢١٤
○ فرع أبها :	شارع الملك فيصل :	هاتف :	٢٣١٧٣٠٧
○ فرع الدمام :	شارع ابن خلدون :	هاتف :	٨٢٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج المملكة

○ الكويت :	مكتبة الرشد - حولي :	هاتف :	٢٦١٢٣٤٧
○ القاهرة :	مكتبة الرشد - مدينة نصر :	هاتف :	٢٧٤٤٦٠٥
○ بيروت :	دار ابن حزم :	هاتف :	٧٠١٩٧٤
○ المغرب :	الدار البيضاء / مكتبة العلم :	هاتف :	٣٠٣٦٠٩
○ تونس :	دار الكتب المشرقية :	هاتف :	٨٩٠٨٨٩
○ اليمن :	صنعاء : دار الآثار :	هاتف :	٦٠٣٢٥٦
○ البحرين :	مكتبة الغرباء :	هاتف :	٩٥٧٨٣٣
○ الإمارات :	الشارقة - مكتبة الصحابة :	هاتف :	٥٦٣٣٥٧٥
○ سوريا :	دمشق - دار الفكر :	هاتف :	٢٢١١١٦
○ قطر :	مكتبة ابن القيم :	هاتف :	٤٨٦٣٥٣٣
○ الأردن :	عمان - دار الفكر :	هاتف :	٤٦٥٤٧٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى والدّي اعترافا بفضلهما
- إلى أولادي : أحمد ومحمد وداليا
- إلى ذكرى أستاذي الدكتور عمر كمال توفيق


تمهيد



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد ٠٠٠٠٠

فأقدم الكتاب الثاني من سلسلة دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب عن :ـ " الفرسان إسبتارية القديس يوحنا ، ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي " وهو موضوع مهم يسد نقصا في المكتبة العربية ، ويقدم صورة واضحة عن منظمة عسكرية تشكلت لتلعب دورا بارزا لصالح الصليبيين في بلاد الشام علي مدي قرنين من الزمان ، وتشبعت هذه المنظمة بروح العداء والتعصب ضد المسلمين علي نحو كان يعرقل آية جهود من أجل توقيع هدنة أو صلح أو سلام بين الطرفين الصليبي والإسلامي .

وقد كان الفرسان الإسبتارية بمثابة المنفذين للسياسة البابوية في هذا العصر وما تتطلع إليه بالنسبة للسيطرة علي الأراضي المقدسة في الشرق ، بل والهيمنة الكاملة علي بلاد العالم الإسلامي هناك ، ولتحقيق ذلك امتلكوا القلاع والحصون والمراكز والإقطاعات في المواقع الاستراتيجية المهمة ، وكانت هذه الأماكن منتشرة في بلاد الشام علي هيئة مستعمرات أو مستوطنات تملك الدعامات الاقتصادية والعسكرية ، ويقيم فيها فرسان ومحاربون علي درجة كبيرة من الشراسة والقوة في التعامل مع المسلمين القاطنين في المناطق المجاورة ، أو المارين علي الطرق القريبة ، أو أثناء المواجهة المباشرة في ميادين القتال .

وساعدهم علي ذلك ما كان لديهم من إمكانات ضخمة عن طريق الهبات والتبرعات التي تكاد لا تنقطع من الغرب الأوربي لمساعدتهم علي الصمود في مواجهة المسلمين والاحتفاظ بما تحت أيديهم من مواقع مغتصبة .

وبالرغم من تفاقم خطر هؤلاء الفرسان وازدياد قوتهم ، فإن المسلمين تعاملوا معهم باستعدادات مناسبة ، واستطاعوا بقوة إيمانهم وشجاعتهم النابعة من حبهم للجهاد وحرصهم علي تحرير أراضيهم ، اقتحام القلاع الحصينة وإجلاء هؤلاء المعتدين الغاصبين مع بقية الصليبيين وتطهير البلاد من شرورهم بعد أن استقروا فيها حوالي قرنين من الزمان ، ولعل في ذلك بشارة إلي المجاهدين علي أرض فلسطين وفي بقاع العالم الإسلامي الواقعة تحت أي احتلال ، بأن تحرير الأرض سيتم بإذن الله مهما طالت فترة الاحتلال ، ومهما امتلك المغتصب من قوة ودعم طالما استمرت المقاومة ضده بحيث لا يستقر به مقام أو يهدأ له بال.

" ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله "

د . مصطفي محمد الحناوي

بريدة المحرم ١٤٢٤هـ / مارس ٢٠٠٣م

" مقـــدمة المــــــوضوع "

أولا ـــ أهمية موضوع الكتاب ومحاوره الرئيسية .

ثانيا ـــ عرض وتحليل لأهم المصـــادر.

أ ـ المصادر الخاصة بالاسبتارية .

ب ـ المصادر الصلـيـبـيــــة .

جـ ـ كتاب الحوليات الغــــربيون .

د ـ المصادر العـــربـيــــة .

هـ ـ المراجع الثانوية الأجنبية والعربية والمعربة .

حينما كانت الروح الصليبية قد أخذت في الانتشار بين أهل الغرب الأوربي ظهر إلي الوجود في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري تنظيمات كاثوليكية جديدة تنتمي إلي سلك الرهبنة من خلال اعتناقها للمبادئ الرهبانية التي سادت حينذاك ثم خضوعها في بداية تنظيمها لإشراف الرهبان . وقد نشأت هذه التنظيمات الكاثوليكية أساسا لخدمة الأغراض التي تنطوي عليها " الفكرة الصليبية " ذاتها خصوصا ما يتعلق منها بمحاربة المسلمين واغتصاب " الأراضي المقدسة " منهم . وبدأ عملهم في هذا الصدد بخدمة الحجاج الصليبيين وتوفير الرعاية لهم من تقديم للطعام والعلاج والمأوي إلي حراسة للطرق التي يتحركون عليها وهم يؤدون مناسك الحج ليتخذ هذا العمل بعد ذلك شكلا اكثر تنظيما بتقليد رداء الفروسية والانضمام إلي صفوف المحاربين ضد الإسلام أو من ينظرون إليهم علي أنهم أعداء لهم ولعقيدتهم .

ونظرا لأن أعضاء هذه التنظيمات جمعوا في نظمهم بين فكرتي الدين والحرب فقد عرفت مؤسساتهم هذه باسم " الجماعات الرهبانية المحاربة " ويرجع ظهورها إلي تلك الروح التي سادت في العصور الوسطي بصفة عامة حيث كانت العقيدة هي القوة المسيطرة علي تفكير الإنسان وكلامه وعمله . فمراسيم الفروسية كانت بمثابة حفلات دينية بدأ من خلال طقوسها إن سيف الفارس مكرس لخدمة " الرب " فحسب ، كما إن المسيحيين علي اختلاف طبقاتهم ومراتبهم كانوا يرون المثالية في حياة الراهب الذي أقلع كلية عن ماديات ذلك العالم الذي كانوا يعيشون فيه مكرسا نفسه لله ، ثم أخذ الرهبان ينتظمون في جماعات دينية لأداء واجباتهم في سبيل الوصول إلي هذه الغاية وقد سلكوا في هذا الصدد طرقا عديدة متباينة فمن هؤلاء الرهبان من لم يترك الأديرة واكتفي بأن كرس حياته للصلاة والتأمل بينما وصلت جماعات أخري منهم إلي حياة أكثر نشاطا من خلال القيام بأعمال التعليم والتنصير أو العناية بالمرضي ومساعدة الفقراء والعجزة من الحجاج الكاثوليك في مستشفيات ومنشآت جعلت خصيصا لخدمة أغراض من هذا القبيل .

وبنشوب ما اسماه دعاة الحركة الصليبية " الحرب المقدسة " ضد المسلمين اتجه أعضاء هذه الجماعات الرهبانية المقيمين بجوار الأماكن المقدسة إلي الدخول في صفوف المحاربين الصليبيين للدفاع عن الأراضي التي اغتصبها رجال الحملة الصليبية الأولي من المسلمين وأقاموا بها مملكة وإمارات صليبية خصوصا عندما أضحت المملكة الصليبية محدقة بالأخطار من كل جانب لعدم توقف المسلمين عن " الجهاد " من أجل إقصاء الدخيل الصليبي عن بلادهم بعد أن فاقوا من غفلتهم وانشغالهم بالمنازعات والفتن الداخلية ، والتي أتاحت للصليبيين فرصة تحقيق العديد من الانتصارات ثم الاستيلاء علي شريط من الأراضي الإسلامية يمتد من الشمال إلى الجنوب لم تستقر حدوده بسبب استمرار العمليات الحربية بين الجانبين الصليبي والإسلامي وعدم ثبات نتائجها لصالح طرف منهما دون الآخر .

وأهم الجماعات الرهبانية المحاربة التي كرست أهدافها من أجل خدمة " القضية الصليبية " في هذا الصراع الاسبتارية والداوية والتيوتون فقد لعبت هذه الجماعات الثلاث دورا عسكريا وسياسيا هاما سواء أكانوا منفردين في موقفهم وعلاقاتهم بالمسلمين في الشرق الأدنى أو من خلال انضمامهم إلى جانب الملوك والأمراء الصليبيين في هذا الصدد ، هذا فضلا عن ارتباطهم الوثيق بالبابوية بحيث غدوا المنفذين لسياستها العليا في الإمارات الصليبية بالشام . ويمكن القول انه بسبب تطور عمل الجماعات الرهبانية علي هذا النحو ابتداء من منتصف القرن الثاني عشر بدأ وجه الكنيسة اللاتينية في الشام بل أيضا وجه الحياة السياسية والاجتماعية في مرحلة تحول تدريجي .

وفرسان اسبتارية القديس يوحنا موضوع هذا الكتاب هم أقدم هذه الجماعات الرهبانية من حيث النشأة . وقد اختار الباحث هذه الجماعة ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي مجالا لبحثه لأسباب عدة : منها خلو المكتبة العربية من بحث قائم بذاته يتناول تاريخ الاسبتارية في الشام مع التركيز علي علاقاتهم بالمسلمين في هذه المنطقة ، كما أن ما كتبه المؤرخون الغربيون المحدثون في هذا الصدد لا يعبر ألا عن وجهة النظر الغربية فحسب ، فضلا عن غلبة طابع التعصب علي

كتابات معظمهم . أما القلة التي اتخذت موقف النقد لبعض المثالب المأخوذة علي الاسبتارية ، فانهم لم يستطيعوا التنصل من ميولهم الغربية ليقفوا موقف إنصاف في تحليل المواقف المتعلقة بالعلاقات مع المسلمين .

وفوق ذلك فأن المؤرخين الغربيين عالجوا في كتاباتهم تاريخ الاسبتارية في الشام من زوايا – وان اختلفت في العرض التاريخي – تكاد تكون متقاربة واتسمت جميعها باستعراض عام وسريع لتاريخ الحروب الصليبية والمشاكل الداخلية والخارجية التي واجهت الصليبيين في الشام علي مدي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بغية إيضاح دور الاسبتارية مع غيرهم من الجماعات الرهبانية في الأوضاع السياسية والحربية للصليبيين بصفة عامة ، وهو ما يصعب من خلاله تحديد حجم دور الجماعة موضوع البحث تحديدا اقرب إلى الدقة ، وبالتالي الوصول إلى أسلم النتائج المترتبة عليه .

وقد بذل الباحث ما بوسعه من جهد في سبيل تفادي هذه الأمور محاولا أن يتناول وجهتي النظر الإسلامية والغربية في حيدة وإنصاف بعيدين عن الميول والأهواء أيان كان نوعها . وفي حالة انفراد مصدر إسلامي دون آخر غربي أو مسيحي والعكس بذكر حادثة أو واقعة ما فقد حاول الباحث تمحيص ما أورده المصدر الواحد والتأكد من صحته من خلال وضعه في الإطار العام للأحداث التاريخية التي سادت منطقة الشام ، والتي تذخر بها المصادر العربية والغربية علي حد سواء ثم معرفة مدي مطابقتها من الناحية المنطقية للواقع التاريخي الذي لا خلاف علية . وكان ذلك ما احتذاه الباحث أيضا في تتبع دور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي في المواقف التي لم تحدد فيها بعض هذه المصادر – خصوصا العربية – العنصر الفرنجي الذي ينسب إليه القيام بها .

فان التعرف علي هذا الدور كان يتم من خلال البحث عن تفاصيل إضافية في المصادر الأخرى تسعف الباحث بمعلومات تؤكد أن الاسبتارية هم أصحاب هذا الدور ، أو من خلال الإشارات المكانية الواردة في سياق عرض الأحداث .

فمن المسلم به إن القلاع والمدن والقرى والاقطاعات الواقعة في حوزة الجماعة كما تؤكد ذلك وثائق الاسبتارية وعقود الملكية المدرجة في ارشيفاتها في حالة ورودها كموقع أو مسرح لحادثة تاريخية ، فإن الاسبتارية كانوا في مقدمة الصليبيين الذين تعنيهم الإشارة العامة إن لم يكن هذا الدور قاصرا عليهم دون غيرهم من العناصر الصليبية الأخرى .

ولجماعة الاسبتارية أهمية خاصة في تاريخ الحركة الصليبية إذ أن الاسبتاريين الأوائل المقيمين في الشام للعمل في المستشفيات ودار الضيافة من اجل خدمة الحجاج الكاثوليك ، عاصروا الأزمات السياسية الحرجة بالنسبة للمسلمين في الفترة السابقة علي مجيء الحملة الصليبية الأولى هذه الأزمات التي كانت سببا في نجاح رجال هذه الحملة واستيلائهم علي بعض الأراضي الإسلامية في منطقة استراتيجية من الشرق الأدنى . وبعيد عن المغالاة القول بأن هؤلاء الاسبتارية ساعدوا في الأعداد لهذا الأمر ومهدوا له من خلال اتصالاتهم بالغرب الأوربي عن طريق ضيوفهم من الحجاج الغربيين الذين كانوا يفدون عليهم في المستشفي ودار الضيافة ثم يعودون إلى ديارهم في الغرب يحملون معهم أخبار الشرق السيئة وقد وضعوها في صيغ تفيض بالتهويل والمبالغة ـ كما اتضح من كتابات المؤرخين الصليبيين ـ وذلك لاستثارة مشاعر كاثوليك الغرب كي يهبوا " لنجدة " إخوانهم المقيمين في الشرق . وتمخض عن ذلك وعن ظروف أخرى خروج أهل الغرب في حملات صليبية شعبية ومنظمة من اجل الاستيلاء علي الشرق الأدنى الإسلامي وإخضاعه للسيطرة اللاتينية . كما أن ما وفره رجال الاسبتارية للحجاج الغربيين من سبل الراحة والرعاية خفف عن هؤلاء الأخيرين عناء السفر ومصاعب الإقامة في " الأراضي المقدسة " مما شجع بالتالي حجاج بلاد الغرب الأوربي المختلفة علي القدوم إلى الشرق في أعداد ضخمة بل وإقامة العديدين منهم بجوار الأماكن

المقدسة في ظل سياسة التسامح التي احتذاها المسلمون في موقفهم من النصارى وأهل الذمة علي اختلاف طوائفهم . وتزايد أعداد الحجاج الغربيين علي هذا النحو كان مقدمة أفضت إلى مجيء الصليبين بعد ذلك إلى الشرق في هيئة جماعات مسلحة تدفعها الرغبة في تحقيق أهداف وأطماع متنوعة بعد أن اطلعوا علي أحوال الشام وما تذخر به بلاد الشرق من خيرات .

وفضلا عن ذلك فإن الاسبتارية مهدوا الطريق لنشأة جماعات أخرى من الرهبان المحاربين في الشام بغرض حراسة الحجاج الصليبيين علي الطريق إلى الأماكن المقدسة ثم الدخول في المعارك التي خاضها هؤلاء الصليبيين ضد المسلمين .

فبعد تأسيس المستشفي والجماعة التي قامت علي الخدمة فيها وتضخم أعداد الصليبيين في الشام اتجه مجموعة من الفرسان إلى العمل من اجل توفير الحماية لهم علي الطرق التي يخترقونها وانتهي الأمر بهم إلى أن وضع لهم تنظيم خاص في مجمع توروي بفرنسا عام ١١٢٨م . ونظرا لان الألمان فاقوا الأمم الصليبية الأخرى في القدوم إلى الأماكن المقدسة واعتادوا المجيء إلى بيت المقدس في أعداد ضخمة ضاق بهم الاسبتارية الذين يغلب عليهم الطابع الفرنسي ، ومن ثم لم يمدوهم إلا بالضئيل من المؤن ولوازم الإقامة حتى يستطيعوا الوفاء باحتياجات كل مضيفيهم مما دفع بأحد الألمان إلى تحويل منزله الخاص به وكذلك كنيسة العذراء إلي مستشفي صغير لتقديم ما يحتاجه رجال بلاده الذين حملوا السلاح إلى الأراضي المقدسة وقد أذن له بطريق بيت المقدس { الأسمى } بذلك بينما وضع لهم البابا كلستين الثالث Coelestinus III (١١٩١ــ ١١٩٨م) هم الآخرين نظاما وزيا مميزا (١) وهاتان الجماعتان إلى جانب الاسبتارية كانوا جميعا عنصرا حربيا هاما

---

(١) انظر بعده في الفصلين الأول والثاني وكذلك :

Fabri, Felix : The book of Wanderings, Vol. II Part I in P.P.T.S. Vol. IX PP. 320-321.

لعب دورا له فاعليته في الدفاع عن المملكة الصليبية نحو قرنين من الزمان وأيضا إتباع سياسة اتسمت في معظم جوانبها بتعميق روح العداء في نفوس الصليبيين ضد المسلمين وبالتالي إذكاء نار الحرب بين الجانبين علي نحو شبه مستمر ، مما دفع ببعض المؤرخين الغربيين المحدثين إلى القول بأنه إذا كان الصليبيون قد نجحوا في البقاء بالأراضي المقدسة خلال هاذين القرنين (١٢ ، ١٣) فان الفضل في ذلك يرجع إلى الفرسان الذين كانوا محاربين وفي نفس الوقت اسبتاريين(أي يقومون بواجبات الضيافة وعلاج المرضى) فقد كرسوا سيوفهم لحماية الصليبيين المقيمين في الشام وممتلكاتهم من الخطر الإسلامي المحدق بهم في الوقت الذي لم يرسل فيه ملوك الغرب المساعدات إلى صليبي الشام ألا عندما يصبح ذلك الخطر جسيما ، وعندما لا تستطيع جماعة الاسبتارية وغيرها من الجماعات الرهبانية الصمود أمام ضربات المسلمين التي تهدد الإمارات الصليبية بأسرها (١) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن دراسة تاريخ الاسبتارية ونشاطهم السياسي والحربي في الشام تكشف النقاب عن دور هام قامت به هذه الجماعة لصالح الصليبيين . وتمثل هذا الدور في الإسهام بالمال ، وبذل المساعي لدي الباباوات وملوك الغرب الأوربي ، وكذلك الاشتراك بالمحاربين من صفوفها من اجل تجهيز الحملات الصليبية في الغرب توطئة لترحيلها إلى الشرق .

وبفضل النفوذ والشهرة اللذين حظيت بهما الاسبتارية في مجال الحروب لما توفر لدي أعضائها من الإمكانات المادية والعسكرية ، فقد أصبحت عنصرا هاما له دوره في تقرير كثير من الأمور السياسية الخطيرة داخل المملكة الصليبية بل وتوجيه هذه السياسة في بعض الأحيان وفقا لما يراه مقدم الجماعة الذي كان رأيه مؤثرا ومسموعا في بعض مجالس الحرب والاجتماعات الهامة

---

(1) cf. Le Roulx, J.D. : Les Archives, La Bibliotheque et le Thesor de l' Ordre de St. Jean de Jerusalem a Malte, Paris 1883.P.3

مع استثناء واحد يتعلق بالحالات أو المواقف المتعارضة مع سياسة الجماعات الرهبانية الأخرى ـ خصوصا منافسيهم الداوية ـ ، رغم انه في مثل هذه الأحوال الأخيرة كثيرا ما انتصرت سياسة الاسبتارية بفضل حصافة مقدميها وقدرتهم وأعضاء الجماعة علي استمالة الملوك والأمراء الصليبيين إلى جانبهم ، فضلا عن حرصهم علي كسب تأييد البابوية بصفة شبه دائمة .

وفضلا عن ذلك ، فقد كانت الاسبتارية من اكثر العناصر الصليبية رغبة في التوسع علي حساب البلاد الإسلامية المجاورة أولا ثم علي حساب غيرهم من الملوك والأمراء أو البارونات الصليبيين كما يبدو من وثائق عقود الملكية التي حصلت الجماعة بمقتضاها علي العديد من الأراضي والاقطاعات بحيث لم يدخر أعضاء الجماعة جهدا في سبيل ذلك طالما سنحت لهم الفرصة للقيام بعمل يخدم هذا الغرض . ومن ثم فان الاسبتارية إلى جانب رغبتهم في الحفاظ علي سمعتهم لدي الأوساط الصليبية المختلفة بما يضمن للجماعة كرم عطايا الصليبيين وامتيازاتهم ، فقد حرصوا أيضا علي الدخول في حروب شبه خاصة مع جيرانهم المسلمين بغرض الاستيلاء علي مدينة أو موقع قريب وإدخاله في دائرة أملاكهم الخاصة ، أو بغرض الحصول علي قسط وافر من غنائم الحرب يضاعف من إيراداتهم المادية .

ولم يقتصر دور الاسبتارية في هذا الصدد علي الحرب ، بل انهم في فترات مختلفة ـ خصوصا تلك التي ضعفت فيها إمكانات الصليبيين بصفة عامة ، واخذ الحماس الصليبي في الاضمحلال لدي ملوك الغرب وأمرائه ـ ارتبطوا مع المسلمين بمعاهدات سلام ، وكان لهم مطلق الحرية والتصرف لإبرامها ، بينما كان علي الأمراء الصليبيين الرجوع إلى أعضاء الجماعة لأخذ موافقتهم علي إجراء من هذا القبيل مثلما كان الحال بالنسبة لإمارة إنطاكية وكونتيه طرابلس .

وخلاصة القول هو إن تاريخ الاسبتارية في الشام ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي يمثل مظهرا من مظاهر الصراع بين الشرق والغرب في العصور الوسطي ، كما إن هذا التاريخ يلقي مزيدا من الضوء علي طبيعة العلاقات المختلفة بين الطرفين ، وكذلك مدي التأثير والتأثر من

حيث النظام الذي يجمع بين هذه الجماعة وتنظيمات إسلامية سابقة عليها أو معاصرة لها ــ علي النحو الذي سنبينه في الفصل الأول ــ هذا إلى جانب ما يمكن أن تضيفه هذه الدراسة من كشف لحقيقة النوايا الصليبية إزاء الشرق الأدنى الإسلامي خصوصا وان الروح الصليبية بما تنطوي عليه من أطماع ورغبة في تحقيق المكاسب ظلت ملازمة لجماعة الاسبتارية حتى رحيلهم من الساحل الشامي إلى جزيرة قبرص في أخريات القرن الثالث عشر .

ويقع الكتاب في خمسة فصول ومقدمة وخاتمة ، كما ذيل بعدد من الملاحق والخرائط والصور لإيضاح نقاط وردت في ثناياه .

وقد تناول الفصل الأول " نشأة الاسبتارية ونظمهم الرئيسية " بادئا بالظروف السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي والتي نشأت في ظلها الجماعة ، واستعراض سريع للأعمال السابقة الخاصة بضيافة الحجاج المسيحيين الغربيين ، وتوفير الإيواء وسبل الراحة لهم لأنها كانت الأعمال التي تطورت عنها بالفعل الاسبتارية كجماعة معترف بها رسميا ، كما تناول هذا الفصل سقوط بيت المقدس والأماكن المقدسة في أيدي الصليبيين حيث كان ذلك عاملا رئيسيا هيأ للاسبتاريين الأوائل المناخ لان يتطوروا في القيام بواجباتهم وتنظيم صفوفهم علي نحو سريع . وتعرض الباحث بعد ذلك لمسألة لم تحدد تحديدا قاطعا بين المؤرخين المعاصرين بصفة خاصة وهي مسألة " القديس الراعي لجماعة الاسبتارية " وفضلا عن ذلك تناول هذا الفصل القواعد الرئيسية في نظام الاسبتارية كي تعطي صورة عن الحياة الاجتماعية والحربية والإدارية السائدة في ظل هذا النظام .

وتناول الفصل الثاني " النشاط الحربي للاسبتارية منذ بدايته الأولى حتى وفاة الملك عموري الأول " (١١١٩ــ ١١٧٤م / ٥١٣ــ ٥٧٠هـ) وفاتحة هذا الفصل مقدمة عن تحول الجماعة إلى الجانب الحربي وأسبابه ، ويلي هذه المقدمة تتبع لمقدمات النشاط الحربي للجماعة في العقدين الثاني والثالث من القرن الثاني عشر ، وحراسة الاسبتارية لبعض القلاع الصليبية الكبرى وتطورها السريع في هذا المجال .

ثم دور الجماعة في الحرب الصليبية الثانية ومشاركتها الجيوش الصليبية في التصدي لهجمات نور الدين محمود بن زنكي ، وأيضا الاستيلاء علي بعض البلاد والمدن الإسلامية ـ أما بقية هذا الفصل فقد كانت ـ معالجة لدور الاسبتارية في حملات الملك الصليبي عموري الأول ضد مصر وهو الموقف الذي يدل علي إن الجماعة أخذت طريقها إلى الذروة في مجال العمل الحربي خلال فترة قصيرة بحيث أصبحت قوتها هي الدعامة الرئيسية للملك الصليبي في مشروع علي درجة كبيرة من الخطورة والأهمية .

وبالنسبة للفصل الثالث من الرسالة فقد اختص " بدور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي من عهد بلدوين الرابع حتى وفاة هنري دي شامباني (١١٧٤ـ ١١٩٧م /٥٧٠ـ ٥٩٤هـ) ـ وتناول هذا الفصل موقف الجماعة من الأزمات التي حاقت بالصليبيين نتيجة للعمليات الحربية الناجحة التي قام بها صلاح الدين الأيوبي ، ودور أعضاء الاسبتارية في الحملة الصليبية الثالثة التي كانت بمثابة رد الفعل من جانب الغربي الأوربي إزاء هذه الأزمات ، ثم متابعة موقف الجماعة من العلاقات الصليبية الإسلامية عقب صلح الرملة حتى أخريات القرن الثاني عشر .

أما الفصل الرابع فيتناول " موقف الاسبتارية من الأحداث في الإمارات الصليبية في الشرق من عهد عموري لوزينان حتى استرداد المسلمين لعسقلان " (١١٩٨ـ ١٢٤٧م / ٥٩٥ـ ٦٤٥هـ)

وقد بدأ الفصل باستعراض هذا الموقف حتى مجيء الحملة الهنغارية عام ١٢١٧م / ٦١٤هـ ثم وقوف الاسبتارية إلى جانب اندرو الثاني ملك هنغاريا وصليبي الشام في جهودهم الحربية ضد المسلمين إلى أن تم الإعداد للحملة الصليبية الخامسة حيث جهزت الجماعة قوة من فرسانها ومحاربيها أسهموا بدور له أهمية في أحداث هذه الحملة بصفة عامة . ويلي ذلك مساعي الاسبتارية لدي الغرب الأوربي من اجل تقديم العون لصليبي الشام لمحو آثار حروب صلاح الدين وموقف الجماعة من الإمبراطور فريدريك الثاني أثناء وجوده في الشام . وفضلا عن ذلك عالج هذا الفصل

الأحداث البارزة فـــي حملتي ثيبو الثالث كونت شامباني وملك نافار ، والإمـــبراطور الإنجليزي ريتشارد أف كورنوول لإيضاح دور الاسبتارية فـــي هـــذه الأحداث ، والسياسة التـــي احتذوها في معالجة المواقف التي واجهت هاذين القائدين . هذا إلى جانب موقفهم من بعض الأوضاع السياسية أو المشاكل الداخلية في المملكة الصليبية وذلك حتى سقوط عسقلان في أيدي المسلمين عام ١٢٤٧م / ٦٤٥هـ .

وآخر فصول الرسالة " الفصل الخامس " ويبين " موقف الاسبتارية من العلاقات مع المسلمين منذ مجيء الحملة الصليبية السابعة حتى استرداد عكا(١٢٤٨ـ ١٢٩١م / ٦٤٦ـ ٦٩٠هـ) ويتضح هذا الموقف من دور الجماعة في أحداث حملة لويس التاسع ملك فرنسا المعروفة بالحملة الصليبية السابعة ، وجهود أعضائها في الغرب الأوربي من اجل بذل المساعدات لصليبي الشام وكذلك الحروب التي خاضوها ضد المسلمين في منطقة الشرق الأدنى .

ويلي ذلك دور الجماعة في الأوضاع التي سادت الإمارات الصليبية بعد رحيل القديس لويس حيث غرقت المملكة الصليبية في أتون الفوضى بسبب الحروب الأهلية التي اشتد اوراها بين الجموع الصليبية المختلفة في الوقت الذي تحول فيه الموقف لصالح المسلمين بظهور قوة المماليك ثم نجاحهم في التصدي للخطر المغولي وإبعاده عن بلاد الشام ، والتفرغ بعد ذلك لجهاد الصليبيين واسترداد ما بقي في أيديهم من الأراضي والبلاد الإسلامية حيث فقد الاسبتارية هم الآخرون معاقلهم وأملاكهم ورحلوا عن الشام إلى أقرب موقع متاح لهم وهو جزيرة قبرص .

ويقتضي العرض العلمي لموضوع البحث أن نتقدم في هذا المقام بدراسة تحليلية للمصادر الرئيسة عن تاريخ الاسبتارية . وفي هذا الصدد لوحظ أن بعض الباحثين ممن لم يستطيعوا الحصول علي وثائق الجماعة ، اعتقدوا إن ارشيفاتها قد تعرضت للضياع بسبب عدم الاستقرار الذي واكب رحيل الاسبتارية كغيرهم عن بلاد الشام ، ثم انتقالهم بعد ذلك من قبرص إلي رودس ، وأخيرا

مالطة (١) والثابت مما لدي الباحث من ادله هو أن مكتبة أرشيف جماعة القديس يوحنا الاسبتارية لازالت موجودة إلى الآن في مالطة دون أن يصيبها أي تخريب أو ضياع ، كما إن هناك نسخا منقولة عنها في المقر الرئيسي الحالي للجماعة في مدينة روما وفي قسم الأرشيف بمكتبة الفاتيكان .

وفضلا عن ذلك فقد نشر عن أرشيف الاسبتارية التاريخي قوائم (كتالوجات) باللغات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية لما يحتويه من وثائق ، وبعض هذه القوائم مرتب ترتيبا موضوعيا لتسهيل مهمة أي باحث في الرجوع إليها . ونظرة إلى الوثائق والارشيفات المنشورة تدل علي أن الفرسان الاسبتارية أولوا عملية الاحتفاظ بها عناية فائقة من القرن الثاني عشر حتى الوقت الحاضر وانهم خلال انتقالاتهم من الشام إلى قبرص ثم إلى رودس ومالطة حيث لم يستقر بهم المقام كان أرشيف الجماعة ينقل معها تنفيذا – فيما يبدو – لتلك الإشارات المسجلة علي ظهر بعض الوثائق خصوصا ما يرجع منها إلى الفترة المبكرة من تاريخ الاسبتارية وتؤكد ضرورة الحفاظ عليها بحرص وحذر حتى لا تتعرض للضياع (٢) . ولم يكن للأحداث المختلفة التي لا يمكن تفاديها في رحلات متعددة من هذا القبيل التأثير الذي من الممكن توقعه من قبل من لم يتوصلوا إلى ذخائر هذا الأرشيف وهو الضياع أو التخريب .

علي إيه حال فانه نتيجة للحرص الشديد علي حفظ الوثائق الخاصة بالاسبتارية فقد اصبح متوفرا في مكتبات أرشيف مالطة وروما التابعة للجماعة وكذلك في المكتبات البابوية مجموعة شبه كاملة من عقود العطايا والهبات التي منحت للاسبتارية وأعمال البيع والشراء والمبادلة بالنسبة للعديد من الاقطاعات خلال الفترة التي أقامتها الجماعة في الشام .

---

(١) انظر : نبيلة إبراهيم مقامي : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، رسالة ماجستير – جامعة القاهرة – ١٩٧٥ ص ١– ٤ .

(2) cf. Saggio di una Bibliografia di Malta e del S.M. Ordine di San Giovanni di Gerusalemme in Archivio Storico di Malta, Anno IX, Fasc. IV Roma, Ottobre 1983, Also : Les Archives : op. cit. P. 6 .

وكذلك الحال بالنسبة لمراسيم البابوية التي صدرت لصالح الاسبتارية وهذه نظمت في وثائق الأرشيف حسب الترتيب الأبجدي لأسماء الباباوات ، أما المراسيم الصادرة من مقدمي الجماعة والقرارات التي اتخذت في مجالس الاسبتارية العامة فقد بقيت هي الأخرى دون ضياع أجزاء منها .

والملاحظ هو أن الجماعة أولت الاحتفاظ بعقود تمليك الهبات والمنح والمبايعات وكذلك الامتيازات المخولة لها في " الأراضي المقدسة " أهمية خاصة وذلك منذ عام ١٢٩٠م ومرجع ذلك هو تطلع الاسبتارية بعد رحيلهم من الشام إلى عودة الصليبيين يوما ما إلى هذه المنطقة ، ومن ثم يتيسر للجماعة المطالبة بالممتلكات التي كانت في الماضي تخص أعضائها في الإمارات اللاتينية وهذا الجزء من الأرشيف اسماه بعض الباحثين الغربيين المتخصصين بـ " ثروات الأرض المقدسة ويريورية بيت المقدس " (١) .

— وهذه الوثائق الخاصة بالهبات والمبايعات وقرارات المجالس العامة للجماعة والامتيازات ومراسيم الباباوات والقديسين احتوتها جميعها تقريبا مجموعة " المواثيق العامة لجماعة اسبتارية القديس يوحنا ببيت المقدس " (٢) والتي قام المؤرخ ديلافيل لي رو بنشرها بلغتها الأصلية اللاتينية مع مختصر لكل وثيقة باللغة الفرنسية وذلك فيما بين عامي ١٨٩٤ ، ١٩٠٦ .

وهذه المجموعة عبارة عن أربعة أجزاء كبيرة (أبعاد كل جزء ٤١ X ٢٧ x ١٠ سم) ويهم موضوع البحث الأجزاء الثلاثة الأولى وتضم اكثر من أربعة آلاف وخمسمائة وثيقة (ينتهي الجزء الثالث بالوثيقة رقم ٤٥٢٥ الصادرة بتاريخ ٢٨ ديسمبر عام ١٣٠٠م) ويتضح من ثنايا الكتاب إن هذه المجموعة من الوثائق أفادت الباحث كثيرا في معالجة موضوعات البحث المختلفة . ففيما يتعلق بنظم الاسبتارية أعطت قرارات المجالس العامة صورة كاملة عن الحكومة والإدارة الداخلية والحياة

(1) cf. Le Roulx (J.D.) Inventaire de Pieces de Terre Sainte de l' Ordre des Hospitaliers in R.O.L. Tomo III P.36 .

(2) Le Roulx (J.D.) ed : Cartulaire General de l' Ordre des Hospitaliers S. Jean de Gerusalemme, 4 Vols. Paris 1894 – 1906.

الدينية والاجتماعية لأعضاء الاسبتارية وتنظيم العلاقات بين هؤلاء الأعضاء في المراكز المختلفة التابعة للجماعة ، ومثال ذلك القرارات التي أصدرها المجلس العام للجماعة في عهد المقدم الفونس البرتغالي Alphonse de Portugal (١٢٠٣ـ ١٢٠٦م) (١) ، والمـــقدم هيو ريفل Hugh Revel (١٢٥٨ــ ١٢٧٧) (٢) ، والمقـــدم نـيقولا لـورجن Nicolas Lorgne (١٢٧٧ــ ١٢٨٥م) (٣) ، فهذه القرارات جميعها كانت بمثابة قواعد أو قوانين تنظم سير العمل داخل صفوف الجماعة والمعاملات المالية ، وتحديد المخصصات اللازمة لكل جانب من جوانب الواجبات الملقاة علي عاتق أعضاء الإسبتارية ومنها الحرب ضد المسلمين .

ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل إن قرارات لأحد المجالس العامة فيما بين عامي ١١٧٧م / ١١٨١م ، اختصت بوضع القواعد التي تخضع لها كنيسة الاسبتارية وتسير بمقتضاها الحياة الدينية للجماعة (٤) بينما شملت مراسيم مقدمي الجماعة علي آثار الإدارة المدنيه حيث التعيينات في الوظائف التي لها طابع الأشراف علي اقطاعات الجماعة والمراكز التابعة لها ، والأوامر الصادرة إلى الفرسان ، ومراسيم الاستقبال بأنواعها سواء المتعلقة بأعضاء جدد في الجماعة أو ترسيم في وظيفة من الوظائف وفي مقدمة هذه المراسيم مرسوما أصدره المقدم ريموند دي بوي Raymond du Puy (١١٢٠ـ ١١٦٠م) فـــي الفترة ما بين (١١٢٥ـ ١١٥٣م) ، واحتواه النظام الأساسي

(1) cf, Cartulaire Tome II no 1193 PP. 31-40 (A.D.) 1204 – 1226 .
(2) cf, Ibid Tome III no 3039 pp. 43 – 54 (A.D. 1262)
no 3075 pp. 75 – 77 (A.D. 1263)
no 3180 pp. 118 – 121 (A.D. 1265)
no 3317 pp. 186 – 188 (A.D. 1262)
no 3396 pp. 225 – 229 (A.D. 1262)
(3) cf. Cartulaire Tome III no 3670 pp. 368 – 370 (A.D. 1278)
no 3844 pp. 450 – 455 (A.D. 1283)

(4) cf. Cartulaire Tome I no 504 pp . 345 – 347

للجماعة (١) هذا فضلا عن مراسيم أخرى صدرت في عهود تالية تتعلق بالأحكام والعادات التي يعيش في ظلها أعضاء الاسبتارية علي اختلاف وظائفهم (٢) .

وبالنسبة للمنح والهبات والامتيازات التي حصلت عليها الجماعة وكانت عاملا رئيسيا ساعد علي توسعها إقليميا في الشرق والغرب علي حد سواء وأيضا ازدياد نفوذها الحربي والسياسي وعلو مكانتها في نظر زعماء الحركة الصليبية بل والعالم الكاثوليكي الغربي بأسره .

ويمكن القول : إن معظم الوثائق التي احتوتها " مجموعة المواثيق العامة للاسبتارية " حسب ترتيبها الزمني لا تخلو في عام واحد من سلسلة من المنح والعطايا والمبايعات من الملوك والأمراء وغيرهم . وفي هذا الصدد نجد إن الوثيقة رقم " ١" في هذه المجموعة عبارة عن منحة بعدد من الاقطاعات منحها جودفري دي بوايون Godefrey de Bouilloin حامي الضريح المقدس (١٠٩٩ـ ١١٠٠م) إلى الاسبتارية تقديرا منه لدورهم في خدمة الحجاج الصليبيين بالأراضي المقدسة (٣) وتلا ذلك سيل من المنح والهبات يكاد لا ينقطع من قبل الصليبيين في الشرق والغرب علي حد سواء . وكان الملوك والأمراء والكونتات إلى جانب ما يقدمونه للجماعة من الاقطاعات يقرون أيضا ما منحه أو باعه اتباعهم إلى الاسبتارية في نطاق المملكة أو الأمارة أو الكونتيسة مثلما فعل بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ـ ١١١٨) في سنوات ١١١٠م (٤) ١١١٢م (٥) .

(1) cf. Ibid no 70 pp. 62 - 68
(2) cf. Cartulaire Tome I no 627 pp. 425 – 429
Tome II no 2213 pp. 536 - 561
no 2666 p. 752
(3) Catulaie Tome I no I p. I

(4) Cf. Ibid Tome I no 20 pp 21 – 22
(5) Ibid no 28 pp 27 – 28

وروجر دي سالرنو أمير إنطاكية (١١١٢ــ ١١١٩م) في عام ١١١٨م (١) وبونز Pons كونت طرابلس (١١١٣ــ ١١٣٧م) في عام ١١٢٦م (٢) وجوتييه جرانيير Gautier Granier سيد قيسارية وصيدا في عامي ١١٣١م (٣) ، ١١٣٦٥م (٤) .

وتنم هذه الوثائق الخاصة بالمنح عن ردود الفعل لدي الصليبيين إزاء قيام الجماعة بأداء واجباتها لصالحهم ، وأيضا وحدة الرغبة بين هؤلاء الصليبيين وبين أعضاء الاسبتارية في تدعيم موقف هؤلاء الأخيرين وإمكاناتهم حتى يتسنى للجماعة مواصلة دورها علي الوجه الأكمل .

أما الامتيازات فقد بدأ بطارقة وأساقفة الشام الصليبيين في الإنعام بها علي الجماعة حتى حوالي نهاية النصف الأول من القرن الثاني عشر ، إلا إن هذه الامتيازات لم تلبث أن أضحت وبالا علي هؤلاء الأساقفة أسفرت نتائجها في النهاية عن النزاع الشهير بين الاسبتارية وبطريك بيت المقدس عام ١١٥٥م ــ ففي عام ١١١٢م اعفي أرنول دي روي Arnoul de Roeux بطريك بيت المقدس الجماعة من دفع ضريبة العشر المقررة للكنيسة في بطريركيتة (٥) كما أعفاهم من هذه الضريبة أيضا افريمر Evremer رئيس أساقفة قيسارية في نفس العام (٦) وبرنارد Bernard أسقف الناصرة في عام ١١٢٥م (٧) ثم روبرت رئيس أساقفتها في عام ١١٥٠م (٨) وتوّجت البابوية هذه الإعفاءات بامتيازات ومراسيم بابوية أعطت الاسبتارية وضعا يفــوق وضع

(1) Ibid no 45 p 38
(2) Ibid no 79 pp 76 - 78
(3) Ibid no 94 pp 83 - 84
(4) Ibid no 118 p. 99
(5) Ibid I no 25 pp. 25 – 26
(6) Cartulaire Tome I no 29 pp. 28- 29
(7) Ibid no 71 p. 68.
(8) Ibid no 196 pp. 151 - 152

كبار رجال الدين ويجعل منها دولة داخل دولة لا تدين لاحد بسلطان إلا البابا مباشرة . فالبابا باسك الثاني Pascal II في عام ١١١٣م وضع الجماعة تحت حماية الكرسي البابوي (١) .

كما اقر البابا انوسنت الثاني Innocent II (١١٣٠ـ ١١٤٣م) في يونيو ١١٣٥ الامتيازات التي أسبغت علي الجماعة من قبل البابوات السابقين ومنع السلطات الأسقفية من وضع كنائس الاسبتارية تحت الحرمان (٢) وزاد علي ذلك البابا انستاس الرابع Anastase IV (١١٥٣ـ ١١٥٤م) بان أعطي في عام ١١٥٤م أعضاء الاسبتارية وضعا مميزا علي حساب الأساقفة بل وعلي حساب الجماعات الدينية الأخرى (٣) وتبع ذلك مراسيم بابوية عديدة أصدرها البابوات التاليين جميعها تأمر الأساقفة باحترام أشخاص واقطاعات الاسبتارية وعدم المساس بامتيازاتهم (٤) ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن البابوات كانوا يبذلون مساعيهم لدي الملوك والأمراء الكاثوليك ورعاياهم من اجل مساعدة الاسبتارية لنجدة الأراضي المقدسة وكانوا في خطاباتهم يوضحون الموضع في الإمارات الصليبية وموقف الاسبتارية ازاؤه (٥) فضلا عن إرسال بعض البابوات المساعدات المالية والحربية إلى الجماعة من وقت لأخر (٦) والتدخل لحمايتها ضد أعدائها من الأمراء العلمانيين والأساقفة مثلما حدث عندما اصدر البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ـ ١٢٤١م) قرار الحرمان ضد بوهيند الرابع الانطاكي كونت طرابلس

---

(1) Ibid no 30 pp. 29 - 30 .
(2) Ibid no 113 pp. 95 - 96
no 122 pp. 101 – 102
(3) Ibid no 226 pp. 173 - 175
(4) Ibid no 274 p. 216, no 290 pp. 212 - 213
no 590 pp. 401 - 402
(5) Ibid Tome II no 1218 pp. 49 - 50
no 1247 p. 63
no 1409 p. 155
(6) Cartulaire Tome II no 1328 p. 107

(١١٨٧ـ ١٢٣٣م) عام ١٢٣٠م بسبب اعتدائه علي بعض أملاك الاسبتارية (١) فهذه الوثائق وغيرها أمدت الباحث بمادة تاريخية لها قيمتها بالنسبة لدور الاسبتارية وموقفهم من أوضاع اللاتين في الشرق والغرب علي حد سواء ، وأيضا بالنسبة لجهود قادة الحركة الصليبية وعلي رأسهم البابا هذه الجهود التي كان لها آثرها في كثير من الأحيان في تعزيز موقف الجماعة والصليبيين بصفة عامة في بلاد الشام ، إلى جانب ما أكدته للاسبتارية من نفوذ وسطوة علي حساب العناصر الصليبية الأخرى .

وقد احتوت " مجموعة المواثيق " كذلك عددا من الاتفاقيات وقرارات التحكيم التي تعطي صورة عن النشاط السياسي والاقتصادي للاسبتارية وعلاقاتهم بالجماعات الصليبية الأخرى داخل الإمارات اللاتينية في الشام ومن هذا القبيل اتفاقية وقعت في الثالث من أكتوبر عام ١٢٣٣م بين الاسبتارية والداوية من جانب ومواطني مرسيليا من جانب آخر خول للجماعتين حرية الملاحة في ميناء مرسيليا بواقع سفينتين لكل جماعة في العام ، رحلة إحداهما في شهر مارس والأخرى في شهر أغسطس (٢) واتفاقية أخرى في الخامس والعشرين من يوليو عام ١٢٣٥م طرفاها مقدم الاسبتارية (جورين) ومقدم الداوية (ارماند دي بيريجورد) وتحدد بنودها حقوق استغلال المياه و الطواحين الواقعة علي أحد الأنهار القريبة من عكا بالنسبة للجماعتين (٣) وكذلك الاتفاق الذي وقع بين بوهيمند السادس أمير إنطاكية وكونت طرابلس (١٢٥١ـ ١٢٦٧) وهيوريفل مقدم الاسبتارية

---

(1) Ibid Tome II nos 1573 – 1574 pp. 223 – 224.
no 1955 p. 404.
(2) Ibid no 2067 pp. 462 – 464.
(3) Ibid no 2117 pp. 486 – 487.

في أول مايو عام ١٢٦٢م بشأن جميع نقاط الخلاف التي كانت بينهما (١) وأمثلة قرارات التحكيم عديدة منها ذلك التحكيم الذي أصدره بارتلميو Berthelemy أسقف بلنياس في العشرين من سبتمبر عام ١٢٣٦م بين الاسبتارية وبروهيمند الخامس أمير إنطاكية وكونت طرابلس بخصوص النزاع بين الطرفين علي أحد القلاع (٢) وتحكيم البرت Albort بطريرك إنطاكية والمندوب البابوي في السابع من يونيو عام ١٢٤١م بين كل من مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية في الخلافات التي كانت قائمة بينهما علي الأراضي والاقطاعات التابعة للجماعتين في كونتيه طرابلس (٣) ويدل تعدد قرارات التحكيم حول مشكلة واحدة إن الطرفان كانا لا يلتزمان بتلك القرارات وأنها لم تكن إلا إجراء يتوقف علي أثرة النزاع قليلا ثم لا يلبث الخلاف أن يتفاقم لأكثر من مرة ذلك باستثناء بعض الحالات التي كان لقرارات التحكيم فيها أثرها في إقرار الخلاف بصفة نهائية (٤) .

وفضلا عن إن وثائق الاسبتارية احتوت معلومات كتبت بأقلام معاصرة عن الأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت سائدة لدي كل من الصليبيين والمسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي ، فقد اشتملت أيضا مجموعة من الخطابات الهامة المتبادلة بين رجال الاسبتارية أو كبار صليبي الشام من جانب ورؤساء المراكز التابعة للجماعة أو زعماء الحركة الصليبية في الغرب الأوربي من جانب آخر . وتتمثل أهمية هذه المراسلات بالنسبة لموضوع البحث إنها كثيرا ما تناولت أحداثا رئيسية أو خطيرة تتعلق بمسألة الصراع الصليبي الإسلامي وتحدد في نفس الوقت الدور الحقيقي للاسبتارية في هذه الأحداث إلى جانب إنها كشفت النقاب عن دور

(1) Cartulaire Tome III no 3020 pp. 27 – 28.
(2) Ibid Tome II no 2150 p. 306.
(3) Ibid no 2276 p. 592.
(4) Ibid no 2296 pp. 602 – 603.
Tome III nos 3027 – 3039 pp. 30 – 35.

لعبته الجماعة بعيدا عن ميدان القتال ضد المسلمين وهو المساعدة في تجهيز الحملات والمساعدات الحربية المزمع إرسالها من الغرب الأوربي إلى بلاد الشام ، وأيضا الاتصالات شبة المستمرة بأوربا الكاثوليكية لحث رجالها علي إرسال " النجدات " لإخوانهم المقيمين في الشرق .

وأهـــــم هذه المراسلات :

- خطاب من عموري بطريرك إنطاكية إلى لويس السابع ملك فرنسا في عام ١١٦٤م / ٥٦٠هـ يعلن فيه هزيمة الصليبيين علـــي يد المسلمين أمام إنطاكية وطلب منـــه إرسال " النجدات إليهم ، ثـم يقص عليــه أحداث حصار حارم (معارك العاشر والحادي عشر من أغسطس ١١٦٤م/ سلخ رمضان ، غرة شوال ٥٦٠هـ) ، ومهاجمة قوات مصر الصليبيين (١) .
- خطاب لعموري دي نسل Amaury de Nesle بطريرك بيت المقدس إلى الأساقفة المسيحيين في الغرب الأوربي في عام ١١٦٩م / ٥٦٤هـ يشرح فيه " المصائب " التي حلت بالصليبيين في " الأراضي المقدسة " بسبب هجمات قوات نور الدين محمود بن زنكي ، ويوصي إخوانه بجيلبرت الاسيلي Gilbert d ` Assaily مقدم الاسبتارية الذي رحل إلى الغرب كي يلتمس المساعدات من أوربا (٢) .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I no 330 p. 233.
(2) Ibid no 404 pp. 279 – 280.

- خطاب من البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ـ ١١٨١) صدر في اللاتيران في الفترة ما بين عامي ١١٧٨ـ ١١٨٠م / ٥٧٤ـ ٥٧٦هـ يوصي فيه مقدم الاسبتارية بالمواظبة علي مساعدة الفقراء المسيحيين اقتداء بنظام ريموند دي بوي الذي يجمع بين أعمال الضيافة والحرب بحيث لا يؤثر انغماس أعضاء الجماعة في الجانب العسكري علي هذا الجانب (رعاية الفقراء) أو إهماله (١) .
- خطاب من بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (١١٧٣ـ ١١٨٥) في عام ١١٨٤م / ٥٨٠هـ إلى هرقل بطريرك بيت المقدس والي مقدمي الاسبتارية والداوية يطلب منهم الذهاب إلى الغرب لتقديم تقرير عن تقدم صلاح الدين الأيوبي في " الأراضي المقدسة " خلال هذه السنة وذلك حتى يتسنى إرسال المساعدات العاجلة من اجل التصدي له (٢) .
- خطاب من البابا لوكيوس الثالث Lucius III (١١٨١ـ ١١٨٥م) في أبريل عام ١١٨٥م / محرم ٥٨١هـ إلى هنري الثاني ملك إنجلترا (١١٥٤ـ ١١٨٩م) يعلن فيه إن روجر دي مولين مقدم الاسبتارية وهرقل بطريرك بيت المقدس مبعوثين إليه لطلب النجدة للأراضي المقدسة (٣)
- خطاب من اسبتارية الشام في أغسطس ١١٨٧م / جماد ثان ٥٨٣هـ إلى ارشامبالت Archambault رئيس الاسبتارية في إيطاليا معلنين إليه الوقائع التي حدثت علي غير انتظار في " الأراضي المقدسة " مثل : استيلاء صلاح الدين علي طبرية ، الهزيمة عند قرون حطين (معارك ٣،٤ يوليو / ٢٤،٢٥ ربيع ثان) اسر ملك بيت المقدس وعدد كبير من الأمراء الصليبيين ، سقوط الناصرة وجبل الطور وعكا وحيفا وقيسارية ويافا ونابلس ورام الله (٤) .

---

(1) Ibid no 527 pp. 360 – 361.
(2) Ibid no 662 pp. 444 – 445.
(3) Cartulaire Tome I no 722 pp. 470 – 471.
(4) Ibid no 832 pp. 518 – 519.

- خطاب من عموري بطريرك إنطاكية في سبتمبر ١١٨٧م (رجب ٥٨٣هـ) إلي هنري الثاني ملك إنجلترا يعلن فيه هزيمة الصليبيين علي يد صلاح الدين في الرابع من يوليو ١١٨٧م (٢٥ ربيع ثان ٥٨٣هـ) واسر ملك بيت المقدس " وذبح " الأساقفة والداوية والاسبتارية وأعداد ضخمة من الصليبيين . ويقص علية تفاصيل حصار بيت المقدس ثم يلتمس منه إرسال " النجدات " العاجلة من الغرب (١) .
- خطاب من كونراد ماركيز مونتفرات إلى رئيس أساقفة كانتربيري في العشرين من سبتمبر ١١٨٨م (٢٥ رجب ٥٨٤هـ) يعلن فيه الدفاع " المستميت " للصليبيين عن مدينه صور ضد عمليات المسلمين الحربية ثم يثني علي الإمدادات التي قدمها الاسبتارية في سبيل الدفاع عن المدينة (٢) .
- خطاب من ارماند دي ابس Armengand d`Aps مقدم الاسبتارية في نوفمبر ١١٨٨م (شوال ٥٨٤هـ) إلي ليوبرلد Leopold دوق النمسا Autriche يشرح فيه ما فعله صلاح الدين بالمدن الصليبية حيث خرب انطرطوس ما عدا برج الداوية ، " واستولي " علي بلنياس وجبلة واللاذقية وصهيون ودرساك وبغراس . بينما قاومه حصني المرقب والأكراد وإنطاكية واستمرار المقاومة في حصن كوكب الهوي التابع للجماعة (٣) .

(1) Ibid no 833 p. 519.
(2) Ibid no 858 pp. 531 – 532.
(3) Cartulaire Tome I no 863 p. 549.

- خطاب من جيوفري دي دونجون Geofrey de Donjn مقدم الاسبتارية في عام ١٢٠١م (٥٩٨هـ) إلى بريور Prior الجماعة الأعظم في إنجلترا يعلن فيه غرق أسقف عكا وجماعة من الاسبتارية أمام جبلة ، ويطلعه في تقرير مفصل علي أحوال " الأراضي المقدسة " والأوضاع لدي المسلمين ثم يأمره ببذل المساعي لدي ملك إنجلترا من اجل إرسال المساعدات إليهم (١) .

- خطاب من البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ـ ١٢١٦) بتاريخ الثالث عشر من يناير ١٢١٢م (٦شعبان ٦٠٨هـ) يطلب فيه من الاسبتارية والداوية التدخل لاستبدال الأسرى الصليبيين المحتجزين في الإسكندرية والقاهرة (٢) .

- خطاب من البابا انوسنت الثالث بتاريخ الثامن من يناير ١٢١٣م (١٣شعبان ٦٠٩هـ) يحث فيه مقدم الاسبتارية " والاخوة " الاسبتارية بان يتناسوا الخلافات التي هزت " اهاجت " الأراضي المقدسة ، وان يقفوا إلى جانب ملك بيت المقدس (الاسمي) ضد الاضطرابات الموجودة في المملكة (٣) .

- خطاب من البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ـ ١٢٢٧) إلى بيلاجيوس جالفانو المندوب البابوي في الشام يعلمه في أول يوليو عام ١٢٢٠م (٢٦ربيع ثان ٦١٧هـ) انه أعطى اسبتارية باريس مبلغا من المال من اجل شئون الأراضي المقدسة (٤) .

---

(1) Ibid tome II no 1131 pp. 1 – 3
(2) Ibid no 1373 p. 139
(3) Ibid no 1407 p. 154
(4) Ibid no 1677 pp. 270 - 271

- خطاب من البابا هونوريوس الثالث بتاريخ العشرون مــن يونيو ١٢٢١م (٢٧ربيع ثان ٦١٨هـ) يعلن فيه إلى الاسبتارية أن الإمبراطور فريدريك الثاني سيتوجه إلى الأراضي المقدسة في مارس عام ١٢٢٢م ، كما إن وليم ماركيز مونتفرات يتجهز لنجدة " فلسطين " (١) .

- خطاب من وليم شاتونيف Guillaume de Chateau-neuf مقدم الاسبتارية في نوفمبر عام ١٢٤٤م (جماد ثان ٦٤٢هـ) إلى أحد أصدقائه ويدعي م دي ميرلي M.de Merly يصف فيه أحداث موقعة غزة ١٢٤٤م وهزيمة الصليبيين أمام قوات الخوارزمية والمصير الذي لاقاه رجال جماعته الذي اشتركوا في الموقعة وغيرهم من الصليبيين (٢) .

- خطاب من وليم شاتونيف مقدم الاسبتارية إلى أحد أعضاء الجماعة ويدعي جوتيسية دي سان مارتين أرسله بعد السابع عشر من أكتوبر عام ١٢٥٠م (١٨رجب ٦٤٨هـ) يخبره بإطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا من الأسر بعد افتدائه وعودته إلى عكا ، كما يعلمه بالخلاف الذي كان قائما بين سلطان حلب وسلطان القاهرة (٣) .

- خطاب آخر لوليم شاتونيف إلى جوتيسيه أيضا يعلن فيه ثناؤه علي تدخل الملك لويس لإطلاق سراحه هو وثلاثون من الاسبتارية كانوا اسري لدي سلطان القاهرة ، وانهم جميعا عادوا إلى عكا في السابع عشر من أكتوبر (١٢٥٠م) (٤) .

---

(1) Cartulaire Tome II no 1732 p. 295 .
(2) Ibid no 2339 p. 622 .
(3) Ibid no 2540 pp. 698 .
(4) Ibid no 2541 pp. 698 – 699 .

- خطـاب مـن جوزيـف دي كانسي Joseph de Gancy محـافظ خزانـه (خازنـدار) الاسبتارية في السـادس من مـايو عـام ١٢٥٢م (٢٤ صـفر ٦٥٠هـ) إلـى جوتيسية دي سان مارتين أيضا يذكر فيه أن لويس التاسع وقع سلاما مع سلاطين مصر ، وان سلطان حلب حـال دون اجتمـاع القوات المصـرية والقوات الملكيـة (الفرنسية) ضـده ، كمـا إن التركمان خربوا إقليم حصن الأكراد (١).
- خطاب الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر إلى هيوريفل مقدم الاسبتارية فـي أبريـل عـام ١٢٧١م (رمضـان ٦٦٩هـ) يخبـره فيـه بسقوط حصـن الأكـراد أمـام شجاعة القوات الإسلامية (٢) .
- خطاب كتبـــه هيوريفل مقدم الاسبتارية في الفترة مـا بين ٢٧مـايو – ١٠ يونيو ١٢٦٨م (٢٣رمضـان- ٧شـوال ٦٦٧هـ) إلـى " الأخ " فيرو دي بـاراس Feraud de Barras بريور الجماعة في سان جيل يصف فيه أحوال صليبي الشام والموقف بالنسبة للاسبتارية ثم يطلب " النجدة " للأراضي المقدسة (٣) .

فهذه الخطابات وغيرها بما احتوته من تفاصيل حول الأوضـاع في كل من الشرق والغرب وتركيزها بصـفة أساسية علي موقف الاسبتارية مـن هذه الأوضـاع لان معظمهـا يمثل المكاتبات الرسـمية للجماعـة ، تعـد ذات أهميـة متقدمـة علـي المصـادر الأخـرى بالنسـبة لموضـوع البحـث خصوصا وان مادتها التاريخية ساعدت علي إزاحة الغموض عـــن بعض النقاط المتعلقــــة بـدور

(1) Ibid no 2605 pp. 726 – 727
(2) Ibid no 3308 p. 247
(3) Cartulaire Tome III no 3308 p. 183

الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي والتي ضنت بها المصادر العربية والغربية علي حد سواء .

وقد جمع المؤرخ الإيطالي ب . باولي P. Pauli هذه المكاتبات إلى جانب بعض الوثائق الخاصة بالامتيازات والعطايا ونشرها في عام ١٧٣٣م تحت اسم " المراسلات الدبلوماسية للجماعة الرهبانية المحاربة ببيت المقدس والتي تعرف اليوم (حاليا) بجماعة مالطا " (١) .

وفي هذه المجموعة ركز باولي اهتمامه علي إيراد أعمال مقدمي الاسبتارية وجهودهم الدبلوماسية أو اتصالاتهم بغيرهم من القادة والزعماء الصليبيين وكان ذلك ـ كما يقول ـ الخطة الأساسية التي قرر تنفيذها وهي عمل " دراسة عن تاريخ المقدمين العظام " إلا انه بعد أن قام برحلة زار فيها أرشيف مالطة ، وبعد عودته إلى موطنه إيطاليا عرض نتائج ابحاثة في أرشيف الاسبتارية علي أصدقائه الإيطاليين فنصحوه بتعديل خطة عمله وتطويرها . وكان أن قرر باولي تجميع ما حصل علية من الوثائق في " المراسلات الدبلوماسية " السالفة الذكر واستعان في هذا الصدد بموظفي أرشيف مالطة لاستكمال المذكرات التي كان قد أخذها قبل تقرير هذا الأمر الأخير (٢) .

ونظرا لأن باولي سبق ديلافيل لي رو في نشر وثائق الاسبتارية بأكثر من قرن ونصف فقد امتاز بما أورده من وثائق لم تحتويها مجموعة مواثيق ديلافيل لي رو ، فضلا عن إن " المراسلات الدبلوماسية " اتسمت بطابع التخصص حيث انحسر اهتمام ناشرها في الخطابات والمكاتبات الرسمية الصادرة عن البابوات والملوك والأمراء أو الكونتات . وفي هذا الصدد صنف باولي وثائقه.

(1) Pauli, P. : Codice Diplomatico del Sacro Milltare Ordine Gerosolimitano Oggi di Malta, Lucca, 1733 .

(2) Cf. Le Roulx (J.D.) Inventaire de Pieces de Terre Sainte, OP.cit. P. 41 .

في قسمين الأول يحتوي الوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين مقدمي الجماعة والملوك والأمراء العلمانيين ، بينما خصص القسم الثاني للمراسيم البابوية الصادرة بشأن أمور تخص الاسبتارية .

وهذا التصنيف في وثائق الجماعة سهل من مهمة الباحث في الرجوع إلى عدد من المراسيم البابوية الهامة وكذلك المكاتبات الرسمية التي أفادت موضوع البحث حيث أن معظمها يرتبط بشكل مباشر بدور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي موضوع هذه الدراسة . ولا يقلل من هذه الأهمية إن مجموعة المواثيق التي نشرها (ديلافيل لي رو) احتوت هذه المراسيم والمكاتبات حسب الترتيب الزمني لتواريخ صدورها فكثيرا ما برزت أهمية " مجموعه باولي " أمام الباحث أيضا فيما أضافته من تفاصيل أو فيما أكدته لمعلومات وردت في مصادر أخرى وهو ما يمكن تبينه بجلاء في بعض المواقف والأحداث التي تناولها الباحث بالدراسة في ثنايا هذا الكتاب .

وبالنسبة لما يعرف ببدايات الاسبتارية"Xordium Hospitalariorum " والمنشورة في الجزء الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين (١) فهي عبارة عن أربع مقالات تدور جميعها حول تأسيس المستشفي ونشأة الاسبتارية وكذلك الظروف التي أحاطت هذه النشأة (٢).

ورغم وجود اختلافات طفيفة بين كل مقالة وأخري علي الأقل في الصياغة وأسلوب العرض خصوصا في المقدمة والخاتمة إلا إن محتوي هذه المقالات جميعها يدل بصفة عامة علي إنها منقولة عن أصل واحد . ويضعف من قيمتها بالنسبة لموضوع البحث أن الطابع الأسطوري سيطر علـــي

(1) Xordium Hospitalariorum in R.H.C. Occ Tome V pp. 401 – 435

(٢) عناوين هذه المقالات كما وردت بالاكسورديوم هي :

(a) De prima institutione Hospitalariorum pp. 401 – 404
(b) Josephi historiographi Tratus de exordio Sacrae domus Hospitalis Jerosolimitani. Pp. 405 – 421 .
(c) De primordiis et inventione Sacrae religionis Jerosolymitanae pp. 428 – 429 .
(d) Primordium et Origo S. Xenodochii et ordimis militae S. Johannis Baptistae Hospitalariorum Hierosolymitani pp. 430 –435 .

رواياتها خصوصا في الفصول الأولى المتعلقة بان هناك بدايات للاسبتارية موغلة في القدم ترجع إلى الفترة المبكرة من تاريخ المسيحية . فقد نسبت هذه الروايات لما أسمتهم بالاسبتارية أو رجال المستشفي العديد من المعجزات والكرامات ، كما جعلت من المستشفي ودار الضيافة مكانا مقدسا باركه المسيح والعذراء وكذلك القديسون من الرسل والحواريين بالإقامة فيه وتحقيق المعجزات وذلك علي نحو لا يتفق والواقع التاريخي المعروف . والغرض من ذلك كما ذكر في مواضع سابقة وأيضا تالية هو إضفاء صفات التمجيد والقداسة علي نشأة الاسبتارية التي كانت في حقيقة الأمر غاية في البساطة والتواضع حتى تصبح هذه النشأة متقاربة في المكانة مع ما حظيت به الجماعة من شهرة ونفوذ بين الصليبيين في الشرق والغرب علي حد سواء . وقد اثبت بعض المؤرخين الغربيين المحدثين عن طريق التحليل والمقارنة لمقالات الاكسورديوم إن هذه الأساطير اقدم من الكتابة التي كتبت بها في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر ، ويرجح أنها كتبت في الفترة ما بين عامي ١١٤٠م ، ١١٥٠ (١) .

وبرغم ما تضمنته " الاكسورديوم " من معلوما ت تتعارض مع الواقع التاريخي زمنيا وموضوعيا إلا إنها احتوت نقاطا تاريخية مفيدة بالنسبة للبحث خصوصا الفصل الأول منه المتعلق بنشأة الاسبتارية ، واهـم هذه النقاط " إقامـة الامالفيين لبعض المباني والمنشآت التـي كانت نواه " لتأسيس الاسبتاريـة " " وحصار بيت المقدس علي يد الصليبيين عام ١٠٩٩م " ثم النبذات التي وردت بها عن أول مقدم للجماعة وخليفته ، وبعض البنود الرئيسية في نظام الاسبتارية وتصديق البابا علي هذا النظام ، وأخيرا أعمال الضيافة وواجباتها التي كانت بمثابة الخصائص الرئيسية لأعضاء الاسبتارية دون غيرهم من رجال الجماعات الأخرى .

---

(١) انظر مزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع في :
Le Roulx (J.D.) Les Hospitaliers en Terre Sainte a Chypre P. 16.

وقد رفض روايات " الاكسورديوم " السالفة الذكر وجعلها موضوعا للجدال وليم دي سان استين Guillaum de S. Estene في مقاله عن"نشأة الاسبتارية" أو "كيفية بدايتهم " (١) . ووليم دي استين هذا راهب اسبتاري إيطالي الأصل كان مقيما في دير لمباردي في الوقت الذي تم فيه كتابه البعض من المخطوطات التي احتوت هذه الروايات ثم احتل وليم مكانه بعد ذلك في السلك الوظيفي للجماعة واخذ يرتقي في الوظائف حتى عين أخيرا آمرا لقبرص في عام ١٣٠٢م (٢) .

وقد قصد وليم دي استين وهو يكتب مادته التاريخية عن نشأة بيت الاسبتارية أن يقلل من الجانب الأسطوري في روايات الاكسورديوم إلى نسب معقولة وقريبة من الحقيقة بعض الشيء ثم يعرفنا بعد ذلك بالنشأة الحقيقية لجماعته وفي هذا الصدد اثبت حياده ونزاهته باجتهاده في نقد هذه الروايات ورفض ما احتوته من مبالغات وهو ـ كما سبق الإشارة ـ أحد أعضاء الاسبتارية البارزين الذين عاشوا في القرن الثالث عشر ، هذا فضلا عن تأكيده أن الجماعة إيطالية الأصل وأن الرهبان البندكتسين كانوا متواجدين في الدار التي اتخذها الاسبتارية مقرا لهم مما ينم عن شجاعته في إعلان ما رآه حقيقيا ورغبته في ألا يضحي بهذه الحقيقة من اجل مصلحة الجماعة التي كان ينتمي إليها (٣)

ورغم ما قدمه وليم دي استين من تفاصيل جديدة حول نشأة الاسبتارية فانه في نظر المؤرخ الصليبي وليم الصوري ليس مصدرا مستقلا على أساس إن دي استين استقى مادته التاريخية ـ مثله مثل جاك دي فيتري ـ من كتابات رئيس أساقفة صور (٤) لكن ما أكده دي استين هـو انه لم

(1) Guillaume de Saint Estene : Comment La Sainte Maison de l'Hospital de S. Johan de Jerusalem Commenca in R.H.C.Occ Tome V pp. 422 – 427 .
(2) Cf. Le Roulx (J.D.) op. cit. pp. 24 -25

(٣) انظر مزيد من التفاصيل حول رواية دي استين وأهميتها كمصدر عن نشأة الاسبتارية في :
Le Roulx (J.D.) op.eit. pp. 27 – 28
(4) Cf. Rilley – Smith (J.) The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (1050 – 1310) Macmillan 1967, pp. 35 – 36 .

يأخذ من المادة التاريخية إلا المسند والموثوق منها ، ويعني ذلك انه لم يستق كل رواياته من وليم الصوري وإنما كان اختياره محددا قرره بنفسه في إطار نقدي والدليل علي ذلك تناقضه مع المؤرخ الصليبي في مسألة راعي الجماعة .

فبينما أصر وليم الصوري علي انه القديس " يوحنا المتصدق " أورد وليم دي استين كل ما استطاع من براهين ليؤكد إن راعي الاسبتارية هو القديس يوحنا المعمدان (١) . ويزيد من قيمة رواية دي استين وأهميتها انه كان علي دراية بحقائق الأمور الهامة بحكم منصبة الوظيفي في الجهاز الإداري للاسبتارية سواء ما يتعلق من هذه الأمور بالماضي الذي عرفه ممن هم علي دراية به أو الحاضر الذي عاصره بنفسه .

وفضلا عن أهمية تناول وجهات النظر المتعددة بالنسبة لموضوع البحث فان وثائق الأرشيف وروايات مؤرخي الاسبتارية لم تكن بالقدر الذي يفي بتغطية الدور السياسي والحربي للاسبتارية وفقا للتتابع الزمني للأحداث التاريخية الأمر الذي جعل من الضروري الرجوع إلى المصادر الروائية وما ذكره كتاب الحوليات والمؤرخين المعاصرين أو المتأخرين زمنيا ثم تحديد قيمة رواياتهم بالنسبة لموضوع البحث .

وفي مقدمة هذه المصادر كتاب المؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre المعروف بـ" تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر " (٢) وقد ولد وليم في بيت المقدس عام ١١٣٠م / ٥٢٤هـ ثم ذهب إلى باريس حوالي عام ١١٤٥/ ٥٣٩هـ حينما كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاما حيث تلقي تعليمه هناك . ثم اقام في بولونيا لعقدين من الزمان عاد بعدها إلى

(١) انظر هذه المسألة بالتفصيل في الفصل الأول .

(2) William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea, translated from the Original Latin by E.A Babcobk and Krey, 2 Vols New York 1943.

الشام في عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ لذا لم يكن وليم الصوري شاهد عيان لما أورده في تاريخه عن الفترات الزمنية السابقة على هذا التاريخ ، ورغم ذلك فقد اشتهر بقدرته علي تقييم الروايات التاريخية التي نقلها عن الآخرين ، أي انه كان مؤرخا محققا (١) وفي عام ١١٦٧م / ٥٦٢هـ لختار الملك الصليبي عموري الأول (١١٦٣- ١١٧٤م) وليم الصوري ليسجل تاريخ حكمه في الوقت الذي كان فيه الصراع مستحكما بين الصليبيين ونور الدين لامتلاك مصر ، وقد حاز وليم ثقة الملك الصليبي فعينه رئيسا لشماسة كنيسة صور ، كما أرسله في عدد من السفارات الهامة مثل السفارة التي بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل (١١٤٣- ١١٨٠م) في عام ١١٦٨م/٥٦٣هـ للتفاوض بشأن تنظيم حملة صليبية بيزنطية لغزو مصر .

وفي عام ١١٧٠م/٥٦٥هـ عين وليم الصوري مربيا لبلدوين بن الملك عموري مما جعل له تأثير كبير عليه ، وأتيح له ذلك عندما عينه تلميذه بلدوين مستشارا للمملكة في عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ بعد وفاة أبيه ، ثم اختير وليم في العام التالي رئيسا لأساقفة صور . وبعد ذلك بثلاث سنوات أي في عام ١١٧٨م/٥٧٤هـ سافر وليم الصوري إلى روما بناء علي دعوة من البابا حيث حضر مؤتمر اللاتران الثالث في العام التالي (١١٧٩م/٥٧٥هـ) .

وفي طريق العودة عرج علي القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور مانويل بتكليف من البابا وكان ذلك في أواخر عهد هذا الإمبراطور وقبل وفاته بأشهر قليلة وتاريخ وفاة وليم الصوري غير معروف بصفة مؤكدة إلا انه من الممكن القول بان وليم توفي في أخر عام ١١٨٤م/٥٨٠هـ وهي السنة التي انتهي فيها تاريخه أو بداية عام ١١٨٥م/٥٨١هـ (٢) .

---

(1) Cf. Boase, T.S.R. : Kingdoms and Strongholds of the Crusades P. 126. Also : Smail, R.C. : The Crusaders in Syria and the Holy Land P. 178 .

(٢) انظر مزيد من التفاصيل حول المؤرخ وليم الصوري وتاريخه في مقال الدكتور / عمر كمال توفيق منشور بمجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ـ العدد ٢١ سنة ١٩٦٨ ص ١٨١ـ ٢٠٠. وأيضا Smalley, Beryl : Historians in the Middle Ages New York 1974 pp. 134 – 141

وتتمثل أهمية " تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر " بصفة عامة في إن مؤلفه لعب دورا نشطا في شئون المملكة الصليبية وكان عنصرا قياديا مفكرا إلى جانب أجادته لعدد من اللغات كالعربية والفرنسية واليونانية والفارسية والعبرية فضلا عن لغته الأصلية وهي اللاتينية (١) فقد عاش وليم الصوري وسط الأحداث التي كانت بلاد الشام مسرحا لها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر . واستطاع بفضل المناصب العالية التي تولاها أن يري هذه الأحداث عن قرب وينقدها ويحكم عليها بكفاءة خاصة . أما بالنسبة لموضوع البحث فان وليم الصوري يعد المصدر الأكثر صدقا وأهمية خصوصا فيما يتعلق بروايات الفترة الأولى من نشأة الاسبتارية والتي أكد فيها أن الأمالفيين هم بناة تلك المنشآت التي كانت نواة لتأسيس هذه الجماعة .

وهي الرواية التي اخذ بها الراهب الاسبتاري وليم دي سان استين في نهاية القرن الثالث عشر ، هذا إلى جانب تأكيده أن القديس يوحنا المتصدق كان الراعي الأول للجماعة . ففي هذا الصدد استقي وليم مادته من مظانها الأصلية ثم أخضعها لمنطق الواقع الذي لا يتعارض مع ما كان سائدا في عصره .

وبالرغم من ذلك فان نظرة فاحصة إلى روايات وليم الصوري الخاصة بالاسبتارية تدل علي أن المؤرخ الصليبي كان يضمر العداء لهذه الجماعة أن لم يكن ذلك موقفه بصفة عامة من الجماعات الرهبانية ، إذ نراه عندما يتحدث عن أصول الاسبتارية يذكر " كيف كان لبيت الاسبتارية بداية وضيعة " (٢) مما يشير إلى إن وليم كان لدية سابق إصرار علي التحقير من شأنهم أو التشهير

(1) Cf. oase, T.S.R. : OP. cit. P 127
Also : Smail, R.C. : OP. cit. P. 178 .
(2) Cf. William of Tyre : Vol. II P. 241 .

ضدهم وهو ما ظهر واضحا وعلي نحو سافر في قضية نزاع الاسبتارية مع فولشر بطريرك بيت المقدس في عام ١١٥٥م/٥٥٠هـ (١) . فقد كان أسلوب وليم الصوري في تفنيد أحداث هذا النزاع ينم عن موقفة العدائي من الاسبتارية وهو موقف يرجع إلى مشاركة رئيس أساقفة صور للأساقفة غيرتهم من الاسبتارية بعد أن انحسرت السلطات الأسقفية وقلت مواردها أمام أتساع نفوذ هذه الجماعة بالعديد من الامتيازات التي حصلت عليها من الكرسي البابوي لدرجة إن هذه الامتيازات جعلت الاسبتارية في موقف متفوق علي الأساقفة .

وهذا الموقف من جانب وليم الصوري قد يفرض علي الباحث اتخاذ جانب الحذر إزاء روايات المؤرخ الصليبي الخاصة بتاريخ الاسبتارية أو دورهم في الصراع الصليبي الإسلامي لكنه في عدد من المواقف والمناسبات التاريخية المختلفة التي كان للاسبتارية دور بارز فيها أشار وليم إلى حقيقة هذا الدور دون أن ينتقض من قيمته ومن هذا القبيل إشارته إلى دور الجماعة في حراسة قلعة بيت جبريل منذ عام ١١٣٦م (٢) واشتراك المقدم ريموند دي بوي في مجلس الحرب الذي عقده الصليبيون في عكا في يونيو ١١٤٨م (٣) وفي الأحداث التي تلت هذا المجلس والتي انتهت بفشل الحملة الصليبية الثانية يصم وليم الصوري الاسبتارية بالخيانة – وهو ما ذهب إليه الآخرون – رغم إلقائه مسئولية هذا الفشل علي عناصر صليبية أخرى . وهذه مناسبة كان من الممكن للمؤرخ الصليبي أن يتخذها ذريعة لاتهام الاسبتارية بالتقصير أو الخيانة إذا وضع في الاعتبار موقفه العدائي منهم ، لكن وليم الصوري لم يتأثر كثيـــرا – كما يبدو – في كتاباته في هذا الموقف بل كان حريصا علي إيراد ما سمعة أو رآه بدقه وتحقيقه وفقا لأهميته بالنسبة للأحداث التي سجلها من وجهة نظرة .

---

(١) أنظر تفاصيل هذا النزاع كما أوردة وليم 250- 245 ,241 - 239 .Ibid PP (2)

(2) Ibid PP. 80 – 82 .

(3) Cf. William of Tyre : Vol . II PP. 184 – 186.

وفي هذا الصدد أشار وليم إلى دور الاسبتارية بقيادة مقدمهم في حصار عسقلان عام ١١٥٣م /٥٤٧هـ (١) " ونكبة " الجماعة في بانياس عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ (٢) .

وقد أسهب في وصف أحداث هذه النكبة ، وفي مهاجمة الصليبيين لنور الدين محمود عند " البقيعة " علي مقربة من حصن الأكراد التابع للاسبتارية في عام ١١٦٢م/٥٥٨هـ (٣) هذا فضلا عن إشارته إلي دور الجماعة في حملات الملك عموري ضد مصر . وقد شارك أعضاء الاسبتارية في موقفهم من المقدم جيلبرت الاسيلي الذي كان المحرك الرئيسي لخروج إحدى هذه الحملات وإيقاعه الجماعة في ضائقة الديون بسبب انضمامه إلى جانب عموري في هذا المشروع الذي باء بالفشل .

ويلاحظ علي وليم الصوري إغفاله الإشارة إلى دور الاسبتارية في بعض الأحداث المتعلقة بالحرب ضد المسلمين أو تلك الخاصة بالأوضاع السياسية داخل المملكة الصليبية وهو ما أكدته مصادر أخري . فقد أغفل وليم الإشارة إلي وجود مجموعة من قوات الاسبتارية اشتركت مع الجيش الصليبي في إنقاذ إمارة إنطاكية ومحاولة إعادة الرها إلي حوزة اللاتين في عام ١١٥١م/٥٤٦هـ (٤) وأيضا عدم ذكر دور أعضاء الجماعة – إلى جانب الصليبيين – في الدفاع عن إقليم بيت المقدس وجبل الزيتون ما بين عامي ١١٤٩م- ١١٥٢م / ٥٤٣ – ٥٤٦هـ (٥) ولا يمكن القول بان هذا الإغفال متعمد من جانب المؤرخ الصليبي إذا ما وضعنا في الاعتبار امران : أولهما : هو اهتمام وليم الصوري بالتركيز علي دور الملك الصليبي عموري الأول الذي طلب منه تسجيل تاريخ حكمه

(1) Cf. Ibid . II P. 218 Seq.
(2) Cf. Ibid . II PP. 255 – 261 .
(3) Cf . Ibid . II P. 306
(4) Cf. William of Tyre : Vol. II PP. 210 – 212
(5) Cf. Ibid . II . PP. 215 – 217 .

وكذلك خليفته بلدوين الذي كان وليم معلما ثم مستشارا له، والثاني هو ان وليم في معالجته للأحداث السابقة عليـــه أو المعاصـــرة له كان لابد أن تتفاوت نظرته إلى هذه الأحداث والي الذين ساهموا بدور فيها حسب أهميتهم بالنسبة لها ، وبالتالي سجل وليم دور الاسبتارية في المناسبات التي كان فيها لهذا الدور فاعليته وآثاره . وفي حالة عدم وجود إشارة صريحة في تاريخ وليم الصوري عن دور الجماعة في بعض المواقف والأحداث فإن الباحث قد أفاد منه فيما أورده من تفاصيل حول هذه المواقف أو الأحداث بحيث كانت روايات وليم الصوري في هذا الصدد تدعيما وتأكيدا لروايات أخري أشارت إلي دور الاسبتارية لكنها كانت مقتضبة أو لا يحظى كاتبها بالمكانة التي عرف بها وليم الصوري بين مؤرخي الحروب الصليبية .

ويلي رئيس أساقفة صور في الأهمية بالنسبة لموضوع البحث مؤرخو الحملات الصليبية الذين تركوا لنا فيما سجلوه عن هذه الحملات إشارات عن دور الاسبتارية فيها أو في الأحداث المعاصرة لها وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين جيوفري دي فينزوف Geoffrey de Vinsauf الذي كتب عن حملة ريتشارد قلب الأسد عامي ١١٩١- ١١٩٢م / ٥٨٧- ٥٨٨هـ (١) والمعروف عنه أنه إنجليزي المولد رغم انتمائه إلي إحدى العائلات النورمانية .

وقد كان جيوفري شاهد عيان للحملة الصليبية الثالثة حيث رأي بنفسه المعارك والمفاوضات التي دارت بين الطرفين الصليبي والإسلامي حتى رحيل ريتشارد إلي الغرب الأوربي . ويبدو أن المؤرخ الإنجليزي صاحب ملك إنجلترا في رحلة العودة إلي بلاده لأنه عاصر هناك حادث وفاته وتولي أخيه حنا العرش الإنجليزي (١١٩٩- ١٢١٦م) (٢) .

---

(١) عرف كتابه عن هذه الحملة باسم :

Itinerarium Regis Anglarum Richardi, et aliorum in Terram Hierosolymorum, translated from the original latin to the English Language by Dr. Giles.

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf ' s Itinerary of Richard I and Others to the Holy Land in the Chronicles of the Crusades, London & New York 1892, PP. III-V .

ويعد جيوفري المصدر الرئيسي الأكثر أهمية فيما يتعلق بدور الاسبتارية في أحداث الحملة الصليبية الثالثة ، إذ أنه امتاز عن غيره من المؤرخين بتسجيل كل عمل قام به أعضاء الجماعة في هذا الصدد فضلا عن تحديده موقعهم في تشكيل القتال الذي كان يتخذه الجيش الصليبي بين الحين والآخر دون إغفال لأي حادث يرتبط بهذا الدور مهما كانت ضآلته . وقد سد جيوفري بذلك الفراغ الناجم عن إهمال المصادر العربية المعاصرة ذكر العناصر الفرنجية المختلفة التي كان يتكون منها جيش الصليبيين ودور كل منها بالتحديد .

فقد حدد المؤرخ الإنجليزي مكان الاسبتارية بين الصليبيين في تطويق مدينة عكا ومحاولاتهم اقتحام المدينة (١) وأيضا تمثيلهم الصليبيين في المفاوضات التي دارت مع المسلمين ممثلين في الملك العادل أخي صلاح الدين (٢) ثم اتخاذ الاسبتارية موقعهم في " مؤخرة " أو " ساقة " الجيش الصليبي أثناء المسير (٣) .

وفي أكثر من مناسبة أكد جيوفري أن قوات الجماعة عانت الكثير من جراء وجودها في هذا التشكيل لحرص المسلمين الدائم علي تطويق الصليبيين وإيقاع اكبر قدر من الخسائر بالمؤخرة التي تحمي صفوف الجيش الخلفية فضلا عن الإمدادات والمؤن (٤) وفوق ذلك فان جيوفري كان منتبها إلي التغيرات التي كانت تتم من وقت لآخر في تشكيل جيش الصليبيين وهو أمر علي جانب كبير من الأهمية إذ يسهل من خلاله تتبع دور الاسبتارية في المعارك المختلفة ضد المسلمين دون الوقوع في أية ملابسات وذلك في حالة اقتصار إشارة المصدر إلى ما يتعلق بمؤخرة الجيش الصليبي دون الاسبتارية الذين يحتلون مكانهم فيها (٥) .

---

(1) Cf. Ibid . PP. 106 – 110 .
(2) Cf. Ibid . P. 329
(3) Cf. Ibid . P. 228
(4) Cf . Geoffrey de Vinsauf : Ibid, Idem, PP. 230 – 231, PP. 235 – 236
(٥) انظر أمثلة لهذه التغييرات : Ibid. PP. 233 - 234

ويبدوا أن جيوفري كان علي مقربة من موقع مقدم الاسبتارية إذ انه سجل كل ما كانت تتعرض له قوات الجماعة في المؤخرة بإسهاب دقيق فضلا عن أنه ذكر الحوار الذي دار بين المقدم والملك ريتشارد وما اتخذه من قرارات إزاء المواقف الصعبة التي واجهتها مؤخرة الجيش الصليبي حيث الاسبتارية (١) ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل إن جيوفري سجل أيضا ما قام به كبار محاربي الجماعة مثل المارشال أو بعض فرسانها ــ وفي أحد الحالات كان فارس اسبتاري بمفرده ــ في عمليات حربية ضد المسلمين أثناء القتال بين الطرفين أو خلال فترات توقفه ليلا أو لأيام (٢) .

وفي هذا الصدد كان جيوفري حريصا علي إظهار مدي إعجابه بشجاعة فرسان الجماعة والتزامهم بقواعد النظام فيما بينهم وكذلك احترامهم لغيرهم من الصليبيين (٣) بطريقة لم تخرج عن نطاق المبالغات المعهودة عن ذلك العصر.

كل ذلك وغيره مما يتضح من ثنايا البحث يعطي مصدر جيوفري دي فينزوف عن دور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي أثناء وجود ريتشارد قلب الأسد في الشام أهمية خاصة إذ انه بما أورده من تفاصيل لها قيمتها في هذا المجال أماط اللثام عن الغموض الذي أكتنف معلومات أوردتها مصادر لخري معاصرة أو متأخرة .

وهناك مؤرخ إنجليزي آخر كان شاهد عيان أيضا لأحداث الحملة الصليبية الثالثة ويكاد أن يطاول جيوفري دي فينزوف في الأهمية بالنسبة لموضوع البحث وهو امبرواز Ambroise (٤) .

---

(1) Cf. Ibid. PP. 237 – 238.
(2) Cf. Ibid. P. 296
(3) Cf. Ibid. P. 297.
(4) Ambeoise : The Grusade of Richard Lion-Heart, translated from the Old Freuch by M.J Hubert, New York, 1941.

فقد أكد هذا المؤرخ روايات جيوفري التي أفاد منها الباحث في التعرف علي دور الاسبتارية اهمها وجودهم في تشكيل المؤخرة ، وبقائهم في نفس هذا التشكيل بعد التعديل الذي أجراه الملك ريتشارد علي تنظيم صفوف الجيش الصليبي في سبتمبر ١١٩١م/ شعبان ٥٨٧هـ (١) هذا فضلا عن تأكيد امبرواز بأن التصرف الذي سلكه وليم بورل مارشال الاسبتارية كان سببا في إشعال نار الحرب بين الطرفين وحدوث موقعة ارسوف الشهيرة (٢) ، وأيضا إيضاحه دور الجماعة في تخريب قلعة الداروم في الثالث والعشرين من مايو ١١٩٢م/ ٩جمادي الأولى ٥٨٨هـ (٣) ومساهمة أعضائها في إنقاذ مدينه يافا (٤) .

بالإضافة إلى ما سبق فقد قدم امبرواز في تاريخه عن " صليبية ريتشارد قلب الأسد " إضافات هامة في تفاصيل الأحداث تتعلق بدور الاسبتارية فيها حيث القي علي سبيل المثال ــ مزيدا من الضوء ــ علي دور قوات الجماعة في حصار مدينة عكا (٥) كما انفرد ــ جيوفري دي فينزوف ــ بالإشارة إلى حضور جارنيير دي نابلس Garnier de Naples مقدم الاسبتارية (١١٩٠ ــ ١١٩٢م) الاجتماع الذي عقدة كل من فيليب اوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا في مسينا بصقلية وهما في طريقهما إلى الشام (٦) وكذلك إشارته الصريحة إلى موافقة الاسبتارية علي أن يطلب من ريتشارد الهدنة أو الصلح مع المسلمين عندما شرح لهم الملك الإنجليزي ظروفه الصعبة في الغرب حيث رأوا أن ذلك

(1) Cf. Ibid. PP. 241 – 250
(2) Cf. Ibid. P. 259.
(3) Cf. Ibid. P. 297 .
(4) Cf. Ibid. P. 404 .
(5) Cf. Ibid. PP. 141 – 142 , P. 202 .
(6) Cf. Ibid. P. 257 .

خيرا من أن يتركوا ريتشارد يغادر الشام دون الوصول إلى ادني حل (١) .

وأخيرا فان امبرواز رغم اتفاقه مع جيوفري في تسجيل نص الحديث الذي وجهه ريتشارد إلى مقدم الاسبتارية فقد أورد نص النداء الذي صاح به هذا الأخير نحو الملك أثناء وقوع قوات الجماعة في مأزق ضغط المسلمين علي مؤخرة الجيش الصليبي بطريقة مخالفة في الأسلوب لما أورده جيوفري فضلا عن إنها تحمل في طياتها بعضا من المبالغة والتهويل في تصوير الموقف (٢) وهو ما ذهب إليه امبرواز أيضا في وصف شجاعة أحد الفرسان الاسبتارية الذين تهوروا بالاندفاع نحو كمين للمسلمين (٣) .

كيفما كان الأمر فان امبرواز بتأكيده لروايات جيوفري دي فينزوف وتقديمه بعض الإضافات والتفاصيل الهامة قد زاد الأمر وضوحا أمام الباحث بالنسبة لدور الاسبتارية وموقفهم من الأحداث في الشام أبان الفترة التي قضتها الحملة الصليبية الثالثة في الشرق .

أما ما سجله كل من روبرت كلاري وجيوفري فيلها رودين عن سقوط القسطنطينية وأحداث الحملة الصليبية الرابعة (٤) فان أهميته ضئيلة بالنسبة لموضوع البحث حيث اقتصر علي الإشارة إلى تلك الاتصالات التي دارت بين صليبي الشام وإخوانهم المحاصرين للعاصمة البيزنطية ، والاقطاعات التي منحها الإمبراطور اللاتيني إلى الذين رحلوا من صليبي الشام إلى هناك وكان منهم بعض أعضاء الاسبتارية الأمر الذي أكدته " مجموعة مواثيق الجماعة " .

---

(1) Ambroise : Ibid, PP. 428 – 429 .
(2) Cf. Ibid, P. 257.
Geoffry de Vinsauf, Op. Cit. PP. 237 – 238.
(3) Ambroise : Op. Cit., PP. 369 – 370.
(4) Villehardouin, G. : The Conquest of Constantinople in Chronicles of th Crusades ed Penguin Classics, England . 1973, PP. 29 – 160.
كلارك ، روبرت : فتح القسطنطينية علي يد الصليبيين ، ترجمة الدكتور حسن حبشي القاهرة ١٩٦٤م.

ومن مؤرخي الحملات الصليبية الذين تركوا فيما سجلوه مادة لها قيمتها عن دور الاسبتارية في الأوضاع بين المسلمين والصليبيين في " الأراضي المقدسة " المؤرخ الألماني اوليفر اف بادنبورن Oliver of Padenborn وهو أحد رجال الدين الذين شاركوا في أعمال مجلس اللاتيران الكنسي الذي عقد في روما عام ١٢١٥م . فبعد انتهاء أعمال هذا المجلس توجه اوليفر إلى المانيا حيث دعا إلى الحملة الصليبية الخامسة ثم أبحر مع رجال الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط وظل معهم حتى هزيمتهم ورحيلهم عن الأراضي المصرية في خريف عام ١٢٢١م حيث نزل في مدينه عكا وبقي بالإمارات الصليبية بعض الوقت ثم غادرها بعد ذلك إلى كلوني التي وصلها في عام ١٢٢٢م (١) وأثناء وجود الحملة في مصر عمل اوليفر كاتبا للمندوب البابوي بيلاجيوس Pelagius ، لذلك فانه فضلا عن كونه من شهود العيان فقد كان ملتصقا بقيادة الحملة (٢) ، ومـــن هنا تتضح أهمية تاريخه والمعروف باسم " تاريخ دمياط " Historia Damiatina والذي كتب معظمة أثناء الحملة فيما بين عامي ١٢١٧- ١٢٢٢م والباقي منه بعد هذا التاريخ الأخير في الحال (٣) .

وتتحصر أهمية " تاريخ دمياط " بالنسبة للموضوع في انه مصدر لاحد شهود العيان تتبع الباحث من خلاله أحداث الحملة الصليبية الخامسة بصفة عامة من اجل التعرف علي دور الاسبتارية في هذه الأحداث وهو ما لم يغفله اوليفر في معظم المناسبات الجديرة بالإشارة إلى

(١) عن حياة أوليفر أف بادنبورن أنظر :
Pedenbarn, Oliver of : The Capture of Damietta, trans by John, J. Gavigan, Peunsylvania U.S.A 1948, PP. 1-10
أيضا : محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة " حملة جان دي بريين علي مصر " إسكندرية ١٩٧٨م ، ص ٤ – ٥ .
(٢) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٥ .

(3) Pedenborn, Oliver of : Op. Cit., P. 4.

هذا الدور. فقد أكد وجود قوة من الاسبتارية اشتركت مع الجيش الصليبي في مهاجمة حصن الطور وذلك بذكره أعضاء الجماعة ضمن ما الحق بهم من خسائر من الصليبيين (١) هذا فضلا عن إشارته إلى اشتراك الجماعة في تحصين بعض المواقع الصليبية بعد رحيل ملك هنغاريا (٢) ورحيل تشكيل من قواتها مع جيش الحملة الصليبية الخامسة الذي قصد دمياط (٣) وقد سجل اوليفر هذا التشكيل من قوات الاسبتارية في حصار دمياط واستخدام أفراده ما لديهم من خبرة في أعمال الحصار (٤) ودور ايمار دي لايرون مارشال الجماعة في التصدي لهجوم شنه المسلمين في التاسع من أكتوبر عام ١٢١٨م/١٧رجب ٦١٥هـ (٥) ، ووقوف بعض الاسبتارية إلى جانب حنا دي بريين لتغطية انسحاب الصليبيين الذين لاذوا بالفرار علي اثر مباغتة المسلمين لهم في موقعة التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٢١٩/١٦جمادي الثاني ٦١٦هـ (٦) ثم اشتراك هؤلاء الاسبتارية في الإغارة علي البرلس في يوليو عام ١٢٢٠م/٦١٧هـ (٧) وأخيرا إرسال أعضاء الجماعة المقيمين في الشام إلى مقدمهم في مصر يطالبون فيه عدم الانسحاب من دمياط والبقاء هناك مطمئنين إياه بأن قلاعهم (أي قلاع الاسبتارية في الشام) ليس من السهل الاستيلاء عليها (٨) .

ويؤخذ علي أوليفر بادبنورن إغفاله اشتراك مقدم الاسبتارية في مجالس الحرب أو المشورة التي كان يعقدها القادة الصليبيون بين الحين والآخر لوضع خططهم القتالية مثل مجلس الحرب الذي

---

(1) Pedenborn, Oliver of : Ibid., P. 14.
(2) Ibid. PP. 17 – 18.
(3) Ibid. P. 22.
(4) Ibid. P. 24.
(5) Ibid. P. 31.
(6) Ibid . PP. 42 – 43.
(7) Ibid . P. 65.
(8) Ibid . P. 82.

عقد في خيمة ملك هنغاريا والذي توصل فيه الصليبيون إلي ضرورة مهاجمة مدينه دمشق ، ومجلس المشورة الذي اجتمع عقب فشل الهجوم الصليبي علي حصن الطور حيث اكتفي أوليفر في مثل هذه المناسبة بالإشارة إلي مجرد انعقاد المجلس (١) كما يؤخذ عليه عدم تحديد الموقع الذي احتله الاسبتارية في حصار مدينه دمياط حتى يتسنى متابعة دور الجماعة في هذا الحصار من خلاله الأمر الذي لم يغفله آخرون من المؤرخين الغربيين ، وفضلا عن ذلك فإن أوليفر لم يذكر أن الاسبتارية كانوا من الرافضين لعروض الصلح حتى تسقط دمياط في أيدي الصليبيين ، بينما أعلن ذلك صراحة بالنسبة لبطرس دي مونتاجو مقدم الداوية (٢) وهو ما قد يثير الشكوك حول موقفه من الاسبتارية خصوصا وأنه اكثر من المدح والثناء علي الداوية بترديده أن " جيش الداوية الذي كان أول من احتشد كان الأخير في الانسحاب " (٣) لكن إغفال أوليفر الإشارة إلى دور الاسبتارية والداوية معا في الحيلولة دون نجاح محاولة المسلمين لإمداد حامية دمياط بالمؤن وقت الفجر ينفي عنه هذا الاتهام . ومن الممكن إرجاع ذلك إلى استطراد أوليفر كثيرا في سرد ما يراه هاما من وجهة نظرة دون اكتراث بما قد يغفله من الدور الذي تلعبه الجماعات الرهبانية بصفة عامة ، خصوصا وأنه كان لزاما عليه تركيز جل اهتمامه علي نشاط المندوب البابوي بيلاجيوس والذي عمل كاتبا لديه ــ كما سبقت الإشارة ــ ، وفضلا عن ذلك فان تعصب أوليفر وجنوحه إلي الخيال في تقييم المواقف والمناسبات المختلفة كان له أثره بلا شك في حدوث مثل هذا التقصير .

(1) Ibid . P. 15.
(2) Padenbern, Oliver of : Ibid. P. 46
(3) Ibid . P. 5.

وبالرغم من ذلك فان ما أورده أوليفر في رواياته عن دور الاسبتارية لم يتأثر كثيرا بهذا المنهج إلي جانب أنه كان شاهد عيان لما كتب عنه مما يضع تاريخه في قائمة المصادر الغربية المعاصرة والتي لها قيمتها بالنسبة لفترة من المدى الزمني الذي تناوله الباحث بالدراسة .

ومن هؤلاء المؤرخين أيضا حنا جوانفيل John Joinville الذي كان من اشد المقربين إلى الملك الفرنسي لويس التاسع خصوصا أثناء حملته علي مصر والشام ، وأيضا شاهد عيان للأحداث التي وقعت في الشرق الأدنى الإسلامي أبان الفترة الممتدة من عام ١٢٤٨ إلى عام ١٢٥٤م بل واشترك بنفسه في معظم المواقع والحوادث خلال هذه السنوات الست التي أمضاها مع الملك الفرنسي في مصر والشام (١) .

وترجع أهمية " سيرة القديس لويس " التي دونها جوانفيل (٢) للمعلومات التي وردت بها عن الفترة المعاصرة لوجود الحملة الصليبية السابعة في كل من مصر والشام حيث استفاد الباحث مما سجله هذا المصدر عن موقف الاسبتارية من الأوضاع التي كانت سائدة حينذاك وأيضا دورهم في الحرب ضد المسلمين وذلك رغم عدم إيضاح جوانفيل لهذا الدور في بعض المناسبات التي اكتفي فيها بالإشارة إلى العنصر الفرنجي صاحب الدور البارز في أحد المواقع دون العناصر الأخرى الملازمة له في نفس الموقع . ومن قبيل ذلك ما ذكره جوانفيل من أن الداوية كانوا في مقدمة الجيش التي تولي قيادتها كونت أرتوا بينما أغفل الإشارة إلي أن الاسبتارية كانوا ملازمين للداوية في هذا التشكيل (٣) .

---

(١) عن حنا جوانفيل والظروف التي دون فيها سيرة لويس التاسع وأهمية هذه المذكرات : أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي بلاد الشام ، ط٣ ، الإسكندرية ١٩٧١م ، ص٣ – ١٦

(2) Joinville, J. : The Life of Saint Louis in Chronicles of the Crusades ed Penguin Classics, England, 1973, PP. 163 – 353 .

(3) Cf. Joinville : P. 221.

وهو أمر أكده الراهب الإنجليزي متي الباريزي Matthew of Paris (١) وقائد اسبتارية مرسيليا في تقرير له إلي أسقف المدينة (٢) .

ونظرا لان جوانفيل أشار في مناسبات تاليه إلى وجود حنا روناي John Ronay رئيس الاسبتارية بين قادة مقدمة جيش الحملة وأن روناي هو أول من أخبر الملك لويس بمصرع أخيه روبرت كونت أرتو (٣) فان الباحث اتجه إلى إيضاح دور الاسبتارية من خلال متابعة العمليات الحربية للمقدمة علي أساس وجودهم فيها كعنصر محارب وذلك في الحالات التي أغفل فيها هذا المؤرخ الإشارة إليهم واقتصر الاعتماد عليه وحده دون غيره من المؤرخين في استقاء مادتها التاريخية . وكان ذلك هو الحل المناسب لسد الفراغ الناجم عن هذا الإغفال الذي لا يمكن أن يكون متعمدا من جانب جوانفيل لدور الجماعة ، فقد اظهر كاتب " سيرة القديس لويس " مدي إعجابه بأعضاء الاسبتارية وبنظامهم في مناسبتين إحداهما أثناء استقبال لويس لسفارة شيخ الجبل في حضور مقدمي الاسبتارية والداوية (٤) والأخرى كانت موقف مقدم الجماعة وفرسانها حينما اشتكي جوانفيل إلى المقدم إساءة بعض فرسان الاسبتارية إلى فرسان من فرقته (٥) مما ينم عن إخلاصه وأمانته وعدم التحيز لطرف علي حساب طرف آخر .

ويمكن القول بان خبرة جوانفيل بفن الحرب والقتال وقربه من الملك الفرنسي ثم اشتراكه بنفسه في الأحداث التي كتب عنها فضلا عما امتاز به من صدق الذاكرة وقوة الملاحظة (٦) كل ذلك يجعل لروايته قيمة تاريخية كبيرة .

---

(1) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, PP. 376 – 369.
(2) Cf. Golubovich, P.G. : Biblioteca Bio-Bibliographica della Terra Santa P. 241.
(3) Cf. Joinville : P. 226.
(4) Ibid. PP. 277 – 278 .
(5) Ibid. PP. 292 – 293.
(٦) أنظر هذه الصفات في : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٧.

يضاف إلى مؤرخي الحملات الصليبية طائفة من المؤرخين الغربيين اهتم بعضهم بالتأريخ للحروب الصليبية والإمارات اللاتينية في الشام بينما ركز البعض الآخر اهتمامه على معالجة أحوال دول أوريا وظروفها خلال فترة من عصر الحروب الصليبية في الوقت الذي لم يغفل فيه أيضا تناول بعض الأحداث الهامة في الشرق الأدنى الإسلامي أبان هذه الفترة . وقد كان هؤلاء المؤرخين معاصرين لبعض ما سجلوه في تواريخهم بينما كانوا متأخرين زمنيا بالنسبة لما أوردوه عن الفترات السابقة علي وجودهم ، لكنهم رغم ذلك كان لهم أهميتهم بصفة عامه بالنسبة لما قدموه من تفاصيل أو معلومات إضافية ضنت بها مصادر شهود العيان وأهم هذه التواريخ : تاريخ هرقل ، وتاريخ روتلان وحوليات متي الباريزي وحوليات روجر دي هوفدن ، وروجر أف وندوفر .

ويعد تاريخ هرقل Estorie d`Eracles في تاريخ الحروب الصليبية بصفة عامة وهو من تذييلات تاريخ وليم الصوري (١) ، وأهمية هذا المصدر بالنسبة لموضوع البحث هو أنه فضلا عما قدمه من تفاصيل قيمه حول بعض الأحداث المتعلقة بدور الاسبتارية ، فقد سد الفراغ الناجم عما أغفلته مصادر أخرى في بعض المناسبات بل وانفراده في أحايين كثيرة بإعطاء إضافات هامة تلقي مزيدا من الضوء أمام الباحث لإزاحة الغموض عن بعض النقاط الخاصة بهذا الدور . ومن هذا القبيل تأكيد تاريخ هرقل لمسألة فرار وليم بورل قائد الاسبتارية من معركة حطين واشتراكه بعد ذلك في الدفاع عن مدينة بيت المقدس (٢) وإعطاء الجماعة باليان ابلين المبلغ المتبقي في خزانتها من هبة المال التي كان هنري الثاني ملك إنجلترا قد أودعها لديهم لحساب " الأراضي المقدسة " وذلك

(١) تاريخ هرقل لم يعرف كاتبه وقد سمي بهذا الاسم لان بداية الكتاب تبدأ بكلمة الإمبراطور هرقل .
وهذا التاريخ منشور باللغة الفرنسية القديمة في الجزء الثاني من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين ، وينتهي هذا التاريخ بأحداث عام ١٢٧٧م .
Cf. R.H.C. Occ Tome II PP. 1-481

(2) L`Estorie d`Eracles in R.H.C. Occ. Tome II P. 69.

من أجل افتداء بقية اسري الصليبيين بعد سقوط مدينة بيت المقدس عام ١١٨٧م (١) فضلا عما ساهمت به الجماعة في هذا الصدد (٢) وقد أكد تاريخ هرقل حياده ونزاهته حينما أشاد بالمعاملة الحسنة التي كان يلقاها النساء والعجزة والأطفال الصليبيون من الحراس المسلمين أثناء المسير خارج " المدينة المقدسة " حيث كان فريق من هؤلاء الصليبيين تحت قيادة مجموعة من الفرسان الاسبتارية (٣) .

وبالإضافة إلى ذلك أفاد الباحث من تاريخ هرقل في مناسبات تتعلق مباشرة بدور الجماعة السياسي والحربي في الشام مثل الإشارة إلى أن الملك ريتشارد عهد إلى جارنيير دي نابلس مقدم الاسبتارية في عام ١١٩١م بالإمبراطور إسحاق كومنين وزوجته وابنهما ليودعوا سجناء لدي الجماعة في قلعة المرقب (٤) وأيضا اشتراك الاسبتارية في اختيار هنري دي شامباني ليكون وصيا علي مملكة بيت المقدس { الاسمية } عام ١١٩٧م/٥٩٣هـ (٥) ثم خروجهم في مقدمة القوات الصليبية للإغارة علي بلاد المسلمين القريبة من عكا (٦) هذا فضلا عن مواقف أخرى كان لتاريخ هرقل الفضل في إيضاحها مثل تحديد موقع قوات الاسبتارية في الجانب الشرقي لمدينة دمياط مع الأسبان والبروفنساليين وذلك أثناء حصار الصليبيين للمدينة (٧) ودور الاسبتارية في الحيلولة دون نجاح المسلمين في التمكن من إمداد حامية دمياط بالمؤن والعتاد حينما استيقظوا مبكرا لأداء الصلوات الصباحية (٨) ومهاجمة فرسان الجماعة لإمارة حماه في أغسطس ١٢٣٠م/ رمضان

(1) Ibid PP. 90 – 91 .
(2) Ibid PP. 93 – 95.
(3) Ibid PP. 99 – 100.
(4) L'Estorie d'Eracles : PP. 168 – 169 .
(5) Ibid. P. 223.
(6) Ibid. P. 260.
(7) Ibid. P. 337.
(8) Ibid. P. 345.

٦٢٧هـ حيث أرجع تاريخ هرقل سبب هذا الهجوم إلى رفض أمير حماه دفع الضريبة السنوية المفروضة علي إمارته للاسبتارية (١) .

ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل أن تاريخ هرقل من خلال متابعة كاتبه لما كان يجري من اتصالات بين زعماء الحركة الصليبية في الغرب الأوربي وبين القادة الصليبيين في الشام لم يغفل دور الاسبتارية في هذا الصدد (٢) فضلا عما سجله عن موقف الجماعة من الإمبراطور فردريك الثاني (٣) وكان في حقيقة الأمر المصدر الرئيسي الذي اعتمد عليه الباحث في معرفته تفاصيل هذا الموقف . وهكذا كان لتاريخ هرقل قيمته لما أوردة من مادة تاريخية مفيدة بالنسبة لدور الاسبتارية وموقفهم من الأحداث في الشام في مناسبات لم يسجل فيها شهود العيان أو غيرهم من المعاصرين هذا الدور علي نحو مفصل أو أغفلوه كلية .

وكذلك كان الحال بالنسبة لتاريخ روتلان Rathelin (٤) الذي يعد هو الأخر تذييلا لتاريخ وليم الصوري فيما بين عامي ١٢٢٩م ، ١٢٦١م . فقد أفاد الباحث من تفاصيله أو إشاراته الخاصة بموضوع البحث أبان هذه الفترة التي كان فيها هذا التاريخ مصدرا لأحد شهود العيان التي اعتمد عليها الباحث في تتبع دور الاسبتارية مقارنا بما أوردته " مجموعة مواثيق الجماعة " وكتاب الحوليات الغربيين .

وفي هذا المجال كان لتاريخ روتلان أهميته في التعرف علي موقف الاسبتارية من جهود ثيوبولد الرابع كونت شامباني وملك نافار في عام ١٢٣٩م (٥) وكيف أن الأخير طلب منهم أتباع

(1) Ibid. P. 403.
(2) Ibid P. 355
(3) Ibid P. 370 – 373.
(٤) تضمن تاريخ روتلان الجزء الثاني أيضا من مجموعة مؤرخي الحرب الصليبية الغربيين ، ويلي نهاية تاريخ هرقل مباشرة . أنظر :
R.H.C.Occ. Tome II PP. 490-639.
(5) Rothelin (Dite Du Manuscrit) in R.H.C. Occ. Tome II P. 539.

الطريق السلمي والدخول في مفاوضات مع المسلمين بشأن شروط الصلح (١) ثم نجاح الجماعة في إقناع ثيوبولد بالعمل علي التقرب من سلطان مصر حيث تم التوصل بعد ذلك إلي اتفاق مع الملك الصالح نجم الدين أيوب (٢) .

وفضلا عن ذلك أشار تاريخ روتلان إلى دور فرسان الجماعة في موقعة غزة عام ١٢٤٤م/٦٤٢هـ وقد حدد مصيرهم، كما أكد وقوع المقدم أسيرا في أيدي المصريين (٣) وهو الأمر الذي كان موضع خلاف مع مؤرخين آخرين ذكروا أن المقدم كان مصيره الذبح وليس الأسر (٤) وخلال حملتي لويس التاسع في مصر والشام أكمل روتلان ما أغفله جوانفيل ، ومن قبيل ذلك ما سجله عن اشتراك فريق من الاسبتارية في مجلس الحرب الذي عقده ملك فرنسا بعد وصوله عكا في الفترة من التاسع عشر من يونيو إلي الثالث من يوليو عام ١٢٥٠م (٥) وأيضا إطلاق سراح خمسة وعشرون من الاسبتارية الذين كانوا اسري لدي سلطان القاهرة (٦) .

وبالنسبة لهذا الأمر الأخير اختلف روتلان مع وليم شاتونيف مقدم الجماعة حيث ذكر هذا الأخير في خطابة إلى أحد أعضاء الجماعة في الغرب ويدعي جوتييه دي مارتين أن عدد الأسرى الاسبتارية الذين أطلق سراحهم ثلاثين (٧) .

---

(1) Ibid PP. 547 – 548.
(2) Ibid P. 554.
(3) Ibid P. 564.
(٤) أنظر الفصل الرابع
(5) Rothelin : Op. cit. P. 622.
(6) Ibid P. 625.
(7) Cf. Cartulaire Tome III No. 2451, P. 698.

ورغم وجود لختلاف من هذا القبيل فان تاريخ روتلان كان له ثقله خصوصا بالنسبة للفترة التي أعقبت رحيل لويس التاسع عن بلاد الشام عام ١٢٥٤م حتى نهايته عام ١٢٦١م فهذه الفترة كانت حافلة بالأحداث التي أنذرت بقرب نهاية المملكة الصليبية ، إذ لم يكد لويس يرحل عن الشام حتى دبت المنازعات بين الأمراء الصليبيين والتجار الإيطاليين والجماعات الرهبانية ، مما أدى إلى اتجاه الاسبتارية وبعض القادة الصليبيين في الشام إلى أسلوب المهادنة مع المسلمين (١) وكانت التفاصيل التي أوردها روتلان حول هذه الأحداث لها قيمتها بالنسبة لمتابعة موقف الجماعة ودورها أبان هذه الفترة .

ومن كتاب الحوليات الغربيين الذين اعتمد عليهم الباحث روجر دي هوفدن Roger de Hoveden وقد اخذ اسمه من مقاطعة هوفدن في يوركشير Yorkshire وحصل علي لقب " سير " Master والذي كان من الدرجات التي تسمح له بممارسة أعمال الخدمة المدنية ، ثم عين بعد ذلك للعمل في بلاط هنري الثاني ملك إنجلترا (١١٥٤ – ١١٩٠م) عام ١١٧٤م ، وفي عام ١١٩١م استقر هوفدن حيث ألف كتابه المعروف بـ " حوليات روجر دي هوفدن " (٢) وتوفي في عام ١٢٠٢م (٣) .

وقد عالجت حوليات روجر لأحوال أوربا الغربية في الفترة من ٧٣٢ إلى ١٢٠١م ، فضلا عن أنها تطرقت إلى بعض الأحداث الهامة المعاصرة لهذه الفترة سواء في الشرق الأدنى الإسلامي ، أو في الإمبراطورية البيزنطية ، وتتمثل أهمية هذه الحوليات بالنسبة لموضوع البحث

---

(1) Rathelin : PP. 360, 633.

(٢) عنوان الكتاب : -
The Annals of Roger de Hoveden, Comprising the History of England and of Other Countries of Europe from A.D. 1201, translated from the original Latin with notes by Henry T. Riley 2 Vols, London, 1853.

(٣) مزيدا من التفاصيل عن حياة روجر دي هوفدن وحولياته . أنظر :
Smalley, Beryl : Historians in the Middle Ages PP. 113 – 114.

فيما قدمته من خطابات أرسلها صليبي الشام إلي الغرب الأوربي عن أحوالهم في الشرق . وقد حوت هذه الخطابات معلومات عن دور الاسبتارية في أحداث الشام ، هذا فضلا عما أورده روجر نفسه من تفاصيل لها قيمتها حول نشاط مقدم الاسبتارية وأعضاء الجماعة لدي ملوك الغرب الأوربي من أجل إرسال النجدات إلي " الأراضي المقدسة " .

وأهم هذه الخطابات :-

- خطاب كان يحمله وفد من الاسبتارية والداوية في الخامس والعشرين من أبريل عام ١١٨١م إلي هنري الثاني ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا بشأن بذل المساعدات العاجلة للصليبيين في الشام (١) .
- خطاب ثييري Thierry مقدم الداوية السابق إلى ملك إنجلترا في يناير ١١٨٨م والذي أشاد فيه بدور الاسبتارية في النجاح الذي أحرزه ماركيز مونتفرات ضد الأسطول المصري أثناء الدفاع عن صور ضد حصار المسلمين لها ، وأيضا دفاع فرسان الجماعة المستميت عن قلاعهم ، كوكب الهوي ، وحصن الأكراد ، والمرقب (٢) .
- خطاب جيوفري دونجون Geoffrey Donjon مقدم الاسبتارية في عام ١٢٠١م إلى بريور Prior الجماعة في إنجلترا ، ورد الفعل الذي أحدثه هذا الخطاب لدي ملكي إنجلترا وفرنسا (٣) .

يضاف إلى ذلك ما أورده روجر عن مشاركة الاسبتارية في حماية الممتلكات الجنوبية للصليبيين ضد هجمات صلاح الدين عام ١١٧٧م (٤) وما ذكره عن المقابلة التي تمت بين روجر دي مولين مقدم الجماعة وبطريرك بيت المقدس من جانب وهنري الثاني ملك إنجلترا من جانب آخر حيث

---

(1) Roger de Hoveden : Vol. II PP. 3 – 5 , P. 15
(2) Ibid. Vol. II, P. 90.
(3) Ibid. Vol. II, PP. 542 – 547.
(4) Ibid. Vol. II, PP. 452 – 453.

أعطت التفاصيل التي سجلها عن موقف البلاط الإنجليزي من هذه السفارة صورة عن مكانة مقر الاسبتارية الموجود هناك ودوره في هذا الصدد ، كما أكدت أن الغرب الأوربي خلال هذه الفترة كان منشغلا بمشاكله عن صليبي الشام (١) .

هذا فضلا عن الإشارات المتعلقة بدور الاسبتارية في تتويج سيبيلا وزوجها جي لوزنيان ملكين علي بيت المقدس (٢) والمصير الذي لاقاه مقدم الجماعة وفرسانه في موقعة رأس الماء في أول مايو عام ١١٨٧م (٣) وإبقاء صلاح الدين علي عشرة من الاسبتارية داخل بيت المقدس بعد إجلاء الصليبيين عنها للقيام بعلاج المرضي والجرحى ، من غير القادرين علي المسير ، في المستشفي حتى يتم شفاؤهم (٤) وأخيرا الإشارة إلى دور مقدم الاسبتارية في اطلاع الغرب الأوربي علي أحوال الشام بصفة شبه مستمرة وذلك من خلال خطاب للبابا انوسنت الثالث إلى ملوك الغرب في عام ١٢٠٠م (٥) ويؤخذ علي روجر أف هوفدن مبالغاته في تصوير بعض المواقف بل وجنوحه إلى الخيال في بعض الأحيان فقد بالغ - علي سبيل المثال - في وصف انتصار الصليبيين علي المسلمين في موقعة تل الصافية (تل جيزر) نوفمبر عام ١١٧٧م/ جمادى أول ٥٧٣هـ حيث أطلق العنان لخياله كي يصور كيف أن الله " أنزل حشودا من جند السماء ظهرت وهي تهبط بسلم لمساعدة الصليبيين في هجومهم علي " الوثنيين " (يقصد المسلمين) (٦) .

(1) Ibid. Vol. II, PP. 46 – 48.
(2) Ibid. Vol. II, P. 62.
(3) Ibid. Vol. II, PP. 64 – 65.
(4) Roger de Hoveden : Vol. II, P. 90.
(5) Ibid. Vol. II, P. 473.
(6) Ibid. Vol. I, P. 453.

لكن هذا لم يقلل من قيمته كمصدر استفاد منه الباحث في التعرف علي نشاط الاسبتارية السياسي والحربي لصالح " القضية الصليبية " خصوصا الدور الذي لعبوه من خلال المراكز التابعة لهم في الغرب الأوربي ومن خلال اتصالاتهم بالبابوية وملوك الغرب لإيقافهم علي أحوال صليبي الشام من أجل بذل المساعدات وتجهيز الحملات لنجدتهم .

ويلي ذلك ما كتبه روجر أف وندوفر Roger of Wendover باسم " أزاهير التاريخ " Flowers of History . ويشتمل هذا المؤلف علي تاريخ الفترة الممتدة من سنه ٤٤٧ إلى سنه ١٢٤٥م . وقد احتوي خطاب البابا لوكيوس الثالث (١١٨١ – ١١٨٥م) الذي حمله روجر دي مولين مقدم الاسبتارية في عام ١١٨٥م إلى هنري الثالث ملك إنجلترا (١) علي تفاصيل ما دار في المجلس الذي عقده الملك الإنجليزي في صالة الاسبتارية في كليركنيول Clerkenwall في الثامن عشر من مارس ١١٨٥م (٢) وكذلك التدابير التي اتخذها البابا انوسنت الثالث بشأن توفير الإمدادات والمؤن لصليبي الشام حيث تولي تصريف الشئون المالية المتعلقة بالأنفاق علـــي متطلبات الدفاع عـــن " الأراضي المقدسة " حنا مارشال الاسبتارية ومعه بعض المندوبين ومقدم الجماعة (٣) ، هذا فضلا عن دور الاسبتارية في أحداث الحملة الصليبية الخامسة (٤) وموقف أعضائها من الإمبراطور فريدريك الثاني أثناء وجوده بالشام (٥) ويلاحظ أن روجر أف وندوفر بالغ كثيرا في وصف المصاعب التي كان يتعرض لها الحجاج اللاتين القادمون إلى الأراضي المقدسة أثناء خضوعها لسلطان الأتراك السلاجقة (٦) وأيضا فيما كتبـه عـن استعدادات المسلمين ضـد الغزو

---

(1) Roger of Wendover : Flowers of History, 2 Vols, trans. From the Latin by J.A. Gilles, London, 1849, Vol. II, P. 56.
(2) Ibid. Vol. Iim PP. 56 – 57.
(3) Roger of Wendover : Vol. II, P. 344.
(4) Ibid. Vol. II, P. 387, PP. 405-407, P. 416-419, PP. 435-436.
(5) Ibid. Vol. II, PP. 511-512.
(6) Ibid. Vol. I, P. 336.

الصليبي المرتقب لمدينه بيت المقدس (١) مما يدل علي انه نقل مادته التاريخية عن الفترة المبكرة من عصر الحروب الصليبية من كتابات المؤرخين القدامى الذين اتسمت رواياتهم بالتعصب وإنكار مبدأ التسامح الذي أشتهر به المسلمين في معاملتهم لغيرهم من " النصارى وأهل الذمة " .

ونختتم كتاب الحوليات الغربيين بالراهب الإنجليزي متي الباريزي Mathew of Paris الذي يعتبر من كبار كتاب القرن الثالث عشر ، وقد وضع متي تاريخه المعروف عن إنجلترا باللاتينية تحت اسم Historia Anglarum (٢) بناءا علي طلب ملكها هنري الثالث (١٢١٦-١٢٧٢م) ويبدأ الكتاب بأحداث عام ١٢٣٥م وينتهي في عام ١٢٥٩م وهي السنة التي مات فيها المؤلف ، ثم أكمل هذا التاريخ حتى عام ١٢٧٣ راهب بدير القديس ألبان بإنجلترا ويدعي وليم ريشانجية Guillaume Rishanger (٣) .

ولحوليات متي الباريزي أهميتها بالنسبة لموضوع البحث إذ أنها تضمنت العديد من الخطابات المتبادلة بين القادة الصليبيين في الشام وأعوانهم في الغرب الأوربي والتي احتوت مادة تاريخية عن دور الاسبتارية في المجالات المختلفة التي تخدم بشكل مباشر أو غير مباشر قضية الصراع الصليبي الإسلامي ، فضلا عما يذكره متي بين الحين والآخر من أخبار تخدم هذا الموضوع . ومن قبيل ذلك ما أورده في أحداث عام ١٢٣٧م عن إرسال اسبتارية إنجلترا مساعدات حربية ومالية إلي إخوانهم في الشام . فقد أعطى هذا المؤرخ صورة للأسلوب الذي كان متبعا لدي مراكز الجماعة في

---

(1) Ibid. Vol. I, PP. 427-428.

(2) Matthew of Paris : English History from the year 1235 to 1273, trans. From the Latin by J.A. Gilesm 2 Vols, Londonm 1852-53.

(٣) عن تاريخ حياة متي الباريزي وحولياته انظر بالتفصيل :

Smalleym Beryl : Op. Cit. PP. 160-163.

أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي بلاد الشام ، ص ١٩ – ٢٢ .

الغرب عند تجهيز إمدادات لمقرهم الرئيسي في الشرق ، وهو أسلوب اتسم بروح الاستعراض والرغبة في الدعاية للجماعة بين أهل أوربا الغربية (١) وفي هذا الصدد كان وصف متي الباريزي لمثل هذه المواقف يحمل في طياته أحيانا طابع السخرية والتهكم بحيث لم يتورع عن أن يصف مشاعر الاستياء التي سادت الغرب الأوربي خلال الأربعينيات من القرن الثالث عشر إزاء الاسبتارية والداوية علي نحو فاضح يسلب الجماعتين كل مظهر من مظاهر الإخلاص للقضية الصليبية ولم يترك لأعضائها إلا الجشع والخسة والدناءة (٢) ، مما يفرض علي الباحث قبول هذه الروايات بشيء من التحفظ والحذر خصوصا وان متي كان يدون كل ما يسمعه أو يصل إليه دون التحقق من صحته أو زيفه (٣) .

أما الخطابات التي نقلها متي الباريزي وتضمنت معلومات عن دور الاسبتارية فهي : -

- خطاب من ايرل مونتفرات في عام ١٢٣٩م إلي زوجته كي تبعث به إلى الايرل ريتشارد أف كورنوول قائد الحملة الإنجليزية المزمع خروجها إلي الشرق ، أشار فيه إلي أن الاسبتارية وجهوا النصح إلي ثيوبولد كونت شامباني وملك نافار للعدول عن مطاردة القوات المصرية خوفا من الخديعة أو اللجوء إلي قتل الأسري الصليبيين الذين بأيديهم ومن بينهم بطرس دي فيلبرايد مقدم الاسبتارية (٤) .

(1) Cf. Mathew of Paris, Vol. I, PP. 63-64.

(٢) انظر هذا الوصف في : Cf. Ibid. Vol. I, P. 484

(٣) أنظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢١.

(4) Matthew of Paris : Vol. I, P. 273.

- خطاب لريتشارد أف كورنوول بعث به إلي إنجلترا في عام ١٢٤١م ذكر فيه أنه أصغي هو الآخر لنصيحة قائد الاسبتارية الأعظم والخاصة بقبول عروض الصلح المقدمة من سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب ، وترتب علي ذلك أن وقعت معاهدة سلام مع مصر في الثامن من فبراير عام ١٢٤١م تضمنت شروطها : إعادة كوكب الهوي وبيت جبرين وجميع القرى التي كانت تابعة للجماعة ، وأيضا كل ما هو خاص بهم من المنازل والأراضي علي الطريق الموصل من بيت المقدس إلي بيت لحم ومن بيت المقدس إلي رام الله ، وإطلاق سراح أسري غزة وكان من بينهم بعض الاسبتارية (١) .
- خطاب مقدم الاسبتارية إلي أحد أعضاء الجماعة في نيو كاسل أشار فيه إلي تأييد الجماعة للاتفاق مع مصر (٢) .
- خطاب روبرت بطريرك بيت المقدس إلي إنجلترا عن موقعة غزة وما أصاب الاسبتارية فيها (٣) .

وفضلا عن ذلك فقد كانت حوليات متي الباريزي مكملة لسيرة جوانفيل في تتبع دور الجماعة وموقفها من الأوضاع السياسية أبان إقامة لويس التاسع في مصر والشام في الفترة من ١٢٤٨-١٢٥٤م . وفيما تلا هذه الفترة من أحداث انفرد تاريخ متي بالإشارة إلي هذا الدور في بعض منها أو تقديم تفاصيل إضافية تزيد الأمر وضوحا أمام الباحث مثل ما ذكره بالنسبة لدور حامية الاسبتارية في الدفاع عن عسقلان ضد حصار الجيش المصري لها في عام ١٢٤٧م (٤) .

---

(1) Matthew of Paris : Vol. I, PP. 365-368.
(2) Ibid. Vol. I PP. 497-500.
(3) Ibid. Vol. I PP. 522-528.
(4) Ibid. Vol. I P. 529.

وهناك مصادر أخري أفاد منها الباحث ويجدر الإشارة إليها مثل " حوليات مملكة بيت المقدس " التي تتناول الفترة من سنة ١٠٩٧م إلي سنة ١٢٩١م والتي قام بنشرها كل من رهرشت Rohricht ورينوه Raynaud (١) والجزء الثالث من تاريخ ميخائيل السوري Michel le Syrien (٢) وكتابات الحجاج الغربيين والرحالة الذين زاروا الأراضي المقدسة وسجلوا مشاهداتهم من أمثال برنارد الراهب Benard the Mouk وسيولف وحنا أف ورزيزج John of Wurzbu~g وثيودريك Theoderich وبنيامين التطيلي وبوركارد أف مونت سيون Burchard of Mont Sion ولودلف فون سوكيم Ludolph Von Suchem (٣) وغيرهم ممن سجلوا في تقاريرهم وصفا لما كان عليه الوضع داخل مستشفيات الاسبتارية وقلاعهم ومنشآتهم الأخرى إلي جانب كتاباتهم عن الموقف بين الصليبيين والمسلمين خلال فترة إقامة كل منهم في الشام وهذه كثيرا ما أفادت موضوع البحث من زوايا عديدة ومختلفة .

هذا فيما يتعلق بالمصادر الأجنبية المعاصرة والمتأخرة ، أما المصادر العربية فأنها في الواقع لم تتعرض إلا لجوانب محدودة في هذا البحث تتمثل في تلك الإشارات العابرة التي وردت بها عن دور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي .

ويلاحظ أن هذه المصادر بصفة عامه أنصب اهتمامها علي تسجيل أخبار الدول والممالك الإسلامية ومشاكلها الداخلية الناجمة عن المؤامرات أو النزاع بين أمراء البيوتات الحاكمة ، هذا فضلا عن اهتمام المؤرخين العرب بالنواحي الاجتماعية والتراجم أكثـــر مـــن اهتمامهم بتـــسجيل

---

(1) Rohricht, R. (ed.) Regesta Regni Hierosolymi tani (1097-1291) Oeniponti 1904.

(2) Michel le Syrien : Chronique de Michel Le Syrien, Patriarche Jocobite d' Antioche ed. Chabot 3 Vols. Paris 1905.

(3) Cf. Palestine Pilgrims ' Text Society, 13 Vols London 1887-1897.

الأحداث الخاصة بالعلاقة بين المسلمين والصليبيين ، وذلك باستثناء قلة منهم فرضت عليهم الظروف التي عاصروها أن يولوا ذلك الجانب اهتماما خاصا أمثال ابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) والعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) وابن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) وأبو شامة (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) ومحي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) وبيبرس الداودار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) وابن ايبك الداوداري (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) .

فابن شداد اختص في تاريخه بسيرة صلاح الدين الأيوبي الذي قضي سني حكمة في الفترة من ١١٧٤ إلى ١١٩٣م في جهاد دائم ضد الصليبيين ومن ثم اقترنت سيرته بأعماله وجهوده في هذا الميدان مما جعل كتاب ابن شداد المسمي " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " بمثابة مؤلف عن الصراع الصليبي الإسلامي في عصر صلاح الدين . وكذلك كان الحال بالنسبة لكتاب محي الدين بن عبد الظاهر " تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور " والذي كان سجلا حافلا بجهود سلاطين المماليك ضد الصليبيين حتى إجلائهم كلية عن الشام في عام ١٢٩١م .

هذا بينما اهتم المؤرخون الآخرون بالتاريخ للدول الإسلامية متمثلة في الزنكيين والأيوبيين والمماليك . وهذه الدول حسب ترتيبها دأبت علي مقاومة الصليبيين منذ ظهور عماد الدين زنكي في الثلاثينات من القرن الثاني عشر حتى نجاح الاشرف صلاح الدين خليل في طرد بقاياهم مع بداية العقد الأخير من القرن الثالث عشر .

ويضاف إلي المصادر العربية السابقة كتب التواريخ العامة ومن أهمها : تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) و " المختصر في أخبار البشر " لأبى الفدا الحموي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و " تتمة المختصر في أخبار البشر " لابن الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) ومخطوط عيون التواريخ للكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) ومخطوط نزهة الأنام في تاريخ الإسلام لابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) والسلوك لمعرفة دول

المملوك للمقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) ومخطـــوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) .

وتنحصر أهمية هذه المصادر بالنسبة لموضوع البحث بصفة عامة في أنها قدمت مادة تاريخية عن أحوال العالم الإسلامي في غضون القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما أنها بما تحتويه من إشارات خاصة بالعلاقات بين الصليبيين والمسلمين أفادت الباحث في تأكيد المعلومات الواردة في المصادر الغربية ومعرفة مدي مطابقتها للواقع ، خصوصا وأن المصادر العربية التي تم الرجوع إليها كانت مادتها خالية من طابع التهويل والمبالغة التي اتسمت به معظم المصادر الأجنبية ، ومن ثم كانت المصادر العربية بالنسبة للباحث ميزانا حدد قيمة المادة التاريخية التي احتوتها المصادر الغربية من خلال مقارنة الخطوط العريضة للأحداث لدي الجانبين وهو أسلوب ساعد أيضا علي تحديد دور الاسبتارية في هذه الأحداث عن طريق الاستعانة بالإشارات الصريحة والتفاصيل الإضافية التي امتازت بها المصادر الأجنبية دون الأخرى العربية .

فقد اقتصر تنويه المؤرخين العرب إلى الصليبيين في كتاباتهم بمصطلحين هما " الفرنج " أو " العدو " دون أن يهتموا بتحديد دور كل عنصر من العناصر الفرنجية ونلتمس لهم العذر في هذا الصدد لانهم كانوا فيما يبدو لا يستطيعون التمييز بين هذه العناصر بالقدر الذي يمكن للباحث من خلاله أن يتعرف علي دور الاسبتارية مما أوردته المصادر العربية بشكل مباشر . فالمناسبات التي كان فيها موقف هؤلاء الفرسان بارزا أو بمعني أدق كانوا هم أصحاب الدور دون غيرهم من الصليبيين لم يغفل بعض المؤرخين العرب ، الذين كانوا علي درجة كبيرة من الوعي ، الإشارة إلى دورهم ، وان اختلفوا فيما بينهم في التسمية فالبعض ينسبهم إلي المكان التابع لهم بقوله علي سبيل المثال : " أهل المرقب " أو " الفرنج الذين بحصن الأكراد " وما شابه ذلك ، بينما كان قلة من هؤلاء المؤرخين اكثر وضوحا بالإشارة إليهم أنهم " الاسبتار " أو اسبتارية المرقب "٠٠٠٠٠٠٠ الــــخ .

ويمكن حصر الإشارات الواردة في المصادر العربية التي بين أيدينا عن الاسبتارية وأفادت موضوع البحث فيما ذكره ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) في تاريخه المعروف بذيل تاريخ دمشق عن نكبة الاسبتارية في بانياس عام ١١٥٧م/٥٢٢هـ (١) والعماد الكاتب الأصفهاني صاحب كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي " والذي ضمنه قصة استعادة صلاح الدين لبيت المقدس من الفرنج . فقد أشار العماد إلي هلاك الاسبتارية ووقوع جماعة من فرسانها أسري لدي المسلمين في موقعة رأس الماء أول مايو ١١٨٧م/ ١٨ صفر ٥٨٣هـ (٢) وموقف صلاح الدين من الاسبتارية بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين (٣) ووجود جماعة من أعضاء الجماعة في مدينة بيت المقدس عندما حاصرها المسلمون في سبتمبر ١١٨٧م / رجب ٥٨٣هـ ، ودخول فرسانهم في ضمان افتداء أسري بيت المقدس بعد سقوطها (٤) كما ذكر انه أثناء حصار المسلمين لمدينه صور " كثرت أسواء الاسبتارية " (٥) فضلا عما أورده عن دورهم في مقاومة حصار صلاح الدين لقلاعهم في كوكب الهوي ، وحصن الأكراد ، والمرقب (٦) واشتراكهم مع الصليبيين في حصار عكا (٧) ثم توليهم أمر المفاوضات مع المسلمين خلال الحملة الصليبية الثالثة حيث طلب ريتشارد من العادل في عروض الصلح " أن يرضي الاسبتار والداوية ببعض القرى " (٨) .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل التاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
(٢) الأصفهاني : العماد الكاتب : الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٣ .
(٣) الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٤) الأصفهاني : المصدر السابق ، ص١٢٥ ـ ١٢٧ .
(٥) الأصفهاني : المصدر السابق ، ص١٦١ .
(٦) الأصفهاني : المصدر السابق ، ص١٧٧ ـ ١٧٩ ، ٢٧٠ ـ ٢٧٤ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٧) الأصفهاني : المصدر السابق (المكتبة العربية العقلية) ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥ .
(٨) الأصفهاني : المصدر السابق ، (المكتبة العربية العقلية) ص ٥٥٥ .

ولم يختلف عن ذلك كثيرا بهاء الدين بن شداد في كتابة ، " سيرة صلاح الدين " لكن يؤخذ عليه أن إشاراته عن دور الاسبتارية كانت مقتضبة بل انه في بعض المناسبات أغفل ذكرهم كلية . ورغم ذلك فقد كان ابن شداد مصدرا هاما اعتمد عليه الباحث في تأكيد الروايات الواردة في المصادر الغربية خصوصا ما يتعلق منها بأحداث الحملة الصليبية الثالثة (١) .

أما أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد) صاحب كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " وكتاب " تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل علي الروضتين " فقد تجاوزت اهميته بالنسبة لموضوع البحث المصدرين السابقين إذ أن كتابيه حفلا بالعديد من الإشارات عن دور الاسبتارية علي مدي فترة زمنية طويلة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر فضلا عن انه عوضنا عن ابن شداد بتفاصيل لها قيمتها زادت الأمور وضوحا بالنسبة لروايات هذا الأخير المختصرة (٢) وهو ما يمكن تبينه بوضوح من ثنايا الكتاب .

ويلازم أبو شامة في كتابة ، " الذيل علي الروضتين " جمال الدين بن واصل في تاريخه " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " في عدد من المناسبات الخاصة بعلاقة الاسبتارية بالإمارات الإسلامية المجاورة مثل حماه وحمص ، لكن ابن واصل فاق غيره من المؤرخين العرب بانفراده في تقديم تفاصيل لها قيمتها حول هذا الموضوع حتى الثلاثينيات من القرن الثالث عشر ، ومن قبيل ذلك ما أورده عن حملة الاسبتارية ضد إمارة حماه مايو ١٢٠٣م/رمضان ٥٩٩هـ (٣) وتصدي الملك

---

(١) أنظر : ابن شداد ، بهاء الدين : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ط١ القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٨٥ ، ١٦٧ – ١٦٨ ، ٢٣٤ .

(٢) أنظر أبو شامة : " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " جزءان في مجلد واحد ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج٢ ص٧٥ – ٧٦ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ١٣٥ – ١٣٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ .

(٣) ابن واصل ، جمال الدين : " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " ٤ أجزاء ، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠، والجزء الرابع تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع القاهرة ١٩٧٢م ، ج٣ ، ص ١٤١ – ١٤٣ .

المنصور أمير حماه لهم ورفضه رغبتهم في الصلح (١) وأيضا خروج اسبتارية حصني الأكراد والمرقب وإغارتهم علي بعرين في الثالث من يونيه عام ١٢٠٣م/ الحادي والعشرين من رمضان ٥٩٩هـ وهزيمتهم علي أيدي الملك المنصور (٢) وقد أسفرت هاتان الجولتان عن عقد هدنة بين الاسبتارية وصاحب حماه (٣) .

ولم يغب عن بال ابن واصل أن الاسبتارية قاموا بحملة أخرى علي حماه . كما وقعوا هدنة ثانية مع الملك المنصور في سبتمبر من نفس العام / محـــرم ٥٩٩هـ (٤) . وهو الأمر الذي اختلط علي بعض المؤرخين أمثال أبو شامة ، وسبط الجوزي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م) صاحب " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " بحيث انهما لم يشيرا في أحداث هذه السنة ألا إلي حملة واحدة للاسبتارية علي حماه (٥) وقد استمر ابن واصل بعد ذلك في معالجة موقف الاسبتارية من إمارة حماه في مناسبتين أخريين أحدهما : إغارة لهم في عام ١٢٠٧م/٦٠٥هـ علي المدينة ، وفي هذه المناسبة خرج إليهم العادل بنفسه وشن هجوما علي حصن الأكراد لكن لم يستطيع الاستيلاء عليه (٦) والآخر في عام ١٢٣٠م/٦٢٨هـ حينما خرج الاسبتارية من هذا الحصن قاصدين حماه فتصدي لهم الملك المظفر تقي الدين عند أفيون ما بين حماه وبعرين وهزمهم (٧) .

---

(١) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .
(٢) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٤٨ ــ ١٤٩ .
(٣) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٥٢ ــ ١٥٤ .
(٤) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٦٢ ــ ١٦٤ .
(٥) أبو شامة : الذيل علي الروضتين ، عني بنشرة السيد عزت العطار الحسنى ، ط١ القاهـرة ١٩٤٧م ص ٥١ .
سبط الجوزي : " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " ج١ مخطوط مصور شيكاغو ١٩٠٧م لوحة ٣٤١ .
(٦) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٧٥.
(٧) ابن واصل : ج٤ ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٥

أما بالنسبة لإمارتي حلب وحمص فقد ذكر ابن واصل أنه انتقاما من الاسبتارية لإغارتهم المتكررة علي المناطق المجاورة لهم أرسل صاحب حلب " عسكرا إلي المرقب " لحصاره لكنهم عادوا محملين بالغنائم بعد أن كادوا أن يتمكلوا من فتحه (١) أعقب هذه المحاولة بإغارة صاحب حمص علي منطقة حصن الأكراد (٢)

ثم تابع صاحب " مفرج الكروب " نشاط اسبتارية هذا الحصن ضد حمص وردود الفعل لدي المسلمين إزاء غاراتهم المتكررة في عامي ١٢٠٥م/٦٠٣هـ ١٢٠٧م/٦٠٥هـ (٣) إلى أن توج هذا الموقف الأخير بخروج عسكر حلب في فبراير ١٢٣١م/ منتصف ربيع الآخر ٦٢٨هـ وأغاروا علي " ناحية المرقب ونهبوا حصن بلنياس " ، ثم استقرار الهدنة بين عسكر حلب والاسبتارية في الثالث والعشرين من يونيو ١٢٣١م/٢٠شعبان ٦٢٨هـ (٤) وهكذا أمدنا ابن واصل بمادة تاريخية لها قيمتها بالنسبة لعلاقة الاسبتارية بالإمارات الإسلامية المجاورة أبان العقود الثلاثة الأولى من القرن الثالث عشر .

وبالإضافة إلى ذلك هناك مجموعة أخرى من المصادر العربية أفاد الباحث مما أوردته عن دور الاسبتارية خصوصا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر . وأهم هذه المصادر مخطوط " زبده الفكرة في تاريخ الهجرة " لبيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) و " ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " لليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) و " كنز الدرر وجامع الغرر " لابن ايبك الدواداري (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و " تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور " لابن

---

(١) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٦٥ .
(٢) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٦٨ .
(٣) ابن واصل : ج٣ ، ص ١٦٨ ، ١٧٢ – ١٧٣ .
أبو شامة : الذيل علي الروضتين ، ص٥٧ ، ١٦٧
لكنه ذكر انهم " الفرنج " بينما أشار ابن واصل إلي أنهم " أهل حصن الأكراد "
(٤) ابن واصل : ج٤ ، ص ٣١٠ – ٣١١ .

عبد الظاهر و " المختصر في أخبار البشر " لأبى الفدا الحموي وأخيرا الجزءان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون من " نهاية الأرب في فنون الأدب " للنويري الكندي (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) فقد احتوت هذه المصادر مادة تاريخية عن جهود المسلمين الحربية من أجل استرداد المعاقل والقلاع التي كانت في حوزة الاسبتارية الواحدة تلو الأخرى ومقاومة قوات الجماعة لهذه الجهود دون جدوى مثلما حدث بالنسبة لهم في قيسارية وأرسوف (١) وحصني عرقة وجبل عكار (٢) وحصني الأكراد (٣) والمرقب (٤) وأيضا اتجاه الاسبتارية إلى اتباع أسلوب المهادنة كلما أحسوا بضعف موقفهم أمام الخطر الإسلامي الجارف . وفي هذا الصدد قدم المؤرخون العرب خصوصا النويري وبيبرس الدوادار ، ومحيي الدين بن عبد الظاهر وابن ايبك نصوصا كاملة لمعاهدات سلام بين الاسبتارية وسلاطين المماليك ، ومن هذا القبيل الهدنة بين بيبرس واسبتارية المرقب في الخامس عشر من أبريل ١٢٧١م/ مستهل رمضان ٦٦٩هـ (٥) والهدنة بين الجماعة والسلطان سيف الدين قلاوون الألفي في الثالث من مايو ١٢٨١م/١٢المحرم ٦٨٠هـ (٦) ، وأخري بين الطرفين أيضا في الثالث

---

(١) بيبرس الدوادار : زبده الفكرة في تاريخ الهجرة ، " مخطوط تصوير شمسي " ج٩ لوحة ٩٠ – ٩١ .

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ٤أجزاء في مجلد واحد ، ط١ القاهرة ١٩٠٧م ج٤ صحيفة رقم ٢ .

اليونيني : ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، المجلدان الأول والثاني ، حيدر أبدا الدكن المهند ١٩٥٥م ، المجلد الثاني ، ص ٣١٨- ٣٢٠ .

(٢) النويري : " نهاية الأرب في فنون الأدب " ج٢٨ مخطوط لوحة ٨٧ ، ١٠٢ .

(٣) اليونيني : ص٣٨٢ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ – ٤٤٦ ، بيبرس الدوادار : ج٩ ، لوحة ٩٦ ابن ايبك الداوداري : كنز الدرر وجامع الغرر ج٨ ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٥١ – ١٥٣ .

(٤) أبو الفدا : ج٤ صحيفة ١٤ ، ٢١ ، ابن ايبك ج٨ ص ٢٣٩ ، بيبرس الدوادار لوحة ١٦٤ – ١٦٥ ، محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، ط١ القاهرة ١٩٦١م ، ص ٧٧ – ٨٠ .

(٥) اليونيني : ص ٤٤٧ – ٤٤٨ ، النويري ج٢٨ لوحة ١٠٢ + بيبرس الدوادار ج٩ لوحة ٩٧ .

(٦) محيي الدين بن عبد الظاهر : ص ٨٢ – ٨٣

النويري ج٢٩ لوحة ٢٠ ، بيبرس الدوادار لوحة ١٦٥ – ١٦٦ .

الثالث من يونيو ١٢٨٣م/ خامس ربيع الأول ٦٨٢هـ (١) هذا فضلا عما أنفرد به ابن ايبك الدوادار حيث سجل النص الكامل للخطاب الذي بعث به الظاهر بيبرس إلي هيوريفيل مقدم الاسبتارية بمناسبة سقوط حصن الأكراد في أيدي المسلمين في الثامن من أبريل ١٢٧١م/٢٣شعبان ٦٦٩هـ (٢) بينما أورد فقرة منه بيبرس الدوادار في "زبدته" (٣) وهو أمر علي قدر كبير من الأهمية إذ أن الحصول علي الخطاب بلغته الأصلية أفضل بكثير من الرجوع إليه في مصادر أجنبية بلغات مختلفة كاللاتينية أو الفرنسية القديمة (٤) كما أن هذا الخطاب يعد من الوثائق التي تعكس أمورا لها وزنها فيما نحن بصدده .

ومن المصادر العربية الأخرى التي اعتمد عليها الباحث في معالجة نقطة من هذا البحث أو زاوية من زواياه كتب تاريخية مثل : " زبده الحلب من تاريخ حلب لابن العديم " (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) و " الدار المنتخب في تاريخ مملكة حلب " لابن الشحنة (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) و " أخبار مصر " لابن ميسر (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) و " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل " لابن اليمن العليمي (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م) وكتب تراجم مثل " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وكتب جغرافية مثل " احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي { عاش في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي } و " معجم البلدان " لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، وأخيرا كتب الرحالة وتذكر منهم بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م) وابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) . فهذه المؤلفات لها قيمتها في دراسة النواحي التاريخية والجغرافية والأثرية التي تمت بصلة إلي موضوع البحث .

---

(١) محيي الدين بن عبد الظاهر : ص ٨٤ – ٨٥ .
بيبرس الدوادار : لوحة ٢٢٨.
(٢) ابن ايبك : ج٨ ، ص ١٥٢ – ١٥٣ .
(٣) بيبرس الدوادار : ج٩ ، لوحة ٩٦ .
(٤) انظر : Cartulaire Tome III no. 3417 P. 247
Archives de L` Orieut Latin, Tome II (I) P. 398.

أما المراجع الثانوية الأجنبية من كتب المحدثين فأهمها : -

أ - كتب عن الاسبتارية : -

نذكر منها مؤلفات ديلافيل لي رو Delaville le Roulx و أ. ج . كينج E.J. King وريلي سميث Rilley-Smith وفرانشيسكو جابريلي Francesco Gabrieli ووايت وورث بورتر Whiteworth Porter والأب دي فيرتوت L' Abbe de Vertot وادجار هيوم Edgar Hume وأ. دونديو A. Donnadieu .

ب - كتب عن قلاع الجماعة ومنشآتها : -

ومن أهمها ما كتبه بول ديشامب Paul Deschamps وفستري ليسنيو Vestri Licinio وكاثر كارت كينج Cathcart King وكونراد سايك Conrad Schick وواتير موللر Wiener Muller وكاميل أنيلارت Camille Enlart وروين فدن Roin Fedden وت . س . ربوز T.S.R.Boase .

ج - كتب عن الجماعات الرهبانية المحاربة : -

منها ما كتبه ف . وودهاوس F. Woodhouse ولاكروا Lacroix و ج . وليامز J. Williams و ر . س . سميل R. C. Samil ويوشع براور Joshua Prower .

د - كتب عن الحروب والإمارات الصليبية في الشام : -

أهمها ما كتبة ستيفن رانسيمان S. Runciman ورينية جروسيه R. Grousset ومجموعة بنسلفانيا التي تقوم بنشرها ك . م . ستون K.M. Setton وأيضا ما كتبه ستيفنسون Stevenson وآرثر وكنجر فورد Archer & Kings ford وكلود كاهن Claude Cahen والفريد دوجان Alfred Duggan ولويس بريية Louis Brhier وراي E.Rey وجنا ريتشارد Jean Richard وغيرهم .

وفيما يتعلق بالأبحاث العربية الوثيقة الصلة بموضوع الدراسة نذكر رسالة ماجستير للسيدة / نبيلة إبراهيم مقامي عن " فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر " ورسالة دكتوراه للسيد / سامي سلطان سعد عن " الاسبتارية في رودس ١٣١٠- ١٥٢٢م " .

أما الكتب التي تناولت تاريخ الحركة الصليبية بوجه عام فيتصدرها مؤلف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور " الحركة الصليبية ـ صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي " هذا فضلا عن مراجع أخري تناولت تاريخ إمارة أو حملة من الحملات الصليبية ونعني بها مؤلفات الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق " مملكة بيت المقدس الصليبية " و " مقدمات العدوان الصليبي " ومؤلفات الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف " العرب والروم واللاتين " و " العدوان الصليبي علي مصر " و " العدوان الصليبي علي الشام " يضاف إلي ذلك ما كتبه الأستاذ الدكتور حسن حبشي عن " الحرب الصليبية الأولي " وكتاب " الشرق الأوسط والحروب الصليبية " للأستاذ الدكتور السيد الباز العريني و " الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها " للدكتور محمد محمد مرسي الشيخ " و " الحملة الصليبية الخامسة " للدكتور محمود سعيد عمران " وأخيرا مراجع عالجت أحوال أوربا في العصور الوسطي ومن هذا النوع كتاب " أوربا العصور الوسطي " للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، و " الدولة والكنيسة " للدكتور رأفت عبد الحميد .

فهذه المراجع لها قيمتها وأهميتها بالنسبة لموضوع البحث إذا استرشد بها الباحث كثيرا في إيضاح نقاط اكتنفها بعض الغموض ، كما أعطته الخلفية التاريخية التي ساعدته علي فهم قيمة وحجم دور الاسبتارية في الحركة الصليبية بوجه عام .

الفصل الأول

نشأة الأسبتارية ونظمهم الرئيسية

- تمهيد : ظروف النشأة .
- الروايات المتعلقة بأصول قديمة للجماعة .
- تطور العمل الإسبتاري .
- إقامة الامالفيسين للمستشفي والمباني الديرية .
- قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية وتأسيس جماعة الاسبتارية بصفة رسمية
- وصف الرحالة والحجاج الغربيين لمنشآت الجماعة .
- القواعد الرئيسية لنظام الاسبتارية :

أ ـ التنظيم الطبقي لأعضاء الجماعة .

ب ـ الملبس أو الزي .

ج ـ أماكن الإقامة والمآكل .

د ـ الموظفون الديريون .

كانت الظروف التي مرت بها منطقة الشرق الأدنى الإسلامي في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين عاملا للضعف والتمزق أفقدها عنصري الأمان والاستقرار الذين نعم بهما رعايا الدولة الإسلامية علي اختلاف طوائفهم في ظل قوتها وازدهارها ، كما هيأت المناخ للغرب الأوربي الكاثوليكي كي يطمع في تحويل هذه المنطقة إلي دائرة نفوذه تحت ستار حماية الأماكن المقدسة خصوصا بعد أن فقدت الدولة البيزنطية هيبتها أمام ضربات الأتراك وأضحت عاجزة عن القيام بهذه المهمة .

فمنذ أواخر القرن التاسع الميلادي كان عهد قوة الدولة الإسلامية الكبرى التي شيدها العباسيون الأول قد ولي ، وأخذت هذه الدولة تعاني من الانحلال السياسي وما ترتب عليه من ضعف بتجزئتها إلي دويلات متنافسة متعددة في الوقت الذي أصاب فيه الوهن سلطة العباسيين المركزية وأصبح خلفاؤهم مغلوبين علي أمرهم في العراق بل وفي نفس عاصمة دولتهم حتى أصبحوا أشبه بالألعوبة في أيدي العناصر الحاكمة (١)

وفي مصر قامت خلافة أخري مناهضة هي الخلافة الفاطمية تدين بالمذهب الشيعي فأخذت تعمل علي مد نفوذها في المشرق الإسلامي لنشر هذا المذهب والقضاء علي الخلافة العباسية ومذهبها السني .

وقد نجح الفاطميون في توسيع دائرة سلطانهم بسيطرتهم علي معظم البلدان الشامية وتقدمت قواتهم شمالا حتى إنطاكية . إلا انهم بعد أن نعموا بعصر يمثل القوة والازدهار في تاريخهم تعرضوا لأزمات نتجت عن سوء الأحوال الاقتصادية ـ خصوصا بسبب المجاعات ـ والسياسية والحربية ،

(١) أنظر : عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، دار المعارف ١٩٦٦م ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

ولاعتلاء عرش الخلافة خلفاء ضعاف وما تبع ذلك من مؤامرات وتناحر علي المناصب واستغلال سيئ للسلطات (١) .

وقد ظهر الأتراك السلاجقة علي مسرح الأحداث في كل من العراق والشام بعدما اعتنقوا الإسلام (٢) ليشكلوا قوة حيوية جديدة في شمال الشام والجزيرة . وبدأ السلاجقة نشاطهم بسلسلة من الهجمات العنيفة علي أرمينيا وكباد وكيا وغيرها من بلاد الروم ، وتوجهت جهودهم الحربية ضد البيزنطيين بانتصار ألب أرسلان علي الإمبراطور البيزنطي رومانوس يوجينس Romanus Diogenes (١٠٦٧- ١٠٧١) في موقعة منزكرت (٣) سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ وأنزل به هزيمة ساحقة لم تتمكن بيزنطة بعدها من حشد جيش آخر لدرء خطر السلاجقة . وقد فقدت الإمبراطورية البيزنطية في هذه المعركة ما يمكن أن نطلق علية لقب " حامية أوربا المسيحية ضد الإسلام في الشرق " وتمكن الأتراك السلاجقة بعد ذلك من بسط نفوذهم والتوسع علي حساب بيزنطة حتى لقد استولوا علي المراكز البيزنطية في شمال الشام وكذلك في معظم آسيا الصغرى (٤) .

وفي الوقت الذي أخذت الخلافتان العباسية والفاطمية طريقهما نحو التدهور وأسهم في ذلك ما قام بينهما من انقسام وتناحر ، اتجه السلاجقة إلي انتزاع ما استطاعوا انتزاعه من الأقاليم التابعة للعباسيين أو الفاطميين علي حد سواء ، وكان آخر ما استولوا علية البلاد الشامية التي كانت تابعة للفاطميين ، لكن سرعان ما انقسمت سلطنه السلاجقة هي الأخرى إلى دويلات صغري يحكم كل

---

(١) عن أحوال الضعف التي انتابت الخلافة الفاطمية وترتب عليها تقلص نفوذها في البلاد الشامية . أنظر: عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، إسكندرية ١٩٦٨م ، ص ٣٦٣ – ٣٩٥ .

(٢) عن هجرة الأتراك من موطنهم الأصلي واعتناقهم للإسلام وأسبابه أنظر :
Michel Le Syrien : Op. Cit., Tome III, PP. 149-154, 156-157.

(3) Cf. Michel Le Syrien : Op. Cit, PP. 158-159 , 168-170.
أيضا : عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ط٢ ١٩٧٨، ص ٤٠ - ٤١

(٤) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، الإسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

منها أمير مثلما حدث في حلب وإنطاكية ودمشق (١) وهذا الوضع وما ترتب عليه من انقسام المسلمين في هذه المنطقة إلي عدد من الدويلات والقوي المختلفة المتصارعة كان من العوامل التي أدت إلى ضعف قوتهم في الشرق الأدنى واضطراب أحوالهم السياسية (٢) .

وفي غضون هذه الحقبة الزمنية ومنذ القرن العاشر الميلادي بدأ عهد جديد بالنسبة للغرب الأوربي في تاريخ الحج يعتبر العهد الأكبر لحركة الحجاج (٣) حيث توافدت جموعهم علي الأراضي المقدسة بشكل لم يكن مألوفا من قبل من أجل الزيارة والتبرك والإقامة بجوار أضرحة القديسين في الأماكن التي أرتبط تاريخها بحياة المسيحية في عهدها الأول (٤) وقد قطعوا من أجل ذلك المسافات الطويلة مخترقين أراضي آسيا الصغرى وبلاد الشام . وعوملوا من جانب المسلمين والسلطات الإسلامية بسياسة تتسم بالتسامح الذي حض عليه الإسلام ، ولاشك أن ذلك التسامح كان أحد العوامل التي ساعدت علي نشاط حركة الحجاج في ذلك الوقت ، ومن المغالاة والبعد عن الأنصاف أن يتمادى المؤرخون الصليبيون المعاصرون وغيرهم من الغربيين في وصف أحوال الحجاج المسيحيين قبل الغزو الصليبي للأراضي المقدسة بأنهم كانوا يعانون الكثير من الاضطهاد والتعذيب ويعاملون بقسوة ويتعرضون وهم قادمون في الطريق لأعمال السلب والنهب ثم يرجعون هذه المعاملة إلي تعصب المسلمين وعدم تسامحهم (٥) ليجدوا لأنفسهم مبررا فيما

---

(١) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ص ٢٠٢- ٢٠٣ أيضا : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٥- ١٢٠ .
Michel Le Syrien : Op. Cit., PP. 172-173.
(٢) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، ص ٨٥ .
(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٤ . وانظر كذلك : رنسيمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية - ٣ أجزاء - تعريب الدكتور الباز العريني دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ٧١- ٨٠ .
(٤) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولي ، ط٢ ص٦٤ .
(5) Cf. William of Tyre : Vol. I, PP. 78-81.
Also : Primordium et Origo S. Xenodocbii . Op. Cit, P. 434.
Guillaume de Saint-Esteve: Op. Cit, PP. 422-423.

ذهب إليه الصليبيون بعد ذلك عند استيلائهم علي بيت المقدس حيث أعملوا الذبح في الأهالي بوحشية لم تعرف الرحمة ، ولم يضع هؤلاء المؤرخون في الاعتبار الظروف الداخلية والخارجية التي ألمت بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي بصفة عامة (١) والتي أوجدت نوعا من عدم الاستقرار والاضطرابات عاني من جرائها جميع الرعايا الذين يعيشون فيها علي اختلاف طوائفهم مسلمين أو مسيحيين أو يهود.

ولا توجد مناسبة واحدة تعرض فيها للاضطهاد والعنت طائفة بعينها فعلي سبيل المثال ما قام به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦- ١٠٢١م/٣٨٦-٤١١هـ) من إجراءات تعسفية لم يسلم منها المسلمون أو المسيحيون أو اليهود (٢) كما أن مسلك الأتراك السلاجقة ضد الحجاج الغربيين أثناء عبورهم آسيا الصغرى والبلاد الشامية لم يكن مسلكا تعصبيا إزاءهم وحدهم دون غيرهم وإنما اتسمت هجماتهم علي المدن والبلاد التي اجتاحوها بالعنف والوحشية ولم ينجوا منها كل من قابلوه من الأجناس علي اختلاف مذاهبهم وعقائدهم .

وعلي الرغم من ذلك فقد اتخذت هذه الظروف في الغرب الأوربي كذريعة لإثارة عطف واهتمام أولئك الذين يسيطر عامل الورع والتقوى علي بعض جوانب شخصيتهم ، أو أصحاب المصالح الذين يهمهم أمر الأرضي المقدسة بالقدر الذي يضمن لهم مكانتهم في قلب العالم الكاثوليكي أو يحقق لهم مجالا أوسع للسيطرة والنفوذ ، وذلك إزاء أحوال المقيمين في " أرض الميعاد " ، أو القادمين إليها للحج والزيارة . وعلي اثر ذلك ازداد اهتمام الغرب الأوربي بشئون الأراضي المقدسة

---

(١) أنظر هذه الظروف بالتفصيل في : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ص١١ – ١٣٥.
(٢) عن هذه الإجراءات وأثرها علي النصارى أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص٦٦ ، ٦٨ ، ٧٩
وأيضا : المقريزي : الخطط ج٢ الصفحات ٣٤١ وما بعدها ، ص ٤٩٥ – ٤٩٦ .طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.
وكذلك : ابن البطريق (سعيد) كتاب التاريخ المجموع علي التحقيق والتصديق ، بيروت مطبعة الآباء اليسوعيون ١٩٠٩ ، ص ١٨٥ – ١٨٧ ، ١٩٤ .

خصوصا بعد أن أفسحت بيزنطة لهم الطريق عقب هزيمتها أمام السلاجقة في الوقت الذي كانت فيه البابوية تسعي جاهدة لاستغلال الظروف القائمة في الشرق من أجل إخراج هذه الاهتمامات إلي حيز الوجود علي هيئة حملات صليبية تنتزع هذه الأراضي من أيدي المسلمين ونقلها إلى حوزة الكاثوليك اللاتين تحت رعايتها وأشرافها .

تلك هي باختصار الظروف العامة التي نشأت في ظلها الاسبتارية Hospitaliers حتى قيض لها أن تصبح جماعة لها شخصيتها ومكانتها ومعترف بها رسميا من قبل البابوية والغرب الأوربي بأسره بعد الغزو الصليبي للأراضي المقدسة . وترجع بعض الروايات التاريخية أصولهم الأولي إلي فترات زمنية موغلة في القدم عن الوقت المعاصر لهذه الظروف ، بدأت في إحداها منذ ظهور المسيحية (١) ولعل ذلك مرجعه إلى أن الأعمال التي كانت تمارس بنفس الطريقة التي احتذاها الاسبتاريون في عملهم وما كانوا يقدمونه للحجاج المسيحيين من خدمات يعد في نظر هؤلاء الكتاب أصولا اسبتارية قديمة تطورت عنها الجماعة علي مجري الأيام والعصور ، هذا فضلا عن أن الأصول الحقيقية لأي جماعة أو هيئة غالبا ما تكون ضعيفة وغير واضحة في البداية إذا ما قيست بتطور الجماعة فيما بعد مما يكون مدعاة إلي أن يكتنفها الغموض . وقد وجد كتاب الروايات المتعلقة بهذه الأصول نوعا من اللذة في إبعاد هذه الذكريات الأولي عن طبيعتها الأصلية بالتعديل فيها أو إضفاء صفات التمجيد والقداسة عليها ، هذا إلى جانب أن مؤرخي الاسبتارية تأثروا بالروايات الشفوية التي آخذ الخيال يهول ويضخم فيهـا ، وذلك رغبة منهم في تخليد ذكري ما من شأنه أن يبرز مجد جماعتهم بحيث يكون تاريخهم منذ النشأة جديرا بالمهمة التي أسندت إليهم (٢) .

---

(1) Cf. Josphi Historiographi : Op. Cit, PP. 405-410.
De Prima Institutione Hospitalariorum : Op. Cit, PP 401-404.
Primordium et Origo Sacri Xenodochii : Op. Cit, PP 430-432.

(2) Cf. Le Roulx, J.D, Les Haspitaliers en Terre Sainte. P. 3.

وكانت النتيجة أن صيغت هذه الروايات بشكل أبعدها عن سير الأحداث التاريخية المعروفة بسبب خضوعها لرغبات كتابها وأهوائهم ، فمنهم من أتجه إلي تغيير المسميات كي يتحول الدور التاريخي إلي الشخص أو الجنس الذي يريد أن يسنده إليه لينال الفضل بحكم انتمائه إلي هذا الجنس أو إلي جماعة يريد أن يخدمها بكتاباته . فإن المؤرخ جوزيفرس Jasphi - علي سبيل المثال ـ جعل الإمبراطور الروماني جوليان Julianus Romanus (٣٦١ – ٣٦٣م) مضيفا بمستشفي بيت المقدس يقوم علي خدمة الفقراء ، وقد كلفة بهذه المهمة المسيح الذي تراءى له ، وأنقذه من خطر كاد أن يودي بحياته (١) ثم تضيف الأسطورة أن النبي ذكريا وزوجته وابنهما يوحنا ـ عليهم السلام ـ كانوا يقومون بالخدمة في المستشفي ودار ضيافة الفقراء قبل مجيء جوليان هذا (٢) .

فبالإضافة إلي عدم صحة هذه الأحداث زمنيا وتاريخيا ، فان جوليان الذي نسب إليه المؤرخ اليهودي هذا الدور هو المعروف بيوليانوس العاصي أو جوليان المرتد الذي يمثل عهده آخر محاولة للوثنية في صراع الحياة أو الموت ضد المسيحية (٣) فكيف يكون وثنيا ويقدم للمسيحية ـ كما ذكرت الرواية ـ أعمالا خيرة في مقدمتها رعاية فقراء المسيح . ويبدوا إن لم يكن مؤكدا أن الذي دفع جوزيفوس إلي وضع هذا الإمبراطور في مكانه من هذا القبيل هو ما أظهره جوليان من نوايا طيبة إزاء اليهود (٤) .

---

(1) Cf. Josphi Historiography : Po.cit, P. 407.
(2) Cf. Ibid P. 406.
Also : Le Commencement de La Fonacion. Op.citm 414.
(٣) أنظر : إسحاق عبيد : الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ط١ القاهرة ١٩٧٢م ص٦١ وما بعدها .
(٤) عن موقف جوليان من اليهود أنظر : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

أما الإشارة إلي أن النبي ذكريا في الأصول الأولي للاسبتارية إنما ترجع إلي الرغبة في تنسيق أحداث هذه الأصول مع ما سيحدث بعد ذلك من اتخاذ القديس يوحنا المعمدان راعيا للجماعة ويذكر ويلي سميث Rilley-Smith أنه كان من الضروري بالنسبة لكاتب الأسطورة أن يربط هذا القديس بتاريخ المستشفي في الأزمنة القديمة وذلك عن طريق بث الاعتقاد بأن حكومة الاسبتارية آلت إلي والد ذكريا بتوليه إدارة الأعمال داخل مستشفاهم والخدمة بها (١) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن كتاب هذه الروايات من خلال رغبتهم في خدمة أغراض الجماعة غالوا كثيرا في إضفاء صفة القداسة علي المستشفي بأن جعلوها مكانا حافلا بالمعجزات والكرامات أقامت فيه السيدة العذراء ، وزاره المسيح والحواريون والرسل (٢) حيث اختار هؤلاء الاخيرون سبعه من الشمامسة (٣) للقيام علي حراسة وإدارة بيت الاسبتارية كما ألقوا في هذا المكان العديد من المواعظ والتعاليم وجميعها تحض بشكل مباشر علي بذل العطايا والتبرع للفقراء (٤) والغرض من ذلك - كما هو واضح - كان الحفاظ علي حماس العامة وتحريك مشاعرهم لصالح الاسبتارية . لأن هذه التعاليم والقصص كانت - كما يذكر دلافيل لي رو - بمثابة استشهاد لا يعارض لدي أصحاب العقول النقية في ذلك العصر الساذج مما يضمن للجماعة كرم عطاياهم أو انضمامهم إليها (٥).

---

(1) Cf. Rilly-mth, J. : TheKinghts o St. John in Jeruslem and Cyprus (1050-1310) Macmillan 1967, P. 32.
(2) Cf. De Primordiis et Inventione Sacrae.. Op.cit, PP. 428-429.
Also : Le Fondement du S. Hospital.. Op.citm PP. 433-34.
(٣) هؤلاء الشمامسة السبعة كما وردت أسمائهم في الرواية هم : الشهيد ستيفن Stephanus وفيليب وبروخاموس Prochonus ونيكانوريس Nycanoris وبرمينا Permena ونيقولا Nicolaus وانتيوكنيس Antyocenus
Cf. Jospgi Hitoriogaphi : Op.cit, P. 407.
(4) Cf. Ibid. PP. 407-408.
(5) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit, P.16.

ونظرا لان هذه الروايات المتعلقة بالأصول الأولي للاسبتارية احتوت أقاصيص مختلفة مستوحاة من العهدين القديم والجديد { التوراة والإنجيل } فقد تبناها العالم المسيحي بشكل كلي لدرجة أن البابا كلستين الثالث Coelestinus III (١١٩١- ١١٩٨م) أقرها رسميا بمقتضى مرسوم بابوي في السادس عشر من يوليو عام ١١٩١م ثم جدد هذا المرسوم البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣- ١٢٥٤م) بعد ذلك بحوالي نصف قرن (١) ، كما وافق هيوريفل Hugo Revel مقدم الاسبتارية (١٢٥٨- ١٢٧٦م) (٢) في عام ١٢٦٠م علي اعتبار القديس ستيفن الشهيد أحد الشمامسة السبعة السالفي الذكر ، الذين ـ كما ذكرت هذه الروايات ـ عينهم الرسل والحواريون لإدارة المستشفي ، واحدا من أسلافه (٣) يضاف إلي ذلك ما نادي به أحد موظفي الاسبتارية (نائب موثق) في عهد المقدم بطرس دي أوباسون Peter D` Aubasson (١٤٧٦- ١٥٠٣م) ويدعي وليم كورسينWillim Caoursin وهو أن يهوذا المكابي Judas Maccabaeus ويوحنا هيركانوس John Hircannus (٤) اللذين تنسب هذه الأساطير إليهما بناء دار الضيافة وتوفير سبل الراحة والطعام للحجاج والمرضي والفقراء (٥) هما المؤسسان للمستشفي التي أنشئت لرعاية الحجاج القادمين للزيارة (٦) . وفي صدر النظام الذي وضعه ريموند دي بوي Raimundus de Podio المقدم الثاني للاسبتارية (١١٢٠- ١١٦٠م) (٧) أمر كل من يهب نفسه للانضمام إلى الجماعة أن يقتدي بمثل المكابيين Maccabees (٨) .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I No . 911, Tome II No. 2674.
(2) Cf. Les Archivesm P. 211.
(3) Cf. Cartulaire Tome III No. 3002.
(٤) ذكرت الرواية عن يوحنا هيركانوس أنه محارب شجاع ينتمي إلي الشعب الإسرائيلي مما يشير إلى أن مؤرخي اليهود لعبوا دورا هاما في صياغتها لتأكيد انتمائهم إلى هذه البقعة من الأرض من ناحية ولربط أنفسهم من ناحية أخري بأسس أحداث أضحت بعد تطورها علي مستوي عال من الأهمية بالنسبة لتاريخ الأراضي المقدسة .
(5) Cf. Primordium et Origo Sacri xenodoehii P. 430.
Also : Le Fondement du S. Hospital, Op. cit, P. 433
(6) Cf. Kingm E.J. : The Kinghts Hospitalers in the Holy Land P. 5 & n. I
(7) Cf. Les Archives : Op. cit, P. 210.
(8) Cf. Bavdoin, J. : Les statvts de l' Ordre de Sainct Jean de Hiervsalem PP. 3-4.
Also : De Vertot, L' Abbe: Histoire de l' Ordre des.. Hospitabiers, Tome VI PP. 10-11.

ويدل ذلك علي أن هذه القصص التاريخية التي لعب فيها الخيال كثيرا ، احتلت مكانها في تاريخ الجماعة بصفة رسمية وأعترف بها لدي المعاصرين من أعضائها كأصول أولي للاسبتارية كما أن الإشارة الأخيرة تبين مدي الارتباط بين ما كان عالقا في الأذهان إزاء المكابسيين هؤلاء الجنود الذين كانوا قدوة في العمل من أجل الحفاظ علي عقيدتهم ، وبين وضعهم في الأصول الأولي للجماعة بما يضمن للاسبتاريين فخرا يبرزهم علي الجماعات الأخرى المنافسة مثل الداوية Templiers (١) والتيوتون Teutoniques (٢) وهو الأسلوب الذي رغب كتاب هذه الروايات من خلاله الإبقاء علي سمو وأقدمية الاسبتارية حتى لا يضيع علي الاسبتاريين النفوذ والشهرة التي كاد المنافسون الجدد أن ينتزعوها منهم (٣) .

---

(١) فرسان اخذوا علي أنفسهم منذ البداية عهود الفقر ، والطهارة ، والطاعة وتولوا مهمة حراسة الطرق العامة المؤدية إلى بيت المقدس والدفاع عن الحجاج ضد قطاعها ، وكان علي رأسهم هيوبيلز Hugh de Payens وجيوفري أف سانت أومر Geoffrey de St. Omer . ونظرا لانهم كانوا لا يملكون مكانا للإقامة فقد أعطاهم الملك بلدوين الثاني (١١١٨- ١١٣١م) في عام ١١١٨م مقرا مؤقتا في مكان من قصره بجوار المعبد لذا عرفوا بفرسان المعبد Templiers ثم تطور الداوية إلى جماعة دينية محاربة وضع نظامها في مجمع تورواي بفرنسا Troyer في عام ١١٢٨م وأخذوا بعد ذلك وضعا مميزا علي أيام البابا ايوجين الثالث (١١٤٥- ١١٥٣م) أنظر :

William of Tyre: Op. cit, Vol. I PP. 524-524

Also : Jacques de Vitry : The History of Jerusalem in PP.T.S. Vol. XI. P. 50.

Roger of Wendover : Flowers of History, Vol. I P. 469.

(٢) أسست جماعتهم في عام ١١٩٠م علي يد مجموعة من الفرسان والتجار الألمان وذلك لرعاية فقراء الألمان ومرضاهم ، وجعلوا لأنفسهم مستشفي علي غرار مستشفي الاسبتارية وهي مستشفي القديسة ماري الألمانية ببيت المقدس

Cf. Estoire d` Erocles in R.H.C.Occ. Tome II PP. 141-142.

Also: Cyclopaedia of Biblical, Theological and Ecclesiastical Vol. V (Art. Kinghts) P. 132.

وبعد ذلك بثماني سنوات تحول هؤلاء الاسبتارية الألمان إلى جماعة رهبانية محاربة بعد أن أنضم إليهم بعض الفرسان الألمان الذين رفضوا العودة إلى بلادهم . وقد أقر نظامهم البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م) بمقتضى مرسوم بتاريخ ١٩ فبراير ١١٩٩م.

Cartulaire Tome I No. 1072 PP. 668-69.

(3) Cf. Le Roulx, J.D.: Op. cit, P. 16.

ومما تجدر ملاحظته هو أن أحد الروايات المتعلقة بالأصول الأولي للاسبتارية ذكر كاتبها في مقدمة روايته " أن هناك شك كبير حتى الان بين العديد من الناس حول من أين ؟ وعلي يد من أسس مستشفي بيت المقدس ؟ فالبعض معتقد في تخيلات لا جدوى منها ، ويبدو أكثر تأثرا بخيال طائش من تأثرهم بالحقيقة ، لأنهم جمعوا قصصا قديمة كانت مبعثرة علـــي المدى الطـــويل " ثـم يضيف بأنه كان " غير مهتما بالرجوع إلى هذه القصص " وكل ما أراده في هذاالشأن ـ كما يقول هو ـ " الوصول إلى حقيقة الموضوع " (١) مما يدل علي أن الشك انتاب البعض من المعاصرين أنفسهم إزاء ما ورد بهذه الروايات ووقفوا موقف المتردد في قبولها وربما لعدم تناسقها مع الواقع المعروف فيما بينهم ، ولكنهم كانوا مضطرين إلى تداولها أو الرجوع إليها من قبيل الرغبة في الوصول إلى نهاية محددة تحسم هذا الأمر لديهم ، ولا جدال في أن عقلية العصور الوسطي هي التي ساعدت علي انتشار مثل هذه الأساطير واحتلالها تلك المكانة التاريخية التي حظيت بها علي المستوي الرسمي من جانب البابوية ومقدمي الجماعة .

ورغم ذلك فان الراهب الاسبتاري وليم دي سانت استينGuillaume de S. Esteve ، الذي كتب في الفترة ما بين ١٢٩٠ـ ١٣٠٢م فصلا عن تأسيس الاسبتارية ، يدحض كل الروايات المتعلقة بهذه الأصول القديمة من خلال قوله بأن " هناك بداية اكثر قدما تتردد علي الألسنة لا يمكن تصديقها ، وأميل إلى أن يجد الباحثين في هذه الأشياء كي يتزودوا بما هو أكثر " (٢) كما أن المؤرخ الصليبي وليم الصوري سبق وليم دي سانت استين في عدم قبولها بحيث لم يشر إطلاقا إلى وجود أصول للاسبتارية من هذا القبيل عند كتابته عن أصل الجماعة وتطورها (٣) .

(1) Cf. De Primordiis et Inventione Sacrae Religionis Jerosolymitane : Op. cit, P. 428.
(2) Cf. Guillaume de Saint-Esteve: Op. cit, P. 424.
(3) Cf. William of Tyre : Vol. II PP. 241-245.

وبالنسبة للمؤرخين المحدثين المتخصصين في دراسة تاريخ الاسبتارية فقد تناول بعضهم هذه الروايات من جوانب مختلفة لبيان ما بها من تناقضات لا تتفق والواقع التاريخي ، وبالتالي إثبات إنها من صنع الخيال الذي يرون أنه كان من سمات العصور الوسطي وظهر إلى الوجود من القرن الثاني عشر (١) ويذكر أ. ج . كينج أن هذه القصص كانت من النوع المحبب إلى رجال الدين البيزنطيين ومن المحتمل أن تكون قد تمت صياغتها في دير القديس يوحنا المعمدان البيزنطية التي تقع في الركن الجنوبي الغربي من مستشفي الاسبتارية (٢) .

علي أية حال هناك ظروف استلزمت تأسيس جماعة الاسبتارية وأدت إلى قيامها ، ولا يمكن أن تكون هذه الظروف في بدايتها مدعاة إلى قيام النظام المتكامل الذي عرفته فيما بعد ، لكن تطور عملها وفقا لتطور الظروف المحيطة به هو الذي أدي إلى ذلك . فالخطوط الأولى تعد دائما بمثابة تجربة في مجال العمل إذا ما قيض لها النجاح فيه كان تنظيم هذه العمل أمرا ضروريا للغاية .

فبعد الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية ، وقيام قنسطنطين ببناء كنيسة في الموضع الذي عثر فيه علي القبر المقدس (٣) بدأت أنظار المسيحيين منذ ذلك الحين وعلي رأسهم الأباطرة والحكام تتجه إلى ذلك المكان علي أنه موضع أكثر قداسة ترتبط به ذكريات خلاصهم ، وظهر هذا الاهتمام جليا فيما كانوا يقيمونه في بيت المقدس من مباني وإنشاءات ، وكذلك مجيء أعداد منهم إلى هناك وقد قطعوا مسافات طويلة من أجل زيارة هذه الأماكن المقدسة والتبرك بها (٤) .

---

(1) Cf. Rilley-Smith : Op.cit, P. 33
Also : Taaffe, John : The History of The Holy Military Sovereign Order of St. John of Jerusalem, Vol. I P. 1 sey.

(2) Cf. The Kinghts Hospitallers of St. John in the Holy Land P. 4 n. 2 .

(3) Cf. " An Anonymous Life of Constantine " in Jerusalem Pilgrims Before the Crusades by John Wilkinson PP. 202-204.
أيضا : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج١ ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٢٤.

(4) Cf. Primordium et Origo Sacri Xenodochii, Op.cit, P. 431.

ومن الجهود التي بذلت من أجل توفير الراحة والرعاية لحجاج الأراضي المقدسة والمقيمين فيها من المسيحيين ما قام به البابا جريجوري الكبير (٥٩٠- ٦٠٤م) حيث أرسل في عام ٦٠٠م رئيس دير يدعي بروبرس Probus إلى الشام وأسند إليه مهمة بناء دار ضيافة في بيت المقدس وأخري في جبل سيناء بالإضافة إلى القيام بتوزيع الصدقات علي الفقراء (١) والظاهر أن البابا وضع مبالغ ضخمة من المال تحت تصرف رئيس الدير من أجل هذا الغرض (٢) .

وحينما دخل المسلمون المدينة المقدسة في عام ٦٣٨م منحوا المسيحيين الأمان علي أرواحهم وممتلكاتهم وحرية العبادة ، كما عاملوا الكنائس والمباني الدينية الأخرى باحترام بالغ . وما من شك في أن دار الضيافة هذه استمرت في ظل هذا الوضع من التسامح تخدم الغرض الذي أنشئت أساسا من أجله وهو استقبال الحجاج المسيحيين ورعايتهم (٣) وظل أمر الأماكن المقدسة يحظى بالاحترام من جانب المسلمين حكام البلاد ، ويخضع لرعاية اسمية من قبل من يملك زمام الإمبراطورية من بلدان العالم المسيحي الشهيرة . وكانت هذه الرعاية تجري مجراها الصحيح علي يد الإمبراطورية البيزنطية حين كان علي رأسها أباطرة أقوياء ، وذلك في إطار من العلاقات السلمية مع المسلمين . لكن ما أن أصاب أباطرتها الوهن وأصبحت الإمبراطورية نفسها عاجزة عن القيام بمثل هذه المهام حتى أتجه اللاتين في الغرب اتجاها يعبر عما بين الشرق والغرب المسيحيين من اختلاف في الثقافة والعقيدة بوجه خاص وقد كشف النقاب عن ذلك تتويج شارلمان إمبراطورا في الغرب علي يد البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥- ٨١٦) عام ٨٠٠م (٤) .

(1) Cf. De Prima Origine Hospitalariorun Hierosolymitanorum, Paris 1885 P. 133 in J. Delaville Le Roulx : Op.cit, P. 5.
Also : Encyclopaedia of Religion & Ethics, (Art. Hospital) Vol. Vi P. 806.
(2) King, E.J. : Op.citm P. 5.
(3) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit, PP. 5-6.
Also : King, E.J. : Op.cit, P. 8.
(٤) أنظر : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ، ج١ ، ص ٢٠٦ وما بعدها .

وقد حفظت لنا المصادر المعاصرة مدي اهتمام شارلمان بالأماكن المقدسة لما عرف عنه من تدين وورع كان من أسباب وقوفه إلى جانب البابوية ضد أعدائها . ونظرا لان هذه الأماكن المقدسة كانت في حوزة المسلمين الذين كانت علاقاتهم بالإمبراطورية البيزنطية المنافسة علاقة عداوة وحروب ، فقد حرص شارلمان بفطنته علي استغلال هذا الوضع ليقيم علاقات ودية مع خليفة المسلمين آنذاك منتزعا بذلك رعاية الأماكن المقدسة الاسمية من البيزنطيين (١) ولخص اينهارت ذلك بقوله :

" أن علاقات { شارلمان } مــع هارون { الخليفة العباسي } كانت وديةلدرجة أن هذا الأمير فضل رعايتــه علــي رعاية كل من ملوك وعواهل الأرض (العالم) ، واعتبر أن ذلك يعــد كنايــة علـــي التكريم والجود الواجبين . وتبعا لذلك عندما أرسل شارلمان مبعوثيه لـــزيارة الـقـبـر المقدس ومــكان بـعـث سيـدنا ومخلصنـــا { المسيح } مثلـوا أمامــــه { أمام هارون } ومعهم الهدايا ، وأعلموه بـــرغبات سيدهم { شارلمان } فلم يمنح ما طلبة (٢) فحسب بل أعطاه ملكيـــة تلك البقعـــة المقدســـة والمباركة " (٣) .

علي أية حال فان الغرض من هذه السفارات التي تم تبادلها بين الجانـبين رغم عدم وجود ذكر لها في المصادر العربية ، لم يكن إلا التوسط لصالح المسيحيين الموجودين في الشرق . وقد أحرزت هذه السياسة السلمية نجاحا كبيرا لان هارون الرشيد (٧٧٦- ٨٠٨م) - كما يذكر الأب دي فيرتوث -

---

(1) Cf. Einhard : The Life of Charlemagne P. 26.

حيث يذكر أن شارلمان سعي إلى مصادقة ملوك ما وراء البحار لرغبته في العمل علي راحة المسيحيين الذين يخضعون لسلطانهم وأيضا مساعدتهم .

(٢) مغزى الرواية يشير إلى ما طلبة شارلمان كان حق رعاية الأماكن المقدسة .

(3) Cf. Einhard : Op.cit, P. 42.

ويضيف شارل ريفز أنه لذلك ربما كان راهب دير القديس جال Gal أقرب إلى الصدق حين جعل هارون الرشيد يقول لسفراء الفرنجة : " سأجعل له الأرض المقدسة وسوف أكون نائبة ، وسأجعله يرسل إلى مبعوثيه كلما أراد وسوف يجدني نائبا أمينا أنظر : -

Davis, Ch. : Charles the Great, London 1929

الترجمة العربية للدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩م حاشية "١" ص ٢٠٢.

وافق علي تخصيص بيت لاستقبال الحجاج اللاتين ، كما اعترف سفيره (عبد الله) في عام ٨٠٧م بحماية شارلمان علي مسيحي الشرق (١) ومنذ ذلك الحين نالت الأماكن المقدسة الكثير من اهتمامات هذا الإمبراطور وأصبحت " موضع عنايته " علي حد تعبير اينهارت الذي يضيف بأن شارلمان كان يتابع بنفسه من خلال مندوبين عنه عملية ترميم المباني المقدسة وإصلاحها (٢) إلى جانب ما كان يرسله من مساعدات إلى فقراء المسيحيين المقيمين هناك (٣) هذا فضلا عن المنشآت التي شيدها لمنفعة الحجاج الغربيين وعرفت جميعها في العصور الوسطي المبكرة باللاتينية Latinie تميزا لها عن المؤسسات البيزنطية الأرثوذكسية (٤) ومن بين أعمال شارلمان في الأراضي المقدسة ترميم دار الضيافة التي كان قد بناها البابا جريجوري قبل ذلك بمائتي عام (٥) وكذلك تشييد كنيسة علي مقربة من هذه الدار كرست للقديسة ماري St. Mary حيث أقيمت الصلوات فيها باللغة اللاتينية ، ومكتبة زاخرة علي مقربة من كنيسة القبر المقدس . وأنيط بإدارة كل من المستشفي والكنيسة إلى الرهبان البندكتيين (٦) الذين كانوا يقيمون علي جبل الزيتون Mt. Olives (٧) .

---

(1) Cf. De Vertot (L' Abbe) Op.cit, Tome I P. 15.
(2) Einhard : Op.cit, P.44
Also Cf. Wilkinson, John : Jerusalem Pilgrims Before the Crusades, England 1977 PP. 11-12.
(3) Cf. Einhard : Op.cit, PP. 55- 56.
(4) Cf. De Prina Origine : Op.citm P.77
King, E.J. : Op.cit, P.9.
(5) Cf. Encyelopaedia of Religion & Ethics (art Hospice) Vol. VI P. 806.
(٦) "البند كتيسين نسبة إلى القديس بندكت (حوالي ٤٨٠ـ ٥٤٣م) صاحب الفضل في تأسيس النظام الديري الذي عرف باسمه ، والذي جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة في الغرب بعد أن حل النظام البندكتي محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة خصوصا بعد أن تمتع لأول مرة بتأييد البابوية وعطفها . وكان النظام البندكتي يقوم علي ثلاثة أركان رئيسية هي : إنكار الذات، والطاعة ، والعمل . وامتازت الحياة البندكتيسة داخل الدير بالمساواة التامة بين أعضاؤه واتسمت أيضا بروح الاعتدال في الجمع بين العبادة والعمل أنظر :
سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ، ج١ ، ص ١٧٩- ١٨٣ ، ج٢ ، ص ٢٧- ٣٠.
(٧) ويضيف ديلافيل لي رد أن هؤلاء الرهبان أرجعوا مسألة العقيدة إلى البابا ليو الثالث لحلها في مجمع إكس لاشابل عام ٨٠٩م ، ووصفوا أنفسهم بالمقيمين علي جبل الزيتون انظر:
Les Hospitaliers en Terre Sainte PP. 7-8.

وقد أشار إلى وجود هذه المنشآت الراهب الفرنجي برنارد Bernard the Monk الذي زار بيت المقدس في عام ٨٧٠م وذلك بقوله :

" وصلنا بيت المقدس حيث أقمنا في دار ضيافة الإمبراطور العظيم شارل . وكل من أتوا إلى بيت المقدس للعبادة ممن يتكلمون اللغة الرومانية (اللاتينية) نالوا كرم الضيافة هناك ، وبجانب دار الضيافة كنيسة بنيت تكريما للقديسة ماري ، والشكر للإمبراطور لان في بيت المقدس مكتبة واسعة ضخمة واثني عشر مسكنا (قصرا) وحقول وأفنية (ساحات) وحديقة في وادي يهو شافاط . وفي مواجهة دار الضيافة هذه كان يوجد مكان سوق يؤجر المحل فيه بقطعتين من الذهب كل عام " (١) .

وظلت هذه المنشآت تقدم العديد من الخدمات للحجاج اللاتين في جو يسوده التسامح من جانب المسلمين فيما عدا ما أشتهر به عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي شكل اضطهاده - كما سبقت الإشارة - الرعايا علي اختلاف طوائفهم (مسلمين ، مسيحيين ، يهود) (٢) وذلك بالرغم من حقيقة أن أمه كانت مسيحية وخاله كان في وقت من الأوقات بطريركا لبيت المقدس (٣) ففي عهده خربت كنيسة القبر المقدس ، كما دمرت المباني المسيحية جميعها علـي التـوالي مـا عدا كنيسة الميلاد فـي بيت لحـم (٤) ومن المحتمل أن تكون دار ضيافة القديس جريجوري التي رممها شارلمان وكنيسة القديسة ماري التي شيدها قد تعرضتا للتدمير في ذلك الوقت لأنه قبل عهد الحاكم بفترة وجيزة وبالتحديد في عام ٩٩٣م أشير إلي وجودهما عندما أوقف لهما هيو مركيـز

---

(1) Bernard the Make A Journey to the Holy Places and Babylon in Jerusalem Pilgrimes Before the Crusades P. 142.
Also : Cf. De Vertot, L` Abbe : Op.cit, Tome I PP. 15-16.

(٢) أنظر ما سبق ، ص ٦٣ ، وحاشية رقم ٣ .

(3) Cf. Cam. Med Hist. Vol. V P. 253.

(٤) أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٦٦- ٦٨ .
عارف العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف ١٩٥١م ، ص ٢٦٦ .

توسكانيا Hugh Marquis Tuscany وزوجته جوليتا Julitta أملاكا لها قيمتها في إيطاليا (١)

وبوفاة الحاكم عام ١٠٢١م توقفت هذه الإجراءات وبدأت مسألة إعادة بناء المباني المقدسة التي أصابها الدمار والتخريب توضع في الاعتبار لدي أباطرة القسطنطينية الذين انتقلت إليهم حماية الأماكن المقدسة من أباطرة الغرب لفترة طويلة (حتى هزيمتهم أمام السلاجقة في منزكرت) واعترف بهذه الحماية رسميا في ذلك الوقت للإمبراطور البيزنطي بازيل الثانيBasil II (٩٦٣-١٠٢٤م) (٢) .

وكان لجمهورية أمالفي الإيطالية تجارة نشطة مع المسلمين وخصوصا مع مصر (٣) واتسم الأمالفيون إلى جانب كونهم تجارا يسعون من أجل الربح بروح التقوى والورع ، والعديد منهم استطاعوا أن يجمعوا بين أرباح التجارة والخدمة الدينية (٤) وتقع مدينه أمالفي في مملكة نابلي بين الجبال المرتفعة والبحر والي الشرق منها - كما يذكر وليم الصوري - وعلي مسافة سبعة أميال بالتقريب مدينه سالرنو Salerno وفي الغرب سورنتو Sorrento ونابلي ومدينه فرجيلي Virgil والي الجنوب بحوالي مائتي ميل بعيدا عـن البحر التيراني توجد صقلية (٥) . وقـد أعطاها هـذا

---

(1) Cf. De Prima Origine Op.cit, PP. 142-145 in E.J. King PP. 10-11.
Also : Riant : La donation de Hugues marquis de Taseane au S. Sepulcre in J.D. Le Roulx : OP.cit, P. 9 n. 4.

(٢) أنظر : عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ٢٢- ٢٤ .
Also : King, E.J. : Op.cit, P. 9 n. 4.

(٣) عن تجارة أمالفي وعلاقاتها بالمسلمين في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين أنظر:
Cahen, Claude : Un Texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au xe siecle, in A.S.P.N. (N.S.) anno XXXXIV Napoli 1955, PP. 61-66.
Also : Citarella, Armand : The Relations of Amalfi with the Arab World Before the Crusades, in Speculum, Vol. XLII No. I Cambridge January 1967, PP. 229-312.
Coniglio, Guiseppe : Amalfi e il commercio amalfitano nel medioevom in Nuova Rivista storica, Roma 1944-45, PP. 100-114.

(4) Cf. Porter, Whitworth : A History of the Kniflhts of Malta or the order of St. John of Jeruaalem, London 1883, P. 7.
Also : Camera, Matteo : Memorie Storice – Diplomatiche dell'Antica citta e ducato di Amalfi, Vol. I, P. 231.

(5) Cf. A History of Deeds Done Beyond the Sea, Vol. II, P. 24.

الموقع وضعا تجاريا ممتازا بين المدن الإيطالية الأخرى ساعد علي اتساع نشاطها في هذا المجال وازدهارها اقتصاديا في تلك الآونة بحيث اصبح في مقدور رعاياها إقامة علاقات عمل مع حكام الأقاليم التي يتعاملون معها اصطبغت بصبغة ودية إلى حد ما لحرص الأمالفيين الدائم علي استرضاء هؤلاء الحكام عن طريق الهدايا وحسن المعاملة (١) ونتيجة لذلك حظي رجال جمهورية أمالفي بمكانه تفوق غيرهم من التجار لدي حكام الشرق وخصوصا مصر التي كان لهم معها تجارة مزدهرة ، وأصبحوا معروفين لرجال البلاط في قصر الخلافة . ولا شك أن ذلك ساعد علي تسهيل مهمتهم في الحصول علي تراخيص بقطعة أرض في الربع من مدينه بيت المقدس الذي يقيم فيه المسيحيون لإقامة منشآت أغراضهم التجارية وكذلك الدينية بالنسبة للحجاج الغربيين ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا في ظل مستوي عال من العلاقات الدبلوماسية (٢) .

ورغم التسليم بوجود مصاعب أو أخطار كانت تعترض طريق أي مسافر في العصور الوسطي سواء أكان سفرة بغرض الحج أو التجارة ، إلا أن المؤرخين الصليبيين والغربيين غالوا في وصف المصاعب والأخطار وصاغوها في سياق بعيد عن الواقع ليجعلوا من ذلك سوء معاملة متعمد من جانب المسلمين وخصوصا الأتراك السلاجقة . ويبدو أن صورة الخوف التي ارتسمت في أذهانهم إزاء هذه الجنس منذ قيامه بهجمات عنيفة ضد البيزنطيين ومسلمي الشام علي حد سواء جعلت هؤلاء المؤرخين يصفون كل خطر يقع في الأحوال العادية بأنه سلوك مستهجن ضد حجاج

---

(١) عن تأسيس جمهورية أمالفي وتطورها والعوامل التي ساعدت علي ازدهارها في حوض البحر الأبيض المتوسط أنظر :

Camera, Matteo : Op.citm P. 77 seq.

Also : Del Treppo & Leone : Amalfi medioevale, Napoli 1977, Passim.

Pansa, Francessco : Istoria dell' Antica Republica d'Amalfi, Bologna, S.D. Vol. I P. 29 seq.

وأنظر أيضا :للمؤلف : الجزء الأول من هذه الدراسات عن : العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه العلاقات أنظر للمؤلف : العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام مكتبة الرشد ، ط١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

الغرب الأوربي متناسين إن ذلك كان ظاهرة عامة سادت منطقة الشرق الأدني الإسلامي بأسرها نتيجة لظروف عدم الاستقرار والاضطرابات السياسية شبه المستمرة

فقد أتفق مؤرخي الغرب علي الزعم بأن المصاعب والأخطار التي واجهت الحجاج اللاتين القادمين إلى بيت المقدس كان منها الافتقار إلى المأوي الذي يحميهم من قسوة الظروف المناخية ومن سطو اللصوص وقطاع الطرق ، وأيضا عدم وفرة المؤن اللازمة لأعاشتهم بعد أن فقدوا ما يملكون من أموال بسبب أنفاقها عبر طرقهم الطويلة ودفع الضريبة المفروضة عليهم مقابل دخولهم المدينة المقدسة أو تعرضهم لحوادث السرقة (١) هذا بالإضافة إلى ما يذكرونه عن عدم توافر الرعاية اللازمة لهؤلاء الحجاج داخل بيت المقدس إذا ما استطاعوا الوصول إليها ودخولها (٢) وذلك ليجعلوا من هذه الأوضاع مدعاة لإثارة الشفقة لدي الامالفيين " الذين اشتهروا بالتقوى والإخلاص لتقاليـد آبائهم والعقيدة المسيحية " (٣) .

وكان أن اتجه هؤلاء التجار بالفعل إلى العمل علي توفير سبل الراحة والرعاية اللازمة لحجاج الأراضي المقدسة من اللاتين خصوصا وانه في ذلك الوقت كان من الضروري بالنسبة لهم أن يمكثوا فترة قد تطول حتى ينتهوا من بيع ما أحضروه معهم مـــن البضائع والسلع (٤) فاتفق عشرة

---

(1) Cf. Guillaume de Saint-Esteve : Op.cit, pp. 422-423.

وقد حدد بعض هؤلاء المؤرخين ما كان يدفعه كل حاج علد دخوله بيت المقدس بتالنتوم واحـد a talent (وزنه من الذهب أو الفضة) . أنظر :

William of Tyre : OP.cit, Vol. II P. 244.
De Prima Institutione Op.cit, P. 402.
De Vertot, L'Abbe OP.citm Tome I P. 16.

والواضح أن هذه القيمة أو المبلغ الذي يدفع ضريبة لدخول بيت المقدس كان ضئيلا لا يتمخض عنه استنزاف ما لدي كل حاج من أموال . وما يمكن قبوله في هذه الرواية هو أن ظروف الرحلة الطويلة يترتب عليها زيادة في النفقات للحصول علي المؤن اللازمة هذا رغم أن البعض من هؤلاء الحجاج إن لم يكن معظمهم لم يحملوا معهم شيئا من هذه الأموال مفضلين اتباع طريق الشحاذة في الحصول علي ما يلزمهم أثناء الطريق . أنظر ذلك في المصادر السابقة خصوصا المؤرخ وليم الصوري .

(2) Cf. Primordium II : Op.cit, P. 434.

(3) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 242.
Also : Guillaume de St. Esteve : ?Op.cit, P. 423.

(4) Cf. De Prima Institutione Hospitalariorum, Op.cit, P. 401
Also : William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 242.

وقد أكد جميع التجار الامالفيين بين هاتين الرغبتين (خدمة مصالحهم التجارية وتنشيط حركة الانتقال بالنسبة لهم وتوفير أماكن إقامة للحجاج اللاتين) بعض المؤرخين والمتخصصين في دراسة تاريخ امالفي أنظر :

Camera, Matteo : Op.cit, Vol. I P. 230.

منهم ذوي فطنه فيما بينهم علي أن يرسلوا طلبا إلى الخليفة الفاطمي القائم في الحكم آنذاك لتبعية بيت المقدس في ذلك الوقت للخلافة الفاطمية ومقرها القاهرة ، وذلك كي يعطيهم الخليفة مكانا في المدينة المقدسة يقيمون فيه منشآت للعبادة ودور لإيوائهم وإيواء مواطني بلادهم علي أن يسمح لهم بالبقاء في ظل نظامهم الخاص مثلما كان الحال بالنسبة للبيزنطيين الأرثوذكس المقيمين في المدينة وغيرهم من أمم أخري (١) مستغلين في هذا الصدد علاقاتهم الودية بالبلاط ورجاله لإحضارهم العديد من السلع النادرة والمفيدة بالنسبة للأهالي (٢) وفي نفس الوقت تقديمهم الهدايا بسخاء (٣) .

علي أية حال عمل الامالفيون في بداية الأمر بما توفر لديهم من مهارة ذات طابع تجاري علي ضمان الاستجابة لمطالبهم بأن أرسلوا المبعوثين وقد حملوا الهدايا إلى خليفة مصر ، كما التمسوا من معارفهم في قصر الخلافة أن يساعدوهم علي الوصول إلى غايتهم (٤) ثم جمعوا بعد ذلك ما أمكنهم جمعه من رجال مدينتهم امالفي وتوجهوا لمقابلة الخليفة حيث قدموا له عريضة مكتوبة يطلبون فيها تخصيص مكان لهم في بيت المقدس لإقامة منشآتهم الضرورية (٥) وقد استجاب الخليفة الفاطمي لهذا المطلب (٦) .

---

(1) Cf. Guillaume de Saint-Esteve : Op.cit, P. 423.
Also : Camera, Matteo: Op.cit, Idem.
(2) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II Idem.
Also : Guillaume de Saint-Esteve : Idem.
(3) Cf. Jacques de Vitry : Op.cit, P. 47.
(4) Cf. Guillaume de Saint-Esteve : Op.cit, P. 423.
(5) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 242.
Also : De Prima Institutione : Op.cit, P. 401.
(6) Cf. Guillaume de Saint-Esteve : Idem.
Also: : Camera, Matteo: Op.cit, Vol. I, P. 231.

وارسل أمرا كتابيا إلى حاكم بيت المقدس (١) يأمره بتخصيص مساحة كافية من الأرض في مدينة بيت المقدس في الجزء منها الذي يشغله المسيحيون كي يقيم رجال امالفي " الأصدقاء " ما يرغبون أقامته من مبان ومنشآت (٢) .

وبناء علي أمر الخليفة خصص والي بيت المقدس للامالفيين أرضا واسعة في مواجهة كنيسة القبر المقدس حيث قاموا علي مسافة لا تزيد عن رمية حجر من هذه الكنيسة ببناء دير أو كنيسة تمجيدا للقديسة مريم والحقوا بهذا المبني المكاتب وأماكن الإقامة اللازمة للرهبان (٣) وسمي كنيسة أو دير القديسة ماري اللاتينية لأداء الصلوات فيه باللاتينية وفقا للمذهب الغربي الكاثوليكي ، وتمييزا له عن كنيسة السريان حيث اتبعت العادات والنظم الأرثوذكسية (٤) وقام الامالفيون أيضا ببناء دار ضيافة Hospice يأوي إليها القادمون من مقاطعة أمالفي بصفة خاصة (٥) مع السماح لحجاج

---

(١) أشار كوندر Conder إلى أن هذا الأمر أو الترخيص بالأرض لازال موجودا في دير الآباء الفرنسيسكان بالقدس .

Cf. The Latin Kindom of Jerusalem PP. 203-204.

وقد حاولت الحصول علي هذه الوثيقة كي تحسم مشكلة تاريخ صدورها وبالتالي معرفة في عهد من الخلفاء الفاطميين حدث ذلك . وبعد مراسلة هذا الدير عن طريق المركز الفرنسيسكاني بالقاهرة بهذا الشأن وأيضا مراجعة الفهارس الخاصة بمخطوطات دير بيت المقدس دون جدوى أجاب الأب سابينو دي صاندولي رئيس هذا الدير الأخير بعدم وجود هذه الوثيقة طرف الدير رغم صدورها من الجانب الفاطمي فلم اعثر عليها فيما رجعت إليه من المصادر العربية المعاصرة والمتأخرة زمنيا . وآمل الحصول علي هذه الوثيقة الهامة يوما ما حتى تضح حد لهذا الاختلاف في الرأي بين المؤرخين .

(2) De Prima Institutione : Op.cit, P. 401.
Also : William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 243.

ويضيف أن مدينه بيت المقدس كانت مقسمة إلى أربعة أقسام متساوية في الغالب وكان المسيحيون يقيمون في القسم الرابع حيث قبر المسيح والمباني المقدسة الأخرى .
أنظر أيضا كيفية اختصاص المسيحيين بهذا القسم من المدينة

Ibid, Vol. I PP. 406-407.

(3) Cf. De Prima Institutione, Idem.
Also : William of Tyre: Idem.
De Vertot, L'Abbe : Op.cit Tome I P. 17.
Camera, Matteo : Op.cit, Vol. I P. 231.

(4) William of Tyre: Idem
Also : Jacques de Vitry : Op.cit, P. 47.

(5) Cf. De Prima Institutione : Idem.

آخرين بالإقامة فيها وفقا لما تستوعبه منهم ، وأشرف علي هذا العمل خمسون من التجار الذين أرسلوا بعد ذلك إلى بلدهم في إيطاليا يستدعون رئيس دير ورهبان من البندكيتين كي يتولوا الخدمة في الدير ويشرفون علي القائمين بالعمل في دار الضيافة إلى جانب العناية بالمرضي والفقراء اللاتين الذين يقيمون فيها (١) .

وحدث بعد ذلك واكثر من مرة أن أتي من أجل الحج نساء كرسوا أنفسهم للخدمة في المدينة المقدسة وكان أكثرهن من الامالفيات ، وبأي حال لم يرغب هؤلاء المقيمين في الدير أن يستقبلوا النساء في دار ضيافتهم خوفا من التردي في الخطيئة وتجنبا لشبهة فضيحة أو عار ، ونتيجة لهذا الوضع قام تجار الامالفي ببناء دير آخر صغير كرس للقديسة مريم المجدلية St. Maria Maddalena (٢) وألحق بهذا الدير دار ضيافة للنساء Ospizio per le Donne حيث أقام بصفة منتظمة عدد من الراهبات البندكتيات ذوي الأصل النبيل من أجل القيام بخدمة الحجاج من النساء القادمات إلى الأراضي المقدسة ، وبعد فترة من الوقت قاموا إلى جانب ذلك بأعمال التمريض في المستشفي (٣) .

---

(١) أنظر ذلك بالتفصيل في
Guillaume de S. Esteve : Op.cit, PP. 423-424.
وإشارات إليه في De Prima Institutione, Idem.
William of Tyre, Idem.
وعن جذور العلاقة بين أمالفي والرهبان البندكتيين أنظر :
Camera, Matteo : Op.cit, Vol. I PP. 148-153.

(٢) مريم المجدلية التي جاء في المعتقدات المسيحية إن السيد المسيح أخرج منها سبع شياطين . انظر : لوقا ٨ (١-٢) ، ويوحنا ٢٠ (١) ، مرقص ١٦ (١) .

(3) Cf. William of Tyre : Vol. I P. 80 & Vol> II P. 243.
Also : De Prima Institutione: Op.cit, PP. 401-402.
Jacques de Vitry : Op.cit, PP. 47-48.
Camera Matteo : Op.cit, Vol. I P. 231.

وقد عين رئيس الدير هذا أحد الحجاج الذين قدموا إلى المدينة المقدسة وكرسوا أنفسهم للخدمة بها ويدعي جيرار Gerard (١) مشرفا علي دار الضيافة والمستشفي . بينما قام بإدارة العمل في الدير الخاصة بالنساء رئيسة دير اسمها اجنز Agnes ذكر عنها وليم الصوري أنها امرأة مقدسة رومانية المولد من طبقة النبلاء وذات نسب عال من حيث الأصل ، كرست نفسها من أجل الرب وعاشت في بيت المقدس لبضع سنوات بعد سقوطها في أيدي الصليبيين (٢) .

وفي ظل مشاعر الخوف التي انتابت المسيحيين من جراء الاضطرابات التي أحدثها الغزو السلجوقي للبلاد الشامية لم يتوقف القائمون علي الخدمة بالمستشفي ودار الضيافة عن أداء واجباتهم إزاء الحجاج اللاتين فأمدوهم بالطعام ووفروا لهم المأوي الذي يحميهم إلى جانب ما يلزمهم من مساعدات أثناء تنقلهم بين الأماكن المقدسة (٣) ويذكر البعض أن جيرار ورفاقه تطوعوا لتقديم هذه

---

(١) يعرف القليل عن الحياة المبكرة لجيرار هذا رغم شهرته والقداسة التي أحاطت سيرته باعتباره أول رئيس لمستشفي الاسبتارية وجماعتهم . وأدي ذلك إلى أن يكتنف الغموض أصله وموطنه . وقد أعطاه الكتاب لقب تنك Tunc ودارت حول تفسيرات مختلفة . وما يمكن قبوله من الروايات المختلفة المتعلقة بهذا الشأن هو أن جيرار بروفنسالي المولد (حوالي عام ١٠٤٠م) من المارتيجوس Martigues التي كانت تعرف بجزيرة القديس جينز St. Genes . ومن قبيل الفخر ادعت سكالا Scala القريبة من أهالي انتماؤه إليها . ويبدو أن في ذلك بعض الصحة إذا ما وضعنا في الاعتبار إعطاء تجار أمالفي الأولوية لاحد مواطنيهم ليكون رئيسا للمستشفي أفضل من أن يتولي هذا المنصب أحد البروفنساليين . وكلا الأمرين من الممكن قبولهما لاحتمال ارتباط تاريخ حياته بالمدينتين (مارتيجوس وسكالا) من حيث المولد والإقامة . عن حياة جيرار بالتفصيل أنظر :

Bosio, Jacomo : Le Imagini de Beati e Santi della sacra Religione di S. Giovanni Gireosolimitano Roma 1633, PP. 6-11.

Also : Donnadieu, Artistide : Le Bienheureux Gerard Tenque, in A.O.S.M.M. No. I Annee XVIII eme Roma 1960, PP. 6-13.

(2) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 245.
Also : Jacques de Vitry : Op.cit, PP. 48-49.
De Vertot, L'Abbe : Op.cit, P Tome I, P. 46.

(3) Cf, William of Tyre : Vol. I, P. 80.
Also : Primordium II : Op.citm P. 434.

وقد بالغ وليم الصوري وغيرة من المؤرخين الغربيين كثيرا في وصف أحوال الحجاج اللاتين الذين قدموا إلى الأراضي المقدسة أثناء خضوعها للأتراك السلاجقة .

Cf. William of Tyre, Vol. I, PP. 79-80.
Also: Roger of Wendover : Vol. I, P. 336.

الخدمات عن طيب خاطر (١) وقد ازدادت مهمتهم صعوبة بتزايد أعداد القادمين إلى بيت المقدس من أجل الحج أو الزيارة بحيث أصبحوا عبأ ثقيلا لكثرة المرضي والجرحي بينهم وهؤلاء كانوا في حاجة إلى فترة إقامة أطول ومزيد من العناية المتمثلة في تدبير العلاج اللازم وتوفير سبل الراحة هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يتولون مهمـــة دفن من عاجلتهم المنية من هؤلاء المرضي أو الجرحي " رغم أن ذلك العمل كان فوق طاقاتهم " (٢) .

ولم يكن قبل ذلك بفترة طويلة أن بدأت أوربا الوقوف علي الأحوال المتغيرة في الأراضي المقدسة . فبالإضافة إلى ما كان يقصه الحجاج العائدون من هناك إلى الغرب عما كانوا يلاقونه من المصاعب والأخطار علي نحو مبالغ فيه مما أثار سخط الذين كانت تهتز مشاعرهم للذكريات التي تربط المسيح بهذه المدينة المقدسة ، كانت هناك أيضا الظروف المحلية والخارجية التي ألمت بكل من الدولة البيزنطية وغرب أوربا (٣) وقد وجدت البابوية في ذلك فرصة سانحة لإبعاد أعدائها عنها وتخفيف وطأة الحروب السائدة في أوربا إلى جانب ما يمكن أن يتحقق لها من سيادة علي العالم المسيحي بأسره .

وصدر نداء البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨- ١٠٩٩م)عن هذا المنطق معلنا علي الأوربيين الكاثوليك الخروج إلى الشرق " لإنقاذ قبر المسيح " وتحقيق العديد من المنافع الدينوية .

---

(1) Cf. Fabri, Felix : The Book of the Wanderings. Vol. II Part I, P. 319.
(2) Cf. William of Tyre: Vol. I P. 80 & Vol. II, P. 248
Also : De Prima Institutione: Op.cit, P. 402.
Jasphi Historiographi : Op.cit, P. 408.
(3) Cf. Fulcher of Charters : A History of the Expedition to Jerusalem (1095-1127), U.S.A. 1969, PP. 61-62.

حيث أشار إلي بعض هذه الظروف . وللمزيد من التفاصيل انظر :
عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٦- ٢٦.
جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص١٤٤ وما بعدها .

وقد أحضر هذا المؤتمر الأمور إلى مخرج محدد وعليه تقرر قيام الحملة الصليبية الأولى (١) .

وبدأ بذلك عصر جديد أخذت تتوافد فيه علي الأراضي المقدسة حشود ضخمة من الحجاج اللاتين كانت إرهاصاتها جماعات من الصليبيين تفيض حماسا متهورا أفقدها عنصر الحذر والحيطة إزاء ما قد يواجهها من أخطار ، فكانت النتيجة أن وقعت فريسة لكمائن الأتراك السلاجقة قبل أن تصل إلى بغيتها المقصودة ، مما دفع الغرب الأوربي إلي ضرورة تنظيم هذا العمل كي يكفل له النجاح ، وكانت الحملة الصليبية الأولى أول نوع من هذا القبيل . وساعدها علي النجاح في مهمتها الفوضى التي غرقت فيها بلاد الشام بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقةوالفاطميين من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها إمارات مستقلة من ناحية أخري (٢) فقد استطاع الصليبيون بفضل هذه الأوضاع الاستيلاء علي عدد من المدن والبلدان الإسلامية الهامة وان يتقدموا في سهولة ويسر صوب مدينه بيت المقدس التي يحترقون رغبة للوصول إليها وانتزاعها من أيدي المسلمين (٣) .

وحوالي ذلك الوقت في عام ١٠٩٨م(٤٩١هـ) اتجه الفاطميون إلى الاستفادة من تعرض السلاجقة للغزو الصليبي بأن خرج الوزير الفاطمي الأفضل من مصر " في عسكر كثير " ونزل علي بيت المقدس " فقاتل البلد ونصب عليه المناجيق " بعد أن رفض الأميران سكمان وايلغازي ابنا ارتق تسليمه إليه " مـن غير حرب ولا سفك دم " وقـد نجح الأفضل فـي استخلاص المدينـة مـن

---

(١) عن مؤتمر كليرمونت وردود الفعل بالنسبة لقراراته أنظر :
Fulcher of Charters : Op.cit, P. 62 seq.
Also : De Vertot, L'Abbe Op.cit, Tome I, P. 28.

(٢) عن أحوال الشرق الأدنى الإسلامي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر أنظر ما سبق في مقدمة هذا الفصل وأيضا :
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٩٥- ١٢٥.

(٣) عن خط سير الحملة الصليبية الأولى ببلاد الشام حتى وصولها أمام أسوار بيت المقدس أنظر :
Fulcher of Charters : Op.citm PP. 78-116.

الأتراك السلاجقة واعادتها إلى حوزة الفاطميين (١) .

ويشير المؤرخون الغربيون إلى أن حامية بيت المقدس وأهالي المدينة من المسلمين بقيادة الأمير فخر الدولة الذي عينه الأفضل حاكما عليها كرسوا أنفسهم جميعا من أجل تحصين المدينة " بعد أن اكتشفوا حقيقة نوايا هذه الحشود " الصليبية ، وهو الاستيلاء علي مدينتهم وامتلاكها ـ كما وضعوا جميع التدابير اللازمة للمقاومة ، وأمنوا أنفسهم ضد أي عمل قد يشكل خطرا عليهم من جانب الرعايا والحجاج الكاثوليك المقيمين داخل بيت المقدس خوفا من أن يتواطأ هؤلاء الأخيرين مـع الغزاة القادمين بشكل يفقد المقاومة الإسلامية جدواها ويسهل علي الصليبيين مهمة اقتحام المدينة (٢) .

علي أية حال شق الصليبيون طريقهم صوب بيت المقدس حتى بلغوها في السابع مـن يونيو عام ١٠٩٩م/ آخر رجب ٤٩٢هـ وقد وجدوها محصنة إلى جانب أنهم كانـوا يعانون الكثير بسبب نقص المؤن وقلة المياه ، فأضطرهم ذلك إلـى الانتشار فـي البلدان المجاورة للمدينه المقدسة حيث هاموا باحثين عن الماء والطعام وكذلك العلف الضروري لجيادهم (٣) وبعد حصار طويل تمكن الصليبيـون من اقتحام بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق الخامس عشر من يوليو مـــن نفس العام / الثاني والعشرون من شعبان ٤٩٢هـ حيث شهدت المدينة مذابح رهيبـــة لم يراعي فيها هؤلاء الغزاة أية حرمات ، ومن المسلمين " قتل خلق كثير " (٤) .

---

(١) انظر ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص١٣٥ .
Also: Michel Le Syrien : Op.cit. Tome III, PP. 184-185.

(٢) عن هذه الاستعدادات أنظر :
William of Tyre : Op.cit, Vol. I, PP. 333-334.
Also : Roger of Wendover : Op.cit, Vol. I, PP. 427-428.
والملاحظ أن ابن القلانسي لم يشر إلى أي إجراءات من هذا القبيل واكتفي بالإشارة إلي مقاومة أهل البلد للصليبيين ووصول الأفضل في العساكر المصرية " وقد فات الأمر " أنظر ، ص ١٣٦- ١٣٧.

(3) William of Tyre : Op.cit, Vol. I, PP. 334-335.

(4) Cf. Fulcher of Charters : Op.citm PP. 119-120.
Also: William of Tyre : Op.cit, Vol. I, PP. 352-353.
Jasphi Historiographi : Op.cit, P. 409.
Roger of Wendover : Op.cit, Vol. I, P. 429.

وأثناء الحصار الصليبي لبيت المقدس كان جيرار المشرف علي المستشفي ودار الضيافة داخل أسوار المدينة يتولى ، ومن أنضم إلية من المسيحيين الكاثوليك أمر رعاية الفقراء والمرضي والعجزة والأطفال يقدمون لهم الطعام والمتاع المناسب للظروف ، والوقت والمكان (١) ويذكر البعض أن جيرار مرن رفاقه الذين أتوا معه علي هذا العمل ، وأقام مستشفي جديد مؤسسا بذلك جماعة رهبانية مقدسة لم يقدم أعضاؤها نذرا رهبانيا ولم يغيروا ردائهم العلماني ، بل كانوا يرتدون ملابس متواضعة منذ أن كرسوا أنفسهم لخدمة العقيدة الكاثوليكية "المقدسة" (٢) .

وينسب إلى أول رئيس لمستشفي الاسبتارية أنه من موقعه داخل مدينة بيت المقدس كان يمد الصليبيين المحاصرين لهم وهم خارج الأسوار بالمؤن التي يفتقرون إليها بطريقة سرية حتى لا ينكشف أمره لدي رجال الحامية الإسلامية ، وذلك من قبيل المساعدة في تسهيل أمر هذا الحصار علي هؤلاء اللاتين الذين نال منهم الجوع والعطش إلى حد كاد أن يثنيهم عن مداومته أو علي الأقل يثبط من همتهم .

وقد وضعت الروايات المتعلقة بالأصول الأولى للاسبتارية هـذا الدور ـ كما هـي عادتها ـ في قالب أسطوري تكتنفه المعجزات بشكل جعل ما ذكر في هذا الشأن بعيد عـن التصديق ، فجيـرار ـ وفقا لما أوردته هذه الروايات ـ كان يلقي بالخبز إلى المعسكر الصليبي مـن خلف أسوار بيت المقدس ، وحينما رآه المسلمون قبضوا علية وساقوه إلى الأمير فخر الدولة حاكم المدينة "بكل ما يحمله من خبز" وأمام الحاكم عندما كشف المسلمون عن السلة إذا بالخبز الذي فيه ـ كما تزعم القصة ـ قد تحول إلى حجارة " بفضل الرب " مما جعل الأمير فخر الدولة يخلي سبيله . ثم عاد جيرار إلـى

(1) Cf. Gesta Francorum trans. E PP. 203-205.
أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٣٦- ١٣٧.
ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٤٩٢هـ.
لتعليق علي مسلك الصليبيين في المدينة انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٦٣- ٢٦٦.

(2) Cf. Primordium et Origo Sacri Xenodochii, P. 431.
Also : Primordium II, Le fondement ... P. 434.

الإلقاء بالخبز إلى الصليبيين لكثر من ذي قبل بطريقة تشبه إلقاء الأحجار (١) .

وهذه القصة لا نجد لها أثرا فيما هو بين أيدينا من كتابات المعاصرين لهذه الفترة أو المتأخرين عنها زمنيا ، والغرض من إيرادها علي هذه الصورة في روايات مؤرخي الاسبتارية هو جعل العمل الذي قام به جيرار في مكانه تتناسب مع تلك التي يجب أن يحظى بها أول مقدمي الجماعة بمفهوم هؤلاء المؤرخون خصوصا وأن جيرار هذا وصل في فترة تالية من تاريخ الاسبتارية إلى منزلة القديسين ، لذا أطلق هؤلاء الرواة العنان لخيالهم كي ينسبوا إلى هذا القديس المعجزات والكرامات الجديرة بمكانته في نفوس المعاصرين من أعضاء الجماعة بصفة خاصة وصليبي ذلك العصر علي وجه العموم .

ورغم ذلك فان هذه القصة لا تخلوا من واقع تاريخي يمكن الاستناد إليه وهو وجود جيرار في المدينة عند مجيء رجال الحملة الصليبية الأولى وأنه لعب دورا لصالح الصليبيين يتمثل علي الأقل في عملية ترتيب الاتصالات اللازمة في المكان (٢) أو اطلاع هؤلاء الغزاة اللاتين علي أسرار المسلمين ونقاط الضعف في تحصينات المدينة ما من شانه أن يساعد علي تسهيل مهمة اقتحامها والاستيلاء عليها ، وهو ما ألمح إليه المؤرخ الصليبي وليم الصوري عندما ذكر أن المسلمين خوفا مما يمكن أن ينالوه من آذى بسبب وجود هذا الرجل داخل المدينة واعتقادا منهم أن لديه خزانة من الأموال من الممكن أن تعينهم علي مواجهة الحصار قاموا بضربه وألقوا به في السجن حيث تعرض لتعذيب اعوجت نتيجة له مفاصل يديه وقدميه (٣) مما يدل في كلتا الروايتين علي أن جيرار لعب دورا في مساعدة الصليبيين أثناء حصارهم بيت المقدس .

(1) Cf. Jasphi Historiographi : Op.cit, P. 409.
Also : Le Commencement de Le fondement ... Op.cit, PP. 419-420.
(2) Cf. Le Roulx, J.D. Op.cit, P. 34.
(3) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. I, P. 335

وعندما دخل الصليبيون المدينة المقدسة أطلقوا سراح جيرار من السجن ليعود إلى القيام بواجباته كرئيس للمستشفي ودار الضيافة في ظل وضع مغاير لما كان علية الحال من قبل . فقد اصبح لخدماته اعظم قيمة بالنسبة لهؤلاء اللاتين بعد سقوط المدينة في أيديهم بصفته أوربي يدين بمذهبهم أقام فيها سنوات عديدة وبالتالي فلديه خبرة ودراية بأساليب الحياة في هذا المستقر الجديد ، كما كان علي المستشفي أن تستقبل العديد من الجنود الصليبيين جرحي المعارك مع المسلمين وذلك بقدر ما تدبره لهم من أسرة . وهذا فضلا عما يمكن أن يقدمه جيرار ورفاقه من الطعام وسبل الراحة المختلفة إلى مرضاهم وفقرائهم (١) .

– وقد اجتذب هذا العمل الكثيرين من الحجاج الصليبيين الذين آثروا خدمة الفقراء والمرضي في المستشفي علي العودة إلى بلادهم في الغرب فبادروا بالانضمام إلى جماعة جيرار (٢) .

– وهكذا تضاعفت الأعباء الملقاة علي عاتق من يقومون بالخدمة في المستشفي ودار الضيافة بتدفق أعداد ضخمة من الحجاج بعد أن سهل لهم الطريق لأداء شعائر الحج وسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين ، وأيضا لزيادة أعداد جرحي المعارك مع المسلمين وهؤلاء الجرحى أصبحوا كثرة إذا ما قورنوا بمن كانوا قبل ذلك يعالجون في المستشفي بسبب إصابات طفيفة أصابتهم وهم يؤدون فريضة الحج . وإزاء ذلك تزايدت أعداد المتطوعين للخدمة والقيام بواجبات الضيافة في هذه المنشآت ممن استهوتهم المشاركة في أعمال الاسبتارية ورغبوا أن يكرسوا أنفسهم لعمل له شأن عظيم من وجهة نظرهم .

---

(1) Cf. Ibid PP. 373-374.
Also : King, E.J. : Op.cit, P. 21.

(2) Cf. Guillaume de Saint Esteve : Op.cit, P. 425

واستلزم تطور الأوضاع علي هذا النحو العمل في ظل تنظيم يضمن تنفيذ هذه الواجبات علي نحو سليم بعد أن اتسعت دائرة أعمال القائمين بأدائها بشكل يفوق كثيرا ما كان عليه الحال بالنسبة لجيرار ورفاقه قبل مجي الصليبيين حيث كانوا يؤلفون جماعة صغيرة متواضعة تستطيع بسهولة الوفاء بالتزاماتها إزاء أفواج الحجيج التي كانت تأتى علي فترات متقطعة أو أولئك المقيمين بجوار المقدسات ولا يؤلفون أعداد كبيرة .

ومن هذه البداية المتواضعة أخذت هذه الجماعة في اكتساب الشهرة والصيت علي نطاق واسع في أنحاء الغرب الأوربي بما جعله في نفوسهم من امتنان وعرفان بالجميل هؤلاء الذين شملتهم رعاية خدمات المستشفي ودار الضيافة ثم عادوا إلى بلادهم في الغرب ليعبروا هناك عن مشاعرهم إزاء ما لمسوه من كرم الضيافة علي يد جيرار وأصحابه مما شجع العديد من النبلاء علي الالتحاق بصفوفهم كي يزدادوا شرفا ومكانه بتقدير العالم الكاثوليكي لعمل من هذا القبيل . (١) . وقد ترجم العديد ممن ينتمون إلى هذا العالم تقديرهم في سلسلة تكاد لا تنقطع من الهبات والعطايا التي أوقفوها لحساب الجماعة حيث تزايدت علي اثر ذلك أملاكها وإيراداتها (٢) ، فأصبحت قادرة علي تطوير واجباتها آخذة شكل نظام له مقوماته التي تكفل تنفيذ هذه الواجبات علي نحو افضل ، لذا حق للبعض أن يعتبر استيلاء الصليبيين علي بيت المقدس عام ١٠٩٩م المولد الحقيقي لجماعة الاسبتارية (٣)

---

(1) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I, P. 51.
حيث يذكر أسماء بعض النبلاء الذين انضموا إلي الجماعة وأصبح لهم بعد ذلك وضعا مرموقا في صفوفها ومنهم ريموند دي بوي Raimoud Dupuy ودودون دي كومبس Dudon de Comps من مقاطعة دفني Dauphine ، وجاستوس Gastus من مدينة بيرديز Berdeiz وكولون دي مونتجو Conon de Montaigu من مقاطعة اوفريجن Auvergne وغيرهم .

(٢) عن هذه الهبات والعطايا علي مدي القرنين الثاني عشر والثالث عشر أنظر:

Cartulaire General de L'Oedre Tome I-III Passim.
Also : Cod. Dipl. Del Sacro Milit. O.G. Passim.
Revue de L'Orient Latin, Tome III PP. 45-106.

(3) Cf. Taaffe, John : Op.cit, Vol. I, P. 1.
Also : Porterm Whithworth : Op.cit, P. 2 seq.

فحتى ذلك الوقت كانت موجودة لكن في هيئة عمل خيري محلي يتولى مهمة القيام به البندكتيون من أجل مساعدة الحجاج اللاتين وتذليل مصاعب الإقامة بالنسبة لهم ، ثم أصبحت في غضون سنوات قليلة من الغزو الصليبي جماعة دينية دولية كبـــري لها مراكز تابعة في معظم بلدان الغرب الأوربي الهامة (١)

وقد تم إقرار تأسيس الجماعة والاعتراف بها رسميا بمقتضى مرسوم بابوي أصدره البابا باسكال الثاني Pasquale II (١٠٩٩- ١١١٨م) في مدينه بنيفنتو Benventi الإيطالية في الخامس عشر من فبراير عام ١١١٣م ويفهم من عباراته أنه صدر بناءا علي طلب تقدم به جيرار إلى البابا من أجل الحصول علي حماية البابوية للجماعة ومساعدتها لرجاله ، لذا تضمن المرسوم نقاطا رئيسية هامة هي: وضع المستشفي تحت حماية ورعاية الكرسي البابوي ، وإقرار أي منح أو تبرعات حصلت عليها الجماعة والاعتراف بها ، ثم إعفاء الاقطاعات التابعة للجماعة من العشور الكنسية أو جمع بعضها لصالح الاسبتارية ، إلى جانب تحديد الطريقة التي يتم بها تعيين مقدم للجماعة وهي الانتخاب دون اغتصاب لهذا المنصب ، وأخيرا جعلت البابوية العقاب الرادع وهو الحرمان من الكنيسة جزاء لكل من يعتدي علي ممتلكات الاسبتارية أو حقوقهم (٢) وتأكد هذا المرسوم بمراسيم بابوية أخري أقرت ما اشتمل علية مرسوم البابا باسكال لصالح الجماعة مع إضافة امتيازات أخرى تكفل لها وضعا متفوقا علي الهيئات الكنسية الأخـرى (٣) .

(I) Cf. Smail, R.C. : The Crusaders in Syrin and the Holyland, P. 54.
Also : King, E.J. : Op.cit, P. 19.

(٢) انظر النص اللاتيني للمرسوم بالتفصيل في :
Cartulaire Tome I No. 30 PP. 29-30.
Also : Cod. Dipl. Del Sacro M.O., Bull . I, P. 268.

(3) Cf. Cartulaire Tome I, No. 48 (A.D.1119) PP. 40-41.
No. 113 (A.D.1135) PP. 95-96.
No. 122 (A.D.1137) PP. 101-102.

وسميت الجماعة بالاسبتارية Haspitaliers لارتباط أعضائها منذ البداية بالعمل في المستشفي ، كما سميت أيضا " جماعة القديس يوحنا " أو " اليوحنيين" نسبة إلى القديس راعي الجماعة الأول . وهذا الأمر الأخير موضع خلاف بين المؤرخين المعاصرين والمحدثين . بل ومن جانب رجال الاسبتارية أنفسهم . فقد كان من غير المستحب بالنسبة لهم الاعتقاد الذي ساد بين المعاصرين بان راعي مستشفاهم هو القديس يوحنا المتصدق St. John the Almoner (١) الذي كان بطريركا للإسكندرية واشتهر بسخائه في تقديم الصدقات ونشر أعمال البر والإحسان بصنوفها المختلفة بين المسيحيين حتى سماه الآباء المقدسون Eleymon بمعني " المتصدق " (٢) وأصروا علي أن راعي الجماعة هو القديس يوحنا المعمدان St. John The Baptist عن طريق إقران اسمه بالاسبتارية في وثائقهم وارشيفاتهم المعاصرة والبعض منها يرجع إلى فترة مبكرة من القرن الثاني عشر (٣) هذا إلى جانب ربطه بالتاريخ القديم للجماعة في أصولها الأولى المعروفة بالاكسورديوم Xordium Hospitalis بأن جعلوا من أبيه ذكريا مشرفا علي العمل في دار الضيافة في وقت ما ، وكان يوحنا هذا من بين مساعديه (٤) وهذه القصص - كما سبق الإشارة - رغم بعدها عن الواقع إلا أن معظم الاسبتارية وفي مقدمتهم كبار رجال الجماعة أدخلوها في عداد ذكرياتهم الأولى التي يفتخرون بالانتساب إليها (٥) .

---

(1) Cf, John Poloner's Description of the Holy Land in P.P.T.S. Vol. VI, London, 1894, P. 29.

حيث يصر علي نسب الاسبتارية إلي يوحنا المتصدق وليس المعمدان .

Also Cf. Kingm, E.J. : Op.cit, P. 12.

(2) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II, P. 244.

(3) Cf. Cartulaire Tome I & II Passim.
Also: Codice. Dipl. Del Sacro M.O. Passim.
Rohricht, R. : Regesta Regni No. 71 (A.D.1113) P. 16 & Passim.

(٤) أنظر ما سبق وأيضا : Josphi Historiographi : Op.cit, P. 406.
Also : Rilley-Smith : Op.cit, P. 32.

(٥) أنظر ما سبق وأيضا : Cartulaire Tome I, No. 911, Tome II, No. 2674 Tome, III, No. 3000.
Also : De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome VI PP. 10-11.

ويميل إلى هذا الرأي البعض الذين ينسبون إلى المؤرخ وليم الصوري انه اخطأ في اعتقاده بان المستشفي الأصلي كرس للقديس يوحنا المتصدق ، علي أساس أن لديهم من الأدلة ما يؤكد أن راعيها الأول لم يكن يوحنا المتصدق وإنما يوحنا المعمدان (١) ومن هؤلاء أيضا الراهب الاسبتاري وليم دي سانت استيـن فقد اتخذ من وثيقة الامتياز الذي منحه جودفري دي بوايون Godfrey de Bouillon حامي الضريح المقدس (١٠٩٩- ١١٠٠م) إلى الجماعة (٢) دليلا يؤكد وجهة نظرة الخاصة وهي أن يوحنا المعمدان كان راعيا للاسبتارية بصفة دائمة منذ بدايتهم منكرا بذلك كلية الرأي القائل بأن يوحنا المتصدق هو القديس الراعي لهم . وارجع سبب اقتران اسم هذا الأخير بالجماعة إلى قيام الاسبتارية بأعمال مشابهة لتلك لتي كان يؤديها هذا الأسقف { البطريرك } إزاء الفقراء والمعوزين مما جعله مضربا للأمثال في هذا الصدد ، وبالتالي اعتادت الأمم ـ كما يقول استين ـ أن توجه المديح إلى بيتنا ـ يقصد بيت الاسبتارية ـ بأن تذكر اسم القديس يوحنا المتصدق (٣) من قبيل التعبير عن أعمال كرم الضيافة التي تقدمها الجماعة للحجاج الصليبيين .

وعلي النقيض من ذلك يري البعض الآخر أن يوحنا المتصدق كان راعيا للاسبتارية في الطور الأول من حياتهم ثم أحلوا محلة القديس يوحنا المعمدان وان ذلك حدث ـ فيما يبدو ـ بتحول الدير البيزنطية التي تحمل اسمه إلى الجماعة في فترة الغزو اللاتيني لبيت المقدس علي أساس أنها الفترة الوحيدة التي يحتمل فيها حدوث هذا التحول بالنسبة لما صاحبها من ثورة حقيقية في أوضاع

---

(1) Cf. Anonymous Pilgrims in P.P.T.S. Vol. VI, P. 70.

وهو من رحالة القرن الثاني عشر أشار إلي وجود المستشفي وسماها مستشفي القديس يوحنا المعمدان .

Also: Cf. Rilley-Smith : Op.cit, P. 35.

(٢) أنظر هذه الوثيقة في : Cartulaire Tome I, No. I, P. I

(3) Cf. Guillanne de Saimt-Esteve : Op.cit, P. 427.

حيازة العقارات بصفة عامه (١) وذهب آخرون إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير من حيث التوقيت الزمني فرأوا أن الاسبتارية كي ينالوا عظيم الشرف اتخذوا القديس يوحنا المعمدان راعيا لجماعتهم منذ أن فازوا بجزيرة رودس في فترة تالية لرحيلهم عن الأراضي المقدسة (٢) .

كيفما كان الأمر ، فانه من خلال المهام الرئيسية التي اتخذتها الجماعة علي عاتقها منذ البداية في ظل عهود رهبانية ثلاثة هي : الفقر ، والعفة والطاعة . من الممكن أن نستبين أي القديسين كان اجدر برعاية الجماعة منذ نشأتها ، لأن اتخاذ راع لأي نظام معناه أن يكون هذا الراعي قدوة تحتذي في أداء الواجبات التي أنيطت بهذا النظام . واستنادا إلى هذا المبدأ من الممكن أن نقرر باطمئنان أن القديس يوحنا المتصدق كان الراعي الأول للاسبتارية وقدوتهم في التصدق والإحسان إلى الفقراء والمرضي من الحجاج الغربيين ، ثم انتقلت هذه الرعاية إلى القديس يوحنا المعمدان في ظل ظروف معينه غير واضحة ربما بعد أن تطورت الجماعة وتشعبت واجباتها إلى جوانب أخرى تتعدى هذا النطاق وهو أمر لا يحتمل حدوثه إلا في الربع الأخير من القرن الثاني عشر وما تلا ذلك ، لأن ما قرره المؤرخ وليم الصوري الذي ينتهي تاريخه حوالي هذه الفترة من أن الجماعة أقامت في مبانيها ضريحا تكريما للقديس يوحنا المتصدق (٣). ما يدل بصفة قاطعه علي أن هذا القديس كان لا يزال راعيا للجماعة . فأمر التحول لو حدث في عصره من الصعب أن كان بعيدا عن مسامعه أو تجاهله ، وهو كما يعرف عنه مؤرخ علي درجة كبيرة من اليقظة والوعي إزاء ما دار أو يدور من حولـه ، كما أنه سبق وليم دي سانتي استين في الكتابة بحوالي قرن أو يزيد (٤) .

---

(1) Cf. King, E.J. : Op.cit, PP. 22-23.
Also: Rilley-Smith : Op.cit, P. 35.
(2) Cf. Fabri, Felix : Op.cit, Vol. II Part I in P.P.T.S. Vol. XI, P. 319.
(3) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II, P. 244.
(4) Cf. King, , E.J. : Op.cit, P. 13.

وبالنسبة للمنشآت التي كانت نواه لنشأة جماعة الاسبتارية وتطورها بعد قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية فقد بدأت منذ ذلك الحين تتسع وتتطور كي تتلاءم مع الأوضاع الجديدة والتي علي أثرها تزايدت أعداد الوافدين علي المستشفي ودار الضيافة كما أصبح أعضاء الجماعة كثرة بعد أن كانوا فئة قليلة تلتف حول جيرار للقيام بأعمال الضيافة (١) خصوصا وان الاسبتارية بعد أن شهدوا بداياتهم الأولى في هذه المنشآت تمت جماعتهم نموا سريعا في العدد والنفوذ ، وترتب علي ذلك إقامة مبان إضافية وقصرا اتخذوه مقرا لهم خلال فترات زمنية تكاد تكون متقاربة أن لم تكن قد أقيمت جميعها في آن واحد لان المباني ككل ، كما يذكر أحد الأثريين شيدت وفقا لتصميم واحد وطراز معماري موحد (٢) .

- وتتضح هذه الصورة من التقارير التي سجلها الرحالة أو الحجاج الغربيين عن رحلاتهم إلي الأراضي المقدسة . وفي مقدمة هؤلاء سيولف Saewulf الذي حج إلى بيت المقدس خلال عامي ١١٠٢- ١١٠٣م (٣) أي في الفترة الأولى من الغزو الصليبي وقبل أن يصبح الاسبتارية جماعة رسميه لها نشاطها في مجال التشييد والبناء إلى جانب رعاية الحجاج اللاتين والعناية بهم . ورغم ذلك فانه لم يترك وصفا مفصلا لما كان يجري داخل المستشفي بل ذكر في غموض " انه بالقرب منها - أي من كنيسة أخرى لقديسة تسمي ماريا Maria - توجد المستشفي حيث كرس الدير المبجل تكريما للقديس يوحنا المعمدان " (٤) .

---

(١) يذكر البعض أن هذا المبني الرئيسي للاسبتارية كان من الضروري أن يكون ضخما ليفي باحتياجات الجماعة المتزايدة أنظر :

William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 240 N. 2.

(2) Cf. Schick, Conrad : The Muristan or the Site of the Hospital of St. John at Jeruslem in the P.E.F., 1902, P. 42.

(٣) هذا الحاج لا يعرف شئ عن أصلة أو موطنه . وربما تجاهل الإشارة إلى ذلك المؤرخين الذين تناولوا بالدراسة بعض جوانب هذا الموضوع لاقتضابه في وصف الأماكن التي رآها ورغم ذلك فالإشارة هنا أمر علي جانب كبير من الأهمية إذ أنه يعد أحد الحجاج الذين أتوا إلي المدينة المقدسة في الفترة المبكرة من الغزو الصليبي وأشار إلي حالة عدد الأماكن المقدسة الهامة في ذلك الوقت .

(4) Cf. The pilgrimage of Saewulf to Jerusalem (A.D.1102-1103) in P.P.T.S. Vol. IV P. 14.

أما يوحنا أف ورزبرج John of Wurzburg الحاج الألماني الذي زار بيت المقدس حوالي عام ١١٦٠م فقد ترك وصفا يوضح موقع المبني وأجزاؤه وبعض الأعمال التي كانت تؤدي بداخله ولا يعرف شئ عن شخصية يوحنا هذا سوي انه كان قسا في كنيسة ورزبرج الألمانية (١) ومما ذكره عن المستشفي هم انه " بارتفاع (علي مرتفع) في مواجهة كنيسة القبر المقدس وعلي الجانب المقابل للطريق في اتجاه الجنوب بنيت كنيسة رائعة تكريما ليوحنا المعمدان ملحق بها مستشفي حيث تجمع سويا في حجرات مختلفة جمع كبير متعدد (الأجناس) من المرضي ، رجالا ونساء كانوا يعاملون بعناية ويستردون صحتهم يوميا بقدر كبير من النفقات . وحينما كنت هناك علمت أن العدد الإجمالي للمرضي يقدر بألفان يحمل كل منهم أحيانا بمرور يوم وليلة اكثر من خمسين موتي ، بينما يبقي علي المواصلة عديدون آخرون من الأصحاء والمعاقين " (٢) .

كما أن الرحالة بنيامين بن يونه التطيلي الذي زار فلسطين وأماكن في الشرق الأدنى فيما بين عامي ١١٦٥- ١١٧٣م / ٥٦١- ٥٦٩هـ (٣) وكانت زيارته للقدس حوالي عام ١١٦٨م (٥٦٤هـ) (٤) يذكر انه في هذه المدينة " مستشفيان يتسعان لإيواء اربعمائه من فرسان الاسبتارية عدا المرضي الذين يجهزون بكل ما يلزمهم في الحياة وبعد الممات (٥) ومن المرجح أن يكون المقصود بكلمة " مستشفيان " المستشفي ودار الضيافة المجاورة لها وخصوصا وان هذه الأخيرة كانت في

---

(1) Cf. Hume, Edgar, E. Medical Work of the Kinghto Hospitallers of St. John of Jerusalem, PP. 13-14.

(2) Cf. John of Wurzburg : Description of the Holy Land P. 44.

(٣) اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ بداية بنيامين التطيلي لرحلته لان هذه الرحلة لم يترك تاريخا مضبوطا عن زمن شروعه فيها ولم يذكر وقت دخوله المدن والأقطار التي زارها . وذكر البعض أن الرحلة بدأت في عام ١١٦٠م Hume, E.E. Op.cit, P.15 إلا أن ما أورده مترجم الرحلة إلي العربية في مقدمته من استنتاجات تاريخية وتمحيص لبعض الحوادث المهمة التي يذكرها الرحالة في سياق رحلته يجعلنا نتفق معه في إن بنيامين لم يشرع في رحلته قبل عام ١١٦٥م/٥٦١هـ أنظر : رحلة بنيامين التطيلي : ترجمة عزار حداد ، بغداد ١٩٤٥م مقدمة المترجم .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٨ حاشية ٣.

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٩.

وقت من الأوقات تؤدي أعمال لا تختلف عما قدمته المستشفي للمرضي من عناية وعلاج ، ذلك أن لم يكن الاسبتارية قد الحقوا بالمستشفي القديم مستشفي آخر جديد حتى يستطيع الاثنان معا الوفاء بمتطلبات الجماعة في ظل الظروف الجديدة السالفة الذكر (١) .

علي أية حال بعد ذلك بسنوات قلائل زار الأماكن المقدسة حوالي عام ١١٧٢م وبالتأكيد قبل طرد الصليبيين من بيت المقدس عام ١١٨٧م رحالة آخر هو ثيودريك Theodorich (٢) وقد أعطى وصفا اشمل مما أوردة يوحنا افورزبرج لمنشآت الاسبتارية المختلفة إذ يقول :

" علي الجانب المقابل للكنيسة (كنيسة القبر المقدس) مكان سوق وفي مواجهتها تقف ستة أعمدة فوق أقواس . وهنا عند الجبهة الجنوبية للكنيسة أقيمت كنيسة ومستشفي القديس يوحنا المعمدان وبالنسبة لهذه لا يمكن تصديق من يخبر عن جمال هذه المباني وكيفية تجهيزها الوفير بالحجرات والآسرة والأدوات الأخرى المخصصة لاستعمال الفقراء والمرضي ، وعن مدي غناها بوسائل اتراف هؤلاء الفقراء وإنعاشهم ، وأيضا كيفية العمل داخلها بورع وتفان من اجل مساعدة المحتاجين كل ذلك لا يستطيع أن يصدقه من يسمعه إذا لم تسنح له الفرصة أن يري بعينيه ما سمع ، وحقيقة الأمر أننا تجولنا في هذا القصر وكنا غير قادرين بأي الوسائل علي حصـر عدد المرضي المضجعين هناك لكننا رأينا إن عدد الأسرة يزيد عن الآلف ۰۰۰۰۰، ويلي هذا المبني من جهة الشرق ـ علي مرأى شخص واقف هناك ـ كنيسة القديسة ماري { مريم المجدولية } وفيها راهبات يقمن بأداء الخدمة المقدسة يوميا تحت أشراف رئيسة دير " (٣) .

---

(١) أنظر الاختلاف في الرأي الذي حدث بشأن تحديد كلمة " مستشفيان " في :
المصدر السابق ، ص٩٩ ، حاشية ٤ .

Hume, E.E. Op.cit, P.15. Also :

(٢) يذكر ادجار هيوم أنه من المحتمل أن يكون ثيودريك هذا هو ديودريك الذي أشار إليه يوحنا افورزبرج في إحدى المناسبات رغم عدم وجود دليل علي ذلك ، وربما كان ثيودريك الذي أصبح أسقفا لمدينة وورزبرج في عام ١٢٢٣م ، أنظر :

Hume, E.E. Op.cit, P.15.

(3) Theoderich's Description of the Holy Places (Cirea 1172 A.D.) in P.P.T.S. Vol. V, P. 22.

وقد أثارت هذه المنشآت اهتمام رحالة آخرين أتوا في فترة متأخرة عقب رحيل الصليبيين من البلاد الشامية وعبروا عن ذلك في كتاباتهم بطريقة تدل علي مدي إدراكهم حقيقة أن المستشفي ودار الضيافة كانتا المكان الذي شهد فيه الاسبتارية نشأتهم الأولى ثم أخضعوه للعديد من التطورات كي يتلاءم مع تقدمهم السريع نحو الشهرة والنفوذ (١) هذا إلى جانب انه عن مستشفي بيت المقدس تفرع العديد من المستشفيات التي أقامتها الجماعة أو آلت إليها في بعض المدن الصليبية الأخرى (٢) وفي بلدان العالم الغربي الكاثوليكي في أماكن الرحيل إلى الأراضي المقدسة بحرا ، أو في المراكز المنتشرة علي طول طريق الحج عبر البر (٣) .

ونظرا لان جماعة الاسبتارية ـ كما سبقت الإشارة ـ ولدت داخل دير وظلت لفترة طويلة حتى مجيء الصليبيين تحت إشراف الرهبان البندكيتين الذين امتازوا بحياة ديريه منظمة قوامها الاشتراك والتعاون في العبادة والعمل والنشاط (٤) فانه كان لابد وأن يصطبغ نظام الاسبتارية بصبغة تعد انعكاسا لما كانت علية الحياة داخل الدير ، وأن يلتزم أعضاء الجماعة بما كان مفروضا علي الرهبان اتباعه من أنماط السلوك المختلفة وذلك في وقت لم تكتمل فيه قواعد هذا النظام بالقدر الذي يساير أوضاع الجماعة وظروفها المتغيرة وعلي الأخص بعد قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية ، هذا بالإضافة إلى إنها استوحت في هذا النظام بنودا من نظام القديس أوغسطين (٥) .

---

(1) Cf. The Trawels of Sir John Mandeville, New York 1964, P. 45.
Also: Pilgrimage of Ludolph Von Suchem in P.P.T.S. Vol. XII PP. 106-107.
Felix, Fabri : Op.cit, Vol. I, Part II, P. 395.

(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 355, P. 245 & Passim.
Tome II No. 2737 PP. 782-783.

(3) Cf. Hume, E.E. : Op.cit, PP. 11-13.
Also: The New Catholic Encyelopedica, Art. Hospital and Hospice Vol. VIII P. 161.

(4) Cf. Le Roulx, J.D. Les Statuts de L'Ordre de L'Hopital de saint-Jean do Jerusalem in L'Accademe des insoriptions et belles-lettres Paris mars 1887, P. 2.
وعن أهم خصائص النظام البندكتي انظر : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي .
ج٢ : النظم والحضارة ، ص ٢٧ ـ ٣٠.

(٥) ولد القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) في عام ٣٥٤ في تاجستا شرقي توميديا (شرقي الجزائر الحالية) وأتاح له تدرجه في المناصب الكنسية أن يتبوأ زعامة الكنيسة الكاثوليكية في الشمال الافريقي . ومن كتاباته " تعاليم المسيحية " De Doctrina Christiana و " مدينة الله " أنظر :إسحاق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٢٤ وما بعدها . وأيضا :
سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٦.
وقد صنف النظام الاوغسطيني حوالي نهاية القرن الحادي عشر نتيجه أعداد كبيرة من الاكليركيين في الكنائس التي تعيش في مجتمع واحد ويقوم النظام أساسا علي الكتابات السالفة الذكر . أنظر
King, E.J : Op.cit, P. 22 N.4

ويتكون النظام الأساسي للاسبتارية من تسعة عشر بندا (١) تحتوي في مجموعها واجبات أعضاء الجماعة المبنية علي النذر الرهباني الثلاثة (العفة الطاعة ، الفقر) (٢) ونظامهم الداخلي في ممارسة هذه الواجبات (٣) وأيضا مواصفات طعام هؤلاء الأعضاء وملبسهم (٤) والصلوات التي تؤدي من أجل خلاص أرواحهم بعد الوفاة (٥) والعقوبات التي توقع علي من لا يوفون بالنذر أو يخرقون النظام (٦) هذا بينما اختصت البنود الأربعة الأخيرة بطريقة استقبال المرضي في الدير (٧) وما يتحمله أي أخ من الاسبتارية من التبعات في حالة الادعاء الكاذب (٨) والأساليب الودية بين لاخوة بعضهم والبعض لرد من يتعدي منهم حدود النظام ، وأعادته إلى رشده (٩) ثم أخيرا طريقة حمل الصليب علي المعطف (١٠) وكان النظام بهذا الشكل يمثل مجموعة من القوانين الرئيسية التي بدأ الاسبتاريون عملهم في ظلها كجماعة رسمية .

وقد استلزم انضمام أفراد من العلمانيين أو المدنيون إلى جماعة الاسبتارية أن تتخذ نظمها جانبا يتلاءم بعض الشيء مع حياة هؤلاء الأعضاء الجدد العادية وفي نفس الوقت تتفق في مفهومها العام والمبادئ والأهداف التي تشكلت الجماعة أساسا مـن اجل تنفيذها والحفاظ عليها ، فأضيفت قرارات

✓ وتميل الأبحاث الحديثة إلى إظهار العلاقة بين القديس أوغسطين والرهبان البندكتيين . انظر سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٣٨. ولعل ذلك يفسر كيفية تأثر نظام الاسبتارية بهذا النظام حيث أن هناك بنودا برمتها أخذتها الجماعة عن النظام الاوغسطيني كالبنود ٤، ٨، ١٣، ١٧ . أنظر :

Cf. Cartulaire, Tome In No. 70, PP. 63-64, 66-67.

(1) Cf. Ibid, No. 70 (A.D.1125-1153) PP. 62-68.
(2) Ibid, ,, Arts. I & II, PP. 62-63.
(3) Ibid, ,, Arts. III & VII PP. 63-64.
(4) Ibid, ,, Arts. VIII P. 64.
(5) Ibid, ,, Arts. XIV P. 66.
(6) Ibid, ,, Arts. IX & XIII P. 65-66.
(7) Ibid, ,, Arts. XVI P. 67.
(8) Ibid, ,, Arts. XVIII PP. 67-68.
(9) Ibid, ,, Arts. XVII P. 67.
(10) Ibid, ,, Arts. XIX P. 68.

وأحكام وبعض تعديلات لكن لم تلحق جميعها بالنظام الأصلي الذي صدق عليه البابا ايوجين الثالث Eugene III (١١٤٥- ١١٥٣م)·(١) ثم البابا لوقا (لوكيوس) الثالث Lucius III الذي كان تصديقه أيضا علي هذا النظام دون ما ألحق به من قبل عام ١١٨٤- ١١٨٥م (٢) فقد وقع علي المجالس العامة Les Chapitres general وعلي مقدم الجماعة أيضا مهمة سد الفراغان الموجودة في لنظام الأساسي بقرارات متتالية تعالج ما يستجد في حياة الاسبتارية من أوضاع (٣) .

ويدأ ذلك بوضع نظام لكنيسة بيت المقدس عام ١١٧٧م علي يد المجلس العام للجماعة برئاسة المقدم جوبرت Josbertus (١١٧٣- ١١٧٧م) (٤) وأحكام تكميلية لبعض بنود النظام الأصلي في الرابع عشر من مارس ١١٨٢م في عهد المقدم روجر دي مولين Roger des Molin (١١٧٧- ١١٧٨م) (٥) ثم وضعت نظم أخري في عهد الفونس البرتغالي Alphonse de Portugal (١٢٠٤- ١٢٠٧م) تتعلق بصلاحية سلطة المقدم الأعظم والمارشال ومخصصاتها بالنسبة لبعض الحالات إلى جانب بنود تخص شئون أعضاء

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I no 217 PP. 166-168

وهذا التصديق كان بمقتضي هذا المرسوم الذي صدر بتاريخ ٢٩ يناير ١١٥٣م في اللاتيران وقد شمل امتيازات الجماعة والمنح التي حصلت عليها الي جانب تحريرها من تدخل السلطات الاسقفية في شئونها .

(2) Cf. Ibid Tome I no 690 P. 458 .

وقد اشار المرسوم بوضوح الي ان هذا النظام كان قد صدق عليه من قبل البابا ايوجين الثالث

(٣) وردت هذه القرارات في " مجموعة وثائق الاسبتارية " منفصله وفقا لترتيب صدورها زمنيا بالنسبة للوثائق الاخري . لكنها وردت كمجموعة مصنفه أو مبوبه موضوعيا في :

Bavdoin, J .: Op.cit.,

Also De Vertot, L'Abbe: Anciens et Nouveaux Statuts de l'Ordre de Saint Jean de Jerusalem, paris 1819.

(4) Cf. Cartulaire Tome I no 504 PP. 345-347.

(5) Cf. Ibid no 627 PP. 425-429.

الجماعة (١) ويمثل عهد المقدم الأعظم هيوريفل Hugo Revel (١٢٥٨- ١٢٧٦م) فترة حافلة بصياغة وإضافة العديد من نظم الجماعة ، ومعظمها قواعد تتعلق بالعدالة والصلاحيات الوظيفية لبعض الرتب ، وما يفعله " المجلس " في حالة وقوع المقدم في أسر المسلمين ، وأضاف اختصاصات أخري للموظفين الإداريين ، هذا بالإضافة إلى بنود تختص بالنواحي المالية وقواعد السلوك (٢) وكان الحال كذلك بالنسبة لكل من نيقولا لورجن Nicolaus Lorgne (١٢٧٨- ١٢٨٣م) (٣)ويوحنا فيليه Johannes de Villers (١٢٨٥- ١٢٩٣م) (٤) .

وفي ظل التنظيم الذي اقتضته أوضاع الاسبتارية المتطورة انقسم أعضاء الجماعة إلى طبقات ثلاث : الفرسان ، الخدام أو المساعدين sergents والوعاظ Chapelains (٥) وقد اختصت الطبقة الأولى بالحرب والثانية بأعمال متواضعة لخدمة المرضى والفرسان والثالثة بالخدمة الدينية (٦) وقد أخذ هذا التقسيم مكانه في نظام الجماعة علي أيام المقدم ريموند دي بوي بعد أن أضاف الاسبتارية إلى واجباتهم الأولى واجب الدفاع عن الأراضي المقدسة وحماية العقيدة الكاثوليكية ضد أعدائها ففتحوا الباب بذلك لعناصر من النبالة الأوربية المحاربة للانضمام إليهم في الوقت الذي كان فيه الاسبتاريين الأول عناصر يغلب عليهم الطابع الشعبي أو الديني (٧) .

---

(1) Cf. Ibid Tome III no 1193 PP. 31-40.
(2) Cf. Cartulaire Tome III nos. 3039 PP. 43-54, 3180 pp. 118-121, 3317 PP. 186- 188.
وهذه في مجموعها أربعة وتسعون بندا
(3) Cf. Ibid Tome III no 3760 PP. 368-370, no 3844 PP. 450-455.
(4) Cf. Ibid Tome III no 4022 PP. 525-529.
(5) Cf. Baydoin, J. : Op.cit. P.8.
(6) Cf. Le Roulx, J.D. : Op. cit. P. 287.
(7) Cf. Primordium et Origo Sacri Xenodochii, Op.cit. P. 432
Also : Le Fondement du S. Hospital, Op.cit. P. 435 Prawer, Joshua : Op.cit. P. 278

وقد وضعت بالنسبة للطبقات الثلاثة شروطا عامة كانت بمثابة معايير يقبل علي أساسها من يرغب الانضمام إلى صفوف الجماعة ، فلابد أن يكون سليل زواج شرعي فيما عدا أبناء الكونتات أو الأشراف وهؤلاء يشترط فيهم أن يكونوا مولودين من أب تتوافر فيه صفات الأبوة التي تضمن تربيتهم تربية صحيحة ، وبالنسبة للمولودين من أم شريفة الموضع فمن المحظور أن يتقلد زي الاسبتارية أشخاص ينحدرون من أصل يهودي أو ماروني أو مسلم { من المسلمين علي اختلاف مذاهبهم } مهما كانت أجدادهم أمراء أو كونتات ، وينطبق ذلك أيضا علي كل من أدي عملا أو امتهن وظيفة في جماعة أخري (١) أو عقد قرانه وأتم الزفاف (٢) هذا فضلا عن أن يكون أبويه حسني السمعة (٣) وأن يكون الشخص ذاته ذو جسد خال من الأمراض سليم البنية والروح ذو طبائع وعادات حسنة (٤)

وكان من تتوافر فيه تلك الصفات يعد مرشحا لأن يكون عضوا في الجماعة ولا يصير كذلك إلا إذا تم استقباله في احتفال ذو مراسم دقيقة أشبه بما هو متبع في " التعميد " أو احتـــــفالات " التتويج " (٥) حيث تتحدد للمرشحين بأجمعهم التزامات الطاعة ، والنظم والقـواعد الصارمة التي لا تسمح لهم بأي حال أن يسيروا وفقا لما تحكم به سجيتهم بل عليهم أن يطيعوا أوامر مقدميهم وقادتهم (٦)

---

(1) cf. Statuts d` Hugues Revel in Cartulaire Tome III no 3180 PP.120-121
Also De vertot, L Abbe ; Op.Cit. Tom VI arts. 5,9 P. 19 ..
(2) cf. Cartulaire Tome I no 514 P. 351.
(3) cf . Bavdoin , J. : Op. Cit . art . 42 P. 17.
(4) cf . De Vertot , L, Abbe : op. Cit. art.16 p.20.

(٥) انظر مراسم هذا الاحتفال بالتفصيل في :

Bavdoin, J. : Op.cit. PP. 6-8
Also DE Vertot, L`Abbe: Op.cit. P. 14.
Lacroix : La Chevalerie et les Croisades, Paris 1887 , PP. 218-219.

(6) Cf. De Vertot, L`Abbe: Op.cit. P. 15.

ورغم التزام أعضاء الجماعة بهذه القواعد معظم مراحل حياتهم إلا انهم لم يتقيدوا ببعضها بعد التوسع الإقليمي للاسبتارية وازدياد ثرواتهم (١) .

وبالنسبة للفرسان وضعت شروط إضافية تتناسب والمكانة التي يحظى بها من ينتمي إلى هذه الطبقة في صفوف الجماعة خصوصا بعد غلبه الجانب الحربي الذي فرضته الأوضاع المحيطة بلاتين الشرق على أعمال كرم الضيافة والعناية بالمرضى والتي تعد من صميم نظام الاسبتارية . رغم أن هذه الواجبات الأخيرة لم يكن هؤلاء المحاربين بمنأى عن القيام بها بشكل كلي (٢) فالفرد لكي يصبح فارسا في صفوف الجماعة لابد وأن يكون ابنا لفارس أو من عائلة اشتهرت بالفروسية (٣) أو كان قد منح لقب فارس على يد أمير كاثوليكي فخول له ذلك على ألا يكون قد تعرض لأي نوع من أنواع العقاب (٤) هذا بالإضافة إلى ضرورة تقديمه ما يثبت انه من أبوين نبيلين ينتميان إلى طبقة النبلاء (٥) وأنه لا ينتمي إلى شخص من جماعه دينيه أخرى . وهذا الشرط الأخير لم ينفذ بطريقة قاطعة بل ترك للمقدم الأعظم والمجلس العام أمر تقريره حسبما يتراءى لهما (٦) وفوق ذلك فانه باستثناء أبناء النبلاء كان أبناء الفرسان الاسبتارية في طفولتهم بمثابة تلاميذ في منازل الجماعة إلى أن يبلغوا سن الفروسية (١٨عاما) حينذاك كان مسموحا لهم أن يتقدموا بطلب كي يقبلوا فرسانا في صفوفها (٧) ويذكر الفريد دوجان Alfred Duggan أن الجماعة سمحت لبعض الفرسان الصليبيين الإقطاعيين أن يلتحقوا بصفوفها كإخوان علمانيين وأسندت إليهم مهمة حراسة الحجاج في

---

(1) Cf. Williams, Jay : Knights of the Crusades, 2ed., London 1963, P. 56, 70.
(2) Cf. Statuts de Roger de Molins in Cartulairs Tome I no 627 PP. 425-429.
(3) Cf. Statuts de Hugues Revel (A.D. 1262) in Cartulairs Tome III no 3039 art. 19 P. 47.
(4) Cf. De Vertot, L`Abbe: Op.cit. art 25 P. 22.
(5) Cf. Statuts d' Hugues Revel, Op.cit. art 20 P. 47.
(6) cf. Cartulaire Tome II no 2213 (Usances) art 121 PP. 556-557. Tome III no 3180 PP. 118-120.
(7) Cf. Statuts d' Alphonse de Portugal in Cartulaire Tome II no 1193 P. 37.

الطريق من الساحل حتى الأماكن المقدسة . ويضيف بأن هؤلاء الفرسان ظلوا علمانيين رغم أنهم أخذوا علي عاتقهم الالتزام بالعهود الرهبانية الثلاثة (الفقر ، العفة ، الطاعة) وكانوا بالنسبة للاسبتارية بمثابة مدد له قيمته لكونهم محاربين مدربين وملائمين للوضع العسكري المعاصر (١) .

وقد كانت سجيه فرسان الاسبتارية حتى حوالي العقود الأولى من القرن الثالث عشر مختلفة عن طبيعة هؤلاء الفرسان الإقطاعيين . فالأخيرين حينما قدموا إلى الشرق اللاتيني كانوا مغامرين تحدوهم الرغبة في الاستحواذ علي اقطاعات غنية أو مكاسب متنوعة ، وفي نفس الوقت لديهم استعداد كاف للوصول إلى علاقة مرضيه مع جيرانهم المسلمين ، أما فرسان الجماعة فقد كانوا ينظرون إلى المسلمين بروح ملؤها التعصب ، كما كانوا يستاءون مما يوقعه الملوك الصليبيون من اتفاقيات هدنة أو صلح باعتبارهم أن ذلك تعطيل يدنس واجباتهم ، إلا أن هذه الروح لم تلبث أن تغيرت فيهم هم الأخريين حينما دب الانقسام والخلاف بين صليبي الشام وأصبحت المصالح الخاصة هي المحرك وراء كل تصرف ، وفي هذا الصدد وصل الأمر بالاسبتارية إلى عقد محالفات مع المسلمين ضد بعض الصليبيين (٢) .

ومن بين طبقة الخدم كان الاخوة خدام السلاح Freres Sergents d` Armes يختصون بخدمه الفرسان ومعاونتهم في ميدان القتال (٣) ولا يعرف إلا القليل عن الطريقة التي يدخلون بها في صفوف الجماعة إلي جانب مراعاة الشروط العامة فيهم كي يصبحوا

(1) Cf. The Story of the Crusades, London, 1969 P.
(2) cf. Cartulaire Tome II no 2186 PP. 523-524 (A.D. 1238)
حيث يوبخ البابا جريجوري التاسع الاسبتارية لتحريضهم الحشيشية ضد أمير إنطاكية وكونت طرابلس (بوهيميند الخامس) .
(3) Cf. Lacroix : Op.cit. P. 217 .
Also Woodhouse, F. : Op.cit. P. 27.

" أخوة اسبتاريين " (١) فالمعروف عنهم هم أنهم أتباع مأجورين لكل منهم الحق في اقتناء اثنين من المطايا بحكم انتمائهم إلى لقب الجماعة (٢) ونظرا لانهم من طبقة اجتماعية ادني فقد حرموا من المعاملة التي كان يحظي بها الفرسان ، كما انه كان غير ممكنا لأي منهم أن يتدرج في الوظيفة ليصبح فارسا يوما ما (٣) وللمقدم الأعظم وحده حق تعيينهم إلا إذا أناب عنه في هذه المهمة مساعديه أو أتباعه (٤) ومع ذلك كان يختار من بين صفوف هؤلاء المساعدين التركبولي ولهم حق دخول المجلس العام للجماعة . ويبدو لديلافيل لي رو كما لو أريد باتضاع الأعمال التي كلفوا بها تشجيع الخدام النافعين علي استحسان ما يقومون به عن أراده وورع ، وأيضا إعطاؤهم الأمل إزاء صبرهم المستسلم للقيام بهذه الأعمال الشاقة عن طريق الجزاء الذي يلقونه بالوصول إلى بعض المناصب القيادية في الجماعة (٥) .

وكان ملبس أعضاء الاسبتارية علي اختلاف طبقاتهم متواضعا ورخيصا وذلك عملا بمبدأ الزهد والتقشف الذي أقسموا علي الالتزام به في محتوي العهود الرهبانية الثلاثة منذ أيام المقدم جيرار (٦) وقد أقر ريموند دي بوي هذا المبدأ في نظامه بقوله : " يجب أن يكون ملبس الاخوة متواضعا ، لأننا خدام للمسيح الذي كان فقيرا وعلينا أن نتعري لنرتدي لباس البؤس والشقاء ، فعيب علي الخادم أن يكون متباهيا وسيده متواضعا " ثم انتهي إلى أن حرم علي الاسبتارية ارتداء " أقمشة

(1) cf. Bavdoin, J. : Op. Cit. PP. 10-11.
(2) Cf. Statuts d' Alphonse de Portugal, OP.cit. P. 37.
(3) cf. Bavdoin, J. : Op. Cit .art. 33 P. 13.
(4) cf. Cartulaire Tome II no 2213 (Usances) art 89 PP. 548-49.
(5) Cf. Les Hospitaliers en Terre Sainte P. 292.
(6) Cf. Primordium et Origo Sacri Xenodochii, Op.cit. P. 431.
Also : Williamsm Jay : Op.cit. P. 56.

ذات ألوان زاهية أو من النوع المخملي (أي القطيفة) ، كما منعوا مهما كانت الظروف من أن يرتدوا فراء الحيوانات " (١) .

وقد كان الزي الرسمي للجماعة عبارة عن عباءة سوداء تشبه الناقوس مشقوقة من علي الذراعين كي تساعد علي حرية حركة اليدين (٢) ومعطفا أطرافه من نفس اللون (٣) وقلسونه وصليب من الكتان الأبيض ذو أطراف ثمانية كان مطرزا علي صدر الرداء من الجهة اليسرى (٤) وأثناء النوم حرم علي الاسبتارية أن يناموا عرايا بل كان عليهم أن يرتدوا قمصانا من الصوف أو الكتان أو أي أكسية أخري مشابهة (٥) وحددت نظم الجماعة لكل عضو فيها مستحقاته من قطع الأقمشة علي اختلاف أنواعها وله أن يصرفها من مخازن الأكسية كي تصنع منها ملابسة وفقا للمواصفات الموضوعة (٦) .

وفي بداية الأمر كان الزي موحدا بالنسبة للجميع علي هذا النحو ثم بدأ في أن يخضع بعد ذلك لتعديلات طرأت عليه من أجل تمييز أفراد طبقة من الطبقات الثلاث عن أفراد الطبقتين الأخريين أو تمييز أعضاء الجماعة الحقيقيين عن غيرهم ممن هم خارج النظام الرهباني الأساسي للاسبتارية وأول تعديل له شأنه في هذا الصدد هو ما احتواه إصلاح الفونس البرتغالي والذي أجراه علي بعض النظم الداخلية المعمول بها ، فكثيرون من الذين خدموا مع فرسان الجماعة كمرتزقة استمروا في

(1) Cf. Statuts de Raymond Dupuy in Cartulaire I no 70 arts. 2,8 PP. 63-64.
(2) Cf. De Vertot, L'Abbe: Op.cit. art 23 P. 22.
Also : Fabri, Felix : Op.cit. Vol. II Part I P. 319 (in P.P.T.S. IX)
(3) Cf. Lacroix : Op.cit. P. 218 .
(4) Cf. Statuts de Raymond Dupuy in Cartulaire I no 70 arts. P. 65.
Also : ~~ ~~ ~~ in L'Abbe de Vertot art. 3 P.19
Anonymous Pilgrim in P.P.T.S. Vol. V Part II P. 30.
(5) Cf. Cartulaire Tome I no 70 art. 8 P. 64.
Also: Ibid Tome II no 2213 (E sgarts) art. 11 P.538.
(6) Cf. Cartulaire Tome III no 3075 art. 8 P. 77.

وضع صليب الاسبتارية علي صدورهم بعد انتهاء مدة خدمتهم ، وهؤلاء كثيرا ما جلبوا الخزي والعار للجماعة بانغماسهم في حياة مليئة بالشرور ، فقد حرم عليهم الفونس ذلك وجعل تقليد شعار الاسبتارية { الصليب ذو الثمانية أطراف } قاصرا علي من يبقون في خدمة الفرسان بصفة فعلية (١)

وبالإضافة إلي رداء الحرب ارتدت العناصر المحاربة في الجماعة (من الفرسان ومساعديهم) أيضا الزي الرئيسي للاسبتارية (٢) مما كان يوق خفة الحركة الضرورية بالنسبة لهم في الحرب ضد المسلمين الذين امتازوا بالمهارة في عمليات التطويق وحركات الالتفاف السريعة (٣) ويبدوا أنه لهذا السبب رفع المقدم وليم شاتونيف Guillaume de Chateau-neuf (١٢٤٣-١٢٥٨م) ملتمسا إلي البابا أنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣- ١٢٥٤م) بشأن تعديل الزي علاجا لهذا الوضع ، فرخص له البابا بمقتضى المرسوم الصادر في ليون أول يوليو عام ١٢٤٨م أن يرتدوا معاطف خارجية واسعة مع وضع علامة الصليب علي صدورهم في حالة أقامتهم أو مرورهم عبر أماكن مشكوك فيها (أي عرضة لكمائن المسلمين وغاراتهم) (٤) .

ولعدم وجود اختلافات في هذا الزي تميز الفرسان عن العناصر الأخرى في الجماعة وهو أمر يتناقض مع ما جرت به العادة في نظم أخري متشابهة ، رأي البابا اسكندر الرابع Alexandre IV (١٢٥٤- ١٢٦١م) ضرورة هذا التمييز ، فأمر بأن يرتدي الفرسان في الحرب " الجبيات "

---

(1) Cf. Statuts d' Alphonse de Portugal in Cartulaire Tome II no 1193 PP. 36-37.
(2) Cf. Williamsm, Jay : Op.cit. P. 56.
(٣) عن اساليب وفن القتال عند المسلمين في عصر الحروب الصليبية انظر :
فايز نجيب أسكندر : فن الحرب والقتال لدي الصليبيين والمسلمين في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي رسالة ماجيستير لم تنشر - جامعة الاسكندرية ١٩٧٦م -
Also : Oman, Ch. : A History of the Art of War in the Middle Ages, 2 Vols, New York, 1924, Passim .
(4) Cf. Cartulaire Tome II no 2479 P. 627.

Jupons والملابس العسكرية الأخرى ذات لون أحمر مطرز عليها صليب أبيض مطابق لشعار الجماعة " كي تكون رموز الزي الخارجية متفقه مع ذاتهم التي من الممكن أن تتضح علي هذا النحو بسهولة ، وبالتالي فان أمان الأشخاص من الممكن أن يكون مؤكدا " (١) وكان أن جعل نيقولا لورجن المحاربين وحملة السلاح من أعضاء الجماعة يرتدون معطفا احمر اللون وصليب ابيض علي الجهة اليمني بالإضافة إلى العباءة السوداء (٢) وقد أصدرت البابوية مراسيم تأمر باستخدام الشدة ضد كل من يرتدي زي الجماعة وهو خارج عن صفوفها سوا أكان مطرودا منها ويعيش في ظل عقوبة " الحرمان " أو لا ينتمي كلية إلي الاسبتارية ، ووصل تشدد البابوية في هذا الصدد إلي حد منع هؤلاء من مجرد حمل صليب الجماعة الأبيض اللون ذو الأطراف الثمانية (٣) .

وكان طبيعيا أن يقيم أعضاء الاسبتارية في الأماكن والمواقع والتي يستطيعون الانطلاق منها لتنفيذ الواجبات والمهام الملقاة علي عاتقهم ، فمنهم من عاش في القلاع ، أو الحصون حياة أشبه بتلك التي يحياها الجنود في ثكناتهم ، ويخرجون منها للإغارة علي إقليم مجاور أو يتحصنون بها من أجل الدفاع عن حدود إمارة أو كونتية ، هذا بينما أقام آخرون في المستشفي أو دار الضيافة للعناية بالمرضي والفقراء والسهر علي راحتهم وتقديم الطعام والدواء إليهم أو أداء واجبات الضيافة إزاء الغرباء الذين اتخذوا من دار الجماعة مأوي لهم .

(1) Cf. Codice dipl del Sacro Milit. O.H.G., Bull XIII P. 278.
(2) Cf. Statuts de Nicolas de Lorgne, Op.cit. art 23, P. 455.
Also : Statuts de Nicolas de Lorgne in L'Abbe de Vertot art. 4 P. 19.
Bavdoin, J. : Op.cit. art. 4 P. 9.
(3) Cf. Cartulaire Tome II no 2612 PP. 731-732.

ومنذ الفترة المبكرة من تاريخ الجماعة لم يتخذ أعضاؤها أماكن للنوم كالعنابر ، بل وجد لديهم نفس الميل إلى الراحة والعزلة التي هي من خصائص الحياة الرهبانية الغربية بصفة عامة ثم تطور الأمر فيما بعد إلى نظام الحياة الجماعية في الإقامة فيما عدا مقدم الجماعة الذي كان له مكان معيشة خاص به حوالي عام ١١٦٠م ثم منزل عام ١٢٠٦م ، وقد استمرت إقامته في القرن الثالث عشر بجوار دار الضيافة حتى بعد أن أنتقل مقر كل من المارشال والموظفين الديرين إلى مكان آخر من مدينه عكا (١) . وفي أماكن الإقامة هذه كان الكساء Drapier (٢) يصرف لكل واحد من الأعضاء غطاء (كوفرته) واثنين من الملاءات ووسادة (٣) وأصبح سرير الفرد اكثر ترتيبا في القرن الثالث عشر وازداد عدد الملاءات والأغطية إلى ثلاثة بالإضافة إلى أخري احتياطي توضع في كيس أو جراب (٤) مما يدل علي أن أعضاء الجماعة بعد ازدهار جماعتهم ماليا واقتصاديا سلكوا سبيل الحياة الرغدة وأصبحوا أكثر رفاهية ، وبذلك كانوا قد بعدوا عن حياة الزهد والتقشف التي نص عليها نظامهم الأساسي والتي هي من أخص سمات الحياة الرهبانية .

(1) Cf. Rilley-Smith : Op.cit. P. 249.

(٢) الكساء هو المسئول عن الكساوي والاقمشة ويعهد اليه بالنواحي المتعلقة بتجهيز ملابس اعضاء الاسبتارية لذا كانت مخازن الاقمشة والملابس وكذلك الخياطون في نطاق اشرافة . وفي حالة وفاة أحد الاعضاء داخل المستشفي أو خارجها كان له الحق في ان ياخذ عباءته وباقي الاشياء التي استعملها المتوفي من ملابس وبياضات وأقمشة واغطية . وفي مجلس الجماعة العام كانت تعطي له الكلمة بعد الاسبتاري مباشرة ليقدم تقريرا اعن اعمالة انظر :

Statuts d' Alphonse de Portugal in Cartulaire Tome II no 1193 P.39.
Also : Cartulaire II no 2213 Usances art. 109 PP. 553-554.

(3) Cf. Ibid II no 2213 Usances art 118 P. 556.

(4) Cf. Ibid Tome III no 3075 art. 8 P. 77.

وفيما يتعلق بالمأكل فرض نظام ريموند دي بوي على الاسبتارية ألا يتناولوا أكثر من وجبتين في اليوم (١) ولا يحتوي طعامهم أي لحوم في اليوم الرابع وفي يوم الراحة (السبت) من كل أسبوع وفي الفترة من السبعينيات حتى عيد الفصح باستثناء من هم مرضي أو أصابهم الوهن (٢) وبالنسبة لهؤلاء الأخيرين كان يحق للمريض بأن يتناول الطعام علي مائدة العيادة لمدة ثلاثة أيام في فترة النقاهة دون أي مقابل (٣) هذا بالإضافة إلى ما يتقرر من وجبات إضافية من اللحوم لهؤلاء الذين يؤدون عملهم علي نحو أفضل كمكافأة لهم (٤) وبعد آخر عمل يقوم به أعضاء الجماعة في حياتهم اليومية كان عليهم ألا يتناولوا شيئا من الشراب ماعدا الماء العذب (٥) .

وقد طالب النظام هؤلاء الأعضاء بأن يلتزموا الصمت أثناء تناول الطعام عملا بقول القديس بولس St. Paul " فليأكل كل فرد طعامه في صمت " (٦) لكن من الواضح من إشارات النظم التالية هو أن سلوكهم لم يكن مؤدبا علي الدوام . فتناول الوجبات أصبح في بعض الأحيان شغبا حيث يضرب الاخوة الاسبتارية الخدم أو يرجمونهم بالخبز والنبيذ ثم ينهضوا بعد الطعام سيرا إلى الكنيسة لطلب الرحمة والمغفرة . ورغم أن نظام المأكل كان جماعيا إلا أن المقدم في البداية ثم موظفي الجماعة الكبار ثم أخيرا بعض الأعضاء سمح لهم أن يقدموا الوجبات إلى الضيوف في الحجرات الخاصة بهم (٧) .

---

(١) هذا النظام استمر العمل به في النظم التاليه وشمل ايضا المناسبات والاعياد أنظر :
Cartulaire Tome III no 3670 art . 6 P. 370.

(2) Cf. Statuts de Raymond Dupuy in Cartulaire I no 70 arts. 8 P. 64.

(3) Cf. Cartulaire Tome III no 3039 art . 45 P. 53.

(4) Cf. Statuts d` Alphonse de Portugal in Cartulaire II no 1193 P.36.

(5) Cf. Statuts de Raymond Dupuy, Op.cit. art. 11 P. 65 .
Also : Cartulaire Tome III no 3396 art . 11 P. 228.

(6) Statuts de Raymond Dupuy, Idem .

(٧) أنظر الاشارة الي هذه الحالات في :
Cartulaire Tome II no 2213
(Esgarts) arts. 6m 25,27, P. 538,540
(Usances) arts. 111,113,116 PP. 553-555.

وكان يتولي الأشراف علي تنفيذ هذه النظم وإدارة شئون الجماعة جهاز إداري علي درجة كبيرة من التنظيم شمل نواحي العمل المختلفة لضمان المحافظة علي النظام العام للاسبتارية والجدير بالملاحظة هو أن الذين تولوا مسئوليات الوظائف الكبرى القيادية في الجماعة لم يكن لديهم صلاحيات تخول لهم الاستئثار بالأمور واتخاذ القرارات الهامة بل كان هيكل التنظيم الإداري في مجموعه وحدة متكاملة كل عضو فيها كان رقيبا علي الآخر ، أي أن أجهزة الرقابة كانت غير منفصلة عن الحكام والمشرفين ، وإنما خضعت السلطات الوظيفية لمبدأ الشورى ومراعاة مصلحة الجماعة في المقام الأول ، فكان كبار موظفي الجماعة يتولون تنفيذ مهام أوكلت إليهم في الوقت الذي كان فيه أمر تقريرها مردود في معظم الأحيان إلى مجلس الجماعة العام والذي يضم ممثلين عن أعضاء الاسبتارية علي أساس الوحدات الإقليمية التي ينتمون إليها (١) .

وقد كانت حكومة الجماعة مجسدة بصفة عامة في هذا المجلس ، فسلطاته مطلقة في تصريف الأمور علي المستويين التشريعي والتنفيذي ، يصدر أوامر لها قوة القانون بالنسبة لأعضاء الاسبتارية وأيضا بالنسبة لسياسة الجماعة الداخلية والخارجية ثم يترك تنفيذ هذه الأوامر أو القرارات للمقدم وكبار الموظفين الذين يتولي تعينهم ، مع احتفاظ المجلس في نفس الوقت بحق الرقابة عليهم وذلك علي أساس كونه مصدرا لكل سلطه ، فالوظائف التي يمارسها المقدم ومن دونه من الموظفين كانت بمثابة تفويض أو انتدابا لهم من "المجلس العام" للقيام بها. وكان بذلك ملتقى كل

---

(١) كل وحدة من هذه الوحدات كانت تضم مجموعة من الفرسان تنتمي الي موطن في الغرب الاوربي ويتحدث افرادها بلغة واحدة . وفي البداية انتظموا في اربعة وحدات تضم جماعات فرنسا ، واسبانيا ، وايطاليا والمانيا . ثم اعيد تنظيمهم مع مراعاة عامل اللغة فاصبحوا سبعه يمثلون من هم من : بروفانس Provance واوفريجن Auvergne وفرنسا وايطاليا واورجوان ، والمانيا ، وانجلترا . انظر :-
Cartulaire Tome III no 3308 P. 183.
Also : De Vertot, L`Abbe : Tome VI Passim
Rillry-Smith: Op.cit. PP. 283-284.

أعضاء الاسبتارية الحاضرين في مكان واحد والخاضعين أيضا لرئيس واحد (١) .

وعن هذا المجلس كانت تنبثق لجان مختلفة تختص بالنظر في موضوعات تحتاج اتخاذ قرارات حاسمة ومناسبة ، ولذا روعي فيمن تتكون منهم كل لجنه أن يكونوا علي قدر من الكفاءة والحكمة يتفق والحالة المراد التوصل إلى حل لها أو تقرير أمورها ، وأعضاء كل لجنه كانوا ستة عشر شخصا تختارهم الوحدات الإقليمية بحيث يمثل كل وحدة اثنين من الأعضاء الذين يمثلونها في مجلس الجماعة العام . وهؤلاء بعد أن يمثلوا أمام المقدم والمجلس لأداء اليمين علي انهم مجردين من كل أنواع التعاطف والأهواء الشخصية وأنهم لا يأمرون إلا بما هو جدير بالأمانة والنفع للجماعة ولأعضائها ، ينتقلون إلى غرفة أخري لمناقشة ما يجب تقريره إزاء الوضع أو المشكلة التي اجتمعوا بشأنها . وقراراتهم في هذا الشان يلتزم الجميع بتنفيذها (٢) .

أما المقدم الأعظم Grand-Maitre (٣) فهو رئيس الاسبتارية يختاره أعضاء الجماعة ممثلين في المجلس العام عن طريق الانتخاب وفقا لما ورد بهذا الشأن في مرسوم البابا باسكال الثاني عام

---

(1) Cf. De Vertot, L'Abbe : Op.cit. Tome Vi P. 84.
Also : Le Roulx, J.D. : Les Hospitaliers : P. 313-318.

(2) cf . Bavdoin, J. : Op. Cit. P 173 seq.
Also: De Vertot, L'Abbe : Op.cit. Idem.

ومن الصلوات التي كانت تتلي في نهاية كل دورة انعقاد للمجلس العام للجماعة قول الاعضاء : " أنه لعدل ونحن لختم اعمالنا ان نتجه بقلوبنا الي الله نستجدي رحمته لننال بها الراحه في هذه الحياة والسعادة في الحياة الاخري " ثم يترنمون بادعيه من اجل تحقيق السلام وزيادة ثمار الارض والدعاء للبابا والمقدم وكبار موظفي الجماعة واعضاؤها والمتصدقين علي المستشفي : أنظر :

Ibid PP. 85-57.

(٣) يلاحظ ادجسار هيوم أن لقب " المقدم الاعظم " لم يعطي لرئيس الجماعة الا في عام ١٢٦٧م علي يد البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨م) الي المقدم هيوريقل . أنظر :

Medical Work of the Knights Hospitallers of St. John of Jerusalem, P.8.

بمعني انه قبل هذاالتاريخ كان لقب رئيس الاسبتارية قاصرا علي كلمة " مقدم " ولكن هذه الملاحظة لم نجد التزاما بها في وثائق الجماعة الخاصة بالقرن الثاني عشر والنصف الاول من القرن الثالث عشر . اذ اقرن اسم كل رئيس بلقب مقدم الاسبتارية (Magister Hospitalis) أحيانا وأحيانا أخري بلقب المقدم الاعظم (Magister grandis) ، أنظر :

Cartulaire Tome I & II Passim.
Also : Les Archives PP. 69-207.

١١١٣م حيث خاطب جيرار أول مقدم للجماعة بقولة " بأنه في حالـــة وفاتك لا يعــين أي رجـــل بالمراوغة أو العنف ليكون رئيس للجماعة ، لكن فقط من كان أخا { عضوا } معترفا به ومقيما هناك { في الأراضي المقدسة } وينتخب علي نحو سليم " (١) .

ويتلخص نظام انتخابه في أن المجلس كان يعين في البداية رئيسا له حتى يتم انتخاب المقدم وهذا الرئيس المؤقت للمجلس يختار ثلاثة من أعضاء الجماعة (فارس ، واعظ ، خادم) وبعد أداء اليمين يختارون هم رابعا لهم وهكذا حتى يصل عددهم ثلاث عشر عضوا . وهؤلاء مهمتهم انتخاب مقدم الجماعة حيث ذلك القائد المؤقت للمجلس والمجلس بعد ذلك بمبايعته بالإجماع (٢) ، وأجراء الانتخاب علي هذا النطاق الضيق كان الهدف منه ـ كما يري ديلافيل لي رو ـ منع تعدد المرشحين وانتشار الفوضى وهو وما كان يحدث في الانتخابات العامة للمجلس ، ومن مميزات هذا النظام أيضا أنه عن طريق عملية اختيار الناخبين أنفسهم ، المتوخي فيهم أن يكونوا من ذوي الرأي السديد ، ما يضمن بالتالي الفوز فقط للمرشح الأكثر جدارة وكفاءة (٣) .

وكانت فترة حكم المقدم للجماعة مدي الحياة ، لذا أثيرت المجادلات بين الفرسان عندما أراد المقدم جيلبرت دي اسيلي Gilbert d`Assaily (١١٦٣- ١١٧٠م) أن يستقيل من منصبه حول مدي شرعية هذا القرار مما يعد دليلا علي إن مجرد احتمال حدوث مثل هذه الاستقالة كان أمرا غير متوقعا ومناقضا لتقاليد الاسبتارية (٤) ورغم أن المقدم الأعظم كان يتـولى السلطة التنفيذية بتفويض

(1) Cf. Cartulaire Tome I no 30 PP. 29-30.
(2) Cf. Statuts d` Alphonse de Portugal in Cartulaire Tome I no 1193 PP.35-36.
(3) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit. P. 328.
(٤) أنظر الظروف المتعلقه باستقالة جيلبرت الاسيلي كما شرحها الاسبتارية للبابا اسكندر الثالث :
Cartulaire Tome I no 403 PP. 276-279.

من المجلس العام وتحت رقابته إلا أن ذلك كان نظريا اكثر منه عمليا ، فسلطة المقدم كانت مطلقة إلى حد ما حيث أن الدير والمجلس كان يتوليا التصديق علي إجراءات اتخذها المقدم طالما كانت متمشية مع نظم الجماعة وعاداتها ، وهو أمر من الممكن أن يتخذ جانبا شكليا في صياغة القرارات بحيث تتناسب مع هذا المفهوم ، والأكثر من ذلك هو أن اجتماعات المجلس كانت علي فترات متباعدة والمقدم نفسه هو الذي يقرر المناسبة التي يستدعي من اجلها هذا المجلس للانعقاد (١) وبالتالي فان البت في القرارات العاجلة أو التي لها أهميتها علي الأقل كان يتم بصفة دائمة علي يديه وبذا كان عبء الإدارة بأكمله ملقي علي عاتقه ، هذا العبء الذي كان يزداد ثقلا كلما تطورت الجماعة (٢)

وهناك حالات كانت سلطات المقدم فيها مقيدة للغاية ولابد من أن يصدق عليها الدير والمجلس العام كي تصبح سارية المفعول مثل التبرعات وأعمال البيع والمبادلات (٣) وأيضا أرسال أي من الاخوة الاسبتارية إلى ما وراء البحار (٤) أو تعيين الأوصياء علي اقطاعات الجماعة (٥) وفيما عدا ذلك كان له حق تعيين محاربين في صفوف قوات الاسبتارية ، والسماح للضعفاء من العجزة وغير القادرين بالتقاعد ، وإعطاء معاشات للأعضاء القدامى والمقدمين منهم للمحاكمة (٦) وكذلك توقيع العقوبات أو التجاوز عن بعض المخالفات حسبما يتراءى له في هذا الصدد (٧) مع مراعاة أن المقدم

---

(1) Cf. Statuts d` Alphonse de Portugal, Op.cit. P. 33.
(2) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit Idem.
(3) Cf. Cartulaire Tome III no 3670 PP. 368-370.
(4) Cf. Statuts d` Alphonse de Portugal in Cartulaire Tome II no 1193 P.34.
(5) Ibid P. 33.
(6) Cf. Cartulaire Tome II no 2213 (Usances) art. 89 P. 547
Also : ~~ ~~~ III no 3844 art. 9 P. 452.
(7) Ibid Tome II no 2213 (Usances) Idem.

كان عنـد توليته مهام منصبة يتعهد باحترام تقاليد الاسبتارية وتنفيذ القرارات التـي تم الإجماع عليها وعدم الخروج عليها (١) أي انــه كان ملتزما في نفس الوقت بقواعد موضوعة لا يستطيع أن يحيد عنها وهذه كانت بطريق غير مباشر تشكل قيودا علي الأمور التي أتيح له فيها التصـرف بحرية تامة .

وفي حالة وفاة المقدم يتولى المجلس العام مهمة اختيار مقدم آخر للجماعة تنطبق عليه شروط هذا المنصب بالأفضلية (٢) أما إذا وقع في اسر المسلمين دون أن يعين نائبا له فان هذه المهمة كانت تقع علي عاتق الفرسان الاسبتارية " الذين نجوا من المعركة " يساعدهم كبار أعضاء الجماعة من المشرفين علي المستشفي ودار الضيافة (٣) ونائب المقدم الذي عين بهذه الطريقة ليست لسلطاته قيمة فعلية ولا تسري صلاحيتها حتى ينعقد المجلس العام الذي يختار بالانتخاب المشروع نائبا جديدا يوكل إليه مهمة إدارة شئون الجماعة إلى أن يعود المقدم الأعظم بعد خلاصه من قيد الأسر (٤) .

وحتى يستطيع المقدم أن يركز جل اهتمامه في إدارة هذه الشئون إدارة حسنة تأسس مجلس للكبار يضم أشخاص علي قدر عال من الكفاءة والشهرة خول إليهم سلطات مساعدته وكانوا في نفس الوقت بمثابة مستشارين للجماعة وهم : القائد ، والمعلم الأعظم Grand-Precepteur ou g. Commandeur والمارشال الإسبتاري Le Marechal Hospitalier ، أميـر البحر (الادميرال) Amiral ، محافظ الخزانة Tresorier ، التركبولي Turcoplier ، وكبير المشرفين

(1) Cf. Statuts d' Alphonse de Portugal, Op.cit. P. 33.
(2) Cf. Ibid PP. 35-36.
(3) Cf. Cartulaire Tome III no 3039 PP. 45-46.
(4) Cf. Ibid Idem.

علي الاقطاعات g.baillis ، وكبير الموثقين g.Chancellier ، ويسمي هؤلاء جميعا المشرفين أو الموظفين الديريين baillis Convantuals (١) .

ويلي القائد الأعظم مقدم الجماعة في المكانة ، وعادة ما يحل محله في حالة غيابه أو مرضه متخذا لقب " قائمقام " أو " نائب " (٢) ويعينه المجلس العام فور الانتهاء من انتخاب المقدم الأعظم ورغم احتفاظ المجلس بأحقية هذه التعيين إلا أنه كان يتم بموجب اتفاق سابق مع المقدم لضرورة وأهمية رضا هذا الأخير عنه خصوصا وأنه معين أساسا من أجل مساعدته (٣) .

وفي بعض فترات من تاريخ الاسبتارية كان منصب القائد الأعظم غير موجود بالمرة كما أشارت إلى ذلك نظم الفونس البرتغالي (٤) ويبدو أن ذلك لم يكن سوي انقطاع مؤقت لهذه الوظيفة لا يتجاوز فترة قصيرة من الوقت استغرقت في اختيار شخص يتناسب مع أهميتها وخطورتها في تنظيم الجماعة (٥) فقد يتولي مسئوليات الأموال الخاصة بما وراء البحار ويوردها إلى الخزينة العامة في حالة غياب المقدم ، كما كان يحل محل الأخير في جلسة الاستماع الشهرية الخاصة بالنظر في حسابات الجماعة المالية (٦) هذا إلى جانب مكانته القيادية والتي تحتل المركز الثاني في هذا التنظيم ، مما جعله أيضا يتمتع بسلطات كبار الموظفين الغائبين أو المعوقين لظروف معينة حين يحل محلهم أو يتولي وظيفة أحد منهم بصفة مؤقتة مثلما كان الحال عند مغادرة المارشال أراضي

---

(1) Cf. : De Vertot, L`Abbe : Op.cit. PP. 127-128.
Also : Rillry-Smith: Op.cit. P. 279.

(٢) كان القائد الاعظم حنا روناي Jean de Ronay قائمقاما للمقدم وليم شاتونيف طوال مدة اسره (١٢٤٥-١٢٥٠م) وكذلك الامر بالنسبة لجاك دي تاكسي Jacques de Taxi في ٢٧ يونيو ١٢٨٦م . أنظـــر Les Archives Op.cit. P.212.
Also : Le Roulx, J.D. Op.cit. P. 332. N.I

(3) Cf. Cartulaire Tome II no 2213 (Usances) art. 109 P. 552.

(4) Cf. Statuts d` Alphonse de Portugal, Op.cit. PP. 39-40.

(5) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit P. 332.

(6) Cf. Cartulaire Tome III no 3844 art. 2 P. 451.

مملكة بيت المقدس في مهمة قتالية ، فأعضاء الاسبتارية الذين لم يشتركوا في الحملة كانوا يخضعون لامرة القائد الأعظم الذي كان من حقه أن يعين موظفا عسكريا أو قائد للفرسان كي يتولي قيادتهم (١) ورغم ذلك فان قائمة القواد العظام تدل علي عدم بقاء شاغلي هذه الوظيفة فترة طويلة في المنصب ، بل أن بعضهم كان يشغلها أحيانا علي فترات متقطعة (٢) .

أما المارشال فكان يتولي الشئون العسكرية للجماعة في ظل الرئاسة العليا للمقدم الأعظم أو نائبة (٣) لكنه لم يمارس القيادة العسكرية لقوات الاسبتارية إلا في أحوال خاصة مثل الخروج في حملات خارج نطاق المملكة الصليبية - كما سبقت الإشارة - لأن مهام القيادة في الشرق اللاتيني كانت أساسا تسند إلي أعلي سلطة في تنظيم الاسبتارية وتتمثل في المقدم أولا ثم نائبة ثانيا ، بينما يتولي هو تنظيم كل ما يتعلق بالنواحي الحربية من تجهيز المحاربين أو إمداد بالمعدات وخلافة . وكان يختار بنفسه أحد أعضاء الجماعة لحمل البيرق الدال علي وظيفته العسكرية أو رتبته بينما يصدق المقدم الأعظم علي هذا التعيين (٤) .

ويدين للمارشال بالطاعة - من حيث تلقي الأوامر - كل أعضاء الجماعة من الفرسان أو خدام السلاح أو المساعدين باستثناء الرؤساء الديريين ونوابهم وطاقم خدمة المقدم ، وإذا تولي قيادة حملة بحرية فان أمير البحر وجميع رجالة يتلقون الأوامر منه ، كما يفوض شخصا يسند إليه أمر جنود البحرية الباقين الموجودين في البر (٥) .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome III no 3396 P. 227.

(٢) مثل جارين دي مولين Garin de Moulane وجارنيير دي نابلس Garnier de Naplouse في منتصف القرن الثاني عشر . أنظر : Les Archives PP. 211-212.

(3) Cf. Statuts d' Alphonse de Portugal, Op.cit. PP. 37-38.

(4) Cf. Cartulaire Tome III no 3039 P. 44.

(5) Cf. Statuts de Alphonse de Portugal, Op.cit. PP. 37.

~~~ ~ ~~~ ~~~ in L' Abbe de Vertot : Op.cit. art.2 P. 128.
~~~

ونظرا لأنه كان يتولي مهمة تموين أو إمدادات الفرسان بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة ودروع وسروج ومطايا أثناء خروجهم إلى ميدان القتال ، فانه كان يحصل علي إذن اعتماد من المقدم الأعظم لدفع النفقات الضرورية اللازمة لتغطية متطلباته والحصول علي ما ينقصه (١) وكان يرتبط بدوره في أحيان كثيرة ، إمداد المخازن أو الإسطبلات بالأطقم اللازمة لتجهيز جياد الفرسان الذين لديهم نقص في معداتهم أو غير مجهزين كلية للخروج للحرب ، فقد كان أعضاء الجماعة الذين يستدعون من الغرب إلى الأراضي المقدسة يصلون ومعهم معداتهم الكاملة وهذه كانت تعود إلى مخازن الجماعة بعد انتهاء الحملة (٢) .

وكان المارشال الشخصية الثالثة في الجماعة ويأخذ مكانه في المجلس العام بعد القائد الأعظم ويقف بعده لتقديم التقرير الدوري عن أعماله . وقد وضع تحت إمرته عددا من الموظفين العسكريين أهمهم كبير مروضي الجياد g.Eouyer وقائد الفرسان ورؤساء القلاع والتركبولي والكند سطبل Connetable أيضا فيما يبدو (٣) .

وينتمي كبير مروضي الجياد إلى طبقة الاخوة الخدام ، وتشمل سلطاته مروضي الجياد الذين كانوا بمثابة محاربين تابعين وملحقين في خدمة فارس كي يقوموا جواره أو علي مقربة منه بمهام متنوعة ، ويقدم هذا الموظف تقريرا عن أعماله كل شهر ، وقد ألزمته أحد بنود النظام أن يقوم باستلام وتسجيل الدواب التي تأتي بها سفن الجماعة إلى الأراضي المقدسة مما يدل علي أن عملية الإمداد بالخيل كانت ضمن اختصاصاته (٤) .

---

(1) Cf. Statuts de Alphonse de Portugal, in Cartulaire Op.cit. P. 38.
(2) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit P. 338.
(3) Cf. Ibid PP. 339,350.
(4) Cf. Ibid P. 350 & n.I

أما الكند سطبل فهو موظف عسكري أيضا تداخلت اختصاصاته أو مهامه مع اختصاصات ومهام كل من المارشال وكبير مروضي الجياد . وقد لوحظ وجوده في مناسبة واحدة عام ١١٢٦م وكان اسمه دوراند Durandus وورد في هذه الوثيقة شاهدا علي عقد بمنحه من باريزان Barisan كند سطبل يافا إلى الاسبتارية (١) ويبدو انه كان سابقا علي المارشال في نظام الاسبتارية (٢) وكذلك كان الحال بالنسبة لقائد الفرسان الذي أشير إليه في إحدى المناسبات عام ١٢٣٤م وكان اسمه برنارد ريموند Bernard Raymond (٣) ولا يعرف شيئا عن اختصاصات هذا الأخير لكن بالمقارنة بما كان في نظام الداوية كان يتولي قيادة عددا من الفرسان في كل حملة (٤) .

وتلتزم وثائق الاسبتارية الصمت إزاء مسألة ما إذا كان رؤساء القلاع خاضعين مباشرة لامرة المارشال أم كانوا تابعين للمقدم الأعظم (٥) ففي الشام كان لكل قلعة من قلاع الجماعة مثل كوكب الهوي Beauvoir وحصن الأكراد Krak des chevaliers والمرقب Margat وحصن الطور Mont Thabor(٦) رئيس يعرف بالقسطلان Chatelain . ويعد القسطلانات موظفين عسكريين قادة مواقع جعلت خصيصا للأغراض الدفاعية وأيضا أغراض الهجوم حيث اتخذت هذه القلاع في بعض الأحيان مراكز لتجميع القوات الصليبية المختلفة أو لفرق الاسبتارية توطئة للهجوم علي إقليم من الأقاليم الإسلامية المجاورة (٧) وقد كان رئيس قلعتي الأكراد والمرقب في منزلة الأوصياء علي

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I no 74 P. 71.
Also : Las Archives Op.cit. P. 214.
(2) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit P. 351.
(3) Cf. Cartulaire Tome II no 2094 PP. 476-478.
(4) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit P. 351.
(5) Cf. Cartulaire Tome I -- III Passim.
(٦) عن قلاع الاسبتارية أنظر الملحق أخر الرسالة
(٧) أنظر ذلك في الفصول القادمة في مناسبات متعددة من دور الجماعة في الصراع الصليبي الاسلامي .
Also : Statuts d'Alphonse de Portugal, in Cartulaire Op.cit. P. 37 seq.

الاقطاعات ولهما حق الانضمام إلى المجلس العام (١) .

وكان التركبولي رئيسا للفرق المساعدة الخفيفة وهؤلاء بمثابة جنود لا يتمتعون بعضوية الجماعة وإنما كانوا يخدمونها خارج هذا النطاق ، أما قائدهم " التركبولي " فكان من طبقة الخدام أو المساعدين ويتولي تعيينه المجلس العام وله راتب سنوي محدد (٢) وقد ارتبطت إقامته في المعسكرات أو علي الحدود (٣) .

ويعد الاسبتاري رئيس أو مشرف علي جهاز إداري متكامل يتولي قطاع خدمات علي جانب كبير من الأهمية نظرا لارتباطه بالمبادئ والأهداف الأساسية التي نشأت الجماعة من أجلها منذ البداية ونعني به المستشفي حيث كان يسير العمل فيها تحت إشرافه بطريقة دقيقة ومنظمة . فالمهام أنيطت بالأفراد وكل حسب تخصصه وعلي قدر كفاءته ومهارته في مجال أعمال التمريض ، لذلك كان علي الاسبتاري عند اختيار موظفيه أن يراعي فيهم شروط الأمانة والذكاء وأيضا الانتماء إلى طبقة الفرسان حيث تقاليد الفروسية المتسمة بدوافع الشهامة والمروؤة (٤) وقد أكد المجلس العام الذي انعقد برئاسة الفونس البرتغالي في الفترة ما بين عامي ١٢٠٤- ١٢٠٦م قرارات مجلس عام ١١٨٢م الخاصة بتنظيم عمليات الضيافة والعلاج ، وحدد شروط قبول الاخوة ، " للعمل في العيادة " علي هذا النحو (٥) .

---

(1) Cf. Cartulaire II no 2213 (Usances) art. 109 PP. 552-253.
والاوصياء علي الاقطاعات يذكر عنهم أنهم اصحاب سلطات ادارية لها حق الرقابة وتتولي حراسة املاك الغير لذا فان كل حيازة للارض لفترة طويلة كانت بمثابة وصاية علي هذه الارض من قبلهم . وهذا الحق اقطاعي وعرفي . أنظر : La grand Encyclopedia, art. Bail Tome IV P. 1175.

(2) Cf. Cartulaire Tome IV no 4612 in J.D. Le Roulx Op.cit. P. 345.

(3) Cf. Ibid PP. 345-346.

(4) Cf. : De Vertot, L`Abbe : Op.cit. art. 23.

(5) Cf. Cartulaire I no 627 PP. 425-429 (A.D. 1182)
Also : Statuts d`Alphonse de Portugal, in Ibid Tome II no 1193 P. 36.
وعن مدي اهتمام نظم الجماعة بهذا الجانب وتاكيدها عليه أنظر :
Cartulaire II no 2213 (Usances) arts. 89, 106 P. 548, 551.
Also : Ibid Tome III no 3039 arts. 37, 45 PP. 51-53.

وكانت مهام الاسبتاري عديدة ومتنوعة ، فله الأشراف علي نظافة المرضي وإطعامهم علي مائدة المستشفي وفقا لنظام تغذية دقيق.كان يضعه معالجيهم من الأطباء ، ويدخل في نطاق أعماله مباشرة عمل هؤلاء الآخرين ومساعديهم وموظفي المستشفي علي اختلاف طوائفهم وتخصصاتهم (١) ومع نهاية القرن الثاني عشر من المناسب أن يكون قد اسند إليه أمر القطاع الخاص بتقديم الصدقات ، فالاسبتارية باحتفاظهم بالروح التي كانت أساس نشأتهم كانوا يتصدقون علي الفقراء الكاثوليك بجانب أعمال الضيافة (٢) .

ونظرا لان العمل داخل المستشفي يستلزم إشرافا مكثفا ، فقد أصبح ضروريا انتداب أحد أعضاء الجماعة لإدارة هذه المنشاة والعناية بالمرضي الموجودين فيها ، وكان من الأفضل اختيار هذا الممرض من الوحدة التي تضم مجموعة الفرسان الاسبتارية الفرنسيين (ربما لسبق فرنسا في تكوين أعضاء الجماعة وأيضا لتقدمها في مجال الطب والتمريض حيث بدأت منها نواة الجامعات المتخصصة في هذا المجال) . وأسند للاسبتاري مهمة هذا الاختيار الذي كان يعرض علي المقدم والمجلس العام في دورته العادية للتصديق علي التعيين بعد التأكد من أن الشخص الذي وقع علية الاختيار مناسب لهذه الوظيفة (٣) بالإضافة إلى انه كان يختار اثنان سنويا من فرسان الجماعة مهمتهما زيارة المرضي والوقوف علي مدي الاهتمام بهم . وفي حالة إذا وجدا أي نقص أو تقصير

---

(1) Cf. Cartulaire II nos 1193 P. 36,2943 P. 885.

(٢) ومجلس عام ١١٨٢م يعد ايضا اكثر المجالس فائدة في هذا الصدد اذ يخبرنا ان الاسبتارية كانوا يشجعون زواج الفقراء بمنحهم مساعدات للمعيشة في يوم الزواج . ويتناول الطعام في ديرهم كل يوم ثلاثين فقيرا بينهم خمسة من الاكليركيين . هذا الي جانب انه كان لاي شخص الحق في ان يتقدم الي الدير ثلاث مرات اسبوعيا للحصول علي الكساء والخبز والنبيذ والمؤن . أنظر :

Cartulaire Tome I no 627 PP. 425-426.

(3) Cf. : De Vertot, L`Abbe : Op.cit. art. 22 PP. 134-135.

ويبدو أن هذا الممرض هو الموظف الذي كان يعرف بـ " سنشال قصر المرضي " Le Senechal du Palais des malades أنظر : Cartulaire Tome III no 4086 PP. 559.

في متطلباتهم ومستلزمات راحتهم بادرا بالعمل علي توفيره . فقد أنيط بهما أن يبذلا ما في وسعهما سويا من أجل تحسين حالة المرضي الصحية (١) والزم هؤلاء جميعا لأداء اليمين أمام الاسبتاري علي أن يكونوا أمناء في مباشرة تقديم الطعام والدواء إلى المرضي وتسجيل نفقات العيادة من خلال مشرفين علي هذه الأعمال (٢) .

أما أطباء المستشفي وجراحيها فكان يشترط فيهم الخبرة والكفاءة العالية المتناسبة مع العمل الخطير الذين انتدبوا من أجل القيام به ، ويصدق علي تعينهم البابا (٣) مما يدل علي سمو مكانتهم الوظيفية في نظر المعاصرين ، ثم يؤدون بعد هذا التعيين اليمين أمام ممثلين عن مجموعات الفرسان الاسبتارية الإقليمية ، علي أن يعالجوا المرضي بإخلاص ويزورونهم مرتين كل نهار كي يحرروا لهم قوائم الدواء دون تخلف لأي سبب من الأسباب ، ولتسجيل ما أمر به هؤلاء الأطباء للمرضي كان الممرض يصاحبهم ومعه أمين العيادة (٤) .

وقد حدد مجلس الجماعة عام ١١٨٢م أيضا مستلزمات الأسرة ومواصفات ملابس المرضي وأمهاد المولودين الجدد من اللقطاء الذين كانت المستشفي تفتح أبوابها لإيوائهم والأقمشة وكمية السكر اللازم توريدها من الإدارات المختلفة لتغطية احتياجات المستشفي (٥) ولحفظ هذه المنقولات كان لدي الاسبتاري خاتم حديدي يمهر به الاغطيه والملاءات وقطع الأثاث الأخرى التي يمكن ختمها ، وذلك حتى لا يتم تغييرها أو نقلها إلى أماكن أخرى أو التنازل عنها (٦) .

---

(1) Cf. : De Vertot, L'Abbe : Op.cit. art. 2 P. 43.
(2) Cf. Ibid arts. 3-4 PP. 43-44.
(3) Cf. Cartulaire Tome I no 690 P. 458.
(4) Cf. : De Vertot, L'Abbe : Op.cit. arts. 10-14 PP. 46-47.
(5) Cf. Cartulaire Tome I no 627 P. 425 seq.
(6) Cf. : De Vertot, L'Abbe : Op.cit. art. 8 P. 45.

ويعتبر محافظ الخزانة عنصرا هاما في التنظيم الاسبتاري لا يمكن الاستغناء عنه إذ انه يحفظ أموال الجماعة ويشرف علي اوجه إنفاقها ثم يقدم بيانا بحساباته وتقريرا عن حالة الخزينة ينال بعده تصديق المجلس علي المسائل المالية (١) ويظهر دوره بوضوح في إدارة الجماعة منذ عام ١١٣٥م وكانت وظيفته في الأصل يتولها أثنين من الموظفين ، وممن يشغلونها في آن واحد تشير إحدى الوثائق إلي ريموند وبطرس ثم جيرار دي سانت اندريه Gerard de St. Andre واموراتوس خليفتيهما (٢) ، ولعل ذلك مرجعه توخي الاسبتارية الحذر ، والحيلولة دون محاولات الاختلاس والسرقات أو التقليل من حوادثها عن طريق جعل كل من الموظفين رقيبا علي الآخر . ثم بدأت هذه الثنائية في الاختفاء من منتصف القرن الثاني عشر ولم يبق إلا أمين واحد للخزينة يقيم بصفة دائمة في المقر الرسمي للاسبتارية (٣) .

ورغم أن بحرية الاسبتارية تطورت في وقت متأخر إلي حد ما وبدرجة نسبية إلا أن الاتصالات الدائمة بين أعضاء الجماعة في الغرب وأولئك الذين يقيمون في الشرق اللاتيني أدت إلي تكوين قوة بحرية للجماعة في وقت مبكر . فقد كان للاسبتارية رحلتان بحريتان تسيران بطريقة منتظمة من الغرب إلي الشرق في شهري مارس وأغسطس وبدايتيهما ميناء سان جيل S. Gilles أو مرسيليا (٤) .

(1) Cf. Statuts d'Alphonse de Portugal in Cartulaire II no 1193 P. 39.
Also: Ibid no 2213 (Usances) art, 109 PP. 553-54.
(2) Cf. Cartulaire Tome II no 2721 P. 775.
(3) Cf. Cartulaire Tome II nos 2721 – 2722 PP. 775-776 .
Also: Le Roulx, J.D. : Op.cit. P. 342.
(4) Cf. Cartulaire Tome II no 2067 PP. 462-464.

ويتولي قائد الأسطول Commandeur de la nave إدارة السفن التابعة للجماعة ، وتحت إمرته أحد أعضاء الاسبتارية لمعاونته ويعرف "بأخ الأسطول" un ferer de la nave ومسئوليته تموين السفن إلي جانب مهام مشابهة لتلك التي يقوم بها حاليا " أمناء حسابات السفن " (١) وهذان الموظفان بالإضافة إلي قادة سفن الجماعة ذات المهام الحربية أو التجارية كانوا جميعا تحت إمرة أمير البحر فيما عدا حالة ما إذا كان المقدم أو نائبة أو المارشال موجودا ، فمن يخرج منهم مع هذا القائد في مهمة حربية أو حملة يتولي زمام القيادة ويتلقي منه أمير البحر أوامره (٢) .

وقد كان هؤلاء الموظفون الإداريون بأجمعهم تابعين تبعية مباشرة وبدون ادني وساطة للسلطة المركزية في الجماعة والمتمثلة في المقدم الأعظم رئيسهم الأوحد ، بينما كان الأمر علي النقيض بالنسبة للمراكز التابعة للاسبتارية في الغرب الأوربي ، فرؤساءها أو المشرفين عليها كانوا ممثلين للمقدم ومندوبين عنه في إدارتها (٣) .

وقد استرعي انتباه بعض الباحثين المتخصصين مسألة تتعلق بنظام الاسبتارية بوجه عام ، وتطلعوا إلى أن تحظى بالاهتمام في مجال الدراسة من خلال فهم شامل للحياة الشرقية في العصور الوسطي ، ويعني بهذه المسألة المؤثرات الشرقية في تنظيم الجماعة (٤) والمعروف أن الاسبتارية زاولوا أعمال الضيافة والعناية بالفقراء والمرضي قبل استيلاء الصليبيين علي بيت المقدس عام ١٠٩٩ م في ظل الحكم الإسلامي ، وبالتالـــي كان عليهم الالتزام بقواعده وان احتفظوا بمبادئهم فـــي

(1) Cf. Ibid Tome III no 3317 PP. 186-188.
Also : Le Roulx, J.D. : Op.cit. P. 343.
(2) Cf. : De Vertot, L'Abbe : Op.cit. art. 3-8 PP. 128-129.
(3) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit. P. 404.
(4) Cf. Gabrieli, Francesco : Gli Ospitalieri di S. Giovanni negli Storici Musulmani delle crociate, Bergamo 1929. PP. 15-16.

الأمور المتعلقة بالدين وفقا لما عليه موقف الإسلام من أهل الذمة بوجه عام ، لذا فانه من المناسب أن تكون قواعد الحكومة الإسلامية فقد أخذت طريقها علي هذا النحو لتستقر في بعض بنود نظام الجماعة (١) .

أما البيمارستان وهو المنشأة التي اكتملت لدي الاسبتارية من حيث العمل وأغراض الخير فنظامه كان موجودا منذ مرحلة سابقة واتخذوه في البداية داخل خيمة يداوي بها المرضي (مثلما حدث في غزوة الخندق علي أيام الرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم أصبح بعد ذلك دارا للمرضي جعل فيه الأطباء ، وأجريت لهم الأرزاق ، كما احتجز فيه المجزومين والعميان من المرضي لينالوا الرعاية ، ولم يكن العلاج في بيمارستانات المسلمين هذه قاصرا عليهم فحسب بل تعداهم إلي أهل الذمة أيضا (٢) وخصص قسم في كل منها (٣) ويبدو أن الاسبتارية نقلوا هذا التنظيم بأكمله إلي المستشفي ودار الضيافة وهو أمر يمكن تبينه بوضوح عن طريق دراسة نظام العمل في كل منها ، والأمر الذي لا خلاف عليه هو أن هؤلاء الاسبتارية استعانوا بالخبرة الشرقية في مجال الطب وكانوا إيجابيين إزاء التطورات التي طرأت علي الدراسات الطبية والتي أصبح مركزها في القرن الثاني عشر البيمارستان النوري بدمشق (٤) .

---

(١) من الممكن ان نلمس ذلك بوضوح من خلال مقارنة قانون العقوبات والنظم المعمول بها في الزراعة والتجارة لدي الجانبين الاسبتاري والعربي الاسلامي خصوصا وانه كان لزاما علي الاسبتارية اتباع النظم الشرقية لتسيير دفة اعمالهم في حالة عدم صلاحية نظمهم المستوردة لاختلاف العوامل الطبيعية والبشرية من بيئة لاخري .

(٢) أنظر احمد عيسي : تاريخ البيماستانات في الاسلام ، دمشق ١٩٣٩م ، ص ١٠،١٢،١٣.

(٣) المرجع السابق : ص ١٨ .

(4) Cf. Boase, T.S.R. , OP.cit. PP. 71-72.

ومن الشواهد التي تدل علي اهتمام الصليبيين بوجه عام بهذا الجانب ما حدث مبكرا حوالي عام ١١٢٧م حينما قام ستيفن الانطاكي بترجمة الرسائل أو المقالات الطبية الي اللاتينية ، كما قام ثيودور الانطاكي في عام ١١٨٤م بتعليم الطب في مدينة بيت المقدس .

Cf. Ibid P. 72.

والاسبتارية كجماعة رهبانية محاربة جمعت بين فكرتي الدين والحرب وهو نظام عرفة المسلمون في عصر الفتوحات بوجه عام ، وكان متمثلا في الأربطة التي تجمع بين الصفتين الحربية والدينية وأيضا في اشتراك أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين حيث ارتباط حركة الفتح بفكرة الجهاد (١) كما أورد " ابن خلكان " في " وفياته " شبيها لهم في الجيش الفاطمي علي عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وهم " صبيان الحجر " ويذكر عنهم أن " لكل واحد منهم فرس وعدة ، ويتميز أميرهم بالعقل والشجاعة وذلك علي مثال الداوية والاسبتار " (٢) وفوق ذلك فان الفروسية كنظام له تقاليده المعروفة مثل عادات الإيثار وكرم الضيافة والحفاظ علي مكانة المراة موروثة في الأصل عن المسلمين عبر أسبانيا إلى الغرب الأوربي (٣) أصبحت بشكل واضح من الخصائص التي امتاز بها نظام فرسان القديس يوحنا حيث تضمنت البنود الأساسية في هذا النظام ما ينص علي ضرورة الاقتداء بمثل هذه العادات (٤) التي كانت معروفة لدي العرب قبل خروجهم من شبه الجزيرة العربية موطنهم الأصلي ، ورغم عدم ثبات هذه المؤثرات جميعها من خلال حالات مؤكدة إلا إنها كانت موجودة بالفعل ولا سبيل إلى إنكارها حتى وان وضع في الاعتبار الاختلافات الكبيرة في طرق الحياة بين الحضارتين الغربية اللاتينية والشرقية العربية (٥) .

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٢١٢، حاشية ٣٧.

(٢) وفيات الاعيان ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م ، ج٣ ص ٤١٨.

(3) Cf. Cahen, Claude : Le Syrie du Nord P. 514.

(٤) في نظام ريموند دي بوي ثاني مقدم للجماعة بنود تحث علي التحلي بهذه العادات أنظر :

Statuts de Raymond Dupuy, Op.cit. PP. 62-68.

(٥) حول هذا المفهوم انظر :

Cf. Gabrieli, Francesco : Op.cit. P. 16.

الفصل الثاني

النشاط الحربي للاسبتارية

حتى نهاية عهد الملك الصليبي عموري الأول

{ ١١١٩- ١١٧٤م / ٥١٣- ٥٧٠هـ }

- مقدمة عن اتجاه الجماعة إلى النشاط العسكري وأسبابه .
- مقدمات النشاط الحربي للاسبتارية في العقدين الثاني والثالث من القرن الثاني عشر .
- حراسة الاسبتارية لبعض القلاع الصليبية الكبرى .
- دور الجماعة في الحملة الصليبية الثانية .
- مساهمات الفرسان الاسبتارية مع الجيوش الصليبية في التصدي لهجمات نور الدين والاستيلاء علي بعض البلاد والمدن الإسلامية.
- الاسبتارية وحملات عموري علي مصر .
- نشاط الجماعة الحربي ضد المسلمين في شمال الشام .
- موارد الاسبتارية الاقتصادية وأثرها في تدعيم قوتها الحربية .

وإذا كانت الاسبتارية قد شهدت مولدها ونشأتها ثم اعتراف البابوية بها رسميا علي يد المقدم جيرار ، فان الفضل في تطورها كي تصبح جماعة رهبانية محاربة يرجع إلي خليفته ريموند دي بوي . وقد بدا ذلك بوضع القواعد الرئيسية للنظام علي أساس يكفل لطبقة الفرسان وضعا مميزا في صفوف الجماعة ، والاتجاه إلى العمل الحربي الذي اقتضته الظروف المحيطة بالمملكة الصليبية الوليدة ، وهو ما أسفر عن دخول الجماعة في حلبة الصراع الدائر علي أرض الشام بين المسلمين والصليبيين . وقد أخذ دور الفرسان الاسبتارية في هذا الصدد صورا وأشكالا متباينة باختلاف حجم دور الجماعة في كل منها ، فهناك اشتراك الجماعة بمجموعة من الفرسان والمحاربين مع جيوش المملكة الصليبية في التصدي لهجوم إسلامي أو الإغارة علي إقليم مجاور ، وحراسة بعض القلاع الصليبية الحربية ذات الأهمية الاستراتيجية ، والانضمام إلى جيش الحملة الصليبية الثانية في عملياته الحربية ضد المسلمين ثم ما تلا ذلك من حروب بين نور الدين محمود والصليبيين . وأخيرا اشتراك الاسبتارية مع الملك الصليبي عموري الأول في مشروعه الخاص بغزو مصر . فمن خلال الدور الذي لعبته في هذه المناسبات ، أثبتت الجماعة جدارتها وكفاءة محاربيها في مضمار العمل العسكري مما نجم عنه ذيوع شهرتها وأتساع نفوذها وهو ما يمكن تبينه بوضوح في ثنايا هذا الفصل.

فقد عكف الاسبتاريون علي تقديم واجبات الضيافة والعلاج للحجاج الغربيين خصوصا الفقراء والمرضي منهم علي نحو متطور بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين وتأسيس المملكة الصليبية ، لكن ما كرسوا أنفسهم من اجله لم يجعلهم بمنأى عن الأحداث والظروف التي واكبت قيام هذه المملكة الوليدة في الفترة المبكرة من تاريخها ، فكما سبقت الإشارة ارتبطت جماعة الاسبتارية أساسا في نشأتها وظهورها كهيئة بمجيء الصليبيين إلى الشام واستيلائهم علي العديد من المدن والأماكن المقدسة ، ففي ظل السيطرة الصليبية علي هذه البلاد استطاع الاسبتارية وغيرهم من الجماعات الدينية أن يتطوروا في ممارسة نشاطهم وتحقيق أهدافهم الحقيقية علي نحو أكثر اتساعا

وبحرية اكثر من ذي قبل خصوصا وأنهم التقوا مع جموع الصليبيين الأخرى علي هدف واحد وهو انتزاع " الأراضي المقدسة " من المسلمين والاحتفاظ بها في أيديهم ضمانا لمكاسب متنوعة (١) .

واستيلاء الصليبيين علي أراض ليست ملكا لهم بحد السيف لابد وأن يصحبه رد فعل مقاومة مستمرة من جانب أصحابها الأصليين أو علي الأقل القيام بإجراءات انتقامية حتى يتسنى لهم استردادها من أيدي هؤلاء الغزاة ، لذا لم تستقر الأمور للصليبيين في الشام باحتلالهم بيت المقدس وبعض البلاد والمدن والأراضي ، وإنما كانوا عرضة لأخطار مستمرة ، فلم تنقطع اغارات المسلمين علي حدود الأراضي التي احتلوها ، كما نصبوا الكمائن للصليبيين علي الطرق التي يجتازونها في تحركاتهم إلي هذه الأماكن مما جعل هذه التحركات بصفة عامة أمرا محفوفا بالمخاطر .

وظل المسلمون علي هذه الحال في موقفهم من الدخيل الصليبي ، يتحينون كل فرصة مواتية لاسترداد ما يستطيعون من أراضيهم المحتلة أو الفتك - علي الأقل - بجماعة تابعة لأعدائهم . وساعدهم علي تنفيذ هذه السياسة خصوصا في الفترة المبكرة من القرن الثاني عشر أن المملكة اللاتينية كانت أرضا ذات طبيعة مكشوفة ، وباستثناء البقعة الشمالية منها كانت أيضا شريطا ضيقا يتراوح عرضه بين الخمسين والسبعين من الأميال (٢) لذلك كان علي الصليبيين أن يواجهوا باستمرار عدوا قويا يتربص بهم من كل جانب وعلي حد تعبير المؤرخ وليم الصوري " يستمد القوة

---

(١) عن حقيقة النوايا الصليبية بصفة عامة أنظر :
جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآدابجامعة الإسكندرية ، العدد ١٦ ، ١٩٦٢م ، ص ١٨٣- ٢٠٥ .

(٢) أنظر عبد الرحمن زكي : القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥١- ٥٢.
Also : Woodhouse, F. : Op.cit, P . 25.

مضاعفة بموت مواطنيه " (١) . ومن ثم أصبح الدفاع عن المملكة الصليبية أمرا علي قدر كبير من الأهمية كان علي الجماعات الرهبانية أن تقف منه موقفا إيجابيا عن طريق حمل السلاح والدخول في صفوف المحاربين الصليبيين . وقد بدأ هذه الخطوة تسعة من الفرسان الصليبيين علي رأسهم هيودي بينز ، وجيوفري أف سانت أومر ، أخذوا علي عاتقهم مهمة حراسة الطرق العامة المؤدية إلى بيت المقدس والدفاع عن الحجاج الغربيين ضد قطاعها . وكان هؤلاء - كما أسلفنا - نواة لتأسيس جماعة الداوية (٢) .

وتيمنا بالعمل الذي قام به فرسان المعبد ، وجد الاسبتارية أنه لزاما عليهم أن يحملوا أيضا السلاح لدرء الخطر المحدق بالحجاج الصليبيين الذين يقومون هم برعايتهم وتقديم خدمات العلاج والإقامة لهم ، أو للدفاع عن أنفسهم ومنشآتهم ضد أي خطر قد تتعرض له (٣) ولذا أولوا اهتمامهم شطر ميدان آخر من ميادين العمل لخدمة الأهداف الصليبية أو ما يسمونه " القضية المسيحية " وهو ميدان الحرب ضد المسلمين ، وذلك دون إغفال للواجبات الملقاة علي عاتقهم منذ نشأتهم والمتعلقة بأعمال كرم الضيافة ، ويبدو - أن لم يكن مؤكدا - أن فكرة اتجاه الاسبتارية إلي الجانب الحربي اختمرت في أذهان كبار رجال الجماعة منذ رؤيتهم ما حظيت به جماعة الداوية من اهتمام ومكانه لدي الصليبيين في الشرق والغرب علي أثر ما قدمه فرسانها من خدمات حربية كادت أن تبز بها جماعة الاسبتارية وتنافسها في المنزلة التي تبوأتها هذه الأخيرة من جراء العمل في المستشفي ودار

(1) Cf. A History of Deels Done Beyond the Sea, Vol. II P. 81.

(٢) انظر ما سبق وأيضا :

William of Tyre : Op.cit, Vol. I PP. 524-527.
Jacques de Vitry : Op.cit, P. 50.
Roger of Wendover : Op.cit, Vol. I, P. 469.

(3) Cf. Hume, E.E. : Op.cit, P. 3 .

الضيافة ، هذا بالإضافة إلى الفوائد التي عادت علي الداوية بتخصصها في الأعمال الدفاعية والمتمثلة فيما بدأت تتلقاه من منح واقطاعات سخية .

وعن المناسبة التي شهدت تحول الاسبتارية إلي الجانب العسكري (١) يذكر المؤرخون قصة طريفة مؤداها أن ريموند دي بوي بعد انتخابه مقدما للجماعة اجتمـع بإخوانـه وشـرح لهم الوضع " المحزن " الناجم عن الهجمات المستمرة للتركمان أو المسلمين علي المملكة الصليبية مما أوقع الصليبيين في خضم من التعاسة والبؤس ، ثم أقترح عليهم واجب الرجوع إلى أسلحتهم ، التي طرحوها جانبا عندما كرسوا أنفسهم للعناية بنزلاء المستشفي وذلك كي يصبحوا جنود الصليب المدافعين عن الفقراء " الذين لا نصير لهم ". وقد أثار هذا الاقتراح دهشة أعضاء الاسبتارية الحاضرين ، فتعللوا أنهم خلعوا رداء الحرب ووضعوا سيوفهم في إغمادها دون أن يبيتوا نية أو قصد للعودة إلي استخدامها ، بل تقلدوا قلنسوة الرهبان وعاهدوا أنفسهم علي أن يقوموا إلي الأبد بخدمة المرضي والفقراء والحجاج . لذلك فهم لا يستطيعون التخلي عن هذا الالتزام والعودة إلى ميدان القتال . وإزاء هذا الموقف المتصلب كان ضروريا الرجوع إلى بطريرك بيت المقدس الذي أذعن أعضاء الاسبتارية لتحكيمه وخرجوا من دائرة الشكوك التي كانت محيرة بالنسبة لهم . وتوج البطريرك ذلك بأن صدق بلا تردد علي التوسع المقترح لخطة عمل الجماعة حيث وضع بعد ذلك نظام جديد يتلاءم مع هذا الظرف أنقسم فيه الأعضاء إلي طبقات ثلاث (٢) كان لطبقـة الفرسان فيه

---

(١) أنظر التفاصيل متنوعة حول ظروف هذا التحول في:
Boase, T.S.R. : Kingdoms and Strongholds of the Crusadss P. 82
Also: Smail, R.C. : Op.cit, P. 54.
Regine, Peroud : The Crusades, trans. By Enid Meleod, P. 124.

(2) Cf. Lettera di Raimondo di Poggio Gran-Maestro dell'ordine dello Spedale di Gerusulemme in Cod. Dipl. No. XXXV P. 36 (Senz, Anno).
Also: Primordium II : Op.cit, P. 435.
De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I PP. 60-63.
Woodhouse, F., : Op.cit, PP. 26-27.

مكان الصدارة وتمتعوا بامتيازات لم يحظي بمثلها الأعضاء الذين ينتمون إلى طبقتي الاكليركيين أو الوعاظ ، والخدام أو المساعدين مما يؤكد أهمية الدور العسكري منذ ذلك الحين بالنسبة لنشاط الاسبتارية وواجباتهم (١)

وفـي وثيقة بتاريخ السابع عشر من يناير ١١٢٦م إشارة إلي اسم لكند سطبل من الاسبتارية هـو دوراند السالف الذكر (٢) وهـذا اللقب يمثل أول وظيفة عسكرية عليا في تنظيم الجماعة تطالعنا بها النصوص ، ووجود هذه الوظيفة فـي ذلك الحين يستلزم بالتالي وجود قوة محاربة ضمن صفوف الاسبتارية مما يشير إلي أن الاتجاه إلي النشاط الحربي قـد بـدأ يأخذ.مكانه في نظام الجماعة حوالي ذلك الوقت (٣) . ويؤكد ذلك منحة حصلت عليها الجماعة في الثامن من أبريل عام ١١٢٨م من شخص يدعي جيوفري فولجياك Geofrey de Flujeac عبارة عن قلعة Castel في إقليم قيسارية أقر إعطاءها لهم بلدوين الثاني ملك بيت المقدس (١١١٨- ١١٣١م) أثناء قيامه بحملة علي عسقلان (٤) فاضطلاع الاسبتارية بعبء الدفاع عن قلعة من القلاع علي هذا النحو يعد من المهام الحربية الرئيسية التي أسندت إليهم مثلما كان الحال بعد ذلك بالنسبة لحصون استراتيجية ضخمة ويفهم كذلك من مرسوم أصدره البابا أنوسنت الثاني Innocent II (١١٣٠- ١١٤٣م) في العشرين من فبراير عام ١١٣١م أن الاسبتارية كانوا في ذلك الوقت عنصرا محاربا يمـد مملكة بيت

---

(١) انظر ما سبق وأيضا : Cartulaire Tome I No. 627 PP. 425-429

(2) Durandus, Hospitalis Constabularius (isti fratres Hospitalis), Cf. Les Archives No. II, P. 71, Cartulaire I No. 74 P. 71.

(٣) أشار إلي هذا المعني أيضا
Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 45, & King E.J.: Op.cit, P. 32.

(4) Cf. Cartulaire Tome I No. 83, P. 78.

المقدس بالجند من خلال إشادته بشجاعتهم في الحرب ضد المسلمين والدفاع عن " أخواتهم في العقيدة " (١) وقد استشهد الأب دي فيري توث بما ورد في هذا المرسوم من قبيل إظهار تقدير المعاصرين وعلي رأسهم البابوية لدور الاسبتارية الحربي إلى جانب الخدمات التي كان يقدمها أعضاؤها للحجاج الصليبيين (٢) كما أن يوشع براور Jusha Prawer يذكر أنه في حوالي عام ١١٣٠م وقبل ذلك بقليل من النادر أن نجد حملة عسكرية صليبية ضد المسلمين لم ينضم إليها أعضاء من الاسبتارية (٣) وهذه الشواهد جميعها تدل علي أن الجماعة بدأت نشاطها الحربي ضد المسلمين دفاعا عن المملكة اللاتينية خلال العقد الثاني من القرن الثاني عشر .

ورغم ذلك فان بعض المؤرخين حاولوا إثبات أن الجماعة كانت عسكرية منذ نشأتها وبالتالي تكون قد أخذت علي عاتقها الواجبات الحربية منذ أيام المقدم جيرار (٤) وهو رأي لا يمكن قبوله إذ أن الجماعة كانت في عهد جيرار - كما يبدو بصفة مؤكدة - اسبتارية محضة انحصر نشاطها في أعمال الضيافة والتمريض وكرست العشرين عاما الأولى من وجودها بعد مجيء الصليبيين إلى الشام في تنظيم نفسها وتطورها . وإذا كانت قد أصبحت عسكرية الطابع بمرور الوقت وبعد عصر جيرار بفترة وجيزة فانه من المغالاة إضفاء هذا الطابع عليها منذ نشأتها دون إيراد أدلة تبرهن علي ذلك .والمؤكد في هذا الصدد هو أنه حتى عام ١١٢٠م لا يوجد دليل واحد في وثائق الاسبتارية أو في نصوص المعاصرين التي في متناول أيدينا ما يشير إلي اشتراك الاسبتارية في حرب من

(1) Cartulaire Tome I No. 91 P. 82.
Also; Rohricht : Regesta Regni No. 138 PP. 34-35.
(2) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 85.
(3) Cf. The Latin Kingdom of Jerusalem P. 264.
(4) Cf. Pooli, P.A. Dell'Origine ed istituto del Sacro militar Ordine di s. Giovanni Battista Gerosolimitane, Roma 1781, Passim.
انظر مناقشة هذا الرأي ووجهات النظر المعارضة بالتفصيل في :
Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 45 & N. 2.

الحروب التي خاضها الصليبيون ضد المسلمين (١) ولو حدث ذلك افعل ما نسي المؤرخون الإشارة إليه بما أنهم لم ينسوا تسجيل دورها في الصراع الصليبي الإسلامي في فترة تالية . ولا يمنع ذلك من أنهم عملوا علي توفير الأمن للحجاج الغربيين وهم مدججون بالسلاح . لكن بين حمل السلاح للدفاع الشرعي عن النفس أو الحجاج ، وممارسة مهنة الحرب ، وتوجد هوة لم يجتازها الاسبتارية بالضرورة وهو في ظل قيادة المقدم جيرار (٢) .

وقد أخذ دور الجماعة في الصراع الصليبي الإسلامي في الظهور بشكل تدريجي ريثما تكتمل الصبغة العسكرية البحتة في تنظيمها وواجباتها وهو أمر تطورت نحوه بشكل سريع حتى أصبح محاربيها من أشد المدافعين حماسا للدفاع عما يسمي بالقضية المسيحية في الأراضي المقدسة (٣) ومصدرا هاما زاد من قوة البناء العسكري للملكة بيت المقدس أبان السيطرة الفرنجية علي بلاد الشام (٤) وهذا الدور يتضح من ثنايا أحداث الحروب بين الصليبيين والمسلمين كلما كان أداؤه جديرا بأن يلقي الاهتمام سواء بالإطراء أو المدح من جانب المعاصرين خصوصا وأنه كان يتارجح ما بين انضمام مجموعة من فرسان الاسبتارية ومحاربيهم إلى صفوف الجيش الصليبي المتجهز للإغارة علي إقليم إسلامي مجاور ، أو التصدي لخطر مرتقب من جانب المسلمين ، وقيام حامية للجماعة بأمر حراسة بعض القلاع الهامة الواقعة علي الحدود مع هؤلاء الأخيرين أو تلك التي تسيطر علي الطرق والمنافذ الموصلة إلى قلب المملكة الصليبية . هذا إلى جانب رغبة الجماعة ذاتها - في وقت من الأوقات - عن طريق الانطلاق من هذه القلاع في التوسع والسيطرة علي حساب بلاد المسلمين المجاورة لها .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I Nas. 1-35 PP. 1-45.
Also : Codice dipl . del Saero Milit. Dell'Ordine Passim Fulcher. Of Charteres : Op.cit, P. 125 seq.
(2) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit, PP. 42-43.
(3) Cf. Ibid, P. 46.
(4) Cf. La Monte, J. : Feudal Monarchy in the latin Kingdom of Jerusalem, P. 218.

وبدأ نشاط الاسبتارية الحربي باشتراكهم في إنقاذ مدينة إنطاكية التي تعرضت لهجوم خطير من قبل قوات المسلمين التركمان (١) مما أضطر أميرها روجردي سالرنو (١١١٢- ١١١٩م) إلي الاستنجاد بملك بيت المقدس بلدوين الثاني . وكان أن جهز هذا الأخير جيشا (٢) ضم فرقة من فرسان الجماعة ومساعديهم أخذوا مكانهم في تشكيل المقدمة (٣) وقد حول هذا الجيش دفة المعركة لصالح الصليبيين ، وانتهي الأمر بإنقاذ إنطاكية وانتصار الجيش الصليبي بقيادة الملك بلدوين وأميري الرها وطرابلس في أواخر عام ١١١٩م (أغسطس- سبتمبر / جماد أول - جماد ثان ٥١٣ هـ) (٤) وكانت هذه المعركة - كما يري البعض - الأولى بالنسبة لمساهمة الاسبتارية في عمليات حربية من أجل الدفاع عن الممتلكات اللاتينية (٥) .

ثم كان أن تعرضت مملكة بيت المقدس في عام ١١٢٣م لأزمة خطيرة في الحرب مع المسلمين إذ وقع كل من الملك بلدوين الثاني وجو سلين أمير الرها وبعض القادة الذين سماهم ابن القلانسي " مقدمي الإفرنج " في الأسر (٦) مما أفقد الصليبيين قادتهم وكاد أن يوقع بهم في آتون الفوضى والاضطراب . وفي غضون هذه الأزمة لحق الاسبتارية ببقية قوات المملكة لوقف تقدم قوات المسلمين التي كانت قد توغلت في إمارة الرها (٧) وكذلك كان موقفهم عندما حاصر المسلمون يافا في نفس العام من ناحيتي البر والبحر حيث جهز ايوستاك جرانيير Eustache Granier صاحب صيدا وقيسارية جيشا من قوات المملكة استطاع به إنقاذ المدينة من هذا

---

(١) انظر : ابن القلانسي : ص ٢٠٠- ٢٠١.

(2) Cf. Fulcher of Chartres : Op.cit, PP. 226-228.
(3) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 70.
(4) Cf. Fulcher of Chartres : Op.cit, PP. 229-230.
(5) Cf. De Vertot, L'Abbe : Idem.
Also: Woodhouse, F., : Op.cit, P. 31.

(٦) انظر: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٩- ٢١٠ ، أيضا سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ٦٨- ٦٩.

Also: . Fulcher of Chartres : Op.cit, PP. 237-239.
(7) Ibid, PP. 240-241.

الحصار (١) فقد قدمت الجماعة في هذه الحملة مددا له قيمته ، ووضعت خدماتها تحت إمرة ايوستاك (٢) وتقديرا منه لهذا الموقف أنعم علي الاسبتارية ببعض الاقطعات في قيسارية (٣) ثم حذا حذوه باريزان Barisan كند سطبل يافا بعـد ذلك بأن منح الجماعـة اقطاعا فـي إقليم عسقلان (٤).

ويذكر البعض أن أزمة عام ١١٢٣م التي تعرضت لها المملكة الصليبية علي النحو السابق كانت منطلقا للاسبتارية لان يولوا العمل العسكري اهتماما خاصا بعد أن أصبح ضرورة حتمية أملتها الأخطار الجسيمة التي لاحت في الأفق وكانت مثار تهديد للوجود الصليبي في الشام فعاهد اعضاؤها أنفسهم منذ ذلك الحين علي الالتزام بواجب الدفاع عن " مملكة الصليب " ضد أي خطر تتعرض له ومن ثم أخذوا تشكيلهم علي نحو دائم في صفوف الجيش الصليبي حتى ذاعت شهرتهم بين الصليبيين الغربيين لما أبدوه من بسالة في المعارك التي اشتركوا فيها مما كان حافزا بالتالي لجنود جدد من عائلات نبيلة في أرجاء أوربا الكاثوليكية للانضمام إلى طبقة المحاربين في الجماعة (٥).

وبالرغم من قيام البنادقة بالدور الرئيسي فـي حصار مدينة صـور عام ١١٢٤م/٥١٨هـ حتـى سلمها أهلها بالأمان (٦) فإن الاسبتارية جهزوا فرقة تتناسب وإمكاناتهم العسكـرية اشتـركت

(1) Cf. De Vertot, L'Abbe : Op.cit, P.72.
Also : King, E.J. Op.cit, PP. 33-34.
(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 94 PP. 83-84.
Also: Diploma di Conferma Fatta da G. Granerio in cod. Dipl. No. XIII, P. 14.
(3) Cf. Cartulaire I No. 74, P. 71.
(4) Cf. King, E.J. ; Op.cit, P. 33.
(5) Cf. Woodhouse, F., : Op.cit, PP. 31-32.
(6) Cf. . Fulcher of Chartres : Op.cit, PP. 255-256, 264-266.
Also: Wiliam of Tyre : Op.cit, Vol. II PP. 10-12.
ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢١١ وقد أرجع تسليمها بالأمان إلي إهمال واليها وتأخر وصول المساعدات من مصر إليها .

في الحصار الطويل للمدينة من ناحية البر وأظهر أفرادها قدرا كبيرا من الشجاعة والكفاءة القتالية بين مختلف المهاجمين الصليبيين (١) وبعد ذلك رافقوا الملك الصليبي { بلدوين الثاني } في حملاته التي قام بها في الشمال ضد التركمان في كونتية طرابلس (٢) ويذكر الأب دي فيرتوت أن الملك وجد في إمدادات الاسبتارية ما يعوضه عن جهود الملك فولك اف انجوا - قبل تتويجه ملكا - الذي كان مضطلعا بعبء الدفاع عن هذه المناطق وذلك أثناء سفر هذا الأمير إلى فرنسا آنذاك في مهمة رسمية (٣) وقد حاز الاسبتارية بهذه الجهود المخلصة التي يذكيها حماس بالغ لصالح الصليبيين ثقة الملوك والأمراء الصليبيين الذين لم يتوانوا في تقديم العطاءات إليهم مقابل أعمالهم هذه والتي ساعدت علي تدعيم الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة (٤) .

وقد ظهر هذا الشعور بالثقة إزاء إمكانيات الجماعة الحربية في عهد الملك الصليبي فولك الانجوي (١١٣١- ١١٤٤م) الذي حارب معهم في صفوف الجيش الصليبي تحت قيادة الملك السابق بلدوين الثاني - كما سبقت الإشارة - وتعرف خلال هذه الحروب علي قدرات الاسبتارية القتالية ومن الممكن أن يكون قد لمسها فيهم عن كثب من مواقف معينة أظهرت حماسهم وشجاعتهم المتسمة بالاتزان البعيد عن التهور ، هذا إلى جانب تميزهم عن المحاربين الإقطاعيين بالطاعة والنظام الصفتان اللتان اعتمدت عليهما الفنون العسكرية للجماعة في ميادين القتال في وقت لم تراعي فيه

---

(1) De Vertot, L`Abbe : Op.cit, PP. 74-75.
Also : King, E.J. Op.cit, P. 33.

(٢) انظر أحداث هذه الحملات في :
Fulcher of Chartres : Op.cit. PP. 282-293.

(3) De Vertot, L`Abbe : Op.cit, PP. 77-78.

(4) Cf. Cartulaire Tome I No. 79 PP. 74-75 (A.D. 1126)
Nos 82-84 PP. 76-79 (A.D. 1128-29)

مثل هذه الصفات كثيرا لدي الفرق الأخرى الإقطاعية (١) لذا اتجه فولك إلي أن يسند إلى الاسبتارية مهمة الدفاع عن بعض القلاع الهامة التي شيدها ، خصوصا الواقعة منها في أكثر المناطق عرضة للخطر من جانب المسلمين وهي المناطق القريبة من المعاقل والحدود المصرية بسبب الغزوات شبه المستمرة لقوات مصر علي الجزء الجنوبي من المملكة الصليبية . وأهم هذه القلاع كانت قلعة بيت جبرين Begibelin (٢) الواقعة إلى الشرق من مدينة عسقلان - التي كانت لا تزال خاضعة للسيادة المصرية - وكان هيودي سانت أبراهام Hugues de S. Abraham قد أعطي هذا المكان إقطاعا إلى الجماعة في عام ١١٣٦م بعد أن وجد فيهم عنصرا حربيا يعتمد عليه في الدفاع عنه في وقت أصبح فيه هو لا يستطيع مواصلة القيام بهذا العبء (٣) وقد صدق الملك فولك علي هذا العطاء في سبتمبر من نفس العام وزاد عليه بأن أوكل إلى الاسبتاريـة حـراسة القلعة التي شيدها هناك (٤) وأصبحت قوات الجماعة - بذلك - في موقع متقدم أكثر عرضة لهجمات المسلمين من أي من الأماكن الأخرى في المملكة الصليبية (٥) فأخذت حامية الجماعة منذ ذلك الحين تتصدى لغارات حامية عسقلان المصرية أو تلك التـي تشنها سـرايا بعث بها حكام مصر

---

(1) Cf. Prawer, Joshua : Op.cit. P. 264.

(٢) تقع بيت جبرين حاليا بين مدينة الخليل شرقا والمجلد غربا وكانت بلدة تعرف منذ القدم باسم بير شابا Beersheba ويذكر عنها انها حصن بين بيت المقدس وعسقلان بينها وبين القدس مرحلتان وبين غزة أقل من ذلك . أنظر : Burchard of Mt. Sion, P. 22 أيضا : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥م ج٤ ، ٥١٩ ط . ب. بنيامين التطيلي : الرحلة ص ١٠٦ وحاشية رقم ٢ ، وقد شيدت قلعتها علي يد الملك فولك فيما بين عامي ١١٣٤-١١٣٦م لتكون حاجزا يتصدي لغارات القوات المصرية وفي نفس الوقت مركزا لشن هجمات ضد مصر . وأصبحت منذ عام ١١٣٦م اقطاعا خاصا بالجماعة أنظر :
William of Tyre : Op.cit. Vol. II , PP. 80-82.

(3) Cf. Cartulaire Tome I No. 116 PP. 97-98.
Also: King, E.J. : Op.cit. P.34.

(4) Cf. William of Tyre : Op.cit. Vol. II , PP. 82.
Also: Diploma di Foleone Re di Gerusalemme terzo in cod. Dipl. No. XVII P. 18.

(5) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit, PP. 46-47.
Also: Setton, K.M.: A History of The Crusades, Vol I , P. 444.

مباشرة ضد الصليبيين في الجنوب (١) ويمثل ذلك في نظر البعض تحولا علي قدر كبير من الأهمية إذ يعد بداية لتحقيق أهداف رجال الاسبتارية في أن يكونوا المدافعين عن النقاط الصليبية الأمامية ضد المسلمين (٢) أما المؤرخ الصليبي وليم الصوري فيذكر أن الاسبتارية تولوا حراسة قلعة بيت جبرين " بكل جهد ومثابرة واجبة " وأنهم مذ قاموا بحراستها وأصبحت هجمات العدو (يقصد القوات المصرية) علي هذا المكان أقل عنفا وضراوة (٣) .

وفي الشمال حرص ريموند الثاني Raymand II كونت طرابلس (١١٣٧- ١١٥٢م) علي الاستفادة من إمكانيات الجماعة الحربية في الدفاع عن كونتيتة بعد أن أضحي عاجزا عن التصدي للهجمات القوية التي تشنها قوات عماد الدين زنكي بن آقسنقر (١١٢٧- ١١٤٦م) ، وكان أن وقع ريموند مع الاسبتارية في عام ١١٤٢م ما يمكن أن يسمي اصطلاحا " اتفاقية دفاعية " تنازل لهم بمقتضاها عن قلاع حصن الأكراد والبقيعة (أعناز) ورفنيه وبعرين وملحقاتهم . كما تخلي لهم عن نصيبه من غنائم الحرب مع المسلمين بعد أن كان يقتسمها مع فرسان الجماعة في حالة اشتراكهم معه في إحدى حملاته ، وفوق ذلك أعترف الكونت لأعضاء الجماعة بحقهم في إقامة الحروب وتوقيع المعاهدات مع عدم احقيتة هو في أن يعقد سلاما مع المسلمين إلا بموافقتهم (٤) مما يشير إلى أن الاسبتارية كانوا قد وصلوا إلي مرحلة متقدمة في مجال النشاط الحربي وأصبحوا جديرين بمجابهة الأخطار الجسيمة المحدقة بهذه الأماكن خصوصا وأن المنطقة التي أقطعها لهم ريموند الثاني كانت واقعة في أشد مناطق الكونتية تعرضا لغارات المسلمين ، وكانت بحيرة حمص هي

(1) Cf. Stevenson, W.: The Crusaders in the East. P. 137.
(2) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 34.
(3) A History of Deeds Done Beyond the Sea, Vol. II P. 82.
(4) Cf. Cartulaire Tome I No. 144 PP. 116-118, no. 106 P. 103
Also: Les Archives no. VII P. 76.
Revue de L'Orieut latin, Tome III P. 49.

منطلق هذه الغارات ومركزها الرئيسي ، ثم أن هذه الاقطاعات كانت تضم أراضي استولي عليها المسلمين قبل ذلك بسنوات مثل رفنية وبعرين (١) وكان علي الاسبتارية بما لديهم من طاقة حربية القيام باستردادها منهم (٢) وقد بذلت الجماعة محاولات كثيرة لتنفيذ هذه المهمة كانت سببا في اشتباكات واسعة النطاق مع جيرانها المسلمين خصوصا في حمص وحماه ، بينما نجحت في حماية الاقطاعات الأخرى والقلاع من خطر عودتها إلي أيديهم حتى فترة متأخرة من الوجود الصليبي في الشام .

علي آية حال كان إسترداد مدينة الرها علي يد عماد الدين زنكي في عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ (٣) سببا في قدوم الحملة الصليبية الثانية من الغرب الأوربي بعد ذلك بسنوات وفيها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث Conrad III (١١٣٨- ١١٥٢م) ولويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧-١١٨٠م) (٤) وحتى يتقرر لقادة هذه الحملة العمليات الحربية المزمع القيام بها ضد المسلمين ، عقد مجلس للحرب في عكا في الرابع والعشرين من يونيو عام ١١٤٨م مثل فيه الاسبتارية ريموند دي بوي مقدم الجماعة (٥) وكان رأيــه مسموعا للغايــة نظرا لأنــه صادر عن رجل تفوق خبرته بأمور

(١) عن استرداد المسلمين لبعرين في عام ١١٣٦م/٥٣١هـ أنظر :
William of Tyre : Op.cit. Vol. II , PP. 78-91.
ايضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٩.
ابو الفدا : المختصر في اخبار الشرق ، ج٣ صحيفة رقم ١٢.
(٢) انظر : السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ص ٢١٤-٢١٥.
(٣) عن سقوط الرها في ايدي عماد الدين زنكي أنظر :
William of Tyre : Op.cit. Vol. II , PP. 140-143 , 159-160.
أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ وما بعدها .
(٤) عن تفاصيل احداث الحملة الصليبية وخط سير جيوشها أنظر :
William of Tyre : Op.cit. Vol. II , P. 163 Seq.
Also: De Vertot, L'Abbe : Op.cit, Tome I. 103 Seq.
Oman, Ch. : Op.cit. Vol. I, PP. 243-348.
(5) William of Tyre : Op.cit. Vol. II , PP. 184-186.
Also: Rohricht, R. Regesta Regni no. 250 P. 63.
وقد كان المؤرخون العرب علي علم بهذا المجلس واشاروا في كتاباتهم الي اجتماع صليبي الحملة الثانية بالفرنج الموجودين بالثغور الشامية . أنظر ابن القلانسي المصدر السابق ، ص ٢٩٧.

الشرق جهل هؤلاء القادمين الجدد (١) وقد تعهد في هذا المجلس بتعاون الجماعة التي يرأسها مع الصليبيين عسكريا من أجل تنفيذ المخطط الذي أتفق عليه (٢) وهو منازلة مدينة دمشق علي أساس أنها كانت مركزا قريبا لشن الغارات ضد المملكة الصليبية (٣) .

وفي الحال تحرك الجيش الصليبي قاصدا المدينة الإسلامية (٤) ، وفي مقدمته بارونات الأراضي المقدسة والاسبتارية والداوية ، وفي القلب القوات الفرنسية بقيادة لويس السابع ، هذا بينما كان الألمان في المؤخرة تحت قيادة الإمبراطور كونراد (٥) ونزل الجميع علي دمشق في الرابع والعشرين من يوليو ١١٤٨م / ربيع الأول ٥٤٣هـ . وبعد تحقيقهم عدة انتصارات جزئية عاشت المدينة من جرائها في ضائقة شديدة " فتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت وغاروا الإسلام وحملوا حملة رجل واحد " " فأنهزم الفرنج " واضطروا إلي رفع الحصار والانسحاب إلي مدينة بيت المقدس (٦) .

---

(١) يذكر أ.ج كينج أن ريموند دي بوي كان يبلغ من العمر آنذاك ثماني وستون عاما وعاش في الشرق حوالي نصف قرن من الزمان ، ولم يكن بين الحاضرين فارس أو جندي أكثر منه خبرة بالحروب مع المسلمين . أنظر
The Knights Hospitallers in the Holy Land P. 46.

(2) Cf. Le Foulx, J.D. : Op.cit. PP. 49-50

(3) William of Tyre : Op.cit. Vol. II , P. 186.

أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٩٨، وأيضا حاشية رقم ١ ص ٢٩٧- ٢٩٨.

وكذلك : مخطوط العظيمي في:

Le Journal Asiatique, Juillet-Septembre 1938, P. 218.

(4) William of Tyre : Op.cit. Vol. II , P. 186 Seq.

(5) Cf. King, E.J. Op.cit, PP. 36-47.

لم يشر الي هذا التشكيل وليم الصوري أو ابن القلانسي والمصادر الاخري التي تم الرجوع اليها مما اضطرنا الي الاعتماد علي المرجع السابق في هذا الصدد .

(٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٩٩- ٣٠٠ .

سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ورقة ١١٩- ١٢٠.

Also: William of Tyre : Op.cit. PP. 189-193.

Thc Kinghts Hospitallers P. 47.

ورغم أن الشواهد تشير إلي أن أسباب فشل هذه الحملة ترجع إلى الاختلاف في الرأي بين الفرنج القادمين من الغرب والصليبيين المقيمين في الشرق ، إلي جانب أن جيش الحملة الصليبية الثانية وصل إلي البلاد الشامية ممزقا وقد " هلك منهم بالموت والمرض خلق عظيم " (١) فان المعاصرين اتجهوا - كما هي العادة - ، إلي إلقاء تبعات التقصير أو الخيانة علي بعض الشخصيات الصليبية أو العناصر المحاربة التي اشتركت في هجومهم الفاشل علي دمشق ، بل واختلفوا هم الآخرين في تحديد هذه العناصر واتفقوا بالنسبة لبعض الشخصيات ، فالمؤرخ وليم الصوري يذكر أن المسئولين عن هذا الفشل هم : ثييري كونت الفلاندر Thierry de Flander وأمير إنطاكية (ريموند دي بواتييه ١١٣٦- ١١٤٩م) وبعض الشخصيات الصليبية التي حصلت علي رشوة من المسلمين دون تحديد لأسمائهم (٢) بينما أضاف تاريخ أرنول Hernolius إلي هؤلاء مقدم الاسبتارية وفرسانه والفرسان الداوية (٣) وذلك من قبيل إيجاد تبرير للهزيمة التي مني بها الصليبيون في هذه المعركة أو إخفاء حقيقة الأوضاع السالف ذكرها والتي أدت إلى هذه النتيجة عن عمد ، رغبة في النيل من الخصوم أو المنافسين من خلال وصمهم بتهمة الخيانة أو التقصير ، مما يفقدهم بالتالي مكانتهم في نظر العالم الأوربي الكاثوليكي خصوصا وأن جماعة دينية كالاسبتارية كانت تدين بوجودها وتطورها إلى حفاظها علي السمعة الطيبة ولو بشكل ظاهري أمام هذه الأوساط ويمكن القول أن تاريخ الاسبتارية يشهد بأنهم ظلوا موالين بتعصب لمبادئهم الأولي

---

(١) أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٩٨.

Also: William of Tyre : Op.cit. PP. 194-195 N.13.

ويضيف أ.ج كينج الي هذه الاسباب : احتواء جيوش الحملة الصليبية الثانية مثل الاولي أمراء تواقين الي الحصول علي ممالك جديدة في الشرق . وخطاء الهجوم علي دمشق والاعتماد علي التحالف مع معين الدين أنر الذي كان معروفا لدي عقلاء المملكة الصليبية بأنه يفضل تسليم المدينة الي نور الدين صاحب حلب من ان يدعها تسقط في ايدي الصليبيين . أنظر :

The Knights Hospitallers P. 47.

(2) William of Tyre : Op.cit. PP. 193-194.

(3) Cf, Hernolii Continuatis Annalibus in R.H.C.Occ. Tome III e Partie P. 1038.
Also: William of Tyre : Op.cit. P. 194 nos. 12-13.

النابعة من صميم العقيدة الكاثوليكية فقد كرسوا حياتهم من أجل مواصلة ما أسموه " الحرب المقدسة " ضد المسلمين إلي جانب حرصهم علي مصالحهم الخاصة مما يبعد عنهم اتهام من هذا القبيل .

وإذا كانت الوثائق الرسمية وكتابات المعاصرين قد اقتصرت بالنسبة لدور الجماعة في هذه الحملة علي الإشارة إلى وجود المقدم ريموند دي بوي في مجلس الحرب الذي عقد في عكا ومساهمته بدور فعال في وضع خطة الهجوم يؤكد بالتالي اشتراك مجموعة من قوات الجماعة بقيادة ريموند في الحملة الحربية التي دارت بين الطرفين الصليبي والإسلامي .

وفي الأعوام التالية لهجوم الصليبيين علي دمشق دارت معارك بين المسلمين واللاتين في الشمال من ناحية إنطاكية بقيادة نور الدين محمود بن زنكي (١١٤٦- ١١٧٤م) (١) وفي كونتية الرها بقيادة سلطان الروم السلاجقة (قونية) مسعود بن قلج أرسلان صهر نور الدين (١١٣٣- ١١٥٢م) (٢) واتخذ الصليبيون في هذه المعارك موقفا دفاعيا . ومن المؤكد أن هذه الظروف فرضت علي الاسبتارية - الإنضمام إلي صفوف القوات الصليبية - ، والدخول في هذه المواقع ضد المسلمين دفاعا عن الاقطاعات والحصون الهامة التابعة لهم في هذه المناطق والتي أضحت هدفا للكثير من غارات المسلمين وهجماتهم (٣) ثم تجمعت قوات الصليبيين في

(1) Cf. William of Tyre : Op.cit. PP. 197-198.
أيضا : سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ورقة ١٢٢.
ابو الفدا : المختصر ج٣ ، صحيفة رقم ٢٢.

(2) Cf. William of Tyre : Op.cit. P. 200.
أيضا : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠١- ١٠٤.
سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، نفس المكان .
ابو الفدا : المصدر السابق : صحيفة رقم ٢٣ .

(3) Cf. Cartulaire Tome I Nos 129-190 PP. 107-148.
Also: Rohricht R. Regesta Regni Nos 212-253 PP. 53-64.
وهي عبارة عن الوثائق والمراسيم التي حصلت عليها الجماعة بمقتضاها علي اقطاعات وحصون وقري في امارتي إنطاكية والرها { تل باشر } .

ديسمبر ١١٥١م / رمضان ٥٤٦هـ بقيادة بلدوين الثاني Baldwin II ملك بيت المقدس (١١٤٤-١١٦٢م) وانضم الاسبتارية إلى هذه القوات بفرقة من الفرسان والمحاربين من خدام السلاح والتركبولي وذلك لانقاذ إمارة إنطاكية من هجمات المسلمين ومحاولة إعادة الرها إلى حوزة اللاتين (١) ويبدوا أن مركز تجمع هذه القوات الذي كانت تنطلق منه لتنفيذ هذه المهام كان حصن الأكراد القلعة التابعة للجماعة لأن المؤرخين العرب يذكرون أن " أكثر عسكر الفرنج قصدوا ناحية البقاع ... وغاروا علي عدة وافرة من الضياع فاستباحوا ما بها " ولم ينقذ البلاد { الإسلامية } منهم إلا القوات التي أرسلها والي بعلبك ونزول الثلوج ، " فعادوا علي افتح صفة من الخذلان وسوء الحال " (٢) والمعروف أن قلعة الحصن تشرف علي هذا الإقليم ومن ثم فان فرسان القديس يوحنا بدءوا بذلك في أن يلعبوا دورا مزدوجا في هذا الصراع يتمثل في المشاركة الفعلية لقوات الجماعة في المعارك الدائرة بين الطرفين وتجميع الجيوش الصليبية وأعدادها وبالتالي توجيهها طالما أن المكان المزمع مهاجمته علي مقربة من الاقطاعات والأراضي التابعة لها .

ولم يقتصر هذا الدور علي إقليم من الأقاليم الصليبية بل تعداه إلى معظم بلدان وأراضي المملكة ، وأحيانا في آن واحد ، مثلما حدث أثناء اشتراك الاسبتارية في العمليات الحربية ضد المسلمين في شمال المملكة الصليبية ، فقد ساهموا أيضا وفي نفس الوقت تقريبا في التصدي لغزوات التركمان التي كانت موجهة ضد إقليم بيت المقدس وجبل الزيتون فيما بين عامي ١١٤٩ ، ١١٥٢م (٣) وكان وجود هؤلاء الفرسان - كما يذكر الأب فيرتوت -

(1) William of Tyre : Op.cit. PP. 210-212.
Also: De Vertot, L`Abbe : Op.cit, Tome I. PP. 112-114.
والملاحظ أن وليم الصوري لم يذكر بالتفصيل الفرق التي تكون منها الجيش الصليبي بحيث يتضح وجود فرقة الاسبتارية بين هذه القوات ، وهذا الامر اكملة الاب دي فيرتوت باشارته الي دورها .

(٢) أنظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٧- ٣١٨.
ابو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين ، ج١ ، ص ٨٤ .

(3) Cf. William of Tyre : Op.cit. PP. 215-217.
Also : Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 51.

مشجعا للأهالي من الصليبيين كي يستميتوا في الدفاع عن أنفسهم (١) .

وفي الجنوب أيقن الصليبيون من أن وضع غزة التابعة للداوية وبيت جبرين قلعة الاسبتارية في موقف دفاعي حصين غير كاف لدرء خطر المسلمين المقيمين في عسقلان والدائمي الظفر " بالإفرنج المجاورين لهم " (٢) وأصبحت سلامة الحدود الجنوبية للمملكة في مفهوم هؤلاء الأخيرين غير آمنة إلا بغزو هذه المدينة (٣) ولتحقيق هذا الغرض اتجه الصليبيون إلى الاستفادة من الظروف السياسية السيئة في كل من مصر والشام لصالحهم ففي مصر ، مركز الإمدادات بالميرة والسلاح والرجال ، قتل الوزير الفاطمي العادل بن السلار واختلفت الأهواء (٤) بينما كان نور الدين في الشام علي خلاف مع حكام دمشق التي كانت بمثابة مركز متقدم لنجدة عسقلان علي يديه في حالة تعرضها لهجوم صليبي وذلك " لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط " (٥) .

كيفما كان الأمر ، فقد ظهر الجيش الصليبي تحت أسوار المدينة في الخامس والعشرين من يناير عام ١١٥٣م/٢٧شوال ٥٤٧هـ بقيادة الملك بلدوين الثالث، وكان الاسبتارية في هذا الجيش تحت إمرة مقدمهم المعمر ريموند دي بوي ، وقد أشار وليم الصوري إلى وجوده ضمن كبار القادة الصليبيين الذين يديرون عمليات الحصار ضد عسقلان (٦) واستمر الحصار شهران لم تتحقق

---

(1) Cf. De Vertot, L'Abbe : Op.cit, Tome I. PP. 114-115.

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٦، ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص٣١٨ز

(3) Cf. De Vertot, L'Abbe : Op.cit, Tome I. PP. 116-117.
Also : Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 51.

(٤) أنظر بالتفصيل : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٩- ٣٢٠.
Also: William of Tyre : Op.cit. PP. 251-253.
وكذلك ابو الفدا في المختصر ن ج٣ صحيفة ٢٧ ، وابن الوردي : تاريخه ج٢ ، ص٧٦ .

(٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٢٦.

(6) A History of Deeds Done Beyond The Sea, Vol. II, P. 218.

خلالهما نتيجة تذكر حتى زادت قوة الجيش الصليبي المحاصر بمجيء أعداد من الحجاج قبيل عيد القيامة (١) ويذكر ديلافيل لي رو أن قلعة بيت جبرين التابعة للجماعة كانت بمثابة مركز إمداد الصليبيين ونقطة تمركز حصينة تدفع منها القوات لمداومة الحصار والتضييق علي المدينة (٢) وقد حدثت محاولات من جانب نور الدين لإجبار الصليبيين علي رفع الحصار عن عسقلان فنزل علي بانياس (٣) كما أنه بعد خمس شهور من الحصار وصل أسطول مصر فقويت نفوس من بالمدينة بالمال والرجال والغلال (٤) .

ونتيجة لنار شبت ما بين برج المدينة وسورها انهار جزء من السور فأحدث ثلمة اندفع نحوها بتهور مقدم الداوية وأربعون من فرسانه دون انتظار مساعدة من جانب القوات المشتركة ، بل ضرب بنصيحة القادة الصليبيين عرض الحائط رافضا الانسحاب . ويبدو أنه كان يسعى بهذه الخطوة إلى ضمان المدينة لجماعته لكنه دفع ثمن تهوره في الحال بأن ذبح ومن صحبة من فرسان (٥) وأصلح أهل عسقلان الثلمة بدفاع مؤقت بينما خارت عزيمة الصليبيين علي اثر هذا الحادث حتى فكر الملك والبارونات في رفع الحصار ، إلا أن مقدم الاسبتارية ، (ريموند دي بوي) يؤيده بطريرك بيت المقدس ورئيس أساقفة صور وجماعة من كبار رجال الدين ، تدخل بحزم وعارض هذه الفكرة علي أساس أن ما بدأوه واستمروا فيه طويلا يجب ألا يتخلوا عنه خصوصا وأن رفع الحصار من الممكن أن يكون حافزا للمسلمين علي التقدم بعد ذلك لحصار بيت المقدس ، فأقتنع

(1) Cf. William of Tyre : Ibid. PP. 220-23.
Also: Setton, K.M.: Vol. I, P. 537.
(2) Les Hospitaliers en Terre Sainte, P. 52.
(3) Cf. William of Tyre : Op.cit. P. 225.
ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٠ وكذلك :
العيني : عقد الجمان ج١٦ ورقة ٢٣٦ حيث يذكر : " واتفقوا علي النزول علي بانياس ليشغلوا قلوب الافرنج النازلين علي عسقلان لانهم ضايقوها " .
(4) William of Tyre : Op.cit. PP. 223-224.
ايضا : ابن القلانسي : ص ٣٢١ ، ابو شامة : ج١ ص ٩٠ .
(5) Cf. William of Tyre : Op.cit P. 227.
Also : De Vertot, L'Abbe : Op.cit, Tome I. PP. 118-122.
Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 52.

الملك الصليبي بوجهة نظر مقدم الاسبتارية هذه وأعلن استمرار الحصار حتى أنتهي الأمر بأن سقطت المدينة في أيديهم في الثاني والعشرين من اغسطس عام ١١٥٣م (١) وذلك بعد أن تسهلت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها " فهدموه وهاجموا البلد " فطلب أهل عسقلان الأمان وأجيبوا إليه ، بينما حصل الفرنج من هذا الثغر علي غنائم عظيمة " من العدد الحربية والأموال والميرة والغلال " (٢) ويدل هذا الموقف علي خبرة الاسبتارية العسكرية واحترام القادة الصليبيين لآرائهم إلى جانب أنهم امتازوا وعلي رأسهم المقدم ريموند دي بوي بالثبات ومواجهة المواقف الصعبة بحكمة وتقدير حتى استطاع الصليبيون برأي مقدمهم السديد أن يتداركوا الموقف ويحولوا دون تفشي اليأس في نفوسهم وواصلوا الحصار حتى تحقق لهم الاستيلاء علي عسقلان مما يجعلنا نعزو باطمئنان فضل هذا النجاح إلى موقف الاسبتارية وتفكير مقدمهم الصائب .

ولم يغفل الصليبيين في الغرب والشرق علي حد سواء قيمة ذلك الدور الذي لعبه مقدم الاسبتارية وفرسانه ، وكان له فضل الفوز بمدينة ظلت هدفا لهؤلاء الصليبيين طوال أكثر من نصف قرن خصوصا وإنها كانت مصدرا لخطر يهدد وجودهم جميعا ، لذلك ما أن تم الاستيلاء علي عسقلان حتى توالت العطايا والهبات علي الجماعة (٣) وعبـــر بلدوين الثالث عن امتنانه إزاء موقف ريموند دي بوي في مرسوم أصدره في الثلاثين من يوليـــو عام ١١٥٤م أقـــر فيه كل ما منح

---

(1) William of Tyre : Op.cit. PP. 228-229.
Also : De Vertot, L'Abbe : Op.cit, Tome I. P. 118.
Setton, K.M.: Op.cit. Vol. I, PP. 537-538.

(2) Cf. William of Tyre : Op.cit. PP. 231-234.
ايضا : ابن القلانسي : ص ٣٢١. ، ابو شامة : ج١ ، ص ٩٠ ، العيني : ج١ ورقة ٢٣٦.
وقد أورد سبط ابن الجوزي سببا آخر لطلب اهل عسقلان الامان هو تاخر وصول الامدادات من مصر . انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ورقة ١٣١.

(3) Cf. Cartulaire Tome I No 223 P. 171.
Also: Rohricht R. Regesta Regni No 293 PP. 74-75.

للاسبتارية علي يد الملوك الصليبيين الأوائل وغيرهم (١) ثم أعقب ذلك البابا انستاسي الرابع Anastase IV (١١٥٣- ١١٥٤م) بمرسوم بابوي في الحادي والعشرين من أكتوبر عام ١١٥٤م أخذ فيه الجماعة تحت حمايته وأقر لهم امتيازات أنعم عليهم بها بابوات سابقين من قبيل التعبير عن تقديره لدور الاسبتارية وكحافز لأعضاء الجماعة علي مضاعفة الجهود في هذا الميدان . ثم أضاف البابا إلى هذه الامتيازات امتيازات أخرى جديدة كانت جميعها علي حساب السلطات الأسقفية في الإمارات الصليبية (٢) ومن الممكن أن تعد من أسباب الصدام الشهير الذي حدث بعد ذلك بفترة قصيرة مع فوشيه بطريرك بيت المقدس وأساقفة الأراضي المقدسة (٣) .

ويبدوا أن البابا أحس بامتعاض هؤلاء الأخيرين فأصدر مرسومين آخرين أمر الأساقفة في أحداهما باحترام كافة الإعفاءات والامتيازات التي حصل عليها الاسبتارية ، وفي الآخر جدد للجماعة مراسيم سابقة لصالحها (٤) وإذا كانت البابوية قد سلكت هذه السياسة لما فيها من أضعاف للسلطات الأسقفية حتى لا تشكل خطرا عليها في يوم من الأيام في الوقت الذي جعلت فيه من الجماعات الرهبانية قوة موالية تؤكد سيادتها علي الأراضي المقدسة ، فأن ذلك كان في نفس الوقت أسلوبا عاما سار علي نهجه البابوات والملوك والأمراء في تقديرهم ومكافأتهم لدور الاسبتارية وموقفهم في أطوار الصراع الصليبي الإسلامي المختلفة ـ كما سيتضح أيضا في مناسبات تالية ـ .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I No 225 PP. 172-173.
Also: Letters di Balduino, quatro Re di Latini in Cod. Dipl. No XXX, P. 32.

(٢) انظر هذا المرسوم في :
Cartulaire Tome I No 226 PP. 173-175.

(٣) أنظر تفاصيل النزاع بين بطريرك بيت المقدس والاسبتارية في :
William of Tyre : Op.cit. PP. 239-241, 245-250.

(4) Cf. Cartulaire Tome I Nos. 227-228 PP. 175-176.
وقد كان توسع البابوية في اعطاء الاسبتارية مثل هذه الامتيازات مثار للجدال في بعض المؤتمرات والمجالس الكنسية ، كما أثار حفيظة الراي العام المسيحي بعد أن تفاقمت المشاكل الناجمة عن ذلك . انظر :
Brundage, James : A Twelfth Century Oxford Disqutation Concerning the Privileges of the Knights Hospitallers in M.S. Vol. XXIV, Canada, 1962, PP. 153- 160.

ولم يكد فرسان القديس يوحنا يبتهجون بثمار هذا النصر ويوسعون من دائرة نفوذهم وأملاكهم عن طريق الاستحواذ علي العديد من الاقطاعات في أرجاء المملكة الصليبية (١) حتى كانت معاناتهم من أول كارثة في تاريخهم الحربي ، ففي عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ ملك نور الدين محمود دمشق (١١٥٤- ١١٧٤م) وأخذها من صاحبها مجير الدين ابق (٢) واتخذت بذلك أهم خطوة صوب الاتحاد الكامل لمسلمي الشام .

ولم يشأ نور الدين أن يتورط آنذاك في الوضع المعقد مع الفرنج في الجنوب كي يتفرغ لإقرار أوضاع المسلمين في الشمال (٣) في الوقت الذي كان الأسطول المصري يواصل هجماته علي الحجاج القادمين إلي المواني لفرنجية(٤) أما في الشمال فقد حاصر نور الدين حارم وكانت تابعة لأمير إنطاكية فضيق علي أهلها ، وبعد فشل الصليبيين في رفع حصاره عنها وكان فيهم " مقدم من الفرنج " راسلوا نور الدين في الصلح فصالحهم علي أن يكون له نصف أعمال حارم وذلك في عام ١١٥٦م (٥٥١هـ) (٥) ثم أتجه إلي إنقاذ أعمال حلب من غارات السلب والنهب التي كان يشنها الصليبيين وكان لاسبتارية حصن الأكراد دور فيها ، وبعد " تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها " عاد نور الدين إلي دمشق حيث تقررت " الموادعة والمهادنة " بينه وبين الملك الصليبي بلدوين

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I Nos. 231-232, P. 177, no. 244. PP. 183-184.

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦.
ابو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٩٤- ٩٥ .
ابن الوردي : تاريخة ، ج٢ ، ص ٧٩ وهذا الاخير يذكر ان نور الدين فعل ذلك لخشيته أن يتملك الفرنج دمشق بعد ملكهم عسقلان وانهم بداوا في مضايقة اهلها .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ورقة ٢٦٠.

(٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٩.

(٥) ابو شامة : الروضتين ، ج١ ص ١٠٠ – ١٠١ .
العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ورقة ٢٦٧- ٢٦٨ .

الثالث مدة سنه كاملة أولها سبتمبر ١١٥٦م/شعبان ٥٥١هـ علي أن يحمل للصليبيين من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية (١) .

واعتمادا علي هذه الهدنة خرجت جماعة من العرب والتركمان في أعداد اكثر من ذي قبل بما لديهم من قطعان الجمال والخيل والماشية والأغنام للرعي في الغابات والمروج الخصبة الموجودة في منطقة الشعرا المجاورة لبانياس (٢) ووقع بلدوين فريسة الأغراء إزاء هذا الغنم الوفير يدفعه إلي الظفر به ما زينه قرناء السوء (٣) والضرورة الاقتصادية المتمثلة في حاجته إلي المال لسداد ما علية من ديون (٤) فاستدعي فرسانه وشن هجوما مباغتا علي هؤلاء الرعاة في فبراير ١١٥٧م/ذي الحجة ٥٥١هـ واستاق قطعانهم وأسر جماعة منهم وشجعه علي خرق الهدنة مع المسلمين علي هذا النحو ، وصول قوات جديدة من الغرب عن طريق البحر قويت شوكته بهم (٥) وأتاح ذلك لنور الدين الفرصة للتنصل من التزام الهدنة وحمل السلاح ضد الصليبيين وهو ما كان يتمناه ـ فيما يبدو ـ بعد أن استقرت له الأمور في الشام بانتهاء الخلاف بينه وبين صاحب قونيه .

وكانت جماعة الاسبتارية مكلفة بالدفاع عن قلعة الصبيبة Subeibe (٦) الواقعة علي مرتفع أعالي بانياس بعـد المسير لمـدة ساعة نحو الشرق وبذلك كانت تشرف علي الوادي كله (٧) وأدرك

---

(١) ابو شامة : الروضتين ، ج١ ص ١٠٠ – ١٠١ .
العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ورقة ٢٦٧- ٢٦٨ .

(٢) : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٧.
William of Tyre : Vol. II , P. 255.
ابو شامة : الروضتين ، ج١ ص ١٠٣ .

(3) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 255.

(4) Cf. Boose, T.S.R. : Kingdoms and Strongholds of the Crusaders P. 113.

(٥) ابن القلانسي : ص ٣٣٧.
William of Tyre : Vol. II , P. 255-256.
ابو شامة : ج١ ، ص ١٠٣.
العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ، ورقة ٢٦٨.

(٦) قلعة النمرود الحالية علي مسافة ٢ كم شرق بانياس وقد بنيت في عام ١١٣٠م ,أنظر :
Mayer, H.E. : Op.cit. P. 93 .

(7) Cf. Boase : T.S.R. : Op.cit. P. 114.

همفري دي تورون Honfroi de Toron كند سطبل بيت المقدس الذي كانت تتبعه بانياس ومجاوراتها وقد أصابه القلق انه لا يستطيع مجابهة خطر نور الدين الوشيك الوقوع بعد خرق الملك الصليبي للهدنة ، وموقع بانياس علي المنحدر الجنوبي لجبال الشيخ Hermon وعند منابع الأردن جعلها تتحكم في الطريق المؤدي من صور إلى دمشق إلى جانب قربها من الحدود مع المسلمين فاعطاها ذلك اهمية استراتيجية من الدرجة الأولى بالنسبة للصليبيين وكان لابد من الدفاع عنها بأي ثمن . لذا لم يتردد الكند سطبل بعد موافقة الملك في أن يستعين بالاسبتارية للقيام بهذه المهمة مقابل أن يتنازل لهم عن نصف بانياس والاقطاعات التابعة لها وتم الاتفاق بين الطرفين علي ذلك في مارس أو أبريل عام ١١٥٧م(١) وقد مثل الاسبتارية في ذلك الاتفاق جيرار فيتزهيو Giraldus Fitz Hugo قائد الجماعة (١١٥٥- ١١٥٧م) (٢) ونائب المقدم ريموند دي بوي الذي كان في أوربا آنذاك (٣) ورغب جيرار وفرسان الجماعة بعد أن أخذوا علي عاتقهم مهمة حراسة نصف المدينة في أن يجعلوا المكان في وضع دفاعي مناسب ، فجمعوا الإمدادات والمؤن والأسلحة وجهزوا جماعة من الفرسان والقوات ، ثم تقدم الجميع صوب بانياس بقافلة ضخمة من الجمال والدواب المحملة بالمؤن والعتاد في حراسة فرسان الاسبتارية الذين كان عليهم أن يقودوا حملة كاملة إلى المدينة لتولي حراستها وتزويدها بالمؤن والسلاح ، وبكل ما يلزم للدفاع عنها فترة طويلة من الوقت (٤) .

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 256.
Cartulaire I no. 258. PP. 195-196.

وهذه الوثيقة الاخيرة تعد اقرارا من بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لهذا العطاء بتاريخ ٤ اكتوبر ١١٥٧م ولا يتعارض هذا التاريخ مع تاريخ توقيع الاتفاق علي أساس أن قرار الاتفاق مع السيد الاعلي يأتي بعد توقيعة . لأن التاريخ الاخير لو أتخذ ميعادا للتنازل فان ذلك يضعف ما اشار اليه وليم الصوري بعد ذلك من ان الاسبتارية نقضوا معاهدتهم مع هنفري وتركوا بانياس . أنظر : Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 53 & N. 2.

(2) Cf. Les Archives, P. 112.
(3) Cf. King, E.J.: Op.cit, P. 56.
(4) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 257.

ابن القلانسي : ص ٣٣٨- ٣٣٩ .

De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 140.

علي آية حال ما أن اقترب الاسبتارية بقافلتهم من بانياس ، حتى أوقعت بهم قوات المسلمين الكامنة لهم في الطريق والتي كانت علي علم بقدومهم (١) بقيادة نصرة الدين أمير ميران { أخي نور الدين } في يوم الأحد ٢٤ أبريل(أو ٢٦) ١١٥٧م/١٣ ربيع الأول ٥٥٢هـ قريبا من رأس الماء (٢) وكانت عدة الاسبتارية ، بمن معهم من السر جندية والداوية ، سبعمائة فارس سوي الرجالة وقد خرج لمقابلتهم من كان في بانياس من أعضاء الجماعة لحمايتها فوقعوا هم الآخرين في كمائن الأتراك ، وجالت الحرب بينهم واتفق اندفاع المسلمين بين أيديهم في أول الأمر كخدعة عسكرية لاستدراجهم إلي موقع الكمين ، فتعقبهم الاسبتارية وظهر عليهم " الكمناء " فجأة للفتك بهم " فتحكمت من رؤوسهم ورقابهم مرهفات السيوف بقوارع الحمام والحتوف ، وتمكنت من أجسادهم مشرعات الرماح وصوارم السهام بحيث لم ينج منهم إلا القليل ممن ثبطه الأجل وأطار قلبه الوجل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح ، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وعدد سلاحهم وكراعهم وأموالهم وقراطيسهم وإسراءهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحصي كثرة " (٣) .

ولم يكن بخاف علي المعاصرين أن هذه النكبة التي حلت بالاسبتارية كانت انتقاما لحنث الصليبيين بوعودهم ونقضهم " عهود الموادعة " بما فعلوه برعاة العرب والتركمان في شعر بانياس (٤) أما العرب المسلمين فقد ابتهجوا بهذا النصر وعبروا عن فرحتهم بأخذ الثأر لرعاتهم

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 257.
De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 141.

(٢) أنظر : ابن القلانسي : ٣٣٨- ٣٣٩.

Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 53 & N. 1.
King, E.J.: Op.cit, P. 56 & N.2.
Deschamps, P. : La defense du Royaume de Jerusalem. Tome II, P. 156.

(٣) ابن القلانسي : ص ٣٣٩
ابو شامة : ج١ ، ص١٠٧.
العيني : ج١٦ ورقة ٢٨١.

(4) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 256.
حيث يذكر " ان الله لم ينسي لهم { للفرنج } هذه الخطيئة فكان ما تعرضوا له من عقاب " ومما نظم من شعر في هذا الصدد :
نقضوا { أي الفرنج } هدنه الصلاح بجهل — بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم بمن كان فيه — من فساد بجلهم واعتداء
ابن القلانسي : ص ٣٤٢ .

" فحملوا الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلي دمشق وطافوا بهـم حيث اجتمع لمشاهدتهم خلق كثير " (١) .

ويذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن الاسبتارية بعد هذه الكارثة تخوفوا من أن يدفعوا الثمن في نكبات أخرى مشابهة ، فتحللوا من الاتفاق الذي وقعوه مع همفري دي تورون وعادت بانياس بأعبائها وإيراداتها إلى الكند سسطبل (٢) وبرغم ذلك فان فرسان الجماعة الذين نجوا بأعجوبة من وقعة رأس الماء لحقوا بإخوانهم الذين ظلوا مقيمين في بانياس وقلعتها للدفاع عنها ريثما يأتيهم المدد الذي تعرض لهذا المصير ، ولم يتخلوا عن مهمتهم بل انتظروا في بانياس يتحينون الفرصة للانتقام لما أصاب إخوانهم في الوقت الذي كان نور الدين قد جهز العسكر وآلات الحرب ونزل علي المدينة لحصارها " وهي منهكة القوي علي اثر الكارثة " (٣) ورغم استبسال همفري دي تورون وبقية الفرسان الاسبتارية في المقاومة والدفاع عن المدينة إلا انهم لم يستطيعوا الحيلولة دون وقوعها في أيدي نور الدين وقواته (٤) " بالسيف قهرا " في ١٩ مايو ١١٥٧م/١٠ ربيع الآخر ٥٥٢هـ (٥) فانسحبوا غلي القلعة التي كانت مجهزة بأسلحة ومؤن تكفي مقاومة الحصار لفترة قصيرة (٦) واستطاعوا التصدي للهجوم الموجه ضدها (٧) .

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 256.

ابن القلانسي : ص ٣٣٩.

(2) Cf. William of Tyre : Vol. II , P. 257.

(3) Idem.

أيضا : ابن القلانسي : ص ٣٤٠.

(4) Cf. Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 53.
Also: King, E.J.: Op.cit, P. 56

وعن كيفية المقاومة والدفاع عن بانياس انظر :

William of Tyre : Vol. II , P. 257-258.

(٥) ابن القلانسي : ص ٣٤٠- ٣٤١ ، ابو شامة : ج١ ص ١٠٧ .

(6) William of Tyre : Ibid, P. 258.

(7) Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 53.

وفي هذه الأثناء كان بلدوين الثالث في طريقة لنجدة بانياس في حشد من فرسان الفرنج ورجالتهم (١) فيه جماعة من الفرسان الاسبتارية الذين أتوا لإنقاذ إخوانهم المحاصرين في القلعة والانتقام لمن نكب بهم المسلمون عند رأس الماء ، لكن نور الدين لم يشأ التورط في صدام مباشر مع الفرنج فرفع الحصار عن قلعة بانياس بعد أن ألحق بالمدينة الخراب (٢) .

وبعد أن اصلح الملك الصليبي الثقوب ورمم أسوار بانياس زودها بالإمدادات وجعل المكان في حالة دفاعية جيدة وترك فيها حامية (٣) ويبدوا أن الاسبتارية ظلوا علي وضعهم القديم في الدفاع عن القلعة وجزء من المدينة بعد أن أقنعهم الملك بالعدول عن قرار الانسحاب من الاتفاقية مع الكند سطبل همفري (٤) وبينما بلدوين في طريق عودته بالجيش الصليبي وقعوا جميعا في كمين لقوات نور الدين جنوب بحيرة الحلة بعثر شملهم فأصبحوا ما بين قتيل وجريح وأسير وتائه قد لاذ بالفرار وهرب الملك الصليبي إلي قلعة صفد (٥) التابعة للداوية وهؤلاء بدورهم فقدوا في هذا الكمين ما لا يقل عن ثلاثمائة فارس ذبحوا بسيوف المسلمين ، وأسر خمس وثمانون من بينهم مقدم الجماعة ومارشال المملكة (٦) .

ويبدوا أن الاسبتارية قاموا ـ بمناوشات متكررة ـ من معاقلهم المختلفة ضد المسلمين انتقاما لما حل بفرسان الجماعة عند بانياس . فابن القلانسي يشير في حوادث نفس العام إلي ظفر أحد قادة نور الدين بسرية من الإفرنج ظهرت من المعاقل الصليبية الموجودة في الشمال وانتصار هذا القائد أيضا

---

(1) William of Tyre : Ibid, P. 258.
أيضا : ابن القلانسي : ص ٣٤١.
(2) William of Tyre : Vol. II, P. 259.
Also : Le Roulx, J.D. : Op.cit, P. 53.
(3) William of Tyre : Idem.
(4) Cf. Prawer, Joshua, Op.cit. P. 132.
(5) William of Tyre : Vol, II, PP. 260-261.
Also: Conder, C.R.: The Latin Kingdom of Jerusalem P. 115.
(6) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. PP. 141-142.
Also: King, E.J.: Op.cit, P. 57.

علي سرية صليبية أخري تزيد علي مائة فارس قريبا من هونين (١) فالصدام مع هذه السرايا في مناطق قريبة من حصن الأكراد وهونين وهما من القلاع التابعة للجماعة في ذلك الحين يدفعنا إلي الاعتقاد بأن سرايا الصليبيين ضمت قوات حاميات الاسبتارية المتمركزة في هاذين الحصنين ، وفي نفس الوقت اتخاذهما كمركز للتجهيز لهذا الهجوم الذي خططوا له . هذا إلى جانب أن خروج الصليبيين في هذا العدد الصغير الذي قدره ابن القلانسي بمائة فارس يدل علي الرغبة في تنفيذ عمليات انتقامية خاطفة قادها رجال الجماعة ضد المناطق المجاورة لهم ، ومن المحتمل أن يكونوا قد تشجعوا بالزلازل التي خربت البلاد الشامية في الشمال وكان من بينها حصن الأكراد حيث الإشارة إلى أن نور الدين قام " بالإغارة علي الفرنج ليشغلهم عن قصد البلاد " (٢) .

وعاد " المحارب الذي لا يكل " إلي حصار بانياس مرة أخري ، مما اضطر الأهالي والمدافعين إلى الانسحاب إلى القلعة بعد أن تذكروا ما حدث في الحصار السابق (٣) ، وأثبتت القلعة بحاميتها من الاسبتارية أنها صعبة المرام (٤) ، فأجبر نور الدين علي رفع الحصار خصوصا بعد علمه بخروج الملك الصليبي بلدوين الثالث وبصحبته كونت طرابلس لنجدتها بعد أن تجهزوا لذلك في مكان بالقرب من هونين غير بعيد من المدينة المحاصرة (٥) وفي الرابع من أكتوبر

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ص ٣٣٩- ٣٤٠.

(٢) أنظر ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ج١ ص ١٧٦.
سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج٨ ورقة ١٤٠ ، ابو الفدا : المختصر ، ج٣ صحيفة ٣١ .

(3) Cf. William of Tyre : Op.cit. PP. 362-363.
والجدير بالذكر هو ان الحصار الثاني لبانياس لم نعثر علي تفاصيل له في المصادر العربية التي بين ايدينا وانما اكتفت بالاشارة الي ان نور الدين واصل جهوده في متابعة نصره المبكر علي الملك الصليبي . أنظر : ابن القلانسي : ص ٣٤٠ وما بعدها ، ابو شامة : ج١ ص ١٠٧ .

(4) Cf. King, E.J.: Op.cit, P. 57.

(5) Cf. William of Tyre : Vol, II, PP. 263-264.
وكان الذي يتولي الدفاع عن قلعة بانياس بالتعاون مع الحامية اثناء غياب همفري صهر له يدعي Guy of Scandaliun .

١١٥٧م/٢٧شعبان ٥٥٢هـ بعد أن عاد بلدوين الثالث إلي عكا أكد للاسبتارية منحة همفري دي تورون بنصف بانياس وقلعة هونين Chateau-neuf علي الجانب المقابل من الوادي واقطاعات أخري في تبنين Toron كان قد أعطاها لهم جي دي اسكاندليون Guy d`Eseandelion (١) .

وفي العام التالي ٥٥٣/١١٥٨ استؤنف الصراع بين المسلمين والصليبيين في اكثر من جبهة وظهر فيه دور الاسبتارية بشكل واضح . ففي الشمال ضايق الفرنج حصن حارم واستولوا عليه " بالسيف " ثم شنوا الغارات المتلاحقة في الأعمال الشامية " بحكم تفريق العساكر الإسلامية والخلاف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بمعقابيل المرض العارض له " (٢) وبعد أن تماثل للشفاء عاد إلي دمشق لاستئناف هجومه ضد الصليبيين الذين أطلقوا أيديهم في شن الغارات وحرق وتخريب الضياع ، وبدأ عمله في هذا الصدد بحصار إحدى القلاع الواقعة فيما وراء الأردن (٣) فسار بلدوين الثالث لملاقاته بجيش كانت فرقة الاسبتارية تشكل إحدى عناصر قوته الرئيسية رغم الخسارة الثقيلة التي ألمت بالجماعة في العام السابق ، وهذه الفرقة كانت بقيادة جاربين دي ميليـــنا (مولين Garinus de Melena , Garin de Maulne) قائد الجماعة الجديد (يناير ١١٥٨- ١١٦٣م) (٤) نائبا عن المقدم ريموند الذي كان في أوربا ، وقد دارت بين الجانبين الصليبي والإسلامي معركة عند جسر الخشب فـي الخامس عشـر من يوليو ١١٥٨/١٥جماد ثان ٥٥٣هـ بدأ

---

(1) Cartulaire I no. 258. PP. 195-196.
Also: Rohricht R. Regesta Regni No 325 PP. 83-84.

(٢) ابو شامة : ج١ ص ١١٤ .
William of Tyre : Vol, II, PP. 265-266, 269-271.

(3) William of Tyre : Vol, II, P. 272.
و لم يذكر وليم الصوري اسم هذه القلعة مكتفيا بالاشارة الي انها تقع في مقاطعة تسمي السواد Suita, Sawad علي جانب تل مرتفع شديد الانحدار { يقصد اقليم سواد طبرية } بينما ذكر الاب دي فيرتوت انها قلعة Hippas, La Grotte أي الكهف او المغارة وهي قلعة " حبيس جلدق " أنظر :
De Vertot, L`Abbe : Tome I. P. 143.

(4) Cf. Les Archives, P. 211.

الهجوم فيها فرقتي الاسبتارية والداوية ، ونجم عن هذه الموقعة هزيمة نور الدين الذي نجا من الوقوع في الأسر بفضل إخلاص حرسه الخاص(١).

وعندما أرسل نور الدين رسولا إلى مصر أخبر بأنه جرت بينه وبين الصليبيين حرب علي طبرية فكسروه ، جهز الصالح طلايع بن رزيك الوزير الفاطمي سرية ضمت خمس وعشرون أميرا أغارت علي غزة وعسقلان (٢) ويشير ابن ميسر إلي خروج سرية من مصر في هذه السنة سارت إلي بيت جبرين التابعة للاسبتارية فأغارت عليها وعادت سالمة محملة بالغنائم (٣) .وهذه كما يبدوا من سرد أبو شامة للأحداث غير السرية التي أغارت علي غزة وعسقلان (٤) كيفما كان الأمر ، فقد كان علي فرسان الجماعة المقيمين في كل من بيت جبرين وعسقلان التصدي لهذه الغارات المتعاقبة والدفاع عن المعاقل الصليبية الواقعة في الجنوب ضد العمليات الحربية للقوات المصرية ، هذا في الوقت الذي كان علي أعضاء الاسبتارية الآخرين حماية القلاع والحصون التابعة للجماعة في الشمال ، والاشتراك مع جيش المملكة الصليبية بمجموعة من الفرسان والتركبولي في حروبه مع المسلمين .

علي آية حال ، دارت في هذه السنة (١١٥٨م/٥٥٣هـ) مراسلات بين نور الدين محمود والصليبيين من اجل الصلح والمهادنة " ولم يستقر بينهما حال " (٥) إلي أن وقع الطرفان في العام

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol, II, P. 273.
Also: De Vertot, L'Abbe : Tome I. PP. 143-144.
كذلك : ابو شامة : الروضتين ،ج١ ، ص ١٢٠ .
(٢) العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ، لوحة ٢٩٦- ٢٩٧ ، ابو شامة : ج١ ، ص١١٥.
(٣) ابن ميسر : اخبار مصر ، ج٢ ، ص ٩٧ .
(٤) أنظر : ابو شامة : ج١ ، ص ١٢١- ١٢٢. وقد ذكر أن هذه السرية اغارت علي ناحية العريش من الكفار بحيث استولي عليهم القتل والاسر والسلب ...
(٥) ابو شامة : ج١ ، ص ١٢١- ١٢٢ .

التالي (١١٥٩م/٥٥٤هـ) هدنة مدتها عامان (١) أستأنف بعدها نور الدين نشاطه الحربي بحصار قلعة حارم ١١٦١م/٥٥٧هـ فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة ما بها من " فرسان الفرنج وشجعانهم " كما اجتمع إليه من سائر بلاد المملكة الصليبية حشد من الفرسان والرجاله " ليرحلوا عنها " فلما رأي نور الدين أنه لا يمكنه أخذ الحصن عاد إلي بلاده (٢) وإذا وضعنا في الاعتبار أهمية حارم بالنسبة للصليبيين من ناحية موقعها في الشمال ، وأن اسبتارية حصن الأكراد كانوا أقرب مدد تستطيع الجماعة إرساله إلي هذه القلعة ، فإن اشتراك هؤلاء الفرسان في إنقاذ حارم كان ضرورة يمليها واجبهم في الدفاع عن الإمارات الصليبية ، واتخاذهم موقعهم بصفة دائمة في تشكيل الجيش الصليبي .

وفي العام التالي ١١٦٢م/٥٥٨هـ جمع نور الدين حشدا من القوات الإسلامية وعسكر في مجاورات طرابلس في مكان يعرف بالبقيعة تحت حصن الأكراد ، قلعة الاسبتارية الحصينة ومقر حاميتها القوية ، عازما علي مهاجمته ومنازلة طرابلس . وكان الصليبيون قد انضموا إلي حامية حصن الأكراد (الاسبتارية) واتفقوا جميعا فيما بينهم علي مباغتة المسلمين في وضوح النهار " لانهم يكونون آمنين " . وما أن علموا بتمركز نور الدين بقواته علي مقربة منهم في البقيعة تقدموا نحوه وفتكوا بيزك المسلمين ثم فاجأوا المعسكر النوري ، بحيث لم يستطيع جنود نور الدين ركوب الخيل أو حمل السلاح " ووضع فيهم الإفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر " ولم يتمكن نور الدين

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol, II, P. 280-281.

ورغم عدم وضوح الاشارة الي هذه الهدنه في المصادر العربية التي تحت ايدينا الا ان احداث العامين التاليين في هذه المصادر تشير الي ترجيح الالتزام بهدنه وذلك لعدم وقوع صدام بين الطرفين خلال هاذين العامين .

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١١٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٣٤ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، لوحة ١٤٨ .
ابن الوردي : تاريخه ، ج٢ ، ص ٩١ .
العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ، لوحة ٣٤٤ .

من النجاة إلا بأعجوبة . وفر في اتجاه حمص وأقام علي بحيرة قدس (١) لتجتمع إليه فلول المسلمين التي نجت من المعركة وحتى يعيد تنظيم الصفوف رغبة في الانتقام لهذه الهزيمة (٢) .

ورغم أن المكان الذي اندفعت منه قوات هذا التحالف الصليبي كان المقر الحربي للفرسان الاسبتارية ، فأن الذي قاد هذا الهجوم جيلبري دي لاسي Gilbert de lacy مقدم الداوية بمساعدة هيولوزينان وجود فري أخو كونت انجرلم Angouleme وروبرت مانسل Robert Mansel (٣) ويرجع ذلك إلي توخي الصليبيين فيمن يتولى قيادتهم في هجوم من هذا القبيل أن يكون أكثرهم كفاءة وخبرة في وقت كانت فيه جماعة الاسبتارية بصدد تعيين مقدم جديد في الشهور الأخيرة من نفس العام (١١٦٢م) هو جيلبرت الاسيلي Gilbertus d`Assaili الذي سيظهر دوره بارزا في مناسبات قادمة من هذا الصراع (٤) .

علي أيه حال ، أشتد غضب نور الدين إزاء غدر الصليبيين به وبقواته وأقسم علي أن يثأر لجيش المسلمين منهم ، لذا فقد رفض إجابة رسل الفرنج إلى طلب الهدنة الذي تقدموا به اله ، وعندئذ غادروا حصن الأكراد " وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا " تاركين القلعة (٥) في حماية الفرسان الاسبتارية وقد دعموهم بجماعة من القوات الصليبية لتيقنهم أن الحصن سيكون هدفا لعمل انتقامي

---

(١) هذه البحيرة نسبة الي قدس لحدي مدن الاردن الواقعة علي سفح جبل عاملة والبحيرة علي مسافة فرسخ من المدينة وتصب الي بحيرة طبرية ـ كما يذكر المقدسي ـ أنواع من السمك منه البني حمل من واسط . انظر : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : ص ١٦١- ١٦٢ .

(٢) أنظر : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١١٦- ١١٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٣٥-١٣٦ .
Also : William of Tyre : Vol, II, P. 306.
وكذلك : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، لوحة ١٥٠- ١٥١.

(3) Cf. William of Tyre : Idem .
Also: King, E.J.: Op.cit, P. 89.

(4) Cf. Les Archives, P. 210.
Also : Le Roulx, J.D. : Les Hospitaliers, P. 65.

(5) Cf. William of Tyre : Vol, II, PP. 306-307.
أيضا : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١١٨.
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٣٦.
العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ، لوحة ٣٥٥.

من جانب نور الدين ، لكن هذا الأخير خيب ظن الصليبيين بأن توجه لحصار حارم التي كانت هدفا لاغارات سابقة من جانبه في سبيل استردادها . وكان أن خرج لإنقاذ حارم بوهيمند الثالث أمير إنطاكية (١١٦٣- ١٢٠١) وريموند الثالث كونت طرابلس (١١٥٢- ١١٨٧م) والأمير ثوروس الارمني وقسطنطين كالومانوس حاكم قيلقيا البيزنطي وفرقة قوية من الاسبتارية والداوية ، أما ملك بيت المقدس عموري الأول فقد كان مشغولا بحملته ضد مصر (١) وطبقا لما ورد في خطاب عموري بطريرك إنطاكية إلي لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧- ١١٨٠م) الذي يروي فيه أحداث حصار حارم انضمت فرقة من الاسبتارية إلي جانب كونت طرابلس أثناء مقاومة الحصار ، ومحاولات الصليبيين اليائسة للحيلولة دون سقوط المدينة والحصن في أيدي المسلمين (٢) لكن هجوم نور الدين هذه المرة كان عنيفا ، وفي خلال يومين من القتال (١٠- ١١ أغسطس ١١٦٤م/٥٥٩هـ) كثر القتل في حشود الفرنج ووقع في الأسر عدد من قوادهم وأكابرهم (٣) منهم أمير إنطاكية وكونت طرابلس ومقدم الروم روك (قسطنطين كالومار) (٤) ويصف وليم الصوري ما أصاب الصليبيين في حارم علي يد قوات نور الدين بقوله : " أن جموع المسيحيين مزقت وهؤلاء الذين كانوا منذ وقت قصير سببا للرعب بالنسبة للأتراك أصبحوا لعبة يرثي لها علي يد نفس

---

(1) cf. Rohricht, R. : Regesta Regni No. 404, P. 106
Also : Le Rolux, J .D : Op. cit, pp. 66-67.
King, E. J : Op.cit, P. 90.

(2) cf. Cartulair, I No. 330, P. 233

(٣) انظر : ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٢٢، ١٢٣.
سبط ابن الجوزى : مراة الزمان ج ٨ اللوحات ١٥٢ ، ١٥٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .
ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٣٣ .

(٤) ابن الجزرى " محمد " : ملخص تاريخ الاسلامى ، مخطوط لوحة ٥٩٢ ، ٥٩٣ .
Also : Deschamps, P. : Crac des Chevaliers P .120.

العدو ... فذبحوا بطريقة مخجلة مثل القربان أمام المذبح " (١) وسقطت حارم علي يد نور الدين وعاد معقل من المعاقل الصليبية الهامة إلي السيطرة الإسلامية (٢) وعلي اثر هذا الانتصار الذي أحرزه المسلمون أسرع صليبوا الشام كما هي العادة يستنجدون بملوك الغرب الأوربي وخصوصا لويس السابع ملك فرنسا في الوقت الذي كان فيه ملكهم قد أغرق نفسه في مشروع لغزو مصر (٣) .

وترتبط فكرة غزو مصر بالنسبة للصليبيين أساسا بسياستهم الخاصة بالحرص علي تأمين حدود المملكة الجنوبية ، ثم تطورت بمرور الوقت لتصبح ضمانا لوجودهم في الشرق اللاتيني والاحتفاظ ببيت المقدس بعد أن تيقنوا من أن مصر هي مركز الإمداد بالمؤن والعتاد والمقاتلين الذي لا ينضب معينه ، ومصدر الهجمات والغارات شبه المستمرة التي أفقدتهم كل شعور بالأمان في البقاء علي ارض الشام . وقد أدرك أهمية الاستيلاء علي مصر بالنسبة للصليبيين الملك عموري الأول (١١٦٣- ١١٧٤م) الذي كان كونتا لعسقلان منذ خضوعها للسيطرة الصليبية عام (١١٥٣م) (٤) ولمس عن قرب المتاعب والمضايقات التي كانت تسببها القوات المصرية وأسطول مصر للصليبيين ، هذا بالإضافة إلي معرفته بثرائها (٥) واضطراب أوضاعها الداخلية والتي فرضت علي حكامها اللجوء إلي إبعاد كل طامع عنها بمبلغ من المال أو ضريبة سنوية مثلما حدث علي أيام سلفه بلدوين الثالث ، فقد تعهدت مصر بدفع مبلغ من المال إلي الملك الصليبي مقابل إيقاف الهجمات

---

(1) cf. William of Tyre : Vol. II .P .307 .
(2) cf. Cartulaire , I, N o. 330 P .233 .
Also : Rohricht, R .: Regesta Regni : No . 405 P . 106
(3) cf. Cartulaire : Idem.
(4) cf. Rohricht , R ., Regesta Regni , No .332 , P . 86 .
Also : Cartulaire I, No . 232 , P . 177 .
(٥) عن الافكار التى دارت فى اذهان المعاصرين حول ثراء مصر وغناها انظر :
William of Tyre : Vol . II, PP . 313 - 314 .
De Vertot , L, Abbe : Tome I, P . 154 .

المتكررة لحاميتي غزة وعسقلان التابعتين للصليبيين والواقعتين علي حدودها الشرقية (١) .

أما عن التقارب بين الملك عموري والاسبتارية والذي جعل من هؤلاء الأخيرين حلفاء مخلصين للملك في حملاته ضد مصر فمرده اتفاق فرسان القديس يوحنا مع الملك الصليبي في إدراكه أهمية غزو مصر من خلال معرفتهم هم الأخيرين بحقيقة ما يمكن أن يأتي به هذا الغزو من مكاسب عن طريق قلعتهم القريبة من الحدود مع مصر في بيت جبرين وكذلك من عسقلان حيث الاتصال بعموري قبل تتويجه ملكا (٢) وكانت علاقتهم به ودية كما يبدو من بعض وثائق أنعم عليهم بمقتضاها بعدة اقطاعات وأقر لهم عطاءات في كونتيته (٣) وإذ كان الداوية عارضوا مشروع عموري لغزو مصر رغم كونهم اكثر قربا ومعرفة بالأوضاع هناك من خلال وجودهم في غزة فان هذه المعارضة كانت مجرد تحديا لرغبة منافسيهم الاسبتارية وحماسهم في تشجيع هذا المشروع ويرجع هذا التقارب أيضا إلي ما للاسبتارية علي عموري من أياد تمثلت في وقوف مقدم الاسبتارية Auger de Balben (Otgerius) (١١٦٠-١١٦٣م) (٤) إلـي جانبه حتـى توج ملكا لبيت المقدس ، فقد اختلف البارونات وأشرفت المملكة علي حرب أهلية لانهم أرادوا أن يكون تعيين ملك بيت المقدس بالانتخاب وليس وراثيا ، لكن مقدم الجماعة الذي اشتهر بحكمته وسعه عقله ورجاحة تدبيره ، استطاع أن يقنعهم بالعدول عن هذه الفكرة بأن خيرهم بين تتويج عموري ملكا عليهم أو أن

---

(1) cf. Ibid , PP . 155 – 156 .
Also : Le Rouix , J .D : Op . cit , P .66
King , E .J . : Op .cit , P . 87 .
(2) cf. Stevenson , W . : Op .cit , P . 186
(3) cf. Cartulaire I , No . 232 P .177 (A .D. 1155) .
No . 265 P . 200 , (A .D . 1158)
(4) Cf. Les Archives, P. 210.

يصبحوا عبيدا لنور الدين والمسلمين (١) وإذا وضعنا في الاعتبار الشعور بالعرفان الذي أعتمل في نفس الملك الصليبي إزاء موقف مقدم الاسبتارية الذي جعله مدينا للجماعة بجلوسه علي عرش المملكة الصليبية فمن السهل تفسير ما أصبح بين الطرفين من ثقة متبادلة وصدق في النوايا ظهرا علي مدي التعامل فيما بينهما ، وأيضا رغبة من جانب عموري نفسه في أن تحظى الجماعة بجانب كبير من المكاسب الاقتصادية والنفوذ إذا ما قدر لمشروعه النجاح وغزا مصر وهو أمر كان بلا شك في حسبان الجماعة وتكبدت الكثير من الخسائر في سبيل تحقيقه لان حصولها علي الممتلكات وبعض المدن الهامة في مصر - كما أقرتها لهم المعاهدة المبرمة بينهم وبين عموري - من شانه أن يوسع من دائرة نفوذها ويزيدها ثراء بما تحصل عليه من إيرادات اقطاعات لها في بلد يفيض بالخيرات ، وهكذا التقت أهداف عموري مع رغبة الاسبتارية علي صعيد السعي إلي المنفعة وتحقيق المكاسب في ظل علاقة ودية لعبت فيها المجاملات الشخصية دورا هاما .

أما في مصر قد أخذت الأمور في عام ١١٦٣م (وهي السنة التي توج فيها عموري الأول ملكا علي بيت المقدس ، واختير جيلبرت الاسيلي مقدما للاسبتارية) تتطور علي نحو أطمع الصليبيين فيها فرحل عموري بالجيش الصليبي عن مصر لكنه لم يدرك بانياس التي كانت قد سقطت هي الأخرى في يد نور الدين (٢) حيث انتهي بذلك مقام الاسبتارية في إحدى المعاقل الهامة التي تكبدت من أجل الدفاع عنها والاحتفاظ بها الكثير من الخسائر في الأرواح والأموال والمؤن . ويبدو أن كلا من عموري ومقدم الاسبتارية حينما فكرا في غزو مصر كانا قد اغفلا حقيقة ما سيكون عليه وضع أملاكهما وأيضا قواتهما الباقية في الشام والتي أصبحت تحت رحمة هجمات نور الدين .

---

(1) De Vertot, L`Abbe : Tome I. PP. 154-155.
Also : King , E .J . : Op .cit , P . 86 .

(٢) ابو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ١٣٣.
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٤٦ .
Also : Rohricht , R .: Regesta Regni : No . 411 P . 107.

ونظرا لإغفال المصادر الإشارة إلي اشتراك الاسبتارية في حملة عام (١١٦٣- ١١٦٤م) بشكل واضح ، فقد تحير بعض الباحثين في تقرير ما إذا كان الاسبتارية قد اشتركوا في حملة عموري الأولى هذه ، أم انهم كانوا مشغولين كليه بالحرب مع نور الدين في الشام . فالمؤرخ ديلافيل لي رو اعتمادا علي ما هو معروف من أن فرسان الجماعة كانوا يشاركون بالرأي العام لصليبي الشام في موقفة اتجاه مصر ، وهو ضرورة الاستيلاء عليها لضمان بقائهم في " الأراضي المقدسة " يجعل أمر خروج قوه الاسبتارية مع الملك عموري في الحملة علي مصر ممكنا ، طالما أن جيلبرت الاسيلي مقدم الجماعة كان مقيما في الشام في ذلك الوقت خصوصا وانه كان من اكبر المشجعين لهذا المشروع (١) أما ستيفنسن W.B.Stevenson فيؤكد مساهمة الاسبتارية في حملة عام ١١٦٣م علي مصر بدور فعال تحت قيادة جيلبرت الاسيلي (٢) ويضيف أ.ج . كينج أن إمكانية اشتراك فرسان الجماعة في هذه الحملة تنطوي علي ما جرت به العادة من أن فرقة من الاسبتارية كانت تخرج بصفة دائمة إلي جانب فرقة من الداوية مع الجيش الصليبي في حملاته ضد المسلمين (٣) ، وفضلا عن ذلك فان الثابت تاريخيا في مناسبات تالية هو أن الاسبتارية كانوا اكثر العناصر الصليبية اهتماما بمصر وتطلعا غلي غزوها ، كما يؤكد اشتراكهم في هذه الحملة أيضا ما قام به الملك عموري إذا أنعم علي الجماعة في العام التالي لانتهاء الحملة (١١٦٥م) بعدد من الاقطاعات وأقر لهم حصولهم علي بعض المنازل في بيت المقدس (٤) .

---

(1) Cf. Les Hospitaliers en Terre Sainto PP. 66-67, P. 70.
(2) Cf. The Crusaders in the East, P. 186.
(3) Cf. The Knights Hospitallers in the Holy Land P. 88.
(4) cf. Cartulaire I, No . 344, P .240. no. 348, P. 242. no. 355. P. 245.
Also : Diploma di Amabrico Re di Gerusalemme in Cod. Dipl, no. CXCVII P. 241.

علي آيه حال عندما غادر شيركوه مصر بعد الصلح مع عموري وشاور كان " يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها " وزاد دافعه ألي ذلك " حقده علي شاور ومما عمل معه " (١) بالإضافة إلى طمعه هو الآخر في ثراء مصر . (٢) فلما كان عام ١١٧٦م/٥٦٢هـ تجهز وسار إليها وصحبه في هذه المرة أبن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعندما وصل الديار المصرية عبر النيل عند اطفيح إلي الجانب الغربي ونزل بالجيزة . أما شاور فعندما بلغه مجيء أسد الدين راسل الفرنج " يستغيث بهم ويستصرفهم " (٣) .

وما أن علم الملك الصليبي بذلك حتى عقد مجلس الحرب في نابلس لتدبير الأمور المتعلقة بخروجه إلى مصر ، حيث تقرر علي كل فرد بلا استثناء أن يتخلى عن العشر من منقولات أملاكه في سبيل إنقاذ المملكة (٤) ثم حشد عموري كل ما استطاع حشده من الخيالة والجنود وتجمعت القوات الصليبية في عسقلان (٥) حيث بدءوا رحلتهم إلي مصر في الثلاثين من يناير ١١٧٦م/٥ربيع ثان ٥٦٢هـ " الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم " (٦) فلما وصلوها عبروا إلي الضفة الغربية للنيل ، وأقاموا معسكرهم علي مسافة مرحلتين من القاهرة ثم عقدوا مجلسا أخر للحرب قرروا فيه يعد جدال طويل وخلاف في الرأي المسير لمواجهة أسد الدين شيركوه وقواته (٧) وكان شيركوه قد سار بالقوات النورية بحذاء النيل في اتجاه الصعيد حتى بلغ مكانا يعرف بالبابين

---

(١) ابو شامة : ج١ ، ص ١٤٢ .

(2) cf. William of Tyre : Vol. II .P. 313.

(٣) ابو شامة : نفس الصفحة .
ابن شداد : النوادر ، ص ٣٧ .

(4) cf. William of Tyre : Vol. II .P. 314.

(5) Ibid : Idem .

(٦) ابو شامة : ج١ ، ص ١٤٢ .

(7) cf. William of Tyre : Vol. II .P. 317.

عند الاشمونين إحدى قري المنيا (١) فسارت العساكر المصرية بقيادة الوزير الفاطمي شاور والفرنج من ورائهم في مطاردة لقوات أسد الدين حتى أدركوه (٢) وتقابل الطرفين عند المكان السالف الذكر في معركة كان النصر فيها حليف القوات النورية وأن كان غير حاسما (٣) .

وبعد مطاردات واشتباكات بين الجانبين في البلاد المصرية وخصوصا أمام الإسكندرية (٤) دارت المراسلات بينهما من أجل الصلح بعد أن استدعت ظروف كل من عموري وشيركوه العودة إلي الشام (٥) وقد بذل شاور لاسد الدين ألف دينار سوي ما أخذه من البلاد فوافق علي الصلح بشرط الا يقيم الفرنج بمصر أو يتسلمون منها قرية واحدة ، كما تعاد الإسكندرية إلي المصريين فأجابه شاور إلى هذه الشروط ، أما الصليبيون فقد استقر بينهم وبين المصريين في الرابع من أغسطس ١١٧٦م/ منتصف شوال ٥٦٢هـ أن يكون لهم بالقاهرة " شحنة " (٦) وتكون أبوابها بيد فرسانهم حتى يحولوا دون دخول عساكر نور الدين فيها ، كما جعل شاور للفرنج مائة ألف دينار سنويا من إيرادات مصر ، وعاد عموري بقواته إلـــي الشام تاركا جماعــــة من الفرسان الصليبيين والقواد " بمصر والقاهرة علي القاعدة المذكورة " (٧) .

---

(1) Ibid : P. 332.
ايضا العيني : ج١٦ ، لوحة ٣٩٥ .
(٢) ابو شامة ، ج١ ، ص ١٤٢ـ ١٤٣ .
(٣) عن تفاصيل موقعة البابين أنظر :
William of Tyre : Vol. II .P. 332.
ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٢ـ ١٣٣ .
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، اللوحات ١٦٧ ــ ١٦٨ .
العيني : ج١٦ ، لوحة ٣٩٣ـ ٣٩٤ .
(٤) عن تفاصيل حصار الاسكندرية انظر : William of Tyre : Vol. II .PP. 337-339.
ايضا : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٤ .
(٥) في خطاب الملك عموري الي هيو صاحب قيساريه الذي وكل اليه امر التفاوض مع شيركوه عبر الملك الصليبي عن رغبته في العودة بسبب " واجبات منتظره في الوطن الصليبي " خصوصا وأن الحظ لم يحالفه في تحقيق غرضه وهو امتلاك مصر التي جذبته بثرائها . أنظر: cf . William of Tyre : Vol. II .P. 332.
اما اسد الدين شيركوه فقد رغب في الصلح لضعف عسكره بسبب " مواقعة الافرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد " انظر ابن شداد النوادر ، ص ٣٨ " .
(٦) الشحنه هو نائب السلطان في البلد ، ومن يقوم مقامه من ضبطها وتصريف شئونها . أنظر :
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٩٥ ح٢ .
(٧) عن شروط الصلح بالتفصيل أنظر : William of Tyre : Vol. II PP. 340-341.
ايضا : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٤ ، ابو شامة ، ج١ ، ص١٤٣ .

وفي ثانيا الأحداث والمواقف المتعلقة بهذه الحملة لم يقدم المؤرخ وليم الصوري تفاصيلا تساعد علي التعرف علي دور الاسبتارية فيها مثل مجالس الحرب التي عقدها عموري لتقرير خطط العمل المناسبة للظروف الماثلة أمامه ، وأول مجلس عقده كان في نابلس وعلي غير المعتاد لا توجد إشارة إلي الأعضاء الذين ضمهم هذا المجلس ، والمعروف أن مثل هذا المجلس ومجالس أخري أكثر منه أهمية كانت لا تخلوا من وجود مقدم الاسبتارية وزميلة مقدم الداوية هذا بالإضافة إلي أن نقطة تجمع القوات كانت عسقلان حيث يوجد حصن للجماعة في المدينة كان معروفا لدي المؤرخـــين العرب " ببرج الاسبتار " وأيضا علي مقربة من قلعة بيت جبرين الاسبتارية . وإذا كنا نلتمس العذر للمصادر العربية التي اعتادت عدم تحديد العنصر الصليبي المحارب واكتفت بـــنعتهم جمـــيعا " بالفرنج " فيما عدا مناسبات برز فيها دور الجماعات بشكل ظاهر ، فان المؤرخ الصليبي أهمــل - هو الآخر - الإشارة إلي هذا الدور لشعوره العدائي إزاء الجماعات الدينية العسكرية وخصوصا الاسبتارية والذي من الممكن أن نستشفه من وصفة لنزاعهم الشهير مع البطريرك وكذلك من إشارته العابرة إلي دور الجماعة في الحملة التالية والتي تناولها بالقدح وإلقاء كثير من اللوم والتبعات علي مقدم الاسبتارية - وهو ما سنذكره في موضوع تال - ولا يبقي بعد ذلك إلا البحث في سياق أحداث حملة ١١٦٧م وأحداث أخري معاصرة بطريق التحليل والمقارنة عن دور فرسان القديس يوحنا مهما كان ضئيلا إذ انه موضوع هذه الدراسة وأيضا مقدمة لاهتمامات تالية اكثر بعدا ، ففي خطاب عموري إلي هيو صاحب قيسارية ما يدل علي أن في صحبته فرسان أتوا إلي مصر رغبة في الحصول علي مكاسب (١) وتوحي نصوص اتفاقية عموري مع الاسبتارية في العام التالي بأن الفرسان الاسبتارية كانوا يسعون من أجل هذا الغرض ، كما أن ما بذله لهم في مصر يدل علي أنه حدد وفقا لاهتمامات نشأت لدي الجماعة مـــن خلال اشتـــراكها فـــي الحملتيـــن

(1) William of Tyre : Vol. II .PP. 339-340.

السابقتين وخصوصا حملة عام ١١٦٧م السالفة الذكر نظرا لتوغل القوات الصليبية فيها إلى دواخل مصر جنوبا وشمالا فكان التعرف علي المدن الرئيسية ومعدلات إيراداتها وخلافه .

كما أن رغبة الاسبتارية في أن يكونوا أصحاب الفضل في نجاح مشروع رفض منافسوهم الداوية بعد ذلك الاشتراك فيه لابد وأنها دفعتهم إلى الإسهام في كل مراحله وحملاته مهما كانت ظروف الجماعة ، وسواء كان المقدم مقيما في الشرق أو في مهمة في الغرب ، فمن غير المعقول أن يتوقف اشتراك الاسبتارية في حملة عموري علي وجود جيلبرت الاسيلي ومصاحبته للملك الصليبي كما تراءى للبعض (١) لأن خروج قوة فرسان الجماعة مع الجيش صليبي من الممكن أن يتولي قيادتها من ينوب عن المقدم أو أحد القادة العسكريين مثل المارشال خصوصا وأن هذه القوة كانت تعمل تحت قيادة اعلي يمثلها ملك بيت المقدس - وهو ما حدث بالفعل في مناسبات تالية - ....

ويمكن القول بأن الفرقة التي اشتركت بها الجماعة مع عموري هذه المرة تشكلت سريعا من بعض أفراد حاميتي الاسبتارية المقيمين في عسقلان وبيت جبرين بسبب الظروف العاجلة التي فرضت علي عموري عدم التواني في الخروج إلى مصر (٢) ولا تمنع ضآلة الدور الذي أسهمت به هذه الفرقة من الإشارة إليه كلية أو إغفاله ، بل أن بعض الباحثين يرجح بأن معظم فرسان الحامية التي تركها عموري في مصر في المرة السابقة ، ويقدرون بثلاثمائة وأربع وسبعون فارسا كانوا من الفرسان الاسبتارية والداوية (٣) .

(1) Cf. Le Rouix , J .D : Op cit, PP .67-69.
(2) Cf. De Vertot, L`Abbe : Tome I. P. 164.
(3) Cf. King , E .J . : Op .cit , P . 91 .

يضاف إلي ذلك العمليات الحربية التي قام بها نور الدين في نفس السنة (١١٦٧م/٥٦٢هـ) ضد بعض المعاقل الصليبية في الشام ومعظمها كان للاسبتارية وقد يبدو ذلك أمر طبيعي في سياسة نور الدين التي يتبعها لتخفيف ضغط الهجوم الصليبي علي مصر إلا أن تركيزه في هجماته علي حصون تابعة للجماعة يكشف النقاب عن رغبته في الانتقام من أعضائها الذين يشجعون كل عمل عدائي ضد المسلمين وخصوصا شهرتهم بين الصليبيين والمعاصرين بأنهم كانوا أكثر العناصر الصليبية تأييدا للملك الصليبي في مشروعه ضد مصر ، فقد اجتاز نور الدين بعسكره حصن الأكراد " حيث أغاروا ونهبوا وسبوا " وقصدوا عرقه وحاصروها وخربوا جبلة ثم ساروا إلي بانياس وقصدوا هونين فانهزم من به من الصليبيين والاسبتارية " فأخربوه " فقصده نور الدين وهدم سوره بالكامل (١) هذا بينما لم تسلم أيضا الإمارات الصليبية في الشمال من هجماته العنيفة ويبدوا إنها كانت اشد خطرا علي أمير إنطاكية الذي اخذ يوطد أقدام الجماعة في إمارته ليضمن حليفا يتحمل معه عبء الدفاع عن الأمارة فأعطي الاسبتارية أواخر عام ١١٦٧م العديد من الأراضي والاقطاعات في إنطاكية ثم وقع معهم اتفاقا في يناير ١١٦٨م نص علي إلا يوقع الأمير هدنة مع المسلمين أو معاهدة سلام إلا بموافقة الاسبتارية ، كما تخلي لهم كليه عن نصيبه في الغنائم التي يحصلون عليها من الحروب مع المسلمين في نطاق إمارة إنطاكية أو علي الحدود (٢) .

(١) ابوشامة : الروضتين ج١ ص١٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٥٢- ١٥٣.
ابن الوردي : تاريخه ، ص ١٠٣ ، العيني : عقد الجمان : ج١٦ ، ورقة ٣٩٠- ٣٩١ .
وايضا هونين تابعة للاسبتارية منذ عام ١١٥٧م ، انظر ما سبق وايضا :
Cartulaire I, No. 258, PP .195-196.
Also : Deschamps, P. : Op.cit. P. 120.

(2) Cf. Diploma di Boemondo Principe d'Antiochi in cod. Dip. No. XLIII P. 43.
Also: Cartulaire I, No. 391, PP .266-268.
Les Archives no. XXVIII, PP. 111-112.

وعلي الجبهة المصرية أخذت حملات عموري بعد عام ١١٦٧م شكلا تنظيميا اكثر عن ذي قبل ، حيث وضع الملك الصليبي خططا لتدعيم قوة الجيش الصليبي ووضعه علي أقصى درجات الاستعداد تحدوه رغبة قوية في أن ينجح في الاستيلاء علي مصر هذه المرة بعد أن ازداد الشعور بأهميتها بالنسبة للأراضي المقدسة ، وما اشتهرت به من ثراء عريض وخيرات وفيرة كان فيها إغراء لهم لم يستطيعوا مقاومته خصوصا بعد أن سهل لهم غزوها واطلعهم علـــي أحوالها الداخلية " الحامية " أو " الشحنة " التي تركها عموري هناك عندما عاد من مصر في الحملة السابقة ومن بين أفرادهـــا - كما يفتــرض البعض - فرسان مـــن الاسبتارية ، فارسلوا إلـــي عموري يستدعونه " لتملك البلاد لخلوها من مانع عنها وسهلوا أمرها عليه " (١) ورغـم ذلك فــقـد تردد الملك الصليبي في الخروج إليها ظنا منه بأنها " طعمه " توقعه في حبائل خطر نور الدين . و أفضى بهذه الهواجس التي تملكته إلى فرسان الفرنج وذووا الرأي والتقدم (٢) وكان علي رأس هؤلاء جيلبرت الاسيلي مقدم الاسبتارية (١١٦٣- ١١٧٠م) (٣) الذي استطاع بلباقته أن يبعث الثقة في نفس الملك الصليبي ويحفزه للقيام بتنفيذ مشروع غزو مصر معددا له المزايا التي من الممكن أن تتحقق علي اثر الأقدام علي هذا المشروع الخطير (٤) ويؤكد ذلك المؤرخ الصليبي وليم الصوري بقوله " أن جيلبرت الاسيلي كان المحرك الأول أن لم يكن المخترع لهذه الحملة ذات المصير السيئ " (٥) ويتردد البعض فـــي التقرير بأن موقف مقدم الاسبتارية هذا كان منطويا علي الاهتمامات الشخصية

---

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٥٥- ١٥٦.
(٢) ابو شامة : الروضتين ج١ ص ١٥٤ .
ابن الاثير : المصدر السابق ص ١٣٧- ١٣٨ .
ابن واصل : المصدر السابق ص١٣٧- ١٣٨ .

(3) Cf. Les Archives, P. 210.
(4) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. PP. 166-167.
(5) William of Tyre : Vol. II .PP. 350.
ويضيف لنا معلومات عن شخصيته بانه " كان رجلا ذا روح عاليه كريم للغايه لكنه كان مزعزع الشخصية كثير التردد .

للجماعة نحو مصر ، والرغبة في تحقيق المزيد من المكاسب ، مفضلا اتخاذ موقف متحفظ علي أساس أن الامتيازات المفيدة للاسبتارية قد تصبح وهما في حكم الخيال أو مفيدة للغاية بقدر لا يتناسب مع عدد ضحايا الجماعة وخسائرها وهو ما تفرضه عليهم المشاركة العسكرية التي وعدوا عموري بها (١) ورغم ما حدث بعد ذلك بأن القي أعضاء الاسبتارية باللائمة علي مقدمهم الذي أقحمهم في مشروع خاسر بعد أن أدوا دورهم فيه حتى النهاية ، لكننا لم نقابل في تاريخهم بتفكير أو حرص يفوق الحد من جانب المقدم أو المجلس يضع في الحسبان الضحايا قبل تقرير المشاركة في حملة أو مشروع ما ، بل المعروف أن جل اهتمامهم كان منصبا علي النتائج التي يتوقف عليها إقدامهم علي تقديم المساعدات طالما أن فيها مزيد من الممتلكات والجاه ومجد يبرزهم علي منافسيهم من الجماعات الأخرى ، ومن الممكن تلمس هذا الاتجاه فيما ذكره جيلبرت عن المزايا التي تتحقق للجماعة بامتلاك بلبيس في خطابه الذي ألقاه أمام مجلس الاسبتارية العام (٢) هذا بينما رفض الداوية الاشتراك في هذه الحملة بحجة أنهم لم يكرسوا أنفسهم إلا للدفاع عن الأراضي المقدسة وقبر المسيح دون الخروج في مغامرات خارجية ، وإذا ما استعرضنا موقف هذه الجماعة في مناسبات سابقة أو أخرى لاحقة لا نجد لهذا التبرير ما يسوغه ، والمعروف أن هذه الرفض ناتج عن أن منافسيهم الاسبتارية كانوا المتزعمين لفكرة الخروج إلى مصر والمحرضين علي القيام بهذه الحملة (٣).

(1) Cf. Le Rouix , J .D : Op cit, P .70.
(2) Cf. De Vertot, L'Abbe : Op.cit, Tome I. P. 167.
(3) Cf. William of Tyre : OP.cit, Vol. II .PP. 350-351.
Also : De Vertot, L'Abbe : Op.cit, PP. 169-170.

علي آية حال ترتب علــي تحــريض مقدم الاسبتارية وتشجيعه للملك عموري للقيام بغزو مصر ، أن قام هذا الأخير بتوقيع معاهدة مع الجماعة كي يضمن بها حجم المساعدات التي تقدمها له في هذه الحملة ، ويتأكد أيضا بمقتضاها للاسبتارية المقابل الذي تحصل عليه نظير هذه المساعدات سواء كانت امتيازات أو أملاك أو إيرادات مالية ، فقد حددت اتفاقية التحالف العسكري هذه - إذا جاز تسميتها بهذا الاسم - عدد القوات التي تضعها الجماعة تحت تصرف عموري في الهجوم المزمع علي مصر بخمسمائة فارس وخمسمائة تركبولي ، وفي نظير ذلك جعل لهم الملك الصليبي مدينة بلبيس (١) بعد الاستيلاء عليها وإيراد سنوي محدد قدرة مائه ألف بيزنط (٢) يتم تحصيلها لحساب الاسبتارية من الإقليم الواقع إلى الشمال من هذه المدينة حتى البحر (يعادل تقريبا مساحة محافظة الشرقية الحالية) هذا فضلا عن إيراد سنوي آخر قدرة خمسون ألف بيزنط يدفع عن عشرة مدن في مصر هي :ــ القاهرة ، تنيس (٣) ، ودمياط (٤) ، المحلة { جزيرة الذهب } ، الإسكندرية قوص أسوان (٥) البهنسا ، اطفيح والفيوم (٦) . وفي كل مدينة من هذه المدن كان للاسبتارية الحق فــي أن

---

(١) يصفها المقدس بانها كثيرة القري والمزارع عامرة مبانيها من الطين والمشتول كثيرة الطواحين ومنها يحمل اكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك ، وتقدر بثلاثة الاف حمل جمل كل اسبوع كلها حبوب ودقيق . أنظر أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٩٥ ، ويدل ذلك علي ثراء هذه المناطق وغناها .

(٢) البيزنط : Bezant في الاصل عبارة عن عملة ذهبية بيزنطية . وقد سميت كهذا نسبة الي بيزنطة { أي القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية } وكان البيزنط متداولا بكثرة في اوربا خلال العصور الوسطي حتي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تقريبا . ومتوسط قيمته حوالي تسعة شلنات انكليزية . انظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر ، ص ٢١٦ ، حاشية ٢ .

(٣) تنيس بين بحر الروم والنيل ، وهي جزيرة صغيرة قد بنيت كلها مدينة والبحر عليها كحلقة وبها يعمل الثياب والاردية الملونه . وبالاضافة الي ذلك فهي جبل الذهب ومتجر الشرق والغرب . انظر المقدس : احسن التقاسيم ص ٢٠١ .

(٤) دمياط : عليها حصن من الحجارة ، كثيرة الابواب وفيها رباطات كثيرة . المصدر السابق ، ص ٢٠١- ٢٠٢ .

(٥) اسوان : قصبة الصعيد علي النيل عامرة كبيرة بها منارة طويلة ولها نخيل وكروم كثيرة وخيرات وتجارات . المصدر السابق ص٢٠١ .

(٦) الفيوم : جليل به مزارع الارز الفائق والكتان ولها قري تسمي الجوهريات ، المصدر السابق نفس الصفحة . وكل ذلك يشير الي اهمية المدن التي خصصها عموري للاسبتارية بمقتضي المعاهدة المذكورة .

يتسلموا عند الاستيلاء عليها احسن منزل واحسن قصر بعد تخصيص بيت وقصر الملك الصليبي ويقومون أيضا بجباية العشر عن كل الأراضي التي احتلها الصليبيون (١) بالإضافة إلى ذلك فان لأعضاء الجماعة الحق في غنيمة الحرب وفقا للقواعد المعمول بها فيما بين الصليبيين بعضهم و بعض بعد خصم نصيب الملك منها ، وبنفس هذه القواعد كان لهم الحق أيضا في التعويضات التي يدفعها العدو { يقصد المسلمين } أو الغرامات الحربية التي تفرض عليه بعد هزيمته ، أو الغنيمة التي يتم الاستحواذ عليها من موقع يحارب فيه فرسان الاسبتارية وكان قد عهد بهذا الموقع إلى بيرقهم وحده ، فمن حق الجماعة الحصول علي هذه الغنيمة كاملة دون تقسيم ما عدا حالة واحدة هي إذا كان الملك الصليبي قد حارب في صفوفهم فله وحده حق مشاركتهم فيها (٢) .

وبعد تحديد المستحقات علي النحو السابق نص الاتفاق علي أن تتولى الجماعة تسليح وتجهيز الفرقة التي تمد بها عموري ، وفي حالة النقصان أو الزيادة في عدد محاربي الاسبتارية المتفق علي تجهيزهم (وهم خمسمائة فارس وخمسمائة تركبولي) أو في معداتهم فأن الامتيازات السابقة الممنوحة إليهم ولابد وأن تقل أو تزيد بنفس النسبة وعلي أساس قوات الجماعة التي انضمت فعلا إلي الجيش الصليبي لمساعدة عموري ، ووقع الاتفاق بهذه الشروط في الحادي عشر من أكتوبر عام ١١٦٨م (٣) .

---

(١) انظر بنود المعاهدة بالتفصيل في :

Cartulaire Tome I, No. 402, P. 275.

Also : Lettera di Amalrico, quinto Re di Gerusalemme Latinom in Cod. Dip. No. XLVII P. 48.

ومختصرة في : Rohricht , R .: Regesta Regni : No . 452, P. 118.

(2) Ibid : Idem.

Also : Le Rouix , J .D : Op cit, PP .70-71.

(3) Cf. Cartulaire I, No . 402, PP .275-276.

Also : King, E .J. : Op.cit, P. 94 .

وقد لعب جيلبرت الاسيلي دورا كبيرا سانده فيه الملك الصليبي من أجل إقناع أعضاء الجماعة لوضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ ، ففي المجلس العام الذي انعقد لتقرير هذا الأمر استعرض جيلبرت اهمية بلبيس وميزتها بالنسبة لدفع خطر الغزو عن الجماعة ، وانه في حالة ازدياد خطر هجمات التركمان من الممكن بالنسبة لهم أن ينقلوا مقر الاسبتارية إلي تلك المدينة ، لكن عرضه قوبل بالمعارضة من جانب عديد من الاسبتاريين القدامى الحاضرين في المجلس والذين يرون أنهم لم يجعلوا للخروج في غزوات ، وأنما كرسوا أنفسهم للدفاع عن الأراضي المقدسة . وبالرغم من ذلك فان بقية أعضاء الجماعة ، خصوصا أصدقاء المقدم وهؤلاء الذين اكتسبهم الملك الصليبي بنفسه إلي جانب المؤيدين أعلنوا الخروج من اجل الحرب علي أساس أن الحرب ضد التركمان أو المسلمين - حسب مفهومهم في هذا التقسيم - هي حرب ضد " الكفرة " علي حد سواء (١) .

وبالنسبة لكل هذه الإجراءات اكتفي وليم الصوري بالإشارة إلي أن مقدم الجماعة انفق أموالا ضخمة في الحملة علي قاعدة من التفاهم تمت مع الملك الصليبي عموري علي انه إذا ما أخذت مصر وأخضعت تصبح بلبيس بكل إقليمها ملكا لبيت الاسبتارية إلى الأبد (٢) ويذكر البعض أن التجاء عموري إلى الاعتماد علي هؤلاء الأخيرين كحلفاء له في مشروع غزو مصر كان أمرا مجبرا علي القدوم عليه بحكم الحالة التي كانت عليها الأوضاع في أوربا آنذاك ، والتي حالت دون وصول المساعدات من الغرب ممن أرسل إليهم الملك الصليبي خطابات بهذا الشان ، فلويس السابع كان في حرب مع هنري الثاني ملك إنجلترا بينما هرب البابا اسكندر الثالث من إيطاليا علي فرنسا

(1) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. PP. 167-168.
(2) Cf. William of Tyre : Vol. II .PP. 350.

فرارا من وجه الإمبراطور فريدريك الأول وكان الإيطاليون مشغولين بالحرب بين الجنوية والبنادقة أما البيزنطيين فلا يعتمد عليهم وقد فشلوا في إرسال أسطولهم (١) .

علـــي أية حال مـــا إن وافق أغلبيـــة أعضاء الجماعة علي الاشتراك في هذه " المغامرة الجديدة " ـ كما سماها البعض ـ (٢) حتى بادر المقدم جيلبرت الأسيل بتدبير النفقات اللازمة لإعداد فرقة الفرسان والتركبولي وإمدادها بالمؤن والعتاد ـ حسب المتفق عليه ـ فبذل ما كان في خزانة الجماعة من أموال وزاد علي ذلك بأن أقترض من بنوك فلورنسا وجنوه (٣) ويذكر وليم الصوري إن ديون الاسبتارية بلغت من جراء ذلك مائة ألف قطعة من الذهب (٤) واستطاع جيلبرت أن يحشد بهذه الأموال قوة ضخمة مزودة بكل معدات القتال والمؤن اللازمة ، وانضم إلي هذه القوة عددا كبيرا من المتطوعة ممن جذب مسامعهم ما تردد عن الثروات الموجودة في مصر (٥) لذلك فأن فرقة الاسبتارية التي انضمت إلى جيش عموري تجاوزت حجم القوة المتفق عليها في المعاهدة (وهم خمسمائة فارس وخمسمائة تركبولي) وبالتالي كان علي الملك الصليبي أن يضيف إلي امتيازات الاسبتارية التي خولها لهم في مصر ما يتناسب مع القوة الزائدة عن هذا العدد (٦) مما يدل علي أن الجماعـــــة كانت طامعة في مزيد من الامتيازات والأملاك في البلاد المصرية المعروفة بوفرة خيراتها .

---

(1) Cf. Conder, C,R.: OP.cit, P. 126 & N.1.

وعن الاحوال في اوربا في هذه الاثناء انظر :

سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ، ج١ ، الصفحات ٢٥٧، ٢٥٨ ، ٣٨٠ ، ٤٧٢ .

(2) Cf. Mayer, H.E.: Op.cit. P. 122.

(3) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 169.

(4) William of Tyre : Vol. II .P. 350.

(5) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 169.

(٦) انظر ما سبق وأيضا :

Cartulaire Tome I, No. 402, P. 275.

وبعد أن اعد الملك عموري العدة وحشد قواته قرر الاتجاه صوب مصر (١) وقد أظهر أنه قاصدا الشام وبالتحديد مدينة حمص (٢) من قبيل التمويه علي نور الدين حتى لا يعاجلهم بإرسال نجدة إلي " الديار المصرية " وهو ما كان يخشاه عموري والصليبيون لان ذلك من الممكن أن يعرقل جهودهم ويضيع عليهم فرص النجاح في الاستيلاء علي هذه البلاد (٣) ثم أخذت القوات الصليبية تشكيل السير الذي احتل فيه الاسبتارية موقعهم في القلب بقيادة المقدم جيلبرت الاسيلي (٤) ثم غادر الجيش الصليبـــي عسقلان فـــي ٢٠ أكتـــوبر ١١٦٨م (منتصف محرم عام ٥٦٤هـ) وبعد حوالي عشرة أيام من المسير وصل الصليبيون أمام بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها ، وأقاموا بها خمسة أيام (٥) أصبح بعدها الملك عموري سيد المكان وملحقاته وكخطوة أولي لتنفيذ اتفاقيته مع جيلبرت الاسيلي سلم الملك الصليبي بلبيس إلي الاسبتارية (٦) ثم رحل عنها متوجها صوب القاهرة التي كان شاور قد أمر بإحراقها قبل أن يصل إليها الفرنـج وانتهت هذه الجولة بأن حصل عموري علي مائة ألف دينار أو قطعة من الذهب بذلها له خليفة مصر الفاطمي حتى يثنيه عن البلاد ، وأسرع الملك عائدا إلي بلبيس بعد أن علم بقدوم أسد الدين شيركوه علي رأس القوات النورية إلي مصر .

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II .P. 351.

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٥٤ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ، لوحة ١٧١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ، ص ١٥٦ .

(4) Cf. William of Tyre : Vol. II .P. 351 N. 12.
Also : Le Rouix , J .D : Op cit, P .72.
King, E .J. : Op.cit, P. 94.

(٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٥٤.
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ، ص ١٥٧ .

(6) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 173.
Also : King, E .J. : Op.cit, P. 95.

وفي بلبيس تزود الجيش الصليبي بالمؤن الضرورية والإمدادات وتقدم لقطع الطريق علي شيركوه ، إلا أن هذا الأخير فوت علي الصليبيين الفرصة وكان قد عبر النيل بقواته . فلم يجد الصليبيين بدا من الرحيل بعد أن أصبح الموقف في غير صالحهم ، وعادت القوات الصليبية ثانية إلي بلبيس حيث انضمت إلي حامية الاسبتاريـــة المقيمة هناك ثم أخذ الجيش الصليبي طريقة بعد ذلك في ٢يناير ١١٦٩م عائدا إلي الشام (١) وكان طبيعيا بعد أن فشلت حملة عموري في تحقيق أهدافها وهو الاستيلاء علي مصر أن تجلو حامية الاسبتارية هي الأخرى عن بلبيس وتأخذ طريقها مع الجيش الصليبي المنسحب (٢) وكان ذلك خسارة كبري للجماعة حتى وأن حصلت علي نسبة من المائة ألف دينار التي تقاضاها عموري من حكام مصر لأنها كانت ضئيلة للغاية إذا ما قورنت بما تكبدته الجماعة من نفقات لتجهيز القوات التي اشتركت بها ، هذا عدا ضحاياها الذين سقطوا صرعى في ميدان القتال ، أما المقدم جيلبرت الاسيلي فقد أصبح في موقف غاية في الحرج لأنه اغرق الاسبتارية في هاوية الديون جريا وراء مشروع علق عليه آمال كبار لتحقيق مكاسب ضخمه لكنه لم ينل شيئا من ذلك وأصبحت آماله بعد فشل حملة كهذه حظيت بقدر كبير من الإعداد والتجهيز مجرد أوهام أو سراب ومن الصعب تحقيقها إلا بمساعدة الغرب الأوربي وحلفاء أقوياء خصوصا وأنه ترتب علي الاهتمام بغزو مصر تعرض المملكة الصليبية في الشام لأخطار هجمات نور الدين والتركمان ، لذا قرر مقدم الاسبتارية أن يتدارك الموقف المنهار بان رحل إلي أوربا يلتمس النجدات

(١) عن أحداث هذه الحملة والتطورات التي وقعت بعد سقوط بلبيس في أيدي الصليبيين انظر :
Cf. William of Tyre : Vol. II .PP. 352-356.
ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨.
أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٥٤ وما بعدها .
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ، ص ١٥٧.

(2) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 176.
Also : King, E .J. : Op.cit, P. 96.

للأراضي المقدسة محاولا استنهاض الهمم للمبادرة بتنفيذ المهمة عن طريق استعراض الكوارث التي حلت بالمملكة الصليبية والأخطار التي تتهددها (١) ولاشك أنه كان يسعى جاهدا من أن يأتي عمله بثماره المرجوة لعله يستطيع عن هذا الطريق أن يغسل عاره وآلامه (٢) عن طريق تحقيق نصر علي المسلمين بمؤازرة ما يبعث به الغرب من مساعدات وقد يتيح له ذلك أيضا أن يقطع الطريق أو يوصد الباب أمام الحاقدين الذين يحاولون استغلال مسئوليه تورطه في مشروع غزو مصر مع الملك عموري للإطاحة به .

أما عموري ملك بيت المقدس فلم يلق بالا إلي هذا الفشل وأصر علي ألا يترك مصر وثرواتها طعمه في يد نور الدين الأمر الذي يشكل خطرا علي المملكة الصليبية (٣) فجدد نداؤه إلي ملوك الغرب وأمراؤه بأن أرسل في مايو ١١٦٩م سفارة ضمت أفرادا من الاسبتارية علي رأسهم جي دي موني Guido de Moun, de Mauni قائد الجماعة الأعظم (٤) وقد شغل هذا المنصب أثناء سفر جي إلي أوربا أحد أعضاء الجماعة البارزين ويدعي بونزبلان Pontius Blancus (٥) واختيار أحد كبار الموظفين العسكريين ممثلا للجماعة في هذه السفارة جدير بالملاحظة إذ أنه يبرهن علي أن الاسبتارية كانت تلعب حينذاك دورا ناجحا في مجالس حكومة المملكة الصليبية وفي إدارة عملياتها الحربية ، وإذا كان رحيل مقدم الجماعة إلي الغرب كما أكدته مجموعة وثائق الاسبتارية (٦) ثم سفر القائد الأعظم أيضا في هذه السفارة قد يوجد نوعا من اللبس أو يدفع البعض

(1) Cf. Cartulaire I, No. 404, PP. 279-280 (A.D.1169) .
(2) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I. P. 177.
(3) Cf. Rohricht, R. : Regesta Regni : No . 464, PP. 121-122.
(4) Cf. Les Archives, PP. 221-212.
(5) Ibid : Idem.
Also : Le Rouix , J .D : Op cit, P .72.
(6) Cf. Cartulaire I, No. 404, PP. 279-280.

إلي الاعتقاد بأن المهمة كانت واحدة مع الاختلاف في تحديد الشخص الذي قام بها اهو جيلبرت أم موني ، فأن المؤرخ أ.ج . كبنج قطع هذه الشكوك بقوله : " أن جيلبرت الاسيلي هو الذي فوض قائد الجماعة في هذه السفارة لمعرفته بمدي إدراك موني Mauny لخطورة الوضع بالنسبة للاسبتارية (١) .

ودون الخوض في تفاصيل ما إذا كان مقدم الاسبتارية أو قائدهم كانا موجودين في أوربا في آن واحد أو أن أحدهما سبق الآخر سواء في الرحيل أو العودة ، فأن ذلك جميعه كان تكثيفا للجهود من جانب جيلبرت الاسيلي لدي ملوك الغرب الأوربي علي أمل الحصول علي مساعداتهم في أقرب وقت ، وقد أشار ابن الأثير إلي هذه السفارة التي أرسلها الملك عموري بقوله إن فرنج الشام " كاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقليه وغيرها يستمدونهم ... وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس علي الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح " (٢) . لكن الواقع يشير إلي أن هذه السفارة لم تحقق النتائج العملية المرجوة ، فالأوضاع السياسية في غرب أوربا عندئذ لاسيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والإمبراطورية (٣) كانت لا تسمح بإرسال حملة صليبية إلي الشرق مما دفع الملك عموري إلي أن يولي وجهه شطر الدولة البيزنطية طالبا مساعدتها في تنفيذ مشروعه لغزو مصر (٤) .

---

(1) Cf. The Knights Hospitallers in the Holy Land P. 96.

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ، ج١، ط٧ ، ص ٢٦٤- ٢٧٣ .

(٤) نفس المؤلف : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ط٣ ، ص ٦٨٧ .

علي أية حال ، عاود عموري محاولاته ضد مصر في خريف عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ ، واشتركت معه القوات البيزنطية تنفيذا للاتفاق الذي كان قد أبرم في العام الماضي بين عموري والإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٣- ١١٨٠م) بعد أن يئس الملك الصليبي من وصول مساعدات الغرب له ، وهدف حملة هذا العام كان مدينة دمياط التي ظهر أمامها الأسطول البيزنطي وسفن الصليبيين في ٢٧أكتوبر / أوائل صفر ، بينما كانت القوات الصليبية قد أخذت طريق البر من عسقلان في ١٦ أكتوبر حتى وصلوا دمياط " ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك . وقد باءت هذه الحملة هي الأخرى بالفشل وعاد الصليبيون والبيزنطيون إلي مدينة صور في السابع من ديسمبر يتبادلون الاتهامات في أسباب هذا الفشل (١) .

لكن ما هو الدور الذي لعبه الاسبتارية في حملة عام ١١٦٩م هذه ؟ فالمعروف أن الملك عموري جدد لجيلبرت الاسيلي في ٢٠أغسطس ١١٦٩م الامتيازات التي جعلها لهم في مصر بمقتضى اتفاقية ١١أكتوبر ١١٦٨م في صورة أقرب منالا بالنسبة للجماعة . فبدلا من أن يكون للاسبتارية مائة ألف بيزنت علي إيرادات بلبيس والإقليم المجاور لها وخمسون ألف بيزنت علي عشرة مدن مصرية ، جعل لهم امتياز ٢٠أغسطس ١١٦٩م السالف الذكر مجموع هذا الإيراد وهو مائة وخمسون ألف بيزنت علي إيرادات بلبيس وملحقاتها (٢) علي أساس إن هـذه المـدينـة سهل

(١) عن احداث هذه الحملة بالتفصيل أنظر :

William of Tyre : Vol. II .PP. 362-370.

ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣

ابن شداد : النوادر ، ص ٤١- ٤٣ .

ابو شامة : الروضتين، ج١ ، ص ١٨٠ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٧٩- ١٨١ .

(2) Cf. Cartulaire I, No. 409, P. 283.
Diploma di Amabrico quinto Re di Gerusalemme Latino in Cod. Dip. no. XLVIII P. 49.
Rohricht, R. : Regesta Regni : No . 466, P. 122.
Revue de L'Orient Latin, Tome III, PP. 57-58.

غزوها دون المدن المصرية الأخرى وتعد أول فتوح الجيش الصليبي وهو في طريقه إلي قلب البلاد المصرية ، فهل كان ذلك مطلبا من جانب المقدم الأعظم لضمان سداد ديونه وفي نفس الوقت يتخلص من المأزق الذي وقع فيه أمام أعضاء الجماعة ، أم أنه كان خضوعا من الملك عموري لرغبات الاسبتارية الغاضبين لخيبة أملهم ، مع اقتناعه التام بأنه يعطي ما لم يمتلكه (١) .

ويبدو أن ملك بيت المقدس كانت لا تزال لديه ثقة قوية في نصر مؤكد وأنه كان صادق النيه في وعودة للاسبتارية هذه المرة والدليل علي صدق نيته أنه سلم بلبيس للجماعة في العام الماضي فور الاستيلاء عليها وفاءا لوعد سابق ، إلا أن وعده لفرسان القديس يوحنا بالعطايا في مصر هذه المرة كان غامضا إزاء ما يجب أن يقدموه من مساعدات حربية في هذا المقابل خصوصا وأن البيزنطيين كانوا شركاؤه في هذه الحملة ومن الممكن أن يكون الملك الصليبي قد تحرج من تحديد ذلك في الامتياز الجديد بسبب ما لم تأتي به مساعدات الجماعة المخلصة في الحملة السابقة من ثمار مرجوة لصالحها فاكتفي بأن يكون ذلك مفهوم ضمنا اعتمادا علي التحديد الذي ورد في اتفاقية ١١ أكتوبر ١١٦٨م وهو ما دفع بالبعض إلي التقرير بان خمسمائة فارس وخمسمائة تر كبولي من الاسبتارية كانوا نواه رئيسية لقوات عموري في حملة عام ١١٦٩م (٢) وهناك احتمال بأن الاسبتارية فقدوا كل رغبة في الانضمام إلي هذه الحملة علي أساس من النظرة المتشائمة إلي أن غزو بلبيس هو الآخر أصبح وهميا وفي حكم الخيال ، وبالتالي فقد الاسبتارية كل أمل في تحقيق المصلحة المباشرة الناجمة عن تعضيدهم لجهود عموري وهي المصلحة التي كانوا مدعوين بصفة شخصية إلي جني ثمارها الأولي (بمقتضى امتياز ٢٠أغسطس ١١٦٩م) وفـــي هذه الحال يستحيل

(1) Cf. Le Rouix , J .D : Op cit, PP .73-74.
(2) Cf. King, E .J. : Op.cit, P. 96.

انضمام قوات الجماعة مرة أخرى إلي جانب الملك الصليبي والإمبراطور البيزنطي (١) وإذا وضعنا في الاعتبار مساعي الملك عموري المخلصة لاسترضاء الاسبتارية ومحاولته إزالة أسباب الخلاف بين أعضاء الجماعة ومقدمهم والتي وصلت شكاياتها إلي البابوية (٢) هذا بالإضافة إلى استمرار اهتمام الجماعة بعملية غزو مصر كما ظهر من موقفها في مناسبات تالية ، فمن المرجح أن فرسان القديس يوحنا نبذوا ترددهم جانبا حتى لا تضيع عليهم فرصة قد تعوض ما تكبدوه من خسائر والحقوا جماعة من قواتهم بالجيش الصليبي الذي ضم حلفاء جدد هم البيزنطيون حتى يتسنى لهم ضمان الامتيازات التي جدد عموري وعوده بها ، وفي هذه الحالة كانوا في موقفهم كالمقامر الذي لم يحصل علي ما توقعه من مكسب نظير ما بذل فألحت عليه الرغبة أن يعوض ما خسر بخوض جولة أخرى أو جولات لكنه عاد منها جميعها مثل " النعامة التي ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين " (٣) ولا شك أن هذا المثل الأخير الذي أورده ابن الأثير وأبو شامة في وضع مشابه ينطبق علي الاسبتارية في موقفهم بصفة عامة من حملات عموري علي مصر ، فقد اشتركوا فيها والأمل يحدوهم في الحصول علي مكاسب وامتيازات ضخمة في مصر فأنتهي الأمر بهم وقد فقدوا الأموال والرجال دون أن يحصلوا علي شئ من هذا القبيل (٤) .

(1) Cf. Le Rouix , J .D : Op cit, P. 74.
(2) Cf. Cartulaire I, No. 403, PP. 276-279.

(٣) عن نص المثل انظر :
ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٤ .
ابو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ١٨٠ .

(4) Cf. King, E .J. : Op.cit, P. 97.
حيث يتحدث هو الاخر عن آمالهم في تحقيق منافع تعود علي الجماعة من غزو مصر . وكان رد الفعل البديل هو الدمار .

وكان طبيعيا أن تلقي تبعات هذا الفشل علي من تبني سياسة المشاركة في توجيه حملات ضد مصر طالما أن هذه السياسة لم تأتى بثمارها المرجوة ، وهذا ما حدث بالنسبة لمقدم الجماعة جيلبرت الاسيلي الذي ذكر عنه المعاصرون بأنه كان المحرض للملك عموري كـي يضع مشروعه قيد التنفيذ فقـد ترتب علي مساندته لعموري أن تورطت الاسبتارية فـي ديون تتجاوز المائتي ألف بيزنـط (أو قطعة من الذهب كما أوردها وليم الصوري) (١) ويوجد بعض المغرضين ممن ينشدون مصالح وأطماع شخصية في الجماعة وعلي رأسهم بونتيس بلانكوس Pontius Blancus الذي تولي منصب القائد أو المعلم الأعظم (٢) ضالتهم أن يستغلوا هذا الموقف للإيقاع بمقدم الجماعة في الحرج أمام أعضائها وبالتالي إما أن يطاح به أو تقيد سلطاته وذلك عن طريق الكشف عن الأخطاء التي أرتكبها جيلبرت مخالفا القواعد العامة للاسبتارية ، فبالإضافة إلي ما سببه من أزمات مالية دخل بفرسان الجماعة بعض الحروب دون أخذ موافقة المجلس العام أو استشارته وعلي اثر هذه الاحتجاجات عزم المقدم علي أن يتنحي عن منصبه ، فبالرغم من تدخل الملك عموري وبعض كبار شخصيات الجماعة والمملكة الصليبية وإلحاحهم لإيقاف بوادر الفتنه ، فقد صمم جيلبرت ألا يعدل عن عزمه وخصوصا وأن بعض ذوي الرأي في الجماعة من أعدائه اقترح وضع قيود علي سلطاته ، فخلع عن نفسه شارات الوظيفة وحل أعضاء الاسبتارية من فروض الطاعة التي اقسموها له ، لكنه قبل أن يترك مقاليد الأمور في الجماعة وينسحب جمع المجلس العام وأجري عملية انتخاب خليفة له وفقا للقـواعد المتبعـة فـي نظام الاسبتارية (٣) ورغم ذلك فلا سبيل

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II .P. 350.
Also: Le Rouix , J .D : Op cit, P. 76.
King, E .J. : Op.cit, P. 97.
(2) Cf. Les Archives, P. 212.
(٣) عن استقالة جيلبرت الاسيلي وما أثارته من اضطراب داخل صفوف الجماعة ووساطة البابا والملك ورجال المملكة الصليبية لاقرار الامور ونبذ الخلافات . انظر :
William of Tyre : Vol. II .P. 350
Also: Rohricht, R. : Regesta Regni : No . 480, PP. 126-127.

إلـي إنكار ما حققه جيلبرت الاسيلي للجماعة من تطور سياسي وحربي وتوسع إقليمي وقد عبر عن الشعور بالعرفان إزاء هذه الإنجازات توسل الملك والبارونات والبرجوازيين ورجال الاكليروس إليه بأن يعدل عن استقالته (١) وإذا كان جيلبرت قد رفض الإصغاء إلي إلحاحهم ولم يعدل عن قراره فان ذلك كان فيما يبدو صادرا عن رغبته في أن يضع حدا لانقسام الرأي الذي قد يؤدي بالجماعة إلي هاوية من الفتن الداخلية والمنازعات ، ويؤكد البعض ذلك حرصه علي اختيار خليفة له قبل أن يترك المنصب - كما سبقت الإشارة - كي يحول دون أوضاع من هذا القبيل .

كيفما كان الأمر فان نشاط الاسبتارية الحربي في الشام لم يتوقف كلية بسبب تورطهم مع الملك عموري في حملاته علي مصر بل ظلت حامياتهم مرابطة في القلاع تؤدي مهامها في الدفاع عن الحدود مع المسلمين أو عن بعض الطرق والمنافذ الهامة التي تشرف عليها تلك القلاع بعد أن أضيف إلي الجماعة في عام ١١٦٨م مسئولية الدفاع عن قلعة أخري ذات موقع استراتيجي هي قلعة كوكب الهوي (٢) فقد أصبح وضع الاسبتارية في هذه المعاقل اكثر خطورة مع اشتداد هجمات نور الدين وقواده التي كانت تهدف إلي شغل الصليبيين عـن مصـر أو الانـتـقـام من الاسبتارية حلفاء الملك الصليبي في هذا العمل العدائي ، ولـم يخـفـف عنـهـم هذا الخطر سوي الزلزال العنيف الذي حدث في بلاد الشام في التاسع والعشرين مـن يـونيـه ١١٧٠م/١٢شوال ٥٦٥هـ ودمر العديد من المدن والحصون الصليبية و الإسلامية (٣) .

---

(1) Cf. Ibid : Idem.
Also: Le Rouix , J .D : Op cit, PP. 79-80.
(2) Cf. Rohricht, R. : Regesta Regni : No . 458, PP. 120-121.
Cartulaire I, No. 398, PP. 271-272.
وكذلك الجدول رقم ١ عن قلاع الاسبتارية .
(٣) أنظر ك ابو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ١٨٤ .
Deschamps, P. Op.cit. P. 121.

وقد أنتهز هذا الظرف قسطلان Chatelain حصن الأكراد الذي تسميـــة المصادر العربية " مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد " فخرج في ثلاثمائة من فرسان الاسبتارية للإغارة علي بلاد الإسلام في إقليم البقاع فصادفهم شهاب الدين محمد بن ايلغازي بن ارتق صاحب قلعة البيرة عند لبونه Lepona علي مقربة من بعلبك في الرابع من يوليو ١١٧٠م/١٦شوال ٥٦٥هـ " فاقتعوا واقتتلوا " فانهزم الاسبتارية واكثر شهاب الدين فيهم القتل والأسر فلم يفلت منهم ألا من لا يعتد به وسار صاحب البيرة برؤوس القتلى إلي نور الدين فركب نور الدين والعسكر للقائه " وكان في جملة رؤوس القتلى رأس مقدم الاسبتارية صاحب حصن الأكراد ، وكان مـــن الشجاعة بمحـــل كبـــير " وشجي فـــي حلوق المسلمين" (١) .

وفي نفس العام عهد الملك عموري الأول في هذا العام (١١٧٠م) بصفته الوصي علي إمارة طرابلس أثناء أسر أميرها ريموند الثالث إلي الفرسان الاسبتارية بحماية حصن جبل عكار Jibel Akkar الذي كان أستولي عليه فرسان طرابلس من نور الدين أواخر عام ١١٦٩م وكذلك عرقه (Archas)Aarka (٢) وجعل لهم الحق في اخذ غنيمة الحرب مع المسلمين بأكملها علي غرار ما فعل بوهيمند الثالث أمير إنطاكية قبل ذلك بعامين مع تحفظ واحد هو إن الملك الصليبي إذا كان موجودا في الحملة فله الحق في اخذ نصيبه (٣) وقد أكد هذا العطاء ريموند الثالث بعد إطلاق سراحه في ديسمبر ١١٧٤م بمساعدة مقدم الاسبتارية وأعضاء الجماعة واعترافا منه بهذه المنة زاد

---

(١) أنظر : ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٤٥ـ ١٤٦ .
العيني : عقد الجمان ، ج١٦ ورقة ٤٥٨ .
Deschamps, P. Op.cit. PP. 120-121.

(٢) حصن جبل عكار قلعة صغيرة شمال لبنان تقع علي قمة جبلية . وتعتبر جزءا من دفاعات الحد الشمالي لكونتيه طرابلس . أنظر : Wiener, Muller : Cartles of the Crusaders P. 50 اما عرقة فمكان حصين فيما وراء مدينة طرابلس . أنظر : Burchard of Mount Sion : P. 105.

(3) Cf. Cartulaire I, No. 411, PP. 284-286.
Also: Diploma di Amabrico, quinto Re di Gerus. Latino in Cod. Dip. no. LI P. 51.

عليه بان تنازل عما يحق له من الغنيمة إذا كان مشتركا في الحرب وهو ما يعرف بنصيب اللواء Part du Drapeau الذي احتفظ به والده في اتفاقاته مع الجماعة (١) ومن ثم غدت عرقه وعكار فضلا عن حصن الأكراد المراكز الرئيسية للاسبتارية المسيطرة علي خطوط الدفاع عن الحدود الشرقية لكونتية طرابلس (٢) وعلي اثر ذلك تغير وضع الجماعة في شمال المملكة الصليبية من مجرد مالك بسيط إلى حاكم علي هذه الأراضي معترف لها بالامتيازات العسكرية . ومن السهل أدراك الأسباب التي دفعت بكل من أمير إنطاكية والوصي علي كونتيه طرابلس إلى سلوك هذا الاتجاه وقبولهما الإقلال من اختصاصاتها ، ففي ظل الأخطار التي كانت تهدد الحدود الشمالية للمملكة كان ضمان الدفاع عنها ضد المسلمين أمر علي جانب كبير من الأهمية ، لذا فكر الاثنان علي التوالي تلقائيا أن يستنجدا بمساعدة الاسبتارية مع منحها نفوذا إقليميا وسلطة سياسية يمكنها من أن تلعب الدور الملقي علي عاتقها بنجاح (٣) وقد صح ما توقعاه فلم يلبث نور الدين أن بث سراياه في العام التالي (١١٧١م/٥٦٧هـ) في كل من إمارة إنطاكية وكونتيه طرابلس ، بينما قام هو بنفسه بحصار حصن عرقه ، الذي لم يمض عام واحد علي التزام الاسبتارية بحمايته ، " وأخرب ربضه " انتقاما لغدر الفرنج بهدنة وقعوها معه (٤) ويدل ذلك بطريق غير مباشر علي مدي تقدير المسلمين لقوة الجماعة الحربية ، فيكفي مراعاتهم في هذه المناسبة ومناسبات أخرى أن يقوم بالهجوم علي حصن تابع للاسبتارية الجيش الرئيسي للمسلمين بقيادة قائدهم الأعلى .

---

(1) Cf. Cartulaire I, No. 467, PP. 319-320.
Also: Diploma di Raimondo Conte di Tripoli. In Cod. Dipl. No. LIV P. 54.
Rohricht, R. : Regesta Regni : No . 519, P. 138.

(2) Cf. King, E .J. : Op.cit, P. 93.

(3) Cf. Le Rouix , J .D : Op cit, PP. 75-76.

(٤) ابن الاثير : الكامل حوادث ٥٦٧هـ .
ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٠٣ .
العيني : عقد الجمان ج١٦ لوحة ٤٩٤ .

أما في الجنوب فأن صلاح الدين رغم انشغاله بتدعيم مركزه في مصر وقد تطلع إلى الانفراد بها (١) إلا أنه لم يتورع عن مهاجمة الحدود الجنوبية لفلسطين ، ففي ديسمبر عام ١١٧٠م/ربيع ثان ٥٦٦هـ خرج من مصر وحاصر قلعة الداروم الواقعة علي الحدود وكانت تحت حراسة الداوية بقيادة انسل دي باس Ansel de pass ، وكان رد الفعل أن أسرع الملك عموري لنجدة المعاقل الصليبية الجنوبية وإنقاذها من خطر صلاح الدين ، وخرج في صحبته مائتان وخمسون فارسا من الاسبتارية والداوية خلا ألفان من الرجالة . وقد رأي صلاح الدين أنه من الأفضل تجنب الصدام المباشر مع جيش عموري فانسحب بعيدا في جنح الظلام ، حيث هاجم غزة ونهبها ، ولكنه فشل في الاستيلاء علي قلعتها التي قاومته بقيادة القسطلان ميلو دي بلانسي Milo de plancy (٢) .

وقد شهد العام التالي (١١٧١م/٥٦٦هـ) خطوة ذات اثر كبير في الصراع الصليبي الإسلامي ، إذ أدت إلى تغيير ميزان القوي لصالح المسلمين ، فقد ترتب علي سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر وإقامة الخطبة لبني العباس السنيين سهولة الاتجاه نحو توحيد جبهتين إسلاميتين أدي تنافرهما المذهبي والسياسي إلى إتاحة الفرصة للصليبيين في احتلال الأراضي والتوسع علي حساب الإسلام ، واتخذ هذه الخطوة صلاح الدين الأيوبي الذي وضع بذلك اللبنة الأولى في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة ، توطئة لإعلان حركة الجهاد الكبرى ضد هؤلاء اللاتين من اجل إجلائهم عن البلاد الشامية (٣) .

---

(١) أنظر : ابو شامة : الروضتين ج١ ص ١٨٧ وما بعدها .

(2) Cf. William of Tyre : Vol. II .P. 350.
Also: . King, E .J. : Op.cit, P. 93.
وكذلك ابو شامة : ج١ ص ١٩٢ ، لكنه اشار الي قلعة الداروم بـ " حصن الدير ".

(٣) عن سقوط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس أنظر :
ابو شامة : الروضتين ج١ ص ١٩٣ وما بعدها .
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٥ .

كما أدت وفاة نور الدين محمود في عام ١١٧٤م إلي تفكك دولته وقيام النزاع بين أمرائه ، وقد دفع ذلك بصلاح الدين علي استخلاص الشام من أيديهم (١) وانتهز الملك عموري هذا الظرف واتجه إلى استغلال دمشق لضرب القوي الإسلامية في الشرق الأدنى (٢) إلا أنه لم يستطع المضي في هذه السياسة بسبب وفاته في الحادي عشر من يوليو في نفس العام (٣) .

وبنهاية عهد الملك عموري الأول ، يمكن القول بان الاسبتارية لعبوا دورا عسكريا هاما ، وأن كان في أول الأمر غير واضحا ، وتمثل في تقلدهم السلاح دفاعا عن الحجاج الصليبيين المقيمين في دار الضيافة والمستشفي ، وحراستهم لبعض المعاقل الصليبية ، هذا فضلا عن مشاركتهم بمجموعة صغيره من القوات في جيش المملكة الصليبية خلال عملياته الحربية ضد المسلمين . ونظرا لضآلة هذا الدور في الفترة المبكرة اللاحقة لقيام مملكة بيت المقدس اللاتينية فانه لم يحظى باهتمام المؤرخين المعاصرين مما أدي بالتالي إلي صعوبة استيضاحه من خلال كتاباتهم بشكل مباشر .

ولكن بفضل التطور السريع الناجم عن الاهتمام الذي أولته الجماعة للعمل العسكري سعيا وراء الشهرة التي كاد أن ينتزعها المنافسين لها في هذا المجال ، تبلور دور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي ليأخذ شكلا أكثر وضوحا وأهمية مما كان عليه مما جذب انتباه الصليبيين ، وفي مقدمتهم الباباوات والملوك والأمراء ، نحو قدرات الجماعة وإمكاناتها الحربية الأمر الذي ترتب عليه توليها مسئولية الدفاع عن القلاع الاستراتيجية الهامة الواقعة علي مقربة من الحدود مع المسلمين ، كما اصبح لمقدميها اليد الطولي في وضع الخطط الحربية المزمعة للجيوش الصليبية قبل

---

(١) عن وفاة نور الدين والوضع بالشام بعد وفاته أنظر :
ابو شامة : المصدر السابق ج١ ص ٢٢٧- ٢٣٠ .
ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٤٧- ٤٩- ٥٢ .
Also: William of Tyre : Op.cit,Vol. II .P. 395-396.
(٢) أنظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٧٤٠ .
(٣) عن وفاة عموري الاول : انظر :
William of Tyre : Op.cit,Vol. II .P. 395-395.

تحركها للمواجهة مع المسلمين وذلك من خلال المكانة التي يحظي بها مقدم الاسبتارية في مجالس الحرب لخبرته الواسعة بأمور الشرق ومعرفته بفنون المسلمين العسكرية ، هذا إلى جانب أنه تحت امرته فرقة من الفرسان والجند علي مستوي عال من الكفاءة القتالية بفضل التزامهم بمبداي النظام والطاعة وحماسهم الدائم للقضية الصليبية والمنطوي أساسا علي تلك الحوافز والامتيازات التي تأتيهم بين الحين والآخر من قبل المهتمين بهذا الشان .

وقد استطاع فرسان القديس يوحنا أن يضربوا المثل لهذه الصفات خلال المعارك التي خاضوها إلى جانب الصليبيين في المناسبات المختلفة سالفة الذكر ، وهو ما لم يتوفر في فرق الفرسان الإقطاعيين الذين كانت تسيطر عليهم روح المغامرة والرغبة في الحصول علي مكاسب سريعة ، لذلك أصبحت قوات الاسبتارية المحاربة في نظر القادة الصليبيين مددا يعتمد عليه في إنجاز المشروعات الحربية الخطيرة ، فاتجهوا من فورهم إلى الاستعانة بها . ولضمان مساعداتهم خولت للجماعة امتيازات واسعة النطاق ، كما عقد مع أعضائها اتفاقيات تحدد التزاماتهم في هذا الصدد والمقابل الذي يتقاضونه من قبيل المراعاة للمصلحة الخاصة ، والتي حرص الاسبتارية عليها كثيرا في معاملاتهم مع الصليبيين ، مما أدي بالتالي إلى اتساع نفوذهم وازدياد ثرواتهم . فقد تطورت إمكانية الجماعة الحربية وتزايدت علي مدي هذه الحقبة بفضل ما توفر لها من موارد اقتصادية متنوعة تتمثل فيما حصلت عليه من هبات وامتيازات ، أو استثمارات في أعمال الزراعة والتجارة .

وفيما يتعلق بالهبات والامتيازات نجد أن الاسبتارية ، بتفوقهم في أداء واجباتهم الحربية فضلا عن استمرارهم في القيام بواجبات كرم الضيافة إزاء الصليبيين الغربيين بصفة عامة ، استمالوا إليهم الكثيرين من نبلاء الغرب وفي مقدمتهم الملوك والأمراء ، وقد دفع التحمس في تقدير أعمال الجماعة البعض إلى الانخراط في صفوف أعضائها للعمل في ظل هذا النظام بينما حالت مسئوليات آخرين

دون ذلك بشكل مباشر ، فوجدوا في الإنعام علي الاسبتارية بالمنح والهدايا والهبات والامتيازات أو الإعفاءات وسيلة بديلة توفر لأعضاء الجماعة الإمكانات اللازمة للمواظبة علي أداء واجباتهم (١) .

ولم تكن الدوافع الكامنة وراء تقديم هذه المنح والعطايا تدور جميعها حول هذا الوضع بل اختلفت باختلاف الأشخاص الذين يقدمونها ، وأيضا الظروف المحيطة بالصليبيين في " الأراضي المقدسة "، فمن هذه الدوافع ما اختلط فيه الجانب الحربي بالديني مثل دوافع التقوى والرغبة في الحماية . أما بالنسبة للأمراء والبارونات بصفة خاصة فقد كان الدافع الأقوى مع تطور الجماعة هو دافع المصلحة العامة والضرورة العسكرية (٢) كذلك كان الحال بالنسبة لملوك بيت المقدس الذين لم يبخلوا علي الجماعة بمثل هذه المنح والهبات خصوصا وقد وجدوا فيها حليفا قويا يشاركهم الدفاع عن المملكة بما لديها من فرسان ومحاربين تحت السلاح بصفة دائمة يشكلون قوة لا يستهان بها في رفع مستوي الكفاءة القتالية لجيش المملكة الصليبية ، لذا أنعم هؤلاء الملوك بالعديد من المنح والاقطاعات علي الجماعة كما قدموا لها ما استطاعوا من التسهيلات والإعفاءات (٣) . وتوج ذلك بصدور عدد من الامتيازات علي يد الباباوات والأساقفة ، ومعظم هذه الامتيازات يعفي الاسبتارية من دفع الضرائب المستحقة علي أملاكها للكنيسة ، بل وتعطيها الحق في تحصيل هذه الضرائب لصالحها (٤) .

---

(١) أنظر سلسلة العطايا والهبات وكذلك الامتيازات الصادرة عن أشخاص متعددوا الدرجات والمناصب الي الجماعة منذ نشأتها حتي نهاية عهد الملك عموري في :

Cartulaire Tome I (from no I to no 467) Passim
(P. I to p> 320) ~~

(2) Cf. Cahen, Claude : Op.cit. P. 515.

أنظر ايضا الاشارات الواردة في نصوص بعض الوثائق عن دوافع التنازل أو الهبة الخاصة ببعض الاقطاعات وعلي سبيل المثال :

Cartulaire Tome I no. 585 P. 397.

(3) Cf. Cartulaire Tome I no. 296 P. 216. no. 335 P. 245.
No. 409 P. 382.
Also : Les Archives, PP. 85-86.

(4) Cartulaire Tome I nos. 29-30 PP. 28-30.
No. 392 PP. 268-269.

وقد استحوذت الاسبتارية عن هذا الطريق علي ثروات ضخمه وفرت لها إمكانيات مادية كان يفتقر إليها البعض من الأمراء والنبلاء الصليبيين ، فاتجه هؤلاء بالتالي إلى بيع اقطاعاتهم وممتلكاتهم التي اصبحوا عاجزين عن الوفاء بالتزاماتها ، ووجد الاسبتارية في شراء هذه الاقطاعات ما يساعدهم علي تحقيق فوائد مزدوجة ، فمن الممكن أن تكتمل للجماعة بملكيتها السيطرة علي إقليم أو منطقه بأسرها ، ومن ناحية أخرى يتيسر لأعضائها الاستغلال الكامل لمنافع أفاد شراؤها إقطاع أو عقار مجاور كانت تملكه الاسبتارية ، هذا بالإضافة إلى ما تجلبه تلك الاقطاعات من ريع يحقق عائد كبيرا علي إيراد الجماعة (١) .

وفي مجال الزراعة كان طبيعيا أن يتجه الاسبتاريين إلى استغلال الأراضي الزراعية التي حصلوا عليها بالطرق السابقة كملاك أو سادة إقطاعيين ، فأولوا الزراعة اهتماما كبيرا علي أساس إنها مصدرا رئيسيا للإمداد بالمؤن اللازمة لإطعام أعضاء الجماعة وضيوفها القادمين أو المقيمين بمنازلها ومنشآتها . ولم يغير الاسبتارية من الأوضاع التي كانت سائدة في العرف الإقطاعي الأوربي والخاصة بالعلاقة بين المالك والمستأجر أو بين السيد الإقطاعي وأتباعه (٢) فوفقا للطريقة التي كانت متبعة في الأملاك التي حصلوا عليها بالهبة أو الشراء كان تزرع أراضيهم ، ولم يزد علي نظام زراعة هذه الأراضي إلا ما تمتعت به الجماعة من إعفاءات أو امتيازات يحصل الناتج عنها لحسابها الخاص ، وكانت قبل ذلك تذهب إلي الكنيسة مثل عشور الأراضي أو إلي الملوك كالضرائب الزراعية المعروفة في النظام الإقطاعي (٣) .

---

(١) أنظر الامثلة علي ذلك في :

Cartulaire Tome I no 115 P. 97.

Les Archives, PP. 72-73, PP. 118-119.

(٢) عن العلاقة بين المالك والمستأجر في القانون الاقطاعي للمملكة الصليبية أنظر :

Prawer, Joshua: The Assise de Tenure and The Assise de Vent: A Study of the Landed Property in the Latin Kingdom in Ec.H.R. Vol. IV, 1951. PP. 77-78.

(3) Cf. Cahen, Claude: Op.cit. PP. 516-517.

وتبين الطريقة التي أعطى بها ريموند دي بوي مقدم الاسبتارية قطعه من الأرض في بيت جبرين عام ١١٥٣م نظاما اتبعته الجماعة في زراعة أراضيها ، فقد أعطى ريموند هذه الأرض لاثنين وثلاثين برجوازيا كان معظمهم من اصل فرنسي ، وامتد هذا العطاء ليشمل كل من يأتي للإقامة في بيت جبرين أو من حضر إليها قبل الاستيلاء علي عسقلان أي قبل التاريخ السابق وعلي كل من هؤلاء أن يدفع للجماعة سنويا ضريبة الأطيان والمكس المقرر علي إنتاج الأرض والماشية والمعروف باسم Champart (١) هذا بالإضافة إلى التزامهم جميعا بتقديم جزء من الغنيمة التي يحصلون عليها من المسلمين إلى الاسبتارية (٢) وفي وثائق الجماعة الخاصة بهذه الفترة (أي حتى عام ١١٧٤م) أشارات إلى أن الاسبتارية ممثلين في مقدمهم كانوا يعهدون بأمر استغلال بعض الأراضي والاقطاعات التابعة لهم إلى رجال الأديرة إذا كانت هذه الأراضي مجاورة لديرهم أو إلى غيرهم من الأشخاص مع الاحتفاظ بحقوق الجماعة علي هذه الاقطاعات بنفس الشروط الواردة في امتياز بيت جبرين (٣) ويتولي تحصيل هذه الحقوق لحساب الاسبتارية أحد موظفي الجماعة ويسمي الدراجومان نسبه إلى المقر الذي كان يقيم به في القرية ويعرف بالدراجوماناجيا Drugomanagia ففي ثلاث قري للاسبتارية في إقليم الجليل كانت حقوق هذا المقر من إنتاج القرى الثلاث هي أن يدفع كل فلاح عن كل قطعه ارض (وحدتها كاروكا Carruca)

---

(١) مقدار ذلك المكس عشر الانتاج ، ويتناول كل ما تخرجة الارض من حبوب وخضر فضلا عن الماشية والدجاج والبط والاوز والبيض وغيرها . أنظر :
سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ، ج٤ ، ط٢ ، ص ٨٤.

(2) Cf. Privilegium de Begbelino in Assises des Jerusalem Tome II. PP. 528-529.

(3) Cartulaire Tome I no 177 PP. 138-139, no. 399. PP. 272-273, no. 443 PP. 306-307.

مدي Modius (١) من القمح وآخر من الشعير ، وعن كل مائة مدي من هاذين المحصولين يحق لدراجومان الاسبتارية ست من هذا المكيال وتقل النسبة إذا قل المحصول عن ذلك (٢) .

ومن ناحية أخرى اتجهت الاسبتارية إلى زرع مساحات من أراضيهم بطريقة مباشرة وقد أمر البابا اسكندر الثالث الأساقفة في مرسوم صدر في عام ١١٧١م بعدم مطالبة الاسبتارية بالعشور المقررة علي الأراضي الخاضعة لهذا النظام والتي خصص إنتاجها لتغذية ماشية الجماعة ودوابها (٣) ويبدوا أن أعضاء الجماعة قاموا أنفسهم بزراعة مساحات شاسعة من أراضيهم حتى يضيعوا علي الأساقفة فرصة تحصيل أية رسوم علي ما تنتجه هذه الأراضي مما كان سببا في النزاع بين رجال الدين والجماعة (٤) .

وفي الأراضي التي كانت تستغلها الجماعة بطريق مباشر كان أمامها سبيل واحد للحصول علي الأيدي العاملة اللازمة لزراعتها وهو استخدام من هم خارج العمل الحربي من الأعضاء غير الدينيين والعلمانيين المرتبطين بالأرض من الاقنان والفلاحين ، خصوصا وأن الجماعة حصلت علي اقطاعات عن طريق الهبه شملت في بعض الأحيان ما عليها من اقنان الأرض وعائلاتهم (٥) وقد استعان رجال الاسبتارية أيضا بمزارعين من المسلمين في حرث أراضيهم وزراعتها (٦) فلم تحل الحروب القائمة بين الطرفين دون ذلك ، ويعرب لنا الرحالة ابن جبير عن دهشته إزاء هذا

(١) المدي المكيالي ذكر المقدسي أن أهل ايليا كانوا ينفردون باستعماله . انظر :
أحسن التقاسيم ، ص ١٨١ . ولا يعرف مقداره بالضبط بالنسبة للمكاييل المستعملة في الوقت الحالي .

(2) Cf. Prawer, Joshua: The Latin Kingdom, PP. 368-369.

(3) Cf. Cartulaire Tome I, No. 428, PP. 296-297.

(4) Cf. Prawer, Joshua: Op.cit, P. 377.

(5) Cf. Cartulaire Tome I, Nos. 470 PP. 322-323.
No. 472 PP. 324-325.

(٦) يصف لنا ثيودريك احد الحجاج الذين زاروا الاراضي المقدسة في عامي ١١٧١- ١١٧٢م ما رآه علي الطريق من بيت المقدس الي بطلمية { عكا } . اذ يذكر أن المسلمين كانوا يقومون باعمال الحرث والزراعة مع الصليبيين في ظل امان من الملك أو الداوية أو الاسبتارية أنظر :
Theoderich`s Deseription of the Holy Places, P.P.T.S. Vol. V P. 61.

الوضع الذي رآه في مدينه بانياس حيث توجد إحدى معاقل الاسبتارية (١) إذ يذكر انه كان للمدينة " محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمي هونين " (٢) بينه وبين بانياس ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة . فهم يتشاطرون الغلة علي استواء ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهم فيها (٣) وفضلا عن ذلك استخدمت الجماعة البدو العرب في أعمال الزراعة والرعي ، وهؤلاء كانوا يعيشون في الصحاري الواقعة إلى الشرق من فلسطين يرعون قطعان الجمال في سلام ، وفي وثيقة ترجع إلى عام ١١٦٠م منح بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الجماعة خمسين خيمة من هؤلاء البدو (٤) وأدي استخدام الاسبتارية لمزارعين ورعاة من المسلمين أو العرب إلى ضرورة الاستعانة بمترجمين خصوصا وان من تعلموا اللغة العربية منهم كانوا قلة (٥) .

وبالنسبة للمحاصيل الزراعية عنيت الجماعة - فيما يبدو - بزراعة الحبوب المألوفة كالقمح والشعير والذرة لاستخدامها في صناعة الخبز والعلف اللازمين كغذاء لأعضاء الجماعة وماشيتها (٦) وأيضا بعض النباتات والأشجار التي كانت تعتمد الاسبتارية علي إنتاجياتها من الثمار في

---

(١) انظر ما سبق وأيضا : William of Tyre : Vol. II .P. 256-257.
فقد منح همفري دي ثورون نصف المدينة والقلعة الي الاسبتارية في عام ١١٥٧م.

(٢) وهذا الحصن ايضا حصلت عليه الجماعة بكل ملحقاته كهبه أنظر ما سبق وأيضا :
Cartulaire Tome I, No. 258 PP. 195-196.

(٣) الرحلة { تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار } ص ٢٧٣-٢٧٤ز

(4) Cf. Cartulaire Tome I, No. 296, P. 216.

(5) Cf. Smailm R.C.: Op.cit. P. 83.

(٦) نستدل علي زراعة الجماعة لتلك المحاصيل من الاشارات الواردة في بعض الوثائق عن نقل القمح والشعير الي طاحونة الاسبتارية ، واقتراض احد الاشخاص مكاييل من هاذين المحصولين من الجماعة . أنظر :
Bevus de L'Orient Latin Tome III. PP. 73-77.
Cartulaire Tome I, No. 1097 P. 683.

المعاصر الخاصة بها لاستخراج الزيوت والنبيذ ، كالزيتون والكروم (١) هذا فضلا عن البساتين التي كانت في حوزة الجماعة حيث إنتاج أنواع مختلفة من ثمار الفاكهة (٢) ونبات قصب السكر الذي كثرت زراعته في المناطق الغنية بالمياه ، ولهذا السبب قامت الجماعة بزراعته في الاقطاعات التابعة لها في طرابلس وطبرية حيث كانت تحصل علي احتياجاتها من السكر (٣) .

وبالنسبة للتجارة فان أعضاء الاسبتارية لم يدخلوا هذا المجال في بداية أمرهم اقتداء بنظام المقدم ريموند دي بوي الذي حرم عليهم ممارسة التجارة وشراء أو بيع السلع بغرض تحقيق عائد من الربح (٤) لكن ما أن تطورت الاسبتارية ، وبدأ السلوك العلماني في التمكن من تصرفات أعضائها خصوصا هؤلاء الذين انضموا إلى صفوفها ببواعث دينوية (٥) ازدادت ثرواتها ، واتجهت بتأثير من أصحاب هذه النزعات إلى النشاط التجاري كمصدر ابعد للدخل ويبدو أن هذا الفريق من أعضاء الجماعة استغل الثغرات الموجودة في قانون تحريم التجارة ، ليجعلوا منها مبررا لسلوكهم علي أساس أن هذا القانون أباح للبعض التخلص مما لا يستطيع حمله بالبيع أو المبادلة (٦) .

---

(١) في احدي وثائق الجماعة تصريح من آمر الاسبتارية في طرابلس الي عدد من الفلاحين التابعين له بزراعة الكروم والزيتون في ارض الجماعة كاستثناء عن باقي أراضي الامرية بشرط أن يقدموا للجماعة ثلث الثمار . انظر :

Cartulaire Tome II, No. 2148 P. 6505.

(2) Cartulaire Tome I, No. 328 P. 232.

(٣) عن أهمية محصول قصب السكر بالنسبة للجماعة أنظر :

Cartulaire Tome I, No. 625 P. 424.

(4) Cartulaire Tome I, No. 70 P. 66.

Also: De Vertot, L'Abbe: Tome VI Code No. XVIm P. 188.

ونص القانون " محرم علي اخواننا ايان كان وضعهم ممارسة التجارة ، وشراء أو بيع السلع للكسب منها ، ومن يتهم بامتهان هذا العمل واعترف بتهمته حكم عليه بالصوم اربعين يوما ومصادرة نصف بضائعة لحساب خزانة الجماعة ، ويعطي النصف الاخر لمن قام بالتبليغ عنه طالما ثبتت حقيقة وشايته ".

(5) Cf. Bavdoin, J. : Les Statuts de L'Ordre P. 16.

Also: Woodhouse, F.: Op.cit. P. XXVIII.

(6) De Vertot, L'Abbe: Op.cit. Tome VI, Idem.

ونص القانون : " اذا حدث لاحد الاخوة وهو قادم الي الدير أن اضطر الي التخلص من اشياء لا يستطيع حملها وعرضه لان تفقد منه اثناء سفره وفكر في أن يبدلها او يبيعها فلن يكون عرضه لاية عقوبة من جراء ذلك ".

كما أن هذا التحريم قد أخذ يخبو مع التوسع التدريجي في العمل التجاري المنطوي علي دوافع مغرية نابعة من الرغبة في تحقيق الربح ، وروح المغامرة . وهذا الافتراض المبني علي تطورات غالبا ما تأخذ شكلها الطبيعي علي هذا النحو (وهو إن الثغرة في تحريم ما تتسع بازدياد الرغبات والأهواء في إلغائه) مهما كان مبلغه من الصحة والخطأ فانه مسير إلى نتيجة وقعت بالفعل ، وهي أن الاسبتارية مارست الأعمال التجاريـــة وكذلك المصرفية بدرجة كادت أن تنافس بها المدن الإيطالية (١) .

وتتضمن وثائق الاسبتارية ما يدل علي إن للجماعة طبقة من التجار امتهنت حرفة التجارة منذ أواخر النصف الأول من القرن الثاني عشر ، وتطور نشاطهم في هذا المجال فيما بعد حتى أصبح يمثل أحد مصادر دخل الاسبتارية التي تعتمد عليه في تغطية نفقاتها وزيادة مدخراتها ، خصوصا وأنها تمتعت ، إلي جانب الإعفاء الجمركي وامتياز النقل الخارجي للسلع والأفراد ، بسلسلة أخري من الإعفاءات التي تخدم العمل التجاري للاسبتارية داخل البلاد الصليبية ، ففي فبراير ١١٤٩م نجد ريموند دي بواتييه أمير إنطاكية يعفي تجار الجماعة من رسوم الدخول والخروج المقررة في إمارته (٢) بينما يمنحهم موريس سيد الشوبك في عام ١١٥٢م حرية المرور علي البحر الميت (٣) وقد ساعد علي تخفيض نفقات نقل السلع بالنسبة لهؤلاء التجار بقرار لويس السابع ملك فرنسا في الفترة ما بين عامي ١١٣٥- ١١٥٨م والخاص بإعفاء الاسبتارية من مختلف الرسوم المقررة علي النقل المائي (٤) .

(1) Cf. Rey, E.: Les Colonies Franques PP. 117-118.
Also: Prawer, Joshua: Op.cit. PP. 262-263.
(2) Cartulaire Tome I No. 138 PP. 143-144.
(3) Cartulaire Tome I No. 207 P. 160.
(4) Cartulaire Tome I No. 262 PP. 198-199.

وفـــي ظل هذا الوضع تشعب نشاط الجماعة من اجل خدمة قضية الحرب ضد المسلمين والدفاع عن الأراضي التي احتلها الصليبيون في الشام ، إلى نواحي أخرى تلتقي جميعها علي صعيد واحد نحو تحقيق هذا الهدف ، فالي جانب اشتراك الاسبتارية في عمليات حربية دفاعية وهجوميـــة ، اتجهوا أيضا إلى نبذ الخلافات التي تنشب بين الصليبيين المقيمين في الشام ، رغبة في توحيد الجهود من اجل المواجهة مع المسلمين ، كما قاموا بدور بارز في الاتصال بالغرب الأوربي لإيقافه علي الأحوال في الشرق الأدنى ، حتى تتخذ الإجراءات المناسبة من جانب زعماء الحركة الصليبية هناك ، سواء لإنقاذ لاتين الشرق من خطر يتهددهم أو استغلال فرصة أتاحتها أوضاع سيئة في الجانب الإسلامي لصالح صليبي الشام ، وفوق ذلك فهناك الجهود التي كانت تبذلها الجماعة من خلال المراكز التابعة لها في الغرب من اجل إرسال الإمدادات أو النجدات إلي الأراضي المقدسة والعمل علي تسهيل إنجاز هذه المهمة في وقت قصير ، وهذه الجوانب تزداد وضوحا في دور الاسبتارية خلال حلقات تاليه من الصراع الصليبي الإسلامي حيث اشتدت الأخطار التي تتهدد المملكة الصليبية بظهور صلاح الدين الذي كان عصره يمثل بداية النهاية بالنسبة لها .

الفصل الثالث

دور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي

من عهد بلدوين الرابع حتى وفاة هنري دي شامباني

(١١٧٤ – ١١٩٧ م / ٥٧٠ - ٥٩٣ هـ)

- موقف الاسبتارية من العمليات الحربية لصلاح الدين ضد المدن والمعاقل الصليبية حتى مجيء الحملة الصليبية الثالثة .

- دور الاسبتارية في أحداث هذه الحملة حتى رحيل ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده .

- موقف الجماعة من العلاقات بين المسلمين والصليبين عقب صلح الرملة .

أسفرت وفاة كل من نور الدين محمود والملك عمورى الأول عن نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للموقف بين المسلمين والصليبيين ، فقد حالت وفاة الأول دون الصدام المباشر بينه وبين صلاح الدين ، كما اتاحت لهذا الأخير أن يوسع من دائرة سلطانه ، ويكون جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين .

أما وفاة عمورى فجاءت في ذلك الوقت خسارة كبرى للصليبيين ، لأنه بحكم خبرته وتجاربه كان أكثر زعماء الصليبيين قدرة على الاستفادة من ظروف المسلمين ، هذا فضلا عما نجم عن وفاته من نزاع بين الأمراء وتنافس حول النفوذ و السلطات (١) .

وقد تناول هذا الفصل دور الاسبتارية أبان هذه الفترة الحافلة بأحداث كانت في كثير من الأحيان تمثل موقفا مصيريا بالنسبة للوجود الصليبي في الشام ، وهذا الدور لعبته الجماعة عبر مراحل ثلاث يغلب على كل منها ظروف تميزها عن غيرها ، مما أدى بالتالي إلى اختلاف الموقف بالنسبة للاسبتارية في كل منها ، ففيما يتعلق بالمرحلة الأولى كان قيام صلاح الدين بعدد من العمليات الحربية الناجحة ضد الصليبيين واستولى على بعض مدنهم ومعاقلهم الهامة ، كما أوقع بهم خسائر فادحة في الأرواح والمعدات ، خصوصا الاسبتارية الذين كان موقفه منهم هو تعقبهم والقضاء عليهم نهائيا لصلابتهم في مقاومته ، ولأنهم كانوا اشد الناس عداوة للإسلام على حد تعبيره في مناسبة تالية .

أما المرحلة الثانية فقد استعاد فيها الصليبيون أنفاسهم بقدوم الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوربي وتحقيقها عددا من الانتصارات على المسلمين ، وخلال هذه المرحلة استطاع الاسبتارية تعويض ما فقدوه في حروب صلاح الدين في فترة وجيزة عن طريق الإمدادات التي أتت إلى الجماعة من المراكز التابعة لها في الغرب الأوربي ، كما اثبت فرسانها إنهم على مستوى عال

---

(١) أنظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ط٣ ، ص ٧١٠- ٧١١.

من الكفاءة القتالية في المعارك التي خاضوها إلى جانب جيش هذه الحملة ، ويأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة و الأخيرة وهى مرحلة اتسمت بالهدوء النسبي ، إذ إنها تمثل الوضع بين المسلمين والصليبيين عقب صلح الرملة وموقف الاسبتارية منه ، ففيما عدا بعض المناوشات ، وجه كل من الطرفين اهتمامه أبان هذه المرحلة نحو المشاكل الداخلية ، وذلك إلى أن ظهرت على مسرح الإحداث بوادر أنذرت باستئناف القتال بينهما على نحو أكثر ضراوة مع مطلع القرن التالي .

فقد توج بلدوين الرابع Baldwin IV ملكا على بيت المقدس (١١٧٤ – ١١٨٥ م) خلفا للملك عمورى الأول ، وترتب على ذلك مصاعب عديدة نتجت عن أمر الوصاية على الملك الصغير (١) بينما كان صلاح الدين يسعى لإخضاع البلاد الشامية الإسلامية لسلطانه من اجل تشكيل جبهة ممتدة ضد الصليبيين مما دفع الحلبيين إلى الاستنجاد بريموند الثالث كونت طرابلس ، والذي أصبح وصيا على المملكة الصليبية ، لتخليص حلب من حصار صلاح الدين ، فخرج ريموند لمهاجمة حمص حتى يصرف صلاح الدين عن حلب ، واضطر هذا الأخير بالفعل (في أوائل فبراير ١١٧٥م / مستهل رجب ٥٧٠ هـ) إلى ترك حلب والإسراع لنجدة حمص ، وفى الحال انصرف ريموند بقواته من حمص إلى حصن الأكراد (قلعة الاسبتارية) " خوفا مما يقع فيه ويتم عليه " (٢) وعودة كونت طرابلس بما تحت إمرته من الفرق الصليبية إلى هذه القلعة يدل على أنها كانت مركز التجمع لهذه القوات ، وبالتالي فقد ضمت القوات الصليبية مجموعة من فرسان الجماعة ومحاربيها اشتركوا مع ريموند في هجومه على حمص ، التي ظلت بصفة شبه دائمة مقصدا لاغارات حامية حصن الأكراد الاسبتارية .

---

(١) عن الوضع في المملكة الصليبية بعد وفاة عموري ، انظر :
William of Tyre : Vol. II PP. 397-404.

(٢) انظر : أبو شامة ج١ ص ٢٤٠.
Also: Deschampsm P. Op.cit. P. 121.

وفى أغسطس من نفس العام (١١٧٥م / ٥٧٠ هـ) قامت قوات مملكة بيت المقدس ، وفيها جماعات من الفرسان الاسبتارية والداوية ، الذين ظلوا بصفة دائمة يتصدرون في الحروب اى جهود توجه ضد المسلمين (١) ، بغزو إقليم دمشق منتهزة فرصة انشغال صلاح الدين بالوضع في شمال الشام ، ومع ذلك فقد تذرع صلاح الدين بالصبر اتجاه الصليبيين وجدد معهم الهدنة ٠(٢) حتى لا يحارب في جبهتين فـــي آن واحد : الزنكيون في الشمال والشرق ، والصليبيون في الجنوب والغرب (٣) .

وقد ظلت فكرة غزو مصر عالقة بأذهان الفرنج بالرغم من وفاة الملك عمورى الذي استنفذ كثيرا من طاقاتهم جريا وراءها ، بل إن خلفاؤه بعد أن تعرضوا لهجمات القوات المصرية بقيادة صلاح الدين عليهم من ناحية الجنوب ، وكذلك لرؤيتهم هذا القائد ومعه جند مصر وقد تساقطت أمامهم البلدان الشامية الواحدة تلو الأخرى – تيقنوا إن لا بقاء لهم في الأراضي المقدسة طالما ظلت مصر بجندها ومؤنها سندا للإسلام في جهاده ضدهم ، وسرعان ما عادت إلى الوجود الخطط القديمة لكل مـــن عمـــورى الأول وجيلبرت الاسيلى بفضل ما ابداه الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين من استعداد للتحالف مع بلدوين الرابع في حملة مشتركة ضد مصر (٤) ومن ثم عادت أحلام الاسبتارية القديمة والخاصة بالحصول على أراضى وامتيازات هناك إلـــى مخيلة أعضاء الجماعة وارتأى المقدم جوبرت انه من الحكمة أن يحصل من ملك بيت المقدس على ميثاق جديد يـؤكد بـه

(1) Cf. Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 103.
(2) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II PP. 410-412.
(٣) انظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٧٤٧.
(4) William of Tyre : Op.cit, Vol. II PP. 377-387, 418.
ويذكر وليم الصوري أن هذه الحملة وضعت الترتيبات لها مع الإمبراطور البيزنطي قبل ذلك بفتـــرة طويلة ويقصد بذلك ما حدث اثناء رحلة الملك عموري إلي القسطنطينية .
Cf. Ibid, Idem.

عطاء والده عمورى للجماعة في مصر (١) وفى عام ١١٧٦ م أصدر بلدوين الرابع مرسوما يقضى بتاكيد ما جعله عمورى للاسبتارية في مصر من الاقطاعات والمدن والمنازل ، مع إيجار سنوي قدره ثلاثون ألف بيزنت تؤخذ من إيرادات إقليم بلبيس (٢) .

وفى الوقت الذي شارك فيه الاسبتارية الصليبيين اهتمامهم بأمر الحملة على مصر ، كانت مراكزهم في الشمال تواصل جهودها في التعاون الحربي مع القوات الفرنجية ضد البلاد الإسلامية المجاورة وأهمها إقليم البقاع الذي يشرف عليه حصن الأكراد ، فمن المسلم به إنهم انضموا إلى قوات بلدوين الرابع وريموند الثالث التي أغارت على هذا الإقليم في صيف عام ١١٧٦ م / ٥٧٢ هـ (٣) ويؤكد اشتراك الاسبتارية في هذا الهجوم – إلى جانب قربه من قلعتهم – هو أنهم كانوا محالفين دائمين للملك الصليبي ، ويشكلون احد العناصر الرئيسية التي يعتمد عليها في مشروعاته الحربية (٤) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان وضع الاسبتارية الحربي في كونتية طرابلس والمخول لها من قبل الكونتات لضمان حمايتهم من الخطر الإسلامى وخصوصا من ناحية البقاع (٥) يفرض على الجماعة أن لا تقف موقف المتفرج إزاء اى حرب يقوم بها الصليبيون في هذه المنطقة .

---

(1) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 83.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 105.

(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 496, PP. 341-342.
Also: Carta di Balduins, Sesto Re Latino di Gerusalemme in Coice dipl.No. LX P. 60.
Rohricht R. Regesta Regni No . 537, P. 143.

(٣) انظر المقريزي : السلوك ج١ ص ٦٣ .

(4) Cf. La Monte, J.: Op.cit. P. 163 & Passim .

(٥) عن الوضع الحربي للاسبتارية في كونتية طرابلس أنظر :
Richard, Jean : La Comte de Tripoli Sous la Dynastie Toulousaine (1102-1187) Paris 1945, P. 63 seq.
والأسباب التي أتاحت لهم ذلك كما ذكرها البعض هي : ضعف موارد كونتات طرابلس وقلة امكاناتهم لتحصينها وما تعرض له هؤلاء الكونتات من هزائم ساحقة أدي إلي ابادة قوة خيالتهم في الوقت الذي لم يدعمها الوافدون الجدد التدعيم الكافي . ثم أن كونتيه طرابلس لم يعد لها من قواعد في الغرب سوي المنطقتان الطولوشية { تولوز } والبروفنسية اللتين انصرفتا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر عن متابعة الاشتراك في الحركة الصليبية . أنظر : السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٢١- ٢٢٣.

كيفما كان الأمر ، فقد تصدى لغارة الصليبيين هذه على إقليم البقاع " متولي بعلبك " شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف " بابن المقدم " الذي خرج إليهم " فقتل منهم واسر أكثر من مائتي أسير " (١) ثم ارتد الصليبيون بعد ذلك مسرعون عندما علموا باقتراب وصول صلاح الدين ، إلا إن هذا الأخير لم يشأ أن يتعقبهم ، وإنما فضل العودة إلى مصر تاركا أخاه توران شاه في دمشق فوصل القاهرة في نهاية ديسمبر عام ١١٧٦م (٢) .

وبالرغم من ان الاستعدادات التي أجراها الصليبيون لغزو مصر ، ووصول الأسطول البيزنطي أيضا إلى عكا فقد رفض فيليب كونت الفلاندرز Philippo de Flander عند وصولة إلي الأراضي المقدسة في العام التالي (أغسطس ١١٧٧م) ، أن يتولى قيادة الحملة المزمعة ضاربا عرض الحائط بنصيحة كل من مقدم الاسبتارية ، ومقدم الداوية ، وكبار رجال الدين ، والتي تقضي بأن يتولى هذا الكونت مقاليد الأمور في المملكة الصليبية ، وفي ظل هذا الظرف وظروف أخري طرحت جانبا خطة القيام بحملة علي مصر ، وعاد الأسطول الإمبراطوري إلي القسطنطينية (٣) وضاع بذلك علي الاسبتارية فرصة كانوا يأملون أن تعوضهم الخسائر التي لحقت بهم في الحملات السابقة التي خاضوا معاركها إلي جانب الملك عموري .

وقد انتهز ريموند الثالث كونت طرابلس فرصة وجود صلاح الدين في مصر ، وجمع قسما كبيرا من قوات المملكة أنضم إليهم بوهيمند الثالث أمير إنطاكية (١١٦٣- ١٢٠١م) وفيليب كونت الفلاندر (٤) ثم خرج في أكتوبر عام ١١٧٧م وقد صحبه أيضا مقدم الاسبتارية في جماعة من

---

(١) أبو شامة : ج١ ص ٢٦١ .
(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٧٥٠ .
(٣) انظر بالتفصيل :
William of Tyre : Op.cit, Vol. II PP. 417- 424.
(4) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 193.

فرسانه ، بالإضافة إلي العديد من الفرسان الداوية وذلك بغرض حصار حارم (١) وظلوا علي حصارها شهرا كاملا حتى خربوا معظمها ، ثم انصرفوا بعده عنها نظير مبلغ كبير من المال بذل لهم ورحلوا دون أن يحققوا غرضهم في الاستيلاء عليها (٢) فنزلوا علي حماه ، وهناك أوقع بهم سيف الدين علي بن احمد المشطوب الهزيمة بعد حصارهم لها أربعة أيام ، وقد عاد الصليبيون بعد ذلك مرة أخري إلي حصار حارم حتى أقصاهم عنها الملك الصالح إسماعيل (٣) .

وأراد صلاح الدين أن يستفيد من وجود معظم القوات الصليبية في الشمال ، فترك العريش من أرض مصر ، وانقض في أواخر نوفمبر ١١٧٧م علي المراكز الصليبية الموجودة علي شاطئ فلسطين الجنوبي مثل الداروم وغزة ، ولما وجد أن الداوية في غزة استعدوا لهجومه وحصنوا قلعتهم اتجه بسرعة نحو عسقلان حيث " سبي وسلب وغنم وغلب وأسر ٠٠٠ وجمع هناك من كان معه من الاساري فضرب أعناقهم وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين "(٤) فتقدم الملك بلدوين الرابع في مجموعة من فرسان الداوية والاسبتارية والفرسان الملكيين ، الذين كانوا في مدينة بيت المقدس ، وذلك لنجدة الممتلكات الجنوبية من هجمات صلاح الدين ، وانضم إليهم سكان المدينة من الرجال ، والقادرين علي حمل السلاح ، وأسقف بيت لحم حاملا خشبة الصليب (٥) ولم يبق في

---

(1) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II PP. 425- 427.

(2) Cf. Roger de Hoveden : The Annales of Roger de Hoveden London, 1853, Vol. I, P. 452.

ويذكر في هذا الصدد حادثة طريفة هي أن الصليبيين وهم في طريق عودتهم بعد أن حصلوا علي هذا المبلغ اكتشفوا إن المال الذي أخذوه من المسلمين لم يكن إلا نحاس اصفر Brass Copper.

(٣) أنظر أبو شامة : ج١ ص ٢٧٥.

(٤) أبو شامة : ج١ ص٢٧١- ٢٧٣ .

Also : William of Tyre : Vol. II P. – 426.

سعيد عاشور : المرجع السابق : ص ٧٥٧.

(5) Cf. Roger de Hoveden, Vol. I. PP. 452-453.

المدينـة المقدسـة لحمايتها إلا عدد مـن الرجال (١) ، بالإضافة إلي النساء الذين تولوا حراسة برج داوود (٢) والأمـاكـن الهامـة فيها ، كمـا أشـار إلـــي ذلك روجر دي مولين مقـدم الاسبتارية فـــي خطاب له (٣) .

واعتمادا علـي هـذا الخطـاب قـرر البعض بـأن روجـر دي مولـين كـان علـي رأس فرسـان الاسبتارية فـي الجيش الصـليبي الـذي يتولـى قيادته الملك (٤) فـي الـوقت الـذي كان فيه المقدم ـ كما سبقت الإشـارة ـ إلـي جانـب كـونت طـرابلس فـي الشـمال الأمـر الـذي لم يغب عن بـال المؤرخ وليم الصـوري ، وحسم الأمـر بتأكيده مصاحبة مقدم الاسبتارية لريموند ، بينما كان يودي دي سانت أماند Eudes de Saint-Amand (١١٧١- ١١٨٠م) مقدم الداويـة مـع الملك بلدوين (٥) حيث تقابل الجيش الصـليبي عند تـل الصـافية ، بعد أن دعمته الحاميات المقيمة في المعاقل الصليبية القريبة مع جيش صـلاح الدين في الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١١٧٧م (٦) ، ويضيف وليم الصـوري أنه فـي تلك الأثناء وصـل بوهيمند أمير إنطاكية ، وريموند كونت طرابلس بنجدة من الفرسان مما جعل الملك أكثـر قـوة (٧) ، وبالتالـي فـإن روجـر دي مولين صـحبهما بفرسانه أو سبقهما وعاصـر المعـركة في نتائجها الأخيرة .

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II P. 427.

(٢) يقع برج داوود عند الباب الغربي لبيت المقدس . ويذكر ابيفانس الراهب انه فيه جلس داوود في الغبار وكتب المزامير ، وعلي يمين هذا البرج رواق كنيسة صغيرة وإلي يساره المكان الذي حمل الرسل خلفه جسد الأم المقدسة { مريم العذراء } . أنظر :
Epiphanius the Mouk : The Holy city and the Holy Land Places in E.E. Wilkinson : Op.cit, P. 117.

(٣) أنظر نص هذا الخطاب في :
Carta di Maestro Rodrigo in Cod. Dipl. No. CCVm P. 247.
Also: Rohricht, R.: Geschichte des Konigrechs Jerusalem, Innsbruck, 1899, PP. 375-380.

(4) De Vertot, L'Abbe, Op.cit,. 193-194.
Also : King, E.J. Op.cit, P. 107.

(5) Cf. William of Tyre :Op.cit, Vol. II P. 427, 430.

(6) Cf. Rohricht R. Regesta Regni P. 150 N. I.

(7) William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 446.

وبينما كانت قوات صلاح الدين تنوء بما تحمل من أثقال الغنائم ، باغتها الصليبيون وهي في حالة عدم تشكيل للقتال لعبور النهر عند تل الصافية { تل جيزر } قريبا من الرملة ، فتفرق المسلمون وراء أثقالهم ، ثم صوب الفرنج " بجملتهم " حملتهم علي صلاح الدين نفسه " فثبت ووقف علي تقدمه من تخلف " . وقد انهزم المسلمون في هذه الواقعة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، ويحتمون به فأخذوا طريقهم متفرقين صوب " الديار المصرية " فمنهم من ضل الطريق ومنهم من وقع في الأسر " وكان وهنا عظيما " (١) .

وقد أشار روجر دي مولين في خطابه ، السالف الذكر ، أن جرحي الصليبيين كانوا سبعمائة وخمسون ، حملوا إلي مستشفي الاسبتارية في بيت المقدس لمداواتهم ، كما أن التسعمائة وخمسون مريضا الذين كانوا أثناء المعركة داخل المستشفي " سجدوا لله وأقاموا الصلاة " كي يمنح النصر للجيش المسيحي (٢) وبذلك جمع الاسبتارية في الدور الذي لعبوه في هذه المعركة بين مقومات ثلاث عسكرية ، طبية ، ومعنوية ، وجميعها تخدم هدف واحد هو الغلبة علي المسلمين في الصراع الصليبي الإسلامي الدائر علي أرض الشام .

---

(١) أبو شامة : ج١ ص ٢٧٣- ٢٧٤.
ابن شداد : النوادر ص ٥٧ ، وقد بالغ بعض الكتاب الغربيين - كما هي العادة - في وصف انتصار الصليبيين علي المسلمين . فهو - كما يقولون - أنجز " بمعجزة من السماء " وان عشرة آلاف محارب { صليبي } هزموا خمسمائة ألف من الوثنيين { يقصد المسلمين } بمساعدة " الأعلى " الذي أنزل حشودا من جند السماء ظهرت وهي تهبط بسلم لمساعدة الصليبيين في هجومهم . وأصبح الوثنيين غير قادرين علي الصمود فولوا هربا حيث طاردهم المسيحيون ووضعوهم في حد السيف ، وذبحوا منهم أكثر من مائة ألف ، وأخذوا أعداد ضخمة كأسري ، لكن صلاح الدين استطاع الهرب في معركة فقد فيها العديد من أبناء أخوته وأصهاره وكبار رجال جيشه انظر :
Roger de Hoveden: Op.cit, Vol. I. P. 453.
(2) Carta di Maestro Rodrigo : Op.cit, P. 247.
Also: Rohricht, R Regesta Regni No. 564, P. 150.

وفي العام التالي ١١٧٨م/٥٧٤هـ ، بينما كان صلاح الدين مقيما علي بعلبك في الشمال ، قام الملك بلدوين الرابع والصليبيون ببناء قلعة عند مخاضة بيت الأحزان ، والتي عرفت في أواخر القرن الثالث عشر بجسر بنات يعقوب Ford of Jacob ، إلي الجنوب من بحيرة الحولة ، كي تأخذ مكان بانياس في حماية حدود المملكة ، لعودة هذه الأخيرة إلي حوزة المسلمين ، وذلك بناء علي نصيحة الداوية الذين عهد إليهم بأمر حراستها (١) كما شيد حصن هونين Chateau – neuf في نفس العام ، وعلي مدي عشرة شهور ، لحراسة معبر الأردن وتولي مهمة بناء هذا الحصن همفري دي تورون كند سطبل { سنشال } المملكة (٢) وقد أدت هذه الإجراءات الدفاعية من جانب الصليبيين إلي حدوث موقعة جديدة مع المسلمين ، لكنها كانت في صالح هؤلاء الأخيرين بعكس ما كان عليه الحال في المعركة السابقة (٣) .

ففي العاشر من ابريل عام ١١٧٩م/ مستهل ذي القعدة ٥٧٤هـ تحرك الملك الصليبي بقوات المملكة صوب الشمال للإيقاع بقطيع للمسلمين يرعى في سهل بانياس ، إلا أنه وقع في كمين لعساكر دمشق الذين كانوا تحت قيادة فرخشاه { ابن أخي صلاح الدين } " ووقعت الوقعة " وقتلت عدة من

---

(1) Cf. Roger de Hoveden: Op.cit, Vol. I. P. 453.

وقد أورد ذلك في أحداث سنة ١١٧٧م
أيضا : أبو شامة : ج٢ ص٦ .

De Vertot, L`Abbe, Op.cit, P. 195.

(2) Cf. Conderm C.R.: Op.cit, P. 139.

Also : King, E.J. Op.cit, P. 132..

وحصن هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ . أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٣
وهذه القلعة بوقوعها عند المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ Hermon ومنابع الأردن تتحكم في الطريق المؤدي من صور إلي دمشق هذا إلي جانب قربها من الحدود مع المسلمين مما أعطاها أهمية استراتيجية من الدرجة الأولي بالنسبة للصليبيين . أنظر : William of Tyre : Op.cit, Vol. II P.256 وكان همفري دي تورون قد أعطاها للاسبتارية كمنحة مع نصف قلعة بانياس . أنظر ما سبق وأيضا :

Cartulaire Tome I No. 256, PP. 195-196.

(3) Cf. De Vertot, L`Abbe, Op.cit, P. 132.

الرجالة والخيالة " ورجعت الفرنج بخزي عظيم ليس فيهم إلا مجروح "، ولم ينج الملك الصليبي إلا بصعوبة ، في حين أصيب همفري دي تورون إصابة أدت إلي وفاته بعد أيام في حصن هونين السالف الذكر (١) وفي محاولة للانتقام لما وقع بالصليبيين في هذا الكمين خرج بلدوين الرابع في قواته وجماعة من الفرسان الاسبتارية وغيرهم من الفرسان الصليبيين وانضم إليهم كونت طرابلس لمباغتة قوات صلاح الدين ، الذي كان نازلا علي تل القاضي ببانياس ، وتقابل الطرفان عند مرج العيون في العاشر من يونيو عام ١١٧٩م/ المحرم ٥٧٥هـ (٢) فأحدق المسلمون بالقوات الصليبية من كل جانب حتى إنها لم تستطيع التقدم أو التقهقر ، بل اضطربت وتفرقت ما عدا الاسبتارية ومعهم الداوية فقد ثبتوا في أماكنهم إلي أن مُزق معظمهم اربآ (٣) ، وقاسي الصليبيون في هذه المعركة مرارة الهزيمة (٤) ومن بين الأسري كان مقدم الداوية يودي سانت أماند " الذي انتقل من سجنه إلي سجين فطلبت جيفته " فأخذوها مقابل إطلاق سراح أسير من قادة المسلمين (٥) أما مقدم الاسبتارية فقد اختلفت الآراء حول مصيره في هذه المعركة ، فيذكر الأب دي فيرتوت انه عبر الأردن بجماعة من قواته إلي شقيف أرنون Beaufort ، حيث تعقبه أحد قادة صلاح الدين وحاصره في القلعة وبعد مقاومة عنيفة وقع المقدم الأعظم اسيرا لدي المسلمين (٦) ويضيف روجر دي هوفدن أن صلاح الدين بعد أن خرب حصن مخاضة بيت الأحزان ، أخذ معه المقدم والقوا به في زنزانة

---

(١) انظر ابو شامة : ج٢ ص٦ .
ايضا : ابن الأثير : الكامل حوادث ٥٧٤هـ .

(2) Cf. Guillaumo de Tyr, in R.H.C. Occ. Tome I, II,e Parti PP. 1056-1057.
ايضا : ابو شامة : ج٢ ص٨ .
Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 89.

(3) Cf. De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome , I, P. 195.

(4) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 110.

(٥) ابو شامة : ج٢ ص٩ .

(6) Cf. De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome, I, PP. 195-200.

ليموت جوعا (١) انتقاما منه لما أبداه من مقاومة (٢) لكن هذا الأمر - كما يبدوا بوضوح - اختلط علي كل من هوفدن ودي فيرتوت خصوصا وان هذا الأخير أشار إلي أن مقدم الاسبتارية الذي يعنيه في هذه الموقعة هو جوبرت Joubert وفترة حكم هذا المقدم انتهت وفقا لوثائق الجماعة في يناير ١١٧٧م دون إشارة إلي ظروف وفاته (٣) كما أن تقرير مصير مقدم الجماعة الذي اشترك في أحداث هذه المعارك الأخيرة علي النحو الذي يمثل النهاية و الحقيقية لمقدم الداوية - كما ذكرت المصادر العربية - مات في الأسر وأخذت " جيفته " مقابل افتداء أسير من وجوه المسلمين (٤) يؤكد وقوع هاذين المؤرخين في خطأ الخلط ، وعدم التمييز بين كل من مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية في هذا المنتهي (٥) ويعزو البعض هذا الخطأ إلى المؤرخين العرب الذين وضعوا " مقدم الاسبتارية " بين أسرى الصليبيين في مرج العيون (٦) مفسرين ذلك بان هؤلاء المؤرخين اعتادوا الإشارة إلى مقدمي الاسبتارية والداوية متلازمين كرئيسيين لفرق الاسبتارية والداوية (٧) مما افقد الباقين القدرة على التمييز فيما بينهما .

وهذا التفسير بعيد عن الصواب ، إذا وضعنا في الاعتبار قدرة المؤرخين العرب المعاصرين على التمييز بين شخصيات الأحداث التاريخية التي كتبوا عنها ، والتي من السهل تلمسها في ثنايا مدوناتهم ، حيث اظهروا امكاناتهم في تحديد دور كل من مقدمي الجماعتين ، بل والإشارة إلى

---

(1) Cf. Roger de Hoveden: Vol. I. P. 453.
(2) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome, I, Idem.
(3) Cf. Archives P. 210.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 85.
(٤) انظر ما سبق وأيضا : أبو شامة ج٢ ص٩.
(5) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 86.
(٦) انظر ابن الأثير : الكامل : حوادث ٥٧٥هـ.
أبو شامة : ج٢ ص٨ .
(7) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 90.
Also : King, E.J. Op.cit, P. 107.

موقف يخص احدهما في حضور الآخر . ولو كان الأمر مختلطا عليهم بصفة دائمة في هذا الصدد – كما تراءى للبعض – لما قوبلنا بإشارات مميزة ومحددة من هذا القبيل .

كيفما كان الأمر فقد أصبح الاسبتارية خلال هذه الفترة من الصراع الصليبي الإسلامي من أهم عناصر المملكة اللاتينية المحاربة ، وبهذه الصفة انخرطوا في جميع المسائل التي تمس السياسة الداخلية والخارجية للبلاد ، كما جعلوا سيوفهم في خدمة المصالح الصليبية على حساب أعمال الضيافة ، ورعاية فقراء الكاثوليك ، والتي تمثل الروح الأصلية للجماعة (١) ويعزى ذلك – في نظر البعض – إلى إن مقدم الجماعة الجديد روجر دى مولين كان محاربا من اصل نورمانى ، وان الاسبتارية كانوا في مسيس الحاجة إلى فارس كفء مثله ، لأن أحوال الأراضي المقدسة آنذاك كانت تنبيء ببوادر أولى لحروب عظمى ضد صلاح الدين (٢) ، لذا فان الظروف المحيطة بالصليبيين هي التي فرضت نفسها على أعضاء جماعة القديس يوحنا كي يكونوا على مستوى عال من الكفاءة والإمكانات العسكرية لمجابهة أخطار قد تودي بهم جميعا ، بالرغم من ذلك ، فان البابوية كانت مهتمة بأمل الحفاظ على الشخصية الأولى للاسبتارية . ففي مرسوم بابوي صدر في الفترة مابين عامي ١١٧٨ ، ١١٨٠ م اخذ البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١م) يذكر روجردى مولين بالا يبتعد وفرسانه عن القواعد التي وضعها لهم المقدم ريموند دى بوى ، والتي تجمع بين أعمال الضيافة والدفاع عن المملكة الصليبية ضد أعدائها . " فالراهب الذي يحمل راية الصليب المقدس مرفوعة للدفاع عن المملكة وعن الكرسي البابوي ..... ، نهيب به ألا يتخلى عن العناية بالفقراء والمرضى لإعدادهم للحروب " (٣) .

---

(1) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 86.
(2) Cf. : King, E.J. Op.cit, P. 107.
(3) Cf. Cartulaire I No. 527, PP. 360-361.

وعلى اثر تزايد المقدرات الحربية للجماعة في هذه الظروف الحرجة بالنسبة للصليبيين ، تخلى بعض الأمراء عما كان في حوزتهم من القلاع والاقطاعات بعد أن أضحى الدفاع عنها مهمة صعبة إن لم تكن باهظة التكاليف (١) وكان السباق إلى ذلك كونت طرابلس الذي أكد للجماعة ملكية قلعة يهمور (يحمور) Chateau- Rouge في أكتوبر عام ١١٧٧م (٢) وتسلمها الفرسان الاسبتارية في نوفمبر عام ١١٧٨م (٣) ثم أعطاهم قلعة أخرى بكل ملحقاتها هي الطوبان Tubania في يوليو عام ١١٨٠م (٤) .

على آية حال ، إزاء الهجمات شبه المستمرة لقوات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس اضطر بلدوين الرابع إلى توقيع هدنة معه في عام ١١٨٠ م/ ٥٧٦ هـ لمدة عامين ، كما عقد أيضا ريموند الثالث كونت طرابلس هو الآخر هدنة مشابهة مع صلاح الدين حتى لا يكون هذا الأخير في حل من مهاجمة كونتيته (٥) واستغل الصليبيون فترة توقف الحروب هذه في إعادة تنظيم صفوفهم والاستنجاد بالغرب الأوربي ، ففي الخامس والعشرين من ابريل عام ١١٨١م كان وفــدا من داوية

---

(١) أنظر عددا من الأمثلة المتعلقة بهذه الفترة في :

Cartulaire I No. 522 PP. 356-357.
No. 526 P. 360.
Nos. 530-532, PP. 362-364.
No. 585, P. 397.

(2) Cartulaire I No. 519 PP. 353-354.

وتقع قلعة يحمور في الإقليم الساحلي الجنوبي من الشام في أقصى البقاع الجنوبية من جبال الأنصارية وهي عبارة عن حصن قوي يحيط به سور مفرد { أي غير مزدوج } أنظر :

Wiener, Muller : Op.cit, P. 52.

(3) Cartulaire I No. 549, PP. 371-372.

(4) Ibid I NO. 585 P. 397.

(5) Cf. Gukllaume de Tyr : Op.cit, P. 1064.

أيضا : أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ص ١٦ .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٧٦هـ .

واسبتارية بيت المقدس قد قدم إلى بلاط هنرى الثاني ملك انجلترا (١١٥٤- ١١٨٩ م) وفيليب اوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠- ١٢٢٣) حاملا خطابات من البابا اسكندر الثالث إلى هاذين العاهلين . وفى هذه الرسائل شرح لهما البابا الأوضاع السيئة التي تردت فيها المملكة الصليبية بأسلوب يستفز به الشعور المسيحي الغربي ضد المسلمين ، بما أوتى من لباقة في التعبير ، ومهارة في الوصف ، طالبا منهما المبادرة بتقديم العون ونجدة إخوانهم لاتين الشرق من اجل خدمة " القضية المسيحية " (١) وبذلك كان الاسبتارية لا يتوقفون عن أداء دورهم لصالح هذه القضية المذكورة حتى في أوقات السلم ، بل كانوا يؤدون عملا آخر أكثر أهمية يتمثل في السعي لدى أوروبا والبابوية للخروج في حملة صليبية أو تقديم المساعدات المالية والحربية لصليبي الشام ، وهو مامن شانه أن يغير موازين القوى بين المسلمين والصليبيين لصالح هؤلاء الآخرين كما حدث في كثير من الأحيان .

كيفما كان الأمر فان القتال لم يلبث أن تجدد بين الطرفين بسبب مسلك ارناط (ريجنالد شاتيون) صاحب الكرك العدائى ضد المسلمين خلال فترة الهدنة ، ونتيجة أيضا للعمليات الخاطفة من جانب الأمراء والبارونات الصليبين ، ولذلك تمركز الجيش الصليبي في صفورية المركز الاستراتيجي للجليل في عام ١١٨٢ م (٢) يترقب ما عسى أن يقوم به صلاح الدين من أعمال انتقامية ، ولم يطل انتظار الصليبين إذ لم يلبث صلاح الدين أن تحرك بجيوشه في الحادي عشر من يوليه ١١٨٢ م (٣)

---

(1) Cf. Roger de Hoveden: Vol. I. P. 453.
Ibid, 3,4,5, 15. نص الخطابات الصفحات
(2) Cf. Guill. De Tyr: Op.cit, P. 1095.
Also : King, E.J. Op.cit, PP. 33-34.
Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 91.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٧٧٣.

(السادس من شهر ربيع الأول ٥٧٨هـ) وأغار على بلاط طبرية وبيسان (١) ثم شرع مع ابن أخيه فرخشاه في مهاجمة حصن كوكب التابع للاسبتارية والذي يشرف على إقليم الغور والطريق المؤدى إلى الناصرة (٢) فأسرع اليهما الصليبيون ، حيث نشب القتال بين الجانبين تحت الحصن المذكور ، " وكانت الدائرة " على الصليبيين (٣) ثم كان أن فكر صلاح الدين في مشروع يفصل به أمارتي طرابلس وإنطاكية عن مملكة بيت المقدس ، وذلك عن طريق الاستيلاء على بيروت ولتحقيق هذا الغرض جمع صلاح الدين قواته في نفس السنة (١١٨٢م) جنوبي إقليم القاع (٤) وهناك أقام معسكرا وبث سراياه في البلاد المحيطة (٥) وكان ريموند الثالث قد كون جيشا من الافصال وأعضاء الجماعتين العسكريتين الداوية والاسبتارية (٦) وهؤلاء الأخيرين كان اهتمامهم بأمر التصدي لهذه الهجمات – بالطبع – يفوق اهتمام الكونت نفسه بعد أن أصبحوا سادة الإقليم بفضل ما استحوذوا عليه من ممتلكات وقلاع ، وقد اضطر ريموند إلى التقهقر بهذا الجيش إلى عرقة (مدينة الاسبتارية) ، وهناك انتظر ريثما تواتيه فرصة للاشتباك مع صلاح الدين لا تحتمل قدرا كبيرا من المخاطرة . ويذكر وليم الصورى إن الفرسان الداوية فضلوا التحصن بقلاعهم الموجودة فى الكونتية " لتوقعهم إنهم بدورهم محاصرون " ومثلهم الاسبتارية فقد انسحبوا إلى قلعتهم المحصنة " حصن الأكراد " لشعورهم بأنهم إذا ما تمكنوا ، في وسط هذا الاضطراب ، من الدفاع عن هذا الحصن وحفظه من ضرر العدو فقد أدوا واجبهم (٧) وتمخض عن تمركز صلاح الدين عند البقاع فيما بين عرقة (حيث توجد القوة الأساسية للجماعة) ، الحيلولة دون مساعدة كل منهما

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٨ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١١٥ ، المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٨ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٨- ٢٩ .
(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٧٧٤ .
(5) Cf. William of Tyre : Vol. II, P. 447.
(6) Cf. De Vertot, L'Abbe: Tome I P. 210.
(7) Cf. William of Tyre : Vol. II, P. 447

الآخر ، كما قطع الاتصال بين القوتين ، حتى انه لم يستطيع اى منهما الوقوف على أحوال الآخر (١) ، إلي أن رأى صلاح الدين إن " أمر بيروت يطول " فانصرف عنها ومعه فرخشاه إلى دمشق (٢) وفى الثامن والعشرين من سبتمبر ١١٨٣م ثامن جمادى ثاني ٥٧٩هـ تقدم صلاح الدين بقواته التي حشدها في دمشق صوب الجنوب حتى الأردن عبر الصينبرهة ، ثم عبر النهر في اليوم التالي ومر بقلعة الاسبتارية في كوكب حتى وصل بيسان فوجدها قد هجرت . وفى الثلاثين من سبتمبر صعد إلى عين جالوت حيث أوقع بفرقة صليبية كانت في طريقها من الكرك متجهة شمالا للحاق بالجيش الرئيسي للصليبيين فقتل منهم واسر وتوغل الباقون في الجبال (٣) .

أما الملك الصليبي بلدوين الرابع فقد ازدادت حالته الصحية سوءا وأصبح في وضع لا يسمح له بقيادة الجيش الصليبي ، فعهد بأمر هذه القيادة إلى جى لوزينان Guy Lusignan الذي كان كونتا ليافا وعسقلان (٤) وفى أول أكتوبر /جماد ثاني ٥٧٩ هـ بعد وصول صلاح الدين عين جالوت بيوم واحد (٥) ، تقدم جى بالقوات الصليبية التي كانت متمركزة في صفورية إلى الفولة على مسافة ميل من قوات المسلمين (٦) ، وظل يترقب تحركات العدو أسبوعا ، وسط ظروف بالغة السوء دون هجوم(٧) وانتهت الأزمة في السادس من أكتوبر / سادس عشر جماد ثان بانسحاب صلاح الدين وعروجه على دمشق (٨) بينما عبر لوزينان الأردن ثانية دون أن يقوم بأدنى حركة (٩) .

---

(1) Cf. Ibid.

(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٢٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٠ .

King, E.J. Op.cit, P. 112.

(4) Cf. De Vertot, L`Abbe: Tome I PP. 210-211.

(٥) عن تقدم صلاح الدين إلي عين جالوت وأسبابه انظر: أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٥٠ .

(6) King, E.J. Op.cit, P. 113.

(7) De Vertot, L`Abbe: Tome I P. 211.

(8) King, E.J. Idem.

(9) De Vertot, L`Abbe, Idem.

وفى عام ١١٨٤م عندما عقد مجلس في عكا لحل مشاكل المملكة الداخلية وتقرير موقفها من المسلمين ، كان الاسبتارية فيه يمثلون الجانب الذي يسعى لنبذ الخلافات (١) والتفرغ للحرب مع المسلمين على أساس إن المملكة اللاتينية لا تبقى إلا بحد السيف ، ويؤيدهم في هذا الاتجاه ارناط والداوية والبطريرك (٢) أما ريموند الثالث كونت طرابلس فقد كان يميل إلى حياة سلمية هادئة مع المسلمين ، لذلك عندما عهد إليه بأمر الوصاية على بلدوين الخامس والمملكة ، تولى الاسبتارية والداوية مهمة الدفاع عن الحصون والأماكن المعرضة للهجوم من جانب المسلمين (٣) ويمثل اعتراض الجماعة على سياسة ريموند انسحاب مقدم الاسبتارية مع مؤيديه من المجلس بعد أن رفض الملك بلدوين الرابع توسلاتهم للعفو عن جي لوزينان ، واختياره ريموند وصيا على وريثه بلدوين الخامس (٤) وفى غضون السنوات من ١١٨٢- ١١٨٤ م أظهرت الغارات والحملات المختلفة تفوق صلاح الدين ، كما أصبح وضع لاتين الشرق مهددا للغاية (٥) فكتب بلدوين الرابع في عام ١١٨٤ م إلى هرقل Heraclius بطريرك بيت المقدس والى مقدمي الاسبتارية والداوية يطلب منهم الذهاب إلى الغرب الأوربي لأطلاع البابوية والملوك على أحوال الأراضي المقدسة المتدهورة أمام تقدم صلاح الدين (٦) وأبحر هؤلاء المبعوثين من يافا في يونيو عام ١١٨٤م (٧) ونزلوا في برنديزى حيث زاروا فــي البداية وليم الثاني ملك صقلية ١١٦٦٠- ١١٨٤ م) الصديق

---

(1) Cf. William of Tyre : Vol. II P. 508.
(2) Cf. Archer & Kingsford : Op.cit, PP. 267-269.
(3) Cf. Estoire D' Eracles in R.H.C. Occ. Tome II, PP. 4-6.
Also : De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I, P. 212.
(4) Cf. William of Tyre : Op.cit, Vol. II P. 508.
(5) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 90-91.
(6) Cf. Cartulaire Tome I No. 662, PP. 444-445.
وعن طريقة التكليف بهذه المهمة بالتفصيل ، انظر :
De Vertot, L'Abbe, Op.cit, 212-214.
(7) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit PP. 2-3.
Also : King, E.J. Op.cit, P. 115.

الشخصي لروجر دى مولين مقدم الاسبتارية ، وفى نوفمبر وصلوا فيرونا حيث قابلوا البابا لوكيوس الثالث Lucius III (١١٨١- ١١٨٥م) والإمبراطور فردريك باريا روسا Frederick Barossa (١١٥٢- ١١٩٠م) وهناك مات مقدم الداوية (١) ، وقد أصدر البابا مرسومين في الثاني عشر والتاسع عشر من ديسمبر من نفس العام (١١٨٤م) لصالح روجر دى مولين استثنى فيهما الأسلحة والجياد التي تؤول إلى الاسبتارية من ضرائب تركات الوصايا ، كما أنعم عليهم بصكوك الغفران لقيامهم بالدفاع عن الاراضى المقدسة ونجدتها (٢) ثم واصل مقدم الجماعة والبطريرك طريقهما وقد حملا خطابات توصية من البابا إلى عاهلي فرنسا وانجلترا ، فوصلا باريس في منتصف يناير عام ١١٨٥ م حيث رحب بهما فيليب اوغسطس واعطاهما مبلغا من المال معتذرا عن الخروج في حملة صليبية لانشغال بلاده بحروب مع الإنجليز والفلمنك (٣) وغادر الاثنان بعد ذلك البلاط الفرنسي إلى انجلترا فوصلا لندن في فبراير ١١٨٥ م وقابلا الملك الإنجليزي هنرى الثاني (٤) الذي علق عليه كل من البابا ومقدم الاسبتارية والبطريرك آمالا كبار في إنقاذ الاراضى المقدسة والخروج في حملة صليبية ، كما يبدو ذلك بوضوح في نص خطاب البابا الذي سلمه روجر دى مولين وهرقل إلى هنرى حيث يخاطب القاصد الرسولى ملك انجلترا قائلا " نظرا لان أسلافك كانوا مشهورين ويفوقون كل أمراء العالم الآخرين بالشجاعة في الحروب ونبالة العقل ، وتعلم

---

(1) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I PP. 215-216.
Also : Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 92.

(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 706, PP. 463-464, No 712 PP. 465-466.

(٣) أنظر رزق الله منقريوس الصدفي : تاريخ دول الإسلام ، ج١ ، ص ١٥٩.

(4) Roger de Hoveden: Vol. I. P. 46.
Also : Roger of Wendover : Flowers of History, Vol. II. P. 56.
ويذكر روجر دي هوفدن إن مقدم الداوية كان مع مقدم الاسبتارية والبطريرك في البلاط الإنجليزي ، لكن هذا غير صحيح ولا يتمشى مع سياق الحوادث التي تؤكد وفاته في فيونا وهذا ما تنبه اليه روجراف وندوفر فذكر أن البعثة التي قدمت إلي العاهل الإنجليزي كانت مكونة من بطريرك بيت المقدس ومقدم الاسبتارية وأضاف الاثنان إن المبعوثان حملا معهما العلم الملكي ومفاتيح القبر المقدس وبرج داوود ومدينة بيت المقدس سائلين إياه المسارعة لنجدة أراضي بيت المقدس . Idem .

المؤمنون (يقصد الصليبيين) أن ينظروا إليهم في الشدائد والمصائب كحماة لهم ، فمن المناسب أن أرسل إليك هذه الرسالة لأنك ترث كل فضائل والدك مثلما ترث مملكته (١) في لحظة لم تكن لحظة الخطر فحسب ، بل إن دمارا وشيك الوقوع يلوح في الأفق للمسيحيين ..... والأكثر من ذلك أن يكون معلوما لدى "جلالتك " إن صلاح الدين ..... إذا لم تصد غضبته العنيفة فسيتطلع إلى التهام الأردن بأسره (٢) .

وفى الثامن عشر من مارس (١١٨٥م) عقد مجلس كبير في كلير كينول Clerkenwell في صالة الاسبتارية حيث توجد إحدى البريوريات التابعة للجماعة هناك (٣) ناقش فيه هنرى الثاني الوضع في الاراضى المقدسة أمام رجال الدين الإنجليز والنبلاء وغيرهم ، مناشدا إياهم تقرير ما يجب اتخاذه في هذا الشأن . ونظرا لما كانت تعانيه البلاد من مشاكل داخلية وخارجية تهدد عرش المملكة فقد أشار عليه هؤلاء بان " التفرغ لحكم المملكة والدفاع عنها أفضل من الخروج شخصيا في سبيل رفاهية أناس يقيمون في الشرق (٤) .

وبناء عليه اعتذر ملك انجلترا هو الآخر عن الخروج بنفسه في حملة صليبية لإنقاذ لاتين الشرق ، واكتفى بان وعد مقدم الاسبتارية والبطريرك بالمساعدة بالمال والرجال (٥) وهكذا باءت بالفشل جهود بذلها الاسبتارية ممثلين في مقدمهم من اجل الحيلولة دون وقوع المملكة الصليبية تحت

---

(١) يوضح هذه الإشارة روجردي هوفدن بقوله " أن فولك اف انجوا والد هنري المذكور كان ملكا لبيت المقدس
انظر : Roger de Hoveden: Vol. II. P. 46.

(2) Cf. Cartulaire I, No. 722, PP. 470-471.
Also : Roger of Wendover : Vol. II. P. 56.
Roger de Hoveden : Vol. II. P. 48.

(3) Cf. King, E.J. Op.cit, PP. 115-116.

(4) Cf. Roger of Wendover : Vol. II. P. 56-57.
عن موقف بالنسبة للملك الإنجليزي بالتفصيل انظر :
De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I PP. 216-220.

(5) Ibid, P. 220.
Also : King, E.J. Op.cit, PP. 116.
رزق الله منقريوس الصدفي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٥٩.

رحمة ضربة قوية يسددها صلاح الدين إليها وهى على حال من الضعف والانقسام في الرأي تفضي بها إلى هاوية الدمار ، وهو ما حدث بالفعل خلال عامين أو ثلاثة .

ولم يجد ريموند الثالث الوصي على المملكة (١١٧٤- ١١٨٦م) أمام هذا الوضع بدا من " مصافاة " " المسلمين ومهادنتهم " ، فوقع هدنة مع صلاح الدين في عام ١١٨٥م اتقاءا لخطر هجماته على الاراضى الصليبية ، وحتى يستطيع الصليبيون تدعيم مركزهم وتصفية خلافاتهم الداخلية ، لاسيما إن بلاد الشام تعرضت لقحط شديد في هذه السنة ، وكانت الهدنة لمدة أربع سنوات (١١٨٥-١١٨٩ م) (١) ويذكر روجر دى هوفدن إن الاسبتارية كانوا من بين العناصر الصليبية التي وقعت الهدنة (٢) وبالرغم ذلك أشار بعض المحدثين إلى إنهم كانوا من المعارضين لها (٣) وتفسير ذلك – فيما يبدو – إن قادة الجماعة تحولوا عن هذا الموقف الأخير ، واستسلموا للأمر الواقع حتى تأتيهم نجدات من الغرب يأملون وصولها أو تتغير الأوضاع في الشام لصالح الصليبيين ، وبعد إن عاد روجر دى مولين مقدم الاسبتارية والبطريرك هرقل من رحلتيهما إلى الغرب في خريف عام ١١٨٥م توفى الملك الصغير بلدوين الخامس في العام التالي (أواخر أغسطس ١١٨٦م) في مدّينة عكا (٤) فتفاقمت المشاكل الداخلية في المملكة ، وكانت وفاته إيذانا بصراع حاد بين الأمراء الصليبيين من اجل الفوز بعرش مملكة بيت المقدس (٥) وقد عمل الاسبتارية بقيادة مقدمهم جهد طاقتهم في سبيل إيقاف هذا الصراع والحيلولة دون وقوع حرب أهلية ، وكان لهم دور كبير ساهموا

---

(1) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 12-13.
Also : Roger de Hoveden : Op.cit, Vol. II. P. 54.
De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome I P. 212.
(2) Cf. Roger de Hoveden : Op.cit, Idem.
(3) Cf. Raseboult, Ch, J. : Saladin Prince of Chivalry, London, 1930, P. 175.
(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 93.
(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٧٩٤ وما بعدها .
Also : De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome I PP. 221.

به مع الداوية لرأب هذا الصدع وتتويج سيبيلا Sibyl وريثة المملكة وزوجها جى لوزينان ملكين على بيت المقدس (١) وبدا للبعض إن هذا الدور ينطوي على مؤامرة دبرها الاسبتارية والداوية مع البطريرك وصولا لهذه الغاية (٢) ، لأنهم كانوا علي خلاف في الرأي مع ريموند الثالث كونت طرابلس ، لطبيعته المسالمة والتي كانت في حقيقة الأمر موقفا حكيما من جانبه اقتضته الظروف المحيطة بالصليبيين في الوقت الذي يرغبون فيه ومؤيديهم الاستمرار في الحرب التي تشكل جانبا رئيسيا مما كرسوا أنفسهم له ، ولاحتوائهم سياسة إن " السيف يجب أن يبقي ويحافظ علي ما أخذ بالسيف ، وليس التقدم بالتراجع ولا تهزم كي تهزم " (٣) وأن كان مفهومهم لهذه السياسة سيتغير في فترة تالية .

فبعد أن خرقت الهدنة مع المسلمين بحادثة اعتداء ارناط صاحب الكرك علي قافلة للمسلمين كانت في طريقها من القاهرة إلي دمشق (٤) اجتمع الملك جي لوزينان وبارونات المملكة " ووجوه " الاسبتارية والداوية في السابع والعشرين من مارس عام ١١٨٧م لوضع الاستعدادات اللازمة لمواجهة الهجوم المتوقع من جانب صلاح الدين ، وانتهوا إلي وجوب بذل محاولة الصلح مع الملك ريموند الثالث كونت طرابلس تكتيلا للجهود الصليبية . وكان أن تقرر إرسال روجر دي مولين مقدم الاسبتارية ، وجيرار دي ريد فورت مقدم الداوية وجوسياس (Jasse) Jasias رئيس أساقفة صور وباليان ابلين Belian d`Jbelin ورينو صاحب صيدا إلي الكونت للمصالحة بينه وبين الملك

---

(١) أنظر قصة هذا التتويج ودور الاسبتارية فيه في :

Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 26-31.
Also : Roger de Hoveden : Op.cit, Vol. II. P. 62.
La Monte, J.: Op.cit, PP. 33-34.

(2) Cf. Rasebault, Ch. J.: Op.citm P. 175.
(3) Cf. Archer & Kingsford : Op.cit, P. 303.
(4) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 34.

أيضا : أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٥ .

وشقوا طريقهم صوب طبرية حيث يقيم ريموند ، وذلك في ابريل من نفس العام (١) .

وكان ريموند الثالث بعد تتويج لوزينان ملكا وضاع حقه هو في عرش المملكة قد التجأ إلي صلاح الدين وطلب منه " المساعدة له علي أهل ملته ... فقبله السلطان وقواه ، وشد عضده فقويت مناصحته للمسلمين " (٢) ويفسر البعض اهتمام صلاح الدين بريموند علي هذا النحو بأنه يرجع إلي كراهية هذا الأخير الشخصية لبقية القادة الصليبيين ، ورغبة صلاح الدين في الاستفادة من تحالفه مع ريموند ، خصوصا وقد نما إلي علمه إتصالات الصليبيين بالغرب الأوربي من اجل الحصول علي الإمدادات (٣) .

وفي ظل هذه العلاقة حدث أن وافق ريموند - وهو بطبرية - علي مرور جماعة من القوات الإسلامية عبر إقليم الجليل (٤) اختلف المؤرخون حول تحديد مهمتها ، فالبعض يذكر أنها كانت متجهة لتسهيل حصار صلاح الدين لعكا (٥) وآخرون يرون أن ذلك كان بناء علي طلب الأفضل الابن الأكبر لصلاح الدين من أجل قضاء يوم كامل في الإقليم للصيد والنزهة (٦) بينما يري فريق ثالث أن هذه الجماعة من المسلمين كانت مهمتها استكشافية بغرض التعرف علي الحالة الدفاعية

---

(1) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 36-37.

ويشير إلي إن الملك جي هو الذي طلب من هؤلاء الأشخاص القيام بهذه المهمة بعد أن رأس سوء الوضع بالنسبة للصليبيين ، وأنه بإصراره علي النزاع مع ريموند الثالث يفقد أشجع بارونات المملكة وأكثرهم خبرة بأمور الحرب مع المسلمين .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧٤ .

(3) Cf. Rasebault, Ch. J.: Op.cit, P. 175- 176.

(4) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 37.

(5) Cf. Jacques de Vitry, Op.cit, P. 99.

أيضا : ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج٣ ، ص٩٢ حيث يذكر " أن صلاح الدين أرسل ولده الأفضل إلي عكا " .

De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome I P. 226.

(6) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 119.

لقلاع المملكة الصليبية (١) ومهما اختلفت الآراء حول هذه المهمة فقد سمح للقوة الإسلامية بالمرور عبر الأراضي الصليبية التابعة للكونت بشرط أن يكون الذهاب والعودة فيما بين شروق الشمس وغروبها (٢) .

أما وفد الصلح الموفد إلي الكونت ريموند فقد صحبه مائة من الفرسان الداوية وبعض فرسان الاسبتارية { مجموع الفرسان كما يذكر تاريخ هرقل (XL) أربعون } لحمايته من أخطار الطريق خصوصا وأنه يضم خيرة القادة الصليبيين . وعندما علم ريموند بقدومهم إليه أرسل لمقابلتهم في الطريق من يعلمهم بأمر جماعة المسلمين الذين سمح لهم بالعبور في أراضيه حتى يتحاشوا الصدام معهم . وقد وصل تحذيره إليهم وهم في قلعة الفوله (٣) وما أن علم مقدم الداوية " بأمر المسلمين في طريقهم إلي دخول البلاد في اليوم التالي حتى بادر بطلب تعزيزات من الفرسان الداوية والاسبتارية ثم تقدم لمهاجمتهم (٤) ضاربا عرض الحائط بنصيحة كل من مقدم الاسبتارية روجر دي مولين وجيمس دي ميلي Jaque de Maili مارشال الداوية { مقدمها السابق } واقناعهما له بعدم الاندفاع والتهوز ضد قوة ضخمة (٥)..

و علي مسافة فرسخين { أو ميلين } من الناصرة علي الطريق إلي طبرية وجد قادة الداوية والاسبتارية ومن معهم من الفرسان ، المسلمين بقيادة الأفضل عند نبع الخريصون أو رأس الماء La fonteino de Croisson إلي الشمال الغربي من حوران وقريبا من كفر كته في أول مايو

---

(1) Cf. Duggan, Alfred, Op.cit, P. 151.
(2) Cf. Estoire d' Eracles : Idem.
(3) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit PP. 38-39.
Also : Chronique d'Ernoul in Pernoud Regine : The Crusades, trans-by Emid Mcleodm London, 1962, PP. 142-144.
(4) Cf. Roger de Hoveden : Op.cit, Vol. II, PP. 64-65.
(5) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit P. 40.

١١٨٧م وقد كان الأفضل في طريق عودته بعد أداء المهمة تنفيذا للمهلة التي اشترطها ريموند (١) فهاجمة مقدم الداوية بمن معه من الفرسان مما اضطر مقدم الاسبتارية أن يتبعه وفرسانه العشرة في هذا العمل (٢) وقد حاربوا بشجاعة حتى ينفوا عن أنفسهم صفة الجبن والتخاذل التي أتهمهم بها مقدم الداوية جيرار ريد فورت ، عندما نصبحه روجر دي مولين باتخاذ الحذر (٣) واندفع المسلمين ـ كالعادة ـ من بين أيدي مهاجمي الداوية والاسبتارية كي يطمعوهم فيتقدموا من خلفهم بطريقة غير منظمة (٤) ثم أحاطوا بهم جميعا فأصبحوا غير قادرين علي المقاومة وأنتهي الأمر بمصرع مقدم الاسبتارية روجر دي مولين الذي ذبح وقطعت رأسه في رواية (٥) أو اخترقت صدره حربه في رواية أخري (٦) بينما ظل الداوي جاك { جيمس } دي ميلي وأحد الإخوة الاسبتارية ويدعي هنري Henry مداومين علي القتال رغم ما أصاب أصحابهم حتى سقطا صرعى في الميدان ، ولم ينج من فرسان الاسبتارية العشرة الذين أتوا مع مقدمهم من حصن كوكب سوي خمسة (٧) أما الداوية فقد ذبحوا عن أخرهم ولم ينج منهم سوي اثنين لاذا بالفرار مع المقدم

---

(1) Cf. Idem P. 39.
Also: Le Roulx, J.D.,: Op.cit, P. 95& n. 2.
Rasebault, Ch. : Op.cit, P. 183.
(2) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit P. 40.
Also : Jacques de Vitry, Op.cit, P. 99.
(3) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 120.
Also : Duggan, Alfred, Op.cit, P. 152.
(4) Cf. Jacques de Vitry: Idem.
(5) Cf. Estoire d` Eracles : Idem.
Also: Geoffrey de Vinsauf's Itinerary, P. 70.
Jacques de Vitry, Op.cit, P. 100.
(6) Cf. Le Roulx, J.D.,: Op.cit, P. 95.
Also: King, E.J. Idem
(7) Cf. Le Roulx, J.D.,: Op.cit, P. 95.
Also: Jacques de Vitry, Op.cit, P. 100.
لكنه يذكر إن هؤلاء العشرة جميعهم ذبحوا مثل مقدمهم .

جيرار ريد فورت ، بينما أخذ الأربعون فارسا المعسكرين في الناصرة جميعهم اسري (١) ويذكر روجر دي هوفدن أرقاما مختلفة عن هذه الخسائر ، فقد ذبح ستون من الإخوة الداوية ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وستون أيضا من أهل بيته (٢) ومن الممكن أن يكون ذلك قريبا من الصحة طالما أن هوفدن لم ينعت أصحاب هذا المصير بلقب " الفرسان " بحيث لا يتناقض مع ما أورده في هذا الصدد مع العدد المعروف عن الفرسان الذين اشتركوا في هذه الموقعة وعددهم من الاسبتارية عشرة وما زاد عن ذلك من الجائز أن قصد به محاربين من صفوف المساعدين والتركبولي . هذا مع التسليم بالمبالغات المعهودة من بعض المؤرخين في إيراد الأرقام سواء عمدا أو عن غير قصد .

علي آية حال ، لخص المؤرخون العرب هذه النهاية بقولهم " وهلك أهل الاسبتار ، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الإسار وافلت مقدم الداوية ، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص " (٣) وبعد أن أسفرت المعركة عن هذه الهزيمة الساحقة لفرسان الاسبتارية والداوية ، عاد مجموعة من فرسان القديس يوحنا إلي المكان للبحث عن جثة مقدمهم ليقدموا له واجبات الدفن الأخيرة ، وبعد تفتيش دقيق وعناية في البحث عثروا عليها وسط كومة من جثث قتلي المعركة فحملوها إلي عكا حيث شيعت جنازته هناك وفقا لتقاليد الجماعة (٤) وكان هذا الانتصار بالنسبة للمسلمين كما يذكر أبو شامة " باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات " (٥) أما آثاره

---

(1) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit P. 40.
Also: Jacques de Vitry: Idem
King, E.J. Op.cit, P. 120.

(2) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 65.

(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٦٣ .
أبو شامة : ج٢ ، ص ٧٥- ٧٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٨٧ .

(4) Cf. De Vertot, L`Abbe : Tome I PP. 227-228.
Also: Geoffrey de Vinsauf 's Itinerary, P. 70 N. I.

(٥) أيضا أبو شامة : ج٢ ، ص ٧٦ .

فقد كانت محزنة وخطيرة بالنسبة للاسبتارية الذين أفجعهم مقتل روجر دي مولين الذي كان خبيرا بشئون الأراضي المقدسة وامتاز بالحكمة والتعقل في المجالس ، والشجاعة في الحروب ، فتركوا بلا موجه من هذا القبيل في لحظة خطر يتهددهم من كل جانب وأصبحوا مع غيرهم من الصليبيين تحت رحمة المنتصر (١) .

وسرعان ما أفاق الصليبيون بعد هذه الموقعة ، وأحس زعماؤهم بضرورة نبذ ما بينهم من خلافات حتى لا يقضي عليهم ، فبادر ريموند الثالث إلي الدخول في طاعة الملك جي الثاني من يوليه عام ١١٨٧م/٢٢ ربيع ثان ٥٨٣هـ ، حيث أقام الملك الصليبي وفرسانه والداوية والاسبتارية وجميع بارونات المملكة بعد أن قرروا حمل الصليب والاستعداد للقتال (٢) وتدعيما لنفقات هذا الجيش قدم الداوية المال الذي أودعه لديهم هنري الثاني ملك انجلترا من أجل حملته الصليبية ، لكن الاسبتارية رفضوا أن يدفعوا بقية الأموال التي خصصها الملك الإنجليزي أيضا لهذا الغرض والموجودة في خزانتهم (٣) وقد فسر البعض هذا الموقف بأنه يرجع لعدم وفاقهم مع الملك جي آنذاك ، أو لأنهم كانوا بغير مقدم يملك التصرف في مثل هذه الأمور أثناء الأزمات (٤) .

---

(1) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 96.
(2) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit PP. 45-46.
Also : Guill, de Tyr. Co. Op.cit, P. 1095.
Ernoul's Account of Palestine in P.P.T.S.Vol. VI, P. 60.
أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٦ .
(3) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit P. 47.
(4) Cf. Rilley-Smith : Op.cit, P. 86.
وبخصوص الوثيقة التي تشير إلي بقاء هذا المال في خزانة الاسبتارية انظر :
Cartulaire Tome I No. 858, PP. 531-532.

اما صلاح الدين فقد أقام جيشا بقيادة أمراءه لمقابلة الصليبيين ، بينما رحل هو لمنازلة مدينة طبرية ، حيث تقيم زوجة ريموند الثالث الكونتيسة أشيفا Eschiva وذلك انتقاما منه لخرقه الهدنة التي أبرمها معه ، ومحاولته استدراج الجيش الصليبي إلي هذا المكان " فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهز في استئصالهم " (١) علي طول طريق التقدم الوعر باستخدام أساليب التطويق والمناورة التي اعتادها المسلمون في حربهم مع الفرنجة ، وفي خطة قيض لها النجاح ، فقد عقد الصليبيون مجلسا للحرب في صفورية ، ورغم إن ريموند تأثر لما حل بطبرية " حتى سقط في يده " (٢) فانه دعا القادة الفرنج إلي التذرع بالصبر وعدم المغامرة والتريث حتى مجئ صلاح الدين لمقابلتهم فيقاتلوه ، وأنضم إلي جانبه الاسبتارية الذين أيدوه في هذا الرأي (٣) ورغم اقتناع الجميع بنصيحة ريموند فقد أستطاع مقدم الداوية يسانده ارناط صاحب الكرك إقناع الملك جي بضرورة التقدم لقتال صلاح الدين عند طبرية ، عن طريق اتهامه لريموند بالجبن والخيانة من خلال ماضيه في التحالف مع المسلمين (٤) .

وغادر الجيش الصليبي صفورية يوم الجمعة الثالث من يوليو ١١٨٧م/ الثالث والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ قاصدا طبرية وقد أخذ التشكيل المعتاد في القتال أو المسير : قوات طرابلس والجليل بقيادة كونت طرابلس في المقدمة ، والجيش الرئيسي بقيادة الملك جي ومعه أسقف عكا حاملا علامة الصليب في القلب . بينما كان الاسبتارية بقيادة وليم بورل William Borrel (Burellus) قائد الجماعة { فبراير ١١٨٦- أكتوبر ١١٨٨م } (٥) والداوية بقيادة

---

(١) أنظر : ابن الأثير : الكامل حوادث ٥٨٣ هـ .
أبو شامة : ج٢ ، ص ٧٦ .
Also : Estoire d' Eracles : Op.cit PP. 47-48.

(٢) أبو شامة : نفس المكان .

(3) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit PP. 49.

(4) Ibid , PP. 62-63.
Also : Rilley-Smith : Op.cit, P. 87.

(5) Cf. Les Archives P. 212.

جيرار دي ريد فورت في المؤخرة (١) ولم تنقطع أغارات المسلمين علي الصليبيين طوال زحفهم الشاق من صفورية ، وعانت المؤخرة حيث الاسبتارية والداوية الكثير من جراء هذه الغارات فأرسلوا إلي الملك جي بعدم قدرتهم علي الاستمرار في التقدم، وأنهم مجبرين علي التوقف بسبب هجمات المسلمين الثقيلة عليهم . فأضطر الملك الصليبي إلي إصدار أوامره بالتوقف حتى انقضاء الليل وعسكر علي جانب التل جنوب اللوبيا Marescalcia . وقضي الجيش الصليبي الليل في ظروف بالغة السوء وقاسي من جند المسلمين أكثر مما قاسي أثناء المسير حتى استحال عليهم النوم (٢) .

وفي صباح اليوم التالي ، السبت الموافق الرابع من يوليو/ الرابع والعشرين من ربيع الآخر قرر الملك الصليبي الابتعاد عن الطريق المباشر إلي طبرية وإتباع الطريق الموصل إليها عبر قرية حطين إلي وادي الحمام لأنه أقصر الطرق وأقربها إلي الماء (٣) لكن المسلمين ـ كما هي عادتهم ـ عادوا إلي مهاجمة المؤخرة ومحاولة عزل الاسبتارية والداوية عن الجيش الصليبي للايقاع بهم ، فأرسلوا ثانية إلي جي بأنه من الصعب عليهم التحرك أكثر من ذلك فأمر الجيش مرة أخري بالتوقف وعسكر الصليبيون فوق هضبة حطين (٤) وفي هذا المكان حدثت الموقعة الفاصلة التي ذاق فيها الصليبيون مرارة الهزيمة وكانت بداية النهاية بالنسبة لمملكة الفرنج (٥) . وقد

---

(1) Oman, Charles : Op.cit, Vol. I, P. 328.
Also : King, E.J. Op.cit, P. 126.

(٢) انظر ابن شداد : النوادر ، ص ٧٦.

(3) Cf. Oman, Ch. : Op.cit, Vol. I, P. 328-329.

(4) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 127.

(٥) عن تفاصيل موقعة حطين أنظر :
ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧٥- ٧٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٨٨- ١٩٦ .

استطاع ريموند وباليان صاحب نابلس وريناالد صاحب صيدا (١) وكذلك وليم بورل قائد الاسبتارية بجماعة من الفرسان والأتباع أن يحملوا علي المسلمين من ناحية الشمال الغربي للطريق " فأفسحوا لهم " ولاذوا بالفرار في اتجاه الشمال . ويؤكد فرار قائد الجماعة مع هؤلاء هو انه كان بعد ذلك علي رأس المدافعين عن مدينة بيت المقدس (٢) ثم مدينة صور في خريف نفس العام (٣) . أما بقية الصليبيين والملك جي فقد " أووا إلي جبل حطين ليعصمهم من البلاء " (٤) ، فضايقهم المسلمون علي التل وأوقدوا النيران حولهم فقتلهم العطش وضاق الأمر بهم (٥) وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل مستسلمين فأسر مقدموهم وقتل الباقون (٦) .

وبعد الموقعة وهذا النصر ، جلس السلطان في الحال لعرض أكابر الاساري فاتوا إليه بمقدم الداوية ومعه عدد كثير ، ومنهم من الاسبتارية (٧) فأمر صلاح الدين بأن تضرب أعناقهم في

(١) انظر أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٧ .
(2) Cf. Estoire d' Eracles : Op.cit PP. 69.
(3) Cf. Rohricht R. Regesta Regni No. 659 P. 175.
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج٢ ص ١٩٠ .
ابن شداد : النوادر ص ٧٧ .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ، ص ٩٤ .
(٦) ابن شداد : النوادر ص ٧٧ (نفس المكان) .
أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٧ .
(٧) العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٨٠ ، وكان العماد بذلك مؤرخا علي درجة كبيرة من الوعي ، إذا لم يغب عليه عدم وجود مقدم أو قائد للاسبتارية بين الأسري ونحا نحوه ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٩٧ ، أبو الفدا : المختصر ج٣ ص ٧٢ . بينما أكد آخرين أن " مقدم الاسبتار " كان بين من اختار صلاح الدين قتلهم ، أنظر ابن شداد : النوادر ص ٧٧ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٧- ٧٨ ابن العديم : زبدة الحليب ج٣ ص ٩٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص ٣٣ . والواقع هو ما تنبه إليه العماد في إشارته وهي عدم وجود مقدم للاسبتارية فقد هرب قائدهم كما سبقت الإشارة وسنجده بين المدافعين عن مدينة صور .
Cf. Rascbault, Ch. : Op.cit, P. 195.
Cartulaire I No. 833, PP. 519.

حضوره (١) وقال - كما يذكر العماد - " أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين " وجعل لكل من يحضر أسير من الاسبتارية أو الداوية خمسين دينار . وأستطاع بهذه الطريقة أن يجمع منهم{ مئتين } " وأمر بضرب أعناقهم واختار قتلهم علي استرقاقهم " (٢) وعلق علي ذلك شارل أومان بقوله : " إننا حينما نتذكر ما اقترفه صلاح الدين من مثل هذه الفظائع ، فلا نحتاج إلي لوم مرير إزاء الأعمال السيئة في الجانب الآخر مثل مذبحة ريتشارد قلب الأسد لحامية عكا " (٣) ويبدو أنه أغفل - عن عمد أو بغير قصد - ما ارتكبه الصليبيون من جرائم وحشية ضد حامية بيت المقدس بعد سقوط المدينة في أيديهم (١٠٩٩ م) ولم تأخذهم رحمة أو شفقة بطفل أو امرأة أو شيخ ، بينما أشتهر صلاح الدين - رغم ذلك - بروح التسامح والعطف وأخلاق الكرم والمروءة في موقفة من الصليبيين بعد استرداده المدينة المقدسة حتى أصبحت فروسيته مضربا لأمثال الأعداء والأصدقاء (٤) وقد كان سلوكة إزاء الاسبتارية والداوية مبني علي موقفهم العدائي المتعصب ضد المسلمين " فما جرت عادتهما بالمفاداة ، ولا يقلعان عن المعاداة ، ولا يخدمان في الأسر ، وهما أخبث أهل الكفر " (٥) ولإصراره علي موقفه منهم والرغبة في القضاء عليهم كتب إلي نائبة بدمشق " أن

---

(1) Cf. Roger de Hoveden, Vol. II, P. 66.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٨٦ ، أبو شامة ج٢ ص ٧٩ .
أشار إلي هذا المعني أيضا : ابن واصل ج٢ ص ١٩٦ .
Jacques de Vitry : PP. 101-102.

(3) A History of The Art of War, Vol. I, P. 332.

(٤) أنظر مآثر صلاح الدين في : ابن شداد : النوادر ص ٣١- ٣٤ .
Rascbault, Ch. : Op.cit, Passim.
وموقفه من زوجة كونت طرابلس رغم حنث هذا الأخير بعهوده معه انظر :
King, E.J. Op.cit, P. 129.

(٥) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٩.

يضرب عنق من يجده من الداوية والاسبتارية " لأنه " لم يقع علي عددهم قياس " . وكان المسلمون قبل تفرق العساكر بالسبي قد اصطحبوا إلي البلاد أسري منهم " فامتثل الأمر في إرهاقهم وضرب أعناقهم فما قتل إلا من عرض عليه الإسلام فأبي أن يسلم وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم " (١) وقد أشار عموري بطريرك إنطاكية في خطابة إلي هنري الثاني ملك انجلترا إلي ذلك المصير الذي كان ينتظر الاسبتارية بعد حطين وكان ضحاياه أعداد كثيرة من فرسانهم (٢) ولعل موقف صلاح الدين من الاسبتارية ورغبته في القضاء عليهم يفسر سبب مقاومتهم العنيفة لهجمات المسلمين علي المدن والمعاقل الصليبية بعد هذه الموقعة علي أساس إن النصر أو الهزيمة كان مسألة مصيرية بالنسبة لهم .

وكان من نتائج انتصار المسلمين في موقعة حطين ، سقوط العديد من مدن الفرنج ومعاقلهم الهامة من بينها مدينة عكا في يوم الأربعاء ١٠ يولية ١١٨٧م/ سلخ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (٣) وكان للاسبتارية فيها بعض المباني والمنازل (٤) وقد أوقف صلاح الدين دارهم فيها نصفين : نصفا علي الفقهاء ونصفا علي الصوفية (٥) وأيضا تبنين Toron التي كانت في حوزة الجماعة منذ عام ١١٦٥م(٦) وهي قلعة منيعة " فنصب عليها المناجيق وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٩٧ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ (مخطوط) لوحة رقم ٢٥٢.
Jacques de Vitry : PP. 101-102.

(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 833, P. 519.
Also : Roger de Hoveden: Vol. I. P. 84.

(٣) انظر ابن شداد : النوادر ص ٧٩ .
أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٨٦- ٨٧ .

(4) Cf. Cartulaire Tome I No. 646, P. 435.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤٧ .

(6) Cf. Cartulaire Tome I No. 341, P. 239.

رجال أبطال شديدون في ديتهم فاحتاجوا إلي معاناة شديدة " وانتصر صلاح الدين عليهم في النهاية وتسلم القلعة يوم الأحد ٢٩ يوليو ١١٨٧م/١٨ جمادي الأولي ٥٨٣هـ " عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل " (١) ثـم كان استرداد صلاح الدين مدينة عسقلان في يوم الأحد أوائل سبتمبر / ١٦ جمادى الآخـر " وكانت عنده أهم من غيرها لأنها علي طريق الديار المصرية " (٢) وقد كان للاسبتارية بهذه المدينة " برج عظيم يشرف علي البحر كالقلعة المنيعة " ويعرف باسمهم " برج الاسبتار " وبناؤه أحكم بناء يفرض أن يكون " (٣) وبعد حصار دام أربعة عشرة يوما قاومت فيها الحامية ومعاونيهم من الاسبتارية استسلمت المدينة . وترتب علي ذلك أن تسلم أصحاب السلطان من بين الحصون القريبة منها بيت جبرين التابعة للجماعة (٤) .

ولقد أرسل فرسان القديس يوحنا إلي الغرب الأوربي بأنباء هذه الفتوح الإسلامية وما أصابهم وغيرهم من الصليبيين من هزائم ونكبات ، وذلك لإيقاف البابوية وكبار زعماء أوربا الكاثوليكية من الملوك والبارونات علي أحوال اللاتين السيئة وقرب نهاية المملكة الصليبية والقضاء عليها ، كي يسارعوا بإنقاذها وإرسال النجدات، التي تعوض الصليبيين عما فقدوه في حروبهم مع صلاح الدين من الرجال والعتاد والأموال (٥) وهنا يبرز دور الجماعة في سعي دائب من اجل إنقاذ المملكة

---

(١) ابن شداد : النوادر ص ٨٠ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٠٩ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٠ .
ابن شداد : النوادر ص ١٨٨ .
أبو شامة : ج٢ ص ١٩٢ .
(٤) أبو شامة : ج٢ ص ٩١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٠٩- ٢١٠ .
ابن شداد : النوادر ص ٨٠ .

(5) Cf. Cartulaire Tome I No. 832, PP. 518-519.
وتاريخ الخطاب أغسطس ١١٨٧م وفيه يعلم الاسبتارية قائد المقر التابع لهم في ايطاليا بالحوادث التي وقعت فجأة في الأراضي المقدسة : استيلاء صلاح الدين علي طبرية ، والهزيمة عند لوبيا .La Marechaussee (٣- ٤ يوليو ١١٨٧م) ، اسر ملك بيت المقدس وعدد كبير من البارونات واستسلام الناصرة وجبل الطور وعكا وحيفا وقيسارية ويافا ونابلس وراما وسان جورج وغيرها .

الصليبية بكل ما تستطيع من الوسائل ، بما في ذلك ضمان لبقائهم واستمرار مصالحهم وما يرتبط بها من المنافع من جراء الوجود الصليبي علي أرض الشام .

وفي العشرين من سبتمبر من نفس العام ١١٨٧م/ ١٥ رجب ٥٨٣هـ نزل صلاح الدين علي مدينة بيت المقدس " وكانت مشحونة بالمقاتلة من الفرسان الداوية والاسبتاريبة والبارونية " (١) ويصف العماد الكاتب حالهم بقوله : " فللداوية دوي ، وللبارونية من البوار في الهاوية هوي وللاسبتار تبار ٠٠٠ " (٢) . وقد أنضم إلي صفوف الاسبتارية في الدفاع عن المدينة بالطبع كل أعضاء الجماعة ورجالها الذين في المستشفي ، ودار الضيافة ، ومقر الفرسان ، وعلي رأسهم قائدي الاسبتارية والداوية (٣) ، خصوصا وقد أدرك الجميع خطورة الوضع بالنسبة لهم إذا ما سقطت بيت المقدس في أيدي المسلمين . لكن هذه المقاومة فقدت جدواها أمام هجوم صلاح الدين العنيف وتمكن رجاله من أسوار المدينة بالنقب (٤) فاتفق الرأي بين من هم بداخلها علي طلب الأمان ، وأمتنع السلطان عن إجابتهم إليه لرغبته في الأنتقام لما فعله الصليبيون بأهل بينت المقدس عند استيلائهم عليها (١٠٩٩م) ثم عاد فأجابهم بعد مشاورات وتسلم المدينة في يوم الجمعة ٢١ أكتوبر ١١٨٧م/ ٢٧ رجب ٥٨٣هـ (٥) .

---

(١) أبو شامة : ج٢ ص ٩٣ .
أبو اليمن العليمي : كتاب الفرنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج١ ص ٢٩٠ .
(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ١٢٥ .
(3) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 69.
(٤) أنظر أبو شامة : ج٢ ص ٩٤ .
أبو اليمن العليمي : كتاب الفرنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج١ ص ٢٩٠ .
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢١٣- ٢١٥.

وقد اشترط صلاح الدين علي صليبي القدس مقابل حصولهم علي الأمان أن يدفعوا عند مغادرة المدينة عن الرجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة دنانير وكل صغير ذكر أو أنثي دينار واحد " فمن أحضر القطيعة سلم بنفسة وإلا أخذ أسيرا " (١) وكانت المهلة المحددة لهذا الافتداء أربعون يوما . ودخل في الضمان باليان ابلين " (ابن بارزان) والبطريرك ومقدما الداوية والاسبتار " (٢) وبذل باليان من ماله ثلاثين ألف دينار (٣) افتدي بها ما يوازي سبعة آلاف من الفقراء الصليبيين كما قدم الاسبتارية إلي باليان المبلغ المتبقي طرفهم من هبة المال التي كان أودعها في خزانتهم هنري الثاني ملك انجلترا لحساب الأراضي المقدسة وذلك لافتداء بقية الأسري الصليبيين (٤) وبالرغم من ذلك فان جملة ما جمعة الصليبيون لم يف بسداد مبلغ المائة ألف دينار المقررة لإطلاق سراح كل الفقراء الصليبيين الموجودين داخل بيت المقدس ، لذا عقد باليان ابلين مجلسا ضم الاسبتارية والداوية والبرجوازيين حيث طلب باليان منهم جميعا مساعدة هؤلاء الفقراء علي تخليصهم من الأسر . وقد أكد تاريخ هرقل أنهم قدموا بالفعل ما أمكنهم تقديمة من الأموال (٥) إلا إن بعض المحدثين يتهم الداوية والاسبتارية بالتقصير في هذا الصدد وكذلك باليان ابلين الذي لم يسلم هو الآخر من توجيه اللوم إليه (٦) . ويبدوا أن ذلك كان مرجعه الحرص من جانب هؤلاء علي

---

(١) أبو شامة : ج٢ ص ٩٢.
ابن شداد : النوادر ص ٨٢.
العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ١٢٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢١٤.
وهاذان الأخيران أشارا إلي أن فدية الصغير ذكر أو أنثي كانت ديناران (وليس دينار واحد)

(٢) العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ١٢٧ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق : نفس المكان.

(4) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 90-91.

(5) Cf. Ibid, P. 93-95.

(6) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. I, P. 617.

عدم استنزاف ما لديهم من أرصدة إن لم يكونوا قد أنفقوها أو فقدوها خلال الحروب الخاسرة التي خاضوها ضد صلاح الدين .

وأثناء حصار بيت المقدس علق هؤلاء الصليبيين الذين كانوا بداخل المدينة وخارجها آمالا علي وصول نجدة من الغرب تنقذ المدينة من السقوط في أيدي المسلمين . وقد تناول عموري بطريرك إنطاكية في خطابة ، إلي الملك الإنجليزي والذي أرسله في سبتمبر عام ١١٨٧م تفاصيل الحصار الأول للمدينة التي يقصدها كل الحجاج الغربيين ، متوسلا إليه أن يسارع لنجدتها (١) لكن هذه المحاولة ضاعت هباء ، لأن أوربا في ذلك الوقت لم تكن قد تجهزت بعد للقيام بعمل سريع من هذا القبيل ، كما أنه لم يمض وقت قليل إلا وكان المسلمون قد نجحوا في استرجاع بيت المقدس .

وقد خرج الصليبيون من المدينة في ظل الأمان بعد أن دفعوا الفدية المتفق عليها . وخارج أسوار بيت المقدس قسمهم صلاح الدين إلي ثلاث مجموعات : مجموعة بقيادة الاسبتارية وأخري بقيادة الداوية والثالثة بقيادة باليان ابلين والبطريرك . وجعل لكل مجموعة منهم حراسة من الخيالة المسلمين . ويصف تاريخ هرقل إلي أي حد قام هؤلاء المسلمون بالعمل علي توفير الحماية للصليبيين ، وأن النساء اللائي لا يقدرن علي مواصلة السير كن يمتطين جياد الحراس بينما يترجل خيالة المسلمين للسير علي أقدامهم ، ثم كيف أن الأطفال كانوا يحملون أمام وخلف الراكبين منهم علي الجياد (٢) أما داخل بيت المقدس فقد أبقي صلاح الدين علي عشرة من الاسبتارية ، للعناية بم،رضي الصليبيين وجرحاهم الموجودين في المستشفي حتى يتماثلوا للشفاء ويصبحوا قادرين

(1) Cf. Cartulaire Tome I No. 833, P. 519.
(2) Cf. Estoire d` Eracles : Op.cit PP. 99-100.
Also: Rascbault, Ch. : Op.cit, PP. 209-210.

علـــي السير وظـل هؤلاء فـي المدينة ـ كمـا تشير الوثائق ـ لمدة عام واحد (١) وقد أعطي الرحالة فابري فيلكس (١٤٨٠ - ١٤٨٨م) هذا التسامح من جانب المسلمين بعد أن عادت بيت المقدس إلي حوزتهم صيغة من الالتزام المقترن باتفاق سابق مع الصليبيين وهم العنصر المهزوم في المعركة إذا يذكر أن الصليبيين بعد هزيمتهم علي يد المسلمين وقبل مغادرتهم بيت المقدس وقعوا معاهدة مع هؤلاء الأخيرين تقضي بان يسمح للحجاج القادمين من البلدان اللاتينية بالإقامة في المستشفي (٢) وبالرغم من ذلك ، فقد كان مدركا لحقيقة إن المهزوم لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يملي شروطا علي المنتصر ، من خلال قوله أن المسلمين وافقوا علي ذلك " بمحض أرادتهم " لذا استمر السلطان في دفع الصدقة التي كان يقدمها ملك بيت المقدس يوميا إلي الحجاج المقيمين في مستشفي القديس يوحنا " تماما مثلما كان يفعل هذا الملك " (٣) .

ويبدو من التقارير التي تركها الرحالة الغربيين الذين زاروا مستشفي الاسبتارية بعد سقوط مدينة بيت المقدس ، بل وبعد رحيل الصليبيين كلية عن السواحل الشامية أن عمل أعضاء الجماعة فيها لم يستغرق عام واحد فقط بعد عام ١١٨٧م ـ مثلما أشارت وثائق الاسبتارية السالفة الذكر ـ وإنما استمر حتى فترة متأخرة في ظل سياسة التسامح التي اتسم بها المسلمون في موقفهم من الطوائف الدينية الأخرى . ومن هؤلاء الرحالة السير يوحنا مندفيل الذي بدأ رحلته من انجلترا إلي الأراضي المقدسة في عام ١٣٢٢م (٤) ولودلف فون سوكيم أحد الحجاج الألمان الذين زاروا فلسطين في الفترة ما بين عامي ١٣٣٦، ١٣٤١م (٥) ثم الرحالة فابري فيلكس السالف الإشارة إليه (٦) .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome I No. 847, P. 527, No. 599 P. 406.
Also: Roger de Hoveden: Vol. II. P. 90:
(2) Cf. Felix, Fobri : Op.cit, Vol. I Part II, P. 414. Fabri
(3) Cf. Ibid, Idem.
(4) Cf. The Trawels of Sir John Mandeville, P. 54.
(5) CF. Pilgrimage of Ludolph Von. Suchem in P.P.T.S. Vol. XII PP. 106-107
(٦) انظر ما سبق وأيضا : Felix, Fobri : Op.cit, PP. 285-335-395.

علي آية حال اتجه صلاح الدين بعد الاستيلاء علي بيت المقدس صوب الساحل لاسترداد مدينة صور . وكان قد أجتمع بها جحافل الصليبيين التي آوت إليها بعد الهزيمة في حطين وسقوط بعض المدن الصليبية بقيادة الماركيز كونراد دي مونتفرات ، الذي جاء إليها حوالي منتصف يوليو عام ١١٨٧م ، ورتب الماركيز الفرسان والرجالة علي طول الأسوار بعد أن حصن المدينة بخندق من ناحية البر وأسطول من ناحية البحر يتكون من سبعة عشر سفينة من الشواني (١) وعشرة قوارب صغيرة . وفي ديسمبر ١١٨٧م/ الثاني والعشرون من رمضان ٥٨٣هـ بدأ صلاح الدين حصار صور (٢) وكان يحترق رغبة للاستيلاء عليها ، فأحاط بها برا وبحرا وهاجمها من جميع الجوانب (٣) وقد أحكم الصليبيون الدفاع عن المدينة ، ولعب الاسبتارية دورا بارزا في هذا الصدد حيث كان وليم بورل القائد الأعظم للجماعة قد أتخذ منها مقرا له بعد فراره من حطين ، وانضم إليه بعض فرسان الاسبتارية المبرزين والذين قدموا من الغرب بإمدادات للجماعة مثل ارماند دي أسب Armeng and d`Aspe بريورسان جيل ، وقسطلان امبوستا Amposta ، ووليم أوفيرجين William of Auvergne وبونز دي بيجا Pone de Boja (٤) . وغيرهم .

(١) الشواني : جمع شيني وتسمي بالفرنسية Galere وبالإيطالية Galera وهي من أقدم أنواع السفن التي كان يتكون منها الأسطول الروماني ، وزادت أهميتها في العصور الوسطي عند الغرب والشرق . وكانت من أكبر السفن أكثرها استعمالا لحمل المقاتلة عليها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم وكان متوسط ما عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا ، ولها حوالي مائة مجداف ، انظر :
محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، إسكندرية ١٩٧٨م ، ص ٢٣٦ ح٣
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤٢ وما بعدها .
(3) Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 80.
(4) Cf. Rohricht R. Regesta Regmni Nos 659-661, 665-668 PP. 175-178.
وجميعها تشير إلي استعدادات الصليبيين داخل صور وعناصر الاسبتارية التي اشتركت في الدفاع عنها :
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 99.
King E.J. : Op.cit, P. 132.

وقد أشاد ثييري Thierry مقدم الداوية السابق في خطابه إلي ملك انجلترا (يناير ١١٨٨م) بدور الاسبتارية في النجاح الذي أحرزه ماركيز مونتفرات ضد الأسطول المصري ، حيث استطاع هذا الأخير بمساعدة الجماعتين الاستيلاء علي أحدي عشر سفينة { شلنديه Galleys } ، وأسر أمير البحر { أدميرال } الإسكندرية مع ثمانية آخرون من البحارة (١) ، مما أضطر صلاح الدين في النهاية إلي رفع الحصار عن صور والعودة إلي عكا { يوم الأحد أول يناير ١١٨٨م/٢ ذي القعدة ٥٨٣هـ } (٢) وبالإضافة إلي ذلك فان إشارة العماد الاصفهاني إلي أنه أثناء حصار صور " كثرت أسواء الاسبتارية " (٣) لدليل علي أن أعضاء الجماعة اظهروا كفاءة حربية فاقت غيرهم من الصليبيين في الدفاع عن المدينة بالقدر الذي جذب انتباه المعاصرين .

وأعرب الماركيز كونراد دي مونتفرات عن امتنانه إزاء دور فرسان الجماعة في خطاب إلي رئيس أساقفة كانتربيري بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١١٨٨م شرح فيه دفاع الصليبيين المستميت عن مدينة صور . فقد اثني علي ما قدمه الاسبتارية من مساعدات بأن وضعوا كل مواردهم تحت تصرفه ، بالإضافة إلي الخدمات الحربية التي قاموا هم أنفسهم بها علي مستوي عال من الأداء (٤) ولعل في ذلك صيغة مبالغة .

---

(1) Cf. Cartulaire, I No. 847, P. 527.
Also: Roger de Hoveden: Vol. II. P. 90.
Rohricht R. Regesta Regni No. 669, PP. 178-179.

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٤ .
أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١١٩- ١٢٠.

(٣) الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ١٦١ .

(4) Cf. Cartulaire, I No. 858, PP. 531-532.
Also: Rohricht R. Regesta Regni No. 670, P. 179.
ويذكر جيوفري دي فينزوف أن المبلغ الذي أودعه هنري الثاني ملك انجلترا لدي الاسبتارية لخدمة الأراضي المقدسة وقدرة ٣٠٠٠٠ ثلاثون ألف مارك جصص للدفاع عن مدينة صور . أنظر :
Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 82.
وهذا الرقم فيما يبدو غير بعيد عن الحقيقة أنظر :
Setton, K.M. : Op.cit, II. P. 55.

وبينما كان صلاح الدين علي حصار مدينة صور ، سير احد قواده إلي هوتين التي منحت للجماعة بمقتضي وثيقة صادرة عن همفري دي تورون كند سطبل المملكة منذ عام ١١٥٧م (١) " وهي من أحصن القلاع وامنعها " وبعد مقاومة من جانب الحامية اضطرت إلي التسليم مقابل الأمان بعد أن منع عنهم المسلمون دخول المؤن والإمدادات . وعاد الحصن إلي حوزة المسلمين في السادس والعشرين من ديسمبر ١١٨٧م/٢٣ شوال ٥٨٣هـ (٢) .

وكان صلاح الدين عندما سار إلي عسقلان قد جعل علي قلعة الاسبتارية " كوكب الهوى " قوة لحصارها ، وقطع طريق الإمدادات عنها ، وذات ليلة لما غافل النوم أفراد هذه القوة الذين في نوبة الحراسة ، لم يشعروا إلا وفرسان الجماعة " قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم " ثم اخذوا ما كان لديهم من طعام وسلاح وغيره ، وعادوا إلي القلعة " فتقووا في ذلك قوة عظيمة " ووصل الخبر بهذه الحادثة إلي صلاح الدين عند رحيله عن صور " فعظم ذلك عليه " (٣) وفي مارس ١١٨٨م/ المحرم ٥٨٤هـ خرج من عكا ونزل علي كوكب الهوى " وحاصرها وصابرها أياما ولم يتمكن من فتحها لمناعتها وحصانتها " (٤) فرحل عن الحصن بعد أن رأي " أن مقاتلته تطول وان مسألته تعول " (٥) وأنه " لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، فقد كان حصنا قويا فيه رجال شداد

---

(١) أنظر ما سبق وأيضا : Cartulaire, I No. 258, PP. 195-196.
(٢) عن تفاصيل أحداث حصار هونين ومفاوضات التسليم أنظر :
العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ١٧٠- ١٧١ .
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٣ ، أبن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤٧ .
(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ١٧٧- ١٧٩ .
أبن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤٦- ٢٤٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٥٢ ، العماد الاصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .
Also : Rascbault, Ch. : Op.cit, P. 221.
(٥) العماد الاصفهاني : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

من بقايا السيف (يقصد حامية الاسبتارية) وميرة عظيمة " (١) وقبل أن يغادره أوكل صلاح الدين أمر حصار الحصن " ومضايقته " إلي الأمير صارم الدين قايماز النجمي بعد أن رتب له خمسمائة فارس (٢) ويذكر المؤرخون المعاصرون وكذلك المحدثون إن صلاح الدين قصد من البدء بالنزول علي كوكب " إضعاف قلوب من في صور وينهي أمرها به " (٣) ويضيف ذلك دليل آخر علي أن الاسبتارية كانوا يشكلون عنصرا رئيسيا وهاما في الدفاع عن هذه المدينة فنظر المسلمون إلي أن سقوط قلعتهم هذه قد يؤدي إلي إضعاف عزيمتهم وانصرافهم عنها .

وبعد أن رحل صلاح الدين عن كوكب سار إلي دمشق ، حيث أقام هناك عدة أيام ، ثم غادرها إلي حمص ونزل علي بحيرة قدس ، كي تجتمع إليه العساكر . وفي مايو ١١٨٨م/ مستهل ربيع الآخر ٥٨٤هـ نزل علي تل قبالة حصن الأكراد وأقام شهرا ، كاملا صعد في أثنائة إلي قلعة فرسان القديس يوحنا المنيعة هذه وحاصرها يوما " يجسها " " فما رأي الوقت يحتمل حصاره " (٤) فشن الإغارة علي نواحي الحصن (٥) وأيضا صافيتا والعريمة (٦) وغيرها من الحصون (٧) وقد تمكن من فتح حصن يحمور الذي أقر ملكيته للاسبتارية في أكتوبر ١١٧٧م ريموند الثالث كونت طرابلس (٨) ولم تستطع حامية الحصن من الفرسان التصدي لهجوم صلاح الدين علي

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٥ .
(٢) أبو شامة : ج٢ ص ١٢٠، ابن واصل : ج٢ ص ٢٥٢ ، أبو الفدا : ج٣ ، ص ٧٤ .
(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٤ .
Also : Rascbault, Ch. : Op.cit, P. 221.
(٤) ابن شداد : المصدر السابق ص ٨٦ ، أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ٧٤ .
Also : Rascbault, Ch. : Op.cit, P. 223.
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٦ .
(6) Cf. Cartulaire, I No. 519, PP. 353-354.
(٧) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٣ ، ص ١٠١ .
(8) Cf. Cartulaire, I No. 519, PP. 353-354.

القلعة وانتهي الأمر بسقوطها بعد أن لحق بها الدمار (١) .

وفي الطريق إلي جبلة مر صلاح الدين بقواته تحت حصن المرقب " وهو للاسبتار ، فوجده لا يرام ولا لأحد فيه مطمع " (٢) وقد دعم موقف حامية الاسبتارية في الحصن - إلي جانب مناعته - وجود أسطول ملك صقلية بقيادة أمير البحر مارجريت البرنديز Margrete de Brindisi راسيا قبالة المرقب (٣) وبينما لم يتمكن صلاح الدين من مهاجمة المرقب أو حصاره ، فقد أستطاع الاستيلاء علي أثنين من مدن الاسبتارية واقطاعاتها الهامة هما بلنياس Valenie وجبلة (٤) أخذ الأولي دون مقاومة (٥) وكذلك الثانية ما عدا القلعة التي ظلت ممتنعة فقاتلها حتى سلمت بالأمان (٦) واستعرض " ثييري " في خطابة السالف الذكر إلي ملك انجلترا موقف الفرسان الاسبتارية الصلب ودفاعهم المستميت عن حصونهم في كوكب الهوى التي " لا تزال تقاوم المسلمين بعناد " وأيضا " الكرك " Cragus of the Haspital (Cratus) (حصن الأكراد) والمرقب (٧) .

لذا كان الغرب الأوربي علي علم دائم بما تبذله الجماعة في سبيل حماية قلاعها وأملاكها وكذلك المدن الصليبية الهامة . وقد ساعدها علي مواصلة هذا الدور تلك الإمدادات

---

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٢٢٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٥٥ .
أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٦ .

(٢) أنظر : أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ٧٤ .

(٣) أنظر : العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي في ميخائيل اماري : المكتبة العربية الصقلية ص٢٠٦ - ٢٠٧ . ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ي ١٢٧ .

(4) Cf. Cartulaire, I No. 782, PP. 490-491, No. 783, PP. 491-496.
Also : Les Archivesm P. 161.

(٥) العماد الاصفهاني : أنظر ميخائيل اماري ص ٢٠٧ .
أبو شامة : الروضتين ج٢ ي ١٢٧.

King E.J. : Op.cit, P. 133.

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٢٥٨- ٢٥٩ ، ابن شداد : النوادر ص ٨٩ .
ابن العديم : زيدة الحلب ج٣ ، ص ١٠٣ .

(7) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 90.
Also : Cartulaire, I No. 847, P. 527.

والنجدات العاجلة التي أرسلت إليها من المراكز التابعة لها في أوربا ، وهذا الموقف من جانب الاسبتارية في وقت أصبحت المملكة الصليبية شبه منهارة ، ولم تصل حملة صليبية لإنقاذها ، كان موضع تقدير من جانب البابوية بشكل خاص وعبر عنه مرسوم أصدره البابا كلمنت الثالث Clement III (١١٧٨- ١١٩١م) في السابع من ابريل ١١٨٨م يأمر فيه أساقفة العالم المسيحي بحث " المسيحيين " علي بذل التبرعات إلي الاسبتارية من أجل نجدة الأراضي المقدسة (١) حيث يبدوا من المرسوم كما لو كان أعضاء الجماعة هم العنصر الصليبي المسئول مسئولية كاملة عن تدبير سبل الدفاع عن الأراضي المقدسة وحمايتها .

وأثناء انشغال صلاح الدين بحصار قلعة صفد التابعة للداوية في نوفمبر ١١٨٨م/ رمضان ٥٨٤هـ (٢) بادر الاسبتارية المقيمون في مدينة صور بإرسال نجدة إلي قلعتهم " كوكب " حيث شعروا " أن صلاح الدين عن قصدها لا ينكب " وذلك علي أمل أن تثبت القلعة حتى تأتيهم المساعدات من الغرب . ويشير إلي ذلك العماد الكاتب بقوله علي لسان مقدم الاسبتارية : " لعلها تثبت إلي أن توافينا من البحر ملوكنا ، وتعود إلي عادة الانتظام سلوكنا ، فما تبطئ نجداتنا " (٣) وكان أن سيروا إلي حصن كوكب مائتي فارس وقع واحد منهم في أيدي أحد رجال صارم الدين قايماز قائد الحامية المقيمة علي حصار الحصن . وعلم منه قايماز بأمر المدد القادم لكوكب ، فبادر لمقابلتهم ، وأوقع بهم ، ثم أرسل أسراهم إلي صلاح الدين وهو علي صفد وكان من بينهم " مقدمان

(1) Cartulaire, I No. 851, PP. 528-529.

(٢) ابن شداد النوادر السلطانية ص ٩٥ .

(٣) الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٧٠ .

مـن الاسبتار " فهم السلطان بقتلهما لأنه " ما كان يبقي علي احد من الاسبتارية أو الداوية " لكنهما استعطفاه عند المثول أمامه فأمر بأعتقالهما (١) .

ولما فرغ صلاح الدين من حصار صفد في السادس من ديسمبر ١١٨٨م/ ١٤ شوال ٥٨٤هـ سار يريد كوكب . فنزل علي سطح الجبل " وجرد العسكر " وأحدق بالقلعة وضايقها متخذا لنفسه موضعا بعيدا عن المدى المؤثر لنشاب حاميتها الاسبتارية وحصنه بحائط " ينستر وراءه " وكانت الأمطار متواترة والوحول عظيمة وعاني شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار " (٢) ويذكر العماد إن فرسان الجماعة الذين بالقلعة " قاتلوا أشد قتال ... وصوبوا الصخور المردية ورفعوا المنجنيقات الموجهة " .ورغم ذلك ظل صلاح الدين علي حصار الحصن حتى تمكن النقب من سوره وعندما أحس الفرسان بذلك " علموا أنه مأخوذ " فطلبوا الأمان بعد مقاومة استمرت ١٨ شهرا فأجابهم إليه وأمنهم ، وتسلم الحصن المذكور في الخامس من يناير ١١٨٩م/ منتصف ذي القعدة ٥٨٤هـ وسير الاسبتارية إلي صور (٣) .

ولم يتوقف صليبوا الشام بعد ما أصابتهم الهزيمة ، وتساقطت معاقلهم الواحد تلوا الأخرى علي هذا النحو ، عن الاتصال بالغرب الأوربي لإيقافه علـي أحوالهم السيئة ، وواصل الاسبتارية دورهم

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٠- ٢٧١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٧٢- ٢٧٣ .
أبو اليمن العليمي : كتاب الأنس الجليل ج١ ص ٣١٥ .
(٢) ابن شداد النوادر السلطانية ص ٩٦ .
(٣) عن أحداث حصار كوكب حتي الاستيلاء عليه بالتفصيل أنظر :
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٧٣- ٢٧٤ .
أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣٥- ١٣٦ .
وإشارة مختصرة في : ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ، ص١٠٨ .
أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ٧٥ .
أبو اليمن العليمي : كتاب الأنس الجليل ج١ ص ٣١٦ .

في هذا المجال دون اعتماد علي غيرهم ، فقد كانوا يرسلون بهذه الأخبار إلي زعماء الغرب ممن يتوسمون فيهم القدرة والرغبة في تلبية النداءات الصليبية للمساهمة في إنقاذ المملكة الصليبية المنهارة . فبالإضافة إلي خطابات سابقة بعث ارماند دي أبس Armeng and d`Aps مقدم الجماعة (١١٨٨- ١١٨٩م) برسالة إلي ليوبولد Leopold دوق النمسا في نوفمبر ١١٨٨م يعلن فيها تخريب صلاح الدين لانطرطوس ما عدا حصن الداوية ، واستيلائه علي بلنياس وجبلة واللاذقية وصهيون ودربساك وبغراس ، ومقاومة المرقب وإنطاكية ، ثم استرداده الكرك والشوبك وصفد وكوكب الهوى (١) ولم تكن هذه مجرد تقارير إلي زعماء الغرب بما وقع في الشرق اللاتيني بل كانت تحمل في ثناياها ما يثير روح الحماس لدي صليبي أوربا لإغاثة إخوانهم في الشام .

وفي هذا الصدد بذل ممثلوا الاسبتارية المقيمين في مراكزها المنتشرة هناك الكثير من المساعي لدي البابوية والملوك والبارونات ، وكانوا يساعدون في التجهيز من يعرب عن استعداده للخروج في حملة صليبية أيان كان حجمها إلي الشرق ، بأن يزودوه بالمرشدين والإدلاء وإمدادات لمقر الجماعة الرئيسي ، وفي بعض الأحيان كانوا يدبرون له العجز في النفقات أو مستلزمات الرحلة الطويلة مع احتفاظهم بحقوقهم وفقا لنظام الجماعة المصرفي في المعاملات المالية .

وقد أحدثت هزيمة الصليبيين في حطين وسقوط بيت المقدس والعديد من المعاقل الفرنجية في الشرق رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ، الذي أدرك أخيرا نتيجة إهماله في عدم الاستجابة

(1) Cartulaire, I No. 863, PP. 549.

للنداءات المتكررة التي أصدرها الصليبيون بالشام في السنوات الأخيرة (١) ، فأسرع البابا كلمنت الثالث Clement III بعد أن نقل إليه جوسياس Jase رئيس أساقفة صور حقيقة موقف الصليبين بالشام إلى الاتصال بالإمبراطور فردريك الأول باربروسا وملكي انجلترا وفرنسا للإعداد لحملة صليبية من اجل إنقاذ المملكة اللاتينية من دمار صلاح الدين ، وكانت الحملة الصليبية الثالثة (٢) .

أما صليبوا الشام فقد ارتفعت روحهم المعنوية وتحولوا من مجرد الدفاع إلى الهجوم ومحاولة استرداد مدنهم المفقودة على الساحل ، وذلك بعد أن أطلق صلاح الدين سراح ملكهم جاى لوزينان في يوليو ١١٨٨م(٣) فقد أسرع الملك الصليبي قاصدا مدينة صور على أمل أن يتولى زعامة القوات الصليبية في حربها ضد المسلمين ، لكن رفض كونراد دى مونتفرات السماح له بدخول المدينة (٤) فاضطر جى إلى البقاء في خيامه خارج أسوارها حيث انضم إليه الاسبتارية وغيرهم ممن انتشروا في مجاورات المدينة خوفا من المسلمين ، وأخيرا امتثل لنصيحة البطريرك هرقل وفرسان القديس يوحنا الذين بجانبه ورحل قاصدا مدينة عكا في أغسطس ١١٨٩م بغرض حصارها ومحاولة استردادها من المسلمين ، لتكون مقرا له ولحكومته وقد اجتمع حوله حوالي سبعمائة فارس تزايدوا بما انضم إليهم من الجموع الصليبية القادمة من الغرب ، وكذلك

---

(١) أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٤١- ٨٤٢ .

Also : Setton, K.M. : Op.cit, Vol. II, P. 47.

(2) Cf. Arch & Kingsferd, P. 307 Seq.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٥٢- ٨٥٣ .

(٤) أنظر : أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانيه ، ص ٩٨ .

Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 103.

ويضيف هذا الأخير أن الماركيز صد الملك عن دخول المدينة رغم أنها كانت تحت وصايته بشرط أن يعيدها للملك أو لورثته في المملكة ، كما شن حربا ضد البيازنه لأنهم عضدوا جي .

Also : Jacques de Vitry, Op.cit, P. 107 .

لحاق كونراد دى مونتفرات به في النهاية لمساعدته في الاستيلاء على المدينة (١) وفى أحداث الصراع علـى مدينة عكا بين الصليبين والمسلمين اخـذ الاسبتارية موقعهم فـي الجيش الفرنجى المختلط فـي معـركة الرابع من أكتوبر ١١٨٩م / العشرين مـن شعبان ٥٨٥هـ إلى جانب الملك جى ، وفى حرب ذلك اليوم كانوا متحمسين للدفاع ، فما إن أفسحوا الطريق حتى أنقذهم الداوية التي اصطدموا بقوات المسلمين وأعاقوها من الاندفاع إلى داخل المعسكر الفرنجى رغم أن الضغط عليهم كان شديدا (٢) وقد قتل مقدم الداوية في هذه المعركة وأكثر من ثمانية عشر من فرسانه بينما لم تتحدد خسائر الاسبتارية فيها (٣) .

وعند اصطفاف الجيش الفرنجى لتطويق ، عكا اتخذ فرسان القديس يوحنا موقعهم في حصار المدينة فيما يلي موقع الجنوية الذين كانوا اتجاه جبل مصراته على مقربة من البحر (٤) وكان الموضع الذين عسكروا فيه بقيادة مقدمهم ارماند دى اسب ، قبالة السور الشمالي لعكا محصنا بخندق مزدوج ، وقد تعهد به معهم الماركيز كونراد دى مونتفرات حيث تلاه الاسبتارية والماركيز هنرى

---

(1) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 126.
Also : Geoffrey de Vinsauf : Idem.
Jacques de Vitry, Op.cit, P. 108 .
ابن شداد : النوادر ص ١٠٣ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٤٢ .
Rilley-Smith : Op.cit, P. 88, King, E.J. Op.cit, PP. 136-137.

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 106.
وعن تفاصيل المعركة وأطوار الصراع بين الطرفين علي المدينة أنظر :
ابن شداد : النوادر ص ١٠٣- ١١٣ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٤٤ وما بعدها .
Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 102- 103, King, E.J. Op.cit, PP. 137-139.

(3) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 84.
Also : Oman, Ch.: Op.cit, Vol. I, PP. 335-336.

(4) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 91.

كونت شامبانى بقواته (١) ويذكر جيوفرى دى فينزوف إن فرسان الجماعة والماركيز قاموا بحماية الفراغ الموجود في السور والخالي من الحصار بشجاعة وساعدوا بذلك على إغلاق المدينة من ناحيتي البر والبحر (٢) .

وبينما كان الصليبيون على حصار عكا اختير مقدم جديد للجماعة من إحدى العائلات البارزة والشهيرة في الأراضي المقدسة هو جارنبير صاحب نابلس Garnerius de Neapoli (أكتوبر ١١٩٠- أكتوبر ١١٩٢م) وذلك أثناء تواجده في أوربا (٣) بينما اختفي ارماند دي اسب الذي كان قائدا لفرقة الجماعة المشتركة في حصار عكا عن هذه الوظيفة العليا في ظروف غامضة ، ربما لأنه اختير في ظروف عصبية بطريقة غير قانونية لا تتفق ونظام الاسبتارية الخاص بانتخاب المقدم (٤) وفي غضون هذا الحصار الطويل الأمد جرت وقعات بين المسلمين والصليبيين كان لفرسان القديس يوحنا دور فيها بحيث لم يغفل الإشارة إلي وجودهم في حقل المعركة كعنصر محارب بين قوات الفرنجة مؤرخين آخرين عاصرا هذه الأحداث هما : العماد الاصفهاني وامبرواز Ambreoise (٥) وقد نشط الصليبيون في قتال المسلمين بعد أن بدأت طلائع الحملة الصليبية الثالثة في الوصول إلي الشام، مما بعث فيهم مزيدا من الحماس بعد أن كانوا ثبطت همتهم علي اثر الهزائم ، المرة التي ذاقوها وظهر نشاط الاسبتارية الحربي ضد المسلمين جليا في اثنين من هذه

---

(1) Cf. Ibid, Idem.
Also : Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 103.

(2) Cf. Itinerary of Richard King of the English and Others to the Holy Land. P. 110.

(3) Cf. Les Archives, P. 210.

(٤) عن القواعد المتبعة في انتخاب مقدم للجماعة أنظر ما سبق وأيضا :
Cartulaire Tome I No. 30, PP. 29-30.
Status d'Alphonse de Portugal : Op.cit, PP. 35-36.

(٥) أنظر : : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٤٠٣- ٤٠٥ ، ٤٤٨- ٤٤٩ .
Also : The Crusade of Richard Lion-Heart P. 141-142, P. 202.

المعارك الأولـــي:" الوقعة العادلية " في يوم الأربعاء السادس والعشرون من يوليه ١١٩٠م/ ٢٠ جمادي الآخرة ٥٨٦هـ (١) والثانية " وقعــة الكمين " فــي يوم الجمعــة الثالث والعشرون من نوفمبر ١١٩٠م/ ٢٢ شوال ٥٨٦هـ (٢) وأثناء هــذه المــوقعة الأخيرة حينما قامت حامية عكا الإسلامية بهجوم مباغت علي البوابة الشمالية وقع عبء القتال فــي هذا الهجوم علــي الاسبتارية الذين حافظوا علي تشكيلهم بشجاعة وتمكنوا بعد قتال عنيف مــن صدهم وإرجاعهم إلي ما وراء أسوار المدينة (٣).

وفــي مسينا بصقليــة عقـد كل مــن فيليب اوغسطس ملك فـرنسا وريتشارد قلب الأسـد ملك انجلتــرا (١١٨٩- ١١٩٩م) اجتماعا حضــره جارنبيير دي نـابلس مقــدم الاسبتاريــة الــذي كان قادما هــو الآخــر مــن الغرب ليتولى مهام وظيفته (٤) تعهد فيه العاهلان أن يعملا سويا طوال الحملة بإخلاص مــن أجــل رعاية الحجاج مــن كلا المملكتين القادمين منهــم أو المقيمين ، فطالب مقــدم الجماعــة بأن هذا التعهد يجب أن يراعــي أيضا لصالح الاسبتارية ، وأقسـم علــي ذلك أيضا الايرلات والبارونات ، بعــد أن أضافوا شرطا آخــر وهــو أن لا يحق لأي فــرد فــي جيش الحملـــة أن يلعـب دورا مــن أجــل الحصــول علــي الأمــوال فيما عـدا الفرسان ورجال

(١) العماد الاصفهاني : ص ٤٠٣- ٤٠٥ .
ابن شداد : النوادر ص ١٢٩- ١٣١ .
(٢) العماد الاصفهاني : ص٤٤٨- ٤٤٩ .
ابن شداد : النوادر ص ١٥٠- ١٥١ .

(3) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 107.
Also: King, E.J. Op.cit, PP. 143.
(4) Cf. Ambroise: Op.cit, P. 142.
Also: King, E.J. Op.cit, PP. 142.

الدين (١) ويلاحظ أن هذه العهود التي كانوا يقسمون علي الالتزام بها كثيرا ما كانت تنتهك أو لا تراعي في الوقت الذي تلعب فيه المصالح والأطماع الشخصية دورا هاما في مسيرة الأحداث ، لكن يمكن القول أن الاسبتارية ممثلين في مقدمهم أسهموا بذلك في وضع خطة عمل الحملة الصليبية الثالثة المقبلة قبل وصول طرفيها الأساسيين إلي سواحل الشام ، كما ضمنوا لأنفسهم - في نفس الوقت - حق رعاية المصالح والحماية من جانب هؤلاء القادمين الجدد هذا بالإضافة إلي المكانة التي حظي بها أعضاء الجماعة لدي قائد الحملة إلي نهايتها ريتشارد الأول وذلك علي اثر مصاحبة المقدم جارنيير له في الرحلة من الغرب ، والتي خلقت فيما يبدو نوعا من الثقة المتبادلة والتقدير لدور الجماعة من جانب الملك الإنجليزي . وقد بدأت دلائل ذلك بأن عهد ريتشارد إلي جارنيير في عام ١١٩١م بالإمبراطور إسحاق كومنين حاكم جزيرة قبرص وزوجته وابنهما ليودعوا سجناء لدي الجماعة في حصن المرقب (٢) ثم ما تلاه من إلقاء مهام خطيرة علي عاتق فرسان الجماعة في مناسبات مختلفة من أحداث الحملة أهمها المفاوضات مع المسلمين (٣) .

علي آية حال ، تقوي مركز الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا بوصول الأمير فريدرك السوابي علي رأس البقية الباقية من حطام حملة فريدريك باربا روسا الألمانية ، فشن هجوما كبيرا علي المدينة في أواخر سبتمبر ١١٩٠م/ أواخر شعبان ٥٨٦هـ (٤) وزاد موقفهم تحسنا بوصول

---

(1) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 161.
(2) Cf. Estoire D'Eracles, PP. 168-169.
وكان ذلك تاديبا لإسحاق لمعاداته الصليبيون ، ومصادرته بعض السفن الإنجليزية التي جنحت علي شاطئ جزيرته ثم أسر من فيها ومن بينهم الأميرة جوانا أخت ريتشارد .
(٣) أنظر : العيني : عقد الجمان ج٧ ق١ لوحة ١١٥ .
(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨١٦ .

فيليب أغسطس في العشرين من ابريل ١١٩١م/ ١٢ ربيع الأول ٥٨٧هـ ، حيث هاجم هو الآخر عكا فور وصوله وتشجع بذلك بقية الصليبيين فاخذوا " يعملون آلات الحصار في أسوار المدينة ويقذفونها بالقذائف قذفا متواصلا ليل نهار " (١) ثم ازداد المحاصرين قوة بقدوم ريتشارد قلب الأسد في الثامن من يونيه ١١٩١م/ ١٣ جمادى الأولي ٥٨٧هـ في حين ساء موقف حامية عكا الإسلامية (٢) .

ولم تفلح الهجمات القوية التي شنها صلاح الدين علي الجيوش الصليبية من اجل إنقاذ المدينة وعندما أشتد الضيق بالحامية أضطر قائديها بهاء الدين قراقوش وسيف الدين المشطوب إلي الاستسلام ، وثم بدأت المحادثات بين الطرفين بشأن تسليم المدينة ، فذهب المشطوب بنفسه إلي المعسكر الصليبي وقابل ملك فرنسا من اجل الاتفاق علي الشروط (٣) وعندما يئس صلاح الدين من أمر عكا اضطر إلي الدخول في المفاوضات مع الصليبيين وأناب عنه فيها الملك العادل بينما مثل الاسبتارية الجانب الصليبي (٤) وقد فشلت هذه المفاوضات لتشدد الصليبيين إزاء شروط السماح لحامية عكا بالخروج من المدينة سالمة ، لكن انتهت الأزمة بان تدخل الماركيز كونراد دي مونتفرات ، وعقد اتفاقية منفردة مع الحامية دون اخذ موافقة صلاح الدين ودخل الصليبيون عكا في الثاني عشر من يوليه ١١٩١م/ سابع عشر جمادى الأخير ٥٨٧هـ

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٨٣-١٨٤ .
ابن شداد : النوادر ص ١٥٦-١٥٧ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٦١ وما بعدها .
أبو شامة : ج٢ ، ص١٨٤ وما بعدها .
(٣) ابن شداد النوادر ص ١٦٧- ١٦٨ .
أبو شامة : ج٢ ص ١٨٦- ١٨٧ .
العيني عقد الجمان ج١٧ ق١ ورقة ١١٥ .
(4) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 329.
ابن شداد : النوادر ص ١٦٧- ١٦٨ ، أبو شامة : ج٢ ص ١٨٧ .

بعد أن حصروها قرابة عامين (١).

وبعد استيلاء " الفرنج " علي عكا لم تطل إقامة فيليب أوغسطس بالشام إذ اعتذر ، عن البقاء متعللا بالمرض وأبحر من صور في ٣ أغسطس ١١٩١م رجب ٥٨٧هـ ، فأصبح ريتشارد قلب الأسد الرئيس الأوحد للحملة الصليبية الثالثة . وقد فكر هذا الأخير في استرداد شاطئ فلسطين من عكا حتى عسقلان (٢) فبدأ زحفه بحذاء ساحل البحر في أواخر أغسطس ١١٩١م/ مستهل شعبان ٥٨٧هـ (٣) وتحرك الجيش في تشكيل منظم كان الداوية في مقدمته بينما اخذ الاسبتارية مكانهم في المؤخرة أو " الساقه " لحمايته من الخلف (٤) ويذكر جيوفري دي فينزوف أن أعضاء الجماعتين بما لديهم من قوة تحمل عالية قدموا دليلا علي الشجاعة الفائقة والإقدام الجسور (٥) وسار صلاح الدين في أثرهم حيث اخذ المسلمون " يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون " (٦) وقد عانت مؤخرة " ساقه " الصليبيين من الاسبتارية الكثير بالطبع من جراء هذه الهجمات التي اعتادها المسلمون في قتالهم أو مطاردتهم الفرنجة ، ويبدوا أن الأفضل بن صلاح الدين نجح في عزل المؤخرة عن

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٨ ، ابن شداد : النوادر ص ١٧٠- ١٧١ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ مخطوط مصور لوحة ٢٦١ وما بعدها .
العيني : عقد الجمان ج١٧ ق١ ورقة ١١٥- ١١٦ .

(٢) أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق الصفحات ٨٦٩- ٨٧١- ١٧٣ .

(٣) ابن شداد : النوادر ص ١٧٥ .

(4) Ambroise : Op.cit, P. 241.
Also : Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 228.
وعن هذا التشكيل يذكر ابن شداد أنهم انقسموا إلي ثلاثة أقسام : القسم الأول الملك العتيق جفري { جي } وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والثاني الانكتار والفرنسية معه في الوسط وفي الساقة أولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخري دون الإشارة إلي الداوية أو الاسبتارية فهل اغفل ذلك عن عمد أو أنه لم يعرفه من الأسري والمستأمنين الذين عرف عنهم هذا التشكيل أنظر النوادر ص ١٧٩ .

(5) Cf. Itinerary of Richard, Idem.

(٦) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٠ .

بقيـــة الجيش الصليبــي ثم لحقت بـه بعد أن عبر ريتشـارد نـهر حيفا (١) فقد توقف الصليبيون في حيفا لمدة ثلاثة أيـام تحــرك بعدها الجيش فـي نفس التشكيل لكن بحذر أكثر من العادة (٢) وعند مجدل يابا Merla غير ريتشارد فـــي تنظيم صفـوف جيشـــه ، فتولـي هـو قيادة المقدمـة حتى يستطيع بنفسه هو التغلب علي مصاعب الطريق ، بينما عهد إلـي الداوية بحراسة المؤخرة مع الاسبتارية (٣) وكـان ذلك بـلا شك تدعيم من جانب الملك لساقة الجيش بعد أن لاحظ ثقل هجمات المسلمين عليها . ثم استأنف ريتشـارد السير حتـى وصل قيسـارية فوجدها مخـربة ، وتقدم بعد الاستيلاء عليها صـوب ارسوف وقد " حـافظ الجيش في مسيرة علي تماسكة بان كان في جماعات متقاربة أكثر من العـادة . وفقد الداوية والاسبتارية الكثير من الفرسـان بوجودهم فـي هذا التشكيل حيث هجمات المسلمين المتكررة علي صفوفه " (٤) ولاحظ المؤرخ ابن شداد هذا الوضع فعبر عنه بقوله أنـه " كلمـا ضـعف قسم عاونـه الذي يليه ، وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون يحدقون بهم من ثـلاث جوانب والقتال عليهم شديد ٠٠٠ هذا والقوم (الفرنجة) علـي أتم ثبات علي ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون (٥) .

---

(١) أنظر ابن شداد : النوادر ص ١٧٥- ١٧٦ .

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 228.

(3) Ibid, P. 230.

(4) Ibid, PP. 230- 231.

(٥) النوادر : ص ١٨٠ .
أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٠ .

ويرجع وضع الاسبتارية في المؤخرة والداوية في المقدمة علي مدي الأيام الأولي من التقدم إلي معرفتهم الجيدة بالبلاد ومهارتهم وشدة بأسهم في القتال ، كما أن في صفوف قوات الجماعتين عناصر من التركبولي رماة " النشاب " من علي ظهور الخيل مثل عناصر التركمان في جيش المسلمين ، ومن ثم كانوا ملائمين لمباراة هؤلاء الأخيرين ومناضلتهم عندما يشنون هجماتهم المعتادة علي الجيش الصليبي أثناء المسير ، وخصوصا المقدمة والمؤخرة أكثر أقسام هذا الجيش عرضة لأخطارهم (١) ولعل هذا يفسر سبب تغيير الملك ريتشارد للتشكيل عند " مجدل يابا " حيث ضم الداوية إلي الاسبتارية في المؤخرة ، لتدعيم هؤلاء الأخيرين بعد أن اشتدت هجمات المسلمين عليهم واصبحوا غير قادرين علي مجابهة الضغط الناجم عن هذه الهجمات .

ثم كان أن اتجه صلاح الدين إلي إحداث ثغرة في صفوف الجيش الصليبي وذلك عن طريق السماح للمقدمة والقلب بالتقدم بينما يعرقل المؤخرة بغارات لا تنقطع . فإذا ما أمكنه مضايقة الاسبتارية إلي درجة إجبارهم علي التوقف أو القيام بهجوم مضاد يكون بقية الجيش قد تقدم في المسير مما يساعد علي إحداث ثلمة في صفوف الرجالة المتراصة . وفي هذه الثغرة يلقي صلاح الدين باحتياطياته وهو علي ثقة من خوض المعركة في الفضاء { خارج أسوار المدن } مع عدو مفتت علي الأقل إلي قسمين وربما أكثر (٢) وهذا ما حدث بالفعل علي طول الطريق إلي ارسوف ولولا اتخاذ الفرنج رد فعل مضاد بالحفاظ علي تشكيلهم وتماسكهم لاستطاع صلاح الدين الإيقاع بهذا الجيش قبل وصوله مقصده .

(1) Cf. Oman, Ch.: Op.cit, Vol. I, PP. 307.
(2) Cf. Ibid, P. 312.

كيفما كان الأمر ، بعث الملك ريتشارد بالجواسيس لاستطلاع أحوال الطريق إلي ارسوف وقد عادوا ليخبروه إن المسلمين في حشد ضخم ينتظرون اقترابهم (١) فقد دخل صلاح الدين شعرا ارسوف حتى توسطها إلي تل عند قرية تسمي " دير الراهب " ثم نـزل هناك فـي يـوم الثلاثاء ٣ سبتمبر ١١٩١م/ ١٠ شعبان ٥٨٧هـ (٢) ولما علم ريتشارد بذلك أخذ يجهز جيشه استعدادا للقتال فقسمه إلي اثني عشر سرية وحددها في خمسة أقسام رئيسية . كان الداوية في الصف الأول بينما سار الاسبتارية فـي أخر التشكيل (٣) وكان قسمهم يتكون مـن محاربين مختارين نظموا في سرايا " وقد تكتل الجميع متلاصقين لدرجة إنها إذا ألقيت بتفاحة لا تقع علي الأرض دون لمس رجل أو جواد " . وضمت مؤخرة الجيش - حيث الاسبتارية - خيول حمل الأمتعة وعليها المؤن وأشياء أخري وكانت فيما بين الجيش والبحر كي تصبح بمنأى عن هجوم العدو (٤) .

وأقام الجيش الصليبي ذلك اليوم علي نهر القصب ، حيث جرت مراسلات بين الطرفين اجتمع علي أثرها العادل بالملك ريتشارد لكن لم تسفر المفاوضات بينهما عن نتيجة (٥) فأمر صلاح الدين أثقال قواته بالرحيل يوم الجمعة ٦ سبتمبر ١١٩١م/ ٣ شعبان ٥٨٧هـ " وعبا الناس تعبئة القتال " ولما بلغه الصليبيين قد تحركوا للرحيل نحو ارسوف في يوم السبت السابع من سبتمبر ١١٩١م/ رابع عشر شعبان ٥٨٧هـ " ركب ورتب الاطلاب للقتال وعزم في ذلك اليوم علـي مصافات القوم

---

(1) Cf. Geoffrey de Vinsauf : P. 233.

(٢) ابن شداد : النوادر ص ١٨١ .

(3) Cf. Ambroise : Op.cit, P. 250.
Also : Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, PP. 233-234.

(4) Ibid : Idem.

(٥) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٥٤٢ .

ومصادقتهم " (١) واندفع المسلمون نحو الفرنج " كالسيل الجارف " مهاجمين ، ولم يستطع رماة النشاب التصدي لثقل حملتهم " المرعبة والمفجعة فالقوا بأسلحتهم واتخذوا لأنفسهم ملاذا في الزحام خلف الخطوط المكثفة للجيش الصليبي " فاخلوا أماكنهم للذين قاسوا ما لم يتمكنوا هم تحمله (٢) فقد حمل المسلمون حمله " شجاعة " ضغطوا بها علي الاسبتارية لدرجة أن " عصروهم " (٣) وأحاطوا بهم " أحداق النار بالحلفاء " (٤) ثم وضعوا الأقواس جانبا وانقضوا " علي المؤخرة بالسيوف والحراب " مثل الحدادين علي السندانات " (٥) فأرسل مقدم الاسبتارية إلي الملك ريتشارد يعلمه أنه وفرسانه غير قادرين علي التصدي لهجوم عدوهم العنيف ، إذا لم يسمح لهم بالتقدم ضده في هجوم شامل ، لكن الملك أقنعهم بالعدول عن ذلك ناصحا إياهم بالحفاظ علي أنفسهم وتماسكهم ككل متلاحم ، لذلك جمع الاسبتارية صفوفهم ، وحافظوا علي وحدتهم ، رغم عدم قدرتهم علي الحركة إلا بصعوبة بسبب مضايقة المسلمين لهم عن طريق الضغط المستمر علي المؤخرة (٦) .

وقد أشاد بدور فرسان الجماعة في هذا المأزق وقوة تحملهم المؤرخ جيوفري دي فينزوف إذ يذكر إنهم عملوا فـــي ظل ظروف صعبـــة ناجمة عن حرارة الجو إلي جانب هجمات المسلمين الذين كانوا يشجعون بعضهم البعض علـــي تحطيم " المسيحيين " { يقصد الصليبيين } مما أرهقهم

---

(١) ابن شداد : النوادر ص ١٨٢- ١٨٣ .
العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ٥٤٣ .

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 235.

(3) Cf. Ibid : P. 236.

(٤) العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ٥٤٣ .

(5) Cf. Oman, Ch.: Op.cit, Vol. I, P. 314.

(6) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 236.
Also : Ambroise : Op.cit, P. 256.
وأشار إلي ذلك أيضا ابن شداد من خلال قوله عن صلاح الدين أنه " ضايق العدو مضايقة عظيمة " انظر النوادر ص ١٨٣ .

خصوصا وإنهم اجبروا علي الالتحام مع " العدو " { يقصد المسلمين } في فضاء ضيق (١) ونظرا لثقل القتال علي صفوف الاسبتارية فقد أصبحوا اقل قدرة علي المقاومة ، لذلك تقدموا إلي الأمام بصبر وهم يعانون من الجراح ومع اندفاعهم في التقدم ضغطوا علي قلب الجيش الصليبي { حيث القوات الفرنسية } لتامين أنفسهم وليتجنبوا " غضب العدو " الذي أرهقهم في المؤخرة " ولم يكن عجيبا عدم قدرتهم علي الصمود أمام هذا الهجوم المستمر وتسديد حتى ولو ضربة واحدة إلي العدو الذي يضغط عليهم ، إذا ما وضعنا في الاعتبار ضخامة القوات التي حشدها المسلمون في ميدان القتال " (٢) .

وأخيرا ما إن وصلت مقدمة الجيش الصليبي أسوار ارسوف تقريبا ، حتى كانت المؤخرة قد نفذ صبرها (٣) فقد زاد ضغط قوات المسلمين عليها حتى اختلط فيها " الحابل بالنابل " واشتد الضيق بأفرادها فصاح فجأة مقدم الاسبتارية الأخ جارنيير دي نابلس Garnier de Napes " آواة : عظيم يا قديس جورج (٤) أنتركنا لنكون مضطربين هكذا الكنيسة المسيحية باجمعها ألان في موقف الاحتضار لأنها في خوف من أن تعيد ضربة واحدة إلي هذا الجيش غير التقي { يقصد المسلمين } (٥) .

---

(1) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Idem.

وقد أشار ابن شداد أيضا إلي المعني الخاص بعبارة أن المسلمين كانوا يشجعون بعضهم البعض علي تحطيم الصليبيين بقوله " والسلطان يطوف من الميمنة إلي الميسرة يحث الناس علي الجهاد " أنظر : النوادر نفس الصفحة .

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 236-237.

(3) Cf. Oman, Ch.: Op.cit, Vol. I, P. 314.

(٤) القديس جورج يقترن ذكره بموقع اللد ـ أنظر بعده .

(5) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 237-238.

أما امبرواز فيورد نفس ما صاح به مقدم الاسبتارية علي نحو آخر : " أيها القديس جورج . أتسمح لنا بان نأتي إليك هكذا بمثل هذا الحزن ؟ امن الحسني أن تتعرض الكنيسة المسيحية الان للهلاك والانهيار لأنه لا رجل يستطيع أن يحارب بشجاعة ضد هؤلاء البهائم " أنظر

Ambroise : Op.cit, P. 257.

ويصـور هذا الموقف الذي تعرضت له مؤخرة الجيش الصليبي العماد الاصفهاني بطريقة تدل علي إن المؤرخان الغربيان { امبرواز وفينزوف } لم يبالغا كثيرا فيما ذكراه ، إذ يقول العماد :

" فان الفرنج أخذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا واحتدوا وامتدوا ، وقربت منهم الاطلاب ، واختلط بهم الأصحاب وتعانقت الرقاق والرقاب ، وأحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب وقربوا من ارسوف وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف . وضاق خناقهم وحاق بهم إرهاقهم ٠٠٠ فاحتملوا في جلودهم الجرح . ومن اجلادهم الطرح . ووجدوا الموت الغالي مسترخصا ، وأيقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا . " (١) .

ثم ذهب جارنيير دي نابلس إلي الملك ريتشارد قائلا :

" سيدي الملك لقد عصرنا بعنف من العدو ، ونحن علي شفا عار ابدي إذا لم نجرؤ علي التصدي لضرباتهم فجيادنا نفقدها الواحد تلو الأخر ، لماذا نتحمل منهم شيئا ابعد من ذلك ؟ " (٢) .

فأجاب الملك الإنجليزي بقوله :

" أيها المقدم الطيب . أنه أنت الذي يجب أن تتصدي لهجومهم وتتحمله ولا يستطيع أحد أن يكون في جميع الأماكن { المواقع } في آن واحد " (٣) .

---

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 238.
نص امبرواز : سيدي ، نحن هزمنا بكل أسف ونعاني من الخجل ومرارة الألم وذبحت كل جيادنا " أنظر
Ambroise : Idem.

(3) Geoffrey de Vinsauf : Idem.
Also : Ambroise : Idem.

مما يشير إلي أن الملك ريتشارد كان قد دفع إلي مقدم الاسبتارية بمزيد من التبعات وأعطاه في نفس الوقت حرية التصرف في تدبير ما يجب اتخاذه بالنسبة للمواقف الطارئة في القتال مع المسلمين ويدل أيضا بشكل غير مباشر علي أن جارنيير دي نابلس وفرسانه كانوا يحاولون التنصل من مسئولية المواجهة المباشرة مع المسلمين ، والتي يترتب عليها خسائر مضاعفة بالنسبة للجماعة في الأرواح والمعدات ، إلي جانب بقاء محاربيها في وضع يفرض عليهم تضحيات تفوق طاقاتهم الحقيقية وهو ما حدث بالفعل . فأثناء عودة مقدم الاسبتارية إلي موقعه قام المسلمون مرة أخري بشن هجوم عنيف من الخلف ، ولم يكن بين الاسبتارية الذين في الصفوف الأخيرة أمير أو كونت إلا وتورد خجلا كما يذكر مؤرخي الحملة – وقال كل منهم للآخر :

" لماذا نحثهم { يقصدون أفراد قوات المؤخرة } علي التقدم السريع أو الجري وآسفاه سنكون للأبد مستحقين لان ندعي بالجبناء ، وهو الشئ الذي لم يحدث لنا مطلقا من قبل لان مثل هذا الخزي لم يتعرض له جيش حتى من غير المؤمنين الذين لا عقيدة لهم . فإذا لم ندافع عن أنفسنا بان نحمل في الحال علي العدو سوف يلحق بنا العار مدي الحياة ، ويعظم ذلك أكثر تأجيلنا للحرب فترة أطول " (١) ، وبعد أن حدثوا أنفسهم علي هذا النحو صاح اثنين من الاسبتارية :

" دعونا نحمل أيها الأسياد الأجلاء خشية أن نتعرض للدمار والفضيحة مثل الجبناء . إننا لا نستطيع رؤية مثل هذا الدمار ولا أن نتعرض من " ضيوفنا " لمثل هذا اللوم بإسلامنا أمام الكافر { يقصد المسلمين } " (٢) .

---

(1) Geoffrey de Vinsauf : Idem.

(2) Ambroise : Op.cit, PP. 257-258.

وأشار إلي ذلك ابن شداد بقوله : " ثم اجتمعت الخيالة ، وتواضعوا علي الحملة خشية علي القوم ، ورأوا أنهم لا ينجيهم إلا الحملة " أنظر :
النوادر ص ١٨٣ .

وما أن وصل رجال مؤخرة الجيش الصليبي إلي قرار شن هجوم مضاد علي المسلمين الذين يقاتلونهم من الخلف ، ووافق الجميع علي دق الطبول في أقسام الجيش الثلاثة كإشارة للهجوم ، حتى تسرع اثنان من الفرسان لم يحتملا الصبر علي التأجيل ، واندفعا بعدو سريع نحو قوا ت المسلمين الأتراك وباغتوهم بالمنازلة . ويضيف المؤرخان إن هاذين الفارسين ضيعا بذلك الجهود هباءا وقللا من فرصة نجاح الخطة (١) والفارسين هما وليم بورل مارشال الاسبتارية وبلدوين كاريو Baldwin Carreo احد فرسان الملك ريتشارد . وقد تبعهما الاسبتارية ، الذين كانوا مكروبين طوال اليوم بتشكيلهم المتلاحم وباغتوا المسلمين . ومن ثم أصبحت مقدمة الجيش الصليبي الأساسية في المؤخرة بالنسبة لموقع هذا الهجوم ، بينما تحول الاسبتارية الذين كانوا في المؤخرة ليكونوا في طليعة المهاجمين الآخرين من الصليبيين الذين انضموا إليهم أو تبعوهم في هذا العمل بقواتهم مثل هنري دي شامباني وجاك دي افنسي وروبرت دي دريو وغيرهم من البارونات والكونتات ، ثم تقدم خلف قوات هؤلاء الأخيرين بقية فرق الجيش للالتحام مع المسلمين . وحينما رأي الملك ريتشارد جيشه في حركة هجوم مع هؤلاء الأخيرين ، اخترق صفوف الاسبتارية الذين قادوا الهجوم " وقد أحضر إليهم المساعدة والنجدة بمن معه من الفرسان والحاشية " ليكون أمامهم (٢) وحملوا علي " أطلاب المسلمين حملة واحدة " زحزحتها عن مواضعها (٣) " فاندفع الناس بين أيديهم " (٤) ولم

---

(1) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Idem.
Also : Ambroise : Op.cit, P. 259.

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : PP. 238-239.
Also : Ambroise : P. 259.

(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٥٤٤ .

(٤) ابن شداد : النوادر ص ١٨٣- ١٨٤ وقد حضر هذه الموقعة واشترك فيها إذ يقول : " واتفق أني كنت في القلب ففر القلب فرارا عظيما ، فنويت التحيز إلي الميسرة وكانت اقرب إلي ، فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة فنويت التحيز إلي الميمنة فرايتها وقد فرت اشد فرار من الكل " .

يثبت علي محاربتهم إلا العادل سيف الدين وعسكر الموصل وقايماز النجمي بينما لاذ الباقون بالفرار (١) وكثر قتلي المسلمين وجرحاهم في هذه الموقعة حتى كانت " الجثث ملقاة علي الأرض والخيول بدون راكبيها قد تزاحمت بينما يندب الجرحى بالأنات مصيرهم الصعب ، ومن يلفظون أنفاسهم الأخيرة يتمرغون في الدماء وسط آخرون لا رؤوس لهم (٢) .

ولا شك في أن انتصار الصليبيين في ارسوف كان له نتائجه العميقة الأثر لأنه بعث في الصليبيين شعور الثقة بالنفس بعد الهزائم التي أخذت تترى عليهم منذ موقعة حطين (٣) لذلك لا عجب إذا اظهر القاضي بهاء الدين بن شداد أسفه لتلك الهزيمة ووصف الوقعة بأنها " انكت في قلوب المسلمين " (٤) بينما اظهر المؤرخ جيوفري دي فينزوف إعجابه ودهشته إزاء الاسبتارية أصحاب الفضل في هذا الانتصار بقوله : " اه... كم تختلف تأملات الذين يتعبدون بين أعمدة الدير وجدرانه عن هذه الممارسة المخيفة لحرب " (٥) .

علي آية حال ، لما رأي الصليبيون اندفاع المسلمين أمامهم " لم يأمنوا رجعتهم وإقدامهم وظنوها كمينا " فعادوا وعبروا ارسوف ونزلوا قريبا من الماء ، وبات صلاح الدين تلك الليلة علي نهر العوجاء (٦) .

---

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسي نفس الصفحة .

وكذلك ابن شداد : النوادر ص ١٨٤ .

(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : P. 239.
Also : Ambroise : P. 260

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٨٧٦ .

(٤) النوادر السلطانية ص ١٨٣ .
وعن موقعة ارسوف ونتائجها انظر أيضا : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوط ٢٦٢ وما بعدها ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٦٧- ٣٦٨ .

(5) Geoffrey de Vinsauf : Idem.

(٦) نهر صغير بين يافا وارسوف يصب في البحر المتوسط .

وأقام الفرنج يوم الأحد { الثامن من سبتمبر – خامس عشر شعبان } في موضعهم ثم رحلوا يوم الاثنين { التاسع من سبتمبر – سادس عشر شعبان } قاصدين يافا (١) فنزلوا بها وسكنوا فيها واهتموا بعمارتها (٢) وحصنوا أسوارها (٣) وتحرك الملك ريتشارد بعد ذلك صوب الرملة وفيما بين القديس جورج باللد والرملة عسكر الجيش الصليبي لمدة اثنين وعشرين يوما . ومن هذا الموقع اخذ فرسان الاسبتارية ومن معهم من الداوية يغيرون علي المناطق المجاورة أثناء الليل ويعودون محملين بالغنائم في الصباح (٤) .

وحوالي ذلك الوقت حاول الماركيز كونراد دي مونتفرات الاستفادة من الخلاف القائم بينه وبين الملك جي ، خصوصا بعد أن أودع الملكين ريتشارد وفيليب اوغسطس إيرادات ميناء عكا احدي جوانب النزاع بينهما لدي الاسبتارية والداوية حتي تتقرر لايهما الأحقية بهذا الإيراد (٥) فقرر كونراد التفاوض مع صلاح الدين في سبيل الحصول علي صيدا وبيروت مقابل أن يتحالف معه في عدائه للفرنج " ويقصد عكا ويحاصرها (٦) فأسرع الملك ريتشارد بالعودة إلي عكا . وكان قد ذهب إليها أيضا الملك جي . لفسخ هذه المصالحة واسترجاع الماركيس (الماركيز) إليه " (٧) .

---

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٥٤٤- ٥٤٥ .
ويذكر جيوفري دي فينزوف أنه في يوم الأحد ٨ سبتمبر ١١٩١م خرج الاسبتارية ومعهم الداوية وكثير من الجند والتركبولي في أسلحتهم للبحث عن جثة الفارس جيمس دي افنسي James d'Avemes حيث وجدوها في النهاية وعادوا بها إلي ارسوف

Cf. Itinerary of Richard : PP. 243-244.

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩١- ١٩٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٨٠ .

(4) Cf. Geoffrey de Vinsauf : PP. 253-254 .

حيث يذكر أنه في منتصف ليلة الأبرياء المقدسون غادر الداوية والاسبتارية المعسكر وعادوا في الصباح بمائتين من الثيران اقتادوهم من الجبال القريبة من بيت المقدس . Ibid, P. 254 .

(5) Cf. Roger de Hoveden: Vol. II. PP. 207-208.

(٦) ابن شداد النوادر ص ١٩٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٢ .

(٧) ابن شداد ص ١٩١ ، أبو شامة نفس الصفحة .

Geoffrey de Vinsauf : PP. 254.

وفي أثناء الاتجاه صوب بيت المقدس توقفت القوات الصليبية عند قلعة " بيت نوبه " في يناير ١١٩٢م/ محرم ٥٨٨هـ للتشاور في أمر الاستيلاء علي هذه المدينة المقدسة التي كان جميع رجال الحملة " تواقين " لرؤيتها . وكان الاسبتارية أكثر تعقلا في معارضتهم مشروع الذهاب إلي هناك وأيدهم في هذا الرأي البيازنه والداوية حيث كانوا جميعا " بعيدي النظر في رؤيتهم لمستقبل أحوال هذه المنطقة " فاقنعوا الملك ريتشارد بالعدول عن المسير إلي بيت المقدس في ذلك الوقت خشية أو يقعوا بين شقي رحى قوات صلاح الدين وحامية بيت المقدس الإسلامية من جانب والأتراك المقيمين في الجبال خارج المدينة من جانب آخر ، والذين من الممكن لهم أن يحتلوا الطريق الموصل بين البحر والتلال مما ينتج عنه قطع خطوط الإمدادات عن الصليبيين ، حتي لو سقطت بيت المقدس بين أيديهم ، كما إن حامية " المدينة المقدسة " بعد الاستيلاء عليها " أمر من الصعب تحقيقه ، في وقت تطلع فيه كل رجال الحملة إلي إتمام شعائر الحج والعودة علي الفور إلي منازلهم في الغرب بعد معاناتهم من ارهاقات الحرب وخسائرها " (١) .

ويبدوا إن شعور الرغبة في العودة إلي الغرب ،والتخلص من الأوضاع المعقدة للاتين الشرق تملك ريتشارد قلب الأسد نفسه ، فأخذ من معسكره يراسل المسلمين (٢) " راغبا في المصالحة والمسالمة " (٣) عن طريق الوصول إلي حل ولو مؤقت لإيقاف الصراع بشكل يوحي ظاهريا بان الحملة الصليبية قد حققت أهدافها حتي يتمكن من الرحيل إلي بلاده ، ولكن هذه المفاوضات تعثرت بسبب إصرار الصليبيين علي إرجاع بيت المقدس إلي حوزتهم ، وقد عبر عن ذلك الملك ريتشارد

---

(1) Geoffrey de Vinsauf : PP. 256-257.
Also : Ambroise : P. 300-302.

(٢) ابن شداد : النوادر ص ١٩٣- ١٩٤ .
(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٥٥٥ .

بقوله " القدس فمتعبدنا فلا يمكن التنازل عنه ، ولو لم يبق منا واحد " هذا بالإضافة إلي تمسكهم بعسقلان واستعادة الأردن بما فيها من حصون ، وكلها شروط لا يمكن أن يقرها صلاح الدين والمسلمين لذلك رد صلاح الدين علي طلب ريتشارد قائلا " القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسري نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر علي التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت " (١) . فأضطر الملك ريتشارد إلي اقتراح حل آخر طريف وهو أن يتزوج الملك العادل الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية وأخت الملك الإنجليزي ، علي أن يحكم الزوجان بلاد الساحل ، وتقيم الزوجة في القدس مع زوجها ويصحبها في المدينة قسيسون ورهبان (٢) ولم ينس ريتشارد في مقترحات الصلح هذه مصالح الاسبتارية والداوية ، التي عاهد مقدمي الجماعتين علي رعايتها في اجتماع صقلية فطلب من العادل أيضا أن يرضي " مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى " (٣) لكن الأميرة الإنجليزية رفضت الزواج من العادل بعد أن تمكن منها بعض الفرنج ورجال الدين وأقنعوها بعدم الزواج من مسلم " وخوفوها " فعاد ريتشارد وطلب من العادل الدخول في النصرانية ـ ولو ظاهريا ـ فرفض " وعدل عن استئناف الحديث " (٤)

.

---

(١) ابن شداد : النوادر ص ١٩٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١٩٣ .

(٢) يحتمل الباحثين إن ذلك العرض كان تهكما من جانب ريتشارد وأن صلاح الدين كان ـ فيما يبدو ـ مدركا لهذه الروح . أنظر : Rosebault : Op. cit, P. 279 .

لكن المغزي الكامن وراء شروط الصلح يدل علي أن الملك الإنجليزي كان جادا في عرضة طالما استطاع عن هذا الطريق التوفيق بين مطالب الطرفين المتنازعين وحقق للصليبيين هدفهم في القدس ولو بطريق غير مباشر.

(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي نفس المكان .

أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٣ " وهو يقطع الداوية والاسبتارية ما أرادا من البلاد والقرى والحصون " .

(٤) ابن شداد : النوادر ص ١٩٥ـ ١٩٦ ، العماد الاصفهاني ص ٥٥٥ـ ٥٥٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٢ ، أبو الفدا : المختصر ج٣ ص ٨٠ .

وبعد أن فشلت المفاوضات بين المسلمين والصليبيين علي هذا النحو لم يكن أمام الملك الإنجليزي إلا الامتثال لنصيحة الاسبتارية والداوية ، والعدول عن الذهاب إلي بيت المقدس خصوصا وقد حصنها صلاح الدين ، مفضلا الاتجاه جنوبا إلي عسقلان التي كان المسلمون قد خربوها (١) وعقد ريتشارد مجلسا آخر للمشورة فيما يجب تنفيذه فأشار عليه الاسبتارية والداوية أيضا ومعهم البيازنه بإعادة بناء عسقلان وتحصينها نظرا لأهميتها بالنسبة للطريق إلي مصر وإمكانية التصدي للقوافل القادمة من " الديار المصرية " إلي بيت المقدس . وقد صدق أغلبية الموجودين في المجلس علي هذا الرأي الذي أثار الامتعاض في صفوف الجيش ، وخصوصا العناصر الفرنسية لرغبتهم في الذهاب مباشرة إلي " المدينة المقدسة " (٢) .

وبينما الجيش الصليبي علي هذا الحال ، لم يتوقف المسلمون عن مهاجمته ومحاولة إنزال اكبر قدر من الخسائر بقواته (٣) ومن هذه موقعة كان إبطالها مائتان من المسلمين التركمان الذين اندفعوا من الجبال إلي السهل المقابل لخيام الفرنسيين ، وأوقعوا في الجيش الصليبي الاضطراب (٤) ثم كمنوا في موضع يخرج إليه الفرنج " للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمهم " (٥) فأمسكوا باثنين من الحراس الصليبيين كانا قد ذهبا مسافة للبحث عن علف لدواب الحمل أو للرعي ، ونحو

---

(١) ابن شداد : النوادر ص ١٨٧- ١٨٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 258.
Also : Roger de Hoveden: Vol. II. P. 266.
ويضيف جيوفري شعور الفتور الذي أصاب الجيش إزاء هذا الاقتراح لرغبة رجاله في الذهاب إلي بيت الـ فحاول ريتشارد أن يثنيهم عما فيه بان صور لهم قسوة الظروف المناخيه المحيطة بالمدينة المقدسة والأخطار يتعرض لها من يعيشون فيها علي نحو مبالغ حتي يتمكن من إقناعهم . أنظر : Geoffrey, PP. 258-259.

(٣) أنظر : أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٤ حيث يشير إلي عدة " وقعات ودفعات " .

(٤) Geoffrey de Vinsauf : P. 296 .
Also : Ambroise : P. 369.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٩٩- ٢٠٠ .

صيحاتهما اندفع في الحال الفرنسيين وبرفقتهم الاسبتارية والداوية (١) " وطلبوا جهة الصوت " فانهزم المسلمون من أيديهم إلي جهة الكمين الرئيسي حتي أوقعوا بهم فيه " والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقتل جمع من الطائفتين وجرح واسر جمع من الصليبيين ، وأخذ منهم خيل كثيرة " (٢) .

وقد تمثل دور الاسبتارية في هذه المعركة ، بالإضافة إلي تلاحم فرسانهم في القتال ضد المسلمين إلي جانب الفرنسيين والداوية ، فيما قام به أحد فرسان الجماعة ويدعي روبرت دي بروج Robert de Bruges والذي فرض بتصرفه علي بقية المحاربين الذين معه التقدم نحو المسلمين والدخول معهم في قتال مباشر عند موقع الكمين . فقد تجاوز راية الملك الإنجليزي " بتهور يفوق شجاعته الحقيقية مخترقا صفوف إخوانه الفرسان الاسبتارية وانقض علي احد الجنود الأتراك فارداه قتيلا قبل أن يأتي فرسان الجماعة الآخرون في تشكيلهم المنظم مما اضطر هؤلاء الأخيرين ومن معهم إلي الإسراع خلفه والالتحام مع جماعة المسلمين " (٣) . ويعد سلوك هذا الفارس الاسبتاري خرقا لنظام الجماعة القائم علي الطاعة والالتزام بأوامر المقدم أو القائد (٤) فتقدم نحوه جارنيير دي نابلس متوعدا إياه بالعقاب حيث أمره بالترجل عن جواده كي يتعلم كيف يطيع الأوامر أو النظام .

---

(1) Geoffrey de Vinsauf & Ambroise : Idem.

(٢) ابن شداد : النوادر ص ٢٠٠ . وقد فسر كل من جيوفري وامبرواز استدراج التركمان المسلمين للصليبيين إلي موقع الكمين بأن هؤلاء التركمان يخشون الدخول علي أرض مكشوفة في الفضاء ، ويصرون علي الحرب عند سفوح الجبال لذا لم يستديروا لمقاتلة فرسان الفرنج إلا بمجرد وصولهم إلي منحدر الجبل . أنظر :
Geoffrey & Ambroise : Idem.
مما يدل علي عدم معرفة المؤرخين المعاصرين بحقيقة تكتيكات المسلمين وأساليبهم في الإيقاع بعدوهم وانتزاع عنصر المفاجأة منه لصالحهم .

(3) Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, PP. 296-297.
وقد ذهب امبرواز بعيدا في وصفة لشجاعة هذا الفارس وإعجابه بموقفه هذا علي أساس انه كان أول المتأثرين لما فعله المسلمين ببعض الفرسان الصليبيين فوجه اللوم والتقريع إلي الباقين بينما اندفع هو نحو العدو ممتطيا جواده الذي نخسه ليسرع الخطي وأضاف بان منظره وسلاحه المتلألي يدعوان إلي الزهو والفخار . أنظر :
Ambroise : Op.cit, PP. 369-370.

(٤) وصل إعجاب امبرواز بموقفه إلي الدفاع عنه بان ما فعله " لم يكسر به النظام " وإنما يمثل عملا ناجحا يفيض مهارة وجرأة وإقداما Ibid, P. 370.

وعاد روبرت دي بروج إلي خيمة الجماعة سيرا علي الأقدام في انتظار ما يتقرر ضده أو المصير الذي سيؤول إليه ، لكن بعض النبلاء من ذوي النفوذ والمكانة تشفعوا له لدي المقدم جارنيير وطلبوا منه أن يعفو عنه . فعفا عنه علي ألا يعود إلي الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى (١) .

ورغم استمرار المناوشات بين الجانبين الصليبي والإسلامي علي هذا النحو ، لم تتوقف بينهما أيضا المراسلات من اجل الصلح ، وكان من بينها لقاء ودي بين الملك ريتشارد والعادل لكنها لم تسفر عن نتيجة فقد وجد صلاح الدين إن شروطها إجحافا بحقوق المسلمين إلي جانب عدم توافر صدق النوايا وتخوفه من حنثهم بالعهود ، وعبر عن ذلك ابن شداد علي لسان صلاح الدين بعد انصراف رسل الملك من عنده بقوله :

" متي صالحناهم لم تؤمن غائلتهم فاني لو حدث لي حادث الموت ، ما تكاد تجتمع هذه العساكر ويقوي الفرنج ، والمصلحة إن تزال علي الجهاد حتي تخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت " (٢) .

كيفما كان الأمر فان الفرقة الفرنسية في جيش الحملة الصليبية الثالثة لم تتخلي عن فكرة التقدم إلي بيت المقدس وعمل أفرادها علي إثارة الاحتجاجات بين الصليبيين لتنفيذ هذه الرغبة ، فبذل الملك ريتشارد الكثير من المحاولات لإقناعهم بخطورة هذا العمل " في ظل الظروف الصعبة المحيطة بهم " مبينا انه من الأفضل الاسترشاد بنصيحة المستوطنين الصليبيين المقيمين في الشام " لأننا - أي ريتشارد - رجالنا جهلاء بموقع هذا الإقليم ، بينما هم " اعرف بطبيعة الطرق " . وأخيرا رأي أنه من الواجب " أن يستشير الاسبتارية والداوية ويأخذ حكمهم ورأيهم" في هذا الأمر . ووافق الجميع

---

(١) أنظر التفاصيل التي تدل علي مدي حرص الجماعة علي الالتزام بالنظام واحترام الآخرين وتقديرهم لهذه القواعد في :

Ambroise: P. 371.
Geoffrey de Vinsauf : P. 297.

(١) ابن شداد : النوادر ص ٢٠١- ٢٠٣ .
ويعلق علي ذلك بقوله " هذا كان رأيه وإنما غلب علي الصلح " بعد ذلك ص ٢٠٣ .

علي أن يعهد بهذه المهمة إلي عشرين من " العقلاء " ليقرروا ما يجب إتباعه بحيث يلتزم كل رجال الجيش الصليبي علي اختلاف أجناسهم بتنفيذ نصيحتهم " دون ادني معارضة " فاختير خمسة من الداوية وخمسة من النبلاء الفرنسيين وخمسة من مستوطني الشام الفرنجة وخمسة من الاسبتارية (١) ويبدو مما ذكره (امبرواز) إن هؤلاء الأخيرين كانوا أكثر من خمسة إذ حدد عدد الداوية الذين اشتركوا في المؤتمر بأربعة أو خمسة كانوا قد وصلوا مصادفة بينما اخذ " كثير من الاسبتارية " (٢) وبعد عدة محاولات قرر هؤلاء " انه من الأفضل الإعداد والتقدم لحصار مصر " فبأخذها تتحقق " المصلحة الكاملة " بالنسبة لهم ، فعارض الفرنسيون أيضا هذا القرار " واحتجوا علي إنهم سوف لا يسيرون إلي أي مكان آخر سوي حصار بيت المقدس " فلم يأبه ريتشارد لمعارضتهم واخبرهم بأنهم إذا أصروا علي الرفض فسيذهب هو بأتباعه لتنفيذ هذا الغرض " دون أي مساعدة أخري " (٣)

وفي خيام الاسبتارية المجاورة لخيامه أمر ريتشارد بان توضع الخطط والتدابير اللازمة من اجل الذهاب للاستيلاء علي مصر ، مثل ما يمكن أن يجهز به الجيش الصليبي لعمليات الحصار وما يمكن حشده من الرجال ، وما يحتاج إليه من المؤن والنفقات وخلافه ، واجمع القادة الصليبيون رأيهم علي هذا المشروع " ووافقوا علي تقديم المساعدات الكافية لنفقات الحصار ، رغم إن ما يملكونه في خزائنهم كان قليلا للغاية " (٤) ومن المحتمل أن يكون دور الاسبتارية في هذا الصدد قد انطوي

(1) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 302.
Also : Conder, C.R.: Op.cit, PP. 285-286.
Rasebault, Ch.: Op.cit, P. 287.
(2) Cf. Ambroise: Op.cit, P. 380.
(3) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, PP. 302-303.
Also: Ambroise: Op.cit, P. 380.
(4) Ibid, P. 381.
Also : Geoffrey de Vinsauf, P. 303.

علـــي رغبتهم فـي إحياء أطمـاعهم فـي مصـر ، والتـي انفق عليها جيلبرت الاسيلي - مقدم الجماعة السـابق - الكثيـر مـن الأمـوال جريا وراء تحقيقها حتـي أصبحت خزانة الاسبتارية خاويـة مرهقة بالديون ، ويبدوا أنهم بالموقف الذي استطاع به ممثلي الجماعة في المؤتمر الوصول إلي ذلك القرار الـذي أصـدره " مجلس المشورة " بتحديد مصـر مقصـدا للحملـة ، وكـذلك مساعيهم لوضـع القرار موضـع التنفيذ داخل خيامهم التي حددها الملك مكان إعداد لهذا المشروع ، كانوا علي يقين من إنهم سيكسبون من وراء غزو مصـر علي الأقل المدن والإيرادات التي جعلها لهم عموري الأول في هذا البلد ، واعترفت بها البابوية ، مما يحقق لهم وضعا ممتازا أو عائدا إضافيا من الأموال يعوضـهم عما فقدوه في حروب صلاح الدين . ومن السهل تلمس هذا الاستنتاج في مناسبات تاليه كشفت النقاب عن اهتمامات الجماعة في مصر .

وقد رحل الفرنج إلـي عسقلان لإعـادة بناء أسـوارها وترميمها (١) ، وذلـك باعتبارها مفتاح الطريق إلـي " الـديار المصـرية " ، وأيضـا الموقـع المحـدد لان توضـع فيه الحملـة موضع الاستعداد تمهيدا للـزحف إليها ، لكن كمـائن المسلمين واغاراتهم المتواصلة لم تمكن الصليبيين فيما يبدو من عمـارة المدينة بسـهولة (٢) كمـا إن كثيـر مـن رجـال الحملـة عـادوا إلـي يافـا ، وعندما شـعر الملك ريتشـارد بعدم إمكانـية الحيلولة دون الانقسـام فـي الـرأي الـذي سـاد بـين جماعـات الجيش الصـليبي المختلفة ، ولأسباب أخري فضل العودة إلي فتح باب المفاوضـات مع الملك العادل معربا عن موافقته

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٦ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

علي شروط الصلح التي وضعت من قبل بينه وبين صلاح الدين في سهل الرملة لفترة معينة ، من المحتمل كي يجد وقتا للعودة إلي بلادة (١) ، لكن المفاوضات بين الطرفين هذه المرة كانت أيضا غير مثمرة (٢) ويعزي المؤرخ جيوفري دي فينزوف ذلك إلي تشدد صلاح الدين لمعرفته بحالة الجيش الصليبي الذي يزداد ضعفا يوم بعد يوم (٣) متناسيا إن الصليبيين يشترطون أمورا لصالحهم علي بلاد احتلوها بالقوة ، ليقروا بذلك شرعية اغتصابها دون مراعاة لما أجهد به المسلمون أنفسهم من أجل تحريرها .

علي آية حال عندما علم ريتشارد بإجابة صلاح الدين علي مراسلاته وفحواها الرفض ، أصدر أوامره علي الفور إلي الاسبتارية والداوية وآخرون عددهم ثلاثمائة بان يمتطوا صهوة جيادهم ويتقدمون لتخريب حصن الداروم Darum (La Daron) ، بينما جعل جماعة لحراسة عسقلان وتحصينها ، وتنفيذا لأوامر الملك خرج الاسبتارية ومن معهم من فرسان الصليبيين وسووا الداروم بالأرض في الثالث والعشرين من مايو ١١٩٢م/ تاسع جمادى الأولي ٥٨٨هـ (٤) .

---

(1) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, PP. 311-312.

(٢) أنظر : ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٠٤- ٢٠٦ .

(3) Cf. Itinerary of Richard : P. 312.

(4) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 312.
Also: Ambroise: Op.cit, P. 397.

(يحدد التاريخ بـ ٤ يوليو)

أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٦ ويذكر " استولي الفرنج علي قلعة الداروم ثم خربوها ورحلوا عنها " وبذلك يتفق المؤرخين الغربيين فيما ذهب اليه .

أما ابن شداد : النوادر ص ٢٠٦- ٢١٠ فلم يشر إلي هذا الدمار الكلي وإنما ذكر أن ابن الفرنج " تمكنوا من نقب المكان واخرقوا النقب ... واشتدوا بالقتال عليه فأخذوه عنوه " أنظر النوادر ص ٢١٠ .

أما الجيش الصليبي فقد عاد إلي يافا فاتر الهمة . ومن يافا توجه الملك ريتشارد إلي عكا بينما بقي كثيرون لضعفهم أو مرضهم صحيا (١) . وبينما كان الملك الإنجليزي يتجهز للرحيل من عكا عائدا إلي بلاده بعد أن اخذ موافقة " ومباركة " كل من الاسبتارية والداوية علي ذلك (٢) وافته رسل من يافا تخبره بأن المسلمين استولوا علي المدينة بأكملها ، ما عدا القلعة التي لا تزال تحت الحصار (٣) ، فبادر بالرحيل لنجدتها بسفنه عن طريق البحر ، ولحق به الاسبتارية والداوية وفرسان آخرون ساروا بطريق البر الي قيسارية وتوقفوا هناك بعض الوقت بسبب سوء الأحوال الجوية والخوف من الوقوع في كمين للمسلمين (٤) بينما تأخر ريتشارد في حيفا ثلاثة أيام لهبوب رياح عكسية في الوقت الذي كانت قد استسلمت فيه قلعة يافا ، إلا إن الملك الإنجليزي استطاع بعد جهود مضنيه الاستيلاء عليها ثانية واخرج المسلمين من ذلك الميناء (٥) .

ويذكر امبرواز إن ريتشارد مرض بيافا ففكر في الذهاب منها لضعف تحصيناتها وافتقادها لسبل الدفاع والهجوم ، فأرسل إلي الكونت هنري (دي شامباني) والداوية والاسبتارية ، وشرح لهم " ما بقلبه من حزن وما بجسده من آلام " ، ثم طلب منهم بأن يتولى بعضهم حراسة عسقلان والبعض الآخر يبقي في يافا لحماية المدينة معربا لهم عن عزمه العودة إلي عكا " لعله يشفي مرضه " لكنهم رفضوا " بكلمات صريحة " القيام بهذا العمل - كحامية لأي معقل أو حصن - إلا إذا كان

(1) Geoffrey de Vinsauf : Idem.
Also: Ambroise: Idem
(2) Cf. Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 314.
(٣) عن حصار المسلمين ليافا أنظر : ابن شداد : النوادر ص ٢٢٢- ٢٢٤ .
(4) Ambroise: Op.cit, P. 404.
Also: Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, P. 315.
Conder, C.R.: Op.cit, P. 287.
(5) Geoffrey de Vinsauf : Op.cit, PP. 316-317.
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢٥- ٢٢٧ .

موجودا معهم " مما أدي إلي اضطرابه فكريا " . وأخيرا إجابة كل من الاسبتارية والداوية بأنه " من الأفضل أن يطلب الهدنة خير من أن يغادر البلد " (١) .

وكان أن بعث الملك ريتشارد إلي الملك العادل للتفاوض ، وتجددت المحادثات بينهما (٢) حتي أسفرت في النهاية عن " صلح الرملة " في يوم الأربعاء الثاني من سبتمبر ١١٩٢م/ الثاني والعشرون من شعبان ٥٨٨هـ وقد اقتضته ظروف كل من ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين ونص علي أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلي يافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف أما عسقلان فتكون للمسلمين ، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين الطرفين (٣) ورضي بذلك " الاسبتار والداوية وسائر مقدمي الإفرنجية " (٤) ورغم اشتراك الداوية والاسبتارية في توجيه النصح إلي ملك انجلترا بطلب الهدنة ـ كما سبقت الإشارة ـ فان البعض يري بأن الاسبتارية هم الذين أشاروا عليه بقبول اقتراحات الصلح كما اشترطها المسلمون علي هذا النحو الأخير (٥) .

وما أن اقتنع الملك ريتشارد بما أضحت عليه أحوال صليبي الشام حتي ركب البحر عائدا إلي الغرب الأوربي في التاسع من أكتوبر ١١٩٢م/ مستهل شوال ٥٨٨هـ (٦) لتنتهي بذلك الحملة الصليبية الثالثة التي أسهم فيها الاسبتارية بدور بارز كان له اكبر الأثر في الإنجازات التي حققتها أو

---

(1) Cf. Ambroise: Op.cit, PP. 428-429.

(٢) أنظر : ابن شداد : النوادر ص ٢٢٧- ٢٢٩ ، ٢٣١- ٢٣٤ .
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ مخطوط لوحة ٢٦٨ .
أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٩- ٢٠٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٣ ، أبو شامة : المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(٤) ابن شداد : النوادر ص ٢٣٤ ، أبو شامة : نفس المرجع

(5) Cf. Conder, C.R.: Op.cit, P. 288.

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٠٨ .

الانتصارات التي أحرزها الصليبيون علي المسلمين ، حيث اظهروا من خلال هذا الدور مقدرتهم الحربية الفائقة التي جعلتهم في نظر رجال الغرب الأوربي عنصرا يعتمد عليه ضمانا للدفاع عن الأراضي الخاضعة لسيطرة لاتين الشرق ، خصوصا في أوقات انقطاع المساعدات الأوربية و توقفها . وقد خلقت هذه النظرة لدي البعض شعورا بالثقة إزاء الجماعة جعله يستثني أعضائها من أي اتهام بالخيانة قد يوجه إلي " الصليبيين " بشكل عام ، كما جعلهم في مقدمة من يجب اختياره لتنفيذ حملة صليبية (١) .

فقد بذل الاسبتارية جهدا مخلصا إلي جانب سائر الصليبيين في حصار عكا ، وتحملوا بعض الضربات القوية التي سددتها الحامية الإسلامية أو قوات صلاح الدين ضد المنطقة التي تولوا مهمة حصارها من سور المدينة ، دون أن يفت ما أصابهم من خسائر في عضدهم بل تمكنوا من الحيلولة دون دخول إمدادات إلي حامية عكا من هذا الجانب . والمعروف إن بقاء هذا الميناء في أيدي الصليبيين يعد أعظم نجاح حققته الحملة الصليبية الثالثة ، لذا ما أن تم الاستيلاء علي عكا حتى حول فرسان القديس يوحنا مقرهم إليها وأصبحوا يمتلكون داخل المدينة شوارع بأكملها مما أفضي بالمعاصرين إلي تسميتها " عكا القديس يوحنا " St. Jean d'Acre (٢) أما ريتشارد قلب الأسد فعندما عاد إلي الغرب ارجع انتصاراته رسميا في وثيقة صادرة عنه في عام ١١٩٤م إلي الجماعة التي اثبت أعضاؤها من خلال وقفتهم إلي جانبه أنهم علي مستوي عال من الكفاءة (٣) فمن النتائج

---

(1) Cf. Flahiff, George B.: A Critic of the Third Crusade in M.S., Vol. IX, 1947, P. 174.
(2) Cf. Cartulaire Tome II & III Passim.
Also: Archives de l'Orient Latin, Tome I, P. 423.
(3) Cf. Diploma di Riccaedo Re d'Jngbilterra in Codice. Dipl. No. XXXVII, P. 316.

الرئيسية لمشاركتهم في هذه الحملة أيضا ، ذلك الانتصار الذي حققه الجيش الصليبي عند ارسوف والذي يمثل بداية عهد جديد بالنسبة لصليبي الشام في صراعهم مع المسلمين ، إذ استعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد أن عانوا الكثير من مرارة الهزائم المتتالية ، ورغم إن الهجوم المضاد للاسبتارية كان قد عجل بمقاصد ريتشارد قلب الأسد ، إلا انه مثل اقتحاما لا يقاوم من قبل محاربين أقوياء (١) كان يدفعهم شعور قوي للانتقام لما أصابهم علي يد القوات الإسلامية طوال طريق تحرك الجيش الصليبي من عكا حتى ارسوف ، وقد بدأوا بهذا الاقتحام قتال الصليبيين المباشر مع المسلمين دون توقع من جانب هؤلاء الأخيرين له ، لأنه كان خروجا عن الخطط أو التكتيكات المعتادة في ذلك الوقت واستطاعوا بذلك إكساب نتائج الضربة الأولي وكانت ناجحة ، مما تسبب في ترجيح كفة الصليبيين علي المسلمين ، كما أن حماسة واندفاع بعض فرسان الاسبتارية كثيرا ما أثار حمية فرق الجيش الصليبي المختلفة في وقعات أخري مع المسلمين في وقت كادت أن تشغل فيه هذه الفرق تفكيرها بمسألة واحدة هي الذهاب إلي بيت المقدس . وقد دفع هذا التهور احد فرسان الجماعة ـ كما سبقت الإشارة ـ إلي خرق القواعد المتبعة في نظامها . ورغم ما ترتب علي هذا المسلك من نجاح أو انتصار فانه لم يشفع له خروجه عن النظام ، ولقد كان فرسان القديس يوحنا باحترامهم النظام والطاعة لقائدهم قدوة لجيوش الجملة الصليبية الثالثة المختلفة الأجناس كي ، تلتزم بالطاعة لقائد الحملة الأعلى ريتشارد قلب الأسد وأن شذت الفرقة الفرنسية عن هذه القاعدة ، فان ذلك كان عن عدم فهم أو وعي كامل من جانب أفرادها بالأوضاع المحيطة بالشام ، وأيضا بعد أن أنجزت الحملة ما استطاعت إنجازه في ظل جهود متكاتفة ومنظمة . هذا بينما كان للاسبتارية ـ فوق ذلك ـ جهود

(1) Cf. Rascbault, Ch. : Op.cit, P. 269.

واسعة النطاق في سبيل مساعدة الملك الإنجليزي حتي تفهم حقيقة هذه الأوضاع ، وإطلاعه علي أحوال المنطقة وبذل النصائح إليه من منطق سياسة بعيدة النظر تشكلت من خبرة الجماعة ودرايتها بأمور الشرق اللاتيني الذي تستوطنه وأساليب القتال الخاصة بالمسلمين ، ولا جدال في أن ذلك كان له أثره في وضع خطط الهجوم والدفاع ، واتخاذ قائد الحملة جانب الحذر والحيطه إلي حد ما واتجاهه نحو تامين الساحل لصالح الصليبيين ، مما ساعد علي تحقيق عنصر الحماية للمملكة الصليبية وبقاؤها حوالي قرن آخر من الزمان بعد أن كانت قد انهارت بصفة شبه كلية علي يد صلاح الدين في عام ١١٨٧م . ولا نغالي كثيرا في القول بأنه لولا اعتماد ريتشارد علي مثل هذه النصائح والخبرات والمساعدات الحربية لما استطاع الصمود لبعض الوقت أمام جيوش صلاح الدين القوية بعد أن سادت الانقسامات والخلافات في الرأي بين عناصر الجيش المختلفة في الوقت الأخير من الحملة .

وبالإضافة إلي ذلك هناك المصالح الخاصة التي سعت الجماعة لتحقيقها من خلال دورها في صليبية ريتشارد قلب الأسد ، وان لم تكن المحرك الرئيسي وراء هذا الدور ، فقد حصل فرسان الاسبتارية علي عائد كبير من غنائم الحرب ومكاسبها ، خصوصا من تلك الغارات التي كانت قاصرة عليهم ، أو اشترك معهم فيها الداوية وشنوها علي بعض الأقاليم أو البلاد الإسلامية المجاورة تنفيذا لأوامر مهمة ألقاها علي عاتقهم الملك الإنجليزي مثل الاستيلاء علي الداروم أو كمائن ليلية من أجل الإيقاع بقطيع من الماشية أو قافلة من قوافل المسلمين ، هذا إلي جانب ما حصلوا عليه من هبات وتبرعات تقديرا لما بذلوه أثناء هذه الحملة . وأخيرا فان موقف ممثلي الاسبتارية داخل مجلس المشورة والذي نتج عنه قرار الذهاب إلي مصر ، ثم الإعداد لتنفيذه داخل خيامهم كان ينطوي بلا شك علي مصالح شخصية وأطماع دأبت الجماعة علي السعي من اجلها كثيرا في مناسبات مختلفة .

علي آية حال فيما يتعلق بالصراع الصليبي الإسلامي شهدت الأوضاع في بلاد الشام نوعا من الاستقرار بعد صلح الرملة ، واتجه كل من الطرفين إلي حل مشاكله الداخلية وإصلاح ما أفسدته الحروب قدر الإمكان . ولم يلبث أن توفي صلاح الدين في أوائل مارس ١١٩٣م/ ٢٧ صفر ٥٨٩هـ (١) ففقد العالم الإسلامي بوفاته بطلا من أبطال الجهاد ضد الصليبيين ، بينما كان ذلك حدثا هاما بالنسبة لهؤلاء الأخيرين إذ اختفي من حلبة الصراع معهم مناضل علي درجة كبيرة من القوة استطاع توحيد الجبهات الإسلامية التي كانت منقسمة علي نفسها مما شكل خطورة علي مستقبلهم في المنطقة ، خصوصا وإنهم لم يتحقق احتلالهم للشام إلا بفضل هذا الانقسام ، لذلك أسرع جيوفري دونجون Gaufridus de Donjon مقدم الاسبتارية (١١٩٣- ١٢٠١م) بابلاغ هذا الخبر إلي رئيس مقر الجماعة في ايطاليا توطئة لنشرة بين المراكز الأخرى التابعة للاسبتارية في أوربا (٢) .

وبعد انقضاء مدة الهدنة التي كانت محددة بثلاث سنوات وثلاثة اشهر في ديسمبر عام ١١٩٩م (٣) تجدد الصراع بين المسلمين والصليبيين بعدة مناوشات أسفرت عن فتح العادل يافا في أغسطس – سبتمبر ١١٩٧م/ شوال ٥٩٣هـ (٤) وكان هنري الثاني كونت شامباني Henri II de Champaigne قد منح الاسبتارية إقطاعا من الأرض هناك في يناير عام ١١٩٤م (٥) أما الصليبيون ، فقد نجحوا في الاستيلاء علي بيروت في أكتوبر عام ١١٩٧م/ ذي الحجة ٥٩٣هـ (٦)

---

(١) ابن شداد: النوادر ص ٢٤٦.
أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 945, PP. 597-598.
وتاريخ هذه الوثيقة ٣٠ أبريل عام ١١٩٣م أي بعد وفاة صلاح الدين بشهر وأيام .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٢٩١ .
أيضا : ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٤١ .
وكذلك سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩١٧ .

(٤) أبو شامة : الذيل علي الروضتين ، ص ١٠- ١١ .

(5) Cf. Cartulaire Tome I No. 954, P. 603.

(٦) أنظر سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ورقة ٢٩١ .
ابن العديم : المصدر السابق ج٣ ص ١٤١ .

ثم حاولوا استعادة جبلة واللاذقية لسلطانهم متخذين من حصن المرقب قلعة الاسبتارية الحصينة قاعدة لعملياتهم الحربية ضد هاتين المدينتين ، خصوصا وأن جبله كانت تابعة للجماعة إلي جانب إن لها في اللاذقية العديد من المباني والمنشآت (١) لكن المسلمين بادروا بهدمها وتخريب ما بها من أسوار وتحصينات حتى لا يتمكن الصليبيون من البقاء فيها (٢) .

وفي نفس العام اشترك فرسان القديس يوحنا في اختيار هنري دي شامباني - السالف الذكر - ليكون وصيا علي مملكة بيت المقدس الإسمية (٣) . لكنه لم يلبث أن توفي فجأة في العاشر من سبتمبر عام ١١٩٧م فاتجه التفكير إلي تزويج الملكة ايزابيل { وريثة العرش } من عموري لوزينان ملك قبرص ، وتوحيد تاجي قبرص والمملكة الصليبية ، وسرعان ما لقيت هذه الفكرة ترحيبا من الاسبتارية والداوية ومعظم أمراء الصليبيين بالشام فضلا عن البابوية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الغرب . وفعلا تم زواج عموري من إيزابيلا عام ١١٩٨م . وبذلك أصبح الدفاع عن المصالح الصليبية في الشام واجبا مفروضا علي ملوك قبرص من آل لوزينان (٤) وقد ترجم عموري لوزينان شعوره هو الآخر - كما هي العادة - إزاء موقف الجماعة ومساعدتها له في الحصول علي عرش المملكة اللاتينية عن طريق إقرار عطاء منح لها في عكا وذلك بمجرد أن آل إليه هذا العرش في وثيقة بتاريخ الحادي والعشرون من أغسطس من نفس العام (٥) ثم أعقب ذلك بمنحه صادرة عنه شخصيا (٦) .

(1) Cf. Cartulaire Tome I No. 103 P. 89, No. 109, PP. 92-93. No. 280 P. 209, No. 397 P. 398.

(٢) ابن العديم المصدر السابق ص ١٤٠ - ١٤١ .

(3) Cf. Estoire d`Eracles: Op.cit, P. 223.
Also: Roger de Hoveden: Op.cit, Vol. II. P. 404.

(٤) أنظر سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩١٢ .

(5) Cf. Cartulaire Tome I No. 1032 PP. 649-650.

(6) Cf. Ibid, No. 1097, P. 683.

وهكذا بانصرام القرن الثاني عشر أصبح للاسبتارية مكانة بارزة بين العناصر الرئيسية المحاربة في المملكة اللاتينية ، وساعدهم علي ذلك ما يملكون من إمكانات مادية وعسكرية متجددة فبالرغم من الخسائر الجسيمة التي حاقت بهم في الحروب التي خاضوها مع الصليبيين ضد صلاح الدين والتي كانت تنبئ بنهاية عهد الجماعة علي ارض الشام ، إلا إن المراكز التابعة لها في الغرب الأوربي كانت بمثابة نقاط إمداد بالمحاربين والمعدات والمؤن لا ينضب معينها بفضل الجهود المستمرة التي بذلها أعضاء الاسبتارية هناك من اجل تدعيم موقف إخوانهم في مقرهم الرئيسي بالشرق اللاتيني . لذا سرعان ما استرد اسبتارية الشام قوتهم بعد سقوط بيت المقدس وتنكيل صلاح الدين بمعظمهم ومارسوا نشاطهم الحربي ضد المسلمين علي نحو اشد ضراوة ، كما ظهر من خلال المعارك التي خاضوها . فقد أدركوا بعد أن أعلن صلاح الدين موقفة منهم عقب معركة حطين وهو القضاء عليهم قضاءا مبرما ، إن هذه الحروب مصيرية بالنسبة لهم يتوقف علي نتائجها بقاؤهم في الممتلكات التي استحوذوا عليها في الشام أو نهاية وجودهم به إلي الأبد . لذا أعطي الاسبتارية الأمور المتعلقة بالصراع الصليبي الإسلامي اهتماما يفوق الحد ، ولعبوا في هذا المجال دورا بارزا قابله الصليبيون بالتقدير . وترتب علي ذلك أن انهالت علي الجماعة المنح والامتيازات من الباباوات والملوك والأمراء ، مما أدي إلي تضخم ثرواتها في الغرب والشرق وبالتالي ازدياد إمكاناتها الحربية . ومن ثم أصبح للاسبتارية ثقلا أكثر من ذي قبل في تقرير الأمور الهامة المتعلقة بالأوضاع السياسية للصليبيين في الشام ، كما أصبح مقدمها من جراء ذلك بمثابة أمير مستقل له موظفيه وقلاعه وجيشه الخاص ، وهو ما يمكن تبينه جليا من العديد من المناسبات والمواقف علي مدي سنوات القرن الثالث عشر .

الفصل الرابع

موقف الاسبتارية من الأحداث في إمارات الشرق الصليبية

من عهد عموري لوزينان حتى استرداد المسلمين عسقلان

(١١٩٨- ١٢٤٧م / ٥٩٤- ٦٤٥هـ)

- الاسبتارية وأحداث الأمارات الصليبية في الشرق حتى مجيء الحملة الهنغارية .
- موقف الاسبتارية من جهود اندرو الثاني ملك هنغاريا وصليبي الشام .
- دور الجماعة في الحملة الصليبية الخامسة .
- موقف الاسبتارية من الإمبراطور فردريك الثاني ، وسياسته أثناء وجوده في الشام .
- الاسبتارية والصراع ضد المسلمين حتى استرداد هؤلاء الأخيرين لمدينة عسقلان .

لقد استعرضنا فيما سبق كيف أن الفرسان الاسبتارية تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والمعدات والممتلكات أثناء اشتراكهم في مقاومة الصليبيين لأعمال صلاح الدين الحربية ، ودفاعهم عن المعاقل والقلاع التابعة لهم ؛ وأنهم استطاعوا خلال وقت قصير تعويض هذه الخسائر بفضل الإمدادات التي انهالت عليهم من المراكز التابعة لهم في الغرب الأوربي ، مما ترتب عليه إسهامهم بدور له فعاليته في أحداث الحملة الصليبية الثالثة ، وإنقاذ الأمارات الصليبية من خطر كاد أن يقضى عليها نهائياً . وهذا الموقف من جانب أعضاء الجماعة أعطاهم وضعاً متفوقاً أكثر من ذي قبل على سائر الأطراف الصليبية الأخرى ، وخصوصاً الملك الصليبي الذي أخذ مركزه يزداد ضعفاً أمام اتساع نفوذ الاسبتارية وغيرها من الجماعات الرهبانية من جراء الامتيازات التي كانت الكنيسة تمنحها بين الحين والآخر لهذه الجماعات ، وأيضا بسبب حصولهم علي العديد من الإقطاعيات داخل نطاق المملكة الصليبية ، وتولى أمر الدفاع عن القلاع ذات الأهمية الاستراتيجية بالنسبة للصليبيين بصفة عامة (١) .

وإذا كان الاسبتارية في ظل هذا الوضع لعبوا دوراً هاماً خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر في تعيين بعض ملوك مملكة بيت المقدس ، واختيار الأوصياء عليها – كما سبقت الإشارة - فإنه على مدى سنوات القرن الثالث عشر تجاوز نفوذهم هذا الحد بأن احتذوا سياسة خاصة بهم في تحديد موقفهم من العلاقات مع المسلمين ، سواء عن طريق قيام قوات الجماعة بحملات ضد الأقاليم الإسلامية المجاورة ، أو توقيع مقدميها معاهدات صلح منفردة مع أمراء هذه الأقاليم مثلما كان الحال بالنسبة لعلاقة الاسبتارية بأمارات حماة وحمص وحلب .

---

(١) يرجع البعض ضعف مركز الملك أساسا إلي أن المملكة الصليبية لم تنشأ مثل الممالك الأخرى نتيجة لغزو قام به أمير واحد يمكنه اعتبار نفسه السيد الأعلى المسيطر علي شئونها ولكنها قامت نتيجة لجهود جيش من الحجاج اجتمع من كافة الأراضي المسيحية " تحت إرشاد الله " أنظر :
عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٠٠- ١٠١ .

وقد حاول فرسان القديس يوحنا في كل مناسبة فرض هذه السياسة على الملوك والقادة الصليبيين ، وظهر ذلك في موقفهم من ملك بيت المقدس (الأسمى) أبان أحداث الحملة الصليبية الخامسة والذي تأرجح ما بين المعارضة والتأييد ، وكان له أثره أحياناً في عرقلة جهود هذا لملك إزاء بعض المواقف الحرجة بالنسبة للصليبيين .

هذا فضلاً عن اتخاذهم موقفاً سلبياً من الإمبراطور فردريك الثاني ، ونجاحهم في إقناع بعض قادة الحملات الصليبية القادمة من الغرب ، مثل الأمير الإنجليزي ريتشارد أفاكورنوول باتباع الأسلوب الذي كانوا يرونه بالنسبة للوضع في الشام والعلاقات مع المسلمين . فقد كان الملك الصليبي خلال هذه المناسبات لا حول له ولا طول أمام سياسة الاسبتارية وغيرها من الجماعات الرهبانية الأمر الذي كان له أكبر الأثر في انحلال المملكة الصليبية .

على آية حال ، هدأ الصراع الصليبي الإسلامي قليلاً في نهاية القرن الثاني عشر بصلح مدته خمس سنوات وقعه عموري الثاني لوزنيان والملك العادل في أول يوليه ١١٩٨م / الثالث والعشرين من شعبان ٥٩٤ هـ على أساس القواعد التي اتبعت في " صلح الرملة " مع احتفاظ كل من المسلمين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة ؛ واحتفظ الصليبيون ببيروت وجبيل واحتفظ العادل بيافا في حين قسمت صيدا بينهما (١) واتفق أن تولى عرش البابوية في هذه السنة انوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ – ١٢١٦م) . وقد أولى هذا البابا شئون لاتيني الشرق اهتماماً كبيراً حيث بدأ جهوده ببرنامج ضخم يهدف إلى محو آثار حروب صلاح الدين واغتصاب بيت المقدس مـــــرة

---

(1) Cf. Estoire D`Eracles, P. 228.

أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٧٨ .

وكذلك سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٢٣- ٩٢٤ .

أخرى من المسلمين ، فلم يكد يمضى على توليه مهام منصبه أشهر قليلة حتى دعا – في منتصف عام ١١٩٨م – للحملة الصليبية الرابعة ، ثم أرسل بعد قليل إلى عمورى بطريرك بيت المقدس يطلب منه إرسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف في بلاد الشام ، ويأمره أن يعنى في هذا التقرير بالبيانات الخاصة بمدى قوة الحكام المسلمين والعلاقات فيما بينهم وبين بعض (١) وأعقب ذلك بأن بعث بمساعدة عاجلة في العام التالي (١١٩٩م) إلى الاسبتارية والداوية عبارة عن سفينة محملة بالأسلحة والحبوب ، موجهاً النصح إليهم باتخاذ الحذر ضد المسلمين ريثما تتهيأ الظروف لإنقاذ الحملة الصليبية الجديدة المزمع قيامها (٢) هذا بالإضافة إلى مبالغ من الأموال ارسلها ضمن مساعداته لصليبي الشام وكان مقدم الاسبتارية يتولى بالتعاون مع كبار رجال المملكة الصليبية أمر توزيعها على الفقراء اللاتين (٣) وخلال هذه الفترة ، فإنه لم تحدث آية عمليات حربية بين المسلمين والصليبيين رغم هذه الإجراءات وذلك حفاظاً على الهدنة المبرمة (٤) .

ومن البديهي أن يقع العبء الأكبر في الدفاع عن لاتين الشرق ورعاية مصالحهم على كاهل الجماعتين العسكريتين الاسبتارية والداوية في الفترات التالية لعودة حملة صليبية إلى الغرب وكذلك السابقة على مجيء أخرى جديدة بصفتهم مقيمين دائمين على أهمية الاستعداد لمواجهة أي خطر لبقائهم المستمر تحت السلاح . وقد استطاعوا بالفعل وفي مناسبات عدة سد الفراغ الناجم عن رحيل هذه القوات إلى الغرب ، بالرغم مما تكبده هؤلاء الفرسان من خسائر فادحة في الأرواح

---

(١) أنظر : المرجع السابق ص ٩٢٩ .

(2) Cf. Rohricht R. Regesta Regni No 760 PP. 202-203.

(3) Cf. Cartulaire Tome I No. 1095, PP. 681-682.

وتاريخ صدور هذه الوثيقة سبتمبر عام ١١٩٩م .

(4) Cf. Conder, C.R.: Op.cit, P. 297.

والأموال ويضاف إلى هذا الدور الاتصال شبه المستمر بالغرب الأوربي لإيقافه على الأحوال المحيطة بهم والإسهام في وضع الترتيبات الخاصة بتجهيز الحملة الصليبية القادمة إلى الشرق .

وفيما يتعلق بجهود الاسبتارية في هذا الصدد نجد البابا انوسنت الثالث في خطاب له في عام ١٢٠٠م لحث رجال الغرب على تقديم العون والمساعدة لإنقاذ الأراضي المقدسة ، يشير إلى مقدم الجماعة على أنه مـن " أبنائه الأعزاء " الذين يطلعونه على أحوال لاتين الشرق من خلال رسائل " يشرحون فيها الحالة التي وصلت إليها مملكة بيت المقدس " (١) وأصدق مثال لذلك خطاب بعث بـه المقدم جيوفرى دى دونجون Gaufridus de Donjon (١١٩٣-١٢٠١) في عام ١٢٠١م إلى بريور الاسبتارية في انجلترا (٢) ويبدو من سطوره اهتمام الجماعة بالأوضاع المحيطة في الجانبين الصليبي والإسلامي ، حيث أرسلت في البداية وفداً إلى انجلترا لعرض أحوال الأراضي المقدسة على زعماء الغرب من أجل تقديم المساعدات اللازمة لنجدتها ، لكن السفينة التي أبحر بها رجال الوفد من أعضاء الاسبتارية غرقت على ساحل طرابلس أمام جبلة ، فأنتهز المقدم فرصة إبحار أول سفينة من شاطىء الشام الصليبي بعد توقف " الرياح الشديدة " ليبعث بهذا التقرير المفصل الذي اهتم بما كانت عليه أحوال الحكام المسلمين والعلاقات فيما بينهم . وأكثر ما شغل بال مقدم الاسبتارية في هذا المجال هو وحدة مصر والشام في ظل لواء واحد بعد أن نجح الملك العادل في الاستئثار بمصر وضمها إلى سلطانه على أساس أن الصليبيين لا يستطيعون الدفاع عـن أنفسهم ضد

---

(1) Cf. Roger de Hoveden: Op.cit, Vol. II. P. 473.

(٢) البريور Prieur موظف ديرى يتولى إدارة أملاك الدير ويعين لمدى الحياة ويختاره رئيس الدير وفى وسع هذا الأخير أن يعزله بعد توجيه أربع انذرات إليه .

Cf. La grande Encyclopedi, art, Prieur, Tome XXVII, P. 651.

ووظيفته في نظام الجماعة إدارة الأملاك التابعة لها في مركز من مراكزها المختلفة في أوروبا والشرق ويختاره مقدم الجماعة والمجلس العام .

مملكتين قويتين – مصر ودمشق – أصبحتا تحت قيادة واحدة " فبتهديداتهما – يقول مقدم الاسبتارية – ساد الرعب والفزع بيننا " . ثم تطرق جيوفرى دونجون إلى وصف أحوال مصر بأنها كانت سيئة للغاية خصوصاً بسبب المجاعات (١) وأظهر في تقريره نوعاً من التشفي إزاء المصائب التي حلت بهذا البلد وبأهله " آملاً أن يكون ذلك انتصاراً من الله للصليبيين ، ونهاية لما عانوه من ويلات الحروب " . ورغم سوء أوضاع الجانب الإسلامي على هذا النحو ، لم يتورع مقدم الجماعة عن طلب المساعدة لصليبيي الشام متعللاً بأن لدى المسلمين " مصادر للثروة لا ينضب معينها تتزايد بما يدرونه من التجارة التي يأتي بها العديد من التجار ، الأمر الذي – كما يقول – يهددنا بالصدام مع قوة أكثر تفوقاً من المعتاد " فإذا حصلنا على المساعدات الكافية من العالم المسيحي (الغربي الكاثوليكي) من المعتقد أننا سنكون أنفسنا قادرين على الانتقام لما لحق بالمسيح من أضرار وأذى وما أصاب المسيحيين من خزي وعار " (٢) وحاول مقدم الاسبتارية من خلال الإفصاح عن مخاوفه إزاء الخطر الإسلامي المرتقب ورغبته في الاستفادة من الظروف الحرجة المحيطة بالمسلمين آنذاك ، وإبراز أهمية قدوم مساعدات من الغرب إلى لاتين الشرق . وقد أكد ذلك إلى البريور بأن حثه على أن يكون طلب المساعدة : " موضع عنايته " وأن يبذل قصارى جهده لتشجيع ملك انجلترا وكل من يستطيع حثه من الأشخاص ، وينصحهم من أجل القدوم " لنجدته " – أي نجدة مقدم الاسبتارية في الشام – خصوصاً وأن الظروف المحيطة بمراكز الجماعة في الغرب الأوربي في ذلك الوقت كانت – كما يقول – لا تسمح بأن ترسل هذه المراكز الإمدادات اللازمة – كما كانت

---

(١) أشار إلى هذه الأوضاع : أبو شامة : الروضتين ج٢ص٢٢٤ .
(٢) يقصد مقدم الاسبتارية بذلك الهزائم التي منى بها الصليبيون في حروب صلاح الدين .

العادة – إلى المقر الرئيسي للاسبتارية في الأراضي المقدسة ، وفوق ذلك فإن الجماعة ذاتها غارقة في بحر من الديون . وبعد أن أوضح جيوفرى دونجون هذه الظروف لبريور الاسبتارية في انجلترا على النحو السابق رجاه أن يكرس كل مساعيه من أجل العمل على إرسال المدد إلى الشرق في اقرب وقت ممكن بل " وعلى أول سفينة مبحرة في طريقها إلى الأراضي المقدسة " (١) .

وهذا الخطاب كغيره من الرسائل التي كان يبعث بها مقدمو الجماعة أو موظفوها البارزون بصفة دورية إلى الغرب الأوربي تزيد الأمر تأكيداً بأن دور فرسان القديس يوحنا لم يقتصر على الاشتراك في حروب مباشرة ضد المسلمين ، أو شن هجمات مضادة أو أغارات للسلب والنهب على البلاد الإسلامية المجاورة ، وإنما تعدى هذه الأعمال إلى ما هو أبعد بحيث أصبحت الجماعة عاملاً نشطاً يحث زعماء الغرب ويدفعها لإرسال حملات صليبية أو مساعدات في صور متعددة لإنجاد المملكة اللاتينية . وقد قام بهذا الدور المراكز التابعة للاسبتارية في أوربا سواء بطريق مباشر أو بالتعاون مع البابوية ؛ لذا يمكن القول بأن هؤلاء الفرسان كانوا المحرضين الرئيسين على قدوم جحافل الصليبيين من الغرب ، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تصعيد الصراع بين المسلمين واللاتين . هذا إلى جانب ما كانوا يبعثون به مع الحملات الصليبية والنجدات من إمدادات ومؤن إلى أعضاء الاسبتارية المقيمين في الشام ، مما ساعد بالتالي على تدعيم موقف هؤلاء الأخيرين في هذا الصراع ، وأيضاً الحفاظ على أملاكهم وقلاعهم الخاصة ، إن لم يكن قد أسهم كثيراً في تأجيل النهاية الحتمية للمملكة الصليبية الغاصبة حوالي قرن من الزمان .

---

(١) أنظر نص الخطاب بالتفصيل في :

Roger de Hoveden: Op.cit, Vol. II. PP. 542-545.
Also: Cartulaire Tome II No. 1131, PP. 1-3.

مختصرا في :

Rohricht R. Regesta Regni No. 787, P. 210.

والدليل على ذلك من السهل تبينه في رد الفعل الذي أحدثه خطاب جيوفرى دونجون مقدم الاسبتارية في الغرب الأوربي ، حيث يذكر روجردى هوفدن أنه بسماع ذلك – يقصد المعلومات الواردة في الخطاب عن أحوال الأراضي المقدسة السيئة – أرسل (مولانا) البابا انوسنت كاردينالا إلى ملكي فرنسا وانجلترا لطلب تلك المساعدة – التي حث المقدم على إرسالها – وتدبيرها من بلادهما حتى يتسنى انقاذ أرض بيت المقدس . وقد وافق العاهلان على مطلب البابا بأن قدموا الجزء الأربعين ($\frac{1}{40}$) من مجموع إيرادات البلدين لمدة عام معونة للدفاع عن هذه الأرض ، وزاد على ذلك ملك انجلترا بأن أمر العلمانيين في بلاده كي يحذوا حذوه ويتبرعوا بالعطايا والصدقات لنجدة بيت المقدس أو التطوع من أجل الأراضي المقدسة " (١) ويضيف المؤرخ ج .ف. ميشو J.F. Michaud بأن البابا انوسنت الثالث من خلال الإشارة إلى المجاعات والظروف السياسية السيئة التي ألمت بالعالم الإسلامي في مصر والشام – كما أوردها الخطاب – حث الصليبيين على الاستفادة من هذه النكبات والتعجيل بغزو هذه البلاد (٢) وقد أسهمت هذه الجهود في أن يوضع مشروع الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة موضع التنفيذ . وكانت ارصاصاتها جماعة من الفرسان الصليبيين قدرهم البعض ثلاثمائة رحلوا من مينائي بروج Bruges ومرسيليا وكانوا من الفلمنك والشامبانيين والمحاربين الإنجليز وحجاج برتياني السفلى ، وقد نزلوا ساحل عكا في أواخر عام ١٢٠٢م /٥٩٩هـ (٣) .

(1) Cf. Roger de Hoveden: Op.cit, Vol. II. PP. 545-547.
(2) Cf. The History of the Crusades, Vol. II, P. 188.
(3) Cf. Ibid PP. 111-112.
Also: Deschamps, P.: Le Crae des Chevalirs P. 184.
ويضيف هذا الأخير إن الشامبانيين كانوا بقيادة رينودى دامبيير وكان فيهم جيوفرى الخامس جوانفيل عم المؤرخ المعروف حنا جوانفيل .

ويبدو أن الاسبتارية كغيرهم من صليبي الشام تشجعوا بوصول هذه الارصاصات وبأخبار الحملة التي كانت بصدد الإبحار من ميناء البندقية ، فقاموا بعدة حملات في شمال الشام في محاولة لإعادة سيطرتهم على البلاد الداخلية للمرقب وحصن الأكراد (١) إلى جانب خروجهم في مقدمة القوات الصليبية للإغارة على بلاد المسلمين القريبة من عكا (٢) .

وأولى تلك الحملات كانت في مايو عام ١٢٠٣م / اليوم الثالث من شهر رمضان ٥٩٩هـ حيث اجتمع إلى اسبتارية حصن الأكراد جماعات من فرنج طرابلس " والحصون من حولها " وقد تهيأوا لغزو بلاد صاحب حماه وكان الملك المنصور الأول محمد (١١٩١ – ١٢٢٠م) ؛ فأسرع هذا الأخير إلى طلب المساعدة من الملك العادل ولم يمض وقت قصير حتى وافته نجدات كل من العادل وصاحب بعلبك (الملك الأمجد بهرام شاه ابن عز الدين فرخشاه) وصاحب حمص (الملك المجاهد) وكذلك الملك الظاهر صاحب حلب وهو نازل بقلعة بعرين " مرابطاً للفرنج " (٣) . وجاء الاسبتارية وحلفاؤهم " في فارسهم وراجلهم " ، فتقدم نحوهم الملك المنصور في " العساكر " التي اجتمعت إليه " وقاتلهم فهزمهم ، وأخذ جماعة من مقدميهم وخيالتهم وبعث بهم إلى حماه " (٤) وعلى اثر هذه الهزيمة رغب الاسبتارية في مصالحة المنصور ، وكان الوسيط في الصلح بين

(1) Cf. Cahen Clande: Op.cit, P. 306.
(2) Cf. Estoire d`Eracles: Op.cit, P. 260.
(٣) انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ص١٤١- ١٤٣.
(٤) المصدر السابق ص ١٤٣ وقد قيل فى هذه المناسبة شعرا منه :

يا أيها الملك المنصور نصح فتى لم يلوه : عن وفاء كثر العزل
اهصر عداك كهصر الليث طعمته : وصل إذا الليث فى الهيجاء لم يصل

ومنه : أغمدت بيض المواض فى الرقاب وقد : حليت عاطلها ضربا من القلل
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك : لهم اجلا يبقى الى اجل
صفدهم عاجلا واجعل حصونهم : سبحونهم فهم فى غاية الفشل

انظر : نفس المصدر الصفحات ١٤٤، ١٤٥

الطرفين الداوية ، الذين بذلوا جهدهم لإغراء صاحب حماه على قبول الصلح بأن بعثوا رسولاً إليه من قبلهم يخبره بوصول إمدادات ضخمة إلى الصليبيين في عكا . لكن لم يغب عن بال المعاصرين حقيقة النوايا المنطوية على ذكر هذه الأخبار ، إذ يذكر جمال الدين بن واصل : " إنما قصدت الداوية بهذه الأخبار إرهاب ، ليصالح الملك المنصور بيت الاسبتارية ، فإن الداوية سألهم الاسبتار التوسط بينه وبينهم " (١) مما ينم عن مراوغات تستغل بها إحدى الجماعتين ظروفاً جديدة قد تؤثر على المسلمين لصالح الجماعة الأخرى ، ويدل في نفس الوقت على أن هؤلاء المحاربين الصليبيين كانوا يجهلون قدرات المسلمين الحقيقية في استطلاع الأمور وفهم أبعادها ؛ وقد تبين ذلك بوضوح في رد الملك المنصور على مبعوث الداوية بقوله : " إنا لا نجزع بما تقول ولا نكترث ، ولو أنهم أضعاف ذلك لنا جزتهم ، فقد تحققنا قصدهم لنا وعلمنا ذلك ولا سبيل إلى مصالحة الاسبتار بوجه " (٢) .

ولم تمض بضعة أيام حتى خرج اسبتارية حصني الأكراد والمرقب مجتمعين ومن وصل إليهم من الضرب " في جمع عدته ما بين أربعمائة وخمسمائة فارس " خارجاً عن التركبولية " وألف وأربعمائة من الرجالة " ومن معهم من الجرخية (٣) ورماة الزنبورك " وأغاروا على بعرين في الثالث من يونيه ١٢٠٣م / الحادي والعشرين من رمضان ٥٩٩هـ (٤) فخرج إليهم الملك المنصور – صاحب حماه – بقواته " وقصدهم والتقاهم فكسرهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة " وأسر

---

(١) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج٣ص١٤٦، ١٤٧.
(٢) المصدر السابق ص١٤٧.
(٣) الجرخية هم رماة الجروخ ، والجرخ هو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط .
انظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٦١ ج١.
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص١٤٨.
أبو الفدا : المختصر ج٣ص٩٦.
Deschamps, Paul: Op.cit, P. 124.

منهم . وقد حملت الأسرى إلي حماه على الخيول " بعددهم وبأيديهم قنطارياتهم " (١) .

وعلى اثر هذه الهزيمة طلب الاسبتارية الصلح من الملك المنصور فارسل هذا الأخير كتاباً إلى الملك العادل " يستطلع أوامره " في هذا الشأن . وقد فوض إليه العادل بأن يعتمد ما يراه صواباً في الصلح مع الاسبتارية ، على أن يراعى في المفاوضات الحال التي كان عليها الصليبيون آنذاك" فإن مادتهم قليلة ونجدتهم متأخرة " وكل المعلومات التي لديه تؤكد أنهم ضعفاء ، وذلك كي " يقوى عليهم (المنصور) القول ويشدد عليهم الطول " أي يتشدد معهم في شروط الصلح . وتكررت المراسلات بين الطرفين في هذا المعنى ، وانتهت بعقد هدنة بين الاسبتارية والملك المنصور (٢) .

ولم يتوقف فرسان الجماعة عن مهاجمة حماه لرغبتهم في الانتقام لما حل بهم من هزائم في محاولاتهم السابقة أو " لأن هدنتهم – القصيرة الأجل – مع الملك المنصور كانت قد انقضت " كما يذكر ابن واصل ؛ فأغاروا على المدينة " ونهبوا وقتلوا من التركمان خلقاً كثيراً ، ووصلوا إلى باب حماه وخرج إليهم عامة حماه ، فقتل منهم خلق عظيم والذي تبقى عادوا هاربين إلى حماه فازدحموا في الباب فمات منهم أناس عدة ورمى منهم جماعة بأنفسهم إلى الخندق " وعاد الاسبتارية. " وقد أسروا جماعة كبيرة " أما الملك المنصور فقد أسرع بطلب " النجدة " من الملك المعظم عيسى – ابن العادل - وهو بدمشق نائباً عن أبيه " فسير إليه عسكراً (٣) ويبدو أن الاسبتارية طمعوا بذلك

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ص١٤٩
ابن الوردى : تاريخه ج٢ص١٧٢
وقد مدح احد الشعراء الملك المنصور بمناسبة هذا النصر بقصيدة منها :
كم بلدة للمشركين بناؤها : يسطاك في يوم المغار تهدما
وشننت منتقما بساحل بحرها : جيشا حكى البحر الخضيم عرمرها
اسدلت فى الاقاق من هبواته : ليلا واطلعت الاسنة انجما
والقنطاريات : جمع قنطارية والقنطارية نوع من الرمح يصنع من الخشب الزان وما شاكله
انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج١ص١٨٣ح٢ .
(٢) انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ص١٥٢- ١٥٤ .
(٣) مفرج الكروب ج٣ ص ١٦٢- ١٦٣ .
انظر أيضا : ابن ايبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ ص ١٥٥- ١٥٦ .

النصر السريع الذي استحوذوا به على الكثير من الغنائم والسبي إلى جانب إيقاعهم بأهل حماه فعاودوا الإغارة على المدينة (١) وفي هذه المرة أخذوا النساء الغسالات من باب البلد على نهر العاصي " ، وامتلأت أيديهم بالمكاسب . وخرج إليهم الملك المنصور تقي الدين " وقاتلهم بنفسه أشد قتال . وكشفهم واسترد النساء وجميع ما أخذوه " (٢) ثم توسط الداوية ثانية في الصلح بين أمير حماه والاسبتارية بناءاً على طلب هؤلاء الأخيرين . وقد اقترح الملك المنصور في هذه المرة شروطاً معقولة لإتمام هذا الصلح ، وذلك خوفاً من تكتل بقية الفرنج مع الاسبتارية ضده (٣) ووقعت الهدنة بين الاسبتارية والملك المنصور (٤) بضمان الداوية في شهر سبتمبر ١٢٠٣م (٥) وبالرغم من ذلك فقد أثارت اعتداءات الاسبتارية على حماه حفيظة كل من صاحب حلب وصاحب حمص ضدهم ، إذ بعث الملك الظاهر في نفس العام وبعد توقيع الهدنة مع حماه " عسكراً إلى المرقب " بقيادة " مبارز الدين أقجا أو أقجبا " ، فسار إلى الحصن وحاصره وهدم البرج الذي يطل على الباب المؤدى إلى الميناء على الساحل لكن لقي هذا القائد مصرعه بسهام الاسبتارية " وعاد العسكر بعد أن كادوا يفتحون الحصن وأيديهم ملآنة من الغنائم " (٦) هذا بينما أغار الملك المجاهد أسد الدين – صاحب حمص – على منطقة حمص الأكراد " وأخذ من الغنم والمواشي ما لا يحصى كثره " (٧) .

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ١٥٨.
Also: Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 534.
(٢) أبو شامة المقدسي : الذيل علي الروضتين ص ٥١ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة ٣٤١ .
(3) Cf. Cahen, Claude: Op.cit, P. 603.
(٤) أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ١٠٥- ١٠٦ ، ابن واصل ص ١٦٤ .
ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ١٧٥- ١٧٦ .
(5) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 534-535.
(٦) انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص١٥٦ .
(٧) أنظر المصدر السابق : ص ١٦٨ .

والجدير بالملاحظة هو أن بوهيمند الرابع أمير إنطاكية لم يتحالف مع الاسبتارية في هذه الحملات حفاظاً على تحالفه مع الظاهر صاحب حلب ضد ليو أمير أرمينيا ، بالرغم من تعضيد الجماعة لبوهيمند في مسألة وراثة العرش الأنطاكى التي كان يسعى فيها الأمير الأرميني من أجل أن يؤول هذا العرش لابن أخيه الأكبر ريموند – روين (١) ويبدو أن بوهيمند الرابع بدأ تعاونه مع الاسبتارية عندما شجعهم على القيام بحملة ضد اللاذقية وجبلة اقتصرت على عمليات غزو سريعة في ربيع عام ١٢٠٥م ، ومن الواضح أن هذا التنسيق كان لصالح الجماعة التي استفادت منه ، ومما يصعب تصديقه في هذا الصدد هو أن بوهيمند اشترك في هذه الحملة بنفسه معهم لأن علاقاته مع الظاهر صاحب حلب ظلت على ما هي عليه (٢) ورغم عدم تحديد المصادر العربية للعنصر الفرنجى المحارب الذي هاجم جبلة واللاذقية واقتصر ذلك على الإشارة بأنهم " فرنج طرابلس " كما يذكر ابن واصل (٣) فلعل فرسان الاسبتارية بحكم نفوذهم في هذه المنطقة ومصالحهم المتزايدة إلى جانب رغبتهم الدائمة في استرداد مدينتهم " جبله " ، كل ذلك من شأنه الإيعاز إلى الباحث أن يؤكد باطمئنان بأنهم كانوا في مقدمة المهاجمين لهاتين المدينتين ، مما نتج عنه أن سير الملك الظاهر " العساكر وأمرهم بخراب جبلة واللاذقية " كي يحول دون وقوعهما في أيدي الفرنج على نحو يمكنهم من الاستفادة بهما (٤) .

---

(1) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 533-534.
Also: Cahen, Claude: Op.cit, PP. 603-608.

(٢) عن إغارة الفرنج علي جبلة واللاذقية انظر : ابن واصل المصدر السابق ص ١٦٦- ١٦٧ . وعن دور الجماعة في هذه العمليات الحربية انظر :

Cahen, Claude: Op.cit, P. 608-609.

(٣) مفرج الكروب ج٣ ص ١٦٦ .

(٤) عن الإجراء الأخير انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٥ .

وفي هذه السنة (١٢٠٥م /٦٠٣هـ) عندما نزل اسبتارية حصن الأكراد علـى بلاد حمص (١) " ونهبوا وقتلوا " (٢) ، خرج العادل من مصر ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس واستدعى العساكر فأتته " من كل فج عميق على كل ضامر" (٣) حتى اجتمع عنده نحو عشرة آلاف فارس من حماه وحمص وبعلبك وسنجار والموصل والجزيرة وآمد وغيرها ، ثم سار متوجها إلى حصن الأكراد " فنازله وقاتل أهله أشد قتال " (٤) وكانت بينه وبين الاسبتارية " وقعة عظيمة ، قتل بينهما خلق كثير ، ثم كسرهم وضيق عليهم " (٥) وقد فشل العادل في الاستيلاء على الحصن فانصرف عنه إلى مهاجمة بعض القلاع والمواقع الصليبية الأخرى في كونتية طرابلس " حتى وقع الصلح بينه وبين صاحبها " الكونت بوهيمند الرابع (١١٨٧ – ١٢٣٣م) (٦) ومن الواضح – كما اعتقد البعض أيضا – أن الاسبتارية خمدت هجماتهم على أثر العمليات الحربية الضخمة التي قام بها المسلمون ضد حصني الأكراد والمرقب (٧) إن لم يكونوا قد تأثروا بالأخبار التي وصلتهم بشأن تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية واستيلائها عليها في عام ١٢٠٤م حيث أقامت هناك إمبراطورية لاتينية ظلت لأكثر من نصف قرن (١٢٠٤ – ١٢٦١م) (٨) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٧٢ . وقد حدد العنصر المهاجم بذكره أنهم " أهل حصن الأكراد " أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ٧٧ ، ذكر الواقعة ولم يحدد العنصر بل ذكر إنهم " الفرنج " .

(٢) ابن ايبك الدوادار : كنز الدرر ج٧ ص ١٦٠ .

(٣) ابن ايبك الدوادار : المصدر السابق نفس المكان .
أيضا أبو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٠٧- ١٠٨ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٣ .

(٥) ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ١٧٧- ١٧٨ .
أيضا أبو الفدا : المختصر ج٣ نفس المكان .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ نفس المكان .

(7) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 535.

(٨) عن التفاصيل المتعلقة بأحداث الحملة الصليبية الرابعة ونتائجها أنظر :
Villehardouin : The conquest of Constantinople in Chronicles of the crusades ed. Penguin classics PP. 29-160.
أيضا روبري كلاري : فتح القسطنطينية علي يد الصليبيين ترجمة الدكتور حسن حبشي القاهرة ١٩٦٤م .

فبالإضافة إلى رحيل عدد من الشخصيات الصليبية والفرسان من الشام إلى بيزنطة رغبة في الحصول على مكاسب واقطاعات (١) كان من نتائج هذا التحول أيضاً افتقاد صليبي الشام لمدد علقوا عليه آمالاً كباراً ، وسعوا كثيراً لدى زعماء الغرب الأوربي من أجل إرساله في أقرب فرصة (٢) مما اضطر الذين آثروا البقاء في الأرض المقدسة إلى بذل محاولة أخيرة من أجل الحصول على مساعدات حربية من الجيش الصليبي المحاصر للقسطنطينية (٣) وذلك بأن أوفدوا مبعوثين من قبلهم إلى هناك . وبعد مداولات وعد إمبراطور القسطنطينية اللاتيني البارونات الصليبيين بالذهاب لمساعدة إخوانهم في الشام بعد انقضاء موسم الشتاء ليصبح الوقت مناسباً لحرب المسلمين وحتى يكونوا – كما تعلل لهم – قد تزودوا بالأموال من البلاد البيزنطية المشهورة بثرائها (٤) كما أرسل أبواب القسطنطينية وسلسلة الميناء إلى عكا " كي يرفع من شجاعة إخوانه " المقيمين في الشام (٥) .

ولم يغفل فرسان القديس يوحنا أمر الذهاب إلى العاصمة البيزنطية من أجل الحصول على نصيب من الاقطاعات في هذه البلاد الغنية ، خصوصاً وقد فقدوا الأمل في وصول مساعدات أخرى من الغرب . ورحب بلدوين دى فلاندرز امبراطور القسطنطينية اللاتيني (١٢٠٤ –١٢٠٦م) ترحيباً حاراً " بالمدافعين عن الأراضي المقدسة (٦) وهناك أقام الاسبتارية لأنفسهم مقراً وحصلوا على اقطاعات بالإمبراطورية ، إلى جانب أقطاعات أخرى كانت لم تحتل بعد (٧) ومن هـذا القبيل

---

(1) Cf. Villehardouin : Op.cit, P. 110.

(٢) انظر ما سبق وأيضا Cartulaire Tome II No. 1131, PP. 2-3.

(٣) انظر أحداث هذا الحصار بالتفصيل في : Villehardouin : Op.cit, PP. 66-93.

(4) Cf. Ibid, PP. 77-78.

(5) Cf. Michaud, J.F.: OP.cit, Vol. II, P. 154.

(6) Ibid, P. 155.

(7) Cf. Villehardouin : Op.cit, P. 125.
Also: Woodhouse, F.: Op.cit, P. 45.
Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 237.

ما حدث في مارس عام ١٢٠٥م حيث منح بلدوين الأول السالف الذكر الجماعة المقر الذي كان لدوق نافارين duche de Navarin (١) بالإضافة إلى حصولها على العديد من الامتيازات وامتلاكها كنيسة وديرا في القسطنطينية (٢) الأمر الذي ترتب عليه – كما يرى البعض – أن اهمل الاسبتارية شئون الأراضي المقدسة بعض الشيء خلال هذه الفترة ، تاركين الملك الصليبي وحيداً بلا وسيلة يبذل المساعي من أجل عقد هدنة مع المسلمين (٣) .

وبالرغم من ذلك لم يتوقف اسبتارية الشام عن استغلال الأوضاع المحيطة بهم ، من أجل الحصول على المكاسب والتوسع على حساب المناطق المجاورة ، فقد أراد اسبتارية حصن الأكراد الاستيلاء على مدينة حمص ، فأغاروا عليها ثانية في عام ١٢٠٧م / ٦٠٥هـ حتى وصلوا باب تدمر من المدينة بعد ما أقاموا على نهر العاص جسراً من الخشب كانوا قد صنعوه في قلعتهم وحملوه معهم وعبروا هذا النهر عليه ثم رفعوه على الجمال " وقصدوا حمص " (٤) فأستنجد أميرها المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني بالملك الظاهر صاحب حلب ، وسير له هذا الأخير " عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته " (٥) وتصدت العساكر الإسلامية مجتمعة للاسبتارية المغيرين فهربوا على طريق القدس " وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم (٦) لكن

---

(1) Cartulaire Tome II No. 1213, PP. 47-48.
(2) Cf. Woodhouse, F.: Op.cit, P. 45.
(3) Cf. Michand, J.F. : OP.cit, Vol. II. P. 155.
ايضا مكسيموس رموزوند : تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ، المجلد الثاني ص ٢٣١ .
(٤) أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ٦٧.
(٥) أنظر ابن الأثير : الكامل حوادث ٦٠٤ هـ .
ايضا ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٦٨ .
(٦) أبو شامة : المصدر السابق نفس المكان .

فرسان الجماعة عادوا رغم ذلك إلى شن هجوم آخر على حماه في نفس العام ، مما دفع الملك العادل إلى أن يخرج إليهم بنفسه ، فنزل – كما هي العادة – على بحيرة قدس حيث سير إليه الظاهر نجدة من " عسكر حلب " (١) وتقدم للانتقام من اسبتارية حصن الأكراد بأن شن هجوماً على الحصن . ونظراً لأنه لم يستطع الاستيلاء عليه اتجه جنوباً وأخذ حصن القليعات وهي قلعة صغيرة شمال عرقه (٢) .

وكان انقضاء مدة الهدنة التي كان عموري لوزينان ملك بيت المقدس وقبرص قد عقدها مع المسلمين قبل ذلك بست سنوات في سبتمبر عام ١٢٦٠م (٣) لذا أرسل الملك العادل إلى عكا في ١٢٠٩م يطلب من الصليبيين تجديدها ، فاجتمع مقدمو الاسبتارية والداوية والتيوتون والأساقفة وبارونات المملكة عند البطريرك أوبرت Aubert . وقد قوبل هذا الطلب بالرفض والمعارضة من جانب الداوية ورجال الدين ، بينما مثل الاسبتارية بقيادة مقدمهم جارين مونتاجو الجانب الأكثر تعقلاً إذ حث المقدم كبار رجال المملكة الصليبية على وجوب قبول عرض السلطان (٤) بعد أن ذكر الحاضرون في المجلس الصليبي بأنهم كثيراً ما وعدوا بإرسال نجدات من الغرب دون أن يصل إلى الأراضي المقدسة شيء من هذا القبيل . وضرب مقدم الاسبتارية مثلاً بما آل إليه أمر الحملة الصليبية الرابعة التي علق عليها صليبيوا الشام آمالهم ، وأضاف بأنه ليس من الحكمة المخاطرة بالحرب على مجرد وعد بالمساعدة من الغرب .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٥ .
ايضا ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٨ .
(٢) أنظر ابن الأثير : الكامل حوادث ٦٠٤ هـ .
Also: Cahen, Claude: Op.cit, P. 416.
(3) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 536.
ايضا : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩٤٦ .
(4) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 309.

ونظراً لأن الاسبتارية كانوا يؤيدون تجديد الهدنة ويدعون إلى قبول توقيعها على النحو السابق فقد أعلن الداوية الرفض بحماس بالغ (١) وارتبط هذا الموقف من جانب الداوية – كما يرى البعض بالخلاف بين الجماعتين في موقفهما من الحرب الأهلية في إنطاكية (٢) وكذلك سوء العلاقات فيما بينهما (٣) ويبدو أن الداوية اتجهوا إلى تدعيم موقفهم هذا بأن تزعموا القيام بعمل عدواني ضد المسلمين (٤) مما أدى إلى خروج الملك المعظم – ابن العادل – في عام ١٢١٠م / ٦٠٧هـ للانتقام من الفرنج الذين هاجموا الأردن واجبروا كثيراً من المسلمين على الرحيل من الأراضي الواقعة إلى الغرب من النهر . وقد خربت قوات المعظم ضياع الصليبيين " وغنموا وأسروا ولم يتجاسر الفرنج على الخروج من عكا رغم ذلك " (٥) بل إن هذه الأحداث الأخيرة وأيضاً قيام المسلمين في ذلك الوقت ببناء قلعة ضخمة فوق جبل الطور (٦) فرض على جميع الصليبيين الانصياع لنصيحة الاسبتارية ومؤيديهم وإقرار مبدأ الصلح مع المسلمين ، وكانت الهدنة التي وقعت في يوليو عام ١٢١١م لمدة ست سنوات (١٢١١- ١٢١٧م) بين الملك العادل والملك الصليبي حنادى بريين (١٢١٠- ١٢٢٥م) والذي توج بعد وصوله من أوربا على يد البطريرك وفي حضور مقدم الاسبتارية (٧) وقد بادر بعد توقيعه الهدنة بإرسال الرسل إلى روما يطلب إعداد حملة جديدة بحيث تصل إلى الشرق عند انتهاء الأجل المحدد لها (أي عام ١٢١٧م) (٨) .

(1) Cf. Michand, J.F. : OP.cit, Vol. II. PP. 194-195.

(٢) انظر التفاصيل المتعلقة بهذه المشكلة في :
Estoire d`Eracles: Op.cit, PP 313-315.

(3) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 183.

(٤) يشير تاريخ هرقل إلى قيام الصليبيين بالإغارة على بلاد المسلمين لمدة ثلاثة أيام ثم عودتهم إلى عكا . انظر :
Estoire d`Eracles: Op.cit, PP 309-310.

(٥) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٦٩- ٧٠ .

(٦) انظر المقريزي : السلوك ج١ ص ١٧٦ .

(7) Cf. Estoire d`Eracles: Op.cit, PP 311-312, 317.

(8) Ibid PP. 318-319.

وقد وجدت الجماعة أنها لا تستطيع البقاء عاطلة دون حرب طوال هذه المدة فاتجهت إلى العمل على الجبهة الأرمينية ومساعدة الأرمن في حربهم ضد سلاجقة الروم الأمر الذي جعل الملك ليو الثاني الأرميني (١١٨٧ – ١٢١٩م) يضفي على الفرسان الاسبتارية كثيراً من الامتيازات والمنح (١) وفي الوثيقة الخاصة بتسليم هذه العطايا والصادرة في أغسطس عام ١٢١٠م أوضح ليو أن سبب تقديم هذه المنح هو " شجاعة الاسبتارية في حربهم ضد المسلمين " (٢) وفضلاً عن ذلك أوعز إلى ابن أخته ريموند – روبن ليعطى الجماعة مدينة جبلة وملحقاتها على أن يتولى الفرسان الاسبتارية مهمة اغتصابها من المسلمين . وقد خول ريموند لأعضاء الجماعة في هذا العطاء حق توقيع الهدنة مع هؤلاء الأخيرين (٣) وكانت هذه الامتيازات في مقابل المساعدات الحربية التي قدمتها الجماعة للملك الأرميني وابن أخته (٤) فقد تمكن ليو بفضل مساعدة الاسبتارية له من إنزال الهزيمة بالسلطان عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم (١٢١٠ –١٢١٩م) وانتزاع عدة مدن مثل هرقله وقرمان إلى الجنوب الغربي من قونيه في عام ١٢١١م /٦٠٨هـ (٥) وبعد وفاة كيكاوس شرع الملك الأرميني في الاستفادة من مشاكل خليفته ، فقام بحملة ضد مدينة لارندة Laranda القريبة من قونية (٦) بمساعدة الاسبتارية الذين وعدهم بالمكاسب الناجمة عن هذه الحملة ، وأراد ليو بذلك – كما يرى المؤرخ كلود كاهن – أن يؤسس لحساب الجماعة موقعاً غرب قيليقيا يكون

---

(1) Cf. Lettera di Leone Re d`Armenia ad Innocenzo Papa in Cod, dipl. No. XCIV. P. 98.
Also: Cartulaire Tome II No. 1433, PP. 115-116.
(2) Cf. Ibid No. 1350, P. 119.
(3) Cf. Diploma di Raimondo Rupino in cod. Dipl. No Xcv, P. 99.
(4) Cf. Cartulaire Tome II No. 1262, PP. 70-71.
Also: R.H.C. Doc.Arm. Tome I Intro: P. XXXIX.

(٥) أنظر سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩٥٣ .
(٦) أنظر أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٧٨ .

حاجزاً بينه وبين السلاجقة حتى يتسنى له التدخل في شئون الجنوب الشرقي (مسألة وراثة عرش إنطاكية) (١) وقد أعطى ملك أرمينيا مدينة لارانده هذه إلى الاسبتارية في أغسطس ١٢١٠م بموافقة ابن أخته ريموند – روبن ، وكما فعل هذا الأخير أعطاهم ليو أيضاً حق إبرام معاهدات سلام مع المسلمين ، وذلك مقابل الدور الذي يشاركون به في الاستيلاء على المدينة التي كانت لا تزال في حوزة هؤلاء الأخيرين (٢) ولم تتوقف عطاياه إلى الجماعة عند هذا الحد بل تلا ذلك منح واقطاعات اخرى حتى أصبح للاسبتارية آمرية (كوماندرية) في قيليقيا على قدر كبير من الأهمية (٣) .

ويبدو أن الجماعة اتجهت إلى توسيع دائرة نشاطها الحربي ، وكذلك الاقتصادي في أماكن اخرى خارج " الأراضي المقدسة " في سبيل الحصول على مزيد من الأملاك أو الاقطاعات يعوضها عما فقدته بعد ضياع الكثير من أراضي ومدن المملكة الصليبية على يد صلاح الدين وخلفائه ؛ فقد حصلت الجماعة في هذا العام أيضاً (١٢١٠م) على العديد من الاقطاعات والامتيازات في جزيرة قبرص (٤) وبذلك أصبح دور الاسبتارية موزعاً ما بين مناطق جديدة للصراع في القسطنطينية وارمينيا وقبرص إلى جانب الدور الذي يؤدونه من خلال وجودهم في المقر الرئيسي للجماعة بالشام حيث نشطت البابوية في تقديم مساعداتها بعد أن ضعف مركز الصليبيين هناك وقلت مواردهم .

---

(1) Cf. La Syrie de Hord a L'Epoque des Croisades, P. 615.
(2) Cf. Cartulaire Tome II No. 1349, PP. 118-119.
Also: Cod. Dip. Del sacro Milit. No. XCVIV. P. 100.
(3) Cf. Ibid, No. XCIX PP. 104-105.
Also: R.H.C. Doc.Arm. Tome II P. 637, 645, 648.
(4) Cf. Lettera di ugo Re di cipro in cod. Dipl. No. XCVII, P. 101.

ففي الوقت الذي كانت تتوقف مساعدات ملوك الغرب وباروناته بسبب ظروفهم الداخلية أو الخارجية ، حرص البابا على أن يبعث إلى الأراضي المقدسة عن طريق الاسبتارية أو الداوية أو البطريرك ما استطاع أن يخصص من المعونات أو الإمدادات لخدمة الأغراض الدفاعية . ولم ينس فعالية الجانب المعنوي في هذا الصدد ؛ لذا لم يكف الباباوات جميعهم بلا استثناء عن أن يذكوا في نفوس هؤلاء المحاربين الصليبيين المقيمين في الشام حمية القتال والاستمرار في أداء واجب الدفاع عن المملكة اللاتينية ، ريثما تتهيأ الظروف لقيام حملة صليبية تساعدهم على ترسيخ قدمهم في هذه البلاد . وهذا ما أتبعه بالفعل البابا انوسنت الثالث في موقفه من صليبي الشام خلال الفترة الحرجة الناجمة عن فقدان الأراضي المقدسة خيرة المدافعين عنها ممن رحلوا إلى العاصمة البيزنطية وكذلك عدم وصول الإمدادات التي كان مرتقباً وصولها بتحول الحملة إلى هناك . فبادر انوسنت في الخامس والعشرين من ابريل عام ١٢٠٥م بأن طلب من الدوق اندرو الهنغاري (الوصي على المجر) أن يحول الأموال التي كان قد أودعها هنرى ملك هنغاريا (المجر) لدى ديربيليه إلى الاسبتارية والداوية كي ينفقوها في سبيل نجدة الأراضي المقدسة (١) ثم أخطر مقدم الجماعة – وكذلك البطريرك ومقدم الداوية – في الثالث والعشرين من ابريل عام ١٢٠٩م بأنه أرسل إليهم مع أحد " الأخوة الاسبتارية " ويدعى حنا دى سامبوكو Jean de Sambuco ثمانمائة وخمسين رطلاً من الذهب ، إلى جانب ألف رطل أخرى وألف وأربعمائة مارك من الفضة (٢) كان قد أرسلها في العام الماضي (٣) وفوق ذلك فقد تعهد البابا انوسنت الثالث بالاستمرار في إمداد لاتين الشرق

---

(1) Cf. Cartulaire Tome II No. 1218, PP. 49-50.

(٢) المارك : كان هناك نوعان من المارك ، المارك الذهبي والمارك الفضي وكل مارك ذهبي تتراوح قيمته من ٨ إلى ١٠ ماركات فضية ، وكل مارك فضي يساوى حوالي ٢،٣جرام أو إن المارك الذهبي على اقل تقدير يساوى ١٨،٤جرام وعلى أقصى تقدير ٢٢جراما من الفضة . انظر محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٣٣ح١ .

(3) Cf. Cartulaire Tome II No. 1328, P. 107.

بالأموال والمعدات والسفن ، لتنفيذ هذا الوعد فرض العشر على إيرادات البابوية والكرادلة في روما.

أما الأكليروس ورجال الهيئات الدينية فكان عليهم أن يدفعوا الجزء العشرين من إيراداتهم وبالنسبة للذين لم يكن في مقدورهم الذهاب بأنفسهم لنجدة الأراضي المقدسة فرض عليهم البابا أن يمدوا إخوانهم الصليبيين بالنفقات الضرورية لمدة ثلاث سنوات ، وتولى تصريف الشئون المالية المتعلقة بالإنفاق على متطلبات الدفاع عن هذه الأراضي آنذاك حنا مارشال الاسبتارية ومعه بعض المندوبين ومقدم الاسبتارية ، كما انضم إليهم في هذا العمل مقدم الداوية وحنا دى بريين ملك بيت المقدس (١) .

وتبين المراسيم البابوية الصادرة في هذا الشأن أن الاسبتارية كان لهم دور فعال في خدمة ما يعرف " بالقضية الكاثوليكية " التي تقوم أساساً على فكرة حرب المسلمين بصفتهم أعداء العقيدة والحفاظ على الأراضي التي استولى عليها الصليبيون في الشرق إن لم يكن ممكناً الاستيلاء على أراض أخرى جديدة . وكانت الجماعة إلى جانب الجماعات الأخرى وخصوصاً الداوية بمثابة أتباع مخلصين يتولون تنفيذ هذه السياسة التي تبنتها البابوية . كما أنه خلال الفترة المحددة للهدنة بين المسلمين والصليبيين ، كان الإعداد البابوي لحملة صليبية يسير على قدم وساق مع اهتمام البابوية بأحوال صليبيي الشام ، وكذلك بما يدور في هذه المنطقة من أحداث . ففي عام ١٢١٢م – على سبيل المثال – كان البابا انوسنت الثالث مهتماً كثيراً بأمر افتداء أسرى الصليبيين المحتجزين في القاهرة والإسكندرية وأرسل إلى الاسبتارية والداوية طالباً منهم التدخل لاستبدال هؤلاء الأسرى أو دفع

(1) CF. Roger de Hoveden: Vol. II. P. 344.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 383.
وكذلك محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٥٧ .

الفدية المطلوبة عنهم (١) وفي نفس الوقت أصدر أمراً إلى بطريرك بيت المقدس ألبرت افوجاردو Albert Avogardo بمتابعة هذا الموضوع مع الجماعتين وحثهما على المبادرة بالعمل من أجل تنفيذه (٢) وكان ذلك - فيما يبدو – من قبيل الحرص على توفير عنصر بشرى يسهم في تشكيل الحملة المزمعة أو في أعمال الدفاع عن الأراضي المقدسة ضد المسلمين ، خصوصاً وأن المملكة الصليبية كانت تعانى كثيراً بسبب الافتقار إلى القوة البشرية قبل مجيء الحملات أو بعد رحيلها .

وقد استتبع البابا انوسنت ذلك بأن اتجه إلى السعي من أجل نبذ الخلافات وإقرار الأوضاع السياسية بين لاتين الشرق ، كي يصير المناخ مهيأ للإعداد لحرب ضد المسلمين حيث نجده في العام التالي (١٢١٣م) وقد حث مقدم الاسبتارية وأعضاء الجماعة على أن يتناسوا الخلافات والمنازعات التي من شأنها أن تودي بالأراضي المقدسة إلى خضم من الفوضى طالباً منهم أيضاً الوقوف إلى جانب ملك بيت المقدس ضد الأحوال المضطربة في المملكة الصليبية (٣) على أن يبذلوا قصارى جهدهم إلى جانب الصليبيين في سبيل نجدتها وإنقاذها من الخطر الإسلامي المحدق بها (٤) .

ولم تسعف الأقدار الباب انوسنت كي يرى ثمار جهوده من أجل إنقاذ مملكة لاتين الشرق (٥) إذ توفى في عام ١٢١٦م بعد أن مهد الأوضاع في كل من الغرب الأوربي والشرق اللاتيني لقيام حملة صليبية جديدة وجهتها مصر ، وفقاً لما تقرر في مجلس اللاتيران الرابع الذي انعقد في الحادي

(1) Cf. Cartulaire Tome II No. 1373, P. 136.
(2) Cf. Ibid No. 1374, P. 136.
(3) Cf. Cartulaire Tome II No, 1407, P. 154.
(4) Cf. Ibid Tome II No, 1409, P. 155.
(٥) عن جهود البابا انوسنت الثالث الخاصة بالإعداد للحملة الصليبية الخامسة والتبشير لها بالتفصيل أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٥٠- ١٦٩ .

عشر من نوفمبر ١٢١٥ (٢٠رجب ٦١٢هـ) (١) وتولى عرش البابوية بعد انوسنت البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧) الذي قرر السير على نهج سلفه وتنفيذ سياسته من حيث الاهتمام بأحوال الأراضي المقدسة ، وأعرب عن ذلك في خطاب له يزف فيه نبأ انتخابه للكرسي البابوي كان قد أرسله إلى حنادى بريين ملك بيت المقدس والبطريرك ومقدمي وأعضاء جماعة الاسبتارية والداوية وذكر فيه " بأنه مثل سلفه لا يستطيع أن يعبر عن مقدار ومكانة تخليص الأراضي المقدسة إلى قلبه " وفي نهاية الخطاب يحثهم كثيراً على الدفاع عنها (٢) ثم بدأ بعد ذلك سلسلة من الاتصالات لتحريض " المؤمنين " في الغرب الأوربي على الخروج لنجدة تلك الأراضي وتقديم المساعدة لها في صورة تبرعات أو هبات إلى الاسبتارية كى تغطى الجماعة النفقات التي تبذلها في مهمة الدفاع عن بلاد المملكة الصليبية والعمل على استرداد ما وقع منها في قبضة المسلمين (٣) .

أما الأساقفة فيوصيهم البابا هونوريوس الثالث بأن ينظروا بعين التقدير إلى الخدمات التي يقدمها فرسان القديس يوحنا في الشام إلى الدين المسيحي ، وذلك باحترام الامتيازات المخولة لهم والتنازل عن بعض الإيرادات الأسقفية كى يتسنى لرجال هذه الجماعة مواصلة حماية " الأراضي المقدسة " وإنقاذها (٤) .

---

(1) Cf. Oliver of Padenborn: The Capture of Damietta P. 12
(2) Cf. Cartulaire Tome II No, 1477, P. 192.
(والخطاب المؤرخ بـ ٢٥ يوليو ١٢١٦م وصادر في Perouse)
(3) Cf. Ibid Tome II No, 1505, P. 200.
(مؤرخ بـ ١٣ ديسمبر ١٢١٦م صادر بكنيسة القديس بطرس بالفاتيكان) .
(4) Cf. Cartulaire Tome II No, 1532, P. 209.
(مؤرخ ٢١ يناير ١٢١٧م اللاتيران) .

وبحلول الموعد المحدد لانقضاء الهدنة مع المسلمين بدأت تتوافد على عكا الجموع الصليبية القادمة من الغرب (١) ومن بين هذه القوات التي كانت بمثابة طلائع للحملة الصليبية الخامسة الجيش الهنغاري بقيادة الملك اندرو الثاني Andrew II (١٢٠٥- ١٢٣٥م) (٢) ولنقل قوات هذا الجيش من الغرب إلى الشرق ذهب بريور الاسبتارية في هنغاريا لمصاحبة أحد رؤساء الكنيسة ويدعى اسكندر سايبينورجن Alexander of Siebenbnrgen إلى البندقية لتوقيع اتفاقية بهذا الشأن مع الدوج بطرس زيان Peter Ziani ، وقد وافق هذا الأخير على إمداد الحملة الهنغارية بالسفن اللازمة لنقلها مقابل أن يتخلى ملك هنغاريا عن مدينة زارا للبندقية (٣) .

وفي قبرص كان مقدم الاسبتارية جارين دى مونتاجو Garin de Monteacuto (سبتمبر ١٢١٠- مايو ١٢٢٧م) في استقبال كل من الملك الهنغاري اندرو ودوق النمسا ليوبولد وذلك بناءا على تعليمات صدرت إلى المقدم من البابا هونوريوس الثالث في عام ١٢١٦م في رواية (٤) أو في الخامس والعشرين من يوليو عام ١٢١٧م في رواية أخرى (٥) ثم رحل الجميع قاصدين عكا يدفعهم الأمل في نجدة الأراضي المقدسة والاستيلاء على مدينة بيت المقدس (٦) وفي ذلك الميناء الصليبي اجتمع جيش ضخم على رأس ملوك بيت المقدس ، وهنغاريا ، وقبرص ودوق النمسا وآخرون مـــن

(1) Cf. Oliver of Padenborn: Op.cit, P. 12.

(٢) عن ظروف اشتراك ملك هنغاريا وخروجه إلي الشرق في حملة صليبية أنظر :
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٧٥ وما بعدها .

(3) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 387.
ولمزيد من التفاصيل حول الاتفاقية أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٧٦- ١٧٧ .

(4) Cf. Lettera di Onario Papa III al Maestro dello Spedale in Cod . dipl. No. XLI, P. 320.

(5) Cf. Cartulaire Tome II Nos, 1580, 1582, PP. 227-228.

(٦) أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٧٩ .

النبلاء والبارونات (١) إلى جانب مقدمي الاسبتارية والداوية والتيوتون بفرقهم من الفرسان والخيالة وغيرهم وهو الأمر الذي أكدته مصادر الحملة في مناسبات تالية (٢) .

وفي خيمة ملك هنغاريا عقد مجلس للحرب لتدبير ما يجب اتخاذه ضد المسلمين ، وقد ضم هذا المجلس مقدم الاسبتارية وزميليه مقدمى الداوية والتيوتون وجاك دى فيترى أسقف عكا وآخرون (٣) وكان أن عرضت الخطة التي سبق أن تدارسها – قبل وصول الحملة الهنغارية – حنا دى بريين مع رؤساء الجماعات الرهبانية الثلاث ، وتتلخص في قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة الرئيسي وهو غزو مصر . وفي الوقت نفسه تقوم القوات الرئيسية للحملة بمهاجمة مدينة دمياط تمهيداً للاستيلاء على مصر كلها ، باعتبارها الطريق الوحيد لهزيمة المسلمين في الشام واستعادة الأرض المقدسة . وأخيراً تقرر قيامهم بمهاجمة مدينة دمشق لعدم إمكانية تنفيذ الخطة السابقة في ذلك الوقت (٤) ورغم سرية هذا القرار ومحاولة الصليبيين التمويه على المسلمين حتى لا يتعرف هؤلاء الأخيرين على المقصد الحقيقي للجيش الصليبي ضماناً للاستفادة بعنصر المفاجأة في الهجوم ، فقد علم زعماء المسلمين بالقرار الذي اتخذه الفرنج في مجلسهم ، وكتب العادل إلى المعتمد والى دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال ...." فإن الفرنج مظهرون قصدها "(٥) .

---

(1) Cf. Liver of Padenborn : Op.cit, PP. 12-13 .
(2) Cf. Ibid, P. 16.
Also: Estoire d`Eracles, P. 325
(3) Cf. Ibid, PP. 322-323.
(٤) أنظر التفاصيل في محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٨١- ١٨٢ .
(٥) أبو شامة المقدسي : الذيل علي الروضتين ص ١٠١- ١٠٢ .
ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ١٩٠

على آية حال ، رحل الجيش الصليبي من عكا في اليوم السادس من نوفمبر عام ١٢١٧م / الرابع من شعبان ٦١٤هـ ومعهم البطريرك والاكليروس حاملين خشبة الصليب (١) وقد ضم هذا الجيش فرقة من الاسبتارية بقيادة المقدم جارين مونتاجو (٢) . ونزل الجميع على عين جالوت ثم ساروا إلى بيسان فخربوها (٣) وأخذوا جميع ما وجدوه بها من " الأسواق والغلال والمواشي " وأقاموا عليها ثلاثة أيام والعادل يراقب تحركاتهم بجيش من المسلمين فوصل الغور وقطع الفرنج خلفه الأردن (٤) وقد غاروا على البلاد (٥). " ينهبون ويقتلون ويأسرون ثم عادوا فنزلوا الغور(٦) وعلى شاطىء بحر الجليل أقاموا للراحة ثلاثة أيام تجولوا فيها عبر الأماكن " التي شهدت معجزات المسيح " ثم اتجهوا شمالاً إلى بانياس وعادوا بعد ذلك إلى عكا (٧) " بمن حصل في أيديهم من الأسارى بعد أن تمت غيارتهم " (٨) .

ونتيجة للنجاح الذي أحرزه الصليبيون في هجومهم الأول ، فكر حنا دى بريين في أن يقوم بهجوم آخر ضد قلعة جبل الطور ، التي كان الملك المعظم قد حصنها بناءاً على توصيات من السلطان العادل منذ سنوات وشعر صليبيو الشام بأنها مصدرا للخطر يهدد وجودهم ، خصوصاً وأنه

---

(1) Cf. Liver of Padenborn : Op.cit, P. 14.
Also: Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 325.

(2) Cf. Ibid Idem .
Also: Liver of Padenborn : Op.cit, P. 16.
حيث يؤكد أيضا وجودهم من خلال إشارته إلي الخسائر التي ألمت بهم .

(3) Cf. Liver of Padenborn : Op.cit, P. 14.

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة ٣٨٢- ٣٨٣ .
أبو شامة المقدسي : الذيل علي الروضتين ص ١٠١ .
ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ١٩٠ .

(٥) انظر أبو شامة : المصدر السابق نفس الصفحة .
ابن ايبك الداودار: المصدر السابق نفس الصفحة .

(٦) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق نفس الصفحة

(7) Cf. Liver of Padenborn : Op.cit, PP. 14-15.

(٨) أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٠٢ .

كان لهـذه القلعة – كما يذكر بعض الباحثين – سبع وسبعون حصن وحامية تقدر بألفي رجل (١) وتقدم الملك الصليبي صوب جبل الطور بجزء من الجيش الفرنجي تضمن العديد من الفرسان الاسبتارية وأيضاً الداوية (٢) بينما تخلف كل من ملك هنغاريا (٣) وملك قبرص عن الاشتراك في هذه الحملة (٤) وصعدت هذه المجموعة من القوات الصليبية إلى الطور حيث نزلوا تحت القلعة يوم الأربعاء العشرين من نوفمبر ١٢١٧/ الثامن عشر من شعبان ٦١٤هـ ، وأقاموا إلى يوم الأحد الثالث من ديسمبر / ثاني يوم رمضان (٥) وكان يوماً كثير الضباب (٦) أخفاهم عن رجال حامية القلعة (٧) وفي جنح هذا الضباب الكثيف تقدم حنادى بريين بالجيش الصليبي وفي صحبته البطريرك حاملاً علامة الصليب وكذلك الأساقفة ، وكبار رجال الدين (٨) .

" فما شعر بهم أهل الطور إلا وهم عند الباب وقد ألزقوا رماحهم السور . فعند ذلك فتح المسلمون الباب وخرج إليهم الفارس والراجل وقاتلوهم أشد قتال " (٩) وفشل الهجوم الصليبي على الحصن ،فعقد حنادى بريين مجلسا للمشورة مع مقدمي الاسبتارية والداوية وعدد من بارونات الشرق اللاتيني . وفي هذا المجلس حث بوهيمند الرابع بشدة على التخلي عن الهجوم ، أيده في

---

(1) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 391

(2) Cf. Estoire d'Eracles, P. 325

Also: Liver of Padenborn : P. 16.

وقد أكد هذا الأخير اشتراك الفرسان الاسبتارية في هذه الحملة بإشارته إلي ما أصابهم من خسائر في هذا الهجوم .

كذلك : Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 392.

حيث ازداد الأمر وضوحا بأن أشار إلي اشتراك أعضاء جماعتي الاسبتارية والداوية في تقديم المشورة للملك حنا ، وتقرير أمر العودة إلي شن هجوم آخر علي القلعة .

(3) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 188.

(٤) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة ٣٨٣ ، أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٠٢ .

(٦) ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ١٩١ .

(7) Setton, K.M.: Vol. II, P. 392.

(8) Cf. Oliver of Padenborn : P. 15.

(٩) ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ١٩١ .

نصحه آخرين من القادة (١) وقد ألقى اوليفر أف بادربورن باللائمة على الملك الصليبي لإيقافه عملية الهجوم والنزول من الحصن بعد أن كسب الصعود إليه ، مما أعطى فرصة ومتسعا من الوقت للمدافعين للقيام بعمل مضاد (٢) .

وبعد مرور يومين أظهر بعض الصليبيين ومن بينهم الاسبتارية والداوية عدم رضاهم عن قرار القادة بالتخلي عن الهجوم نهائيا فشنوا هجوماً آخر على الحصن(٣) في يوم الثلاثاء الخامس من ديسمبر الرابع من رمضان " ومعهم سلم عظيم فرجعوا من ناحية باب دمشق وألصقوا السلم بالسور فقاتلهم المسلمون قتالاً لم يجر في الإسلام مثله " ثم " ضرب بعض الزراقين السلم بالنفط فأحرقه وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج " (٤) وقد جرح في هذا الهجوم عدد كبير من الاسبتارية والداوية وعدد محدود من العلمانيين بينما لقي حتفه قلة منهم (٥) .

ورحل الصليبيون جميعهم " طالبين عكا وقت السحر يوم الخميس السابع من ديسمبر / سادس رمضان (٦) . وفي الطريق إلى هناك شنوا عدداً من الغارات الصغيرة الفاشلة على المنطقة ما بين صيدا وصور (٧) ومن عكا رحل ملكي هنغاريا وقبرص بجيشيهما إلى طرابلس . وقد مات الملك القبرصي هيو الأول لوزينان في العاشر من يناير ١٢١٨م (٨) . أما الملك الهنغاري اندرو الثاني

---

(1) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 392.
وقد أشار إلي انعقاد هذا المجلس Oliver of Padenborn : P. 15 لكن لم يوضح أسماء المشتركين فيه بل ذكر أنه لم يعرف القرار الذي توصل إليه القادة .

(2) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 15.
ويذكر ستون Setton إن جيمس دي فيتري قد القي هو الآخر باللوم وتبعات الخطأ علي حنا دي بريين انظر : Setton, K.M.: Vol. II, P. 392.

(3) Ibid: Idem .

(٤) سبط ابن الجوزي : لوحة ٣٨٣ ، ايضا أبو شامة ص ١٠٢ .

(5) Cf. Oliver of Padenborn : P. 16.
وإزاء هذا الفشل الذى منى به الجيش الصليبي أرجأ هذا المؤرخ المعاصر بوازع ديني النصر على حصن الطور إلى المسيح وحوارييه أنفسهم مما يدل على مناعة هذه القلعة وإنها كانت صعبة المرام بالنسبة للصليبيين .

(٦) سبط ابن الجوزى : نفس المكان ، ايضا ابن ايبك الدوادار ج٧ ص١٩٢ .

(٧) سبط ابن الجوزى : نفس المكان ، ايضا أبو شامة ص١٠٣.

(8) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 17 & N. 1.
Also: Roger de Hoveden: Vol. II. P. 387.

فقد رحل من طرابلس في اليوم الثاني عشر من يناير بعد دخوله كنيسة الاسبتارية الموجودة في المدينة (١) وذلك لزيارة قلعتي الجماعة الشهيرتين : حصن الأكراد ، والمرقب ، وفي القلعة الأولى استقبله قسطلانها Castellan ريموند دى بيجنان Raimundus de Pignano (١٢١٧/١٢٤١م) (٢) وقد سر ملك هنغاريا كثيراً بذلك الاستقبال وبما رآه في هذا الحصن الضخم (٣) فخصص للدفاع عنه مئة مارك من الفضة تؤخذ سنوياً من إيرادات الملاحات الملكية في سزالاك Szalacs (٤) بهنغاريا وفعل نفس الشيء بالنسبة لقلعة المرقب عند زيارته لها هي الأخرى (٥) وهذا الموقف من جانب اندرو الثاني إزاء الجماعة فسره البعض على أنه كان منطوياً على إعجاب وتقدير من الملك الهنغاري للدور الذي يؤديه الفرسان الاسبتارية في الأراضي المقدسة ، خصوصاً وقد رأى بنفسه خدماتهم للمرضى والفقراء أثناء إقامته في عكا بدار الجماعة التي فضلها على القصر الملكي وأيضاً ما أظهروه من شجاعة في الهجوم الذي شنته القوات الصليبية عبر الأردن واشترك فيه الجيش الهنغاري . هذا إلى جانب أنه كان مغرماً بشخصية مقدمهم جارين مونتاجو من اللحظة التي تقابل فيها مع هذا الأخير في جزيرة قبرص ، مما جعله يطلب الانضمام إلى عضوية الجماعة كاخ مشارك أو شرقي (٦) ويغدق عليها في نفس الوقت العديد من المنح والعطايا الأخرى (٧) .

(1) Cf. Estoire d'Eracles: Idem.
(2) Cf. Les Archives : P. 217.
(3) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 189.
(4) Cf. Cartulaire Tome II No, 1602, PP. 238-239.
وقد اقر البابا هونوريوس الثالث هذه المنحة في ٢٧ يونيو ١٢١٨ انظر:
Ibid No. 1616, PP. 245-246.
(5) Cf. Cartulaire Tome II No, 1603, PP. 239-240.
وقد اقر البابا هونوريوس الثالث هذه المنحة في ٢٥ يونيو ١٢١٨ انظر:
Ibid No. 1613, P. 244.
(6) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 189.
(7) Cf. Diploma di Andra Re d'Ungheria in Codice dilp. Nos. CIV & CV, PP. 109-111.

كيفما كان الأمر ، فقد غادر أندرو الثاني ملك هنغاريا بلاد الشام ومعه جيشه وعتاده ، مما سبب ضرراً كبيراً لقضية الأراضي المقدسة كما يرى المعاصرين الغربيين (١) وانتهت بذلك الحملة الصليبية الهنغارية دون أن تحقق عملاً ذات أهمية بالنسبة للموقف في الشام (٢) هذا ، بينما استغل الصليبيون بقية الشتاء في القيام ببعض أعمال التحصينات العسكرية ، فقام ملك بيت المقدس وليوبولد النمساوى واسبتارية القديس يوحنا والأساقفة وبعض الصليبيين بتحصين وتقوية قلعة قيسارية فلسطين في وقت وجيز رغم ورود أخبار متعاقبة إليهم بقدوم القوات الإسلامية ، هذا في الوقت الذي قام به أيضاً الداوية والتيوتون وبعض الحجاج والفرسان الآخرين بعمارة قلعة الحجاج (عتليت) فيما بين يافا وقيسارية (٣) ثم عاد الجميع بعد ذلك إلى عكا في انتظار وصول قوات الغرب التي بدأت في الوصول إلى الميناء لتنفيذ الخطة الموضوعة في مجلس اللاتيران الكنسى والخاصة بتوجيه الجيش الصليبي في حملة للاستيلاء على مصر (٤) .

وقد تجمع بالساحل الخاضع للصليبيين عدد كبير من الصليبيين القادمين من أوربا فضلا عن قوات المملكة اللاتينية التي يشكل فيها فرسان الاسبتارية والداوية عنصراً حربياً متمرساً على فنون القتال مع المسلمين . وبعد أن احتشدت القوات الصليبية على هذا النحو عقد الملك الصليبى حنا دى بريين مجلساً انضم إليه ليوبولد دوق النمسا ومقدمى جماعات الاسبتارية والداوية والتيوتون لأمور

(1) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P.17.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 387.

(٢) أنظر سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٠ .

(3) Cf. Oliver of Padenborn : PP.17-18.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 387.

(4) Cf. Oliver of Padenborn : PP. 20-22, Roger of Wendover : II, P. 109.

تتعلق بوضع الخطة اللازمة لتنفيذ الهجوم على مصر (١) وحينما جهزت السفن بالمقاتلة والمعدات أبحر حنا دى برييين ومعه البطريرك وأساقفة نيقوسيا وبيت لحم وعكا ودوق النمسا وقوات الاسبتارية والداوية والتيتوتون (٢) من ميناء عكا في ٢١ مايو ١٢١٨م / ٢٣ صفر ٦١٥هـ إلى ميناء عتليت ، ومن هناك صدرت الأوامر إلى الأسطول الصليبي المحتشد في قلعة الحجاج بالإبحار إلى دمياط في ٢٤مايو / ٢٦ صفر مع هبوب الرياح الشمالية لتصل إلى ميناء دمياط في اليوم الثالث (٢٧مايو / ٢٩ صفر) بينما أجل الملك الصليبي ومن معه من القوات ومن بينهم الاسبتارية رحيلهم وأقاموا في القلعة (٣) ريثما تتجهز باقي السفن الصليبية (٤).

ولا يعرف على وجه التحديد حجم القوة التي ساهمت بها جماعة الاسبتارية في حملة كهذه على درجة كبيرة من الأهمية . لكن إذا ما وضع في الاعتبار تلك الحاميات الضخمة التي كانت تعولها الجماعة في الشام وأيضا ما استطاعت من قبل أن تمد به الملك السابق عمورى في حملاته على مصر ، من الممكن القول بأن الاسبتارية جهزوا في هذه الحملة أكثر من خمسمائة فارس وخمسمائة تركبولى على الأقل مثلما حدث سلفا في عهد المقدم جيلبرت الأسيلى (٥) وكان على رأس فرقة الجماعة هذه المقدم جارين دى مونتاجو ومارشال الاسبتارية ايمار دى لايرون Aymar de Layron بينما عين سمبارد Isembard القائد الأعظم (ديسمبر ١٢٠٧ – أغسطس

(١) أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ١٩٨- ١٩٩.

(2) Cf. Oliver of Padenborn : P. 22.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 405.

(3) Cf. Oliver of Padenborn : P. 22.

(٤) أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٠٨.

(5) Cf. King, E.J. Op.cit, PP. 191-192..

١٢١٩م) (١) ليقوم مقام مقدم الجماعة في الشام (٢) ورحل هؤلاء إلى دمياط مع قوات الملك حنا دى بريين بعد اليوم السادس لرحيلهم من عكا (٣) (أي في ٢٧ مايو ١٢١٨م / آخر صفر ٦١٥هـ) ويلاحظ أنه نفس اليوم الذي وصل فيه الأسطول الصليبي – الذي سبقهم في الرحيل – أمام دمياط كما وصلوا إلى جيزة دمياط في نفس اليوم الذي رست فيه قوات هذا الأسطول على أرضها في ٢٩ مايو / أوائل ربيع الأول (٤) .

وقد نزل الصليبيون إلى البر دون مقاومة وأقاموا معسكرهم فيما بين شاطيء البحر وضفة نهر النيل (٥) وبعد أن تجمعوا في ذلك المكان ساروا جميعاً آخذين طريق البر وبجانبهم سفنهم تمخر عباب النيل بحذائهم ، وكان ضرورياً بالنسبة لهم الاستيلاء على برج السلسلة الواقع في وسط النهر حتى يتسنى لرجال الحملة الصليبيين تمرير سفنهم داخل النيل لتكون في مواجهة مدينة دمياط فيسهل بذلك مهاجمتها من ناحية النهر ، لما يكون في وسعهم أيضاً ، إذا ما تخطوا السلسلة ، إنزال جنودهم مباشرة على الضفة الشرقية للنيل جنوبي دمياط (٦) .

وفي ذلك الوقت أخذت تتجمع القوات الإسلامية من مصر والشام في " مقابلة الفرنج " (٧) وكان أن تقدم الصليبيون في يوم الجمعة ٢٢ يونيه ١٢١٨م / ٢٦ ربيع أول ٦١٥ هـ لمهاجمة دمياط

---

(1) Cf. Les Archives : P. 212.
(2) Cf. Le Roulx, J.D. : Les Hospitaliers P. 144.
Also: King, E.J. Op.cit, P. 192.
(3) Cf. Oliver of Padenborn : P. 22.
(4) Cf. Ibid P. 23.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 405.
وعن نزول الفرنج دمياط أنظر سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج٨ لوحة ٣٨٩ .
ابو شامة المقدسي : الذيل علي الروضتين ص ١٠٨ .
(5) Cf. Oliver of Padenborn : P. 23.
(٦) أنظر التفاصيل في : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢١١- ٢١٢ .
(٧) ابو شامة المقدسي : الذيل علي الروضتين ص ١٠٨.
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٣٩١ .

فـي سبعين أو ثمانين سفينة ، بينما استمرت المنجنيقات في قذف سيل من الأحجار حتى استطاعوا الاقتراب مـن الأسوار . ورغم أن طريقة الصليبيين كانت مرعبة للأهالي إلا أنها لم تكن مؤثرة على التحصينات الضخمة (البرج والسلسلة) (١) .

وبعد أن فشل الداوية فـي تحطيم سلسلة البرج ، وراح معظمهم ضـحية هذا العمل (٢) قام اسبتارية القديس يوحنا ومعهم دوق النمسا ببناء اثنين من السلالم المتحركة بعجل (٣) على اثنين من السفن ، وقد وجها ضد البرج حوالي الوقت المصادف لعيد القديس يوحنا المعمدان (في ٢٤ يونيو ١٢١٨م / أواخر ربيع الأول وأوائل ربيع ثاني ٦١٥هـ) . وفي هذه العملية تهشم سلم الاسبتارية وسقط بالصاري (٤) نتيجة للمقاومة الشجاعة من جانب المسلمين طوال الحصار (٥) وثقل وزن المحاربين الذين اعتلوها (٦) فسقطوا غرقى في النهر . وهو نفس المصير الذي لاقاه من صعدوا سلم دوق النمسا ، وأيضا حوالي نفس الوقت . وقد ابتهج المسلمون المرابضين في مواجهة الصليبيين لهذه النهاية فقرعوا الطبول وهللوا مكبرين ، الأمر الذي فسره المؤرخ أوليفراف بادربورن وغيره من المؤرخين الغربيين على أنه استهزاء وسخرية من جانب المسلمين إزاء هذه " الكارثة " التي ألحقت بالصليبيين الحزن واليأس (٧) .

---

(1) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 399.

(٢) انظر بالتفصيل : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص٢١٩-٢٢٠ .

(٣) هي نوع من السلالم ترتفع وتنخفض بواسطة عجلة دائرية متصلة بالسلالم عن طريق الحبال وتستخدم بالارتفاع المناسب للمكان المراد مهاجمته بعد أن يصعد عليها المهاجمون . انظر: المرجع السابق ص ٢٢٠ حاشية رقم "٢" .

(4) Cf. Oliver of Padenborn : P. 24.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 407.

(5) Ibid: Idem.

(6) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 399.

(7) Cf. The capture of Damietta, P. 407.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 407.
Setton, K.M.: Vol. II, P. 399.

وبينما أخذ الصليبيون في دمياط يكررون محاولاتهم ضد البرج وسور المدينة مستعينين بخبرات الاسبتارية وغيرهم في أعمال الحصار ؛ رأى السلطان العادل أن يرسل ولده الملك الأشرف على رأس عسكره ضد " بلاد الفرنج " في الشام " ليشغلهم عن محاصرة دمياط " . ونزلت قوات المسلمين على صافيتا " فخربوا ربضها ، ونهبوا رستاقها وهدموا ما حولها من الحصون " ثم تقدم الأشرف بقواته إلى حصن الأكراد " فنهبوه وحاصروا القلعة حتى أشرفت على الأخذ " (١) ويبدو أن الإغارة على معقل من معاقل الاسبتارية الهامة بهذه الصورة يرتبط إلى حد ما – من حيث الصد والتخطيط – بذلك الدور الذي تلعبه الجماعة والجهود التي تبذلها في سبيل إسقاط تحصينات دمياط بما لديها من إمكانيات وخبرات نمت وتطورت في الشام عن طريق حيازتها لأهم القلاع وأكثرها منعة وحصانة ، فتهديد حصن الأكراد ومهاجمته من شأنه أن يصرف الاسبتارية عن أداء دورهم أمام " قفل الديار المصرية " أو يقلل من فاعلية هذا الدور بسبب قلقهم وتخوفهم من ضياع قلعتهم الضخمة إن لم يدفعهم ذلك إلى الانسحاب كلية من صفوف القوات الصليبية المحاصرة لدمياط أو إقناع الملك الصليبي بالعدول عن ذلك الحصار . ومن المحتمل أن ذلك ما أراده العادل أيضاً بالنسبة للداوية الذين كان لهم دور بارز هم الآخرين في هذا الحصار حينما التقى بجماعة منهم على القيمون (حصن قرب الرملة بفلسطين) واسر منهم مائة فارس (٢) .

---

(١) ابو شامة المقدسي : الذيل علي الروضتين ص ١٠٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٦٥.
ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٣ ، ص ١٨٠ .
ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ١٩٦ .
(٢) عن الحادثة الاخيرة أنظر : ابو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٠٩.

وبالنسبة لدمياط ظلت القوات الصليبية تواصل محاولاتها لإسقاط البرج والمدينة دون جدوى ولا جدال في أن ذلك فتّ في عضد الصليبيين وثبط من روحهم المعنوية إلى حد كبير (١) وإزاء هذا الموقف الخطير تحركت البابوية بأن بذلت جهداً كبيراً لحشد جيش في ايطاليا في فترة قصيرة توطئة لإرساله نجدة للجيش الصليبي المحاصر لدمياط . وقد أرسل البابا هو نوريوس الثالث خطاباً بهذا الشأن إلى البطريرك راؤول Raoul وحنا دى بريين ومقدم الاسبتارية وغيرهم من القادة الصليبيين والأساقفة (٢) ويبدوا أن الأنباء الخاصة بقدوم هذه النجدة بعثت في نفوس رجال الجيش الصليبي الطمأنينة وروح الإصرار على مواصلة العمليات الحربية ضد دمياط ، فهداهم تفكيرهم إلى عمل نوح من التحصين المضاد لعلهم يستطيعون التمكن من تحصينات هذه المدينة ، واستفادوا في ذلك من تجارب الفشل التي ألحقت بهم خسائر وأضرار جسيمة . وكان أن ربطوا اثنين من السفن (بطستين) (٣) ببعضهما بكتل من الخشب والحبال لتجنب خطر سحبها ، ثم أقاموا أربعة من الصواري ونفس العدد من الشراع واضعين فوق القمة برج قوى ذات ستائر خشبية لحمايته وغطوها بالنحاس الأحمر وجلود الحيوانات حتى لا تتأثر بالنار الإغريقية (٤) وكانت أشبه بالقلعة العائمة

---

(١) انظر بالتفصيل : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٢١-٢٢٢ .

(2) Cartulaire Tome II, No. 1621, P. 249.

(٣) البطسة : نوع من المراكب عظيم الحجم كثير القلوع يصل عددها إلى حوالي أربعين شراعا وهى اشهر أنواع السفن الصليبية ، وكانت تزود بالمنجانيقات والمقاتلة والأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب فضلا عن المؤن اللازمة ، وكانت ذات سطح عالية وطبقات متعددة كل منها خاص بفئة من الجند الذين يصلون إلى ستمائة وخمسين أو أكثر . انظر :
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص٦٧ح٦

(4) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 25.
والنار الإغريقية سميت هكذا لان مخترعها مهندس اغريقى يدعى كالينكس Callinicus من مواطني مدينة هليوبوليس بسورية ، اخترعها فى عهد الإمبراطور قنسطنطين الرابع بوجوناتوس (٦٦٨-٦٨٥م) الذى حوصرت القسطنطينية أبان حكمه ست سنوات على يد المسلمين . وقد قيل إن هذه النار مزيج من النفط والزيت والكبريت – مجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص١٥٦ ج ٢ .

استخدموها في شن هجوم آخر ضد البرج في الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٢١٨م / جمادى الأولى ٦١٥هـ (١) وقد نجحوا في الاستيلاء عليه في اليوم التالي (٢) .

وبعد ذلك بأيام وصل الجيش الصليبي القادم من أوربا – والذي سبق أن أخبر به البابا زعماء اللاتين في الشرق ، في التاسع من سبتمبر عام ١٢١٨م / ١٥ جمادى الآخرة ٦١٥هـ على رأسه الكاردينال بيلاجيوس Pelage أسقف البانو Albano (٣) والذي كان البابا قد عينه مندوباً بابوياً في هذه الحملة (٤) . ومن المحتمل – إن لم يكن مؤكداً – أن أتى مع هذا الجيش مجموعة من فرسان الاسبتارية القادمين نجدة وإمداد للجماعة من مراكزها في الغرب الأوربي كما حدث في مناسبات تالية ، وربما كانوا بين الذين أشار إليهم أوليفر أف بادربورن باعلانه قدوم رئيس للداوية وجماعات أخرى من الفرسان ، مع هذا الجيش الأوربي (٥) .

على آية حال ، عزز وصول هذه القوات موقف الصليبيين المحاصرين لمدينة دمياط وتحفيزهم إلى مواصلة الهجوم عليها . ودرءا لخطر هذا الهجوم قام جماعة من المسلمين في يوم الثلاثاء التاسع من أكتوبر عام ١٢١٨م / ١٧ رجب ٦١٥ هـ بالإغارة على المعسكر الصليبي فخرج إليهم الملك حنادى بريين ، وايماردى لا يرون مارشال الاسبتارية وغيره ممن عرفوا بالشجاعة على رأس فرقة من الصليبيين . وانتهت هذه الجولة بموت بعض عساكر المسلمين " غرقى ". اثر انسحابهم أمام القوة الصليبية (٦) .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الهجوم فى : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص٢٢٣-٢٢٤

(2) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 26-27.
(3) Cf. Ibid, P. 29.
(4) Cf. Rohricht R. Regesta Regni No. 910, P. 243.
(5) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 30.
(6) Cf. Ibid, P. 31.
Also: Estoire d'Eracles: Op.cit, PP. 333-334.

ولمزيد من التفاصيل : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٣٧- ٢٣٨ .

وخلال الوقت الذي انشغل فيه الاسبتارية بأداء دورهم في الصراع الصليبي الإسلامي الدائر على أرض الشام ومصر ، كان البابا حريصاً على رعاية مصالحهم في أرجاء العالم الغربي الكاثوليكي عن طريق الأساقفة الذين كان يطالبهم دائماً بنصرة الاسبتارية والوقوف إلى جانبهم ضد أي اعتداء من جانب العلمانيين . وهذا ما فعله في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢١٨م حيث ارسل إلى أساقفة صقلية يأمرهم بالاستمرار في حماية الاسبتارية وكذلك الداوية " الذين يستند عليهم عمل الحرب الصليبية " بالرغم من الشائعات المنتشرة ضدهم (١) ثم يعلن إلى مقدم الاسبتارية جارين مونتاجو وهو في دمياط (في الثالث والعشرين من يناير عام ١٢١٩م) بأنه بعث إلى الأراضي المقدسة خمسة آلاف مارك مع مندوب الجماعة ، ويوصى المقدم بأن يتولى مع كل من بيلاجيوس ومقدم الداوية أمر إنفاقها فيما هو نافع لصالح الحرب مع المسلمين (٢) .

وقد استمر القتال في غدوه ورواحه بين الجانبين الصليبي والإسلامي في دمياط . وبينما يشتد الصليبيون في شن هجومهم تنشط المقاومة في صفوف العسكر الإسلامي المقيم قبالتهم . وأخذت الحرب شكلاً استنزافياً ومحاولة كل من الطرفين إيقاع أكبر قدر من الخسائر بالطرف الآخر إلى أن انتهى الأمر بعبور الصليبيين إلى الضفة الشرقية للنيل ، في يوم الثلاثاء الخامس من فبراير ١٢١٩/ ١٨ ذي القعدة ٦١٥هـ " دون إعاقة من جانب المسلمين أو سفك للدماء " (٣) وقد احتل " الفرنج " " العادلية " وساعدهم على ذلك الظروف الداخلية الصعبة المتمثلة في مؤامرة ابن

---

(1) Cartulaire Tome II, No. 1633, PP. 253-254.
(2) Ibid, No, 1624, P. 257.
(3) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 35.

المشطوب (١) مما اضطر الملك الكامل – الذي اختص بأمور مصر في ذلك الوقت – إلى مغادرة العادلية التي كانت بمثابة " خط دفاع أول إلى أشموم طناح (٢) .

وبعد أن دخل حنا دى برييين العادلية بدأ في تنظيم القوات المحاصرة لدمياط ، حيث اتخذ الفرسان الاسبتارية موقعهم في الجانب الشرقي للمدينة مع الأسبان والبروفنساليين (٣) ومن المعارك التي نشبت بين الجانبين الصليبي والإسلامي أثناء الحصار واشترك الاسبتارية فيها بدور له أهميته موقعة التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٢١٩/ جمادى الثاني ٦١٦هـ (٤) فقد تقدم الصليبيون صوب المعسكر الإسلامي في فارسكور ، وتظاهر المسلمون أمامهم بالانسحاب بأن رفعوا خيامهم وولوا هاربين ، والقوات الصليبية تواصل تقدمها خلفهم ، وبعد مسافة من المسير توقفوا بعد ما أصبح واضحاً بالنسبة لهم أن المسلمين لا يرغبون القتال معهم على أرض مكشوفة (٥) وفي مجلس عقده قادة الجيش الصليبي المتقدم لتقرير مواصلة التقدم أو العودة ، كان الرأي منقسماً فيما بينهم ، وانفضوا دون الوصول إلى قرار (٦) .

---

(١) تتلخص هذه المؤامرة فى أن احد كبار الأمراء فى المعسكر الاسلامى ويدعى عماد الدين احمد بن على المعروف بابن المشطوب ، انتهز فرصة موت الملك العادل واستمال إليه عددا من قواد الجيش ، وحاول أن يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز ليصير الملك إليه . فلما علم الكامل بالمؤامرة – وكان مقيما مع العسكر بالعادلية قرب دمياط لمنع الفرنج من الاستيلاء على المدينة – خشي على نفسه وترك معسكره بالعادلية فى الليل وتسحب جنوبا إلى اشموم طناح فعندما أصبح الجند بغير سلطان تفرقت كلمتهم ولحقوا بالكامل . فانتهز الفرنج هذه الفرصة المواتية وتم لهم النزول إلى البر الشرقي لدمياط دون أن يلقوا اى مقاومة – كما سبقت الإشارة فى المتن - انظر :
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق حاشية ٦ص١٠٢،١٠١ .

(٢) انظر تفاصيل هذه الظروف فى : محمود سعيد عمران ، المرجع السابق ص٢٤٥-٢٥٢ .

(3) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 337.
Also: Roger of Wendover : Vol. II, P. 416.

(4) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 342.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 144.

(5) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 41.

(6) Ibid, Idem.
Also: Roger of Wendover : Op.cit, Vol. II, P. 419.

وقد نصح الملك حنا دى بريين بالإقامة خلال الليل حتى ينقضي للوقوف على نوايا " العدو " في الصباح ، هذا بينما كان المسلمون قد تحققوا من أن الصليبيين يقيمون الليل في ظل ظروف سيئة فأوقفوا انسحابهم الظاهري واستداروا ، لشن هجوم رائع على " عدوهم " المضطرب في صفوف غير منظمة (١) ورغم أن الفرسان الاسبتارية كانوا ضمن الجماعة الصليبية التي التزمت بقواعد النظام والطاعة في الحرب ، إلا أن المفاجأة أذهلتهم هم الآخرين فولى بعضهم هارباً خلف الجموع الصليبية التي لاذت بالفرار (٢) . أما الباقين منهم فقد ظلوا صامدين إلى جانب الملك الصليبي والمندوب البابوي والبطريرك لتغطية انسحاب الهاربين ، وكانوا – كما وصفهم البعض – بمثابة حاجز خلفهم إذا ما تعرضت هذه الفلول لمطاردة قوات المسلمين (٣) فأسهموا بذلك في الحيلولة دون هزيمة الجيش الصليبي برمته (٤) بالرغم من مصاعب الطريق التي تزايدت بحرارة الجو والافتقار إلى مياه الشرب . فقد استطاع حنادى بريين بمعاونة الاسبتارية وغيرهم من الداوية واليتوتون والفرنسيين والبيازنه الثبات والتصدي للمسلمين الذين يطاردونهم ، وتحملوا في سبيل ذلك – كما يذكر أوليفر أف بادربورن – الكثير من المعاناة حتى كاد الملك أن يموت محروقاً بالنار الإغريقية ، كما أنهم جميعاً بمواجهتهم "للعدو" على هذا النحو ، عرضوا أنفسهم لضرباته وتأثير أسلحته فوقع الكثيرين منهم ما بين قتيل وأسير . ومن جملة القتلى كان ايمار دى لايرون مارشال الاسبتارية وعدة من فرسان الجماعة ، بينما قدرت خسائر الداوية من الأسرى والقتلى في هذه المعركة بثلاث وثلاثون (٥)

(1) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 414.
ايضا : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٩٩ .
(2) Cf. Roger of Wendover : Op.cit, Vol. II, P. 419.
(3) Ibid, Idem.
(4) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 414.
(5) Oliver of Padenborn : Op.cit, PP. 42-43.
Also: Roger of Wendover : Op.cit, Vol. II, P. 419-420.

ويُعد مصرع المارشال ايمار في هذه المعركة خسارة كبرى بالنسبة للاسبتارية ، إذ فقدوا بذلك قائداً عسكريا له أهميته بين كبار شخصيات الجماعة في وقت كان من الصعب فيه تعيين من يتولى مسئولياته – السالفة الإشارة في الفصل الأول – أو من يكون في مستواه من حيث الكفاءة والأهلية لوجودهم على ضفاف النيل بعيداً عن المقر الرئيسي للجماعة ، حيث تتم عمليات شغل الوظائف الهامة بشكل منظم ووفقاً لشروط محددة . كما أنه يقوم بمهمة تموين أو إمداد الفرسان بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة ودروع وسروج ومطايا عند الاستعداد لمعركة ، أو التأهب لمنازلة جماعة من المسلمين وهو عمل على جانب كبير من الأهمية في مثل هذه الظروف (١) .

وبعد أن طارد المسلمون الفلول الصليبية الباقية حتى المعسكر الرئيسي للصليبيين ، عادوا أدراجهم إلى مكان المعركة لجمع الغنائم ، وقد اصطحبوا معهم الأسرى إلى المعسكر الإسلامي في اشموم طناح . ويذكر المعاصرون أنهم حملوا معهم رأس خمسمائة من الصليبيين إلى الملك الكامل الذي جعل من هذا الانتصار مجالاً لإعادة فتح المفاوضات (في اليوم الثالث بعد المعركة أول سبتمبر ١٢١٩م / ١٩ جمادى الثاني ٦١٦هـ) (٢) ووافق على شروط الصلح التي قدمها الكامل حنا دى بريين وبارونات بيت المقدس والفرنسيون والبيتوتون ، بينما رفضها في عناد المندوب البابارى بيلاجيوس وأيده في رفضه وعناده الاسبتارية والداوية ومعظم رجال الدين والإيطاليين (٣) .

---

(١) أنظر ما سبق حول اختصاصات وظيفة المارشال في الفصل الاول وايضا :
Status d'Alphonse de Portugal in Cartulaire Tome II No. 1193, P. 381.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 339.
(2) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 43.
(3) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 145.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 415.
وعن شروط الصلح وتفسير موقف الصليبيين ازؤها أنظر :
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٥ .

وإذا كان موقف المندوب البابوي المتعنت قد وجد له ما يبرره لدى البعض ممن يرون أن رفضه كان راجعاً لتوقعه وصول إمدادات من الغرب في رحلة الخريف (١) أو من يعتقد أنه فضل الانتظار في قبول عروض الصلح هذه حتى سقوط دمياط ليكون في منزلة المفاوض القوى (٢) فإن موقف الاسبتارية وتأييدهم لبيلاجيوس كان مرتبطاً – فيما يبدو – بالتزامهم إزاء السياسية البابوية الممثلة في شخص هذا الرجل والذي يفرض عليهم مساعدته والوقوف إلى جانبه ، مقابل ما تمتعت به الجماعة من امتيازات ومساعدات وحماية الكرسي البابوى . ويزيد هذا التفسير بوضوح خطاب من البابا – سنشير إليه في حينه – إلى مقدم الاسبتارية يحثه على طاعة بيلاجيوس جالفانو هذا .

وترتب على ذلك أن أيد مقدم الجماعة المندوب البابوى في رفض عروض سابقة للصلح (٣) كما استمر في رفض عروض أخرى قدمها الكامل بعد ذلك ولم يقبلها بيلاجيوس وكذلك بطرس دى مونتاجو أخ جارين والذي أصبح مقدماً للداوية ، متعالين جميعاً بأن دمياط لا بد وأن تؤخذ قبل كل شيء(٤) .

ومن ثم اتجه الملك الكامل إلـى العمـل على تدعيم موقف المحاصرين داخل دمياط ، بأن أرسل إليهم جماعـة مـن المسلمين تحمل المـؤن والإمدادات ليلة الأحد (الثانـي والثالث مـن نوفمبـر ١٢١٩م) عددها – كما ذكـره أوليفر أف بادريورن – مائتان وأربعون اقتحموا الحواجز " والصليبيون نائمون " (٥) وبينما هم متحركين صوب أحد أبواب المدينة اكتشف تقدمهم الاسبتارية

(1) Cf. Setton, K.M.: Idem.
(2) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 194.
(٣) أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٢٦٨- ٢٧٧ .
(4) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 46.
(5) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 46.

والداوية الذين اعتادوا الاستيقاظ مبكراً لأداء الصلوات الصباحية ، فحالوا دون نجاح هذا العمل بأن أيقظوا الصليبيين وحاصروا جماعة المسلمين ، التي ذبح معظم رجالها وتمكن البعض من الهرب والعودة إلى المعسكر الإسلامي ، بينما استطاع قلة دخول المدينة لحظة وقوع هذا الاضطراب (١) .

وفي الخامس من نوفمبر ١٢١٩م (٢٥شعبان ٦١٦هـ) تقدم الصليبيون للاستيلاء على دمياط وعلى رأسهم بيلاجيوس (٢) ويبدو أن حامية المدينة الإسلامية أصبحت ضعيفة لدرجة لم تستطع معها حماية كل الأبراج بالرجال ، مما أتاح الفرصة لإحدى سفن فرسان الاسبتارية المزودة بالقذائف فأحدثت ثغرة أو ثلمة في برج المدينة الكبير تسمح بمرور رجل واحد . ثم أخذ أربعة من " الفرنج " سلماً عالياً كانوا قد صنعوه في الخفاء ، وساروا به نحو البرج وأسندوه بالقرب من الفتحة التي أحدثتها قذائف الاسبتارية وصعدوا عليه حتى دخلوا البرج فلم يجدوا به أحداً ؛ فعادوا وأخبروا كبار القادة الصليبيين – حنا دى بريين وبيلاجيوس – بذلك ، فأسرعت جماعتان من الصليبيين إلى فتح أبواب دمياط ، وحينذاك شق الاسبتارية والداوية طريقهم إلى داخل المدينة (٣) ثم تبعهم من أراد الدخول من رجال الحملة واستسلم من احتمى بقلعتها من المسلمين (٤) .

ويرى البعض أن الجيش الصليبي خلال حصاره لدمياط حتى الاستيلاء عليها كان مديناً بحمايته وتأمين جانبه إلى الشجاعة البطولية لدوق النمسا – رغم رحيله قبل الاستيلاء النهائي عليها – والملك حنا دى بريين ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية (٥) . وهـؤلاء – ما عـدا دوق النمسا –

(1) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 345.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 417.
ومزيد من التفاصيل : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣١٦- ٣١٧ .

(2) Cf. Oliver of Padenborn : Idem.

(3) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 345-346.
Also: Archer & Kingsford: Op.cit, P. 377.
Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 418.

(٤) أنظر التفاصيل في : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣١٩- ٣٢٠ .

(5) Cf. Michaud, J.F.: Op.cit, Vol. II, P. 243.
وقد ناقش هذه النقطة بالتفصيل ايضا : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣٢٤- ٣٢٥ .

بادروا بعد سقوط المدينة بإرسال خطاب إلى البابا هونوريوس الثالث في الحادي عشر من نوفمبر ١٢١٩/ أول رمضان ٦١٦هـ . يزفون إليه نبأ هذا الحادث الذي كان في نظرهم " معجزة المسيحيين " (١) ولم يلبث البابا أن هنأهم بنجاحهم في الاستيلاء على دمياط في خطاب بتاريخ ٢٤ فبراير ١٢٢٠م حث فيه مقدمي الاسبتارية والداوية والتيوتون وكذلك البطريرك وملك بيت المقدس في إطاعة بيلاجيوس المندوب البابوي (٢) مما يدل على أن الجيش الصليبي كان مقيداً – ولو نظرياً – بأوامر تصدر من البابوية متمثلة في شخص بيلاجيوس ، ويساعده على تنفيذها الجماعات الرهبانية العسكرية ورجال الدين ، وأن خالفوها في بعض الأوقات ، وقد أدى ذلك إلى استمرار الصدام والاختلاف في الراي بين كل من المندوب البابوى وحنا دى بريين نتج أساساً عن التضارب بين الواقع الذي يبتغيه ملك بيت المقدس ومؤيديه ، وتلك السياسة العليا للبابوية القائمة على أهداف أغلبها خيالي قد تصيب نجاحاً مؤقتاً أو تعصف بالواقع ذاته في حالة ظهور المصالح والأطماع الشخصية التي لا تضع حسباناً لأمر عام . وهذا ما حدث بعد سقوط دمياط فقد أصبح امتلاك المدينة في حد ذاته مشكلة بالنسبة للصليبيين . وانضم رؤساء الجماعات الرهبانية الثلاث – وفي مقدمتهم مقدم الاسبتارية - إلى الملك حنادى بريين وبارونات بيت المقدس مؤيدين الرأي القائل بأن دمياط تعد جزءاً من مملكة بيت المقدس ، وتخلوا بذلك عن تعضيد المندوب البابوي الذي كان يرى وجوب خضوع المدينة لسلطة الكنيسة والبابوية (٣) وقد خالف الاسبتارية وغيرهم من

(1) Cf. Rohricht R. Regesta Regni No. 925, P. 246.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1671, P. 267.
(٣) حول هذه الخلافات أنظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣٤١- ٣٤٢ .

الجماعات الرهبانية بهذا الموقف المبدأ المتعلق بوجوب مساندتهم الدائمة للبابوية أو ممثليها باعتبارها السلطة العليا التي يخضعون لها ويرجع ذلك بلا شك إلى أن ما كان يراه المندوب البابوي في هذا الصدد يتعارض والمصلحة الخاصة لهذه الجماعات ، لأنه لا مكاسب تؤول إليهم إذا ما ذهبت دمياط إلى حوزة رجال الكنيسة ، وهو ما يدركه جيداً رجال الاسبتارية بصفة خاصة ، لأنهم كانوا أكثر هذه الجماعات شجاراً مع الأساقفة على العديد من الممتلكات وبالتالي تولدت لديهم الخبرة إزاء مواقف الكنسيين وتمسكهم الشديد بحقوقهم المتعلقة بالأملاك التابعة لهم (١) يضاف إلى ذلك مشكلة أخرى وهي تلك الخاصة بتوزيع الغنائم ، فقد احتدم النزاع بين الجماعات الصليبية داخل المدينة بشأن تقسيمها ، واشترك الاسبتارية في إقرار هذا الخلاف (في يناير عام ١٢٢٠م / ٢٨ شوال ٦١٦هـ) بأن ساعدوا الداوية والقوات الفرنسية في طرد الإيطاليين الذين أثاروا هذه المشكلة خارج المدينة (٢) مما كان له أثره في إخماد شبح حرب أهلية كادت أن تشتعل في المعسكر الصليبي بأسره إلا أن هذه الجموع الصليبية المختلفة الأجناس والطباع اتجهت منذ ذلك الحين – فيما يبدو – إلى العمل على استغلال أي فرصة مواتية على نحو انفرادي تحركه المصالح والأطماع الشخصية . ففي يوليو عام ١٢٢٠م / جمادى الأولى ٦١٧هـ قام الاسبتارية وغيرهم من فرسان الطوائف الدينية العسكرية بالإغارة على البرلس ، لكنهم وقعوا جميعاً في كمين أعدته القوات الإسلامية أثناء عودتهم ووقع في ربقة الأسر عدد كبير من هؤلاء الفرسان (٣) .

---

(١) أنظر بعض التفاصيل التي تلقي ضوءا علي موقف السلطات الاسقفية من الاسبتارية وأثر ذلك علي العلاقات فيما بينهما في :

Krey, August: The International State of the Middle Ages in A.H.R. Vol XXVIII, PP. 9-10 .

Also: Rilley-Smith: Op.cit, PP. 375-389.

(2) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 145.

Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 420.

(3) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 65.

أيضا : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣٥٧- ٣٥٨.

وحوالي ذلك الوقت شن المعظم هجوماً عنيفاً على ممتلكات الصليبيين في الشام ، لصرف هؤلاء الأخيرين عن الاستيلاء على مصر ، أو على الأقل إضعاف موقفهم . وقد ركز هجماته على قلعتي فيسارية والحجاج وهذه كانت تابعة للداوية فاضطر مقدم الجماعة إلى العودة بجماعة من فرسانه بعد أن أذن له بيلاجيوس (١) وكان الملك حنا دى بريين قد رحل هو الآخر إلى عكا بناءاً على إذن من البابا نفسه في فبراير عام ١٢٢٠م (٢) فوقع عبء قيادة القوات الصليبية في دمياط على عاتق المندوب البابوى ومقدم الاسبتارية جارين دى مونتاجو (٣) الذي بقى بقوات الجماعة مشاركاً في الأحداث الأخيرة لهذه الحملة (٤) ويبدو أن ما شجعه على البقاء هو إرسال أعضاء الاسبتارية المقيمين في الشام يطلبون منه عدم الانسحاب من دمياط والبقاء هناك مطمئنين إياه بأن قلاعهم هناك ليس من السهل استيلاء المسلمين عليها (٥) هذا إلى جانب أن البابا هونوريوس الثالث كان قد أرسل إليهم مساعدة مالية عن طريق مقر الاسبتارية في باريس حتى تتوافر لديهم الإمكانيات الدفاعية ضد أي هجوم إسلامي أثناء تواجد مقدمهم بجماعة منهم مع الجيش الصليبي في مصر (٦).

وبالنسبة لأحداث الصراع الصليبي الإسلامي على ضفاف النيل ، فقد انضم هؤلاء الاسبتارية بقيادة مقدمهم إلى صفوف القوات الصليبية التي غادرت دمياط جنوباً عن طريق النيل قاصدة القاهرة (٧) ويما تلا ذلك من أحداث تحول الموقف في النهاية لصالح المسلمين مما أجبـــر الرافضيين لمبدأ

---

(1) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 65.

(٢) انظر : محمود سعيد عمران : المرجع السابق ص ٣٥٢- ٣٥٣.

(3) Cf. King, E.J. Op.cit, P. 195.

(4) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 74.

(5) Ibid, P. 82.

(6) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1677, PP. 270-271.
No. 1679, P. 277

(7) Cf. Roger de Wendover: Op.cit, Vol. II. PP. 435-436.

الصلح - وكان مقدم الاسبتارية أحدهم - إلى قبوله بل واصبح جارين دى مونتاجو نفسه من المطالبين بوجوب التسليم بالشروط المقترحة لمعاهدة الصلح ، يدفعه إلى ذلك المأزق الذي وقع فيه رجاله مع بقية الصليبيين (١) فبعد أن قرر القادة الصليبيين في اجتماع حضره المقدم جارين مونتاجو ضرورة العودة بقواتهم شمالاً إلى دمياط (٢) أخذ الجيش الصليبي طريقه صوب الشمال ولم يترك المسلمون كعادتهم فرصة في سبيل الإيقاع بالصليبيين " فأحاطوا بهم وضيقوا السبيل عليهم " (٣) إلى جانب المصاعب التي واجهتهم بسبب الفيضان "فغمرت المياه الصليبيين حتى أوساطهم ، وغاصت أقدامهم ، والمسلمون محيطين بهم من كل جانب وكان مصيرهم القتل أو الأسر ، وفقاً لما تقضى به رغبة سلطان مصر " (٤) .

ثم انتهى الأمر بين الطرفين أخيراً بتوقيع " معاهدة صلح " كان على الصليبيين أن يرحلوا بمقتضاها عن دمياط والبلاد المصرية في ظل الأمان على أنفسهم وأموالهم على أن يسلموا ما بأيديهم من أسرى المسلمين . وقد سلمت المدينة للمسلمين في يوم الخميس الثامن من سبتمبر ١٢٢١ م / ١٩ رجب ٦١٨هـ (٥) وكان مقدم الاسبتارية من بين الرهائن التي قدمت إلى المسلمين لضمان تنفيذ بنود هذه المعاهدة (٦) وأخلى سبيله بعد أن تسلم المسلمون دمياط ، فعاد بفرسانه إلى

---

(1) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II. P. 427.

(2) Cf. Roger de Wendover: Op.cit, Vol. II. P. 436.

(٣) أنظر : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٣ .

(4) Cf. Roger de Wendover: Op.cit, Vol. II. Idem.

أنظر ايضا تفاصيل حول هذه الاحداث في :
ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٦- ٩٧ .

(٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٨-٩٩ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة رقم ٤٠٩ .
Roger de Wendover: Op.cit, Vol. II, P. 436.
وقد ذكر هذا الاخير : " واقق رجالنا علي هدنه لمدة ثماني سنوات مع السلطان بشرط ان يسلموا دمياط وكل الاسري الذين وقعوا في الاسر علي ايديهم "

(6) Cf. Oliver of Padenborn : Op.cit, P. 90.

عكا في شهر سبتمبر ١٢٢١م بعد أن قضى في مصر ثلاث سنوات (١٢١٨-١٢٢١م) هي فترة الحملة (١) قامت أثناءها الجماعة بدورها الحربي في ذلك الصراع الذي دار على ضفاف النيل وقدمت جميع ما لديها من خبرات في أعمال الحصار . وبالرغم من ذلك لم يسلم أعضاؤها من حملات اللوم والانتقاد إزاء هذه النهاية الفاشلة ، وكان عليهم السعي من أجل تبرئة أنفسهم من هذه الاتهامات حفاظاً على سمعتهم لدى الأوساط الصليبية (٢) فقد كان من المأمول أن تعيد هذه الحملة مدينة بيت المقدس إلى حوزة الصليبيين ، لكن نتائجها جاءت مخيبة لهذه الآمال واضطر الجيش الصليبي إلى الرحيل عن مصر بعد أن أصيب بخسائر فادحة . وعلى أثر ذلك الفشل بذل أعداء الاسبتارية جهدهم في محاولة إثارة الرأي العام الصليبي ضدها بأن اتهموهم بالخيانة التي أفضت إلى هذه النتيجة وكان الاتهام مبنياً على أن الجماعة أوقفت لحسابها الخاص مبالغ ضخمة من الأموال التي كانت مخصصة أساساً لإمداد الجيش الصليبي . ورداً على هذا الاتهام يذكر الأب دى فيرتوت أنه غير حقيقي ، فقد استنزف الاسبتارية ما لديهم من أموال وإيرادات في سبيل تمويل الحملة (٣) أما الجماعة فقد طلب مقدمها جارين مونتاجو من قادة الحملة أن يضعوا هذا الموضوع أمام البابا وكتب هؤلاء الأخيرين إلى هونوريوس الثالث ما تردد على الألسنه ، وفي نفس الوقت شرحوا في خطابهم التضحيات بالأنفس والأموال التي بذلها أعضاء الجماعة في سبيل " القضية المقدسة" فكان أن أيد البابا نزاهة الاسبتارية وأصدر تعليماته إلى أساقفة فرنسا وانجلترا وصقلية وغيرهم بأن

(1) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 144-145.
(2) Cf. Michaud, J.F.: Op.cit, Vol. II, PP. 262-263.
(3) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 354.

يضعوا حداً لهذه الشائعات " الممقوتة " والتي لا أساس لها " ثم أعرب عن شعوره إزاء الخدمات " النبيلة " التي يقدمونهما من أجل " العقيدة " وذلك بقوله : " نحن نرغب في إقرانهم بالشرف والمحبة ، ونأمركم – أي الأساقفة – أن تعلنوا في العالم بأسره براءة هؤلاء المدافعين الشجعان عن الدين المسيحي " (١)

وبسبب المصاعب الجمة التي لاقاها الصليبيون في دمياط والبلاد الشامية ، سعى البابا هونوريوس الثالث كثيراً من أجل إرسال النجدات إليهم . وتركزت جهوده الرئيسية هذه المرة على العمل من أجل تجهيز حملة صليبية كبرى يتولى رئاستها أحد أباطرة أو ملوك الغرب وذلك لإنقاذ لاتين الشرق من بوادر الفشل المحيطة بهم ، خصوصاً وقد انقسموا على أنفسهم لعدم وجود قيادة عليا تجمعهم . وكان المفروض على الإمبراطور فردريك الثاني الذي كان قد وعد البابا انوسنت الثالث منذ عام ١٢١٥م بالقيام بحملة صليبية ثم ماطل في الوفاء بوعوده حتى توج إمبراطورا في عام ١٢٢٠م في كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان فجدد العهد للبابوية على أن يقوم بالحملة الصليبية المزمعة (٢) .

وبعد هذا الوعد الأخير بادرت البابوية – كعادتها – بإبلاغ القادة الصليبيين في الشام بنبأ هذه الحملة التي تتجهز للخروج كي تبعث فيهم – على الأقل – روح الطمأنينة على مستقبلهم المعرض للأخطار الناجمة عن الانحلال والانقسام بين صليبي الشام والأوربيين الجدد ،وأيضاً

(١) أنظر الاشارات الواردة في مرسوم البابا هونوريوس الثالث في :
Cartulaire Tome II, No. 1633, PP. 253-254.
وتفاصيل هذا الموضوع في : De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I PP. 354-355.
Woodhouse, F. Op.cit, PP. 46-47.

(٢) أنظر : سعيد عاشور الامبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الحادي عشر ، القاهرة ١٩٦٣م ص ١٩٧- ١٩٨ .

التهديدات الناتجة عن مقاومة المسلمين المستمرة للصليبيين والمتمثلة في هجمات عنيفة على معاقلهم الهامة ومعسكراتهم ، فكان أن أرسل هونوريوس الثالث في العشرين من يونيو ١٢٢١م معانا إلى الاسبتارية أن الإمبراطور فردريك الثاني في طريقه إلى الأراضي المقدسة في مارس ١٢٢٢م كما أن وليم ماركيز مونتفرات يتجهز لنجدة فلسطين (١) .

وبالرغم من ذلك لم يأبه القادة الصليبيون في الشام بمثل هذه الوعود التي كثيراً ما كانت مجرد تصريحات لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ ؛ فأسرعوا بأنفسهم بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة إلى تحريك الغرب الأوربي من أجل إنقاذ المملكة اللاتينية . وكان الإمبراطور فردريك الثاني قد التقى بالبابا هونوريوس في مدينة فيرولى في الثاني عشر من أبريل ١٢٢٢م لمدة يومان حيث تدارسا سوياً الموقف في الأراضي المقدسة . وفي هذا اللقاء تقرر استدعاء الملك حنا دى بريين والكاردينال بيلاجيوس والبطريرك ومقدمي الاسبتارية والداوية والتيوتون إلـــى ايطاليا بشأن عقد مؤتمر مع البابا والإمبراطور لبحث أحوال الأمارات الصليبية ، وتقرير الأمور المتعلقة بالحملة الصليبية المزمعة (٢) .

وتبعـا لـذلك رحــل الملك حنا وجارين دي مونتاجو مقـدم الاسبتارية ورفاقهما مبحــرين من عكا في سبتمبر ١٢٢٢م بعد أن عهد هذا الأخير بشئون الجماة إلى القائد الأعظم جوفير Gouffer

(1) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1732, P. 295.
(2) Cf. Estoire D'Eracles, P. 355.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 145-146.
King E.J. : Op.cit, P. 199.

(Golferius) (مايو ١٢٢١ – سبتمبر ١٢٣١م) (١) ووصل وفد الأراضي المقدسة إلى برنديزي في يناير ١٢٢٣م وتقدم إلى روما ، ثم عقد المؤتمر في الشهر التالي في فرنتينو Ferentino وقطع فيه الإمبراطور على نفسه عهداً بأن يقود حمله صليبية إلى الشرق في عام ١٢٢٥م (٢) وحتى يزداد ارتباط فردريك بالأراضي المقدسة زوجه حنا دي بريين ابنته في حضور المقدم جارين مونتاجو وعلى يد البابا هونوريوس ، ومن ثم أصبح الإمبراطور الوريث الشرعي لعرش مملكة بيت المقدس الاسمية مما يفرض عليه بالتالي الوفاء بوعوده والذهاب إلى هناك (٣) وقبل أن ينهى المجتمعين في هذا المؤتمر مجلسهم تقرر أن يذهب مقدم الاسبتارية والملك الصليبي في سفارة خاصة إلى عاهلي فرنسا وانجلترا للسعي لديهما من أجل إيقاظ اهتمامات شعبيهما للقدوم إلى الشرق في حملة صليبية (٤) ويضيف الأب دى فيرتوت بأن المقدم والملك ذهبا أيضاً إلى كل من أسبانيا وألمانيا لنفس الغرض(٥) .

ومما تجدر ملاحظته هو أن سفارة حنا دى بريين وجارين دى مونتاجو كانت شبيهة بتلك التي قام بها روجردى مولين والبطريرك في عام ١١٨٥ م ، لكن سفارة عام ١٢٢٣م كانت في ظروف أكثر سوءاً بالنسبة للصليبيين في الشام في الوقت الذي كانت فيه أيضاً ظروف مملكتي فرنسا وانجلترا لا تسمح بتجهيز حملة صليبية وذلك لانشغال البلدين بحروب

---

(1) Cf. Les Archives : P. 212.
(2) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I PP. 360-361.
(3) Cf. Chronique de Terre Sainte in R.H.C.Doc. Arm, Tome II, P. 665.
(4) Cf. Estoire D'Eracles: Idem.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 146-148.
(5) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I, P. 361.

داخلية (١) وعندما أيقن مقدم الاسبتارية أن مساعيه لدى ملوك الغرب باءت بالفشل ، استغل فرصة تواجده في أوربا وقام بجولة " تفتيشية " على مراكز البريوريات التابعة للجماعة هناك ، عاد بعدها ليقضى أسبوعاً مع الإمبراطور فردريك الثاني في بالرمو بجزيرة صقلية ثم رحل إلى الشام في ربيع عام ١٢٢٥م (٢) .

وخلال الفترة التي قضاها جارين مونتاجو في الغرب الأوربي لم تسهم الجماعة في أي أحداث متعلقة بالصراع الصليبي الإسلامي ، واقتصر دورها في هذا الصدد على الجهود التي بذلها المقدم من أجل استقدام مساعدات مالية وحربية للأراضي المقدسة إلى جانب انشغال أعضائها بمشكلة الصليبيين المزمنة في شمال الشام ، والناشئة عن وراثة عرش إنطاكية بعد وفاة أميرها بوهيمند الثالث في عام ١٢٠١م (٣) وقد أدى تدخل الاسبتارية في هذا النزاع إلى اصطدامهم بمنافسيهم الداوية (٤) أعوان بوهيمند الرابع الذي أصبح أميرا لإنطاكية إلى جانب كونه كونتا لطرابلس ، مما اضطر ليو الثاني ملك أرمينيا إلى التدخل هو الآخر لمناصرة ابن أخته ريموند – روبن الوريث الشرعي لأمارة إنطاكية وفقاً لأحكام القانون الاقطاعى (٥) وقد استطاع ليو – كما سبقت الإشارة – اجتذاب الاسبتارية إلى جانبه ، بأن أنعم عليهم بالعديد من المنح والاقطاعات في مملكته مكتسباً رضاء البابوية أيضاً عنه ، كما تدل على ذلك المراسيم البابوية الصادرة لتأكيد هذه المنح (٦)

---

(1) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II. P. 349.
(2) Cf. King E.J. : Op.cit, PP. 199-200.
(٣) أنظر : سعيد عاشور الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٨٧ .
(4) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1725, P. 292.
Also: Michaud, J.F.: Vol. II, P. 190.
(٥) أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩٨٧-٩٨٨.
(٦) أنظر ما سبق ص ٢٦٥- ٢٦٦ وايضا :
Cartulaire Tome II, Nos. 1262, PP. 70-71, 1344, PP. 115-116, No. 1350, P. 119.
Also: Codice dipl. Del Sacer Milit, Nos, XCIV_XCV, PP. 98-99.

بينما أدى تأييد رجال الدين الأرثوذكسي لبوهيمند الرابع إلى استثارة عداء الجماعة ونقمة معظم جمهور الفرنج عليه (١) وعلى رأسهم البابا ، خصوصاً بعد اعتداء بوهيمند على أملاك الاسبتارية الواقعة في امارتى إنطاكية وطرابلس .

فقد كتب مقدم الاسبتارية إلى البابا بشأن ما اقترفه بوهيمند الرابع ضد الجماعة ليتدخل بصفته حامياً لها (٢) فأصدر هونوريوس الثالث في الثامن عشر من ديسمبر عام ١٢٢٥م تصريحاً إلى جارين دى مونتاجو - الذي كان قد وصل عكا من رحلته الأوربية وبعد زيارته لقلاع الجماعة في الأكراد والمرقب بداية هذا الشهر - باستخدام القوة والعنف في التصدي لاعتداءات بوهيمند الرابع (٣) والملاحظ أن البابا في هذا المرسوم أشار إلى بوهيمند بلقب " كونت طرابلس " مما يدل على عدم اعترافه به أمير الانطاكية وتأييده من ناحية أخرى لأحقية ريموند - روبن في هذا العرش - ويعد ذلك تعضيدا لموقف كل من ليو الأرمينى والاسبتارية ومناصرتهم لهذا الأخير في الخلافات القائمة .

ولم تقف البابوية عند هذا الحد بل أعلن البابا في العام التالي (٣٠ يناير ١٢٢٦م) إلى كل من رئيس أساقفة قيسارية ونيقوسيا ورئيس دير جبل الزيتون اعتداءات بوهيمند الرابع ضد قلعة إنطاكية التابعة للاسبتارية ومنزلاً للجماعة أيضاً في طرابلس (٤) وكان ذلك توطئة لإصدار قرار الحرمان

---

(١) أنظر تفاصيل ذلك في : Estoire D'Eracles, PP. 347-348.
أيضا : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩٨٩.

(2) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I PP. 362-363.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 148.
La Monte, J.: Op.cit, P. 206.

(3) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1824, P. 343

(4) Cf. Ibid, No. 1834, P. 349.

ضده ، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد . ففي الخامس من مارس ١٢٣٠م أصدر البابا جريجورى التاسع Gregort IX (١٢٢٧ ـ١٢٤١م) قراره بحرمان بوهيمند الرابع من الكنيسة بناءاً على طلب الاسبتارية (١) .

وإلى جانب انخراط الاسبتارية في كثير من جوانب هذا النزاع تدخلوا في قبرص لحماية الطفل هنرى لوزينان الذي توج في نيقوسيا عام ١٢٢٥م ملكاً على الجزيرة – بعد سبع سنوات من وفاة أبيه ـ تحت وصاية فيليب دى ابلين (٢) وكان تدخل الاسبتارية لحمايته ومساعدته بأمر من البابا هونوريوس الثالث في ١٥ فبراير ١٢٢٦م (٣) هذا بالإضافة إلى أنه كان للجماعة في قبرص العديد من الاقطاعات والحقوق التي حصلت عليها من الملك هيو الأول ملك قبرص ، مما أعطاها وضعاً مميزاً في جزيرة ذات موقع ممتاز بين الغرب وفلسطين ، ومركز ذات ميزات تجارية وإقليمية ساعد على امتداد نفوذ الفرسان الاسبتارية وازدياد مكاسبهم (٤) .

وبالنسبة لحملة فردريك الثاني كان الإمبراطور قد طلب من البابا تأجيل رحلته إلى الأراضي المقدسة عامين آخرين بعد أن كان مقرراً لها عام ١٢٢٥م بحجة أنه منشغلاً بالحرب ضد المدن الثائرة في لمبارديا (٥) فعاد العديد من الصليبيين الذين احتشدوا في عكا إلى بلادهم ، بينما اتجه الباقون منهم إلى استغلال الوقت حتى مجيء الإمبراطور في أعمال التحصينات . وقد نظموا أنفسهم في مجموعتين : أحداهما اتجهت صوب الجنوب لترميم وتقوية تحصينات كل مـــن قيسارية ويافا

(1) Cf. Ibid, No. 1955, P. 4004.

(٢) أنظر : سعيد عاشور الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٤.

(3) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1835, PP. 349-350.

(4) Cf. Le Roulx, J.D. : Les Hospitaliers, PP. 149-150.

(5) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I P.363.

بينما عينت المجموعة الأخرى لترميم أسوار صيدا التي أصبحت ملكاً للصليبيين بصفة كلية (بعد أن كان صلاح الدين قد دمرها في عام ١١٩٠م وظلت مدينة مفتوحة وإيراداتها مناصفة بين الجانبين الصليبي والإسلامي وفقاً لبنود صلح الرملة) وهذه المجموعة الأخيرة التي توجهت إلى صيدا كانت تحت توجيه جارين دى مونتاجو والاسبتارية . وبدأ عملهم في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٢٢٧ م وانتهوا منه في أول مارس عام ١٢٢٨م (١) .

ويعتقد بعض الباحثين – اعتماداً على " التاريخ المنصورى " (٢) - أنه حوالي ذلك الوقت كان خضوع الإسماعيلية لجماعة الاسبتارية وقيامهم بدفع الجزية على أساس أن شيخ الجبل استقبل فيما بين عامي ١٢٢٦ – ١٢٢٧م / ٦٢٣-٦٢٤هـ سفارات من قبل الإمبراطور فردريك الثاني حاملين معهم هدايا تقدر بثمانين ألف دينار (٣) وفي مقابل ذلك أعطى زعيم الباطنية للإمبراطور فردريك الأمان ، وفي نفس العام طلب الاسبتارية من هؤلاء الإسماعيلية دفع الجزية فرفض مندوبيهم قائلين " مليككم الإمبراطور يعطيننا ، أتأخذون منا !! " حينذاك هاجمهم فرسان الجماعة وحملوا الكثير من الغنائم (٤) ورغم ذلك فإن الكاتب متردد في اعتقاده بحجة أن النص غير واضح فيما إذا كانت الضريبة التي التزم الإسماعيلية بدفعها إلى الاسبتارية يؤرخ لها من هذه الحادثة أو أنها فرضت على الباطنية في وقت سابق (٥) .

---

(1) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 158.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 203.

(٢) لم يعثر الباحث على هذا النص فى المكتبة العربية الصقلية التي أشار ك.م ستون انه رجع إليها بشان " التاريخ المنصورى " المشار إليه ، هذا إلى جانب انه لم يتيسر للباحث الحصول على هذا المصدر الأخير .

(٣) كان الدينار فى العصر الاسلامى من الذهب ووزنه اثنان وعشرون قيراطا ومتوسط تقديره بالعملة المصرية ستون قرشا . انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ح٧ ص٢٣٢-٢٣٣
ايضا : زبيدة محمد عطا : الفلاح المصري في القرنين السادس والسابع الميلاديين ص ٩٩ .

(4) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. I. PP. 128-129.

(5) Cf. Ibid, P. 129

كيفما كان الأمر ، فإن الإمبراطور فردريك الثاني بعد انتهاء فترة التأجيل التي طلبها تشجع على الخروج إلى الشرق مدفوعاً هذه المرة بظروف زواجه من يولاند ابنه حنا دى بربين ووريثه مملكة بيت المقدس (١) وأيضاً استنجاد الملك الأيوبي الكامل به لمساعدته في نزاعه مع أخيه الملك المعظم الذي كان قد استنجد هو الآخر بالخوارزمية (٢) وبضغوط من جانب البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) الذي اعتلى عرش البابوية بعد وفاة هونوريوس الثالث في مارس عام ١٢٢٧م ، أبحر فردريك من برنديزى قاصداً الأراضي المقدسة ، لكنه ما لبث أن عاد بعد أيام مدعياً المرض ، مما جعل البابا يعتبر ذلك تمارضاً وأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور في التاسع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧م (٣) ثم أرسل خطاباً إلى مقدم الاسبتارية وغيره من رؤساء الجماعات الدينية الأخرى ورجال الدين في الشام أوضح فيه عدم خروج فردريك إلى الشام " في شهر أغسطس الماضي كما وعد " وأثر ذلك بالنسبة لرجال الحملة الذين عاد منهم حوالي أربعون ألفاً من حيث أتوا ، بينما واصل آخرون طريقهم إلى الأراضي المقدسة تحت قيادة دوق ليمبورج (٤) .

وفي عكا عقد مجلس ضم الاسبتارية والداوية والتيوتون اتفق فيه على أنه للدوق السالف الذكر أن يتصرف وفقاً لما يراه مناسباً لصالح " القضية المسيحية والأراضي المقدسة " وقد قدم أعضاء جماعة القديس يوحنا وغيرهم من صليبي الشام ما لديهم من نصح إزاء الأوضاع المعاصرة وخصوصاً المتعلقة بالموقف فيما بينهم وبين المسلمين ، وكان الجميع راغبين في خرق " الهدنة "

---

(١) انظر : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ح١ ص ٣٩٦ .
(٢) نفس المؤلف : الإمبراطور فريدريك الثاني - مقال ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
(٣) انظر سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٢٠٢ .
أوربا الوسطي ج١ ص ٣٩٦ .

(4) Cf. Roger de Wendover : Vol. II. PP. 490-491.

بحيث لم يلقوا لها بالاً في مخططاتهم كما بدا من المناقشات التي دارت فيما بينهم داخل المجلس (١) وكان أن بدأوا أعمالهم العدوانية ضد المسلمين " وانبثوا ببلاد الساحل " ويذكر أبو شامة أن ذلك حدث والهدنة " كانت قد تمت " (٢) (٦٢٥هـ / ١٢٢٧ – ١٢٢٨م) فقام المسلمون من فورهم بعمل مضاد بأن أغاروا علــى " بلاد صور " (٣) وكمنــوا للفرنج " فقتلوا وأسروا منهم سبعين فارساً " " وكانت وقعة عظيمة " (٤) مما يدل على أن فترات الهدنة التي تتخلل الصراع الصليبي الإسلامي لم تكن إلا مجرد توقف للحروب المستمرة حتى يستعيد كل من الطرفين قوته ، وفي نفس الوقت يستغلها لصالحه دون مراعاة للعهود أو صدق النوايا في الالتزام بها ، طالما فقدت المقومات التي دعت إلى عقدها .

على أية حال يبدو أن هجوم البابا جريجورى التاسع على الإمبراطور كان عنيفاً تلك المرة بحيث أدرك فردريك أن مصلحته تستدعى الخروج بحملته الصليبية حتى يفوت على البابا غرضه في أظهاره في صورة المسيحي العاق (٥) فأبحر في الثامن والعشرين من يونيه عام ١٢٢٨م من برنديزى بعشرين سفينة وستمائة فارس للحاق بالقوات التي كانت قد تجمعت في عكا (٦) حيث وصل الميناء الصليبي في السابع من سبتمبر من نفس العام (٧) وهناك استقبلـــه الصليبيون وكبار

---

(1) Cf. Rover de Wendover : Vol. II. P. 491.

(٢) الذيل على الروضتين ص١٥٢ .

(٣) أنظر المصدر السابق ص ١٥٢- ١٥٣ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة ٤٣١ .

(٥) أنظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٠١- ١٠٠٢ .

(6) Cf. Les Gestes des Chiprois, Livre II in R.H.C.Doc. Arm, Tome II, PP. 676-677. Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 161.

(7) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 451.

رجال الدين " بالتكريم الجديد برجل عظيم " وذهب إليه أيضاً الاسبتارية والداوية " راكعين وكرموه بأن سجدوا له وقبلوا ركبتيه " ورحب به الجميع على هذا النحو (١) لكن عندما وصلت رسالة الكرسي البابوي إلى بطريرك المملكة تطلب التنكر للإمبراطور فردريك وتوصى الاسبتارية والداوية والتيوتون بعدم مساعدته لأنه محروم من الكنيسة (٢) لم ينعم الاسبتارية والداوية عليه " بقبلة السلام أو يجلسوا معه على مائدة ، ونصحوه بأن يسترضى البابا ويعود إلى حظيرة الكنيسة المقدسة " (٣) وهكذا أظلمت ظلال كراهية جريجورى التاسع الطريق أمام الإمبراطور (٤) مما اضطره إلى بذل محاولات عديدة من أجل كسب صليبي الشام إلى جانبه ؛ فأخذ يشكو لهم بمرارة ما فعله البابا معه وحرمانه بغير عدل (٥) كما اظهر لهم صدق نواياه بأن أرسل إلى جريجورى مندوبين عنه " يعلنون وصوله إلى الشام ويطلبون له الغفران " (٦) .

ويذكر روجر أف وندوفر أن مقدم الاسبتارية وجماعة من فرسانه كانوا في صفوف الجيش الصليبي المحتشد في عكا في انتظار وصول الإمبراطور (٧) ونظراً لأن الجماعة كانت تدين بالولاء والطاعة للبابوية فقد امتثل فرسانها لأوامر البابا التي بعث بها إليهم بشأن عدم التعامل مع إمبراطور محروم من الكنيسة وأيضاً عدم الاعتراف بقيادته لقوات صليبية (٨) لذلك عندما قرر

---

(1) Cf. Roger de Wendover : Vol. II. P. 511.
(2) Cf. Estoire d'Eracles : P. 370.
(3) Roger de Wendover : Vol. II, Idem.
(4) Setton, K.M.: Vol. II, Idem.
(5) Cf. Roger de Wendover : Vol. II. P. 511.
(6) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, Idem.
(7) Cf. Roger de Wendover : Vol. II. P. 511-512.
(8) Cf. Conder, C.R. Op.cit, PP. 312-313.
Also: La Monte, J.: Op.cit, P. 62.
Stevenson, W.: Op.cit, P. 309.

فردريك السير من عكا إلى يافا في الثالث والعشرين من نوفمبر ١٢٢٨م ، في محاولة من أجل الوصول إلى نتيجة في المفاوضات التي كان قد بدأها مع السلطان الكامل فور وصوله ، تبعه الاسبتارية ومعهم الداوية لكنهم كانوا على مسافة فاصلة خلف الجيش الامبراطورى (١) وكان الغرض من سير قوات الجماعيتين وراء فردريك ، بالرغم من مقاطعتهم له ، هو – كما ارتاه البعض – خوفهم من اصطدام هذه القوات الإمبراطورية مع جماعة من المسلمين تفوقهم عدداً في فترة انتهت فيها مدة الهدنة ، فأضطر الاسبتارية والداوية إلى مراقبتهم وحماية ظهورهم في وضع استمداد للتدخل الحربي ، إذا ما تعرضوا لهجوم مفاجيء (٢) ، مما يشير إلى مدى حرص الاسبتارية ومنافسيهم على سلامة جيش فردريك رغم توصيات البابوية وموقفها منه ، ويؤكد بالتالي حرصهم على القضية الصليبية لاقتران هذه الأخيرة بعلو مكانتهم واتساع نفوذهم . وعلى مقربة من ارسوف استسلم الإمبراطور فردريك لضغوط القادة الموجودين معه في الحملة بعد أن أطلعوه على الأخطار التي تتهدد خطواته في ظل هذا الوضع ، فأخذ يستميل الاسبتارية وكذلك الداوية من أجل انضمامهم إلى الجيش الرئيسي ، وحتى يتحاشى وقوعهم في حرج مع البابا الأمر الذي يدرك مدى حرصهم على الحيلولة دونه في كثير من الأحيان ، عقد فردريك اجتماعاً معهم اقترح فيه كحل وسط أن تصدر الأوامر إلى هذا الجيش "باسم الله والمسيحية " وليس باسم الإمبراطور ، ووافق على هذا الاقتراح كل من الاسبتارية والداوية وكذلك الإمبراطور (٣) ولم يجرؤ أحد – كما يذكر ميشو – أن

(1) Cf. Michand, J.F.: Vol. II, PP. 276-277.
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 454.
(2) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 162.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 207.
(3) Cf. Estoire d'Eracles : Op.cit, PP. 372-373.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 454.

يتفوه بذكر اسم من يقود هذه الحملة (١) وعلى اثر ذلك تعاونت قوات الاسبتارية والداوية مع قوات فردريك في بعض أعمال التحصينات وأيضاً تقوية وترميم تحصينات يافا مما كفل للحملة تنفيذ بعض العمليات بنجاح (٢) .

أما بالنسبة للمفاوضات التي جرت بين المالك الكامل وفردريك . فرغم أن هذا الأخير أتى إلى الشام ليتسلم الأرض عن طريق المفاوضات لا ليحارب ، معتمداً على وعود السلطان الكامل له بتسليم بيت المقدس مقابل قيام الإمبراطور " بشغل سر أخيه المعظم كما يذكر المقريزى (٣) إلا أن هذا الأمل انهار فجأة بتغير سياسة الكامل بعد وفاة المعظم في أواخر عام ١٢٢٧م . فأصبح الموقف صعباً بالنسبة للإمبراطور الذي خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، مما اضطره إلى إتباع كل وسائل الدبلوماسية والاستعطاف في تفاوضه مع الكامل . وقد نجح في التأثير على هذا الأخير بتلك الوسائل ، فعقدت اتفاقية يافا في فبراير ١٢٢٩م وتقرر بمقتضاها الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا وفيما يتعلق ببيت المقدس اشترط الجانب الإسلامي أن تبقى المدينة على ما كانت عليه فلا يجدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام (٤) وقد أثار تسليم مدينة بيت المقدس للصليبيين موجة عامة من السخط والأسى في العالم الإسلامي (٥) بينما رفض هذه المعاهدة رسمياً البطريرك والاسبتارية والداوية (٦) تعضيد الموقف

---

(1) Cf. Michand, J.F.: Op.cit, Vol. II, PP. 277
(2) Cf. Roger de Wendover : Vol. II, P. 511-512.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 162.
King E.J. : Op.cit, P. 208.

(٣) أنظر السلوك ج١ ص ٢٢١- ٢٢٢.
(٤) أنظر التفاصيل في سعيد عاشور : الإمبراطور فريدريك الثاني ص ٢٠٣- ٢٠٨ .
(٥) أنظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة ٤٣٢ .

(6) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 164.

البابوية من ناحية ، وتحدياً للسلطة الإمبراطورية التي كان من الممكن أن تتصدى لأطماعهم ونفوذهم في الأمارات الصليبية إذا ما قيض لها النجاح في تحقيق مكاسب من هذا القبيل من ناحية أخرى .

وأشاد بموقف البطريرك والاسبتارية البابا جريجورى التاسع في خطاب له بتاريخ ١٣ يونيو ١٢٢٩ م بعث به إلى رئيس أساقفة ميلانو ، كما ألقى على هذا الأخير تبعات إعلان هذا الرفض بين " المسيحيين الغربيين " داخل نطاق الأبرشيات التابعة له (١) .

على أية حال ، دخل فردريك الثاني مدينة بيت المقدس في السابع عشر من مارس ١٢٢٩م حيث توج نفسه داخل كنيسة القيامة (٢) ثم غادرها متقلداً التاج قاصداً قصر الاستارية . وهناك بدأ مفاوضاته في اليوم التالي (الثامن عشر من مارس) مع الأساقفة الإنجليز ومقدمي الاسبتارية والتتوتون وقائد الداوية وآخرون بشأن تحصينات المدينة المقدسة وسبل الدفاع عنها . ويذكر الأب دى فيرتوث أن الاسبتارية والداوية رفضوا الاشتراك في أي عمل دفاعي أو إقامة تحصينات متعلقة بها (٣) ولم يصل الإمبراطور في مفاوضاته إلى قرار ، وأعطيت مهلة للتفكير حتى اليوم التالي (١٩مارس) لكن لم يكد يأتي صباح هذا اليوم حتى كان رئيس أساقفة قيسارية قد وصل إلى بيت المقدس ليتلو قرار الحرمان على المدينة . ويرى البعض أنه قد فات الأوان كي يفسد هذا القرار خطط الإمبراطور على أساس أن الحرمان لا يتأتى منه ضرر سوى إثارة غضب العامة (٤) وبالنسبة للاسبتارية يذكر أ.ج . كبنج أنه كان مستحيلاً أن يعودوا إلى مدينة غير محصنه ، كما أن

(1) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1942, P. 397.
(2) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 208.
(3) Cf. De Vertot, L'Abbe : Tome I P.380.
(4) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 458.

المباني التابعة لهم في بيت المقدس وفقاً لبنود اتفاقية يافا ، لم يعد الدير الأصلي للجماعة إلى حوزة الصليبيين ، ودار الضيافة التي أعيد فتحها لم تصبح مرة أخرى مقراً لها مثلما كان الحال من قبل (١).

وكان واضحاً أن إمارة إنطاكية وكونتية طرابلس لم يدخلا في نطاق الأراضي والأماكن التي شملتها هذه الاتفاقية التي أبرمت بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك . وتبعاً لذلك كانت أملاك الاسبتارية وقلاعهم في هذه البلاد في حل من الهدنة وميداناً لاستمرار الحرب مع المسلمين . وقد استغل فرسان الجماعة الظروف التي ألمت بالبيت الأيوبي بعد توقيع اتفاقية يافا ، وأغاروا على منطقة بعرين في نوفمبر عام ١٢٢٩م / أواخر ٦٢٦هـ " فنهبوا البلدة وأعماله ، وسبوا ، ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بعرين ، فلم يسلم منهم إلا النادر والشارد " (٢) وتشجيعاً للاسبتارية على مواصلة القتال ضد المسلمين أصدر البابا جريجورى التاسع مرسوماً في الثامن عشر من ديسمبر ١٢٢٩م منح بمقتضاه أعضاء الجماعة الذين يموتون في الحرب مع المسلمين " غفراناً مطلقاً " (٣) .

ويبدو أن الملك المظفر تقي الدين محمود (الثاني) – ابن الملك المنصور – صاحب حماه لم يكن مستعداً للصمود في وجه عدوان الاسبتارية ، الأمر الذي جعله يتعهد بدفع جزية لفرسان الجماعة في حصن الأكراد ؛ ولما لم يف الملك المظفر بوعده زحف عليه الاسبتارية وحلفاءهم " في جمع كثير " قوامه خمسمائة فارس وألفان وسبعمائة راجل (٤) تحركوا من " قلعة الحصن "

---

(1) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 209.

(٢) أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٧٩.
ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦٢٧هـ .

Also: Stevenson, W.: Op.cit, P. 414 n, 4.

(3) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1950, P. 400.

(4) Cf. Estoire D`Eracles : Op.cit, P. 403.
Also: Deschamps, P. Op.cit, P. 128.
Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 171 N, 4.
ويحتمل ديلافيل لي رو أن تقدير قوة الاسبتارية في هذه الحالة اختلط فيه الأمر مع حملة عام ١٢٣٢م التالية .

قاصدين حماه فـــي أغسطس عام ١٢٣٠م / رمضان ٦٢٧هـ فخرج إليهم المظفر تقي الدين وقابلهم عند أفنون (أفيون) (١) مـا بين حماه وبعرين " فقاتلهم وحمل عليهم حملة بعد حملة ، فلم يثبتوا لـه وولوا منهزمين . وقتل من خيالتهم ورجالتهم خلق كثير ، وأســر جماعة ، واستـرد ما غنمـوه (٢) " وكسرهم كسرة عظيمة " ثم عـاد إلـى حمـاه " مـؤيداً منصـوراً " (٣) وأمامـه الأسرى ممـا جعل الشعراء يمدحونه ويشيدون بالنصر الذي أحرزه على الاسبتارية (٤) .

وهناك إشارة إلى أنه في أواخر عام ١٢٣٠م / أوائل عام ٦٢٨هـ هاجم اللاتين جبلة ونهبوها (٥) والأرجح أن الاسبتارية كانوا في مقدمة المهاجمين إن لم يكونوا قد انفردوا بالقيام بهذا العمل على أساس أنهم حصلوا على جبلة كمنحه من ريموند – روبن أمير إنطاكية وخاله ليو الثاني ملك أرمينيا ، وقد نصت الوثيقة الخاصة بهذا العطاء على أن تؤول ملكية هذه المدينة إلى الجماعة بعد استردادها من المسلمين (٦) لذا كـان محاربيها دائمي السعي من أجل تحقيق هذا الغرض ، ويؤيد وجهة النظر هذه مـا ذكره ستون Setton من أن الاسبتارية استمروا فـي مهاجمـة جبله وكذلك أملاك المسلمين القريبة من حصن المرقب (٧) وكـان رد الفعل أن خـرج عسكر حلب فـي فبراير عـام ١٢٣١م / منتصف ربيع الآخر ٦٢٨هـ بقيادة الأميـر بدر الدين بن الوالي " وأغاروا علـى ناحية المـرقب

---

(١) يبدو أن المقصود بها قرية قفيلون الحالية قرب بعرين . وهي الآن تبعد عن حماه مسافة خمس وثلاثون كيلو مترا . انظر : : ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٠٣ الحاشية .
(٢) ابن واصل : المصدر السابق نفس الصفحة .
(٣) أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ١٤٦ـ ١٤٧ ، أيضا ابن الوردي : تاريخة ج٢ ص ٢٢٠ .
(٤) مما قيل من شعر في هذه المناسبة :

ابشر بما شئت مــن نصـــر وتأييد ... فعنك يـــروي حـــديث البأس والجـــود
وأنت ليث وغي تـدمـي مخالـبه ... في نحر كل طـــويل البـــاع صنـــديـد
أما الفرنج فقــد أخمـــدت نارهـــم ... ولـــم تـــزل ذات اضـــرام وتـــوقـــيد
ودعتهـــم بخميس فـــل جمعهـــم ... بحـــر ضـــرب وطعـــن كالاخـــاديد
فغودروا بين مجـــروح ومختبل ... يبكـــي علـــي هالك منهـــم ومفقـــود
مصاروا قطائع اذا راموا القطائع ... للقواطع البيض في حجب الوغي السود
فلا تدع غزوهم في عقـــر دارهم ... صغوا الـــي الزود مـــن لـــوم وتفنيـــد

أنظر : ابن واصل : نفس المصدر ص ٣٠٣ ــ ٣٠٥ .
(٥) أنظر : المصدر السابق ص ٣١٠ .
Also: Stevenson, W.: Op.cit, P. 314 n, 4.
(6) Cf. Cartulaire Tome II, Nos. 1262, PP. 70-71, No. 1355, PP. 122-123.
(7) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 547.

ونهبوا حصن بانياس (١) وخربوه ، وخلصوا من وجدوه من أسرى المسلمين وسيروه إلى حلب " ثم حدثت " وقعة أخرى " بين المسلمين " والفرنج " الاسبتارية ومن انضم إليهم " قتل من الفريقين فيها جماعة واستظهر فيها الفرنج على المسلمين " . وأخيراً استقرت الهدنة بين عسكر حلب والاسبتارية والداوية في الثالث والعشرين من يونيو ١٢٣١م / العشرون من شعبان ٦٢٨هـ (٢) .

وفي العام التالي (يوليو ١٢٣٢م) انشغل الاسبتارية في محاولات من أجل تسوية النزاعات الداخلية في مملكة بيت المقدس الاسمية بناءاً على توصيات من البابا جريجوري التاسع (٣) لكن ذلك لم يكن بالقدر الذي يثنيهم عن مواصلة مساعيهم في سبيل الحفاظ على مصالحهم الخاصة وما يمكن أن يحصلوا عليه من مكاسب على حساب جيرانهم المسلمين . ففي عام ١٢٣٣م قام فرسان الجماعة بحملة ضد أمير حماه (المظفر تقي الدين) . وامتازت هذه الحملة عن غيرها من الحملات بأن الاسبتارية حشدوا فيها إلى جانب قواتهم ، فرقاً مختلفة من جيوش مملكتي بيت المقدس وقبرص ويبدون أن ذلك كان عملاً بمرسوم بابوي يرجع إلى عام ١٢٣٢م أوصى فيه البابا أعضاء الجماعة بأن يبذلوا جهدهم من أجل توحيد القوى الصليبية ضد المسلمين (٤) .

وفي هذا الجيش الصليبي كان الداوية بقيادة مقدمهم أرموند دى بيريجورد Armond de Perigord وثمانون فارساً من قوات مملكة بيت المقدس بقيادة بطرس دى افالون Pierre d`Avalon ، ومائة فارس قبرصي على رأسهم يوحنا ايلين وثلاثون فارساً من أمارة إنطاكية في

(١) كانت بلبناس كوره ومدينة صغيرة وحصن بساحل حمص علي البحر . أنظر :
ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣١٠ الحاشية .
(٢) أنظر ابن واصل : المصدر السابق ص ٣١٠ ـ ٣١١.
أيضا : ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٣ ص ٢٠٩- ٢١٠.
Stevenson, W.: Op.cit, P. 314 n, 4 & Setton, K.M.: Vol. II, P. 547.
(3) Cf. Cartulaire Tome II, Nos. 12025-2026, PP. 439-440.
(4) Cf. Bolla di Gergorio IX in Codice dipl. Del Sacro Milit. O., Bull no. IV, P. 271.

مقدمتهم هنرى الانطاكى شقيق الأمير بوهيمند الخامس ، ويرى البعض أن انضمام أمير إنطاكية بقواته إلى هذا الجيش وتعاونه مع الاسبتارية في هذه الحملة ، يرجع إلى سيطرة الجماعة على كثير من المناطق في الشمال في نطاق أمارة إنطاكية وكونتيه طرابلس (١) أما الاسبتارية أنفسهم فقد تكونت قواتهم من مائة فارس وأربعمائة من الخيالة ، وألف وخمسمائة من الرجالة على رأسهم جميعاً المقدم جورين Guarinus (٢٨سبتمبر ١٢٣١ – مايو ١٢٣٦م) (٢) ويشير تاريخ هرقل إلى أن سبب هذه الحملة كان أيضاً رفض المظفر تقي الدين القاني أمير حماه دفع الضريبة السنوية المفروضة على أمارته لاسبتارية حصن الأكراد (٣) في مقابل مساندتهم له وفقاً لما جاء في روايته (٤) ، وكذلك لكي يأمن شر هجماتهم على أمارته وفقاً لما ورد في رواية أخرى (٥) هذا بالإضافة إلى رغبتهم في محو آثار الهزيمة التي لحقت بهم منذ ثلاثة أعوام على يد الملك المنصور (٦) لكن – فيما يبدو – كان الهدف الرئيسي الكامن وراء إعداد حملة ضخمة من هذا القبيل هو الاستيلاء على ما يمكن اغتصابه بالقوة من الأراضي التابعة لأمارة حماه بما يحقق مكاسب توسيعة للصليبيين بوجه عام وللجماعة بوجه خاص وهو هدف كثيراً ما سعى الاسبتارية بالذات لتنفيذه في سبيل اتساع نفوذهم الاقليمى في هذه المنطقة .

---

(١) أنظر ما سبق وأيضا : Cartulaire Tome I & II Passim.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 550.
(2) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 171-172.
(3) Cf. Estoire D'Eracles : Op.cit, Idem.
Also: Deschamps, P. : Op.cit, P. 128.
وكان الذي جعلها للاسبتارية علي هذا النحو اخو تقي الدين السابق عليه وهو الملك الناصر فلج ارسلان الابن الأكبر لابن أخ صلاح الدين { تقي الدين عمر } الذي توفي في عام ١٢٣٠م، أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١٠٢٤ .
(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 171.
(5) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 213.
(6) Cf. Deschamps, P. : Op.cit, P. 128.

على أية حال تجمعت القوات الصليبية المتحالفة في سهل البقاع جنوبي حصن الأكراد ، ثم زحفوا ليلاً على بعرين فاحتلوها ما عدا قلعتها التي احتمى بها الأهالي . ومن هناك ذهبوا لنهب ماردين Merdjemin ثم استولوا على السماقية Somakieh في شمال الشام .وقد استغرقت الحملة ثمانية أيام عاد بعدها الاسبتارية وحلفاؤهم إلـــى سهل البقاع محملين بالأسلاب " دون أن يقلقهم أحد " (١) .

ويبدو أن عودة الصليبيين السريعة – على الرغم من قوتهم – ترجع كما يرى البعض إلى عدم رغبتهم في إثارة حرب عامة ضد المسلمين في تلك الظروف السيئة التي مرت بها القوى الصليبية في الشرق الأدنى حينذاك . ولا يستبعد أيضاً أن يكون هؤلاء الفرنج قد سمعوا بتجمع جيش أيوبي كبير يقصد التحرك نحو شمال الشام ضم قوات الملك الكامل صاحب مصر ، والملك الأشرف صاحب دمشق ، والملك الناصر داوود صاحب الأردن ، والمجاهد شيركوه صاحب حمص وغيرهم من أعضاء البيت الأيوبي . فلعل تحرك القوة الأيوبية الضاربة نحو الشمال آثار مخاوف الصليبيين (٢) ومنهم الاسبتارية .

وحقيقة الأمـــر أن الملك الكامل والملك الأشرف رغبا في التفرغ لحرب السلاجقة (٣) فخشيا قيام تحالـف بين سلاطين قونيه وبين الصليبيين (٤) لذا بينما كان الجيش الأيوبي متجهاً شمالاً إلـــى آسيا الصغرى لمهاجمة السلاجقة فـــي عقـر دارهم فـي قونيه أقنع قادته وعلـــى رأسهم الكامل ، الملك المظفر أمير حماه ، بأن يجدد معاهدة السلام مـع الاسبتارية ويدفع لهـم

(1) Cf. Estoire D`Eracles : PP. 404-405.
Also: Las Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 724.
Deschamps, P. : Op.cit, PP. 128-129.
Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 171-172.

(٢) انظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١٠٢٤- ١٠٢٥ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٢٥ .

(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 172.

الجزية المطلوبة ، ونزولاً على نصيحة أعمامه قام أمير حماه بأداء الضريبة المقررة عليه للجماعة لتتوقف الحروب بين الطرفين فترة من الوقت (١) ويرجح حدوث هذه الحملة في شهر أكتوبر عام ١٢٣٣م ، إذا ما وضعنا في الاعتبار الفترة التي قضاها يوحنا ايلين في عكا من الثالث إلى الرابع والعشرين من هذا الشهر ، وقد كان مشتركاً مع الاسبتارية في هجومهم على المناطق التابعة لأمارة حماه (٢) .

وفي الوقت الذي جمد فيه الايوبين جهودهم ضد الصليبيين في الشام دون محاولة من جانبهم لاستغلال الظروف الناشئة عن الخلاف بين العناصر الصليبية المختلفة (٣) وذلك لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية ، اتجه الاسبتارية بقيادة مقدمهم جورين – الذي كان مسالماً بطبيعته – إلى الابتعاد عن النزاع الذي فرق الأراضي المقدسة ، والاستفادة من هذه الأوضاع لزيادة قوتهم وتدعيم موقفهم في الشرق اللاتينى عن طريق الحصول على مزيد من الأملاك بالشراء أو الهبة أو المبادلة (٤) أو عقد الاتفاقيات التي من شأنها أن تقرر وضعا لصالحهم في منطقة من المناطق (٥) هذا إلى جانب الجهد الذي بذلوه في سبيل التوصل إلى حل نهائي بالنسبة لبعض المسائل المعلقة التي كانت موضع نزاع بينهم وبين بوهيمند الرابع وأيضاً الخلافات القائمة بينهم وبين الداوية .

---

(1) Cf. Estoire D'Eracles : P. 405.
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 550.

(2) Cf. Cartulaire Tome II, No, 2067, PP. 462- 463.
Also: Codice dipl. del Sacro Milit. O. no. CxVI, P. 124.

(٣) أنظر بعض تفاصيل هذا النزاع في :
Estoire D'Eracles : P. 394.
Also: La Monte, J.: Op.cit, PP. 66-67.

(4) Cf. Revue de L'Orinet Latin, Tome III Nos. 239-246, nos. 248-253 PP. 83-85.
Also: Codice dipl. del Sacro Milit. O. nos. XIV_XV. PP. 292-293.

(5) Cf. Rohricht R. Regesta Regni No. 1072, P. 280
Also: Revue de L'Orinet Latin, Tome III No. 247, PP. 83-84.

وبالنسبة لبوهيمند الرابع فإن قرار الحرمان الذي صدر ضده في الخامس من مارس عام ١٢٣٠م – كما سبقت الإشارة – جعله يقبل التفاوض مع الاسبتارية ، ويفيء إلى قرارات التحكيم الصادرة عن جيرولوزان Giroud de Lausanne بطريرك بيت المقدس (١) والتي نصت على أن يتنازل الاسبتارية عن كل الهبات التي أعطاها لهم ريموند – روبن في أمارة إنطاكية باستثناء جبلة وقلعة Chatean de la Vieille ، وفي مقابل ذلك يتعهد بوهيمند بدفع ثمانمائة وثلاث وسبعون بيزنت عن إنطاكية ، وثلاثمائة وستة عشر بيزنت عن طرابلس بصفة ثابتة عن إيراداته في كل من الأمارتين (٢) وقد وافق بوهيمند على تنفيذ هاذين الالتزامين رسمياً بمقتضى وثيقة أصدرها (٣) وسويت بذلك الخلافات بين الطرفين ورفع الكرسي البابوي قرار الحرمان عن أمير إنطاكية في العاشر من أبريل عام ١٢٣٣م ، لكن بوهيمند وافته المنية بعد وقت قصير من صدور هذا القرار (٤) وخلفه بوهيمند الخامس الذي أبقى على العلاقات الطيبة مع الاسبتارية لبعض الوقت ثم دخل معهم في مشاحنات على قلعة مرقيه (٥) مما دعا إلى تكليف البابا جريجورى التاسع بارثلميو Barthelemy أسقف بلنياس بحل الخلاف بين الطرفين في السابع عشر من ديسمبر ١٢٣٣ (٦) وأصدر الأسقف قراره في ٢٢ نوفمبر من العام التالي (١٢٣٤م) بالموافقة على أن تؤول ملكية

---

(1) Cf. Cartulaire Tome II, No, 2000, PP. 427-428.
Also: Cartadel Patriarca de Gerusalemm in cod. dipl . No. CXII, P. 120.

(2) Cf. Cartulaire Idem.

(3) Cf. Ibid, Tome II, Nos. 2001-2002, PP. 428-429.
Also: Carta di oemondo in cod. dipl . no. XCIVI_SCIV, PP. 121-122.
ومجموعة الوثائق الأخيرة تختلف مع الأولي في تحديد تاريخ الوثيقة فترجع الأحداث الأخيرة إلي عام ١٢٣١م وليس ١٢٣٠م .

(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 174.

(٥) تقع قلعة مرقية علي البحر المتوسط بين قلعة المرقب وانطرطوس . أنظر :
R.H.C. Oçc Tome I, P. VII, CXVII.

(6) Cartulaire Tome II, No. 2071, P. 465.

القلعة للجماعة ، مع تأجيل عملية تحديد الخسائر والتعويضات التي طالب بها الاسبتارية لحين استدعاء شهود (١) لكن بوهيمند الخامس لم يوافق على هذا القرار ودام الخلاف بينه وبين الجماعة سنوات طوال ، وصل في بعض مراحله إلى درجة خطيرة (٢) .

أما مشكلة الجماعة الأخرى فكانت المتعلقة بالنزاع مع الداوية وقد لجأ مقدم الاسبتارية جورين إلى تسويتها أيضاً عن طريق التحكيم .

وهذه المشكلة كانت ناشئة عن الهدنة التي أبرمها فرسان القديس يوحنا مع سلطان حلب بخصوص جبلة . فقد كانت هذه المدينة وفقاً لقرار تحكيم أصدره المندوب البابوي بيلاجيوس في ١٥ أكتوبر ١٢٢١م مناصفة بين الجماعتين (الاسبتارية والداوية) (٣) وفي ظل هذا الوضع أثرت قضية ما إذا كان مفروضاً على الداوية الالتزام باتفاقية وقعها الاسبتارية مع سلطان حلب أم لا ؟ وكان قرار البرت ريزاتو Albert Rezato بطريرك إنطاكية والمندوب البابوي في ١٨ يونيو ١٢٣٣م واضحاً إزاء هذه المشكلة . فباعتبار أن الداوية شركاء للاسبتارية في ملكية جبلة ، فإن المشاركة تقتضى أن يكون الداوية على قدم وساق مع الاسبتارية من حيث الالتزام بأية فروض أيان كانت طبيعتها بالنسبة لهذه المدينة . أما فيما يتعلق بصهيون فقد جعل لكل جماعة من الجماعتين الحرية المطلقة في إبرام معاهدات مع المسلمين أو نقضها دون أن تلزم أحداهما الأخرى .

(1) Cf. Ibid, no. 2094, PP. 476-478.
Also: Carta di Bartholommeo in Cod. dipl. No. CXVII, P. 127.

(٢) مزيد من التفاصيل حول جوانب هذا الاختلاف والجهود التي بذلت لانهائه أنظر :
Cartulaire Tome II, No. 2150, P. 306, no. 2184, PP. 522-523, no. 2276, P. 592.

(3) Carta di Pelagio cod. dipl . no. CVII, P. 113.
Also : Cartulaire Tome II, No. 1725, P. 292 & n. 1735, P. 296.

بإتباع شـروط الاتفاقية التي وقعتها (١) .

لكن سرعان ما اشتد الخلاف بين الجماعتين حول استغلال مياه أحد الأنهار (نهر كردانه ـ النعمان) عند عكا ، وتدخل يثيرى – المندوب البابوي ورئيس أساقفة رافنا – في ٢٥ يوليو ١٢٣٥م لحسم الأمر وإيقاف النزاع فيما بينهما (٢) وللحيلولة دون حدوث أية مشاجرات أخرى أصدر البابا جريجورى التاسع في ٢٣ أغسطس من نفس العام قراراً بحرمان الجماعتين ، إذا لم تلتزما بذلك الاتفاق ، محرضاً إياهم على ألا يرفع رجالهم السلاح في وجه بعضهم البعض ، بل عليهم أن يكتلوا جهودهم معاً من أجل قتال المسلمين (٣) .

وقد خشي بوهيمند الخامس على نفسه من استقرار الأمور بين الداوية والاسبتارية في وقت لا زال النزاع فيه محتدماً بينه وبين الجماعة الأخيرة . فكان أن أرسل إلى البابا متهماً الاسبتارية بالتحالف مع الإسماعيلية لتدبير مؤامرات ضده . وكانت حقيقة العلاقة بين الاسبتارية وهؤلاء الباطنية – كما سبقت الإشارة – هو التزام هؤلاء الأخيرين بدفع ضريبة سنوية لفرسان الجماعة (٤) حتى يأمنوا غائلة هؤلاء الفرسان الذين كانوا يتصيدونهم في تلالهم وقد ارتدوا مسوح الحجاج اخفاءاً لمقاصدهم أو نواياهم الحقيقية (٥) وقد حاول المؤرخ أ.ج كينج أن يبرىء الاسبتارية من اتهام التآمر ضد بوهيمند الخامس عن طريق التحالف مع الإسماعيلية ، على أساس أن هؤلاء الأخيرين كانوا قبل

---

(1) Cf. Ibid, no. 2058, PP. 455-457.
Also: Carta di Alberto Patriarca di Antiochia in Cod dipl. No. CXV, P. 123.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2117, PP. 486-487.
(3) Cf. Ibid, no. 2120, P. 489.
(٤) تقدر هذه الضريبة بألف ومائتا دينار ومائة إردب من القمح والشعير .
Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 130.
Also: La Montem J.: Op.cit, P. 223.
(5) Cf. Lamb, Harold, The Crusades, The Flame of Islam. P. 277.

ذلك الوقت على علاقة بالجماعة من خلال الضريبة السنوية التي كانوا يؤدونها لاسبتارية حصني الأكراد والمرقب ، ومن ثم أوحت هذه العلاقة إلي البابوية بصحة هذا الاتهام (١) لكن آخرين من المؤرخين المحدثين أكدوا أن الاسبتارية تحالفوا في عام ١٢٣٦م مع الإسماعيلية ضد أمير إنطاكية (٢) وقد دفع ذلك البابا جريجورى التاسع إلى أن أرسل في العشرين من أبريل من نفس العام إلى كل من رئيس أساقفة صور وأسقفي صيدا وبيروت ينتقد تعامل الاسبتارية مع " ملحدين من المسلمين " - بقصد الحشيشية - ضد " أمير مسيحي " - وهو بوهيمند الخامس - ويطلب منهم الإيعاز إلى الجماعة بالابتعاد عن هذا المسلك ، مهدداً أعضاؤها بالوقوع تحت طائلة الحرمان إذا لم يحولوا بين أنفسهم وبين تحالف من هذا القبيل (٣) ويبدو أن الاسبتارية كانوا في بعض الأحيان إن لم يكن معظمها يؤثرون مصالحهم الخاصة على الإصغاء إلى التعليمات أو الأوامر البابوية ؛ فقد أرسل إليهم نفس البابا في الثالث عشر من مارس ١٢٣٨م مرسوماً شدد فيه الأمر بأن يصلحوا طرق حياتهم ونظام مستشفاهم في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ، كما حمل رئيس أساقفة صور مسئولية مراعاة تنفيذ الجماعة لهذه الأوامر (٤) مما يؤكد أيضاً خروج الاسبتارية عن المسار الأساسي الذي وضع لهم كأعضاء في جماعة رهبانية ، وانغماسهم في حياة الرفاهية والأطماع .

---

(1) Cf. The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, P. 216.
(2) Cf. La Montem J.: Op.cit, P. 223
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 547
(3) Cf. Cartulaire Tome II, No. 20149, PP. 505-506.
(4) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2186, PP. 523-524.

وفيما يتعلق بدور الاسبتارية في خدمة الوجود الصليبي في الشام ، تشير إحدى وثائق الجماعة إلى أن هناك اتصالات بأمراء الغرب وكونتاته بدأت منذ عام ١٢٣٣م – وربما قبل ذلك – من أجل أنفاذ حملة صليبية لنجدة الأراضي المقدسة ، فقد كان بريور الاسبتارية في بيت المقدس ويدعى سيكونيس Sequinus (١٢٠٦-١٢٤٨) (١) من المكلفين بالتحقق من معرفة ما إذا كان هنرى الثاني كونت شامباني راحل إلى الأراضي المقدسة ، أو أن تيبو الثالث Thibault III هو الذي سيخلفه في القيام بهذه المهمة (٢) .

ويذكر متى الباريزى أنه في عام ١٢٣٧م عندما علم اسبتارية الغرب الأوربي بأحوال "إخوانهم" السيئة في الشرق أخذوا يعدون أنفسهم من أجل الانتقام " لدماء إخوانهم التي سفكت دفاعاً عن المسيح " ثم أرسلوا ثودريك Theodoirc بريور الجماعة في إنجلترا بمجموعة من الفرسان الاسبتارية ومبلغ ضخم من المال مساعدة للمقيمين منهم في الأراضي المقدسة . كما يعطينا هذا المؤرخ وصفاً للأسلوب الذي كان متبعاً لدى المراكز التابعة للجماعة في الغرب الأوربي في تجهيز مدد لمقرهم الرئيسي بالشام ، إذ يضيف بأنه بعد أن انتهى الاسبتارية من كافة الترتيبات رحلوا من مقرهم في كلير كينول Clerkenwell بلندن " وتقدموا حاملين علمهم والأسلحة والدروع مخترقين وسط المدينة حتى الجسر كى يتمكنوا من الحصول على مباركة المشاهدين وكانوا يحنون رؤوسهم تحية للجميع " (٣) والغرض الخفي وراء هذا الأسلوب كان – فيما يبدو للباحث – السعي وراء

(1) Cf. Les Archives, P. 215.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2094, P. 453.
(3) Cf. Matthew of Paris, Vol. I, PP. 63-64.

الشهرة والمكانة الرفيعة لدى الرأي العام الأوربي من خلال ما يمكن أن يسمى " بالدعاية " لجماعتهم ، وإظهار مدى اهتمام أعضائها في الغرب والشرق بأحوال الأراضي المقدسة موضع تقديس مسيحي الغرب . والنتيجة المترتبة على ذلك معروفة وتتمثل في مزيد من الهبات والمنح والامتيازات من قبل العلمانيين والاكليركيين على حد سواء . ونظرة فاحصة إلى مجموعة من الوثائق الصادرة بهذا الشأن (١) تؤكد حقيقة هذا التفسير ، إذ أن معظمها يشير صراحة إلى سبب تقديم العطاء أو المنحة أو الامتياز ويكاد يكون واحداً وهو دفاع الجماعة عن الأراضي المقدسة واهتمامهم بأمر ما يسمى " القضية المسيحية " . وقد نجم ذلك بلا شك عن نجاح فرسان القديس يوحنا في التمكن من العقول المعاصرة بالقدر الذي وضعهم في مكانة " المدافعين الشجعان " عن اللاتين الكاثوليك ضد المسلمين .

وقد كان برتراند دى كومب Bertrand de Comps مقدم الاسبتارية (سبتمبر ١٢٣٦م - أبريل ١٢٣٩م) من بين من كتبوا في السادس من أكتوبر عام ١٢٣٨م إلى كل من ثيبو الرابع Thibant IV كونت شامبانى وملك نافار وجى الرابع Guy IV كونت نيفر Comted nevers وعمورى كونت مونفورت Monfort وروبرت الأول كورتناى ، ودريو دى ميللو Drewx de Mello مبينين لهم الإجراءات المتبعة بشأن رحيل النجدات المعدة ، والتي خصصت للأراضي المقدسة (٢) فاجتمع هؤلاء النبلاء " الذين حملوا الصليب " في مدينة ليون بفرنسا في أوائل عام ١٢٣٩ لتقرير الترتيبات اللازمة لرحيلهم إلى الشرق . وهناك أتاهم مبعوث من البابا يحثهم على المبادرة بالخروج في حملة صليبية " آمراً إياهم أن يذهب كل إلى بيته ويعود على الفور ، وقد هيأ

(1) Cf. Cartulaire Tome II & III Passim.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2211, P. 535.

نفسه لمغادرة البلاد " . وفي نفس الوقت وافتهم رسل الإمبراطور فردريك الثاني " توجه النصح إليهم بألا يذهبوا إلى الشرق بدون توجيه وحضور الإمبراطور بنفسه " مما كان سبباً في اختلاف الرأي بينهم دون أن يصلوا إلى قرار موحد . فمنهم من ذهب إلى ميناء مرسيليا في انتظار السفن المبحرة في أقرب وقت إلى الأراضي المقدسة ، بينما تجمعت أعداد ضخمة منهم في جزيرة صقلية حتى فصل الربيع على أمل وصول رؤسائهم ، وتقدم آخرون صوب الساحل عند برنديزى بناءاً على وعد من الإمبراطور باللحاق بهم (١) .

على آية حال ، وصلت الارصاصات الأولي من هذه النجدات إلى عكا في أوائل سبتمبر عام ١٢٣٩م بقيادة ثيوبولد الرابع كونت شامبانى وملك نافار حيث استقبله هناك مقدم الاسبتارية وأساقفة وبارونات المملكة الصليبية ورؤساء الجماعات الرهبانية الأخرى . وبعد فترة من الوقت استغرقت في مجادلات بين ممثلي الجموع الصليبية المختلفة تقرر السير جنوباً للحاق بوالتر كونت بريين Walter de Brienne (أحد أتباع ثيبو) في يافا ، وكان ذلك في اليوم الثاني من نوفمبر . وأمد الفرسان الاسبتارية هذا الحشد بمجموعة من قواتهم . وهناك اقترح كونت يافا على الصليبيين القيام باستعادة مدينة عسقلان وترميم تحصيناتها . وقد اقتنع الجميع بهذا الرأي وقرروا تنفيذه (٢) ومن المحتمل أن يكون الاسبتارية قد أسهموا بدور كبير في سبيل التوصل إلى هذا القرار ، خصوصاً وأنهم كانوا يملكون في هذه المدينة وما حولها بعض المنازل والاقطاعات إلى جانب ذلك الحصن الذي سماه ابن شداد " برج الاسبتار " (٣) وهي القلعة التي عهد إليهم بحراستها فيما بعد الإمبراطور

---

(1) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, PP. 234-235.
(2) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, PP. 413-414.
Also: Rothelin (Dite du Manuscrit) in R.H.C.Occ. Tome II, {. 539.
(٣) انظر : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٨٨ .

فردريك الثاني وابنه كونراد (١) ويذكر روتلان أنه أمام عسقلان طلب ملك نافار من الاسبتارية والداوية وغيرهم إتباع الطريق السلمي والدخول في مفاوضات بشأن شروط الصلح (٢) .

وعندما علم العادل الثاني أبو بكر الذي كان سلطانا على مصر حينذاك (١٢٣٨-١٢٤٠م) بتحرك الجيش الصليبي صوب الجنوب بادر بإرسال قوة كبيرة من مصر إلى غزة للدفاع عن عسقلان (٣) فاندفعت جماعة من الصليبيين لشن هجوم على غزة بعد أن أثار حميتهم نبأ نجاح دوق برجاندى في إغارة له على قافلة إسلامية محملة بالبضائع ومتجهة نحو دمشق ثم عودته محملاً بالغنائم ، وذلك دون أن يعبأوا بنصائح كونت يافا وتوجيهاته لهم بالتوقف واتخاذ الحذر مشيراً إلى الكوارث التي ألمت بمن أغاروا منهم على المناطق القريبة من دمشق (٤) كما أهملوا أيضاً احتجاجات قائدهم ملك دافار (٥) فغادروا يافا في الثالث عشر من نوفمبر (١٢٣٩م) وبمجرد عبورهم حدود الكونتيه وجدوا أنفسهم في نفق محاط بتلال فقرروا التوقف لتناول الطعام دون أن يتخذوا الحيطة الواجبة فباغتهم المسلمون الذين خرجوا إليهم من غزة على غرة (٦) وانتهت الموقعة بتمزيق تلك القوة الصليبية على يد المسلمين على مقربة من غزة " وقتل منهم ألف وثمانمائة ولم يقتل من المسلمين غير عشرة " ، كما أسر بعض الزعماء الصليبيين وأمراؤهم فضلاً عن مائتان وخمسون راجلاً سيقوا إلى القاهرة (٧) وكان من جملة الأسرى بطرس دى فيلبرايد

---

(1) Cf. Diploma di Corrade Re di Romani in Cod. dipl. No, CXI P. 118.
(2) Cf. Rothelin : Op.cit, PP. 547-548.
(٣) أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٠٣٥.
(4) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, P. 272.
(5) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 476.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 222.
(6) Cf. Les Gostes des Chiprois : Op.cit, P. 726.
(٧) أنظر : أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٧٠ .
أيضا : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٠٣٦ .
والجدير بالملاحظة هم أنه في أنشودة لأحد هؤلاء الأسري الموجودين طرف السلطان القاهرة ويدعي فيلب نانتويل Phelipes de Nantueil - كما اوردهخا روتلان - إشارة إلي أن الاسبتارية والداوية ضربوا مثلا للفروسية آنذاك في نظر الصليبيين ورجال الغرب الأوربي .

Pierre de Veill-Bride مقدم الاسبتارية (مايو ١٢٣٩- ١٨نوفمبر ١٢٤١م) وبعض فرسان الجماعة (١) أما من نجوا من المعركة فقد ولوا فراراً ، والمسلمون يتعقبونهم حتى قابلوا جيش الصليبيين الرئيسي والذي تحرك بعد أن علم بأنباء هذه الهزيمة ، مما اضطر القائد المصري ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي ، إلى العودة متحاشياً الدخول في حرب مباشرة مع هذا الجيش الضخم . وإثناء انسحابه كان ثيوبولد اف شامباني ميالا على مطاردته ، لكن الاسبتارية – يؤيدهم الداوية – أشاروا عليه بالعدول عن ذلك ولفتوا نظره إلى احتمال لجوء القوة الإسلامية في هذه الحال إلى قتل الأسرى الذين بأيديهم ، ومن بينهم مقدم الجماعة ، فوافق نيوبولد على إتباع نصيحتهم وقفل عائداً إلى عسقلان ، ثم اتخذ طريق الساحل إلى يافا لبلوغ عكا . وقد نظر بعض رجال الحملة إلى هذه النصيحة على أنها تقاعس أو رفض من جانب الاسبتارية والداوية عن مساعدة الفرنسيين في هذه الأزمة . ويبدو ذلك بوضوح في خطاب أرسله ايرل مونتفورت Earl of Montfort إلى زوجته كي تبعث به إلى الايرل ريتشارد قائد الحملة الإنجليزية المزمعة (٢) وأعطى بعض المحدثين موقف الجماعتين تفسير آخر هو أن تحريض أعضائهما للصليبيين على الانسحاب وعدم مطاردة المسلمين كان اهتمام من جانب الاسبتارية والداوية بمصالحهم الخاصة ، وميلهم العام إلى تحاشي الصدام مع المسلمين ، بعد أن جعلتهم التجارب الطويلة يحترمون بعمق قدرات المسلمين الحربية ، بالإضافة إلى نظرتهم البعيدة في أن تعقب الجماعة الإسلامية بعد تهورا بالغا فليس هناك ما يدعو إلى المخاطرة بجيش كبير من أجل أمل مبهم ،وهو إنقاذ عدد من

(1) Cf. Les Archives, P. 211.
Also: Stevenson, W.: Op.cit, P. 318.
King E.J. : Op.cit, P. 222-223.
(2) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, P. 273.

الأسرى ، ثم يضيف أن هؤلاء الأسرى بعد إطلاق سراحهم لاموا الجماعتين على هذا الموقف (١) وكان ذلك بالطبع من قبيل الاستجداء لأي فرصة تفك عنهم قيد الأسر ؛ فظنوا أنه كان في فكرة مطاردة الجماعة الإسلامية ما يحقق لهم هذا الغرض دون أن يحسبوا حساباً لأية مخاطر مترتبة .

وفي هذا الصدد يميل الباحث إلى القول بأن الاسبتارية كانوا يتصرفون في هذا الموقف من واقع فهمهم الصحيح للأوضاع في بلاد الشام ، وأساليب المسلمين في القتال ، والتي في موقف كهذا لو طاردهم الصليبيون من الممكن أن يستديروا لهم ويطوقوهم – كما هو معروف لديهم من خلال مناسبات سابقة – هذا إلى جانب حرصهم على مصالحهم المرتبطة أحيانا بالعلاقات مع المسلمين ورغبتهم في الحفاظ على حياة أسراهم ومن بينهم المقدم بطرس دى فيابرايد أهم الشخصيات البارزة في الجماعة .

كيفما كان الأمر ، فقد كانت وفاة السلطان الكامل في عام ١٢٣٨م (٢) نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها (٣) وحدث في نهاية عام ١٢٣٩م أن استطاع الصالح إسماعيل استرداد دمشق التي كان أخوه السلطان الكامل قد طرده منها وأن يطرد بدوره ابن أخيه الصالح أيوب من المدينة (٤) وظل الصالح إسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ – ١٢٤٥م) في حين وقع الصالح

(1) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 477.

(٢) ذكر المعاصرون عن السلطان الكامل انه اشتهر بالتسامح والكرم مع الصليبيين إلي حد انه كان ينفق مبالغ طائلة علي مرضاهم المقيمين في مستشفي بيت المقدس ويستضيف غرباؤهم أنظر : Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, PP. 129-130.

Also: Golubovich, P.G: Bio-Bibliografica della terra Santa e dell'Oriente Francescono, P. 101.

(٣) أنظر : سعيد عاشور المرجع السابق ص ١٠٣١ .

(٤) أنظر : أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٦٩ .
أبو الفدا : المختصر

أيوب في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك حتى أطلق الأخير سراحه واتفق معه على القيام بحملة ضد مصر لانتزاعها من السلطان العادل الثاني (١) الذي كان أمراؤه قد استاءوا منه " لكثرة تحجبه واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة " (٢) فقبضوا عليه في نهاية مايو ١٢٤٠م وعزلوه واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب – ابن الكامل – الذي دخل القاهرة في التاسع عشر من يونيه من نفس العام ليصبح سلطاناً على مصر (١٢٤٠ – ١٢٤٩م) (٣) وهذا التحول المفاجئ كان مضايقا لسلطان دمشق الصالح إسماعيل ، فالرجل الذي طرد من دمشق أصبح حاكماً على مصر (٤) ولم يلبث أن دب النزاع بين الصالح أيوب من جهة وعمه الصالح إسماعيل من جهة اخرى وشارك فيه بقية أفراد البيت الأيوبي في الشام – مثل ملوك حمص وحماه والأردن – مما أوقع الدولة الأيوبية في حالة من الفوضى (٥) .

وفي ظل هذا الوضع قرر سلطان دمشق محالفة الصليبيين " وسألهم نجدة له على صاحب مصر وأوعدهم إعادة ما أخذ من السواحل " وقد اجتمع ممثل الملك الصالح إسماعيل " بمقدم الداوية وبملوك الفرنج " (٦) وعقد معهم صلحاً تعهد فيه الصالح أن يسلمهم بيت المقدس وصيدا وبيروت على أن يكون القدس مناصفة " واستقر للفرنج صفد وطبرية

(١) أنظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٠ .
(٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٧٥ .
(٣) أنظر المصدر السابق ص ٢٩٥ .
(4) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 479.
(٥) أنظر : سعيد عاشور المرجع السابق ص ١٠٣٢-١٠٣٣ .
(٦) أنظر : ابن دقماق : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، مخطوط مصور ، لوحة ٤٦-٤٧ .
Also: Las Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 727.

وهونين " (١) كما مكنهم من دخول دمشق لابتياع السلاح فشق ذلك على المسلمين " (٢) وأوضح مقدم الداوية في خطاب لـه إلى بريور جماعته في إنجلترا أن سلطان دمشق وقع معهم المعاهدة ، وأعاد إليهم هذه الأراضي ليس خوفاً من الصليبيين " ولكن بتدخل اعجازى من الرب " فأعاد إلى " المسيحية " كل الأراضي من نهر الأردن حتى الساحل مقابل الدفاع عن أراضيه ضد سلطان مصر ، وأيضاً الا توقع صلحاً مع هذا الأخير دون موافقة سلطان دمشق . ويضيف مقدم الداوية أنه على الرغم من ذلك فقد قوبلت هذه العروض بالرفض (٣) .

وفي مقدمة الرافضين لهذه المعاهدة كان الاسبتارية بقيادة قائدهم الأعظم وليم دى سنيل William de Senlis (١٢٤٠ – ١٢٤٥م) (٤) فقد فضلوا الاتفاق مع مصر من أجل إطلاق سراح أسرى غزة ، ومن بينهم مقدم الجماعة (٥) هذا فضلا عن شعورهم بأنهم أهملوا في المعاهدة مع سلطان دمشق ، بينما حصل الداوية بمقتضاها على إحدى قلاعهم العظمى وهي صفد (٦) لذا ركز الاسبتارية جهدهم في عمل ترتيبات مع الصالح نجم الدين أيوب – سلطان مصر – لأنه في رأيهم من الممكن أن يسترد دمشق ، وفي جميع الأحوال فالنتيجة المؤكدة هي إطلاق سراح أسراهم وعلى رأسهم بطرس دى فيليبرايد . وقد وجد الاسبتارية مؤيدين لسياستهم هذه في الجيش الصليبي

(١) ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ٣٧٧- ٣٤٥، ٣٤٧ .
Also: Rothelin : Op.cit, PP. 552-553.
(٢) ابن دقماق : المخطوط السابق لوحة ٤٩ .
(3) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, P. 303.
(4) Cf. Les Archives, P. 212.
وقد ذكر هذا الاسم هكذا Guillelnus Silvanectensis
(5) Estoire d'Eracles: Op.cit, PP. 4198.420.
Also: Las Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 727.
(6) Cf. Setton, K.M.: Vol. II, P. 479-480.

على راسهم ملك نافار الذي سرعان ما غير رأيه إزاء الاتفاق مع سلطان دمشق حتى أن كل من رغبوا في التحالف مع هذا الأخير تركوا المعسكر في يافا وعادوا إلى عكا ؛ وعلى اثر ذلك نشب صدام سافر بين الاسبتارية والداوية (١) .

وقد نجح الاسبتارية في اقناع ثيوبولد بالعمل على التقرب من سلطان مصر . وفي الحال تم التوصل إلى اتفاق مع الملك الصالح ووقعت الهدنة بشرط إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وبذل الأراضي والمدن التي كان قد وعدهم بها منافسه سلطان دمشق (٢) ورغم ذلك لم توضع الترتيبات الخاصة بتنفيذ هذه المعاهدة ، ورحل ثيوبولد في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٢٤٠م / رابع ربيع الأول ٦٣٨هـ عائدا إلى الغرب قبل وصول ريتشارد أف كورنوول Richard of Cornwall بخمس عشرة يوما (٣) .

وعندما وصل ريتشارد إلى الأراضي المقدسة في الثامن من أكتوبر / تاسع عشر ربيع أول كان مصطحباً معه ثيودريك Theodoric بريور الاسبتارية في إنجلترا والذي ظل ملازماً له في إعداده لهذه الحملة في بلاجه ، كما رافقه طوال طريق الرحلة إلى الشرق كصديق ومرشد (٤) مما يشير إلى ذلك الدور الذي كانت تلعبه الجماعة على الجانب الآخر من البحر المتوسط ويتمثل في مشاركتها الفعالة في تجهيز الحملات الصليبية في الغرب الأوربي ، ثم استخدام ما لديها من خبرات وتجارب في إرشاد هذه الحملات وهي في طريقها إلى السواحل الشامية . هذا إلى جانب

(1) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 223.
(2) Cf. Rothelin : Op.cit, PP. 554
(3) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, P. 364.
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 480.
(4) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, P. 287.

المساعي التي كان يبذلها ممثلي الاسبتارية لدى الباباوات وملوك الغرب وباروناته من أجل وإنفاذ هذه النجدات الحربية إلى الأراضي المقدسة .

على أية حال ، قابل أسطول ريتشارد أف كورنوول رسل من صليبي الشام يحملون أنباء الصلح مع سلطان دمشق ، فأخبرهم ريتشارد أنه على هذا السلطان " أن يكون مستعداً لتقبل مراسم التعميد " (أي الدخول في المسيحية) (١) مما يدل على أن الأمير الإنجليزي كان متشدداً في شروط الصلح قبل وصوله إلى الشام . وعندما وصل إلى عكا اتخذ من دار الاسبتارية هناك مقراً له ودون أن يأبه للنزاع القائم بين الجماعتين (الداوية والاسبتارية) فيما يتعلق بمبدأ الصلح مع المسلمين ، اكتفى بأن أغراهما على توحيد جهودهما معه من أجل تحصين عسقلان (٢) .

ويبدو أن الحالة السيئة التي كانت عليها الأراضي المقدسة عند وصول الأمير الإنجليزي إليها كما شرحها في مقدمة خطاب له بعث به إلى انجلترا ، جعلته يغير رأيه المتشدد ويبادر بطلب الصلح على أساس العروض التي قدمها سلطان دمشق ولم ينهها يثبوا أف شامباني (ملك نافار) ، فاتصل ريتشارد فور وصوله عكا بالناصر داوود صاحب الكرك في هذا الشأن وأخبره الناصر بموافقته على الصلح ، مبيناً أنه ليس في مقدوره تنفيذ ذلك على الفور ، مما جعل ريتشارد يولى وجهه شطر يافا (٣) وهناك وافته رسل الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر تحمل إليه " رغبة السلطان في توقيع هدنة معه " فوافق مصغياً إلى نصيحة قائد الاسبتارية الأعظم ومن أيدوه من الكونتات والدوقات على قبول شروط الهدنة رغم إحساسه – كما أشار في خطابه – بأن هذا الأمر بدا من

(1) Cf. Ibid, P. 303.
(2) Cf. Estoire d`Eracles: Op.cit, P. 241.
Also: Las Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 728.
(3) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. I, P. 363-365.

الصعب إنجازه عند وصوله إلى الأراضي المقدسة (١) وفي الثامن من فبراير عام ١٢٤١م الثالث والعشرون من رجب ٦٣٨هـ وقع سلطان مصر مع قائد الحملة الإنجليزية معاهدة سلام تضمنت شروطها ، وفقاً لما ورد في خطاب رينشارد ، إعادة كوكب وبيت جيرين وكل القرى التي كانت تابعة لاسبتارية القديس يوحنا إلى أعضاء هذه الجماعة ، وأيضاً كل ما هو معلوم أنه خاص بهم من المنازل والأراضي على الطريق الموصل من بيت المقدس إلى بيت لحم ، ومن بيت المقدس إلى القديس جورج في رام الله (راما) ، ومن القديس جورج إلى يافا . هذا إلى جانب ما ترتب على توقيع هذه المعاهدة فيما يتعلق بإطلاق سراح أسرى غزة (٢) وهو الأمر الذي – كما يرى البعض – يهم كثيراً جماعة الاسبتارية (٣) .

وما أن تم الانتهاء من وضع الترتيبات الخاصة بالمعاهدة حتى شق رينشارد طريقه صوب عسقلان . وهناك قام بتحصين قلعتها الضخمة بناءاً على نصيحة القادة الصليبيين الذين صحبوه وفي مقدمتهم قائد الاسبتارية ومقدمهم بالنيابة . وأثناء تنفيذ هذا العمل أرسل إلى سلطان مصر يطلب منه عهدا على الالتزام ببنود الهدنة ، فأطلق السلطان سراح الأسرى الصليبيين ومن بينهم عديدين من الاسبتارية والداوية (٤) وقد وصل هؤلاء الأسرى عكا وفي مقدمتهم بطرس دى فيليب برايد مقدم الاسبتارية في الثالث والعشرين من أبريل

---

(1) Cf. Ibid, P. 365.
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 552.
(2) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, P. 366.
(3) Cf. Stevenson, W.: Op.cit, P. 318.
(4) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, P. 366-368.

عام ١٢٤١(١) وبعد ذلك بعشرة أيام أي في الثالث من شهر مايو رحل ريتشارد ايرل أف كورنوول من ميناء عكا عائداً إلى بلاده (٢) .

وبعد رحيله دخل صليبو الشام مرحلة جديدة من مراحل تاريخهم بالأرض المقدسة اتصفت باشتداد تيار المنازعات والحروب الأهلية فيما بين بعضهم البعض وبخاصة بين الاسبتارية والداوية (٣) وقد حرصت الجماعة الأخيرة في هذا النزاع على خرق الهدنة لأنهم كانوا المعارضين الوحيدين لها ، كما واصلوا اعتداءاتهم على الاسبتارية الذين كان لهم دور رئيسي في توقيعها (٤) فتحالف الداوية مع قوات الصالح إسماعيل سلطان دمشق وخرجوا لمهاجمة الحدود المصرية (٥) من قبيل العمل على فشل المعاهدة على أساس أنه من المستحيل بقاء الاسبتارية لدى سلطان مصر على وضع السلام وهو في حالة حرب مع الداوية (٦) .

ويبدو أن هذه المحاولات من جانب الداوية لم تنجح في إفساد علاقة الاسبتارية بمصر فاتجهوا في الوقت ذاته إلى صدام مباشر مع هؤلاء الأخيرين بأن حاصروا منزل الجماعة في عكا وأغلقوه ، كما منعوا الفرسان الاسبتارية من أن يحملوا موتاهم إلى خارجه ، أو يزودوه بالمؤن (٧) وفي تلك الأثناء أراد المارشال ريتشارد فيلانجيرى – مندوب الإمبراطور فردريك الثاني في

---

(1) Cf. Stevenson, W.: Op.cit, P. 320.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 185.
(2) Cf. Ibid, Idem.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 224.
(3) Cf. Stevenson, W.: Op.cit, P. 320-321.
(4) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, P. 386.
(٥) أنظر ابن دقماق : نزهة الأنام لوحة رقم ٥٠.
(6) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 224.
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 553.
(7) Matthew of Paris: Vol. I, P. 386-456.
Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 553.

الشام – أن يستغل هذا النزاع في إعادة فرض نفوذ الإمبراطور على الإمارات الصليبية في الشرق فانحاز إلى جانب الاسبتارية ضد الداوية (١) عندما وجد أن فرسان القديس يوحنا يؤيدون سياسة التحالف مع مصر ، وهي السياسية نفسها التي اتبعها من قبل فردريك الثاني (٢) ثم خرج من صور في ربيع عام ١٢٤٣م قاصداً عكا للاستيلاء عليها بمساعدة الاسبتارية (٣) لكنه فشل في تحقيق هذا الغرض وانتهى الأمر بعودته إلى إيطاليا ليزول آخر ظل للنفوذ الإمبراطوري في بلاد الشام (٤) بينما بقى الصليبيون غارقين في أتون الفوضى دون رئيس أو ملك يسوس أمورهم (٥) وخلال الوقت الذي كانت تحاك فيه مؤامرة الاسبتارية والمندوب الإمبراطوري ضد مدينة عكا كان مقدم الجماعة بطرس دى فيليبرايد ومجموعة من فرسانه في مجاورات المرقب يخوضون حرباً محلية ضد سلطان حلب ، وعندما عادوا من المرقب إلى عكا رفض البارونات الصليبيين رفع الحصار عن مقر الجماعة أو السماح لهم " بدخوله إلا بعد أن أعلن المقدم استنكاره للمؤامرة ، وكل من اشتركوا فيها (٦) .

وفي وسط هذه الفوضى الضاربة إطنابها في أرجاء المملكة الصليبية أرسل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ – ١٢٥٤م) في الخامس من أغسطس عام ١٢٤٣م إلى مقدم الاسبتارية والأساقفة ورؤساء الجماعات الدينية الأخرى وغيرهم يحثهم على المبادرة بترميم أسوار مدينة

---

(1) Cf. Las Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 710.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 186.

(٢) انظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٠٤١ .

(3) Setton, K.M. Vol. II, Idem.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 225.

(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 187.

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٠٤٢ .

(6) Cf. Las Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 729-730.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 186-187.
King E.J. : Op.cit, P. 225.

بيت المقدس ، في وقت ساد عدم الوفاق فيه بين السلاطين المسلمين (١) وكان البابا بلا شك مدركا للفوائد الناجمة عن استغلال هذا الظرف الأخير ، الأمر الذي أغفله صليبيو الشام وانشغلوا جميعا في السعي من أجل تحقيق مصالح وأطماع شخصية أبعدتهم كثيرا عن الفكرة الصليبية التي حرصت البابوية على الحفاظ عليها دون جدوى ، خصوصا وأنها كانت همزة الوصل في جمع شعوب مختلفة الأجناس على هدف واحد . وقد أوقعت هذه الانقسامات لاتين الشرق تحت رحمة أي خطر وشيك الظهور .

وكان أن اسند الإمبراطور فردريك الثاني في الحادي والثلاثين من أغسطس (١٢٤٣م) إلى الاسبتارية مهمة حراسة قلعة عسقلان (٢) ثم أقر لهم ذلك بمقتضى عدة مراسيم ابنه الإمبراطور كوزاد الرابع (٣) وأصبح للجماعة بذلك مقرا حربيا على مقربة من الحدود مع مصر ، والتي كان اعضاؤها حريصين على الدخول مع سلطانها في معاهدات من شأنها أن تحقق لهم أغراض شخصية أو أطماع قديمة .

ولم تلبث سياسة الاسبتارية هذه أن انهارت بينما قيض النجاح لتلك الخاصة بالداوية عندما وافق القادة في أوائل عام ١٢٤٤م على عروض الملك الصالح إسماعيل سلطان دمشق وهو أن يحصل "الفرنج" على كل فلسطين فيما عدا مقاطعتي نابلس ، والحبرون وبيسات للناصر داوود صاحب الكرك نظير تحالفهم معه (٤) ولحرص الداوية على التمسك بالسياسة التي يميلون إليها أخذ

(1) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2300, P. 605.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2301, PP. 605-606.
(3) Cf. Ibid No. 2308 PP. 608-609.
No. 2319 P. 614.
Ibid no. 2320, P. 615. انظر كذلك الوثيقة الخاصة بتسليم القلعة
(٤) أنظر ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٤ حيث أشار إلي هذا التحالف بقوله " أما الصالح إسماعيل فانه سير إلي الفرنج يطلب منهم النجدة ، واتفق الحال بينه وبين الفرنج أن تكون مصر والشام بالمساواة بينهم "
Also: King E.J. : Op.cit, PP. 230-231.

مقدم هذه الجماعة في خطاب له إلى الغرب الأوروبي يعدد مزايا التحالف مع سلطان دمشق ، على أساس مراعاة هذا الأخير للعهود مع "المسيحيين " بخلاف ما يفعله سلطان مصر ، الذي لا يلتزم بأي هدنة (١) وحقيقة الأمر هو أن سلاطين مصر بصفة عامة كانوا قد دأبوا على الجنوح إلى سياسة المهادنة مع الصليبيين ريثما تتهيأ ظروفهم لتوجيه ضربة قوية نحو أعدائهم يتمكنون بها من استرداد ما يستطيعون من الأراضي والبلاد ، فإذا ما تهيأ لهم ذلك تنصلوا بالفعل من الالتزام ببنود أي هدنة في سبيل تحقيق هدفهم الأسمى وهو طرد الصليبيين كلية من بلاد الشام ، ورغم أن سياسة الداوية إزاء سلاطين دمشق كانت مناقضة لرغبة الاسبتارية ، فان هؤلاء الأخيرين لم يتراجعوا عن العمل بوصية البابا انومنت الرابع ، واشتركوا مع منافسيهم في تحسين مدينة بيت المقدس دون التفات إلى ما بينهما من نزاع وخلاف (٢) .

ويصف متى الباريزى الشعور الغربي الكاثوليكي إزاء الاسبتارية والداوية في هذه الفترة بقوله :

" أصبحت لكل من الجماعتين سمعة سيئة لأن أعضائها كما كان متداولا عنهم – كثيرا ما يخلقون صداما بين المسيحيين والمسلمين من أجل أن يحصلوا أثناء الحرب على الأموال من الحجاج القادمين من كل مكان ، هذا بالإضافة إلى ما كان مترتبا على الخلاف فيما بينهم ، وأيضا رغبتهم في السيطرة على شخص الإمبراطور ، والأكثر من ذلك فان للداوية في العالم المسيحي تسعة آلاف دائرة اقطاعية ، وللإسبتارية تسع عشرة دائرة ، إلى جانب المكاسب والإيرادات المتنوعة لجماعاتهم ومراكزهم في الغرب الأوروبي ، وكل ما من شأنه أن ضاعف امتيازاتهم بحيث أن كل دائرة من هذه الدوائر الإقطاعية كان ممكنا أن تجهز دون استدعاء جندي مسلح كامل الإعداد من أجل إنقاذ الأراضي المقدسة ".

(1) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, PP. 482-483.
(2) Cf. Ibid, Vol. II, P. 478.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 231.

لذلك فإن المسيحيين لتأثرهم بمثل هذه الأوضاع كانوا يعتقدون أنهم (أي الاسبتارية والداوية) يظهرون حقيقة أمرهم دائما بطرق خادعة ، ولديهم من حيل الذئاب ما هو مستتر في رداء حمل وديع ، لأنه لولا ما يملكون من الخداع والحيلة لكان ممكنا بالنسبة لعديد من فرسان الغرب الشجعان أن يقتحموا صفوف الشرقيين بأجمعهم ويوقعوا بهم شر الهزيمة (١) .

ويبدو أن ذلك كان انعكاسا للسخط الذي عم أرجاء العالم الكاثوليكي الغربي إزاء الأوضاع المنهارة في الأراضي المقدسة ، والناجمة عن الحروب الأهلية بين جموع الصليبيين المختلفة ، مما يجعلها مهددة بأن يقضي عليها نهائيا على اثر ضربة قوية إسلامية متحدة . وكان طبيعيا أن يوجه اللوم إلى أهم عناصر المملكة الصليبية المحاربة وهم الاسبتارية والداوية ، ومبعث ذلك أن الجماعتين حصلتا على الكثير من الأموال والامتيازات مقابل الواجبات الملقاة على عاتقهم والمتمثلة في الدفاع عن الأراضي المقدسة وخدمة ما يسمى " بالقضية المسيحية " ، وبالرغم من ذلك فقد أعطوا مصالحهم الشخصية أولوية مطلقة على هذه الواجبات إلى جانب أنهم انغمسوا في خلافات داخلية مع بعضهم البعض ، كما اصطدموا بالسلطة المركزية المتمثلة في شخص الإمبراطور أو الملك في محاولين إضعافها ، مما أوقع بالمملكة اللاتينية أضرارا بالغة أوصلتها بطريق مباشر أو غير مباشر إلى حالة من الفوضى والاضطراب .كما أن احتفاظ الاسبتارية والداوية بالجانب الظاهري في أداء واجباتهم كان – كما اعتقد المؤرخ في النص السابق – مدعاة إلى احتكارهم تقرير الكثير من الأمور المتعلقة بالحرب مع المسلمين ، وفي نفس الوقت أوصدوا الباب أمام طوائف أخرى من المحاربين كان من الممكن أن تكون أكثر إخلاصا لقضية الصليبيين في الشرق اللاتيني ولا يعني ذلك أن الاسبتاريه كانوا في الأربعينات من القرن الثالث عشر قد تخلوا كلية عن

(1) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, PP. 484.

دورهم في الصراع الصليبي الإسلامي ، أو أن الغرب الأوروبي بأجمعه تنكر لهم عندما انتشرت هذه الشائعات مهما كان مبلغها من الصحة ، فقد تعرضت الجماعتان لمثل ذلك في مناسبات ومواقف مختلفة على يد الحاقدين أو المنافسين ، وكان الأساقفة في مقدمتهم ، خصوصا وقد انتزعت من أيديهم سلطات واسعة كما فقدوا الإيرادات السنوية بسبب ما حصلت عليه الجماعات الرهبانية من امتيازات أو هبات ، وكانت أحوال الأراضي المقدسة المضطربة في ذلك الوقت ، فرصة سانحة لهؤلاء المغرضين كي يلقوا بتبعة الإهمال والتقصير في شئون هذه الأراضي على عاتق الداوية والاسبتارية وحدهم دون بقية العناصر الصليبية ، وما يؤخذ فعلا على هاتين الجماعتين من وجهة النظر الغربية بالنسبة لهذه الظروف هو انشغال أعضائها إلى حد كبير بالمنازعات الداخلية والخلافات فيما بين بعضهم البعض على حساب قضيتها العامة ، وهى الدفاع عن البقية الباقية من الأراضي التي احتلها الصليبيون في الشام . لذا فإن الصورة التي نقلها متى الباريزى لموقف الرأي العام الغربي عن الاسبتارية والداوية مطابقة للواقع ، خصوصا فيما يتعلق بهذه الفترة الزمنية التي يقصدها المؤرخ وذلك رغم ما يشوبها عن مبالغات معهودة مما تتناقله الألسن بين المغرضين والمنصفين بدرجات متفاوتة .

على آية حال ما أن وقع كل من الصالح إسماعيل ، ثم الناصر داوود التحالف مع الصليبيين حتى اتجها إلى الاستفادة منه في توجيه ضربة ضد مصر أو غزوها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا مما اضطر الصالح نجم الدين أيوب إلى الاستعانة بالخوارزمية (١) وبينما كان هؤلاء الأخيرين في طريقهم إلى الانضمام إلى قوات مصر الحليفة ، اقتحموا مدينة بيت المقدس في الحادي عشر من يوليه عام ١٢٤٤م بعد أن اجتاحوا عددا من البلاد المجاورة وقتلوا كل من صادفهم من الصليبيين (٢)

(١) أنظر : أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ١٧٢ .
ابن دقماق : نزهة الأنام لوحة ٥٧- ٥٨ .

(2) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, PP. 492.

وقبل وصول الخوارزمية إلى " المدينة المقدسة " كان وليم شاتونيف Guillelumo de Castro Novo مقدم الاسبتارية (٣١ مايو ١٢٤٣ – ابريل ١٢٥٧م) (١) مقيماً بداخلها في صحبة البطريرك لأداء فريضة الحج – كما يذكر متى الباريزى – وعندما علم بقدوم الخوارزمية عقد اجتماعاً ضم كبار الشخصيات الصليبية الموجودة في بيت المقدس آنذاك ، وتقرر على أثر هذا الاجتماع إخلاء المدينة لعدم إمكانية المقاومة (٢) وسبب اتخاذ الصليبيين لهذا القرار كان – كما يرى ميشو – عدم وجود تحصينات في بيت المقدس تخلق في نفوس من فيها أملاً في المقاومة (٣) وكان أن خرج السكان جميعهم – ما عدا المرضى منهم أو هؤلاء الذين رفضوا مغادرة منازلهم .. في حراسة مقدم الاسبتارية ومجموعة من فرسانه والفرسان الداوية قاصدين يافا . وبينما هم في الطريق أدركهم بعض الصليبيين الذين اخبروهم أن الأعلام الصليبية فوق بيت المقدس " فظن وليم شاتونيف أن معجزة وقعت وانتصر من تركوهم من السكان الصليبيين في المدينة على الخوارزمية واسرع عائداً كي يقيم هناك في أمان " . " لكنه عاد ليرى ما أصاب المدينة وسكانها على يد الخوارزمية " (٤) ويفسر المؤرخ كوندر ذلك بقوله : " أن الخوارزمية هم الذين دقوا أجراس الكنائس من قبيل السخرية فعاد " المسيحيون " إلى بيت المقدس ليلقوا حتفهم " (٥) ويذكر ديلافيل لى رو أن جماعة من الاسبتارية كانت بداخل المدينة عند هجوم الخوارزمية عليها ، وأنهم قاموا بهجوم مضاد على هيئة خرجة Sertie قوية في محاولة للفرار لكنهم فشلوا ، ومن بين قتلاهم كان

(1) Cf. Les Archives, P. 211.
(2) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, P. 498.
(3) Cf. Michand: Op.cit, Vol. II. P. 326.
(4) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, PP. 498-499.
(5) Cf. Conder, C.R.: Op.cit, P. 317.

وليم دى ستليز William de Senlis قائد الجماعة الأعظم (١) بينما نجح المقدم وليم شاتونيف في الفرار إلى يافا مع من نجوا من مذبحة الخوارزمية ، ثم أخذ طريقه صوب الشمال قاصداً عكا للتشاور مع كبار رجال المملكة الصليبية (٢) .

وفي عكا اجتمع مقدموا الاسبتارية والداوية وبطريرك بيت المقدس وبارونات المملكة من أجل تدبير وسيلة لدرء خطر الخوارزمية وإنقاذ فلسطين (٣) وكان أن تقرر حشد القوات الصليبية في عكا (٤) واشترك الاسبتارية في هذا الجيش بفرقة ضمت ثلاثمائة وخمسون من الفرسان ومائتان من التركبولى (٥) ويحتمل أ.ج . كينج أن هؤلاء الأخيرين كانوا أكثر من ذلك مكونين قوة كاملة تقدر بما يقرب من الألف مقاتل (٦) كما انضم إلى جيش الصليبيين في عكا " عسكر دمشق " الذي أرسله الملك الصالح إسماعيل بقيادة الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، وهـذا الأخيـر " استدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر " (٧) وانضمام الاسبتارية إلى جيش من الحلفاء جمع بين القوات الصليبية وقوات سلطان دمشق ومؤيديه يعد تراجعاً من الجماعة عن موقفها من العلاقة مع مصر ، ولم يغفل البعض هذه النقطة فأشار إلى أن الاسبتارية ساهموا بكل ما استطاعوا تجهيزه رغم عدم اقتناعهم بمسألة الحرب ضد مصر (٨) هـذا بالإضافة

(1) Cf. Les Hospitaliers en terre Sainte, P. 191.
(2) Cf. King E.J. : Op.cit, PP. 232-233.
(3) Cf. Cf. Michand: Op.cit, Vol. II. P. 327.
(4) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 233.
(5) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, P. 492. (حدد قوة الجماعة بمائتان فقط)
Also: Stevenson, W.: P. 323, Le Roulx, J.D.: P. 191.
(6) Cf. The Kinghts Hospitallers P. 233.
(٧) أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ١٧٢.
أيضا سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ٤٩٣.
(8) Cf. Setton, K.M. Vol. II,

إلى ما ورد في خطاب للامبراطور فردريك بعث به إلى ريتشارد ايرل أف كورنوول وآخر ارسله مقدم الاسبتارية إلى أحد أعضاء الجماعة في نيوكاسل ، حيث توجد إشارات جميعها تؤكد أن الاسبتارية كانوا من المؤيدين لاتفاقية موقعة مع سلطان مصر (١) مما يدل على أن هذا الوضع كان موضوعاً في الاعتبار وأن اشتراك الاسبتارية في هذا المشروع الحربي مفروض عليها من منطق الواجب الذي تلتزم به إزاء المملكة الصليبية في وقت بالغ الخطورة ، حيث الخطر الخوارزمي الذي فتك ببعض المدن والمواقع الصليبية الهامة ، خصوصاً وأن الجماعة لا تستطيع في مثل هذا الوضع أن تشذ عن الجموع الصليبية المختلفة وترفض الاشتراك في حملة ضد مصر بحجة أن هناك اتفاقية سلام مبرمة معها .

كيفما كان الأمر ، فقد رحل الصليبيون وحلفاؤهم من قوات دمشق وحمص من عكا في الرابع من أكتوبر عام ١٢٤٤م ، سلخ ربيع ثان ٦٤٢هـ وانضم إليهم في يافا قوات الناصر داوود صاحب الكرك والذي كان قد جهز عسكره من نابلس ؛ ثم عسكر الجميع على سهول عسقلان (٢) بينما كان الخوارزمية قد نزلوا غزة حيث " بعث إليهم الصالح أيوب الأموال والخلع والخيل والقماش والعساكر وأمرهم بالنزول على دمشق " . وتقدم الفريقان قوات دمشق وحلفاؤهم الصليبيين ، وقوات مصر وحلفاؤهم الخوارزمية حتى التقيا على مكان يقال له " أربيا " بين عسقلان وغزة . وكان الفرنج في الميمنة وعسكر الملك الناصر في الميسرة وابن صاحب حمص في القلب (٣) وفي التشكيل الصليبي كان فرسان القديس يوحنا في الجناح الأيسر بقيادة جونتية دى برييـن

---

(1) Cf. Matthew of Paris: Vol. I, P. 493- 497.

(2) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 428

أيضا : سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ورقة ٤٩٣ .

(٣) أنظر ابن دقماق: نزهة الأنام لوحة ٥٧-٥٨ .

Gauthier de Brienne كونت يافا . وكانت معركة فاصلة في السابع عشر من أكتوبر عام ١٢٤٤م / ١٢ جمادى الأولى ٦٤٢هـ أحاط فيها الخوارزمية بالفرنج ، ثم التحموا بالقتال مع الاسبتارية الذين كانوا في الميسرة . ولم تمض إلا ساعة حتى حصدتهم الخوارزمية بالسيوف (١) وقتلوا منهم خلقاً عظيماً (٢) " وأسروا ثمانمائة أسير ووصل الأسارى إلى مصر والظهير معهم وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة وامتلأت الحبوس من الأسرى " وكان يوماً عظيماً لم يجر في الإسلام مثله " (٣) أما الفرسان الاسبتارية فلم يبق منهم سوى ستة عشر في رواية (٤) وست وعشرون في رواية أخرى (٥) وسبع وعشرون في رواية ثالثة (٦) وبالنسبة لمقدم الجماعة فقد اختلفت الآراء أيضاً حول مصيره . ففي خطاب من الأراضي المقدسة إلى الغرب الأوربي إشارة إلى أنه قتل في هذه الوقعة (٧) بينما يذكر روثلان وتاريخ هرقل أن مقدم الاسبتارية وقع أسيراً في أيدي المصريين (٨) ويؤكد هذه الحقيقة خطاب وليم شاتونيف الذي بعث به إلى الغرب في نوفمبر عام ١٢٤٤م (٩) وأيضاً خطاب روبرت بطريرك بيت المقدس إلى إنجلترا (١٠) فكلا الوثيقتين

---

(1) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 429.
أيضا : سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ورقة ٤٩٤ .
Also: Conder, C.R.: Op.cit. P. 318.
Michaud, J.F.: Op.cit, Vol. II, P. 329.

(٢) أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ١٧٢ .

(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق نفس المكان .
أبو الفدا : المختصر ج٣ صحيفة ١٧٣ ، ابن دقماق: نزهة الأنام لوحة ٥٨ .

(4) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2339, P. 622.
Also: Matthew of Paris: Vol. I, P. 500.

(5) Cf. Ibid, P. 526.
Also: Cartulaire Tome II, No. 2340, P. 622.
Rothelin, Op.cit, P. 534.
Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 430.

(6) Cf. Setton, K.M. Vol. II, P. 563.

(7) Cf. Matthew of Paris : Idem.

(8) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, Idem .
Also: Rothelin, Op.cit, Idem.

(9) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2339, P. 622.

(10) Cf. Matthew of Paris, Vol. I, P. 526.
Cartulaire Tome II, No. 2340, P. 622.

كانتا أيضاً واضحتين في تقرير أن مقدم الاسبتارية وقع في قبضة الأسر ولم يقتل مع اختلاف بسيط بالنسبة للوثيقة الأولى فقد ذكر أن المقدم الذي وقع في الأسر هو بطرس فيليبرايد Pierre de Vieille Bride وليس شاتونيف. ويبدو أن ورود اسم بطرس في هذا الخطاب هو الذي أدى بالموثق إلى أن يقرر وفاة مقدم الجماعة في معركة غزة ، لأن بطرس دي فيليبرايد كان قد توفى في العام السابق قبل الحادي والثلاثين من مايو ١٢٤٣ (١) ويرجع هذا الخلط – كما بدا لديلاقيل لى رو – إلى الظروف التي أحاطت بالفترة التي كتب فيها الخطاب وهي وجود مقدم الاسبتارية في قيد الأسر (٢) وهذه الاختلافات سواء بالنسبة لتقدير الخسائر أو مصائر كبار الشخصيات أمر مألوف في النتائج التي تسجل بعد معركة أعقبتها هزيمة مرة ، فالبعض يسجل النتائج وفقاً لما رأى أو سمع من مصادر عليمة بينما يسجل آخرون نتائجهم بناءاً على محصلات أذهانهم التي استقوها من الأحداث المعاصرة ، مما يصل بهم كثيراً إلى تقرير أمور متضاربة ينجم عنها في النهاية الاختلاف بين ما هو حقيقي نسبياً وما هو بعيد عن الصواب بصفة كلية .

وبسبب ما أصاب الجماعة من الخسائر في هذه المعركة أضحى دير الاسبتارية في عكا شبه خال من الفرسان (٣) وكان مستحيلاً أن تصل إليهم إمدادات من الغرب تعوضهم عن هذه الخسائر إلا مع رحلة الربيع القادمة (أي في شهر مارس ١٢٤٥م) مما جعلهم غير قادرين على خدمة الأغراض الصليبية وكانوا مجبرين على الانتظار في حالة من الجمود حتى تأتى النبالة المحاربة من

(1) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 229 & n. 2.
(2) Cf. Les Hospitaliers, P. 192.
(3) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 239.

أوربا ، كي تحل محل الفرسان الذين وقعوا في أسر المسلمين أو أولئك الذين قتلوا في ميدان المعرك دفاعاً عن الأراضي المقدسة (١) ويبدو أن المراكز التابعة للاسبتارية في الغرب لم تأل جهداً في تجهيز هذه المساعدات بحيث وصلت بالفعل مع رحلة شهر مارس . وكانت عبارة عن مجموعة من الفرسان الجدد بمعداتهم ، وبعض القوات المحاربة من عناصر مختفية ، ومبلغ من الأموال أرسلتها مراكز الجماعة في انجلترا وفرنسا . كما بعث الايرل ريتشارد ببعض المساعدات إلى الاسبتارية من أجل التصدي لهجمات الخوارزمية والمسلمين (٢) .

وقد تولى أمور الجماعة خلال فترة أسر المقدم وليم شاتونيف الطويلة قائد الجماعة الأعظم حنا روناى John Ronay (٣) وهذا الأخير أرسل في عام ١٢٤٦م مندوبين من الاسبتارية إلى سلطان مصر " ليحدثوه في أمر إطلاق سراح أسراهم وعلى رأسهم مقدم الجماعة مقابل دفع الفدية المناسبة " فطلب منهم السلطان مبلغاً كبيراً من المال مذكراً إياهم بألا ينتقصوا من الأوزان المعمول بها للعملات الذهبية أو الفضية لسداد هذا المبلغ . وبعد أن أعطاهم السلطان مهلة من الوقت عاد ممثلي الاسبتارية وهم يحملون الهدايا الثمينة إلى رجال البلاط كى يتوسطوا لهم لدى السلطان ويؤثرون عليه حتى يقبل منهم مبلغاً من المال فدية لمقدمهم و " إخوانهم " . وعندما علم الصالح نجم الدين أيوب بذلك وبخ رجاله الذين تقدموا إليه كي يشفعوا في أسرى الاسبتارية ثم اقترب من رسل هؤلاء الأخيرين قائلاً :

" كم تعساء هؤلاء المسيحيين الذين نسميهم الاسبتارية والداوية ، فقد تجاوزوا حدود قانونهم ونظامهم بأن خانوا في المقام الأول إمبراطورهم فردريك حينما أتى حاجاً في خدمة المسيح . ونظراً لأن العدالة كانت تحميه لم ينجحوا في محاولاتهم ضده " .

(1) Cf. Machaud, J.F.: Vol. II, P. 333.
(2) Cf. Matthew of Paris, Vol. II, P. 52-53.
(3) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 193-194.

ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الناس الذين ارتبطوا معاً بحب إخوانهم تماماً مثل أنفسهم وبالتالي مساعدتهم في أوقات الضرورة ، يقيمون الآن حرباً لمدة خمس أعوام ضد بعضهم البعض ، كما نما بينهم شعور الحقد والكراهية ، بحيث لم يستطع ايرل ريتشارد أن يصلح ما بينهم . وهؤلاء الداوية بصفة خاصة خرقوا الهدنة التي عقدها ريتشارد هذا محتقرين إياه ومستهزئين بالأخوة الاسبتارية وايضاً هؤلاء الأخيرين في المعركة الأخيرة دخلوا في الحرب ضدنا (أي ضد السلطان) وقد خرق رؤساؤهم وحاملي راياتهم النظام الموضوع لجماعتهم ، بأن كانوا أول الفارين من ميدان القتال والآن أضافوا شرا إلى شرورهم وكوموا انتهاكات فوق انتهاكات لنظم الجماعة بمساعيهم من أجل إطلاق سراح مقدمهم وإخوانهم الذين في الأسر ، عن طريق دفع مبلغ ضخم من المال ، بينما نحن نعرف أنه وفقاً لنظامهم من الممكن لهم فقط أن يفتدوا أسراهم بزنار أو غطاء رأس Belt or Cape وبسبب مخالفاتهم المختلفة أوقعهم الرب أسرى في أيدي من يكرهونهم " (١) .

ونص الحديث السابق الذي وجهه سلطان مصر الصالح إلى ممثلي الاسبتارية لم يعثر الباحث عليه في صيغته العربية بالمصادر العربية المعاصرة أو المتأخرة التي تحت أيدينا ، مما يوجب قبول العبارات الواردة فيه بنوع من الحذر . فبالرغم من إمكانية قبولها على أساس أنها حقائق تاريخية وقعت بالفعل في ماضي الجماعتين ، إلا أنها من المحتمل أن تكون تعبيراً عن وجهة النظر الغربية – والتي يمثلها متى الباريزى – وموقفها من الخلافات شبه المستمرة بين الاسبتارية والداوية ، أيضاً خروج هاتين الجماعتين عن تقاليدهما الأولى وانصرافهما كثيراً على العمل من أجل مصالح

(1) Cf. Matthew of Paris, Vol. II, PP. 146-147.

شخصية . والنص في صورته السابقة يميل الباحث إلى تصديقه لأنه إذا كان يمثل بطريق الصدفة أو بشكل غير مباشر موقف كاثوليك الغرب من الجماعتين ، فإنه في نفس الوقت كان استعراضاً لمخالفات ارتكبتها الاسبتارية وأن لسلطان مصر أن يحاسبهم عليها من حيث أنها براهين تثبت في النهاية أنهم قوم غير صادقون في عهودهم ، وأكثر هذه البراهين دلالة على ذلك هو خروجهم على النظام الذي يدينون به .

على أية حال رمق الصالح نجم الدين أيوب رجال بلاطه الذين توسطوا للاسبتارية عنده بنظرة متجهمة ، ثم أمرهم بالانصراف معلناً أن معاملة الأسرى الصليبيين من الآن فصاعداً يجب أن تكون أكثر تشدداً وصرامة . وعندما علم رسل الاسبتارية برد السلطان على مطلبهم ، سألوا الذين توسطوا لهم بأن يرشدوهم إلى أفضل السبل فعالية لتحرير إخوانهم الأسرى . وكان أن أعاد إليهم هؤلاء " الشفعاء " ما أحضروه من هدايا ونصحوهم باللجوء إلى الإمبراطور فردريك " الذي يحترمه السلطان ويحبه ، فيكتب له أو يرسل إليه مساعيه " وافهموا ممثلي الاسبتارية أنهم يستطيعون بذلك إطلاق سراح من يريدون ، فلم يوافق هؤلاء الرسل على تلك الخطة ، وعادوا ذاهبين بعيداً إلى مقر الجماعة في فوضى واضطراب " بلا أمل في فك قيد الأسر عن إخوانهم " (١) .

أما الصالح نجم الدين أيوب فلم يكتفي بهذا الانتصار الذي أحرزه حلفاؤه الخوارزمية على الصليبيين ، بل قرر الانتقام من أعدائه واسترداد البلاد الشامية منهم ، لذا رجع إلى مصر

(1) Cf. Matthew of Paris, Vol. II, PP. 147-148.

" وابقي العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج " (١) وكان معروفا لدى الصليبيين أن عسقلان هي أولى البلاد الصليبية عرضة لهجوم القوات المصرية لقربها من الحدود معهم . وقد كانت مسئولية الدفاع عن هذه المدينة وحمايتها ملقاة على عاتق الاسبتارية حيث تقيم حامية لهم في قلعتها الحصينة ؛ لذا أرسل البابا انوسنت الرابع في التاسع عشر من فبراير عام ١٢٤٦م إلى كل من رئيس أساقفة نيقوسيا وأسقف ليماسول يطلب منهم المبادرة بإرسال النفقات المجعولة لحراسة قلعة عسقلان إلى الاسبتارية (٢) كمساعدة عاجلة للجماعة ضد حصار المسلمين المرتقب .

وقد حدث ذلك بالفعل في صيف عام ١٢٤٧م إذ سار الجيش المصري متوجهاً إلى عسقلان وحاصرها ، لكن فشلت محاولاته الأولى في الاستيلاء عليها مما اضطر القوات المصرية إلى أن تعسكر أمامها على أمل وصول الأسطول المصري لإغلاق مينائها ومنع الإمدادات التي تأتيها من جهة البحر كي تجبر الحامية الصليبية في النهاية على التسليم (٣) وفي هذه الأثناء أرسلت حامية الاسبتارية القائمة على حراسة قلعة المدينة الاستغاثات إلى البطريرك روبرت في عكا " يتوسلون إليه بأن يطلب المساعدة والإمدادات العاجلة لهم من كل أرجاء المجتمع المسيحي " وهو ما التمسوه من الأساقفة والرهبان ورجال القومونات وغيرهم من الذين يقيمون في عكا (٤) فأرسل هنري لوزينان ملك قبرص ثماني من الشواني وثمانمائة فارس بقيادة سنشاله باليان ابلين سيد بيروت كما بعثت عكا بسبع شواني وخمسون قارباً حربياً . وقد تمكنت هذه النجدة من أن ترسو على ساحل

---

(١) أبو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٨٠ .

(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2394, P. 640.

(3) Cf. Setton, K.M. Vol. II, P. 564.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 240.

(4) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 433.
Also: Matthew of Paris, Vol. II, P. 528.

عسقلان ، لأن الأسطول المصري المتوقع وصوله للسيطرة علــى الميناء ومنع وصول إمدادات إليه ، كان قد تبعثرت سفنه بسبب عاصفة مفاجئة وتحطم الكثير منها ؛ وأتاح ذلك أيضا للفرسان فرصة النزول إلى البر بما يحملون من المؤن والميرة ، بينما عادت السفن الصليبية إلى عكا لصعوبة بقائها راسية في ميناء مفتوح (١) وظل المسلمون على حصار عسقلان رغم اشتداد المقاومة من جانب الاسبتارية والصليبيين . وكان متولي قيادة هذا الحصار الأمير فخر الدين بن الشيخ الذي " قاتل عليها قتالاً عظيماً " حتى فتحها (٢) في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٢٤٧م / أواخر جمادى الآخرة ٦٤٥هـ ، ثم " أخربها " بينما وقع من نجا من المدافعين عنها من القتل في قبضة الأسر (٣) وفقد الاسبتارية بذلك إحدى معاقلهم الهامة التي أسهمت كثيراً في الدفاع عن جنوب المملكة الصليبية ضد الهجمات التي كانت تشنها من حين لآخر القوات المصرية من ناحيتي البر والبحر .

أما من الناحية الاقتصادية فإن الاسبتارية توسعوا في شراء الاقطاعات (٤) كما تزايدت المنح المقدمة إليهم من الصليبيين في الشرق والغرب علــى حد سواء خصوصاً بعد هزيمة الصليبيين في موقعة غزة ، إذ تشير الوثائق الخاصة بالفترة التالية لحدوث هذه المعركة إلى كثرة التنازلات

---

(1) Cf. Estoire d'Eracles: Op.cit, P. 434.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, P. 565
Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 193.

(٢) أنظر : سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ورقة ٥٠٨ .

(٣) أنظر : ابو شامة : الذيل علي الروضتين ص ١٨٠.
أيضا ابن دقماق : نزهة الأنام لوحة ٧٠ .
العيني : عقد الجمان ج١٨ ق٢ ورقة ٢٨٨ .

(4) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1198, PP. 42-43.
No. 1232, P. 56.
No. 2016, P. 435.
No. 2274, PP. 590-591.

والمبايعات والمنح إلى الجماعة (١) مما يدل على أن الصليبيين وقد أحدق بهم الخطر الخوارزمي كانوا ينظرون إلى الاسبتارية على أنهم ملاذ الحماية الذي يحول بينهم وبين الوقوع فريسة لهذا الخطر . هذا بينما كانت البابوية تجدد العديد من الامتيازات لصالح الجماعة ، وتنعم على أعضائها بامتيازات أخرى جديدة ، بحيث شمل نظام الإعفاء من العشور والضرائب المستحقة للكنيسة على الأراضي الزراعية وغيرها خلال هذه الفترة جميع أملاك الجماعة (٢) الأمر الذي أدى بالتالي إلى ازدياد ثرواتها بتحول بقايا الإيرادات التي كان يحصلها الأساقفة إلى خزانة الاسبتارية ، وقد قدر بعض المؤرخين ما كانت تملكه الجماعة في هذه الفترة بمائة وثمانين قرية شاملة الضياع والمنازل وفي بعض الأحيان الفلاحين الذين يقومون بزراعة أراضيها (٣) .

وفي مجال التجارة تطور نشاط الجماعة مع بداية القرن الثالث عشر ، وقد ساعد على اتساع هذا النشاط حصول أعضائها على عدد من الامتيازات التجارية ، واتجاههم إلى شراء العديد من الحوانيت والأسواق أو تأجيرها (٤) هذا فضلاً عن حوانيت أخرى في المدن الصليبية الهامة حصلوا عليها عن طريق التنازل أو الهبة (٥) والجدير بالذكر هو أن البابوية حرصت على المشاركة في تطوير النشاط التجاري للاسبتارية وحمايته ، حيث نجد البابا هونوريوس الثالث في مرسوم له بتاريخ التاسع عشر من ديسمبر ١٢١٦م بمنح ميخائيل موريس Michel Moureze

---

(١) أنظر الأمثلة علي ذلك في :

Cartulaire Tome II, Nos. 2330-2394, PP. 619-640 Passim

(٢) أنظر الأمثلة علي ذلك في :

Cartulaire Tome II, No. 1532, P. 209.
Nos, 1573-1574 PP. 223-224.
No. 1908 P. 381.

(3) Cf. Woodhouse, F.: Op.cit, P. 43.
Also: Conder, C.R.: Op.cit, P. 206.
(4) Cf. Cartulaire Tome II, No. 2888, P. 854.
(5) Cf. Ibid, Tome II no. 1145, PP. 7-8 .

رئيس أساقفة آرلز Arles والتابعين لسلطاته من مطالبة أعضاء الجماعة بأية مكوس على تجاراتهم المرسلة إلى الأراضي المقدسة " (١) كما أن الملوك والأمراء منحوا الاسبتارية تسهيلات تيسر لتجارها تحقيق عائد كبير من الربح ؛ فاندرو الثاني ملك هنغاريا – على سبيل المثال – أعطى الجماعة حق الحصول على جزء من الملح المستخرج من ملاحات سالوك Saloc الواقعة في بلاده لبيعه ، وأمر لهم بعربات مجهزة لنقل هذا الملح ، كما أعفاهم من دفع آية رسوم يتم تحصيلها في هذا المقابل (٢) وقد كانت الجماعة تغطى احتياجاتها وتملأ صوامعها مما كانت تنتجه اقطاعاتها من محاصيل بينما ينقل الفائض إلى الأسواق لبيعه (٣) .

وبالإضافة إلى نشاط الجماعة التجاري في السلع الرئيسية اللازمة لضرورات الحياة فأن المصادر العربية تطالعنا بما يشير إلى أن أعضاء الاسبتارية مارسوا نوعاً آخر من التجارة كان مصدراً كبيراً للكسب في وقت اتسم بكثرة الحروب ألا وهو تجارة الأسرى . فقد كان العملاء يأتون إلى الحصون التابعة للاسبتارية بالأفراد الذين أوقعوا بهم ثم يبيعونهم لأعضاء الجماعة ؛ وبعد ذلك يحضر تجار دمشق وغيرهم لشراء هؤلاء الأسرى (٤) .

وقد دعم العمل التجاري للاسبتارية تقدم الجماعة في ميدان النقل البحري ابتداءاً من الثلاثينات من القرن الثالث عشر حيث ظهرت السفن الكبيرة التي خصصتها الاسبتارية لنقل المؤن والإمدادات من أوربا إلى الأراضي المقدسة ، ويذكر بعض الباحثين أن الجماعة نافست المدن

(1) Cf. Ibid, Tome II no. 1518, P. 203.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1803, P. 332.
(3) Cf. Prawer, J.: Op.cit, P. 414.

(٤) أنظر النويري : نهاية الأرب ج٢٨ لوحة ٩٠ ، ومؤدي القصة هو إن " بعض الركابية كان قد خدم الطواشي مرشد مقدم العسكر بحماه ، ولما عاد معه من الخدمة السلطانية ووصل إلي منزلة العيون مرض بها وبات ولم يشعر به الطواشي ، فأتاه رجلان من اهل قارا وتوجها به إليها ، أقام عندهم ثلاثة أيام حتى عوض ثم أخذاه بالليل وتوجها به إلي حصن الأكراد فباعاه بها بأربعين دينار صورية واتفق ٠٠ توجه بعض تجار دمشق إلي حصن الأكراد لابتياع الأسري فاشتري ذلك الركابي في جملة ما اشتراه وحملة إلي دمشق ٠٠ " .

الإيطالية البحرية في نقل الحجاج والتجار بما يحملون من سلع (١) وساعدها على ذلك امتلاكها ترسانة بحرية لصناعة هذه السفن الكبيرة التي عرفت باسم " الكونتية La Comtesse " وقد كان الاسبتارية يحصلون على الخشب اللازم لبنائها من الغرب الأوربي ، كما تشير إلى ذلك وثيقة ترجع إلى العقد الثاني من القرن الثالث عشر تم بمقتضاها إعفاء الجماعة من دفع الرسوم المقررة على هذا الخشب (٢) .

وهكذا تنوعت إيرادات الاسبتارية وتزايدت باتساع دائرة نشاطها الاقتصادي في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أكثر مما كان عليه الحال في القرن الماضي ، مما كان له أثره في تطوير إمكاناتها الحربية وازدياد نفوذها بالقدر الذي أتاح لها مواصلة دورها إزاء الصراع الصليبي الإسلامي والأوضاع السياسية في الشام ، وذلك دون أن تتأثر كثيراً بجوانب الضعف التي انتابت الأمارات الصليبية في فترات مختلفة من هذا القرن ، بل استطاعت بفضل هذه الإمكانيات الاحتفاظ بمعظم اقطاعاتها وقلاعها الضخمة حتى فترة متأخرة منه ، وقبل سقوط آخر معقل صليبي بسنوات قلائل .

ويمكن القول أن الجماعة أصبحت على مدى سنوات النصف الأول من القرن الثالث عشر عنصراً يعتمد عليه أكثر من ذي قبل في وضع وإعداد الترتيبات المتعلقة بإنقاذ المملكة الصليبية وحمايتها من خلال اتصالاتها شبه المستمرة بالغرب الأوربي والمساهمة في تجهيز النجدات القادمة إليها من هناك عن طريق الدور الذي تلعبه المراكز الأوربية التابعة للاسبتارية ، هذا إلى جانب

(1) Cf. Prawer, J.: Op.cit, P. 263.
Also: Rey, E.: Op.cit, PP. 117-118.
(2) Cf. Cartulaire Tome II, No. 1518, P. 203, no. 2067, PP. 462-464.

دورهم في ميادين القتال ضد المسلمين المدافعين عن الوجود الصليبي في الشام . وقد انتهجوا في هذا العمل الأخير سياسة الهجوم الوقائي الذي يبتغون من ورائه إعادة سيطرتهم على بعض المدن والإقطاعيات التي كانت تابعة لهم وفقدوها أثناء حروب صلاح الدين أو حصلوا عليها كمنحة بعد أن استردها المسلمين ، وكان عليهم أن يتولوا مسئولية الاستيلاء عليها أو اغتصابها من هؤلاء الأخيرين وهو كل ما من شأنه أن يضمن لهم مزيداً من السيطرة والنفوذ على حساب الأقاليم الإسلامية المجاورة لهم ، بغرض العودة إلى ما كان عليه الحال قبل حطين أن لم يستطيعوا تجاوز هذه الحدود السابقة .

ومما تجدر ملاحظته خلال هذه الفترة من الصراع الصليبي الإسلامي هو ذلك التغير الواضح في طبيعة العلاقات بين الجماعات الرهبانية وفي مقدمتها الاسبتارية من جانب ، والمسلمين من جانب آخر . فالمعروف – كما سبقت الإشارة – أن صلاح الدين في العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر حدد موقف المسلمين من الاسبتارية والداوية على أساس أنهم أشد الناس عداوة للإسلام ، وأوجب بالتالي قتل كل من يقع منهم في أيدي المسلمين (١) بمعنى أن دماءهم أصبحت منذورة ويستوي بالنسبة لهم وقوعهم في ميدان القتال مع الوقوع في قيد الأسر . وفي نفس الوقت كان أعضاء الجماعتين شديدي الرغبة في النيل من المسلمين ويقفون منهم موقفاً عدائياً متعصبا لا هوادة فيه .

لكن الظروف التي ألمت بالمملكة الصليبية في العقود الأولى من القرن الثالث ، عشر والناجمة عن عدم تدعيم موقفها الحربي من جانب الغرب ، على نحو يجعلها متفوقة من حيث الإمكانات

---

(١) انظر ما سبق وأيضا

Jacques de Vitry: Op.cit, PP. 101-102.

العسكرية علـى المسلمين بالقدر الذي يمكنها من مواصلة سياسة العداء السافر ضدهم بصفة دائمة جعلت الاستبارية ومنافسيهم يعدلون من موقفهم المتصلب ، ويحتذون سياسـة أكثر مرونة فـي علاقاتهم مع المسلمين ، وذلك من أجل الحفاظ على ممتلكاتهم ومصالحهم الخاصـة في الشرق اللاتيني وقد أعطاهم حرية التصرف في هذا الصدد ما يملكون من قدرات قتالية وإمكانات متواصلة جعلتهم فـي نظـر الزعماء الصليبيين المعاصـرين حماة مملكـة الصليب والمـدافعين الشجعان عنها ، ومن ثم كان للاسبتارية الحق في تقرير الحرب أو عقد معاهدات سلام مع المسلمين في الأمارات المجاورة مثل حمص وحماة وحلب ، بينما كان محرما على الأمراء أو الكونتات الذين يقيم هؤلاء الفرسان في حدود أماراتهم أو كونتياتهم القيام بعمل من هذا القبيل إلا بعد موافقة الجماعة ، وفوق ذلك فقد انتهج الاسبتارية سياسـة منفردة إزاء حكام مصر والشام وكانوا بمثابة دعاة لهذه السياسـة لدى القادة الصليبيين ، وهو الأمر الذي أدى في النهاية إلى الصدام مع منافسيهم الداوية من ناحية والدخول في مخالفات مع الأطراف الإسلامية المختلفة على نحو متذبذب وغير مستقر من ناحيـة أخـرى ، وهـذه كانت من المؤشرات الدالة علـى مدى اتساع نفـوذ الاسبتارية وسيطرتهـم -وأقرانهم- إلـى حد كبير على توجيه السياسـة الصليبية بالنسبة للعلاقات مع المسلمين لصالحهم وهو أمر عبر عنه المعاصرون في كتاباتهم ، وبالرغم من ذلك فقد نجح الاسبتارية بدورهم الحربي في المساهمة مع غيرهم من الجماعات الرهبانية في سد الفراغ الناجم عن توقف إمدادات الغرب سواء بتحول الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية أو فشل الحملتين الخامسة والسادسة في تحقيق أهدافها ، وهـي محو آثار حروب صلاح الدين . ولا يمنع ذلك من أنهم كانوا مشاركين في أحداث هذا الفشل بخلافاتهم شبه المستمرة مع الداوية وبعض الأمراء الصليبيين ، وكذلك موقفهم العنيد من بعض الملوك والأباطرة بحجة مناصرة البابوية والامتثال لسياستها العليا في الوقت الذي يبتغون فيه المصلحة العامة للجماعة .

الفصل الخامس

الاسبتارية والعلاقات مع المسلمين

منذ مجيء الحملة الصليبية السابعة حتى إسترداد المسلمين عكا

(١٢٤٨- ١٢٩١م / ٦٤٦- ٦٩٠هـ)

❖ دور الاسبتارية في الحملة الصليبية السابعة .

❖ موقف الاسبتارية من أوضاع الأمارات الصليبية في الشام والعلاقات مع المسلمين بعد رحيل لويس التاسع ملك فرنسا .

❖ مقاومة الاسبتارية لأعمال سلاطين المماليك الحربية حتى سقوط آخر معقل للصليبيين علي أرض الشام .

كان الغرب الأوربي على علم بأوضاع الصليبيين المنهارة في الأراضي المقدسة ، خصوصا الناجمة منها عن سقوط بيت المقدس ، وهزيمة لاتين الشرق أمام قوات مصر وحلفاؤهم الخوارزمية وكان مقدم الاسبتارية أو من يقوم مقامه في مقدمة الأشخاص البارزين في المملكة الصليبية ، والذين يطلعون العالم الكاثوليكي أولا بأول على هذه الأحوال (١) وقد تمخض عن موقف الغرب الأوربي من أخبار الشرق اللاتيني السيئة أن خرج لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ – ١٢٧٠م) في حملة صليبية لإنقاذ الأراضي المقدسة (٢) وفي اليوم الثاني عشر من يونيو عام ١٢٤٨ م غادر لويس مدينة باريس متوجها إلى ميناء أجمورت Ajgues - Mortes استعداداً للرحيل (٣) ورغم ذلك لم يتوان البابا انوسنت الرابع عن بذل مزيد من الجهد لتدعيم هذه الحملة بعناصر صليبية أخرى من غير الفرنسيين ، فقد أرسل من ليون في الرابع والعشرين من هذا الشهر خطاباً إلى اسبتارية هنغاريا وقائدهم ، يحثهم فيه على حمل الصليب ضد " التتار " (٤) ويذكرهم بصكوك الغفران التي بذلتها الكنيسة في مؤتمر ليون العام لمن يخرجون لإنقاذ قبر المسيح (٥) مما يشير أيضاً وبالتالي إلى

---

(١) أنظر هذه الجهود في خطاب مقدم الاسبتارية إلي الغرب

Matthew of Paris, Vol. I, PP. 497-500.

وخطاب البطريرك في Ibid PP. 522-528.

وأثار هذا الخطابات علي الغرب الأوربي : Ibid, I, P. 529, II, PP. 174-175.

(٢) عن الإعداد لهذه الحملة وظروف قيام لويس التاسع بها وأحداثها بالتفصيل أنظر :

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر { هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكو } .

نفس المؤلف : العدوان الصليبي علي بلاد الشام { هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة } .

(3) Cf. Estoire D'Eracles: Op.cit, P. 436.

Also: Brehier, Louis : L'Eglise ct L'Orient an Moyen-age P. 22.

(٤) التتار هم مغول الشرق الاقصي الذين ظهروا علي مسرح السياسة الدولية في القرن الثالث عشر الميلادي واتخذوا من مدينة قرا قورم في منغوليا حاضرة لملكهم كما أقاموا إمبراطورية مترامية الأطراف لا هي مسيحية ولا إسلامية . ثم أصبح خطرهم ماثلا للعيان وبات يهدد الشرق والغرب بشر مستطير . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي بلاد الشام ص ٢٥٤ وما بعدها .

(5) Cf. Cartulaire Tome II No. 2477, P. 671.

Also: Breve d'Innocenzo IV al Commendator e Cavalieri Gerosolomitani d'ungheria in cod. Dipl. No. XLIV, P. 325.

حرص البابوية على مساعدة الجماعة في الشام بإمدادات من إحدى مراكزها الهامة في الغرب تعوضها عما فقدته من خسائر في الحروب الأخيرة مع المسلمين والخوارزمية ، وفي نفس الوقت تدعيم لسيادة الكرسي البابوي على المملكة الصليبية .

كيفما كان الأمر ، فقد أبحر لويس التاسع في الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٢٤٨م ليصل إلى جزيرة قبرص التي كانت مركزاً لتجمع القوات الصليبية في السابع عشر من سبتمبر (١) وفي قبرص كان حنا روناى John de Ronay قائد الاسبتارية ومقدم الجماعة بالنيابة ومعه بعض أعضاء الجماعة من بين مستقبلي الملك الفرنسي للتشاور معه في أمر الحملة المقبلة على مصر من ناحية ، وفي المصالح التي تهم الصليبيين بالشام من ناحية أخرى . وقد استطاع لويس التوفيق بين الاسبتارية والداوية ، وجعلهم يعاهدونه على إزالة أسباب كل ما بينهم من خلافات ، وأن يكونوا يداً واحدة ، وذلك في غمار الجهود التي بذلها أثناء وجوده في الجزيرة من أجل تصفية المشاكل والخلافات القائمة بين العناصر الصليبية المختلفة في الشرق اللاتيني (٢) .

وبعد قضاء عدة شهور في قبرص تجمعت خلالها قوات الحملة ، كما زودت بالمؤن والإمدادات ، أبحر ملك فرنسا من ميناء ليماسول Limassol في الثالث عشر من مايو عام ١٢٤٩م قاصداً دمياط التي وصلها في يوم الجمعة الموافق الرابع من شهر يونيو / ٢٠ صفر ٦٤٧هـ ثم نزل إلى البر في اليوم التالي (السبت) على الضفة الغربية للنيل قبالة المدينة التي تقع على البر

---

(1) Cf. Brehier, Louis : Op.cit, Idem.

أيضا أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر ص ٦٦- ٦٧ .

(2) Cf. Les Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 741.
Also: De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I, P. 428.
Michand, J.F. : Op.cit, Vol. II, PP. 371-372.

الشرقي (١) وبعد يومين دخل الصليبيون دمياط في السابع من يونيه عام ١٢٤٩م / ٢٣ صفر ٦٤٧ هـ (٢) ومكثوا فيها عدة أشهر حتى ينقضي فصل الشتاء ، وصلت أثناءها قوات الاسبتارية والداوية وغيرهم من فرسان الشام الصليبيين ، وكانوا قد أقلعوا من قلعة الحجاج الواقعة على مسافة خمس فراسخ من عكا ، وهؤلاء امتازوا عن قوات الحملة بأنهم كانوا على دراية بأحوال البلاد وكيفية الحرب مع المسلمين (٣) هذا في الوقت الذي كان الملك الصالح أيوب قد تراجع بالجيش الإسلامي إلى المنصورة حيث استقر بها في يوم الثلاثاء الثامن من يونيو ١٢٤٩م /٢٤ صفر ٦٤٧هـ (٤) .

وقدر المؤرخ كينج القوة التي ساهم بها الاسبتارية في الحملة بأنهم كانوا على وجه التقريب خمسمائة فارس ومساعديهم (الأخوة خدام السلاح) وخمسمائة تركبولي على رأسهم القائد حنا روناى John de Ronay (٥) ويبدو أنه استند في تقرير هذه القوة إلى مناسبات سابقة اشتركت فيها الجماعة حربياً بمثل هذا العدد . وفي يوم السبت الموافق العشرين من نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ رحل الملك الفرنسي بالجيش الصليبي عن دمياط متقدماً صوب القاهرة وفقاً للنصيحة التي أشار بها كونت ارتوا Count d`Artois (٦) تاركاً المدينة في حراسة قوية (٧) وقد وصـــل

---

(1) Cf. Les Gestes des Chiprois : Op.cit Idem.
أيضا أنظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٨٧- ٨٩ ، ١٠٠ .

(٢) عن كيفية دخول الصليبيين المدينة : انظر :
Matthew of Paris: Op.cit, Vol. II, P. 360.
Also: Joinville, J.: The life of Saint Louis in chronicles of the crusades ed. Penguin Classics.
P. 204. seq.

(3) Cf. Les Gestes des Chiprois : Op.cit Idem.
وقد ذكر إن الاسبتارية والداوية وعدد ضخم من فرسان قبرص والشام وصلوا مع الملك لويس قاصدين دمياط مما يشير إلي رحيل مجموعة من قوات الجماعة المقيمة في مقرها القبرصي بصحبة لويس إلي دمياط .
Also: De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome I , P. 431.
Brehier, Louis : Op.cit, P. 223.

(٤) أنظر التفاصيل في جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١١٢- ١١٣ .

(5) Cf. The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, P. 243.

(6) Cf. Joinville : Op.cit, 211.

(٧) أنظر جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٣٢

الصليبيون إلى قرية فارسكور في يوم الخميس الثاني من ديسمبر /٢٤ شعبان دون أن تواجههم مقاومة جدية من جانب القوات الإسلامية (١) .

وفي مقدمة الجيش الصليبي أخذ الاسبتارية والداوية مكانهم بين الفرق التي يتولى قيادتها كونت ارتوا (٢) وقد اشتبكوا مع المسلمين في معركة حامية فيما بين فارسكور وشار مساح (قريتين من كور الدقهلية) في يوم الأربعاء الموافق الثامن من ديسمبر عام ١٢٤٩م / أول رمضان ٦٤٧هـ أسفرت نهايتها عن انتصار الصليبيين (٣) والملاحظ من خلال تتبع أحداث هذه الحملة هو إغفال المؤرخ حنا جوانفيل في أحيان كثيرة الإشارة بوضوح إلى دور الاسبتارية رغم وجودهم الفعلي بين القوات الصليبية وبالذات في مقدمة الجيش مع الداوية ، وهو الأمر الذي أكدته وثيقة صادرة عن أسقف مرسيليا ويدعى بنيدكتوس Benedictus حيث تشير إلى وجود فرسان الاسبتارية ونائب المقدم في تشكيل مقدمة جيش الحملة الصليبية السابعة ، بناءً على تقرير أرسله إلى الأسقف قائد الاسبتارية في مرسيليا (٤) وهو ما ذهب إليه أيضاً متى الباريزى الذي لم يغفل الإشارة إلى ذلك وأقرن وجود الاسبتارية والداوية في الدور الذي يلعبونه سوياً من خلال موقعهم الذين يحتلونه في صفوف المقدمة (٥) وبالتالي فإن إيضاح دور فرسان القديس يوحنا في أحداث حملة لويس التاسع في الحالات التي يقتصر الاعتماد فيها على المؤرخ الفرنسي جوانفيل ، لا يتأتى إلا من خلال متابعة

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : نفس المرجع ص ١٤٤ .

(2) Cf. Joinville : Op.cit, Idem.

حيث أكد إن الداوية كانوا يشكلون مقدمة الجيش ، وأنهم العنصر المحارب الذي اشتبك مع القوات الإسلامية . والمعروف إن الاسبتارية كانوا ملازمين للدواية في المقدمة وبالتالي كانوا في طليعة القوات التي تبعت مارشال الداوية في هجومه .

(٣) انظر تفاصيل هذه المعركة في : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٤٧ .

(4) Cf. Golubovich, P.G.: Op.cit, P. 241.

(5) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. II, PP. 367-369.

العمليات الحربية للمقدمة على أساس وجودهم فيها كعنصر محارب ، وهو ما ذهب إليه أيضاً بعض المؤرخين المحدثين (١) .

على أية حال بعد محاولات عدة استطاع الصليبيون الوصول إلى بحر اشموم الذي يفصلهم عن المنصورة حيث يعسكر جيش السلطان وذلك في التاسع عشر من ديسمبر ١٢٤٩م /١٢ رمضان ٦٤٧هـ (٢) وبعد يومين بلغوا طرف جزيرة دمياط ، ثم نزلوا قبالة جيش المسلمين شمالي بحر أشموم السالف الذكر ، بحيث أصبح هذا البحر هو الفاصل الوحيد بين المعسكرين الصليبي والإسلامي . وفي هذه المنطقة وقعت بينهما معركتان كبيرتان تنسبان إلى مدينة المنصورة الواقعة على الجانب الأيمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين دمياط وأشموم طناح . والثابت تاريخياً أن هاتان المعركتان كان من أثرهما التعجيل بخاتمة هذه الحملة (٣) .

فقد كرر الصليبيون محاولاتهم من أجل عبور بحر أشموم إلى الجانب الآخر ، لكن المسلمين لم يكفوا عن مهاجمتهم وإفساد مخططهم (٤) وظل الوضع على هذه الحال إلى أن أتى معسكر الفرنج أعرابي من البدو وأرشدهم على مكان يعبرون منه (٥) مقابل رشوة قدرها جوانفيل بخمسمائة بيزنت من الذهب (٦) وعلى الفور نظم الصليبيون عملية العبور بحيث كان الداوية والاسبتارية في

---

(1) Michand, J.F. : Op.cit, Vol. II, PP. 402-403.
Also: Le Roulx, J.D.: Op.cit, PP. 195-196 & n.2.
وكذلك : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٦٩- ١٧٠ ح ٥ .

(2) Cf. Brehier, Louis : Op.cit P. 223.

(٣) أنظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٤٨- ١٤٩ .

(4) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 213-217.

(٥) هذا المكان يعرف بـ " مخاضة سلمون " أنظر :
اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٢٠٩ .

(6) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 217-218.
Also: Brehier, Louis : Op.cit PP. 223-224.
وكذلك : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٥٩- ١٦٠ .

المقدمة يليهم على رأس الفوج الثاني كونت ارتوا (١) لكن ما إن عبر الكونت روبرت برجاله إلى الجانب الآخر من بحر أشموم في فجر الثلاثاء الثامن من فبراير عام ١٢٥٠م / ٤ من ذي القعدة ٦٤٧هـ حتى شنوا هجوماً غير متوقع على المعسكر المصري ، " ولم يشعر بهم المسلمون إلا وقد خالطوهم " فلاذوا بالفرار أمامهم إلى داخل مدينة المنصورة ، مما أغرى الكونت على مطاردتهم وتعقبهم (٢) دون إدراك لأية عواقب متوقعة ، وهو ما لم يغب عن بال الاسبتارية والداوية الذين كان لديهم معرفة تامة بأساليب المسلمين في القتال من خلال خبرتهم المكتسبة عبر حروب كثيرة خاضوها في الميدان معهم ؛ فأيقنوا بأن هذا القرار لم يكن إلا " خدعة حربية " للايقاع بالمطاردين (٣) وقد كان متى الباريزى أكثر وضوحاً في تحديده للعنصر المحارب الذي كان في المقدمة مع روبرت دى ارتوا حيث أشار إلى أن الاسبتارية والداوية كانوا أصحاب هذا الدور (٤) وذلك على النقيض من جوانفيل الذي جعله قاصراً على الداوية وحدهم . ومن الممكن إرجاع ذلك بالنسبة لجوانفيل إلى أن مقدم الداوية كان القائد الأعلى المتحدث باسم أعضاء الجماعتين الرهبانيتين بحكم أقدميته في الدرجة على رئيس قوات الاسبتارية حنا روناى الذي كان مقدماً بالنيابة بدرجة قائد ومعلم

---

(1) Cf. Joinville : Op.cit, P. 218.
Also: Michand, J.F. : Op.cit, Vol. II, PP. 402-403.
ولم يشر جوانفيل إلي وجود الاسبتارية في هذا التشكيل ، بينما أكد ذلك ميشو تطبيقا للقاعدة المشار إليها سالفا والقائمة علي أساس إن الاسبتارية كان مكانهم في صفوف الجيش الصليبي " المقدمة " بصفة دائمة خلال هذه الحملة بالذات .

(٢) اليونيني : : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٢٠٩- ٢١٠ .
Also: Joinville : Op.cit, P. 218.

(3) Michand, J.F. : Op.cit, Vol. II, P. 403.

(٤) أنظر ما سبق وأيضا :
Matthew of Paris: Op.cit, Vol. II, PP. 367-369.

أعظم ، وذلك لوجود وليم شاتونيف مقدم الاسبتارية في أسر المسلمين . وهذه الرتبة تلي رتبة "مقدم " في المكانة بالنسبة لتنظيمات الجماعات الرهبانية بصفة عامة . والمرجح أنه لهذا السبب كان جوانفيل ومن حذا حذوه من المعاصرين يعزون أي دور يتزعمه مقدم الداوية إلى هذه الجماعة دون الجماعة الأخرى ، الأمر الذي عمل على إيضاحه بعض المحدثين – كما سبقت الإشارة – في مناسبات الحملة المختلفة ، فلم يترددوا في الجزم بأن حنا روناى كان مؤيداً لمقدم الداوية في موقفه من مسلك كونت ارتوا (١).

فبالرغم من أن الكونت روبرت كان قد استطاع بتهوره أن ينتصر على المصريين ويشتت قواهم (٢) إلا أن مقدم الداوية وقائد الاسبتارية اعتبرا ذلك إهانة للجماعتين ، فقد خرج الكونت عن الترتيبات الموضوعة وتقلد القيادة ، في حين أنه يجب أن يتبعهم في التقدم وكذلك الهجوم أثناء عبور المخاضه . لذا رجوه " أن يدعهم يسيرون وفقاً لما هو مخطط سلفاً مع الملك " (٣) كما نصحوه بأن يستغل حماسه فيما هو نافع ومفيد ، وأن يخضع هذا الحماس لمنطق التعقل والأناة حتى يتمكن ومن بصحبته من الاسبتارية والداوية من أن يستردوا أنفاسهم قليلاً بعد ذلك النصر الذي أحرزوه على المسلمين خصوصاً وأنهم – أي الاسبتارية والداوية وقوات روبرت – قد أرهقتهم حرارة الجو وعناء الحروب .. وقاسوا الكثير من آلام الجوع والعطش (٤) ثم يضيف مقدم الداوية وقائد

(1) Cf. Michand, J.F. : Op.cit, Vol. II, P. 403.

(٢) انظر العيني : عقد الجمان ج١٨ ق ٢ ورقة ٣١١ .

(3) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 218-219.

(4) Cf. Matthew of Paris: Op.cit, Vol. II, PP. 368.

الاسبتارية مخاطبين الكونت روبرت :

" فإذا واسانا الشرف والمجد بنصر أحرزناه ، لا فخر أو ابتهاج يجلب الراحة لجيادنا الجرحى ، لذا دعنا ، كخطة أفضل ، أن نعود للحاق بجيش مليكنا كي نتمكن من التقوى بمشورته ومساعدته وتستطيع جيادنا ، تماماً مثلنا ، أن تنتعش بقليل من الهدوء . وحين يرى أعداؤنا ذلك سيكون فيه الثناء على حذرنا وفطنتنا المتأنية بل وتساورهم المخاوف منا ، لأننا إذا ما استمسكنا بمشورة أكثر ترويا مع رجالنا واجتمعنا عليها سوياً نصبح أكثر قوة مما كنا ، كما نستحوذ على الكثير من الثقة إذا ما تكتلت قواتنا ، لاسيما وأن الصيحات التي تعالت الآن من الذين ولوا هرباً وقد امتطوا جياداً خفيفة الحركة ستكون مثاراً للحماس لدى السلطان وأعدائنا الآخرين ويزدادون ثقة في قوتهم وأعدادهم عندما يسبق هؤلاء لينذروهم ويطلعوهم على عددنا الصغير . وما ان يصل إلى علمهم (علم المسلمين) ذلك إلا وستأخذهم الشجاعة ضد جيشنا المنقسم ، وهو حدث كثيراً ما تاقت نفوسهم إلى وقوعه حيث يزدادون جرأة وثقة في هجومهم علينا ، ثم يلقون بثقلهم لما فيه هزيمتنا ودمارنا خصوصاً وأنهم يعرفون أن في طردهم تجريد كلي لهم من جميع ما يملكون ، كما تقتاد زوجاتهم وعائلاتهم ليلقى بهم في النيل " (١) .

ويشير ذلك إلى مدى إدراك الاسبتارية والداوية الواعي للظروف المحيطة بهم في الشام وأيضاً فهمهم العميق لكثير من أنماط السلوك التي عرفوها عن المسلمين وردود الفعل إزاء كل منها لدى هؤلاء الأخيرين في حالة حدوث انتهاكات لها من جانب أعدائهم ، وفوق ذلك فإن هذه التجارب التي ولدت في أعضاء الجماعتين طبيعة معالجة الأزمات والمواقف الحرجة على نحو تعقلي بعيد

(1) Cf. Matthew of Paris: Idem.

عن التهور ، على النقيض مما كان عليه الحال بالنسبة لهم في الفترات الأولى من ظهور الجماعات الرهبانية المحاربة حتى حوالي معظم القرن الثاني عشر ، فمن واقع المواقف التي مروا بها خصوصاً وان أحداث الحملة الصليبية الخامسة ليست ببعيدة ، كل ذلك جعلهم يتصرفون بحذر وحيطة في مخططاتهم الحربية ضد المسلمين بعد أن أرهقتهم الخسائر في الأرواح والأموال فيما خاضوه من حروب معهم .

ورغم هذه التوجيهات ومحاولة مقدم الداوية وقائد الاسبتارية إقناع روبرت كونت ارتوا بضرورة التروى في تقرير الأمور ، فإن ما حدث بالفعل يدل على أن الكونت لم يستجب إليهما فقد واصل سياسته المشهورة وطارد القوات الإسلامية بفرسانه حتى خر صريعاً . وألقى جوانفيل باللائمة على أحد هؤلاء الفرسان بأن وصفه بأنه كان أصماً حيث لم يسمع شيئاً مما قاله الداوية والاسبتارية إلى سيده (روبرت دى ارتوا) وظل يصيح محرضاً على تعقب المسلمين (١) وربما أراد هذا المؤرخ أن يرفع عن كونت ارتوا مسئولية نتائج مسلكه المتهور ، وضرب بنصائح الجماعتين الرهبانيتين عرض الحائط على أساس أن الكونت كان في مقدمة من دفعوا ثمن هذا التهور وراحوا ضحيته ، الأمر الذي من الممكن أن يكون أثار عاطفة جوانفيل بقدر جعله يخفف عنه ذلك الوزر .

وقد أورد متى الباريزى رد روبرت على نصائح الاسبتارية والداوية له : ويتضح منه أن الكونت كان يكتم في نفسه شعوراً يفيض بالحقد والمقت إزاء الجماعتين ، ووجد ضالته في هذا الموقف ليترجم هذا الشعور عن طريق إظهارهم في صورة مليئة بالمثالب ، فيذكر هذا المؤرخ

(1) Cf. Joinville : Op.cit, P. 219.

الغربي أنه ما إن سمع روبرت الكلمات الصادرة عن مقدم الدواية وقائد الاسبتارية حتى ازداد حنقاً وغضباً وأجاب بغطرسة :

" انظر إلى غدر الداوية القديم وتمرد الاسبتارية المعروف منذ زمن طويل (فكم كتموا ظاهراً خداعهم الذي تفجر الآن بيننا ، وهو ما سبق أن أخبرناه في الماضي ، وكان له في الحقيقة نذير آتى ثماره ، فبلاد الشرق التي كسبناها في الماضي حرمنا منها بمكر وخداع الداوية والاسبتارية ، وأيضاً آخرون نعتوا أنفسهم بأنهم دينيون .

انظر فرصة غزو السلطان (يقصد سلطان مصر) متاحة لنا ، ودمار الوثنيين (يقصد المسلمين) وشيك الحدوث لدرجة سيبقى معها مجد للدين المسيحي ، لكن هؤلاء الحاضرين جميعهم جرضهم هذا الداوى (يقصد مقدم الداوية) بمجادلاته المختلفة الخادعة على الحيلولة دون ذلك وتعطيله . لأن الداوية والاسبتارية ومعاونيهم يخشون إخضاع هذا البلد (يقصد مصر) قهراً للقوة المسيحية ففي ذلك نهاية لنفوذهم وسيطرتهم الزائدة عن طريق إيراداتهم المتضخمة . ومن ثم فهم يتحالفون مع المسلمين لقتل المسيحيين ، الذين يأتون إلى هنا وهم متجهزون لخدمة قضية الصليب بسبل الخداع والمكر المختلفة . ألم يكن فبدريك خبيراً بمكرهم وشاهد إثبات ضدهم في هذا المجال ؟ " (١) .

ويرى البعض أن كلام روبرت دى ارتوا إلى الاسبتارية والداوية كما أورده متى الباريزى يستحق التسجيل لأنه يبين ذلك الشك الذي انتاب الصليبيين في ذلك الوقت إزاء مسلك الجماعات الرهبانية المحاربة (٢) وقد تمثل هذا الشعور في اتهام الاسبتارية والداوية بالتواطؤ مع المسلمين

(1) Cf. Matthew of Paris : Vol, II, PP. 368-369.

(2) Cf. Oman, Ch : Op.cit, Vol. I, P. 347, n.1.

لمصالحهم الخاصة ، ورغبتهم في استمرار الحرب وإطالتها تحقيقاً لمكاسب شخصية ، دون نظر إلى القضية العامة للكنيسة المسيحية ؛ الأمر الذي حزن له كثيراً مقدم الداوية وقائد الاسبتارية لما في هذه الكلمات من تقريع مر ومؤلم ، فأجابا كما لو كانا بعقل واحد على حد تعبير ، متى الباريزى :

" أيها الكونت النبيل ، لماذا نرتدي لباس الدين ؟ أليس ممكناً بما ذكرت أن نخرب الكنيسة ، كما نفقد أرواحنا بممارسة سبل الخداع ؟ إن ذلك كله بعيد عنا ، وفي الحقيقة بعيد عن كل مسيحي " ثم أضاف مقدم الداوية وهو يتأجج غضباً مخاطباً حامل راية الجماعة " ارفع رايتنا ولا تطويها ودعنا نتقدم للقتال لعلنا نجرب حظ الحرب وفرص الموت . نحن لا نقهر إذا بقينا متحدين ، أما وقد انقسمنا لسوء الحظ مثل رمال بلا جص ، فلسنا ملائمين للصرح الروحي ، كما أننا بدون روابط المحبة والود سنضحي حطاماً مثل الخردة " (١) .

وبذل قائدا الجماعتين جهدهما لإبعاد التهم الشائنة عن رجالها بطريق الإقناع على أساس أنهما وفرسانهما لم يتركوا عائلاتهم وبلادهم لقضاء فترة من الوقت في بلد أجنبي ملئ بالمتاعب ، وأخطار الحرب من أجل خيانة " القضية المسيحية " ، وإنما يهدفون جميعاً إلى أن يقابل الجيش الصليبي أعداءه موحد الصفوف غير منقسم على نفسه حتى لا يؤدى بهم ذلك إلى هاوية التمزق والدمار ، لكن نصائح الاسبتارية والداوية لم تجد آذاناً صاغية لدى كونت ارتوا الذي لم يتريث حتى وصول بقية القوات الصليبية واندفع بفرسانه في اتجاه المسلمين . ولم يجد أعضاء الجماعتين الرهبانيتين مناصاً من مصاحبته في تقدمه لاعتقادهم أنه مخجل بالنسبة لهم أن يتقدمهم الكونت في عمل حربي ضد أعدائهم ، بينما هم يتخلون عنه لمجرد خلاف في الرأي ، وكان أن نخس الرهبان المحابون ظهور

(1) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, P. 369.

جيادهم ، واندفعوا أيضاً لمطاردة المسلمين الذين فروا أمامهم إلى داخل مدينة المنصورة (١) واقتحم روبرت دى ارتوا ومن خلفه مقدمة الجيش الصليبي (وفيهم الاسبتارية والداوية) أحد أبواب المدينة وظل في تقدمه حتى " وصل إلى قصر السلطان الذي على البحر ، وتفرقت الفرنج في أزقة المنصورة وهرب كل من فيها من الجند والعامة والسوقة ... وأيقن الفرنج بالظفر واشتد الأمر وأعضل الخطب " (٢) فتجمعت القوات المصرية " وحملوا على الفرنج حملة زعزعت أركانهم وهدمت بنيانهم ، وأناخوا عليهم ضرباً دراكاً وقتلاً وإهلاكا " (٣) ويقدر المؤرخون العرب عدد القتلى الصليبيين بحوالي ألف وخمسمائة " من فرسانهم وصناديدهم وشجعانهم (٤) وكان من بين قتلاهم روبرت كونت ارتوا (٥) أما من سلم منهم فقد مضى إلى مكان يقال له " جديلة " وتجمعوا به فضرب عليهم المسلمون سوراً " وخندقوا عليهم خندقا (٦) ثم أعملوا فيهم السيف ، بحيث لم ينج من الجماعتين إلا اثنان من الداوية ، وأحد الاسبتارية الذين قيض لهم أن يلوذوا بالفرار من ميدان المعركة (٧) " وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها المسلمون وقرت بها العيون " (٨) بينما تم القضاء على فرقة الفرسان الصليبيين التي كانت تؤلف مقدمة الجيش، خصوصاً من اشتركوا فيها من الاسبتارية والداوية .

---

(1) Cf. Joinville : Op.cit, P. 219.
Also: Michand, J.F. : Vol. II, P. 403. & Brehier, Louis: P. 244.

(٢) اليونيني : : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٢١٠ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج١٨ ق ٢ ورقة ٣٠٧ .

(٤) أنظر : اليونيني : : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٢١٠ .

(5) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, P. 372.

(٦) اليونيني : المصدر السابق نفس الصفحة .
العيني : عقد الجمان ج١٨ ق ٢ ورقة ٣٠٧ .

(٧) عن هذه الخسائر انظر : Joinville : Op.cit, P. 219.
Also: De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I, P. 434.
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٦٩- ١٧٠ حاشية رقم " ٥ " .

(٨) العيني : المخطوط السابق نفس الورقة .

وبعد أن عبر لويس التاسع بحر اشموم بقواته أتى إليه حنا روناى رئيس الاسبتارية وقبل يده ثم أخبره بمصرع أخيه روبرت كونت ارتوا ، محاولاً أن " يطيب خاطره " ليقلل من وقع هذا الخبر على نفسه وذلك بقوله :

" أرح بالك من التفكير ، فإنه لا يوجد ملك فرنسي حاز مثل هذا الشرف الذي نلته اليوم " لأنه من اجل أن تحارب أعداءك خضت هذا النهر لتهزمهم جميعاً وتطاردهم من ميدان المعركة بعد أن استوليت على آلاتهم وكذلك خيامهم التي ستنام فيها الليلة " (١) .

وهذا الموقف من جانب نائب المقدم يعد دليلاً يضاف إلى غيره من الأدلة التي تؤكد وجود قوات الاسبتارية وقائدهم في مقدمة الجيش الصليبي التي خاضت المعارك مع المسلمين خارج مدينة المنصورة وبداخلها مع كونت ارتوا ، كما يعطى استنتاجاً على أن البقية الباقية من فرسان الجماعة وعلى رأسهم حنا روناى استمروا في آداء دورهم مع رجال الحملة الصليبية بعد الهزيمة التي راح ضحيتها معظم فرسانهم وفقاً للتقديرات التي أوردها المعاصرون عن خسائر الصليبيين فيها .

وبعد الوقعة السابقة بأيام ثلاثة ، وبالتحديد في يوم الجمعة الحادي عشر من فبراير عام ١٢٥٠ / ٧ ذي القعدة ٦٤٧هـ ، كانت معركة المنصورة الثانية (٢) وتعد في نظر البعض من أشد المعارك وأعنفها في تاريخ الحركة الصليبية ؛ وقد تغلبت فيها القوات الإسلامية على أربع فرق من الفرق الإحدى عشر التي كان الجيش الصليبي مقسماً إليها (٣) وكان الاسبتارية في صفوف الفرقة الرابعة (٤) ويرجع المؤرخ أ.ج كينج الفضل في ثبات هذه الصفوف وصمودها لشجاعة هؤلاء

---

(1) Cf. Joinville : P. 226.

(2) Cf. King E.J. : Op.cit P. 247.

وعن بعض تفاصيل هذه المعركة : انظر اليونيني : ذيل مرآة الزمان المجلد الثاني ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٣) انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٨٥ .

(4) Cf. Golubovich, P.G.: Op.cit, P. 241.

الفرسان (١) وبالرغم من ذلك فقد كانت عواقب هذه المعركة وخيمة بالنسبة لهم بالذات (٢) إذ هلكوا جميعهم ما عدا خمسة من الاسبتاريين نجا أربعة منهم من الموت بينما مات الخامس متأثراً بجراحه قبل وصوله ميناء عكا (٣) وقد وقع الأربعة في أسر المسلمين . ومن جملة قتلى الجماعة كان حنا روناى نائب المقدم ومارتين سانشيز Martin Sanchez كسّاء الاسبتارية (٤) وفي متى البايزى ما يشير إلى أن نتائج معركة المنصورة الثانية كانت بمثابة نكبة لفرسان القديس يوحنا تفوق غيرها من النكبات التي أحاقت بغيرهم من العناصر الصليبية الأخرى المحاربة (٥) وهذه النتائج حملت بين طياتها بواعث الهزيمة ؛ فلم يظفر الصليبيون بحلمهم المنشود في الاستيلاء على المنصورة والزحف جنوباً صوب القاهرة ، كما فقدوا في المعارك التي خاضوها عدداً لا يستهان به من فرسانهم ورجالتهم ، وحطم المسلمون معظم معداتهم وعتادهم ، مما أضعف قوتهم وأسهم إلى حد كبير في التعجيل بالنهاية الأليمة التي منيت بها هذه الحملة وهي أسر لويس التاسع ملك فرنسا وكبار قواده ووقوع الجموع الغفيرة من أفراد الحملة ضحايا للقتل أو الأسر ما عدا قلة استطاعت أن تنجو بنفسها من هذا المصير (٦) .

---

(1) Cf. King E.J. : Op.cit P. 247.
(2) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 196.
(3) Cf. Matthew of Paris, Vol. II, P. 376.
(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 196 & N. 2-3.
Also: King E.J. : Op.cit P. 247 & n. 1 .
(5) Cf. Matthew of Paris, Vol. II, P. 409.

(٦) أنظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ لوحة ٥١٧ .
اليونيني : ذيل المرآة ص ٢١٠- ٢١٢ .
الكتبي : عيون التاريخ ج٢ { مخطوط مصور بدار الكتب } لوحة ٢٢- ٢٣ .
Matthew of Paris, Vol. II, P. 377.
ومزيد من التفاصيل في جوزيف يوسف : المرجع السابق ١٨٥- ١٨٦- ١٩٨- ٢٠٨ .

ثم كان أن بدأت المفاوضات بين الطرفين الصليبي والإسلامي بإرسال السلطان المعظم توران شاه (١) سفارة إلى الملك لويس التاسع وهو في أسره يعرض شروطاً للصلح يترتب عليها إطلاق سراحه وهو وغيره من الصليبيين . وكان من بين هذه الشروط إن تسلم إلى السلطان المعظم بعض قلاع الاسبتارية ، فأجاب مندوب ملك فرنسا في المفاوضات – وهو الكونت بطرس دى بريتانى Pierre de Bretangne – بأن ذلك مستحيلاً لأن من بيدهم هذه القلاع حينما اتجهوا إلى العمل في هذا المضمار أقسموا على الأناجيل المقدسة بألا يسلموا قلعة من هذه القلاع فدية لإنسان في الأسر (٢) وقد تنازل توران شاه عن هذا الشرط بعد أن تيقن من عدم جدوى تهديداته ووعيده في سبيل الموافقة عليه . وانتهى الأمر بإبرام معاهدة صلح مدتها عشر سنوات (وقعت في أبريل عام ١٢٥٠م مع المعظم توران شاه ثم جددت تلك المعاهدة مع المماليك في السادس من مايو من نفس العام) ونصت على تبادل الأسرى بين الطرفين الصليبي والإسلامي ، وأن يدفع لويس التاسع مبلغ ثمانمائة ألف بيزنت فدية عن أسرى الصليبيين وتعويض عن خسائر المصريين الناجمة عن الاستيلاء على دمياط ، والتي على الملك الفرنسي أن يعيدها إلى المسلمين فدية عن نفسه (٣) ولم يكن لدى لويس التاسع هذا المبلغ الضخم بأكمله ، فاضطر – كما يذكر جوانفيل- إلى استكمال الفدية بأن أخذ ثلاثون ألف قطعة ذهبية من الداوية (٤) هذا بينما أشار متى الباريزى إلى أن الملك الفرنسي اقترض مبلغاً من الداوية والاسبتارية والجنوية والبيازنه من أجل سداد الفدية المطلوبة (٥) .

---

(١) المعظم توران شاه هو الابن الأوسط للملك الصالح نجم الدين أيوب وكان نائبا عن أبيه في حصن كيفا بالشام عندما اتفقت شجرة الدر مع الأمراء علي مبايعته بالسلطنة . ثم أرسل الأمراء يستعجلون حضوره لتدبير أمور مملكة مهددة من الفرنج . وعند وصوله إلي مصر نودي به سلطانا وأعلن رسميا وفاة أبيه الملك الصالح . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : الصفحات ١٤٠- ١٤١، ١٨٧- ١٨٩ .

(2) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 246-247.

(٣) أنظر شروط المعاهدة بالتفصيل في : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١٦- ٢١٧ .

(4) Cf. Joinville PP. 258-259.

(5) Cf. Matthew of Paris,: Op.cit, Vol. II, P. 391.

وبعد إخلاء سبيل لويس التاسع وبقية قواته ، غادر ميناء دمياط قاصداً عكا فوصلها في الثالث عشر من مايو عام ١٢٥٠م حيث فرضت الظروف عليه ألا يعود إلى فرنسا إلا بعد إصلاح أحوال الصليبيين في الأراضي المقدسة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والتأكد من تنفيذ بنود المعاهدة التي وقعها مع مصر بإطلاق سراح بقية أسرى الصليبيين الموجودين في القاهرة . وقد تقرر ذلك في مجلس حرب عقده لويس بعد وصوله إلى عكا في الفترة من التاسع عشر من يونيو إلى الثالث من يوليو عام ١٢٥٠م ضم بارونات فرنسا والشام وجماعات الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون (١) وكان الاسبتارية كغيرهم من الجماعات الرهبانية في جانب الفريق الذي نادى بوجوب بقاء لويس التاسع في الشام لحماية الأمارات الفرنجية وحل مشاكها كي يتولى بنفسه على الأقل عملية إطلاق سراح أسراهم ومقدمهم وليم شاتونيف (٢) وأيضاً ينهى خلافاتهم مع الإمارات الصليبية في الشمال وجماعة الداوية .

وقد ساعدت ظروف مصر الحرجة بعد مقتل توران شاه والمتمثلة في الصراع بين الأيوبيين والمماليك (٣) على أن يعُجل من تولي السلطة بعده من المماليك بإطلاق سراح فريق من الأسرى الصليبيين يتراوح عددهم ما بين السبعمائة والثمانمائة أسير (٤) . وذكر روتلان أنهم كانوا خمسا وعشرون من الاسبتارية وخمس عشر من الداوية ، وعشرة من التيوتون ، ومائة فارس آخر على

---

(1) Cf. Rothelin : Op. cit P.622.

(٢) انظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على الشام ص ١١٠ – ١١١ .

(3) Cf. Matthew of paris : Vol . II, PP. 392 – 383.

ومزيد من التفاصيل حول هذه الظروف انظر :
سعيد عاشور المرجع السابق ص ١٩٨٦ – ١٠٩١ .

(٤) انظر الروايات المختلفة التي اوردتها المصادر الصليبية حول عدد هؤلاء الأسرى في :
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٥٨ .

جانب ستمائه أسير صليبي من الرجال والنساء (١) ووصل هؤلاء الأسرى ميناء عكا في السابع عشر من أكتوبرعام ١٢٥٠م / ثامن عشر رجل ٦٤٨هـ (٢) وكان فيهم وليم دي شاتونيف مقدم الاسبتارية وفرسانه الذين ذكر عنهم أنهم ثلاثون – وليس خمس وعشرون كما ذكر روتلان – وذلك في خطاب له بعض به إلى أحد اسبتارية الغرب الأوربي ويدعى جوتييه دي يلان مارتين Gautier de S. Martin وقد أوضح وليم في هذا الخطاب أن ظروف إطلاق سراحه وهذا العدد الضخم من الأسرى الصليبيين كانت مرتبطة بالخلاف القائم بين كل من سلطان حلب الناصر يوسف الأيوبي (١٢٣٦ – ١٢٦٠م) وسلطان القاهرة المعز عز الدين أبيك (١٢٥٠ – ١٢٥٧م) (٣) حيث جنح المماليك إلى إتباع سياسة تتسم باللين والمرونة مع صليبي الشام ، حينما أدركوا ما قد يترتب على ترددهم أو مماطلتهم في إجابة لويس التاسع إلى طلبه الخاص بإطلاق سراح الأسرى من عواقب وخيمة ، خصوصاً وأن الناصر يوسف صاحب حلب كان يقدم بين الحين والأخر العروض المغرية للفرنج من أجل أن يتحالفوا معه ضد مصر (٤) ونجح لويس التاسع بذلك في استغلال ظروف الخلاف القائم بين المسلمين لإطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وأثنى وليم شاتونيف في خطاب آخر له على دور الملك الفرنسي في هذا الصدد وتدخل لدى سلطان مصر حتى تم تنفيذ ذلك (٥) .

---

(1) Cf. Rothelin : Op.cit P. 625 .
(2) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 196-197.
Also: Stevenson, W.: Op.cit, P. 330 & n.1.
(3) Cf. Cartulaire Tome II no. 2540 P. 698.
(٤) أنظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٥٥- ١٥٧ .
(5) Cf. Cartulaire Tome II no. 2541 PP. 698-699.

وبالرغم من أن نظم الاسبتارية وقوانينهم تحرم افتداء الأسرى بأموال من الخزانة العامة للجماعة فإن متى الباريزى يذكر أن المقدم وليم شاتونيف أفتدى من الأسر بمبلغ ضخم من المال (١) مما يدل على أن القواعد المتبعة في نظام هؤلاء الفرسان كانت مرنه بالقدر الذي يجيز الخروج عنها وعدم التقيد بها في حالات تستلزم الاستثناء ، أو أن الخلل أخذ يستشرى في أوصالها ، بحيث لم تعد صارمة كما كانت في البداية ، بل أصبحت خاضعة في كثير من الأحيان للرغبات والمصالح الخاصة والعامة وهو ما تؤكده سلسلة التعديلات التي طرأت على نظم الجماعة خلال فترات قصيرة خصوصاً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (٢) .

وفي عكا أقام لويس التاسع في ظل حماية الاسبتارية وغيرهم من الفرسان الصليبيين ، حيث كانوا جميعاً على علم باستعدادات مسلمي الشام المزمعة ضد هذه المدينة (٣) في وقت ضعفت فيه الإمارات الإفرنجية ، بحيث لم يعد بوسعها القيام بهجوم جديد، أو الدفاع عن كيانها ضد أي هجوم قد يقع عليها (٤) ومن ثم اتجه الصليبيون ككل إلى العمل تحت قيادة الملك الفرنسي على تقوية تحصينات عكا (٥) كي يصبح بمقدورهم التصدي للهجوم المرتقب وهم في وضع دفاعي مناسب .

---

(1) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, P. 423.

وفي هذه المناسبة أشار متي الباريزي إلي تقليد اتبعته الجماعة ويتمثل في إيقاف العمل بخاتم المقدم حتى إطلاق سراحه من الأسر . ثم أضيف بأن وليم شاتونيف استخدم خاتمه لأول مرة بعد فكه من قيد الأسر في الخطابات التي أرسلها إلي رفاقه في الغرب الأوربي . أنظر Ibid : Idem .

(2) Cf. Cartulaire Tome III no. 3039 PP. 45-54 (A.D.1262)
no. 3075 PP. 75-77 (A.D.1263)
no. 3104 P. 91 (A.D.1264)
no. 3180 PP. 118-121 (A.D.1265)
no. 3317 PP. 186-188 (A.D.1268)

وجميعها قرارات لمجالس الجماعة العليا بشأن إضافات لبعض النظم أو إجراء تعديلات علي بعضها لعدم صلاحيتها لتطور الأوضاع المحيطة بالاسبتارية في الشام .

(3) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, P. 382-390.

(٤) أنظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٩١ .

(5) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 249.

وخلال إقامة ملك فرنسا في عكا في الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر عام ١٢٥٠م ، استقبل سفارة شيخ الجبل علاء الدين محمد الثالث زعيم الإسماعيلية (١) وكانت مكونة شخصين : أحدهما يقبض بيده على ثلاث خناجر ، بينما يضع الآخر حول ذراعه لفة من قماش الكتان . وقد أرادا بذلك تهديد الملك كي يذعن لمطالب شيخهما ؛ فالخناجر أمارة على التنبيه بخطر الاغتيال والقماش هو الكفن الذي يُدفن فيه من يرفض هذه المطالب . وكانت مطالب الإسماعيلية هي إما أن يدفع لهم لويس التاسع مبلغاً من المال إتاوة يضمن بها الأمان لنفسه من جانبهم وفي نفس الوقت يتقى شرورهم ، أو يبذل مساعيه لإعفائهم من دفع الجزية السنوية التي يؤدونها للاسبتارية والداوية . ويعلق جوانفيل على هذا المطلب الأخير بقوله أن شيخ الجبل كان يدفع هذه الضريبة للجماعتين بعد أن وجدهم لا يخشون بأس الحشيشية ولمعرفته الجيدة بأنه إذا ما اغتيل مقدم الاسبتارية أو نده سرعان ما يعين آخر مكانه لا يقل عن سابقه في الكفاءة والأهلية فلا طائل من وراء أعمال القتل التي يمكن أن يقوم بها الإسماعيلية ضد الاسبتارية والداوية طالما أنها لا تحقق المزايا التي تتلاءم مع عدد ضحاياها (٢) وإلى هذه الأسباب يضيف البعض تفسيراً آخر هو وقوع قلاع الإسماعيلية في الجبال بين طرابلس وحماه تحت إشراف مجموعة من المدن والحصون التابعة للفرنج وجماعتي الاسبتارية والداوية ، فكان الاسبتارية يمتلكون قلعة الحصن وقلعة المرقب مما مكنهم من السيطرة على

---

(١) أنظر الفصل الخاص بالسفارات بين لويس التاسع وإسماعيلية الشام في :
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٢٥- ٢٥٢ .
Also: Defeemery, M.C.: Nouvelles Recherches sur les Ismaeliens ou Bathiniens de syrie, et Principalement sur leurs rapports avec les Chretiens d'Orient in J.A. Tome V Paris 1855, PP. 44-46.

(2) Cf. Joinville PP. 277-278.
Also: Defeemery, M.C : Op.cit, PP. 45-46.

طرق مواصلات أصحاب الدعوة في الشام ، بل ويتحكمون فيها أيضا ، كما كان بوسعهم الإغارة منها على قلاع الباطنية ، فاضطر هؤلاء الأخيرين إلى دفع الضريبة للاطمئنان على سلامة مواصلاتهم ، وحتى لا يتعرض لهم أولئك الرهبان المحاربون بسوء (١) .

على أية حال عاد مبعوثو شيخ الجبل إلى مجلس ملك فرنسا في اليوم التالي، كما أخبرهما وكان قد أحضر وليم شاتونيف مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية للجلوس عن يمينه وشماله ، ثم طلب من الاسماعيلين أن يكررا ذكر المطالب التي بُعثا من أجلها على مسمع مقدمي الجماعتين (٢) ويرى البعض أن هذه الخطوة من جانب لويس التاسع لدليل على دهائه وسعة حيلته ، فهو يعلم أن اولئك الإسماعيلية مبعث الرعب في النفوس هم أنفسهم الذين يحسبون حساباً للداوية والاسبتارية كما أن هاتين الجماعتين كانتا أعلم منه بطبائعهم ووسائلهم ، وليس أدل على ذلك من تردد رسل زعيم الباطنية في إعادة الحديث أمام مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية (٣) .

وما كان من المقدمين إلا أن أمرا هاذين المبعوثين بأن يتبعاهما في اليوم التالي إلى دار الاسبتارية للتشاور في أمر هذه المطالب . وفي دير الجماعة بعكا أخبر مقدم الاسبتارية وزميله رسل شيخ الجبل من خلال مترجم مغبة اندفاع سيدهم وتجرؤه على أن يبعث بمثل هذه الرسالة المهينة ثم هددا المبعوثين بأن في أمكان جماعيتهما الإلقاء بالإسماعيلية في بحر عكا " القذر " إذا لم يبادروا بتكريم الملك الفرنسي وأضافا :

" لذا نحن نأمركما بأن تعودا إلى سيدكما (شيخ الجبل) كي تحضرا معكما في خلال أسبوعين

(١) انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٣٣- ٢٣٥ .

(2) Cf. Joinville : Idem.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

خطاباً ومجوهرات أو هدايا ثمينة بالقدر الذي يهدىء من روع فخامته (يقصد الملك لويس) ويجعله بتسامح راضياً عنكم " .

وقبل أن تنتهي المهلة المحددة ، عاد مبعوثو زعيم الباطنية إلى عكا ، وقد أحضروا معهم قميص شيخهم إلى الملك لويس وقدموه إليه على أساس أنه أكثر قرباً إلى الجسم من أي رداء آخر كدليل على أن شيخ الجبل جعل ملك فرنسا مقرباً إليه حباً ومودة أكثر من أي ملك آخر . كما بعث هذا الشيخ مع الرسل خاتماً من أروع أنواع الذهب قد نحت عليه اسمه إشارة إلى ارتباطه بتحالف كامل مع لويس التاسع " ، راغباً منذ ذلك الوقت وما يليه أن يكونا متحدين ، كما لو كان كل منهما قد خطب الآخر(١) وما يمكن تأكيده بالنسبة لهذا الوضع هو أن الموقف الحازم لكل من مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية كان له أثره في الوصول إلى هذه النتيجة لدى هؤلاء الحشيشية (٢) .

ويبدو أن أوضاع الصليبيين في شمال الشام كانت، حوالي ذلك الوقت ، على حال سيئة من الضعف بحيث أصبح المقيمين منهم يحددهم شعور الخوف إزاء أخطار مرتقبة من جانب المسلمين أو التتار . وقد وجدوا في قلاع الاسبتارية الضخمة كحصني الأكراد والمرقب ، ملاذاً للحماية لثقتهم في إمكانات الجماعة الدفاعية ، فاتجه كثيرون منهم إلى وضع أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم أو بعضاً منها تحت حماية فرسان القديس يوحنا . ومن هذا القبيل على سبيل المثال لا الحصر ما حدث في الثامن والعشرين من نوفمبر ١٢٥٠م ؛ إذ قام اثنان من فرنج اللاذقية (هما ثيودور وجورج) بوضع نفسيهما وعائلاتهما واقطاعاتهما تحت حماية اسبتارية المرقب مقابل التنازل عن نصف هذه

---

(1) Cf. Joinville : Op.cit, P. 278.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 249.

(٢) أنظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٤٢ حيث بدا له ذلك أيضا .

الإقطاعيات في حالة وفاتهما دون أن يتركا ورثة لهم ، أما إذا حدث العكس فيدفع إلى الجماعة عن كل طفل ضريبة سنوية مقدارها اثنين بيزنت (١) .

وفي ربيع عام ١٢٥١م وبعد استكمال تحصينات مدينة عكا ، حوّل لويس التاسع مقر إقامته إلى قيسارية حيث حصنها هي الأخرى بناءاً على نصيحة الاسبتارية والداوية (٢) وخلال إقامة الملك الفرنسي في قيسارية الفترة من مارس ١٢٥١م حتى مايو عام ١٢٥٢م (٣) حدث أن أساء بعض فرسان الاسبتارية إلى فرسان من فرقة جوانفيل ، فما كان من هذا الأخير إلا أن اشتكى أساءتهم إلى مقدم الجماعة الذي لم يتورع عن معاقبة هؤلاء الفرسان وفقاً للتقاليد المتبعة في نظام الاسبتارية إلى أن شفع فيهم جوانفيل لدى وليم شاتونيف فعفا عنهم (٤) وإلى جانب ما يراه البعض من أن هذا السلوك يعد نموذجاً لمدى ما وصل إليه النظام بين أعضاء الاسبتارية في هذه الفترة (٥) فإنه يشير إلى حرص الجماعة على الاحتفاظ بجانب العلاقات الطيبة مع الصليبيين القادمين من الغرب تقديراً لما يقدمه هؤلاء الأخيرين من خدمات في الأراضي المقدسة لصالحهم تتمثل في تعزيز أوضاعهم الحربية ضد المسلمين ، وأيضاً ضمان سيطرتهم على مزيد من الأراضي والممتلكات إذا أحرزت الحملة نصراً توسعياً على حساب الأقاليم المجاورة ، وفوق ذلك فإن الاسبتارية كانوا يحصلون على المزيد من المكاسب عن طريق الهبات والتبرعات التي ينعم بها عليهم لاتين الغرب كرد فعل للمعاملة الحسنة التي قوبلوا بها من جانب أعضاء الجماعة عند قدومهم إلى الشرق أو طوال الفترة التي قضوها هناك.

---

(1) Cf. Cartulaire Tome II no. 2545 P. 701.
(2) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, P. 460.
(٣) عن تفاصيل الحملة الصليبية السابعة في هذه الفترة . انظر :
Joinville : Op.cit, PP. 289-294.
(4) Cf. Ibid, PP. 292-293.
(5) Cf. King E.J. : Op.cit, P. 250.

ومع بداية الانهيار الذي أخذ يدب في أوصال المملكة الصليبية بمطلع النصف الثاني من القرن الثالث عشر . وعدم إسفار حملة لويس التاسع حتى ذلك الحين عن نتائج تبشر بإيقاف هذا التدهور أو الحيلولة دونه ، كان على البابوية في ظل هذا الوضع أن تواصل دورها ولو ظاهرياً في متابعة أحوال الأراضي المقدسة ، بالرغم من مشاغلها في الغرب الأوربي . وكان صليبيو الشام في ذلك الوقت أحوج ما يكونون إلى المساعدة بعد الهزيمة التي منيت بها القوات الصليبية على ضفاف النيل وافقدتها الكثير من الأموال والرجال والمعدات ؛ لذا بادر البابا انوسنت الرابع في الثامن عشر من مارس عام ١٢٥١م بالتصريح إلى جماعة الاسبتارية أنه تسلم الأموال التي جمعت ممن دفعوها كبديل لنذورهم بالخروج في حرب صليبية وأيضاً من دور الضيافة والأهالي المقيمين في المراكز التابعة للجماعة في الغرب الأوربي ، وذلك ضمن الجهود التي تبذل من أجل نجدة الأراضي المقدسة وإنقاذها (١) .

وبذلك قام فرسان القديس يوحنا بدور آخر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لصراع صليبيي الشام مع المسلمين في سبيل الإبقاء على الأرض التي انتزعوها من هؤلاء الأخيرين ثم احتلوها . ويقصد بهذا الدور تولى الجماعة مسئولية تمويل الصليبيين بنفقات الحرب الضرورية ، وهو أمر يعد خطيراً إذا ما قيس بعمل الفرسان الاسبتارية كعنصر محارب في ميدان القتال أو في المناوشات الدائرة بين الطرفين الصليبي والإسلامي ، لأن عمليات التمويل والإمداد يتوقف على مدى توفرها النتائج المترتبة على موقف الصليبيين بصفة عامة في أي ميدان من ميادين هذا الصراع . ومن الممكن أن يتأتى من جراء التقصير في القيام بهذه المهمة هزيمة نكراء ، وإن كانت أعداد الجند

---

(1) Cf. Cartulaire Tome II no. 2555 P. 706.

وفيرة ، ويبدو أن الاسبتارية كانوا محل ثقة بالنسبة للبابوية لتلقى على عاتقهم بعبء عمل من هذا القبيل لا بد وأن يتوفر فيمن يقوم به إلى جانب إمكانات الأداء شرط الأمانة ، بالرغم من أن هذا الشرط الأخير كان موضعاً للشك من جانب بعض المعاصرين إزاء الجماعات الرهبانية المحاربة بصفة عامة (١) .

على أية حال ، أدى استحكام الخلاف بين الأيوبيين في الشام بقيادة الملك الناصر يوسف (١٢٣٦ – ١٢٦٠م) سلطان حلب ، والمماليك في مصر بقيادة عز الدين أيبك (١٢٥٠ – ١٢٥٧م) (٢) إلى سعى هؤلاء الأخيرين من أجل التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم الأيوبيين . واسفرت الاتصالات بين الطرفين الصليبي والمملوكي عن توقيع معاهدة في أوائل مايو ١٢٥٢م أثناء إقامة لويس التاسع ملك فرنسا في قيسارية بعد أن وافق الصليبيون على الشروط المقترحة من جانب المماليك (٣) بما فيهم الاسبتارية الذين كانوا يميلون إلى سياسة التحالف مع مصر بصفة دائمة ؛ هذا بالإضافة إلى المكسب الكبير الذي من الممكن أن يتحقق لهم من وراء تعهد أمراء المماليك في هذه المعاهدة بإعادة بيت المقدس إلى الفرنج . ومقابل ذلك تعهد الملك الفرنسي بأن يشترك مع هؤلاء

---

(١) انظر ما سبق حديث روبرت كونت ارتو إلي مقدم الداوية وقائد الاسبتارية . وأيضا نص الكلام الذي وجهه الملك انجلترا إلي بريور الاسبتارية في مدينة كلير كينوول Clerkenwell الإنجليزية والنقاش الذي دار بينهما ، حيث قال الملك للبريور: " إن لديكم العديد من الامتيازات والحريات والمواثيق بقدر خلق فيكم شعور بالفخر مما جعلكم تستغلونها بحماقة وطيش " . وقد رد عليه رئيس اسبتارية انجلترا ردا يشير في مضمونه إلي مدي قوة الجماعة ونفوذها فيما وراء البحار أيضا إلي درجة التحكم في أمر تعيين الملوك واستخدام أسلوب الاغتيال للتخلص من بعضهم إذا تعرض بالإيذاء للجماعة أو أنصارها . أنظر بالتفصيل :

Matthew of Paris : Vol. II, PP. 502-504

(٢) أنظر تفاصيل هذا النزاع في :
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٦٣ وما بعدها .
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٨٦ وما بعدها .

(٣) أنظر تفاصيل هذا الشروط في :

Matthew of Paris : Vol. II, PP. 502-504.

أيضا : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١١٧- ١٧٩ .

الأمراء في القيام بحملة ضد سلطان حلب (الناصر يوسف الأيوبي) على أن تلتقي جيوش الحلفاء قرب يافا في نفس الشهر من هذا العام (١) .

وقد ذكر الراهب جوزيف دى كانس خازندار الاسبتارية في خطابه أن التركمان خربوا إقليم حصن الأكراد وطرابلس (٢) وتفصيل ذلك أن جيشاً قوامه عشرة آلاف من قوات التركمان قدموا من شيزر لغزو المنطقة الواقعة بين حصن الأكراد وطرابلس ، فأحرقوا العديد من القرى والأراضي ، كما ذبحوا كثيراً من الأهالي ، ثم عادوا إلى شيزر وهم يقتادون الأسرى والغنائم (٣) ورغم أن بولس ديشامب Paul Dechamps يجزم بأن هذا الجيش كان تحت إمرة أمير حلب (٤) إلا أن المؤرخ الغربي المعاصر متى الباريزى يشير إلى أن هجوم التركمان على هذه المناطق كان بإيعاز من سلطان حلب (٥) وهو ما يميل الباحث إلى تصديقه على أساس أن تحريض الملك الناصر يوسف الأيوبي التركمان على القيام بهذا العمل ضد الصليبيين ، كان منطوياً ، فيما يبدو ، على رغبته في جذب انتباه ملك فرنسا وصليبي الشام إلى ما يمكن أن يلحق بالممتلكات الصليبية في الشمال من أضرار إذا ما تمادوا بعيداً في تحالفهم مع غريمه سلطان مصر ، وبالتالي يستطيع على الأقل أن يثنيهم عن مساعدة خصمه إن فشل في ضمهم إلى جانبه في حلف ضد سلطان مصر . وهذا الموقف يفرض على سلطان حلب ألا يعلن عداوة للصليبيين بشكل ظاهر كقيادة حملة ضدهم ، وإنما

---

(1) Cf. Cartulaire Tome II no. 2605 PP. 726-727.

حيث يتضح في خطاب لجوزيف دي كانسي رئيس خزانة الاسبتارية الذي بعث به إلي احد أصدقاؤه في الغرب الأوروبي ويدعي : جوتييه دي سان مارتين بتاريخ ٦ مايو ١٢٥٢م موقف الجماعة من هذه الاتفاقية وأيضا أشار إلي بعض البنود السابقة التي سيكون لها تأثيرها علي علاقة الاسبتارية بسلطان حلب .

(2) Cf. Cartulaire Tome II no. 2605 PP. 726-727.

(3) Cf. Le Crac des Chevaliers P. 130.

(4) Ibid, Idem.

(5) Cf. Matthew of Paris : Vol. II, P. 501.

اكتفى بأن يدبر في الخفاء ، أو بطريق غير مباشر لما يخدم أغراضه ونواياه (١) لكن دوره في الهجوم الذي شنه التركمان على منطقتي حصن الأكراد وطرابلس كان غير خافيا على " الفرنج " بدليل أن العيني أشار في حوادث هذا العام (١٢٥٢م / ٦٥٠هـ) إلى أن حريقا شب في مدينة حلب " احترق بسببه ستماية دار " وأن الصليبيين هم الذين " ألقوا فيها قصداً " (٢) مما يعد انتقاما لما أصابهم بسبب تدبير سلطان هذه المدينة . وبالنسبة للاسبتارية فإن حملة كهذه ضد " قلعة الحصن " فرضت عليها القيام بعمل حربي من أجل الدفاع ,عن إحدى معاقلهم الضخمة وممتلكاتهم المجاورة إلى جانب ذلك الدور الذي أسهم به هؤلاء الفرسان مع لويس التاسع في مشروعاته العسكرية وكذلك أعمال التحصينات التي قام بها . وقد نجحت حامية الجماعة المقيمة في حصن الأكراد في التصدي للخطر التركماني وحماية القلعة من السقوط في أيديهم رغم ما أصابهم من خسائر (٣).

ومهما يكن من أمر فإن لويس التاسع غادر مدينة قيسارية بقواته في مايو ١٢٥٢م قاصداً يافا لتنفيذ أحد البنود الرئيسية في اتفاقيته مع المماليك في مصر ، وهو التحالف معهم في حملة ضد سلطان حلب . لكن هذا الأخير بادر بإرسال جيش قوي احتل غزة ليمنع أي تقدم من ناحية مصر (٤) وخلال عام كامل قضته القوات الصليبية في يافا حيث قويت تحصينات المدينة ورممت ، حدثت مناوشات بين الصليبيين ومن انحاز إليهم من حلفاء المماليك وبين سلطان حلب وحلفاؤه الخوارزمية (بلقب جوانفيل حاكمهم بلقب حاكم الشام وفارس) وأهم هذه العمليات الحربية بالنسبة لموضوع

---

(١) لمزيد من التفاصيل الاخري بالنسبة لتفسير موقف سلطان حلب أنظر :
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٩٦ .
(٢) أنظر : عقد الجمان ج١٨ ق٢ لوحة ٣٣٩ .

(3) Cf. Deschamps, P. Op.cit, P. 130.
(4) Cf. in Idetails : King E.J.: Op.cit, PP. 250-251.

البحث تلك الموقعة التي أراد بها الصليبيين الانتقام من الأمير الخوارزمي بارباقان Barbaquan حليف سلطان حلب ، والذي بعد هزيمته على يد أحد أمراء التتار قام بعدة هجمات على بلاد مملكة بيت المقدس ثم اتجه جنوباً للحاق بقوات سلطان حلب عند غزة .

فقد قرر بارونات المملكة الصليبية والبطريرك التحرك لمباغتته بالهجوم ، بالرغم من عدم وصول قوات حليفهم سلطان القاهرة ، واستعانوا في تنفيذ هذا المخطط بسلطان حمص الأشرف موسى الثاني (١٢٤٦ – ١٢٦٣م) حليف سلاطين المماليك (١) وقد أخذ الجيش الصليبي تشكيله في قسمين أحدهما بقيادة الكونت جوتييه Comte Gautier ومعه الاسبتارية ، بينما ضم القسم الآخر البطريرك وبقية صليبي الشام ، ثم انضم سلطان حمص بقواته إلى جانب الصليبيين مكوناً قسماً ثالثاً للقوات الصليبية الإسلامية المتحالفة ضد سلطان حلب . وتحرك الجميع في اتجاه القوات الخوارزمية حتى أصبحت على مرأى منهم ، فاضطروا إلى التوقف ريثما تنتظم الصفوف للقتال . ويذكر حنا جوانفيل أنه بينما كان الخوارزمية ينظمون رجالهم التفت الكونت جوتييه إلى رجالنا وصاح : أيها السادة في سبيل الله دعونا نذهب ونهاجمهم ، لأننا باستمرارنا في التوقف نعطيهم وقتاً ، " لكن لم يصغ إليه أحد " ثم يضيف أنه بتشجيع من أسقف كنيسة الرملة ، تقدم الكونت جوتييه وخلفه الفرسان الاسبتارية وهاجموا مؤخرة الجيش الخوارزمي حيث قتل من الجانبين عدد كبير ، ووقع في قبضة الأسر الكونت جوتييه ومقدم الداوية وآخرون ، وقد أرسل القائد الخوارزمي الكونت جوتييه هدية إلى سلطان القاهرة (٢) بالرغم من أن الخوارزمية لم يكونوا حلفاء هذا الأخير في تلك المعركة .

---

(١) لان المماليك كانوا قد استحضروه وهو طفل صغير السن وجعلوه سلطانا تحت وصايتهم في عام ١٢٥٠م وذلك لكي يدعموا مركزهم في نظر الرأي العام الاسلامي لكن حيلتهم هذه ـ كما يري البعض ـ لم يقدر لها النجاح أنظر : سعيد عاشور: المرجع السابق ص ١٠٨٧.

(2) Cf. Joinville ; Op.cit, PP. 297-299.

وبينما كان ملك فرنسا معسكراً بقواته قبالة يافا أسرع رئيس جماعة القديس لازار (لعازر) St. Lazarus (١) إلى مكان على مقربة من مدينة الرملة طمعاً في الظفر بما رآه هناك من الماشية والأسلاب . لكن ما إن جمع غنائمه وتهيأ للعودة حتى هاجمه جماعة من المسلمين وألحقوا به وبرجاله هزيمة ساحقة ، بحيث لم ينجوا بالهرب منهم سوى أربعة عادوا مع رئيسهم إلى المعسكر الصليبي ، الذي استغاث بالملك الفرنسي لحمل السلاح ، والخروج لحرب هؤلاء المسلمين ويضيف جوانفيل أن لويس التاسع أمره بأن يخرج ومعه الفرسان الداوية والاسبتارية لنجدة رجال جماعة القديس لازار . وقبل وصول جوانفيل بفرقته والاسبتارية والداوية إلى مكان المعركة كان رماة الأقواس من القوات الملكيـة الفرنسية قد استطاعوا التصدي لجماعة المسلمين " وقتلوا عدة منهم " (٢) .

وظل الملك لويس مقيماً في يافا في انتظار وصول حلفائه المماليك . لكن الخليفة العباسي كان قد تدخل لإيقاف النزاع ، وإنهاء الخصومات القائمة فيما بين هؤلاء الأخيرين ومنافسيهم الأيوبيين. وأسفرت هذه الوساطة عن عقد صلح بين الجانبين الأيوبي والمملوكي في أول أبريل عام ١٢٥٣م فأدى ذلك إلى ضياع الفرصة التي أتيحت للملك الفرنسي للحصول على مدينة بيت المقدس وفقاً لاتفاقية التحالف التي أبرمها قبل ذلك مع المماليك ضد الأيوبيين (٣) وكان أن أصدر الملك الناصر

---

(١) جماعة القديس لازار (لعازر) يرجع اصلها الي احد مستشفيات الجزام في بيت المقدس . وقد تحول الي جماعة رهبانية بعد قيام الحروب الصليبية مباشرة علي نمط جماعة الاسبتارية وعرفت بأسم { جماعة القديس لعازر } وكانت ترمي الي اعانة المرضي ثم انضم اليها كثيرا من الرهبان المحاربيين الذين اشتهروا بين المسلمين في الشام . وادخل لويس السابع هذه الجماعة في فرنسا عام ١١٥٤م . وفي ١٢٥٣ نقل رئيس الجماعة المركز الرئيسي لها من عكا الي فرنسا بوماقفة لويس التاسع . وسرعان ما انتشرت مبادئها في الغرب واوقفت عليها الكثير من الممتلكات والعمائر . انظر :
جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٩٨ حاشية ١ .

(2) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 300-301.

(٣) أنظر التفاصيل : سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١٠٩٧ .

الأيوبي ، عقب توقيع هذا الصلح ، الأوامر إلى قواته المرابطة على مقربة من غزة للعودة إلى قواعدها في دمشق . وقد أخذت هذه القوات وهي في طريق عودتها تتحرش بالقوات الصليبية ووقع بين الفريقين العديد من المعارك قبالة يافا وعكا وصيدا وفي بانياس (١) وبالنسبة لهذه المدينة الأخيرة كان الاسبتارية في مقدمة العناصر الصليبية التي دعت إلى خطة مهاجمتها والاستيلاء عليها بعد أن صرف الصليبيون نظرهم عن مدينة نابلس (٢) ثم انضم مقدم الاسبتارية وليم شاتونيف ومجموعة من فرسانه إلى قوات ملك فرنسا والكونتات الفرنج لتنفيذ هذا المخطط ، وقد تم وضع خطة مهاجمة بانياس حيث تعيّن للاسبتارية بقيادة مقدمهم دخولها من جهة اليمين ، بينما يتخذ البارونات الصليبيين موقعهم لدخولها من ناحية اليسار ، في الوقت الذي يحول فيه الداوية دون أي تقدم على الطريق إلى المدينة ، أما جوانفيل فحدد له أن يتمركز بما معه من القوات في المكان ما بين القلعة والمدينة للقيام بعمليات الإمداد (٣) وكان طبيعياً أن يلقى على عاتق فرسان القديس يوحنا العبء الأكبر في تنفيذ هذه الخطة والمشاركة الأساسية في مهمة دخول بانياس والاستيلاء عليها بحكم معرفتهم القديمة بخبايا المكان وكذلك القلعة حيث تولوا أمر الحراسة والدفاع عنهما لعدة سنوات (٤) وبعيد عن المغالاة القول بأن الاسبتارية كانوا المدبرين لخطة الاستيلاء على بانياس أو على الأقل هم الذين حرضوا الصليبيين على الاتجاه نحو هذه المدينة ، لتيقنهم من أنها كانت ستؤول إلى حوزتهم بمجرد سقوطها ي أيدي اللاتين تقريراً لملكيتهم السابقة لنصف المدينة والقلعة .

---

(١) انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٠٠ .
(٢) عن الهجوم الصليبي علي نابلس انظر :
اليونيني : ذيل مرآة الزمان المجلد الاول ص ١٥٧ .

(3) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 306-308.
(4) Cf. Cartulaire Tome I no. 258 PP. 195-196.
انظر ايضا ما سبيق في الفصل الخاص بدور الجماعة في الصراع الصليبي الاسلامي في القرن الثاني عشر .

كيفما كان الأمر ، تحرك الصليبيون نحو بانياس لتنفيذ مخططهم السابق الذي اتفقوا عليه ، وقد عانوا الكثير من المصاعب في تقدمهم إليها حتى وصلوها وكانت مفاجأة لهم بأن وجدوها مهجورة بينما اعتصم المدافعون عنها بقلعة الصبيبة . وما إن عاد الفرنج عنها حتى استدار نحوهم المسلمون ثم هاجموهم من الخلف مترجلين وصوبوا إليهم ضربات قوية من على قمم الصخور رمياً بالأقواس مما اضطر الصليبيين إلى العودة في اليوم التالي إلى صيدا حيث وجدوا الملك الفرنسي يتجهز لإعادة تحصينها بالأسوار المرتفعة والأبراج (١) وكانت إقامة لويس التاسع في صيدا في الفترة من يوليو ١٢٥٣ حتى فبراير ١٢٥٤م (٢) لذلك فإن الحملة على بانياس حدثت في شهر يوليو ١٢٥٣/ جمادى الأولى ٦٥١هـ أو بكلمة أدق في الأيام الأولى منه ، وهي حملة – لم تلق نجاحاً يذكر (٣) .

وعاد لويس التاسع بالقوات الصليبية من صيدا قاصداً عكا توطئة للرحيل إلى الغرب (٤) وقد غادر ميناء الشام الصليبي في الرابع والعشرين من أبريل عام ١٢٥٤م بعد أن قضى في الأراضي المقدسة أربع سنوات ، بذل خلالها جهداً كبير في سبيل تدعيم مركز الصليبيين بالشام ، وتصفية ما بينهم من خلافات (٥) وبالرغم من ذلك فقد أضحوا بعد رحيله في موقف أكثر حرجاً مما كانوا عليه وقد عبر بولس ديشامب عن هذا الوضع بقوله أن القديس لويس ترك الإمارات الفرنجية في حال يرثى له (٦) فكان أن عادت من جديد أغارات المسلمين والتي بدأت على الحدود الشمالية للمملكة

---

(1) Cf. Joinville : Op.cit, PP. 308-310.

ومزيد من التفاصيل في : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١٤- ٢٢١ .

Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 197-198.

(2) Cf. Joinville : Op.cit, P. 306.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١٧-٢٢٣ .

(4) Cf. Joinville : P. 318 seq.
Also: De Vertot, Tome I, P. 444.

(5) Cf. Ibid, Idem.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 198.

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٠٣ .

(6) Cf. Le Crac des Chevaliers P. 130.

الصليبية بالهجوم على إمارة إنطاكية ،والتقدم حتى أسوار المدينة ثم حصار صافيتا Chastel-Blanc ، وقد تضامن الاسبتارية مع بوهيمند السادس والداوية في درء الخطر الإسلامي عن هذه القامة الأخيرة (١) ومن المحتمل أن فرسان القديس يوحنا حاولوا التخفيف من وقع هجوم المسلمين على أملاكهم في الشمال عن طريق هجوم مضاد شنوه على بعرين (بارين) بالاشتراك مع الداوية في عام ١٢٥٥م (٢) .

وحول عكا بث المسلمون الرعب في نفوس الصليبيين ، مما حدا بهؤلاء الأخيرين ممثلين في الاسبتارية والداوية وبارونات الأراضي المقدسة إلى أن يجددوا الصلح معهم في هذا العام (١٢٥٥م) بتوقيع هدنة مدتها عشر سنوات ". وقد أقرت هذه الهدنة للصليبيين ملكية الإقليم الواقع ما بين نهر ارسوف وضواحي بيروت (٣) ولم يدخل كونت يافا في هذا الصلح حتى يتسنى للصليبيين تنظيم عمليات حربية ضد المسلمين دون خرق الهدنة بشكل مباشر (٤) وقد استغل هذا الظرف جيوفرى سارجين قائد القوات الفرنسية التي بقيت في الشام بعد رحيل ملك فرنسا ، فقام بغارة للسلب والنهب على ممتلكات الدولة المملوكية الواقعة ما بين غزة وعسقلان ثم عاد محملاً بغنائم كثيرة ومتنوعة الأمر الذي جعل حكومة المماليك في القاهرة تعهد إلى حاكم بيت المقدس التابع لها بالانتقام من الصليبيين فأغار بدوره على إقليم يافا وأيضا على بلاد الصليبيين الداخلة في نطاق الهدنة ، والحق بالجماعات الرهبانية خسائر جسيمة إذا أسر مائة من الاسبتارية والداوية فضلاً عن أربعين

(1) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 198.
(2) Cf. Stevenson, W.: Op.cit, P. 134 & n.4.
(3) Cf. Estoire D'Eracles: Op.cit, P. 442.
Also: Rothelin: Op.cit, P. 630.
(4) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 198-199.

الف رأس من الدواب والماشية (١) وعندما كرر إغارته على يافا مرة أخرى استطاع الصليبيون أن ينزلوا به الهزيمة في السابع عشر من مارس عام ١٢٥٦م وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين قدره روتلان بألفين بينهم حاكم بيت المقدس نفسه (٢) وترتب على ذلك تجديد الصلح بين الطرفين الإسلامي وبمثله سلاطين مصر ودمشق والصليبي وبمثله الاسبتارية والداوية وبارونات الأراضي المقدسة وكونت يافا وجيوفرى سارجين مندوب ملك فرنسا (٣) .

وفي ظل بوادر الخطر المحدقة بلاتين الشام من كل جانب وتحول الأمور بالنسبة لهم من سيء إلى أسوأ خصوصاً بعد أن اشتد أوار الحرب الأهلية فيما بينهم (٤) تلاشى عنصر الأمان أو الطمأنينة لدى الكثيرين منهم فاتجهوا إلى التخلص مما في حوزتهم من أملاك استعداداً للرحيل إلى الغرب ، أو البقاء تحت حماية إحدى الجماعات الرهبانية المحاربة وبالذات الاسبتارية الذين استحوذوا على نصيب الأسد من الممتلكات أو الاقطاعات التي تخلى عنها أصحابها لنفس السبب ولم يقتصر الأمر بالنسبة للاسبتارية في هذا الصدد على الهبات أو التنازلات ، وإنما تعداها إلى حالات الشراء لكن بأسعار رمزية أو ثمن بخس وقل كثيراً عن قيمة مبايعات (بيوع) أخرى تمت في فترات سابقة ، مما يدل على رغبة أصحابها في التخلص منها لشعورهم بالخوف إزاء الأخطار المتزايدة حولهم خصوصاً وأن عمليات البيع والتنازلات الكثيرة للجماعة حدثت تقريباً في عام واحد

---

(١) الملاحظ ان هذا الرقم الاخير المتعلق بالسبي منالدواب والماشية مبالغ فيه لكنه يدل علي الاقل علي انالغنائم والاسلاب التي حصل عليها الصليبيون كانت كثيرة .

(2) Cf. Rothelin: Op.cit, PP. 631-632.

(3) Cf. Rothelin: Op.cit, P. 633.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, Idem.

(٤) أنظر تفاصيل هذه الاوضاع في :

Rothelin: Op.cit, PP. 633-634.
Also: Le Roulx, J.D.: P. 199 seq.

ما بين أغسطس ١٢٥٤ م وابريل عام ١٢٥٥م (١) ودلالة على تسرب الخوف إلى نفوس المقيمين منهم ، بحيث فقد معظمهم الأمل في الاستقرار على أرض الشام (٢) ومن ناحية أخرى فإن الاسبتارية ظلوا بالرغم من ذلك مستمرين في الاستحواذ على مزيد من الممتلكات والاقطاعات وهم على يقين بحقيقة الأوضاع المحيطة بالمملكة اللاتينية في الشام ، والتي لا تبشر بدوام بقائها بعد أن فقدت مقومات هذا البقاء وسط محيط عدواني خارجي وحروب أهلية في الداخل . ومن الجائز أن فرسان القديس يوحنا رأوا في الحصول على هذه الاقطاعات بلا مقابل يذكر ، اتساعاً لنفوذهم إلى جانب أنهم لم يفقدوا الأمل في مساعدات أو نجدات مقبلة قد تؤدى إلى تغيير هذا الوضع الحرج بالنسبة للصليبيين إلى ما هو أفضل إن لم تستطع إعادة لاتين الشرق إلى ما كانوا عليه في البداية وهو شعور – كما بدا من موقف هؤلاء الفرسان – ظل يساورهم حتى اللحظة الأخيرة من سقوط آخر معقل صليبي في البلاد الشامية .

والملاحظ أنه خلال هذه الفترة التي أعقبت الحملة الصليبية السابعة والمليئة بالخلافات والنزاعات فيما بين الجموع الصليبية المختلفة أو بين الأمراء والبارونات الصليبيين بعضهم البعض انخرط الاسبتارية في هذه الحروب الأهلية والمشاكل الداخلية للمملكة اللاتينية ، مما قلل كثيراً من فاعلية دورهم في الصراع الصليبي الإسلامي ، شأنهم شأن بقية العناصر الصليبية . واقتصر الأمر بالنسبة لهؤلاء الفرسان في ذلك الوقت ، كما يرى البعض ، على بذل محاولات جادة لإمداد قلاعهم بالحاميات المناسبة وتعزيزها باستمرار (٣) لضمان الدفاع عنها ضد أي خطر إسلامي مرتقب دون

(1) Cf. Cartulaire Tome II Nos. 2661-62, PP. 750-752
No. 2670 P. 755.
No. 2688 PP. 761-763, no. 2693, PP. 764-766.
No.2714 PP. 772-773, nos. 2721-22 PP. 775-776.
No. 2725 P. 776.
(2) Cf. Deschamps, P. op.cit, P. 130.
(3) Cf. Deschamps, P. op.cit, P. 130.

ان يوضع في الاعتبار حساب لقوة المماليك الناشئة في مصر بحيث لم يدركوا هم والصليبيين جميعا ـ فيما يبدو ـ أن هذه القوة من الممكن أن تسترد ما بقى في أيديهم من مدن وقلاع ، عندما تتهيأ لها الظروف لتنفيذ هذه المهمة ، وهو ما شهدته بالفعل العقود الأربعة التالية من القرن الثالث عشر .

ونظرا لأن جبل الطور كان بالنسبة للصليبيين المكان الذي شهد عظمة المسيح ومجده ، فقد اخذ البابا باسكال الثاني الدير الواقع في هذا الجبل تحت حماية البابوية في عام ١١٠٣م (١) واوقف الملوك والأمراء الصليبيون العديد من الأراضي والاقطاعات لرهبان هذا الدير (٢) وعلى مدى قرن ونصف قرن " (١١٠١م – ١٢٥٠م) أصبح للاسبتارية ي منطقة جبل الطور ما يمكن أن يشبه الأمارة أو الدومين بحصولهم عن طريق التنازل أو الشراء على كثير من الاقطاعات هناك (٣) ومن ثم فإنه يحكم نفوذهم في هذه المنطقة أعطاهم البابا اسكندر الرابع Alexandre IV (١٢٥٤ – ١٢٦١م) في أول أبريل عام ١٢٥٥م دير جبل الطور بكل حقوقه وملحقاته (٤) وأخطر بذلك رؤساء الأساقفة ورهبان الأديرة ، خصوصا رئيس أساقفة صور ورهبان دير سيدة يهمو شافاط Josaphat في عكا (٥) .

---

(1) Cf. Cartulaire Tome II no. 2832 PP. 826-828.

(٢) في عام ١١٠١م اقر تنكريد امير الجليل لكنيسة جبل الطور ملكيتها للاقطاعات التابعة لها في المنطقة . أنظر :
Carta di Tancredi Principe di Galilea in Cod. Dipl. No. CLVI P. 200.
وفي عام ١١٠٧م أعطي بلدوين الاول ملك بيت المقدس العديد من الاراضي لرهبان الدير أنظر:
Lettera di Balduino, Primo Re di Gerusalemme in Cod. Dipl. No. I, P. I.

(٣) في "مجموعة وثائق الاسبتارية " افرد الناشر في الجزء الثاني منها ملحقا يحتوي علي ست وعشرون وثيقة تتعلق بممتلكات الجماعة في جبل طور . أنظر :
Cartulaire Tome II P. 896 seq.

(4) Cf. Cartulaire Tome II Nos. 2726-2729 PP. 777-779.
Nos. 2745-2747 PP. 785-787.
No. 2829-2831 PP. 823-826

(5) Cf. Ibid Tome II no. 2729 PP. 778-779.

وفوق جبل الطور أيضاً قلعة قوية كان قد أقامها الملك المعظم عيسى (١) وشكلت خطراً جسيماً بالنسبة للصليبيين فحاولوا الاستيلاء عليها دون جدوى – كما سبقت الإشارة (٢) وظل الأمر على هذه الحال إلى أن عادت إليهم بمقتضى بنود الصلح الذي عقد بين ريتشارد كورنوول والصالح نجم الدين أيوب (٣) وقد آل حصن الطور أيضاً إلى الاسبتارية ، وتمثلت أهميته بالنسبة للصليبيين بصفة عامة في موقعة على الحدود وحماية الناصرة والجليل الجنوبي مثل قلعة صفد في شمال الجليل ؛ فضلاً عن أنه ضمن للجماعة الاحتفاظ بأملاكيها الواسعة في هذه المنطقة . ولإدراك الاسبتارية لأهمية حصن الطور الدفاعية ، عينوا أحد فرسان الجماعة البارزين ويدعى جوسلين Jocelnus (Jocelin) قسطلانا لهذه القلعة (٤) وقد ترتب على إسناد هذه المهمة إلى الجماعة أن وضعت حامية من فرسانها في الحصن وزودتها بالمؤن والمعدات اللازمة ، وبالرغم من أن تحصين هذا الموقع كان عوناً كبيراً في الدفاع عن الكيان الصليبي ، إلا أن الحصول عليه كان غير مربحاً بالنسبة للاسبتارية – كما يرى بعض الباحثين – إذ أنه بالإضافة إلى ارتفاع نفقات الدفاع عنه (٥) فقد زاد من أعباء الاسبتارية الحربية لوقوعه قريباً من الحدود مع المسلمين ، لدرجة أنه كان على مرأى منهم في وقت بدأوا يشكلون فيه خطراً على الصليبيين أكثر من ذي قبل . ويضيف الأب دى فيرتوت بأن المقدم وليم شاتونيف لم يدقق النظر في مثل هذه المخاطر ، وإنما بادر بتزويد موقع

(١) انظر : المقريزي السلوك ج١ ص ١٧٦از
أيضا : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٩١٢ .
(٢) انظر ما سبق ص .
(٣) سعيد عاشور المرجع السابق

(4) Cf. Les Archives P. 218.
Also: King, E.J.: Op.cit, P. 253.
(5) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 204.

جبل الطور بحامية من الفرسان (١) ثم تلا ذلك بالعمل على زيادة تحصينات " قلعة الحصن " الواقعة في كونتية طرابلس دون أن يفكر في وسيلة لردع عمليات المسلمين الحربية مكتفيا بأن وضع أيضا مائة فارس بجميع ما لدى الاسبتارية من قوات محاربة بعد ذلك في قلعة ارسوف التي تعد حداً مع مواقع يقيم فيها المسلمون ، وذلك كرصيد حربي لمجابهة أي أخطار متوقعة من هذا الجانب (٢) .

وقد نجح وليم شاتونيف في أن يقر قبل وفاته مسألة ظلت معلقة فترة طويلة ، وهي تلك الخاصة بنفقات الدفاع عن قلعة عسقلان . فمنذ أن حصلت عليها الجماعة من الإمبراطور فردريك الثانى في عام ١٢٤٣م كان مستحقاً لها نفقات الدفاع التي قررها المرسوم الامبراطورى عن الفترة من ذلك العام حتى يناير عام ١٢٥٧م ؛ فقد حصل مقدم الاسبتارية على مائة وخمسون قطعة من الأرض في إقليم عسقلان من حنا ايلين كونت يافا وعسقلان وسيد رام الله تعويضاً للجماعة عن هذه النفقات التي جعلت لها نظير الدفاع عن القلعة المذكورة (٣).

وهكذا لم يتعدى دور الاسبتارية في ذلك الوقت هذه الإجراءات الوقائية للحفاظ على ممتلكاتهم واقطاعاتهم ضد أخطار مرتقبة . ويبدو أنهم احتذوا في هذا الصدد سياسة لويس التاسع في تحصينه للمدن الصليبية حتى يضمنوا لأنفسهم القدرة علي المقاومة والدفاع عن معاقلهم إلى أن تصلهم إمدادات من الغرب عقدوا عليها رجاءهم ، وقد أصبحت بنهاية حملة لويس في حكم الخيال . وكان ذلك في واقع الأمر من الأمارات الدالة على الإسراع نحو النهاية بالنسبة للوجود الصليبي في الشام وبالتالي بالنسبة للفرسان الاسبتارية - موضوع الدراسة - إذ أن تقوقع هؤلاء الأخيرين داخل قلاعهم

(1) Cf. De Vertot, L`Abbe: Tome I P. 445.
(2) Cf. Ibid : Idem.
(3) Cf. Cartulaire Tome II No. 2845 PP. 833-834.

ومعاقلهم إلى جانب انشغالهم بمشاكلهم المزمنة مع أمارة إنطاكية (١) والنزاع مع الداوية (٢) ثم الانغماس في خلافات المدن الإيطالية التجارية (٣) بشكل كان لا يوحى بنهاية محددة ، كما يشير إلى ذلك عدم الالتزام بقرارات التحكيم الصادرة بشأن حل هذه الخلافات في أحيان كثيرة ، بل كان طغيان الأطماع والمصالح الشخصية لجميع الأطراف هو السمة السائدة . وقد أوقف ذلك كله نشاط الاسبتارية الحربي كغيرهم من الجموع الصليبية ضد المسلمين ، كما حال دون أي استعدادات من جانبهم على المستوى الذي كان معروفاً عنهم من قبل ، مما أوقعهم في حالة من الجمود والاسترخاء حتى أتتهم ضربات سلاطين المماليك في عقر معاقلهم لتستردها منهم الواحدة تلو الأخرى .

وحوالي ذلك الوقت بدأ الغزو المغولي للشام ، حيث استولى هؤلاء المغول على حلب وحارم وحماه ودمشق وقيسارية وبلاد الإسماعيلية وغيرها كما خربوا القلاع وفتكوا بالأهالي لفترة امتدت نحو ستة أشهر (من أوائل سبتمبر ١٢٥٩م حتى مارس ١٢٦٠م) (٤) وكان أكثر المسيحيين حماساً لهذا الغزو رجال الكنيسة الشرقية من أرمن وسريان ويعاقبه ونساطرة ، لأنهم وجدوا فيه فرصة للثأر من الإسلام والنيل من المسلمين (٥) لذلك كان موقف المغول ودياً إزاء هؤلاء الأرثوذكس وكنائسهم (٦) هذا بينما وقف الصليبيون في البداية موقف المتردد من الحركة المغولية

---

(١) عن الجهود التي بذلت والتسويات التي تمت مع بوهيمند السادس امير انطاكية وكونت طرابلس بشأن المسائل المعلقة في هذه المشاكل انظر :

Cartulaire Tome II Nos. 2916-2917 P. 868 (A.D. 1259)
Cartulaire Tome III Nos. 3020-3022 PP. 27-29 (A.D. 1262)

(٢) عن محاولات حل هذا النزاع بطريق التحكيم انظر :

Cartulaire Tome II No. 2784 P. 802 (A.D. 1256) , no. 2943, P. 885 (A.D. 1260)
Tome III Nos. 3027-3029-3032 PP. 30-33-35 (A.D. 1262).

(3) Cf. La Monte, J.: Op.cit, PP. 74-75-83.
Also: Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II. P. 569.

(4) Cf. Rothelin: PP. 635-636.
Also: Les Gestes des Chiprois : P. 751.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٢٩.

(6) Cf. Les Gestes des Chiprois : PP. 751-752.

فقد اجتمع القادة الصليبيون على اثر تمكن هذا الخطر من البلاد الشامية وقرروا تعزيز الدفاع عن المدن والقلاع الصليبية ومن بينها قلاع الاسبتارية والداوية واليتوتون ومدينتي عكا وصور (١) والأكثر من ذلك أنهم أرسلوا إلى الغرب يطلبون مساعدات حربية لا ضد المسلمين وإنما ضد المغول وحلفائهم المسيحيون الشرقيين (٢) ويبدو أن المغول كانوا يدركون حقيقة موقف صليبيو الشام منهم فضاعفوا من إظهار ميولهم نحو خصومهم في مناسبات مختلفة . ومن هذا القبيل موافقة هولاكو على عدم تخريب سور مدينة حماه حينما علم بأن هذا السور يحمى المدينة من اسبتارية حصن الأكراد (٣) .

وبمجرد أن أعلن سيف الدين قطر سلطاناً على مصر في نوفمبر عام ١٢٥٩م ، أعد العدة لحرب المغول ؛ ثم رحل من غزة سالكاً طريق الساحل للقائهم " فاجتاز بمدينة عكا" لاستطلاع موقف الفرنج من المغول حيث تأكد حيادهم "واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه " (٤) ويذكر بعض الرواة أن الاسبتارية كانوا مناصرين لفكرة عدم التحالف مع المسلمين ضد المغول (٥) وكانوا كغيرهم من الصليبيين يضعون مصالحهم في المقام الأول دون مراعاة لعهود قطعوها على أنفسهم كتلك التي استحلفهم عليها قطز . فسرعان ما تحالف ملك أرمينيا وبوهيمند السادس أمير إنطاكية مع المغول من أجل الحفاظ على أملاكهما، ورغبة في الحصول على أية مكاسب مترتبة على هذا التحالف (٦) وهو ما اتجه إليه الاسبتارية أيضاً بعد ذلك ؛ كما استغل الصليبيون أيضاً فرصة انشغال

---

(1) Cf. Rothelin: P. 636

(2) Cf. Cartulaire Tome II No. 3059 P. 69.

(٣) أنظر : ابن الوردي : تاريخة ج٢ ص ٢٩٣ .

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب لوحة ١١٣ .
ابن دقماق: نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، مخطوط لوحة ١٢٢- ١٢٣ .

(5) Cf. Archer & Kingsford : Op.cit, P. 413.

(6) Cf. Les Gestes des Chiprois : P. 751.

سلطان مصر بالاستعداد لحرب المغول وخرجوا ممثلين في الداوية (من دير عكا وصفد والحجاج) وحنا ايلين سيد بيروت ، وحنا صاحب جبله ومارشال المملكة الصليبية وفرسان عديدين من عكا وهاجموا حشداً كبيراً من التركمان في أراضى طبرية (١) .

وفي الثالث من سبتمبر عام ١٢٦٠م / الرابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ تقابل السلطان قطز مع المغول وهزمهم عند قرية عين جالوت . وقد ترتب على ذلك قضاء المماليك على بقايا الأيوبيين في الشام ، إذ أن تخاذل هؤلاء الأخيرين في الدفاع عن البلاد الشامية ضد الخطر المغولي (٢) كان إعلانا لتنازلهم عن ملكهم في هذه البلاد ، إما للمغول وإما للمماليك إذا انتصروا عليهم وهو ما أسفرت عنه هذه الموقعة ، ومن ثم عادت وحدة مصر والشام إلى الوجود في ظل حكم المماليك وهي الوحدة التي طالما ذاق الصليبيون من أمرها الشيء الكثير (٣) .

وعندما بدأ خليفة قطز الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢٦٠ – ١٢٧٧م) جهوده الحربية ضد الصليبيين في الشام انتقاماً منهم لموقفهم من المسلمين أثناء حربهم مع المغول ، سعى قادتهم نحوه وعلى رأسهم حنا ايلين كونت يافا وحنا صاحب بيروت من أجل عقد هدنة معه " على القاعدة التي كانت مقررة في الأيام الناصرية " (أي مع الناصر صلاح الدين) وإطلاق سراح

---

(1) Cf. Ibid PP. 752-753.

(٢) فقد أسرع الاشرف موسي الايوبي صاحب حمص الي حلب ليقدم فروض الطاعة الي هولاكو ، أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق الي غزة عن طريق نابلس بنية الهروب الي مصر . أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ط٣ ص ١٠٧٣ .

(٣) أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١٣٨.

Also: Grousset,R.: Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jersalem, Tome III PP. 586-587.

الأسرى (١) وقد وافق بيبرس على مطالب الفرنج ، وأكد للأميرين الصليبيين ضرورة تبادل الأسرى " وأمنت السهل وكثرت الأجلاب ، وشرع السلطان في جمع الأسارى (الصليبيين) وسيرهم إلى مدينة نابلس حفظاً للعهود ، والفرنج يكاسرون في أمر الأسارى " (المسلمين) (٢) وسبب ذلك أن الاسبتارية كانوا قد اتجهوا إلى استغلال المهارات المتوفرة فيمن لدى الجماعة من الأسرى المسلمين في عدد من الصناعات والحرف التي كانت تمارس في المراكز والاقطاعات التابعة للاسبتارية ؛ ومن ثم رفضت الجماعة تسليم هؤلاء الأسرى إلى بيبرس مما أغضبه وجعله يلغي اتفاقه مع الصليبيين (٣) بل ويأمر " بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق واستعمالهم في العماير ، وبقى الحال موقوفاً (٤) .

وبالإضافة إلى أعباء الاسبتارية المتعلقة بالدفاع عن منطقة حصن الطور الذي يشرف على إقليم الناصرة (٥) أخذت الجماعة أيضاً في عام ١٢٦١م مهمة حراسة قلعة ارسوف الواقعة على مسافة ثلاث فراسخ إلى الجنوب من قيسارية (٦) وقد اشتروها من باليان ايلين (سيد ارسوف وكند سطبل المملكة) مقابل أربعة آلاف بيزنت تدفع منها الجماعة ألف بيزنت على مدى ثلاثة شهور

---

(١) أنظر : بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٤٩ ــ ٥٠ .
ايضا : النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ١٢ .
(٢) النويري : المخطوط السابق نفس المكان .
(3) Cf. Les Gestes des Chiprois : P. 756.
Also: Setton, K.M.: Vol. II. P. 574.
(٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٤٦٤ ، النويري : المخطوط السابق ، نفس المكان .
(٥) انظر ما سبق وايضا :
Les Gestes des Chiprois : P. 755.
(6) Cf. Burchard of Mount Sion : Op.citm P. 94.
ويذكر لارسوفا اسما آخر هو ابولونيا Apollonia .
Also: The city of Jerusalem and Ernoul's Account of Palestine in P.P.T.S. Vol. VI Part II PP. 32-33.

ويرهن باقي المبلغ على خزانتهم في عكا وأشياء أخرى (١) ومن ثم أصبح لزاماً على الاسبتارية تزويد هاتين القلعتين بحامية قوية من الفرسان ، إلى جانب توفير نفقات ضخمة للدفاع عن البلاد الصليبية الواقعة في نطاقهما وحمايتها من أخطار المسلمين التي أخذت تتزايد في هذه الفترة أكثر من ذي قبل .

ففي فبراير عام ١٢٦٣م خرج بيبرس بقواته وعسكر عند جبل الطور مهدداً الدير والاقطاعات المجاورة التابعة للجماعة ، ويشير كل من ديلافيل ليرو ، وأ.ج كينج على عدم حدوث آية مقاومة ضد قوات بيبرس من جانب حامية الاسبتارية المقيمة هناك ، على أساس أن ذلك كان مستحيلاً بالنسبة للمواجهة بين هذه الحامية والجيش الرئيسي للمسلمين في الدفاع عن قلعة داخلية يسهل الاستيلاء عليها ، خصوصاً بعد أن خرّب السلطان معظم الأقاليم المجاورة لها (٢) وكان ذلك انتقاماً من الفرسان الاسبتارية الذين اتسموا بالعناد والحرص على مصالحهم الخاصة دون أن يعبأوا بمعاهدات وقعت مع المسلمين ، وهو ما بدا من رد بيبرس على رسل هيوريفل مقدم الاسبتارية وتوماس وبيرارد مقدم الداوية عند مثولهم أمامه في معسكره من أجل طلب الصلح مرة أخرى . فعندما قالوا " نتمسك بالهدنة التي بيننا " عنفهم السلطان الظاهر لنقضهم الصلح وعدوانهم على المسلمين قائلاً : " لــم لا كان هذا قبل حضورنا إلــى هذا المكان ؟ " . وبعد أن عدد بيبرس لممثلي الاسبتارية والداوية ســـوء أفعالهم لخص لهم مطالبه في عبارة موجزة بقوله : " ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك " ثم طردهم بعد ذلك باحتقار ، فجاء

---

(1) Cf. Cartulaire Tome III No. 2972.
Also: Diploma di Baliano Signore di Arsur in Cod. Dipl. No. CXL P. 171.
Estoire D'Eracles: Op.cit, P. 446.

(2) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 218.
Also: King, E.J.: Op.cit, P. 259.

ذلك بمثابة إعلان للحرب عليهم (١) وبينما كان الاسبتارية متورطين في هذه الأزمة أرسل إليهم البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤م) في الثامن من مارس ١٢٦٣م قوة حربية قوامها ثماني عشرة فارس من المحاربين واثنى عشرة من الجياد لاستخدامهم في الدفاع عن الأراضي المقدسة . ورغم صغر أعدادهم فقد كان الفرسان من أجناس متنوعة (٢) مما يدل على أن الاهتمام بالقضية الصليبية تلاشى حوالي ذلك الوقت إلى الدرجة التي لم تستطع البابوية إلا تجميع هذا العدد الضئيل ، بعد أن كان في مقدورها حشد جيوش ضخمة تحت ستار " نجدة قبر المسيح " . ويبدو أن الاسبتارية بقيادة مقدمهم هيوريفل (١٢٥٨ – ١٢٧٦م) كانوا يدركون كغيرهم من الصليبيين أن تلك المساعدة التي أرسلتها البابوية لا ترقى بحال إلى مستوى تقدير من جانب الغرب الأوربي للأخطار المحيطة بالصليبيين في الشام ، فرأوا أنه من الأفضل بالنسبة لهم أن يبذلوا الجهود لدى ملوك الغرب لتدعيم موقفهم بالإمدادات المناسبة وكان أن أرسلوا إلى هنرى الثالث ملك إنجلترا (١٢١٦ – ١٢٧٢ م) في الرابع من أبريل عام ١٢٦٣م يطلعون إياه على الموقف الصعب المحيط بهم ثم يطلبون النجدات العاجلة للأراضي المقدسة (٣) مما كان محرجا لمركز البابا خصوصا وأن دوره أصبح قاصرا على مجرد إرسال خطابات للتعزية والسلوى إلى الاسبتارية ومنافسيهم الداوية بحكم كونهم المدافعين الوحيدين عن المملكة الصليبية في ظل هذه الظروف الحرجة بما لديهم من امكانيات دفاعية وقوات محاربة ، وتشجيعا لهم في موقفهم هذا أرسل إليهم خطابين آخرين في السابع عشر من يوليو عام ١٢٦٤م طالبا منهم التجهز لمساعدة حملة صليبية قادمة إلى

---

(١) المقريزي : السلوك ج١ ص ٤٥٨- ٤٨٦ .
سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١٤٤ .

Also: Setton, K.M.: Vol. II, P. 574.
King, E.J.: P. 259.

(2) Cf. Cartulaire Tome III No. 3057. P. 68.
(3) Cf. Cartulaire Tome III No. 3059. P. 69.

الشرق (١) وفي نفس الوقت حثهم على الاتفاق ونبذ الخلافات ، وتجنب توقيع اتفاقيات صلح منفردة مع المسلمين (٢) وهكذا أصبح على الاسبتارية الاعتماد من الناحية العملية على مقدراتهم الحربية الخاصة في الدفاع عن قلاعهم واقطاعاتهم أو في مساندة بقايا الصليبيين في الشام في عمليات حربية ضد المسلمين .

وكرد فعل لهجمات الظاهر بيبرس على بعض المواقع الصليبية اتحد الاسبتارية مع الداوية في عام ١٢٦٤م في القيام بعمل حربي بغرض الاستيلاء على قلعة اللجون الصغيرة Lajjun (مجدوا القديمة) (٣) ثم أغاروا سوياً بعد ذلك بقليل وبالتحديد في منتصف يونيه من نفس العام على أراضي المسلمين الواقعة جنوباً حتى عسقلان . وقد كانت هذه العمليات الحربية جميعها غير مثمرة ولم تجلب للاسبتارية ورفقاؤهم سوى سخط السلطان المملوكي وغضبه عليهم (٤) فسار بعساكره من مصر قاصداً قيسارية ونزل عليها في يوم الخميس السابع من مارس عام ١٢٦٥م / تاسع جمادى الأولى ٦٦٣هـ وضايقها حتى فتحها بعد ستة أيام من نزوله عليها (٥) ثم غادر بيبرس قيسارية إلى ارسوف التابعة للاسبتارية . وقد طال حصاره لها بحيث استغرق ما يزيد على الأربعين يوماً (من ١٥ مارس إلى ٢٩ أبريل) بفضل المقاومة العنيدة لحاميتها من فرسان الجماعة (٦) ويذكر المؤرخ

---

(1) Cf. Ibid tome III Nos. 3097-3098 PP. 88-89.

(2) Cf. Ibid ,,, ,, No. 3099 P. 89.

(٣) اللجون من نواحي طبرية وهي مدينة وقلعة علي رأس حد فلسطين في الجبال بها ماء جار رحبه نزيهة . انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٥٤-١٦٢ .

(4) Cf. Setton, K.M.: Op.cit, Vol. II, PP. 574-575.
Also: King, E.J.: Op.cit, P. 259-260.

(٥) انظر عن حصار قيسارية والاستيلاء عليها :
ابو الفدا : المختصر ج٤ صحيفة رقم ٤ ، بيبرس الداودار : المخطوط السابق لوحة ٩٠- ٩١
اليونيني : ذيل المرآة ، المجلد الثاني ص ٣١٨ ، الكيتي : عيون التواريخ مخطوط لوحة ٢٥٥ .

(6) Cf. Les Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 758-759.
Also: Estoire D'Eracles,: Op.cit, P. 450.
ايضا : النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ٨٣ .

كينج أن هذه الحامية كانت تضم تسعون فارساً من أعضاء الاسبتارية ذو الكفاءة القتالية العالية ، لكن القوات التي عملت تحت قيادتهم في الدفاع عن ارسوف لم يكن ليعتمد عليها لانخفاض الروح المعنوية بين أفرادها بعد أن دب اليأس في نفوسهم شأن بقية صليبي الشام (١) مما جعل عبء الدفاع عن أرسوف ومقاومة الحصار المملوكي لها قاصراً على فرسان الاسبتارية الذين أخذوا يتساقطون الواحد تلو الآخر حتى انتهى الأمر بأن تمكنت قوات بيبرس بالنقوب من أسوار المدينة ودخلوها حيث قتل الظاهر من كان بها من الفرنج واغتنم أموالهم وأسرهم (٢) وسيق الأسرى من الصليبيين والاسبتارية مصفدين إلى الكرك (٣) ثم حملوا إلى القاهرة على ظهور الجمال (٤) .

وتلا ذلك إغارة القوات المملوكية بقيادة سيف الدين قلاوون الألفي على عكا وصور وعرقه وطرابلس وحصن الأكراد " في يوم واحد " فغنموا وسبوا ما لا يحصر " ، بينما قصد الظاهر بيبرس صفد " ونصب عليها المجانيق " ثم شرع في الزحف والحصار والقتال " (٥) وبعد تمكن النقوب " وتعليق الأسوار " طلب من بالحصن من الاسبتارية والداوية الأمان " على أنفسهم " لكن بيبرس قصد خداعهم لرغبته في الانتقام منهم " لما انكوا ولما فعلوا بالمسلمين " فبعد أن تسلم صفد

(1) Cf. The Kinghts Hospitallers in the Hloy Land P. 260.

(٢) انظر : ابو شامة : الذيل علي الروضتين ص ٢٣٤ .
ولمزيد من التفاصيل حول حصار ارسوف أنظر :
النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ٨٢- ٨٣ ، اليونيني : ذيل المرآة ، المجلد الثاني ص ٣١٨- ٣٢٠ .

(٣) ابو الفدا : المختصر ج٤ صحيفة رقم ٢- ٣ .

(٤) اليونيني : ذيل المرآة ، المجلد الثاني ص ٣٢٠ .
الكتبي : عيون التواريخ ، مخطوط لوحة ٢٥٦ .

(٥) اليونيني : المصدر السابق ص ٣٣٧- ٣٣٨ .
الكتبي : المخطوط السابق لوحة ٢٧١- ٢٧٢ .
وانظر تفاصيل حصار صفد في :

Les Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 764-766.

وأخرج " من كان فيها من الداوية والاسبتار " أمر بضرب رقابهم جميعاً (١) وأبلغ وصف لما أصابهم ما أورده اليونيني في هذا الصدد إذ يقول :

"جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم ، وأصبح ثغرهم الذي ظنوه عاصما لا يغنى عنهم ، ومع ذلك فقاتلوا قتال مستقل لا يرى من الموت بدا .... إلى أن خاب ظنهم وسقط في أيديهم ، وصار رجاء السلامة برءوسهم أقصى تمنيهم فعدلوا عن القتال إلى السؤال وجنحوا إلى السلم .... وتداعوا بالأمان صارخين " (٢) .

وبعد سقوط ارسوف وبعض المعاقل الصليبية الأخرى أرسل البابا كلمنت الرابع Clement IV(١٢٦٥ - ١٢٦٨م) إلى مقدم ا لاسبتارية والقادة اللاتين يحثهم على الدفاع عن الأراضي المقدسة التي أضحت مهددة من جانب سلطان مصر الذي استولى على ارسوف وحيفا وقلعة الحجاج (عنايت) ثم أعلن لهم أن جيل Gilles رئيس أساقفة صور يبشر بحرب صليبية في فرنسا (٣) مما يدل على مواصلة البابوية سياسة الوعود البراقة بإرسال نجدات إلى هؤلاء الذي أحدق بهم الخطر من كل جانب حتى لا يزدادوا يأساً على يأسهم ويتخلوا عما بقى في أيديهم من الأراضي للمسلمين وفي نفس الوقت أرادت البابوية أن تثير الحماس في نفوس لاتين الشرق المقيمين وفي مقدمتهم الاسبتارية والداوية للاستمرار في مقاومة الخطر المملوكي ، الذي أوشك أن ينهى الوجود الصليبي في الشام ، والحافز الذي استطاع البابا تقديمه لفرسان القديس يوحنا أصحاب الدور الطليعى

---

(١) أنظر ابن ايبك الداودار : كنز الدرر وجامع الغرر ج٨ ص ١١٧ .
ايضا : اليونيني : ذيل المرآة ، المجلد الثاني ص ٣٣٨ .
Also: Estoire D'Eracles : Op.cit, P. 455.

(٢) اليونيني : المصدر السابق ص ٣٤١- ٣٤٢ .

(3) Cf. Cartulaire Tome III No. 3128. P. 99.

في هذا المجال من وجهة نظره كان مجموعة من المراسيم البابوية التي تحتوى مزيداً من الإعفاءات والامتيازات لصالح الجماعة أو تجديد امتيازات سابقة . وهذه المجموعة عبارة عن خمس عشرة مرسوم صدرت جميعها تقريباً في شهر واحد هو مايو عام ١٢٦٥م (١) وهو ما يشير إلى أن البابا بذل كل ما في استطاعته تقديمه للجماعة من قبيل التقدير للمهمة التي تضطلع بها في الأراضي المقدسة وأيضاً حرصه على مضاعفة الجهود من جانب أعضائها في سبيل الدفاع عنها . وقد أعقب ذلك وعد من البابا في الخامس والعشرين من يوليو ١٢٦٥م إلى هيوريفل مقدم الاسبتارية بصدد قدوم لويس التاسع ملك فرنسا وأوتو الثالث دى براندبرج لإنقاذ الشام من الخطر الإسلامي (٢) وفي رسالة له إلى ملك أرمينيا يحثه على تقديم المساعدات إلى الاسبتارية بصفة خاصة " لما أصابهم من جراء الحملة التي شنها بيبرس سلطان مصر " ضد البلدان والقلاع التابعة للصليبيين (٣) .

وإذا كانت البابوية قد ظلت تتابع باهتمام تطورات الأحداث في الإمارات الصليبية وردود الفعل ازاؤها من خلال الجماعة كأحد العناصر الرئيسية التي يعتمد عليها في هذا الصدد (٤) فإن الاسبتارية أنفسهم قاموا بدور آخر له أهميته يتمثل في مشاركتهم في التمويل اللازم لقيام حملة صليبية ، وهو ما يمكن تبينه بوضوح من رسالة إلى ملك فرنسا لويس التاسع بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٢٦٥م ، إذ تشير إلى قيام هيوريفل مقدم الاسبتارية ومعه مقدم الداوية باقتراض مبلغ من المال

---

(1) Cf. Cartulaire Tome III Nos. 3135-3144 PP. 102-107.
Nos. 3146-3152 P. 107 seq.
(2) Cf, Ibid Tome III No. 3172 P. 115.
(3) Cf, Ibid Tome III No. 3173 PP. 115-116.
Specialiter Hosoitalariorum sancti Johannis gravius ceteris..
(4) Cf. Cartulaire Tome III Nos. 3206 PP. 131-132.
Nos. 3229-3230 P. 143. (A.D.1266)
Nos. 3232 P. 144.
Nos. 3238 P. 147.

باسم الملك الفرنسي من أجل احتياجات الحملة الصليبية (١) ورغم أن الجماعة ، كما يبدو من صيغة الخطاب ، كانت تتقاضى هذا القرض طالما اعتبر ديناً على الملك إلا أن دورها في تسهيل الحصول على مثل هذه الاحتياجات يتوقف عليه خروج الحملة ، خصوصاً وأن تجهيزها بالإمدادات والمؤن الكافية يساعدها على تحقيق مهمتها . هذا إلى جانب ما تقدمه المراكز التابعة للاسبتارية في الغرب الأوربي من مساعدات للحملة تتمثل أساساً في مجموعة من الفرسان ليكونوا مرشدين أو أدلاء في طريق الرحلة إلى الشرق وأيضاً عنصراً يبث الحماس في نفوس المشتركين فيها ، بما يضمن مواصلتهم الذهاب إلى الأراضي المقدسة ومعنوياتهم مرتفعة . وفوق ذلك فقد كان فرسان الجماعة القادمين مع الحملة مدداً لمقرهم الرئيسي في الشام يزوده بمدافعين جدد ومحاربين يقيمون هناك بصفة دائمة لأننا لم نعثر في الوثيقة الخاصة بذلك أو وثائق أخرى على ما يفيد بعودتهم إلى الغرب مع جنود الحملة التي قدموا معها (٢).

وقد انضم الاسبتارية إلى جانب الصليبيين في عدة عمليات حربية يائسة كإجراء مضاد لهجمات سلاطين المماليك أو من قبيل تخفيف الضغط عن إحدى المعاقل أو القلاع الصليبية . ففي عام ١٢٦٦م/٦٦٤هـ اشتركت الجماعة في هجوم شنه كونت طرابلس على حمص ، وانتهى الأمر بفشل هذا الهجوم وهزيمة الكونت وحلفاؤه ، ثم عودتهم والمسلمون في أعقابهم " يقتلون ويأسرون وينهبون " (٣) كما احتل الفرسان الاسبتارية مكانهم في تشكيل القوات الصليبية التي احتشدت في

(1) Cf. Cartulaire Tome III No. 3192 PP. 125-126.
ويقدر المبلغ بأربعة الاف رطل Tournois أرسل مقدمي الجماعة دفعة اولي منها الفر رطل .
(2) Cf. Cartulaire Tome III No. 3220 P. 139 (A.D.1266).
(٣) انظر النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ٨٦- ٨٧ .

عكا للقيام بهجوم ضد وادي الأردن بعد سقوط قلعة صفد . وفاقت خسائرهم تلك التي حاقت بالعناصر الصليبية الأخرى كالداوية والتيوتون والفرنسيين بسبب انفصال المقدمة (حيث الاسبتارية) عن بقية الجيش الصليبي عند تل الخروبة في سهل عكا فنكلوا بهزيمة ساحقة في الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٢٦٦م ، وفقد الاسبتارية في هذه المناسبة على حد تقدير المؤرخين خمس وأربعون فارساً بينهم ستيفن دى ميس Stephanus de Meses قائد الجماعة الأعظم (١) وهو عدد لا يستهان به بالنسبة لعددهم المتناقص في هذه المرحلة الحرجة . وفي مايو عام ١٢٦٧م شن سلطان مصر أكثر من هجوم على منطقة عكا (٦ مايو ، ١٥مايو) من قلعة صفد التي أصبحت مركزاً لدفع القوات المماليكية صوب هذه المنطقة بالذات ، وكان الاسبتارية والداوية هم العنصر الصليبي المحارب الذي يتصدى لمثل هذه الهجمات بينما كان الجنوية والبنادقة مشغولين بخلافاتهم داخل الميناء الصليبي (٢) .

ثم كان أن اتجهت قوات الظاهر بيبرس شمالاً للإغارة على منطقة حصن الأكراد ، حيث قلاع الاسبتارية واقطاعاتهم ، وقد نجحت قوات بيبرس في الاستيلاء على حصن ثيب ، من عمل حصن الأكراد ، وأيضاً حصن عرقة ، كما هاجمت حصن جبل عكار (٣) وهاذين الحصنين الأخيرين كانا تابعين أيضاً للجماعة ، وكانت قد حصلت عليهما كمنحة من الملك عموري الأول عام ١١٧٠م (٤)

---

(1) Cf. Estoire D'Eracles : Op.cit, PP 454-455.
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 766.
Las Archives P. 212.
King, E.J.: Op.cit PP. 261-262.

(2) Cf. Estoire D'Eracles : Op.cit, P. 455.
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 766-767.

(3) Cf. Ibid P. 768.
ايضا : النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ٨٧ .

(٤) انظر ما سبق وايضا :
Cartulaire Tome I No. 411 PP. 284-286.

وبعد ذلك أقام جماعة من قوات المماليك على مقربة من القليعات يترقبون ليلاً حركة الصليبيين في المنطقة ؛ فوقع في أيديهم خمسون نفر " متوجهين من صافيتا إلى حصن الأكراد : فقتلوهم عن آخرهم (١) وكانت غنائم المماليك من هذه العمليات الحربية ستمائة أسير من الرجال وما يقارب الألف من النساء والصبيان (٢) ويبدو أن بيبرس بذلك كان قد ركز اهتمامه ضد إحدى قلاع الاسبتارية الكبرى وهي " قلعة الحصن " انتقاماً من الجماعة لسلوكها العدائي ضد المسلمين وباعتبارها القوة الفعالة في الحروب الدائرة بين الطرفين ؛ وفي نفس الوقت لرغبته في الاستيلاء على القلعة لما في ذلك من قضاء على عنصر مقاومة دائم ضد الجهود التي تبذل لتحرير الأراضي الشامية من الوجود الصليبي . ويذكر اليونيني أن بيبرس حينما رحل إلى حصن الأكراد " نزل المرج الذي تحته " فحضر إليه رسول من الاسبتارية " بإقامة وضيافة فأعادها عليهم وطلب منهم دية رجل من أجناده كانوا قتلوه مائة ألف دينار " (٣) فأرسلوا إليه ما أحب واختار ثم رحل إلى حمص (٤) وطلب بيبرس هذا المبلغ الضخم من الاسبتارية يعد دليلاً على انهيار القوى الصليبية وعجزها عن التصدي لقوة المماليك عسكرياً كما كان عليه الحال من قبل ، فاتجهوا ومن بينهم الاسبتارية إلى مهادنة المماليك مهما كان الثمن حفاظاً على وجودهم في الشام ولو في نطاق ضيق من الأرض . وهو ما حدث بالفعل . فبعد أن أرسل الظاهر عن ذلك جماعة من قواته إلى طاحونة كردانة التابعة للاسبتارية فهدمتها (٥) أرسل أعضاء الجماعة سفارة منهم في عام

---

(١) النويري : المصدر السابق نفس المكان .
(٢) ابو شامة : الذيل علي الروضتين ص ٢٣٩- ٢٤٠ .

Also: Deschamps, P. op.cit, P. 131.

(٣) ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٣٨٢.
ايضا : الكتبي : عيون التواريخ لوحة ٢٩١ .
(٤) ابن ايبك الداودار : كنز الدرر ج٨ ص ١٢٦ .
(٥) النويري نهاية الارب : ج٢٨ لوحة ٩١ .

١٢٦٧م / ٦٦٥هـ تطلب منه الصلح . وتقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات " وكان من شروطها أن " بطلت القطايع عن بلاد الدعوة (الإسماعيلية) وهي ألف ومايتا دينار ومايه مدى (١) حنطة وشعيراً " ، كما ألغيت اتاوات أخرى كانت مجعولة للاسبتارية على حماه وشيزر وأفامية . وقد سير الأمير فخر الدين المقرى والقاضي شمس الدين بن قريش لاستحلاف مقدم الاسبتارية على شروط هذه الهدنة (٢) ويرى البعض أن سياسة بيبرس في عقد الصلح مع الصليبيين امتازت بظاهرتين واضحتين : الأولى حرصه على عدم مصالحة الصليبيين جميعاً في وقت واحد وإنما أخذ يهادن البعض في الوقت الذي يهاجم البعض الآخر . والظاهرة الثانية أنه كان لا يحترم شروط الصلح مع الصليبيين طويلاً فيعقد صلحا أمده عشر سنوات مثلا لكن لا يلبث أن ينقضه بعد سنه واحدة أو بعضة أشهر إذا وجد أن مصالحه تتطلب ذلك (٣) .

على أية حال توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على إنطاكية التي ظهر أمامها فجأة ونجح في استردادها بعد مقاومة قصيرة في يوم السبت التاسع عشر من شهر مايو عام ١٢٦٨م / ١٤ رمضان ٦٦٦هـ (٤) وبذلك لم تفلح توصيات البابا إلى مقدم الاسبتارية بأن يقدم كل ما يستطيع من مساعدة للدفاع عن هذه المدينة (٥) ولم يملك هيوريفل إزاء ما حل بإنطاكية إلا أن

---

(١) المدي مكيال للحبوب خصوصا الحنطة والشعير . ويذكر المقدسي أن هذا المكيال ينفرد به اهل ايليا وهو ثلثا القفيز احد مكاييل اهل الرملة . انظر : احسن التقاسيم ص ١٨١ .

(٢) النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ٩١ ، القلقشندي : صبح الاعشي ج١٤ ص ٣١ وما بعدها .
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, Idem.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١٥١ .

(٤) انظر اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٣٨٢ .
ايضا : الكتبي : عيون التواريخ لوحة ٢٩١ .
Also: Deschamps, P. op.cit, P. 131.

(5) Cf. Cartulaire Tome III No. 3260 P. 158.

يبعث إلى بريور الاسبتارية في مقاطعة سان جيل برسالة يصف فيها الهزائم التي لحقت على أيدي المسلمين والحالة السيئة التي أضحى عليها صليبي الشام بصفة عامة ، ويطلب من البريور في النهاية بذل المساعي لدى الغرب الأوربي من أجل إرسال النجدات إليهم (١) ويشير ذلك إلى أن فقدان الاسبتارية لكثير من الإيرادات التي كانت تأتي من البلاد والأراضي التي استردها المسلمون جعلهم في مسيس الحاجة إلى إمدادات الغرب ومساعداته ، خصوصاً وقد أصبح من الضروري بالنسبة للجماعة تخصيص مبالغ ضخمة من أجل الاحتفاظ بما بقى في حوزتها من قلاع (٢) .

وفي عام ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ بينما كان الاسبتارية يقفون إلى جانب الداوية وفرسان عكا وأبناء ملك أراجوى في سبيل نجدة الصليبيين المقيمين في مجاورات عكا وإنقاذهم من الهجمات شبه المستمرة للمسلمين (٣) فإن الظاهر بيبرس تنفيذاً لسياسته المشار إليها سلفاً لم يعبأ بالهدنة التي أبرمها مع الجماعة طالما تهيأت له الظروف لاسترداد ما بأيديهم من القلاع أو الأراضي – لم يلبث أن قام في أواخر ديسمبر من نفس العام / أوائل رجب بمحاولتين للاستيلاء على المرقب " فوجد من الأمطار والثلوج ما منعه " (٤) فرحل عنه إلى حصن الأكراد حيث ظهر تحت القلعة في الثامن والعشرين من يناير ١٢٧٠م / رمضان ٦٦٨هـ وشن هجوماً فاشلاً ضد حامية الاسبتارية المقيمة هناك ، ما اضطره إلى أن ينتشر في ضواحي الحصن لتخريب الأراضي حوله ثم عاد " وأقام تحت الحصن

---

(1) Cf. Ibid Tome III No. 3308 P. 183.

(٢) اشار الي هذا المعني ايضا :

Deschamps, P. op.cit, P. 131-132.

(3) Cf. Estoire D'Eracles : Op.cit, P. 458.

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٤٣١ .

يركب كل يوم ويعود من غير قتال (١) وظل على هذه الحال إلى أن وافته أنباء الحملة الصليبية القادمة من الغرب " فرحل من فوره إلى الديار المصرية " (٢) .

وبالرغم من الجهود التي بذلت في الغرب الأوربي من أجل إنقاذ هذه الحملة الصليبية والتي اسهمت فيها جماعة فرسان القديس يوحنا بدور هام من حيث التمويل والإمداد وأيضاً التبشير بها في الغرب الأوربي – كما سبقت الإشارة (٣) ، إلا أن هذه الجهود سرعان ما ضاعت هباءاً باتجاه اسطول لويس التاسع نحو تونس بدلاً من مصر ثم موت الملك الفرنسي في الخامس والعشرين من اغسطس عام ١٢٧٠م (٤) ولما تأكد بيبرس من هذه الأخبار وعلم أن الحروب الصليبية بلغت نهايتها خرج من مصر في الرابع والعشرين من يناير ١٢٧١م / ١٢ جمادى الآخرة ٦٦٩هـ قاصداً الشام وفي نيته تصفية ما بقى في أيدي الصليبيين من قلاع ومدن ، إذ يذكر المؤرخون العرب أن الظاهر وابنه ومن معهما " تواعدوا الاجتماع في يوم واحد بمكان معين ليشنوا الغارة على جبلة واللاذقية والمرقب وعرقه ومرقبه والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وانطرطوس (٥) .

وكان أن اجتمع بيبرس وابنه الملك السعيد على حصار حصن الأكراد بعد الهجوم على أمارة طرابلس والاستيلاء على صافيتا (٦) وبدأ الحصار المملوكي لقلعة الاسبتارية في يوم الثلاثاء

---

(١) انظر : ابن ايبك الدوادار: كنز الدرر ج ٨ ص ١٤٣ .
Also: Deschamps, P. op.cit, P. 132.
(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني نفس الصفحة .
(٣) انظر ما سبق ص ٣٢٨ وما بعدها .
(٤) انظر : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٣٣٦- ٣٦٧ .
Also: Deschamps, P. op.cit, P. 133.
(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٤٤ .
النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ١٠٠ .
ابن ايبك : كنز الدرر ج٨ ص ١٥١ .
الكتبي : عيون التواريخ مخطوط لوحة رقم ٣٢٧- ٣٢٨ .
(٦) النويري : نهاية الارب ج ٢٨ نفس المكان .
اليونيني : المصدر السابق ص ٤٤٣- ٤٤٤ .
Also : Estoire D'Eracles : Op.cit, P. 460.

الثالث من مارس عام ١٢٧١م (٢٣مارس في رأى آخر) ٩ رجب ٦٦٩هـ (١٩ رجب في راي آخر) وظل مقيماً على حصارها حتى يوم الاثنين الثامن من أبريل (أو السابع في رأى آخر) ٢٣ شعبان من نفس العام حيث استطاعت القوات المملوكية وضع النقوب في الأسوار والأبراج كما نجحت في هدم تحصيناتها الرئيسية بعد أن " اشتد عليه الزحف والقتال ، ففقدت حامية الاسبتارية آخر أمل في المقاومة مما اضطرها إلى التسليم وطلب الأمان فأمنهم الملك الظاهر وتسلم القلعة (١) .

وفي هذه المناسبة بعث الظاهر بيبرس بكتاب إلى هيوريفل مقدم الاسبتارية أنشأه القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر هذا نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم . نعلم المقدم افرير أوك (هيوريفل) – قال- جعله الله ممن لا يعترض على القدر ، ولا يعاند من سخر الله لجيشه النصر والظفر ، ولا يعتقد أن ينجى من أمر الله الحذر ولا يحمى من جنده محجوز البناء بصخور الحجر . نعلمه سهل الله من فتوح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وعليته وملحته وحليته ، وكنت الموفق لو خليته . واتكلت على إخوتك في حفظه فما نفعوك ، وقصدت بصنيعهم فيه بالإقامة فضيعوا أنفسهم وضيعوك ، ولا شك أنهم ابذلوا جهد الاستطاعة ، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة ، خصوصاً إذا اجتمعت الكثرة والشجاعة . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن فيبقى ولا تخدم سعيداً فيشقى ، ولا يتأخر عن طاعتها سيف ولا سنان

(١) أنظر تفاصيل حصار حصن الاكراد حتي سقوطه علي يد الظاهر بيبرس في :
ابن ايبك الدوادار: كنز الدرر ج ٨ ص ١٥٢- ١٥٣ .
النويري : نهاية الارب ج ٢٨ لوحة ١٠١- ١٠٢ .
اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٤٤٥- ٤٤٦ .
بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٩٦ .
الكتبي : عيون التواريخ لوحة ٣٢٨ .
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 777.

فلذلك ما نزلت على حصن إلا وأخذ ، إما بالسيف وإما بعد الامتنان بالأمان وعلى كل حال نحن نبشر المقدم بسلامة نفسه إذا كانت له الحقيقة في البشارة ، وتيقن أن الربح في باطن الأمـر ، وإن كان " في الظاهر الخسارة ، وهي سلامة النفس التي لا يتعوض عن ذهابها الميت . وينبغي لعاقل أن لا يفوت المصلحة حتى يقول ليت ، ويقول بعد الأخ لا كانت الأخوة ، وبعد رب البيت لا كان البيت فهذه أمور لله يصرفها ، والعاقل يتفكر فيها ويعرفها ، فالله يلهمك رشداً تحفظ به ما بقى ويرزقك توفيقاً تختار به لنفسك السلامة وتبقى " (١) .

وقد نشر خطاب بيبرس إلى مقدم الاسبتارية في " مجموعة وثائق الجماعة باللغة اللاتينية (٢) ونظر إليه المحدثون من مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين على أنه تعبير عن الشماتة والسخرية من جانب السلطان المملوكي إزاء ما أصاب الاسبتارية على يديه ، خصوصاً وقد بلغ به الضيق من عنادهم (٣) ويشير الخطاب من ناحية أخرى إلى أن القلعة كانت على قدر كبير من الحصانة إلى الحد الذي كانت في نظر الاسبتارية حصن لا يرام ، بينما أعجب بيبرس بضخامة العمل الذي بذلته قواته في سبيل إسقاط هذه التحصينات القوية مما يعد نذيراً بالقضاء على معاقل أخرى حصينة ظن الاسبتارية وغيرهم أنها تعصمهم من أي بلاء مهما اشتد .

---

(١) ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ ص ١٥٢-١٥٣ .
وقد اورده مختصرا : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٩٦ .

(2) Cf. Cartulaire Tome III No. 3417 P. 247.
Also: A.O.L., Tome II (I) P. 398 .

(3) Cf. Licinio, Vestri: Le Krak des chevaliers, chateau-Fort des Hospitaliers en Syrie, in A.O.S.M.M. no. II Annee XVIII eme, Rome 1960 P. 32.
Also: King, Cathcart, D.J.: The takking of Le Krak des chevaliers in 1271, in Antiquity, Vol. XXIII no. 90, 1949. PP. 91-92.

وأدرك ذلك جيداً فرسان الجماعة المقيمون في حصن المرقب القلعة الأخرى المنيعة ، فبادروا بإرسال مبعوثيهم إلى الظاهر بيبرس وهو " بقلعة الحصن " " يطلبوا المهادنة " " فصالحهم على نصف ما يتحمل من غلال البلاد ، وجعل عندهم نائبا من قبله . كما اشترط عليهم ألا تجدد عمارة المرقب . وتقررت الهدنة في يوم الاثنين الخامس عشر من أبريل عام ١٢٧١م / مستهل رمضان ٦٦٩هـ . وحلف لهم بيبرس على هذه الشروط ، بينما أخلى اسبتارية المرقب أحد الأبراج ويدعى " برج قرفيص (قوميص) " وفقاً لذلك وأحرقوا ما لم يمكنهم حمله (١) .

ثم رحل بيبرس بعد ذلك من حصن الأكراد قاصداً حصن عكار في يوم الأحد التاسع والعشرون من أبريل ١٢٧١م / ١٤رمضان ٦٦٩هـ . وهذا الحصن كان تابعاً أيضاً للاسبتارية (٢) فنزل عليه السلطان في أوائل مايو /١٧رمضان من نفس العام وبدأ حصاره (٣) بأن نصب المجانيق " فاشتد القتال وجد أهله في المناضلة ، ورمى الحجار بالمجانيق، وشددت العساكر الحصار وأخذ النقوب تحت الأسوار " فعندما رأت حامية الحصن من الفرسان الاسبتارية أن هذا الوضع " يعجزون عن احتماله " كما أنهم أمام جيش " لا طاقة لهم بقتاله " طلبوا الأمان فأجابهم إليه السلطان بيبرس وخرجوا من عكار في الحادي عشر من مايو ١٢٧١م / ٢٩ رمضان ٦٦٩هـ بعد أن " جُهزوا إلى مأمنهم " (٤) ويذكر المؤرخون العرب أن هذا الحصن كان كثير الضرر على

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٤٤٧- ٤٤٨ ، النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ١٠٢ الكتبي : عيون التواريخ لوحه رقم ٣٢٨ ، بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة٩٧ .

(2) Cf. Cartulaire Tome I No. 411 PP. 284-286.

(3) Cf. Les Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 768.

(٤) الكتبي : عيون التواريخ لوحة ٣٢٨ .
بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٩٧ .
ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر ج٨ ص ١٥٥ .

المسلمين (١) خصوصاً المارين منهم من حمص إلى بعلبك (٢) وبعد فتح حصن عكار بعث السلطان بيبرس برسالة شفوية إلى الأمير بوهيمند السادس كونت طرابلس نقلها إليه " رجل من الأخوة الاسبتار " ويقول له الظاهر : " أين تروح منى ، والله لا بد أن آخذ قلبك واشويه وأنت تنظر " فلما بلغت الرسالة بوهيمند على لسان الاسبتارى " أخذ يحترس على نفسه " إلى أن نزل السلطان المملوكي على طرابلس في أواخر مايو ١٢٧١م / ١٤ شوال ٦٦٩هـ " بعث البرنس إليه يستعطفه ويلافيه " وترددت المراسلات بينهما إلى أن وقع الاتفاق (٣) على أن تكون عرقه وأعمالها (ست وخمسون قرية) وكان الاسبتارية قد انسحبوا منها ، وأيضاً جبله وأعمالها لبوهيمند . ويكون ساحل المرقب ويلنياس " وبلاد هذه النواحى " مناصفة بينه وبين " الداوية والاسبتار " . أما البلاد التي كانت تابعة لهم وهي بعرين (بارين) وحمص القديمة فتعود " خاصاً للملك الظاهر " وتقررت الهدنة على ذلك – كما هي العادة في هذه الآونة – لعشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام (٤) .

وفي نوفمبر من نفس العام (١٢٧١م) / ربيع ثاني ٦٧٠هـ خرج الفرسان الاسبتارية المقيمون في عكا مع الداوية وفرسان قبرص وغيرهم من صليبي المدينة لمهاجمة قلعة " قاقون " Cacon الواقعة في سهل قيسارية (على مسافة سبع فراسخ من عكا وخمس فراسخ من قيسارية) فمنعهم

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٤٤٩ .
(٢) النويري : نهاية الارب ج٢٨ لوحة ١٠٢ .
وفي هذه المناسبة هنأ محيي الدين بن عبد الظاهر السلطان بيبرس بهذا النصر المبين بعدة ابيات من الشعر منها :
يا مليك الارض بشراك فقد نلت الاراده
ان عكار يقينا هو عكا وزيادة
أنظر ابو الفدا : المختصر ج٤ صحيفة رقم ٦ .
(٣) ابن ايبك الدواداري : كنز الدرر ج٨ ص ١٥٧- ١٥٩ .
Also : Estoire D'Eracles : Op.cit, P. 460.
(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، المجلد الثاني ص ٤٥٠ ، الكتبي : عيون التواريخ لوحة رقم ٣٢٩ .

عنها حشد من التركمان أجبرهم على العودة إلى عكا التي وجدوها ، وقد أصابها الخراب من هجمات المسلمين (١) وفيما عدا بعض المناوشات الخفيفة بعد ذلك توقفت هجمات بيبرس على المعاقل الصليبية فترة من الوقت سعى خلالها الصليبيون بقيادة الأمير الإنجليزي ادوارد الأول (الذي كان قد وصل عكا في مايو ١٢٧١م) إلى توقيع معاهدة سلام مع السلطان المملوكي في الثاني والعشرين من ابريل عام ١٢٧٢م بعد أن فقدوا الأمل في مساعدة المغول ، وقد التزم بيبرس ببنود هذه الهدنة الأخيرة لتوجيهه كل جهوده في الفترة الباقية من حكمه نحو محاربة المغول وحليفهم ملك أرمينيا الصغرى (٢) .

وفي ذلك الوقت لم يدخر البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ – ١٢٧٦م) جهداً في سبيل العمل على تجهيز حملة صليبية جديدة ؛ فعقد مجمعاً في مدينة ليون بفرنسا عام ١٢٧٤م لهذا الغرض حضره هيوريفل مقدم الاسبتارية ضمن مبعوثي صليبي الشام الموجودين . ومما تجدر ملاحظته هو أن هيوريفل وزميله مقدم الداوية احتلا مكانهما في هذا المؤتمر في مرتبة تالية مباشرة لملوك الأقاليم الأوربية المختلفة ، كما كان لهما أسبقية على الكرادلة والسفراء (٣) مما يشير إلى أهمية ومكانة أعضاء هاتين الجماعتين على مستوى العالم الغربي الكاثوليكي ، وبالرغم من ما تقرر في هذا المجمع من خروج حملة صليبية إلى الشرق لإنقاذ الصليبيين المقيمين هناك ، إلا أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل على الإطلاق ، لأن عصر الحروب الصليبية كان قد ولى ، ولم يبق إلا محاولات يائسة من جانب البابا ، لحيلولة دون نشوب خلافات بين صليبي الشام من شأنها أن تشغلهم عن

---

(1) Cf. Estoire D'Eracles ; Op.cit, P. 461.
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 778-779.

(٢) انظر بالتفصيل : سعيد عاشور : المرجع السابق ١١٥٩- ١١٦٢- ١١٦٣ .
Also: King, E.J.: Op.cit, P, 272.

(3) Cf, Taaffem J.: Op.cit, Vol, II P, 176.

اشار الي هذا المعني ايضا .
King, E.J.: Op.cit, P, 274.

مقاومة الخطر الإسلامي ، فقد أمر البابا جريجورى – على سبيل المثال – رئيس أساقفة صور في الخامس عشر من أبريل ١٢٧٥م بأن يحمى اسبتارية عكا ضد أي مضايقات يتعرضون لها من جانب الأساقفة أو غيرهم من الصليبيين مثل الاعتداء على أملاكهم أو عدم احترام الامتيازات المخولة إليهم (١) ثم ينهى إلى هيوريفل مقدم الجماعة في السابع عشر من يوليو ، من نفس العام بأن يضع الاسبتارية حداً للخلافات السائدة بينهم وبين الجماعات العسكرية الأخرى في عكا (٢) .

وقد اتجهت الجماعة هي الأخرى إلى بذل المساعي لدى زعماء الغرب الأوربي ممن توسمت فيهم القدرة على تقديم المساعدة لهم أو الاستجابة لنداءاتهم . فكتب مقدم الاسبتارية في الثاني عشر من سبتمبر عام ١٢٧٥م تقريراً إلـى إدوارد الأول الذي أصبح ملكاً على إنجلترا (١٢٧٢ – ١٣٠٧ م) عن أخبار الأراضي المقدسة وزحف التتار إلى بلاد الشام (٣) ويبدو أن هيوريفل أراد بذلك أن يذكر الملك الإنجليزي بوعوده السابقة لهم ، على أن يعود إلى الشام بحملة صليبية أخرى لإنقاذ اللاتين في الشرق ، إلا أن هذا الأخير كانت ظروف بلاده تحول بالفعل دون خروجه لتنفيذ هذه المهمة (٤) .

وفي الشام استغل المغول والصليبيون الوضع الناجم عن وفاة الظاهر بيبرس في أول يوليو عام ١٢٧٧م (٥) فدخل التتار البلاد الشامية وامتلكوا حلب ومجاوراتها في أكتوبر عام ١٢٨٠م / رجب

---

(1) Cf. Cartulaire Tome III No. 3568 PP. 319-320.
(2) Cf. Ibid ,,, ,, No. 3581 PP. 327-328
(3) Cf. Ibid ,,, ,, No. 3584 PP. 330-331.
(٤) حول ظروف انجلترا الداخلية والخارجية في ذلك الوقت أنظر :
سعيد عاشور : اوربا الوسطي ج١ ص ٤٧٩ وما بعدها .
(٥) أنظر نفس المؤلف : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٦٥ .

٦٧٩ هـ (١) بينما شن اسبتارية حصن المرقب هجوماً على المنطقة حول صافيتا ، وقد نهبوا وخربوا كل ما قابلهم على الطريق إلى حمص ، وذلك في محاولة منهم لإعادة الاستيلاء على حصن الأكراد من المسلمين . واستطاع قسطلان المرقب أن يحرز انتصاراً على نائب السلطنة بحصن الأكراد ، وعاد محملاً بالغنائم على المرقب بعد أن تخلص من مطاردة جمع من الخيالة التركمان (٢) وقد لخص بيبرس الدوادار موقف فرسان الجماعة بقوله : " كان الفرنج الذين بحصن المرقب لما بلغهم هجوم التتار على البلاد وانجفال العسكر من حلب طمعوا واعتمدوا الفساد وتطرقوا إلى أذية المسلمين بأطراف تلك البلاد " (٣) ولم يتوقف الاسبتارية عند هذا الحد بل انضموا إلى جانب الملك الأرميني ليو الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩م) في تحالفه مع المغول بخمسين فارساً من أعضاء الجماعة ومائة من الخيالة وخمسون من التركبولى أثناء غزو هؤلاء التتار للشام (٤) .

وللانتقام من اسبتارية المرقب لأعمالهم العدوانية ضد المسلمين استأذن نائب السلطنة بحصن الأكراد ويدعى سيف الدين بلبان الطباخي السلطان سيف الدين قلاوون الألفي (١٢٨٠ ــ ١٢٩٠م) في الخروج للإغارة على فرسان القديس يوحنا في عقر معقلهم الرئيسي المرقب ، فأذن له السلطان (٥) بعد أن هون عليه الأمير " أمر من به من الخيالة وذكر له قلة من فيه من الرجالة " (٦) ثم

---

(١) أنظر ابو الفدا : المختصر ج٤ ص ١٤ ، ابن الوردي : تاريخة ج٢ ص ٣٢٥- ٣٢٦ .
Also: Joseph de Cancy Letter to Edward I King of England, in P.P.T.S. Vol. V PP. 7-10 .

(2) Cf. Les Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 484-486.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, PP. 231-232.
Stevenson, W.: Op.cit, P. 347.

(٣) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج٩ لوحة ١٦٣ .

(4) Cf. Letter from Sir Joseph de Cancy, Kinght of the Hospital of St.John in P.P.T.S. Vol. V PP. 12-13.
Also: Duggan, A.: Op.cit, PP. 247-248.

(٥) ابو الفدا : المختصر ج٤ صحيفة رقم ١٤ .
ابن الوردي : تاريخة ج٢ ص ٣٢٥ .
محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور في سير الملك المنصور ص ٨٠ .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ١٦٤ .

جمع سيف الدين الطباخي عساكر الحصون الإسلامية مع عسكر حصن الأكراد وسار في فبراير ١٢٨١م / رجب ٦٧٩هـ قاصداً المرقب . ويقدر المؤرخين العرب ذلك الحشد بثمانمائة فارس وثمانمائة من الخيالة التركمان وألفى راجل (١) استصحبوا معهم المجانيق والآلات وتقدموا جميعاً إلى أن بلغوا المرقب فتوقفوا على مقربة منه . وكان أن أخفى من فيه من الاسبتارية أمرهم ولم يتحركوا في مبدأ الحال " فازداد عسكر المسلمين فيهم طعما واليهم تقدما " حتى أصبحوا في مرمى سهام فرسان المرقب الذين " أرسلوا عليهم الجروخ فنالت منهم النصال وانكت فيهم النبال لأنها كانت تنحدر على العسكر (الإسلامي) من أعالي الحصن وسهام المسلمين لا ترقا إليهم بحال " (٢) وإزاء هـذا الوضع أمـر سيف الدين الطباخى القوات المملوكية أن يتراجعوا عن موقع الحصن قليلاً بحيث يصبحوا بعيدين عن مرمى سهام الاسبتارية " فظنوها هزيمة وولوا فما أمكنه إلا أن يتبعهم " وخرج فرسان القديس يوحنا في أعقابهم " ونالوا من المسلمين وجرحوا جماعة ونهبوا وأسروا جماعة من الرجالة " (٣) ويقدر ابن أيبك عدد القتلى من المسلمين في هذه الموقعة بمائتي رجل (٤) .

ورغم انتصار اسبتارية المرقب على القوات المملوكية ، إلا أن نيقولا لورجن مقدم الجماعة كان على يقين من أن سلطان مصر سيقوم بعمل انتقامي ضدهم ؛ فأسرع يتوسل إلى إدوارد الأول

(١) ابن ايبك الدواداري : كنز الدرر ج٨ ص ٢٣٩ .
(٢) بيبرس الدوادار : المخطوط السابق لوحه ١٦٤- ١٦٥ .
محيي الدين بن عبد الظاهر: المصدر السابق ص ٨٠ .
(٣) محيي الدين بن عبد الظاهر: المصدر السابق ص ٨٠.
النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحه ١٩ .
ابن الفرات : تاريخه ، المجلد السابع ص ١٩٥ .
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 782.
(٤) انظر : كنز الدرر وجامع الغرر ج٨ ص ٢٣٩ .

ملك إنجلترا كي يأتي لنجدته وإنقاذ صليبي الشام من هجمات المماليك وذلك من خلال خطاب أرسله جوزيف دى كانسى المشرف على خزانة (خازندار) الاسبتارية إلى الملك الإنجليزي بتاريخ الحادي والثلاثون من مايو عام ١٢٨١(١) أو الخامس والعشرون من سبتمبر من نفس العام (٢) كما أرسل مقدم الاسبتارية أيضاً إلى السلطان قلاوون وهو بمنزلة الروحاء في طريقه إلى الشام سائلاً إياه " تقرير الهدنة والصلح لأهل المرقب " (٣) وكان قلاوون مدركاً حاجته إلى تقوية جبهته وفصل صليبي الشام عن المغول في العراق وفارس (٤) فوافق على عروض الصلح التي أخذ يتردد بها عليه رسل الاسبتارية ، وتقررت الهدنة في يوم السبت الثالث من مايو عام ١٢٨١م / ثاني المحرم ٦٨٠هـ على أن يكون للجماعة مناصفة مع المسلمين بعض

اعمال المرقب وبلتياس ، ويردوا كل من عندهم من أسرى المسلمين الذين أخذوهم في فترة خرق الهدنة السابقة " وكانوا جماعة كثيرة " . وقد حلف لهم السلطان قلاوون على ذلك " ونودي بالصلح " ثم سير الأمير فخر الدين اياز المقرى لتحليف نيقولا لمورجن " افرير تنكول للورن " مقدم الاسبتارية ، فحلف على ما انعقد عليه الصلح (٥) والمدة المحددة لهذه الهدنة كانت أيضا عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام شملت في الالتزام ببنودها جميع الأقاليم والاقطاعات والبلاد والموانى التابعة للسلطان قلاوون وولده وأيضاً ممتلكات الاسبتارية في المرقب (٦) وبعد ذلك بحوالى شهرين فـي يوليـو / ربيع أول دخـل أيضاً الاسبتارية الهدنـة التي وقعها كونت طرابلس

---

(1) Cf. Joseph de Cancy Letter to Edward I King of England, Op.cit, P. 13.

(2) Cf. Cartulaire Tome III No. 3766 PP. 417-418.

(٣) أنظر : محيي الدين بن عبد الظاهر: المصدر السابق ص ٨٢ .
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ١٦٥ .

(٤) أنظر سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١٦٦ .

(٥) أنظر : محيي الدين بن عبد الظاهر: المصدر السابق ص ٨٣ .
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ١٦٦ .
ابن الفرات : تاريخة ، المجلد السابع ص ٢٠٤- ٢٠٦ .

(٦) النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحة ٢٠ ، محيي الدين بن عبد الظاهر ص ٨٢- ٨٣
بيبرس الدوادار : المخطوط السابق لوحة ١٩٤- ١٩٥ .

بوهيمند السابع مع السلطان قلاوون بنفس الشروط السابقة (١) .

ورغم صدق نوايا قلاوون في الالتزام بهذه المعاهدات كي يتفرغ للمغول الذين اقتحموا الشام في سبتمبر ١٢٨١م / جماد ثان ٦٨٠هـ ، فقد انتهك الاسبتارية شروطها بأن تحالفوا مع هؤلاء الغزاة بفريق من فرسان المرقب ، وذلك في غزوهم للبلاد الشامية بحيث أصبح جيش قلاوون محصوراً بين الاسبتارية وأرمن قيلقيا من جانب والمغول من جانب آخر . لكن معركة حمص الشهيرة بين الجانبين انتهت بانتصار القوات الإسلامية نصراً مؤزراً أنقذ الشام من الغزو المغولي ، وفي نفس الوقت جعل الدمار الكامل لبقايا الإمارات الصليبية أمراً مؤكداً (٢) وكما هي عادة الاسبتارية بعد حنثهم بالعهود ووقوعهم تحت رحمة المنتصر ، استشعر مقدم الجماعة هذا المصير بالنسبة لجماعته وللصليبيين بأسرهم ، فبادر بالكتابة إلى ملك إنجلترا في الخامس من مارس عام ١٢٨٢م شارحاً له احداث معركة حمص بشكل يظهر النتائج المترتبة عليها وهي خطيرة بالنسبة للصليبيين ، مما يكون مثاراً إلى أن يقرر ادوارد الأول الخروج في حملة صليبية جديدة لإنقاذهم قبل استفحال الخطر (٣). وهو نفس الشيء الذي بينه الفارس الاسبتاري جوزيف دى كانسى في خطابه إلى الملك الإنجليزي في الحادي والثلاثون من مارس ١٢٨٢م ثم أضاف إليه تقريراً عن حالة الأراضي المقدسة بصفة عامة (٤) وبالرغم من ذلك لم يتعد موقف الملك إدوارد من هذه الاستغاثات إلا الشكر لهذا

---

(١) أنظر : محيي الدين بن عبد الظاهر: المصدر السابق ص ٨٢ .
النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحة ٢٠- ٢١ .
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ اللوحات من ١٩٥- ١٩٨ .

(2) Cf. Cartulaire Tome III No. 3781 PP. 423-424.
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, PP. 407-408.
Setton, K.M.: Vol. II. P. 586.

(3) Cf. Cartulaire Tome III No. 3781 & n. 3 P. 424.

(4) Cf, Ibid Tome III No. 3782 PP. 424-428.

الاسبتارى على ما بعث به من أخبار ، ووعد بحماية أملاك الاسبتارية في إنجلترا (١) وهو ما يعد دليلاً يضاف إلى غيره من الأدلة على أن الاهتمام بصليبي الشام أو بالقضية الصليبية عموما أخذ مظهرا شكلياً لدى ملوك الغرب وأمراؤه إن لم يكن قد أصبح في طي النسيان .

وفي ظل هذا الوضع عاد مقدم الاسبتارية إلى بذل محاولات جديدة من أجل تجديد الهدنة مع السلطان قلاوون ، فأرسل اثنين من أعضاء الجماعة في وفد يمثل العناصر الصليبية في عكا لهذا الغرض . وانتهى الأمر بأن أجابهم السلطان لمطلبهم وتقررت معهم الهدنة على الشروط " الجاري بها العادة " لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام تبدأ من الثالث من يونيو عام ١٢٨٣م / خامس عشر شهر ربيع الأول ٦٨٢هـ (٢) ومثل هذه المعاهدات لم تكن قيداً على سلطان القاهرة الذي سرعان ما يجد المبررات لخرقها ، حينما يكون للحرب مزايا أكثر مما يأتي به السلام . واستفاد في إيجاد هذه المبررات من سلوك فرسان الاسبتارية في المرقب ، الذين اعتادوا على عدم احترام شروط أي اتفاقيات أبرموها (٣) لذا عندما قرر السلطان قلاوون استرداد قلعة المرقب من أيديهم اتهمهم بأنهم أغاروا على بلاد المسلمين المجاورة لهم ثم استتبع ذلك بمحاصرة هذا المكان في الحال

(1) Cf, Ibid Tome III No. 3790 P. 430.
Also: Letter from Edward I to Joseph de Cancy in P.P.T.S. Vol. V PP. 14-15.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر: المصدر السابق ص ٨٢ .
بيبرس الدوادار : المخطوط السابق اللوحه ٢٢٨ .
القلقشندي : صبح الاعشي ج١٤ ص ٥٤ .
ابن الفرات : تاريخه ، المجلد السابع ص ٢٦٢- ٢٧٠ .
Also: Cartulaire Tome III No. 3832 P. 444.
Holt, P.M.: Qalawun's treaty with Acre in 1283,
Cf. E.H.R. Vol. XCI, 1976 PP. 802-812.

(٣) أنظر : النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحة رقم ١٠ .
ايضا : محيي الدين عبد الظاهر : المصدر السابق ص ٧٧ .

وقد أكد ذلك محيى الدين بن عبد الظاهر بقوله : " أن السلطان كان يبيت النية للاستيلاء عليه ويتحين الفرصة أو الوقت المناسب لذلك كي يخلص بلاد الإسلام من شروره " (١) وقد نزل قلاوون على حصن المرقب يوم الأربعاء السابع عشر من أبريل ١٢٨٥م / عاشر صفر ٦٨٤هـ ، ودام حصار القلعة أربعون يوماً (٢) عملت خلالها النقوب في الأسوار ، عندئذ رأى الاسبتارية أن الحصن أشرف على الأخذ " عنوة " فطلبوا الأمان (٣) وقد أجابهم السلطان قلاوون إلى ذلك " رغبة في إبقاء عمارته "(٤) وكان أن سير اسبتارية المرقب " أكابرهم " إلى " الدهليز المنصوري " فأعطاهم السلطان الأمان " على النفوس لا غير " مشترطاً عليهم ألا يخرجوا معهم مال أو سلاح خاص بالحصن ما عدا من له " مال يتعلق بنفسه ينعم عليه به " . ولما شفع الأمراء فيهم سمح قلاوون " لأكابر " الاسبتارية بركوب خمس وعشرون رأسا من الخيل والبغال والتجاوز عن ألفى دينار صورية (٥) يحملونها معهم . وحلف قسطلان المرقب وبقية الفرسان الاسبتارية على ذلك ، ثم

---

(١) تشريفات الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ص ٧٧ .
ايضا : النويري : المخطوط السابق نفس المكان .

(2) Cf. Les Gestes des Chiprois : P. 791.
وعن التكتيك الحربي الذي اتبعه المسلمون في حصار القلعة أنظر :
Oman, Ch.: Op.cit, Vol. II PP. 51-52.

(٣) أنظر : محيي الدين عبد الظاهر : المصدر السابق ص ٧٨- ٧٩ .

(٤) أنظر : ابو الفدا : المختصر ج٤ ص ٣١ ، ويذكر أنه حضر حصار هذا الحصن وعمره انذاك اثني عشر عاما وان ذلك هو أو قتال رآه .
ايضا ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ٣٣٢- ٣٣٣ .

(٥) الدينار الصوري عملة ذهبيه تشبه البيزنت ، وكان عليها بعض النقوش الذهبيه وكانت هذه عادة آية من الايات القرانية ، وتدريجا اصبح الدينار الصوري أكثر العملات انتشارا في سوريا . وعند زيارة القديس لويس الي الاراضي المقدسة في منتصف القرن الثالث عشر كان لا يزال متعاملا به . وبعد ذلك حرم البابا انوسنت الرابع استعماله وعده امرا خارجا علي الدين . وبفضل نفوذ الملك لويس حلت عبارات مسيحيه محل الايات القرانيه ولكن خذخ النصوص المسيحيه كانت تكتب باللغه العربيه حتي يقبل المسلمون التعامل به .
أنظر : عمر كمال توفيق : مملكة بيتالمقدس الصليبية ص ١٢٤- ١٢٥ .

سلموا الحصن " جميعه " فـــي السابع والعشرين مـن مايو ١٢٨٥ م ، تاسع عشر ربيع أول ٦٨٤ هـ (١) " وكان يوماً مشهوداً أخذ فيه الثأر مـــن بيت الاسبتار " (٢) وسيـــر المسلمـون فرسان المرقب إلى " مأمنهم " حيث توجهوا إلى طرابلس (٣) وأنطرسوس (٤) .

وكان الاستيلاء على المرقب خطوة كبرى نحو تقويض أركان الصليبيين بالشام ، إذ بدأ المسلمون بعد سقوط هذا الحصن الخطوات النهائية للإجهاز تماماً على هؤلاء اللاتين بعد أن انحلت أوضاعهم (٥) فهاجموا مدينة اللاذقية التي استسلمت لهم في الثالث عشر من أبريل عام ١٢٨٧م / السابع والعشرين من صفر ٦٨٦هـ ، مما كان له أسوأ الأثر بالنسبة للاسبتارية الذين كان لهم في هذه المدينة مصالح وأملاك هامة (٦) ثم تلا ذلك حصار القوات المملوكية لمدينة طرابلس في يوم الاثنين السابع عشر من مارس ١٢٨٩م / العشرين من صفر ٦٨٨هـ ، وكانت فلول الصليبيين قد اعتصمت بها بعد سقوط القلاع والمدن التي كانت في حوزتهم في أيدي المسلمين ، ومن بين هؤلاء اسبتارية المرقب (٧) هذا بالإضافة إلى الإمدادات التي أرسلتها الجماعة من عكا بقيادة مارشالها حينما علم المقدم بتحرك الجيش المملوكي وبلوغه البقيعة في اتجاه طرابلس (٨) وعندما وصل إليها السلطان قلاوون حاصرها ثم رماها بالمجانيق " وعملت النقوب فنقبت الأسوار " وافتتحت المدينة " عنوة " في يوم الثلاثاء السادس والعشرون من أبريل عام ١٢٨٩ م / ٤ ربيع الآخر ٦٨٨هـ . وكانت مـــدة

---

(١) أنظر : محيي الدين عبد الظاهر : المصدر السابق ص ٧٩- ٨٠ .
(٢) انظر ابو الفدا : المختصر ج٤ ص ٢١ ، ايضا : ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ٢٣٣ .
(٣) انظر : ابن الفرات : تاريخه ، المجلد الثامن ص ١٨ .
(4) Cf. Les Gestes des Chiprois : P. 792.
(٥) أنظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١٦٨.
(٦) أنظر ما سبق وايضا : Cartulaire Tome II No. 2545 P. 701.
Tome III No. 3022 P. 29.
(٧) انظر النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحة ١١ .
(8) Cf. Les Gestes des Chiprois : P. 803.

المقام عليها أربع وثلاثون يوماً " (١) انهار خلالها برج الاسبتارية (٢) وقتل من فرسان الجماعة اربعون ، بينما وقع عدة منهم في أسر المسلمين . أما متى دى كلير مونت Matthew de Clermont مارشال الاسبتارية فقد استطاع الهرب عن طريق البحر (٣) وبعد سقوط طرابلس بأيام استولى قلاوون على قلعة نيفين (أنفه) Nephin إلى الجنوب منها . وقد كانت أنفه هي الأخرى تابعة لفرسان القديس يوحنا حتى ذلك الوقت (٤) .

وفي أعقاب هذه الأحداث أرسل حنا دى فيلبيه مقدم الجماعة خطاباً إلى أحد الأخوة الاسبتارية في الغرب ويدعى موستانو F. Mostaino يطلب منه أن يبذل مساعيه من أجل إرسال إمدادات إلى الشام لإنقاذ الأوضاع المتدهورة في الأراضي المقدسة (٥) ويبدو أن مثل هذه الخطابات لم يعد لها وقع على نفوس رجال الغرب الأوربي ، في وقت أصبح الخطر ماثلاً أمام إخوانهم في الشام على نحو يهدد وجودهم جميعاً ، الأمر الذي اضطر حنا دى فيلبيه إلى الذهاب إلى أوربا الكاثوليكية كي يستنهضهم زعماؤها الذين أصبحوا أكثر انشغالاً بمشاكلهم عن طريق إيقاظ الروح الصليبية فيهم حتى يبادروا لإنقاذ الأراضي المقدسة أو على الأقل الدفاع عن مدينة عكا والمعاقل المتبقية لهم في الساحل الشامي (٦) وفي تلك الأثناء أرسل البابا نيقولا الرابع Nicolai IV (١٢٨٨ – ١٢٩٢م)

---

(١) انظر: النويري : المخطوط السابق لوحة رقم ١٣ ، ابن الفرات : تراريخة المجلد الثامن ص ٨٠ .
ابن دقماق : الجوهر الثمين لوحة ١٢٨ ، ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ٣٣٥ .

(2) Cf. Les Gestes des Chiprois: Idem.

(3) Cf. Cartulaire Tome III No. 4050 PP. 541-542.
Also: Les Gestes des Chiprois : Op.cit, P. 804.

(4) Cf. Ibid.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 241.

(5) Cf. Lettera di Gio.di Villers G.M. degli Spedalieri in cod. Dipl. No. CCXXV P. 268.
Also: Rohricht R. : Regesta Regni no. 1498 P. 103 (sup) >

(٦) عن جهود حنا فيلبيه مقدم الاسبتارية لدي ملوك الغرب أنظر :
Cartulaire Tome III No. 4050 P. 541, no. 4060 P. 548.

خطاباً إلى إدوارد الأول ملك إنجلترا في الثالث عشر من أغسطس عام ١٢٨٩م يوصيه بمبعوثي الأراضي المقدسة (وعلى رأسهم مقدم الاسبتارية) القادمين إليه لعرض الحالة " المحزنة " التي ألمت بلاتين الشرق (١) لكن دون جدوى ضاعت هذه الجهود هباءاً فقد انغمس ملوك الغرب في الخلافات والمؤامرات ، كما تلاشى اهتمامهم بالقضية الصليبية بحيث لم يجد مقدم الاسبتارية آذاناً صاغية ، فآثر العودة مثقلاً بالحزن واليأس ليدخل في حومة القتال الأخير (٢) وقد حاول البعض من هؤلاء الملوك أن يطيب خاطر حنا دى فيلييه فأرسل إليه اعتذاراً حاول من خلاله أن يؤكد صدق الظروف التي حالت دون خروجه في حملة صليبية ومن هؤلاء الفونسى الثالث Alphonsus III ملك اراجون (ارغونه) (١٢٨٥-١٢٩١م) الذي كتب إلى مقدم الاسبتارية في الثلاثين من ابريل عام ١٢٩٠م موضحاً له موقفه الحرج في الداخل ، مما أعاقه عن الخروج لنجدة الأراضي المقدسة (٣) وذرائع من هذا القبيل تؤكد حقيقة هامة وهي إن الحماس الذي كثيراً ما دفع أسلاف هؤلاء الملوك إلى مغادرة بلادهم وهي في ظروف قد تكون أكثر صعوبة مما هي عليه في أخريات القرن الثالث عشر وذلك في سبيل الوقوف إلى جانب صليبيي الشام ضد الأخطار التي تتهددهم – هذا الحماس تلاشى كلية ، وأصبحت مجرد مشاكل عارضة داخلية تمثل إحدى الظواهر الطبيعية بالنسبة لأي من الممالك ، ذريعة يتذرع بها ملوك الغرب للتهرب من الاشتراك في حملة صليبية . هذا بينما فقدت البابوية مكانتها القديمة التي خولت لها أن تجبر من تختاره منهم لأداء هذه المهمة أو تهديده بسلاح الحرمان الذي فقد فاعليته هو الآخر بزوال هذه المكانة . ولم يملك البابا نقولا الرابع في ظل

(١) بخصوص خطاب البابا أنظر :

Ibid no. 4049 P. 541.

(2) Cf. Woodhouse, F.: Op.cit, PP. 47-48.

(3) Cf. Cartulaire Tome III No. 4090 PP. 560-561.

هذا الوضع إلا أن يوجه نداءات متكررة إلى صليبي الشام يرجوهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم من أجل الدفاع عن الأراضي المقدسة (١) متناسياً أن ظروف الشام الجديدة وقوة المماليك الناشئة في مصر أقوى من كل هذه الجهود متضافرة . ويبدو أن البابا أراد بذلك إظهار استمرار البابوية ولو شكليا في أداء دورها إزاء كيان صليبي أقامته في الشرق ، حتى اللحظة التي بدأ يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة ، وذلك حرصاً على وضع الكرسي البابوي بين الرعايا الكاثوليك في الشرق والغرب على حد سواء .

على أية حال بدأ السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون حصار عكا في يوم الخميس السادس من أبريل عام ١٢٩١م / ٣ ربيع الآخر ٦٩٠هـ (٢) ، ويذكر البعض أنه أثناء تطويق المدينة بالحصار هرب كثير من الجموع الصليبية عن طريق البحر على جزيرة قبرص وآخرون إلى الموانى البيزنطية وإيطاليا ، ولم يبق في عكا سوى فرسان الجماعات الرهبانية الثلاثة : الاسبتارية والداوية والتيوتون ومن ظل معهم من العناصر الأخرى المحاربة ، بالإضافة إلى الذين قدموا من الغرب نجدة للمدينة (٣) ومن ثم كان الاسبتارية من بين العناصر الرئيسية المحاربة التي وقع على كاهلها عبء الدفاع عن عكا . وقد حشدت الجماعة لهذا العمل مائة وأربعين فارساً على رأسهم المقدم حنا فيلييه ثم انضم إليهم الفرسان الذين أتوا مدداً للاسبتارية مع النجدة التي وصلت عكا في الخريف الماضي . وكان من بين هؤلاء الفرسان وليم هنلى

(1) Cf. Cartulaire Tome III No. 4121 P. 573, no. 4126 P. 575.

(٢) فيما يتعلق بالاعداد لهذا الحصار لدي الجانب الاسلامي انظر :
ابن الفرات : تاريخه ، المجلد الثاني ص ٩٦- ٩٧ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٢٨٢ ، النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحة ٥٥ .

(3) Cf. Les Gestes des Chiprois: Op.cit, P. 807.
Also: De Vertot, L`Abbe, Op.cit, Tome I P. 469.
ويؤيد ذلك اشارة بيبرس الدوادار الي انه كان بعكا " جمع كبير من الديوية والاسبتار " أنظر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج٩ لوحة ٢٨٤ .

William de Henley بريور الجماعة في إنجلترا . وفي القسم الثالث من الأقسام الأربعة التي انتظمت فيها القوات الصليبية لمقاومة الحصار الإسلامي لعكا ، احتل الاسبتارية موقعهم ، حيث تولوا بقيادة المقدم الدفاع عن النصف الأيمن من سور المدينة عند جبل مصراته ، بينما كان المارشال متى دى كليرمونت Matthew de Clermont على راس قوة منهم عند بوابة القديس انطون St. Anthony وبذلك كانت دار الجماعة المعروفة بالأوبرج والمنازل الملحقة بها في نطاق القطاع المتركز فيه المقدم وقواته . أما المقر الآخر حيث الدير وقصر الفرسان فقد كان في الموقع الذي يتولى المارشال مهمة حمايته والدفاع عنه (١) وقد أشار بيبرس الدوادار على دور الاسبتارية في مقاومة حصار المسلمين لعكا بقوله أنهم " حصنوا الأبراج والأسوار ، وأظهروا المصابرة وعدم المبالاة بالمحاصرة " (٢) .

وعندما أثرت مجانيق المسلمين في أحد أبراج عكا بحيث أمكن اتخاذ طريق منه للدخول إلى المدينة ، أسرع مارشال الاسبتارية في هذه اللحظة الحرجة إلى مغادرة موقعه عند بوابة القديس انطون ، بناءاً على أوامر من مقدم الجماعة ، ثم انطلق بفرسانه نحو المكان الذي أوشك المسلمون أن يقتحموا المدينة منه ، وشن على هؤلاء الأخيرين هجوماً مباغتاً أجبرهم على التقهقر بعد أن قتل بعضهم وألقى الاسبتارية بعدة منهم من أعلى القلعة إلى الخندق ، وترتب على هذا الموقف أن عاد الصليبيين الذين لاذوا بالفرار بعد حدوث الثغرة إلى مواقعهم في الدفاع عن عكا بينما عاد من نجا

(1) Cf. Les Gestes des Chiprois: Op.cit, PP. 809-810-815.
Also: King E.J. : Op.cit, PP. 292-293.

(٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج٩ لوحة ٢٨٤ .

من المسلمين الذين قاموا بعملية الاقتحام إلى صفوف المحاصرين (١) ويذكر المؤرخ كينج أن الصليبيين دفعوا ثمناً باهظاً مقابل النجاح الذي أحرزه الاسبتارية فقد ذبح ألفان منهم بينما أصيب سبعة آلاف بجراح خطيرة في سبيل الحفاظ على خط طويل من الأسوار (٢) .

وفي صباح اليوم التالي (الخميس السابع عشر من مايو) عقد مجلس حرب ضم القادة الصليبيين ومقدمي الجماعات الرهبانية في دار الاسبتارية حيث ارتسم الحزن فيه على الوجوه بعد أن احس الجميع بخطورة الموقف ، وكان الأمل أمامهم ضئيل في شن هجوم آخر ، ومن الممكن أن يكونوا قد تداولوا في مسألة فتح باب المفاوضات مع المسلمين ، وهو الأمر الذي حدث بصفة مؤكدة في اليوم الأخير من الحصار ، إذ هناك إشارة إلى أن مقدم الاسبتارية " حنا فيلبيه بعث برسالة إلى السلطان قلاوون أعرب فيها عن رغبة الصليبيين في الصلح والتفاوض ، لكن قلاوون أصر على الانتقام منهم ومواصلة الهجوم على المدينة (٣) .

وقد شن المسلمون هجوما قويا على عكا " وأثخنوا في مقاتلة الفرنجية "(٤) ركزت إثناؤه فرقة قوية منهم هجومها على بوابة القديس أنطون ، واستطاع متى دى كليرمونت مارشال الاسبتارية التصدي لهم في البداية ، لكن سرعان ما أصبح الوضع خطيرا بالنسبة له ، خصوصا وقد

---

(1) Cf. Cartulaire Tome III No. 4175 P. 592.

وهذه الوثيقة عبارة عن خطاب أرسله حنا فيلبيه مقدم الاسبتارية الي بريور سان جيل في آخر مايو عام ١٢٩١ من قبرص وصف فيه المحاولات اليائسة للاسبتارية وغيرهم من الصليبيين في سبيل انقاذ عكا لكنهم كانوا اضعف من ان يواجهوا قوات المسلمين الضخمه ثم يعلن اليه في النهاية سقوط المدينة .

Also: De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 470-471 Michaud, J.F.: Op.cit, Vol. III. PP. 80-81.

(2) Cf. The Kights Hospitallers in the Holy Land P. 295.

(3) Cf. Les Gestes des Chiprois: Op.cit, P. 811.
Also: Michaud, J.F.: Op.cit, Vol, III Idem.

(٤) أنظر : بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٢٨٥ .
Also: De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 471.

بدأت قوات المماليك في التجمع في معركة شبه عامة ضد الاسبتارية ، مما اضطر مقدم الجماعة إلى الاتفاق مع مقدم الداوية على القيام بهجمة قوية مضادة ، فكان أن امتطى حنا فيليبه صهوة جواده وتبعه خمسمائة من فرسان الجماعة في محاولة يائسة للخروج من البوابة عن طريق الضغط على جماعة المسلمين المحاصرة لهذا الجانب ، وقد فشل هذا المخطط وانتهى بهلاك معظم الفرسان الاستبارية والصليبيين ومصرع مقدم الداوية وإصابة مقدم الاستبارية بجراح بعدما أنقذه حرسه من خطر الوقوع من على جواده (١) .

وبالنسبة لفرسان الجماعة ، الذين كانوا يتولون مهمة الدفاع عن بوابة القديس أنطون ، فقد هربوا إلى شوارع عكا سعيا إلى الاستعانة بمساعدة الأهالي الصليبيين بعد أن أضحوا غير قادرين على التصدي لضربات المسلمين العنيفة . وفي طرقات عكا وأزقتها عاد المارشال متى دى كليرمونت إلى الظهور بفرسانه من الاستبارية وقد قاموا بمحاولات أخيرة لمقاومة القوات المملوكية التي اقتحمت المدينة انتهت بمصرع مارشال الجماعة (٢) واعتصام الباقين من الاستبارية بأحد الأبراج التابعة لهم حيث حاصرهم المسلمون لعشر أيام أخر فخارت قواهم ولم يجدوا مفرا من التسليم وأخذوا أسرى حيث فرقوا على الأمراء فقتلوهم عن آخرهم ، وأبقى السلطان جماعة من أسراهم وأرسلهم إلى الحصون (٣) كي يشارك من فيها في شرف القضاء عليهم كما توحي بذلك مواقف سابقة .

---

(1) Cf. Les Gestes des Chiprois: Op.cit, PP. 812-814.
Also: Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 243.

(2) Cf. Cartulaire Tome III No. 4175 PP. 592-293.
Also: Les Gestes des Chiprois: Op.cit, PP. 815-816.
De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I PP. 471-472.

(٣) انظر : بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ج٩ لوحة ٢٨٥- ٢٨٦ .

وكان فتح عكا في يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من مايو عام ١٢٩١م/ ١٧ جمادى الآخرة ٦٩٠ هـ بعد أن استغرق حصارها أربع وأربعون يوما (١) وقد سقط في القتال العديد من فرسان الاسبتارية بحيث لم ينج من القتل والأسر إلا المقدم حنا فيلبيه الذي حمل جريحا إلى إحدى السفن الصليبية ومعه ستة فرسان من الجماعة (٢) وهؤلاء السبعة – كما يرى البعض – هم أعضاء الاستبارية الذين ظلوا على قيد الحياة بعد سقوط عكا (٣) .

ثم فتح السلطان الأشرف بقية المعاقل الصليبية كصور وصيدا وحيفا وعتليت " بغير قتال " لأن الرعب ملك من فيها من الصليبيين " لما فتحت عكا" وأيقنوا أنهم " لا يقدرون على حفظها ففارقوها ونجوا بأنفسهم "(٤) ويذكر الأب دي فيرنوت أنه من كان من الاستبارية في هذه المعاقل أثر الرحيل إلى قبرص وليس إلى الغرب الأوروبي على أمل أن تأتيهم النجدات من هناك فيستطيعوا بها محاربة المسلمين تارة أخرى (٥) .

وخلاصة الأمر هو أن الاستبارية كانوا من أكثر العناصر الصليبية تحمسا بقدوم حملة لويس التاسع ملك فرنسا ، ذلك أنهم كانوا دائبي السعي لدى الغرب الأوروبي من أجل إرسال نجدات من هذا القبيل ، خصوصا بعد أن ذاق الصليبيين بصفة عامة مرارة الهزيمة على يد الخوارزمية والمسلمين فقد وجد فرسان الجماعة – كغيرهم من الصليبيين – في هذه الحملة منقذا لهم من الأخطار المحدقة من كل جانب ، وعقدوا عليها رجاءهم في أن تعيد الأوضاع في الشام إلى ما كانت

(١) انظر تفاصيل هذا الحصار في :
ابن الوردي : تاريخه ج٢ ص ٣٣٦- ٣٣٧ .
ابن الفرات : تاريخه ، المجلد الثامن ص ١١٢ .
النويري : نهاية الارب ج٢٩ لوحة ٥٥ .

(2) Cf. Cartulaire Idem.
Also: Rohricht R. : Regesta Regni No. 1513, P. 303.

(3) Cf. Le Roulx, J.D., Op.cit, P. 244.
Also: King E.J. : Op.cit, P. 297.

(٤) انظر : ابن الفرات : تاريخه ، المجلد الثامن ص ١١٣ .

(5) Cf. De Vertot, L'Abbe, Op.cit, Tome I P. 475.

عليه قبل حروب صلاح الدين ، ولحرص الاستبارية على نجاح الحملة في تحقيق هذا الغموض انضموا إليها بفرقة من فرسانهم ومحاربيهم في جميع المعارك التي دارت بينها وبين المسلمين ، كما أسهموا في تحصين بعض المدن الصليبية ، وامتثلوا كثيرا لسياسة إقرار الأمور ونبذ الخلافات التي احتذاها القديس لويس في سبيل إصلاح أوضاع صليبي الشام .

لكن سرعان ما تجددت الخلافات القديمة بين الصليبيين بعد رحيل الملك الفرنسي إلى الغرب وأصبحت المملكة الصليبية فريسة لحرب أهلية ، اشتركت فيها الجماعات اللاتينية المختلفة . ولم يتجه الفرسان الاسبتارية إلى رأب هذا الصدع للحيلولة دون تدهور الموقف بالنسبة لهم في الشرق بل انغمسوا أنفسهم في هذه الخلافات بنزاعهم شبه المستمر مع أمراء إنطاكية وجماعة الداوية ودخولهم حلبة الصراع إلى جانب الجنوية ضد البنادقة .

وقد دأب رجال الجماعة ، أمام الوضع المنهار في الجانب الصليبي والمتقدم في الجانب الإسلامي ، على الاستنجاد بين الحين والآخر بالغرب الأوربي من أجل إنقاذهم هم وغيرهم من صليبي الشام من هذه الأخطار التي تتهددهم جميعاً ، كما اتجهوا في نفس الوقت إلى التقوقع داخل قلاعهم الحصينة للدفاع عنها ، أو القيام بعمل هجومي مضاد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، دون أن يغفلوا دورهم في الاشتراك مع القوات الصليبية في عمليات حربية من شأنها حماية الكيان الصليبي المتداعي في بلاد الشام .

وظل أمر الفرسان الاسبتارية على هذه الحال رغم تساقط المعاقل الصليبية الواحدة تلو الأخرى على يد سلاطين المماليك وكان سقوط قلاع الجماعة الضخمة كحصني الأكراد والمرقب نذيراً بالنهاية المؤكدة التي لم يتوقعها أعضاء الاسبتارية ، حتى ذلك الوقت ، بدليل أنهم واصلوا اتصالاتهم بالغرب الأوربي ونشاطهم الحربي والاقتصادي والأمل يحدوهم في وصول " نجده " تعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه من الاستقرار النسبي الذي يضمن لهم الاحتفاظ بممتلكاتهم في الشام ، لكن ذلك المنطق كان لا يتفق ومجريات الأمور المعاصرة ، فقد تلاشى الحماس للفكرة الصليبية بين أهل الغرب ، بينما قويت روح الجهاد لدي أهل مصر إلى الحد الذي استطاعوا به الإجهاز على بقايا الصليبيين ومنهم الاسبتارية ، والقضاء عليهم ثم طرد من نجا منهم من هذا المصير من ساحل الشام إلى غير رجعه .

الخـــاتمـــــــــــة

إذا أردنا أن نتوقف في هذا المقام لتقييم أهم النتائج والآراء التي توصل إليها الباحث في دراسته فأنه يمكن أجمالها علي ا النحو التالي :

من حيث النشأة ، كانت المباني التي بدأ الامالفيون في إقامتها منذ عام ١٠٢٣م هي المنشآت التي شهدت مولد الاسبتارية وقيامها كجماعة معترف بها رسميا . وقد كان اتساع هذه المنشآت وتطورها قبل مجئ الحملة الصليبية الأولي مردودا إلي تزايد أعداد الحجاج الغربيين القادمين إلي الأراضي المقدسة في ظل سياسة التسامح التي اتسم بها المسلمين في معاملتهم لغيرهم من أهل الديانات الأخرى .

والعودة بنشأة الاسبتارية إلي أصول موغلة في القدم ترجع إلي الأيام المبكرة من تاريخ المسيحية ، ونسج العديد من الأساطير المليئة بالمعجزات والكرامات حول هذه النشأة كان مرجعة رغبة مؤرخي الاسبتارية في إضفاء صفات التمجيد والقداسة علي الجماعة ، بالقدر الذي يضمن لها وضعا متفوقا علي منافسيها الذين كادوا أن يبزوها في المجد والشهرة بفضل تقدمهم في مجال خدمة ما يسمي " بالقضية الصليبية " . ولا يمنع ذلك من أن هناك جهودا بذلت من جانب الأباطرة والحكام ورجال الكنيسة في سبيل توفير الراحة وسبل الرعاية للحجاج المسلمين في الأماكن المقدسة ، وهذه الأعمال كانت بالفعل بدايات تطورت عنها جماعة الاسبتارية بحكم تطور ظروف منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، وبسبب تطور الأحوال في الغرب الأوربي علي نحو زاد من اهتمام رجاله بأحوال الأراضي المقدسة .

وبعد أن استولي الصليبيون علي بيت المقدس ، استلزمت الأوضاع الجديدة أن يعمل جيرار أول مقدم للإسبتارية ورفاقه الذين انضموا إليه في ظل تنظيم يضمن تنفيذ واجبات العلاج وكرم الضيافة للحجاج الصليبيين علي مستوي عال من الأداء بعد أن اتسعت دائرة أعمال القائمين بها بشكل يفوق كثيرا ما كان عليه الحال بالنسبة لرئيس المستشفي ومن يعملون تحت إشرافه قبل مجئ الحملة الصليبية الأولي ، حيث كانوا يؤلفون جماعة صغيرة متواضعة تستطيع بسهولة الوفاء بالتزاماتها إزاء أفواج الحجاج التي كانت تأتي علي فترات متقطعة ، أو إزاء أولئك المقيمين بجوار المقدسات المسيحية ولا يؤلفون أعدادا كبيرة ، ومن ثم فإن سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين كان المولد الحقيقي لجماعة الاسبتارية .

وقد اتخذت هذه الجماعة في مبدأ أمرها القديس يوحنا المتصدق الذي كان بطريركا للإسكندرية راعيا لها وقدوة لأعمالها ، وذلك لشهرته في ميادين الإحسان إلى الفقراء المسيحين ورعاية العجزة والمرضى منهم ، ثم تحولت هذه الرعاية في فترة تالية من تاريخ الجماعة إلى القديس يوحنا المعمدان . والأرجح إن ذلك تم بعد أن آلت الدير البيزنطية التي تحمل اسم هذا القديس إلى الجماعة خلال فترة السيطرة الصليبية على مدينة بيت المقدس ، على أساس إنها الفترة الوحيدة التي يمكن أن يحدث فيها هذا التحول لما ترتب على هذه السيطرة من تغيرات في حيازة المباني والعقارات .

ومن ناحية النظام ، فان الاسبتارية نشأت أساسا في دير وفى ظل إشراف ورعاية الرهبان البندكتيين ، ولذلك كانت القواعد الرئيسة فى هذا النظام مصطبغة بصبغة الحياة الرهبانية ، لكن نظام الاسبتارية سرعان ما خضع لتغييرات وتعديلات على هذه القواعد ثم إضافة بنود أخرى جديدة كي تتلاءم مع الوضع الجديد للجماعة بعد أن سمحت لأعضاء من العلمانيين بالانضمام إلى صفوفها فقد كان من الضروري أن تتخذ نظم الاسبتارية جانبا يتلاءم بعض الشيء مع حياة هؤلاء الأعضاء الجدد العادية ، وفى نفس الوقت تتفق فى مفهومها العام والمبادىء والأهداف التي تشكلت الجماعة أساسا من اجل تنفيذها والحفاظ عليها .

وبالرغم من ما تحث عليه نظم الجماعة من الالتزام بمبادىء الزهد والعفة والطهارة ، إلا أن أعضاء الاسبتارية بعد ازدهار جماعتهم ماليا واقتصاديا سلكوا سبيل الحياة الرغده وأصبحوا أكثر رفاهية وبعدوا بذلك عن حياة التقشف التي نص عليها نظامهم الاساسى والتى هى من اخص سمات الحياة الرهبانية . هذا فضلا عن إنهم خرجوا كثيرا عن المبادىء الموضوعة لهم بالنسبة لسلوك حياتهم اليومية ، وعلى سبيل المثال فانه فى الوقت الذي فرض عليهم النظام أن " يأكل كل طعامه فى صمت " أصبح تناول وجبات الطعام فى بعض الأحيان نوعا من الشغب كان يضرب الأخوة الاسبتارية الخدام ، أو يرجمونهم بالخبز ، أو يرشونهم بالنبيذ ثم ينهضون بعد تناول الطعام سيرا على الإقدام إلى الكنيسة لطلب الرحمة والمغفرة .

ويلاحظ على نظام الاسبتارية بصفة عامة انه تأثر في معظم جوانبه ، خصوصا بعد تطور الجماعة ، بمؤثرات شرقية الأمر الذي من الممكن أن يزداد وضوحا من خلال إعداد دراسة مقارنة لهذا النظام والنظم الشرقية والإسلامية السابقة عليه أو المعاصرة له .

وكانت لجماعة الاسبتارية أهمية خاصة في تاريخ الحركة الصليبية ، إذ أن الاسبتاريين الأوائل كمقيمين في الشام للعمل في المستشفي ودار الضيافة من أجل خدمة الحجاج الكاثوليك ، عاصروا الأزمات السياسية الحرجة التي مر بها المسلمون في الفترة السابقة قبل مجيء الصليبيين إلي هذه المنطقة . وهذه الأزمات كانت سببا في نجاح رجال الحملة الصليبية الأولي واستيلائهم علي بعض الأراضي الإسلامية في منطقة استراتيجية في الشرق الادني . ولا نكون مغالين إذ قلنا إن هؤلاء الاسبتارية ساعدوا في الإعداد لهذا الأمر أو مهدوا له من خلال اتصالاتهم بالغرب الأوربي عن طريق ضيوفهم من الحجاج الغربيين الذين كانوا يفدون عليهم في دار الضيافة ثم يعودون إلي ديارهم في الغرب وقد حملوا معهم أخبار الشرق السيئة واضعين إياها في صيغ تفيض بالتهويل والمبالغة - كما أتضح من كتابات المؤرخين الغربيين الذين سجلوا هذه الأخبار - وذلك لتحريك

مشاعر كاثوليك الغرب كي يهبوا لنجدة إخوانهم المقيمين في الشرق ، وكان ذلك احد العوامل التي تمخض عنها خروج أهل الغرب في حملات صليبية شعبية ونظامية من اجل الاستيلاء علي الأماكن المقدسة وإخضاعها للسيطرة اللاتينية .

كما إن ما وفره رجال الاسبتارية للحجاج الغربيين من سبل الراحة والرعاية خفف عن هؤلاء الأخيرين عناء السفر ومصاعب الإقامة في الأراضي المقدسة مما شجع بالتالي حجاجا آخرين من بلاد الغرب الأوربي المختلفة علي القدوم إلي الشرق في أعداد ضخمة بشكل أكثر مما كان مألوفا من قبل ، بل وأقام العديدين منهم بجوار الأماكن المقدسة ، وتزايد أعداد الحجاج الغربيين علي هذا النحو ، كان مقدمة أفضت إلي مجيء الصليبيين بعد ذلك إلي الشرق علي هيئة جماعات مسلحة تدفعها الرغبة في تحقيق أهداف وأطماع متنوعة بعد أن اطلعوا - بلا شك - علي أحوال الشام . وما تذخر به بلاد الشرق من خيرات عن طريق هؤلاء المقيمين هناك .

وفضلا عن ذلك ، فان الاسبتارية مهدوا الطريق لنشأة جماعات أخرى من الرهبان المحاربين في الشام للقيام بواجبات تعد استكمالا لأعمال كرم الضيافة والعلاج التي كان يقوم بها أعضاؤها إزاء الحجاج الصليبيين . فبعد تأسيس المستشفي والجماعة التي قامت علي الخدمة فيها ، وتضخم أعداد الحجاج الصليبيين في الأراضي المقدسة ، اتجه مجموعة من الفرسان إلي حمل السلاح من اجل توفير الحماية لهؤلاء الحجاج علي الطرق التي يتحركون عليها ، وانتهي الأمر بهم إلي أن وضع لهم نظاما خاص بمجمع توروي بفرنسا في عام ١١٢٨م . ونظرا لان الألمان كانوا قد كثر عددهم إلي الحد الذي جعل الاسبتارية لا يستطيعون أن يقدموا إليهم ما يلزمهم من المؤن واحتياجات الإقامة والعلاج ، اتجه احدهم إلي تحويل منزله الخاص به وكذلك كنيسة العذراء إلي مستشفي صغير لتقديم ما يحتاجه رجال بلاده الذين حملوا السلاح إلي الأراضي المقدسة وقد وضع لهم البابا كلستين الثالث هم الآخرين نظاما وزيا مميزا .

وهاتان الجماعتان إلى جانب الاسبتارية كانوا جميعا عنصرا حربيا هاما لعب دورا له فعاليته في الدفاع عن المملكة الصليبية نحو قرنين من الزمان ، وأيضا في إتباع سياسة اتسمت في معظم جوانبها بتعميق روح العداء في نفوس الصليبيين ضد المسلمين ، وبالتالي إزكاء نار الحرب بين الجانبين على نحو شبه مستمر بما يضمن لأعضائها الحفاظ على مكانتهم الحربية في نظر أوروبا الغربية ، وتحقيق اكبر عائد من المكاسب من الممكن أن ينجم عن خوض مثل هذه الحروب .

وبالنسبة لدور الاسبتارية في الصراع الصليبي الإسلامي ، فانه ينسب إلى جيرار انه لعب دورا لصالح الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة بيت المقدس في عام ١٠٩٩م . وقد كان الغرض من ذكر الرواة لهذا الدور على نسق إعجازي هو جعل العمل الذي قام به جيرار في مكانة تتناسب مع تلك التي يجب أن يحظى بها أول مقدمي الجماعة بمفهوم مؤرخي الاسبتارية ، خصوصا وان جيرار هذا وصل في فترة تالية من تاريخ الجماعة إلى منزلة القديسين ، لذا أطلق هؤلاء الرواة العنان لخيالهم كي ينسبوا إلى هذا القديس المعجزات والكرامات الجديرة بمكانته في نفوس المعاصرين من أعضاء الاسبتارية بصفة خاصة ، وصليبيي ذلك العصر على وجه العموم .

وبالرغم من ذلك كانت الجماعة في عهد جيرار اسبتارية محضة اى انحصر نشاطها في أعمال الضيافة والتمريض ، وكرست العشرين عاما الأولى من وجودها بعد مجيء الصليبيين إلى الشام في تنظيم نفسها وتطورها . وقد كان اتجاه أعضائها إلى العمل الحربي ضرورة فرضتها ظروف المملكة الصليبية الوليدة والمحدقة بالأخطار من كل جانب ، بحيث وجد الاسبتارية انه لزاما عليهم أن يقفوا موقفا ايجابيا من هذا الوضع عن طريق حمل السلاح والدخول في صفوف المحاربين الصليبيين دفاعا عن الأمارات الصليبية . والمؤكد في هذا الصدد هو انه حتى عام ١١٢٠ م لا يوجد دليل واحد في وثائق الاسبتارية أو في نصوص المعاصرين التي في متناول أيدينا ، يشير إلى اشتراك أعضاء الجماعة بقوة محاربة في المعارك التي خاضها الصليبيون ضد المسلمين خلال هذه الفترة المبكرة من القرن الثانى عشر .

وقد اخذ دور الجماعة في الصراع بين المسلمين والصليبيين في الظهور بشكل تدريجي مع اكتمال الصبغة العسكرية البحتة في تنظيمها وواجباتها ، وهو أمر اتجهت نحوه بشكل سريع حتى أصبح محاربوها من اشد الصليبيين حماسا للدفاع عن " القضية الصليبية " في الأراضي المقدسة ومصدرا هاما زاد من قوة البناء العسكري للمملكة الصليبية وحال دون انهياره في بعض الأحيان إبان السيطرة الفرنجية على بلاد الشام .

وهذا الدور كان في أول الأمر غير واضحا ، وتمثل في تقلد أعضاء الجماعة السلاح دفاعا عن الحجاج الصليبيين المقيمين في دار الضيافة والمستشفى ، وحراستهم بعض المعاقل الصليبية ، هذا فضلا عن مشاركتهم بمجموعة صغيرة من القوات في جيش المملكة الصليبية خلال عملياته الحربية ضد المسلمين ، ونظرا لضآلة هذا الدور في الفترة المبكرة اللاحقة لقيام مملكة بيت المقدس ، فانه لم يحظ باهتمام المؤرخين المعاصرين مما أدى إلى صعوبة استيضاحه من خلال كتاباتهم بشكل مباشر .

ولكن بفضل التطور السريع الناجم عن الاهتمام الذي أولته الجماعة للعمل العسكري سعيا وراء الشهرة التي كاد أن ينتزعها المنافسين لها في هذا المجال ، تبلور دور الاسبتارية ليأخذ شكلا أكثر وضوحا وأهمية مما كان عليه ، الأمر الذي جذب انتباه الصليبيين المعاصرين ، وفى مقدمتهم البابوات والملوك والأمراء ، نحو قدرات الجماعة وإمكاناتها، الحربية فالقوا على عاتقها مهمة الدفاع عن القلاع الاستراتيجية الهامة الواقعة على مقربة من الحدود مع المسلمين ، كما أصبح لمقدميها اليد الطولي في وضع الخطط الحربية المزمعة للجيوش الصليبية قبل تحركها للمواجهة مع المسلمين ، وذلك من خلال المكانة التي كان يحظى بها مقدم الاسبتارية في مجالس الحرب لخبرته الواسعة بأحوال الشرق ومعرفته بفنون المسلمين الحربية ، هذا إلى جانب انه كان تحت إمرته فرقة من الفرسان والجند على مستوى عال من الكفاءة القتالية بفضل التزامهم بمبداى النظام والطاعة وحماسهم الدائم للقضية الصليبية ، والمنطوي أساسا على تلك الحوافز والامتيازات التي كانت تأتيهم بين الحين والأخر من قبل المهتمين بهذا الشأن .

وقد استطاع فرسان القديس يوحنا أن يضربوا المثل لهذه الصفات خلال المعارك التي خاضوها إلى جانب الصليبيين في المناسبات المختلفة السالف ذكرها ، وهو ما لم يتوفر في فرق الفرسان الإقطاعيين الذين كانت تسيطر عليهم روح المغامرة والرغبة في الحصول على مكاسب سريعة ، لذلك أصبحت قوات الاسبتارية المحاربة في نظر القادة الصليبيين مددا يعتمد عليه في إنجاز المشروعات الحربية الخطيرة ، فاتجهوا من فورهم إلى الاستعانة بها . ولضمان مساعدتهم خول هؤلاء القادة لأعضاء الجماعة إمتيازات واسعة النطاق ، كما عقدوا معهم اتفاقيات تحدد التزام قوات الجماعة والمقابل الذي يتقاضاه أعضاؤها من قبيل المراعاة للمصلحة الخاصة والتي حرص الفرسان الاسبتارية عليها كثيرا في معاملاتهم مع الصليبيين ، مما أدى بالتالي إلى أتساع نفوذهم وازدياد ثرواتهم .

وبانصرام القرن الثانى عشر أصبح للاسبتارية مكانة بارزة بين العناصر الرئيسية المحاربة في المملكة اللاتينية ، وساعدهم على ذلك ما يملكون من إمكانات مادية وعسكرية متجددة في كل من الشرق والغرب ، فبالرغم من الخسائر الجسيمة التي حاقت بهم في الحروب التي خاضوها مع الصليبيين ضد صلاح الدين ، والتي كانت تنبىء بنهاية عهد الجماعة على ارض الشام ، إلا ان المراكز التابعة لها في الغرب الاوروبى كانت بمثابة نقاط إمداد بالمحاربين والمعدات والمؤن لا ينضب معينه بفضل الجهود المستمرة التي يبذلها أعضاء الاسبتارية هناك من اجل تدعيم موقف إخوانهم في مقرهم الرئيسي بالشرق اللاتيني ، لذا سرعان ما استرد إسبتارية الشام قوتهم بعد سقوط بيت المقدس وتنكيل صلاح الدين بمعظمهم ، ومارسوا نشاطهم الحربي ضد المسلمين على نحو اشد ضراوة ، كما ظهر من خلال المعارك التي خاضوها ، فقد أدركوا بعد ان أعلن صلاح الدين موقفه منهم بعد معركة حطين ، وهو القضاء عليهم قضاءا مبرما ، ان هذه الحروب مصيرية بالنسبة لهم يتوقف على نتائجها بقاؤهم في الممتلكات التي استحوذوا عليها في الشام أو نهاية وجودهم إلى الأبد

ومن ثم أعطى الاسبتارية الأمور المتعلقة بالصراع الصليبي الاسلامى اهتماما يفوق الحد ، ولعبوا في هذا المجال دورا بارزا قابله الصليبيون بالامتنان ، وترتب على ذلك ان انهالت على الجماعة المنح والامتيازات من المتحمسين للقضية الصليبية مما أدى إلى تضخم ثرواتها في الغرب والشرق وبالتالي ازدياد إمكاناتها الحربية . وبفضل هذه الإمكانات ، غدا للاسبتارية ثقلا أكثر من ذي قبل في تقرير الأمور الهامة المتعلقة بالأوضاع السياسية للصليبيين في الشام ، كما أصبح مقدمها من جراء ذلك بمثابة أمير مستقل له موظفيه وجيشه الخاص .

ويلاحظ ان الاسبتارية شاركوا غيرهم من الجماعات الرهبانية ، وخصوصا الداوية ، في تحمل العبء الأكبر من مسئولية الدفاع عن صليبيي الشام ورعاية مصالحهم في الفترات التالية لعودة حملة صليبية إلى الغرب وكذلك السابقة على مجيء أخرى جديدة بصفتهم مقيمين دائمين على أهبة الاستعداد لمواجهة اى خطر ، بسبب بقائهم المستمر تحت السلاح ، وقد استطاع هؤلاء الفرسان بالفعل وفى مناسبات عدة سد الفراغ الناجم عن رحيل هذه القوات إلى الغرب ، بالرغم مما تكبدوه من جراء ذلك من خسائر فادحة في الأرواح والأموال . وعلى مدى سنوات القرن الثالث عشر أصبح الفرسان الاسبتارية عنصرا يعتمد عليه أكثر من ذي قبل في وضع وإعداد الترتيبات المتعلقة بإنقاذ المملكة الصليبية وحمايتها من خلال اتصالاتهم شبه المستمرة بالغرب الاوروبى والإسهام في تجهيز النجدات القادمة إليها من هناك ، عن طريق الدور الذي تلعبه المراكز الأوروبية التابعة للجماعة ، هذا إلى جانب دورهم في ميادين القتال ضد المسلمين ، كمدافعين عن الوجود الصليبي في الشام . وقد انتهجوا في هذا العمل الأخير سياسة الهجوم الوقائي الذي يبتغون من ورائه إعادة سيطرة الجماعة على بعض المدن والاقطاعات التي كانت تابعة لها وفقدتها أثناء حروب صلاح الدين ، أو حصلت عليها كمنحة بعد ان استردها المسلمون ، وكان على أعضاء الاسبتارية ان يتولوا مسئولية الاستيلاء عليها واغتصابها من هؤلاء الأخيرين ، وهو كل ما من شانه ان يضمن لهم

مزيدا من السيطرة والنفوذ على حساب الأقاليم الإسلامية المجاورة لهم ، بغرض العودة إلى ما كان عليه الحال قبل حطين ان لم يستطيعوا تجاوز هذه الحدود السابقة .

ومما تجدر ملاحظته أيضا في هذا الصدد ، هو ذلك التغيير الواضح في طبيعة العلاقات بين الجماعات الرهبانية وفى مقدمتها الاسبتارية من جانب والمسلمين من جانب أخر . فالمعروف ان صلاح الدين في العقود الأخيرة من القرن الثانى عشر حدد موقف المسلمين من الاسبتارية والداوية على أساس أنهم اشد الناس عداوة للإسلام ، وأوجب بالتالي قتل كل من يقع منهم في ايدى المسلمين بمعنى ان دماءهم أصبحت منذورة ويستوى بالنسبة لهم وقوعهم صرعى في ميدان القتال مع الوقوع في قيد الأسر . وفى نفس الوقت كان أعضاء الجماعتين شديدي الرغبة في النيل من المسلمين ويقفون منهم موقفا عدائيا متعصبا لا هوادة فيه .

لكن الظروف التي ألمت بالأمارات الصليبية في العقود الأولى من القرن الثالث عشر والناجمة عن عدم تدعيم موقفها الحربي من جانب الغرب ، على نحو يجعلها متفوقة من حيث الإمكانات العسكرية على المسلمين ، بالقدر الذي يمكنها من مواصلة سياسة العداء السافر ضدهم بصفة دائمة جعلت الاسبتارية ومنافسيهم يعدلون عن موقفهم المتصلب ويحذون سياسة أكثر مرونة في علاقاتهم مع المسلمين ، وذلك من اجل الحفاظ على ممتلكاتهم ومصالحهم الخاصة في الشام وقد أعطاهم حرية التصرف في هذا الصدد ما يملكون من قدرات قتالية وإمكانيات متواصلة جعلتهم في نظر الزعماء الصليبيين المعاصرين حماة مملكة الصليب والمدافعين " الشجعان " عنها ، ومن ثم كان للاسبتارية الحق في تقرير الحرب أو عقد معاهدات سلام مع المسلمين في الأمارات المجاورة مثل حمص وحماه وحلب ، بينما كان محرما علي الأمراء أو الكونتات الذين يقيم هؤلاء الفرسان في حدود إماراتهم أو كونتياتهم القيام بعمل من هذا القبيل إلا بعد اخذ موافقة الجماعة . وفوق ذلك فقد انتهج الاسبتارية سياسة منفردة إزاء حكام مصر والشام ، وكانوا بمثابة دعاه لهذه السياسة لدي

القادة الصليبيين وهو الأمر الذي أدي في النهاية إلي الصدام مع منافسيهم الداوية من ناحية ، والدخول في محالفات مع الأطراف الإسلامية المختلفة علي نحو متذبذب وغير مستقر من ناحية أخري .

وقد ساعد جماعة الاسبتارية على الوصول إلى هذه المكانة أمور ثلاثة هي :

ضعف الملكية الصليبية وقلة مواردها وإمكانياتها الحربية ، ومساندة البابوية الدائمة للجماعة وازدهارها اقتصاديا .

وفيما يتعلق بالعامل الأول فانه بالرغم من إن مركز الملك الصليبي كان ضعيفا منذ البداية إلا أن تعاقب ملوك أقوياء على عرش المملكة الصليبية حتى نهاية عهد عمورى الأول ، حال دون فقدان الملكية هيبتها أمام نفوذ الجماعات الرهبانية ، بل إنهم جعلوا من الاسبتارية وأقرانهم محالفين دائمين لهم ، واحد العناصر الرئيسية التي يعتمدون عليها في مشروعاتهم الحربية ، وذلك نظير مقابل ينعمون به على أعضاء الجماعة ، يتناسب والمساعدات التي قدموها في ميادين القتال .

لكن هذا الوضع سرعان ما تبدل ، إذ ازداد ضعف الملكية باعتلاء عرشها ملوك صغار وظهور مشاكل الوصاية ووراثة العرش ، هذا فضلا عن قلة موارد المملكة وضعف إمكانياتها الحربية بسبب تناقص الاقطاعات التابعة لها والتي آل معظمها إلى الاسبتارية وغيرهم من الجماعات الرهبانية وأيضا بسبب الافتقار إلى العامل البشرى إذ أن معظم الذين كانوا يأتون مع الحملات الصليبية من الغرب الأوروبي لم يستقروا في المملكة الصليبية بصفة دائمة ليكونوا مددا له قيمته بالنسبة لها ، بل كانوا يؤثرون العودة إلى ديارهم في الغرب بمجرد أن تنتهي الحملة ، التي قدموا فيها من أداء مهمتها في الشرق . هذا في الوقت الذي كان الاسبتارية – ومن على شاكلتهم – يتمتعون بالعديد من الامتيازات التي خولت لهم عدم التبعية للملك ، أو الخضوع لاى سلطة ، إلا لسلطان البابا مباشرة الأمر الذي كان له اكبر الأثر في أن تفقد السلطة المركزية داخل الأمارات الصليبية والمتمثلة في الملك مقومات وجودها أمام هذه التنظيمات لتفسح المجال للعناصر الصليبية

صاحبة الامتيازات وفى مقدمتها الاسبتارية لن تزيد من سيطرتها واتساع نفوذها على حساب غيرها مما أدى إلى تضارب المصالح ونشوب الخلافات التي أودت بالمملكة الصليبية إلى أتون الفوضى والاضطراب . وقد وصل نفوذ الاسبتارية في هذا الصدد إلى حد التدخل في تعيين بعض ملوك مملكة بيت المقدس واختيار الأوصياء عليها ، بل وتوجيه سياسات هؤلاء الملوك وكذلك الأمراء بالنسبة للعلاقات مع المسلمين في كثير من الأحيان لصالحهم ، وهو أمر عبر عنه المعاصرون في كتاباتهم . وقد زاد من فاعلية هذا النفوذ مساندة البابوية الدائمة للاسبتارية وتوسعها في الإنعام على الجماعة من حين لآخر بالعديد من الامتيازات التي كانت سببا في الاصطدام بالسلطة الأسقفية التي تلاشت كليا بالنسبة لأعضاء الجماعة ، وأعطتهم في نفس الوقت وضعا متميزا على سائر الأطراف الصليبية الأخرى الأمر الذي جعلهم لا يمتثلون لأية قرارات صادرة عن الحكام الصليبيين في الشام ، إلا وفقا لما تقتضيه مصالحهم ، بل إنهم كثيرا ما استطاعوا فرض السياسة التي ارتأوها إزاء بعض المواقف الحاسمة في تاريخ المملكة الصليبية .

وفضلا عن ذلك فان تطور الاسبتارية في استغلال أملاكهم والامتيازات التي حصلوا عليها في النواحي الاقتصادية ضاعف من إيرادات الجماعة بحيث أصبحت قادرة على الوفاء بالتزاماتها الخاصة بالأنفاق على القلاع الضخمة التي آلت إليها ، وتزويد الحاميات المقيمة فيها بالمؤن والعتاد هذا إلى جانب تقديم الطعام والعلاج للفقراء والمرضى المقيمين في دار الضيافة والمستشفى ، ولذلك كانت موارد الاسبتارية بمثابة الدعامة الرئيسية التي ساعدت أعضاء الجماعة على الاستمرار في أداء دورهم ، خصوصا في الفترات التي كانت تتوقف فيها مساعدات الغرب الأوروبي إلى صليبيي الشام ، وأيضا الاحتفاظ بمعظم اقطاعاتهم وقلاعهم الحصينة حتى فترة متأخرة من الوجود الصليبي على ارض الشام ، كما جعلت هذه الإمكانيات من فرسان الجماعة ومحاربيها قوة لا يستهان بها في الحرب مع المسلمين ، وفى تقرير الأمور السياسية الخطيرة داخل الأمارات الصليبية في وقت ضعفت فيه إمكانيات الأمراء الصليبيين وقلت مواردهم .

وإذا كان الاسبتارية قد نجحوا بالإسهام مع غيرهم من الجماعات الرهبانية في التعويض النسبي عن توقف إمدادات الغرب إلى صليبي الشام ، إلا أنهم شاركوا في التسبب في الفشل الذي منيت به بعض الحملات الصليبية بسبب خلافاتهم شبه المستمرة مع منافسيهم الداوية وبعض الأمراء الصليبيين وكذلك موقفهم العنيد من بعض الملوك والأباطرة ، بحجة مناصرة البابوية والامتثال لسياستها العليا في الوقت الذي يبتغون فيه المصلحة العامة للجماعة .

ولم يتجه الفرسان الاسبتارية إلي رأب الصدع الذي انتاب المملكة الصليبية بسبب ضعف السلطة الملكية ، وما نجم عن ذلك من خلافات وحروب أهلية بين الجموع الصليبية المختلفة ، كما كان الحال من قبل ، بل انغمسوا في هذه الخلافات من اجل مصالحهم الخاصة ، ودون إدراك لعواقبها الوخيمة بالنسبة للوجود الصليبي في الشام .

وأمام هذا الوضع المنهار في الجانب الصليبي ، والمتقدم في الجانب الإسلامي دأب رجال الجماعة على الاستنجاد بين الحين والآخر بالغرب الأوروبي من اجل إنقاذهم هم وغيرهم من صليبي الشام من هذه الأخطار التي تتهددهم جميعا ، كما اتجهوا في نفس الوقت إلى التقوقع داخل قلاعهم الحصينة للدفاع عنها ، أو القيام بعمل هجومي مضاد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، دون أن يغفلوا دورهم في الاشتراك مع القوات الصليبية في عمليات حربية من شانها حماية الكيان الصليبي المتداعي .

وظل أمر الفرسان الاسبتارية على هذا الحال ، بالرغم من تساقط المعاقل الصليبية الواحدة تلو الأخرى على يد سلاطين المماليك ، وكان سقوط قلاع الجماعة الضخمة كحصني الأكراد والمرقب نذيرا بالنهاية المؤكدة التي أراد تحاشيها أعضاء الاسبتارية في ذلك الوقت ، بان واصلوا اتصالاتهم بالغرب الأوروبي ، ونشاطهم الحربي والاقتصادي والأمل يحدوهم في وصول " نجدة " تعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه من الاستقرار النسبي ، الذي يضمن لهم الاحتفاظ بممتلكاتهم في الشام لكن ذلك المنطق كان لا يتفق ومجريات الأحداث المعاصرة ، فقد تلاشى الحماس للفكرة الصليبية من أذهان ملوك الغرب وأمراؤه ، بينما تزايدت قوة سلاطين المماليك في مصر إلى الحد الذي استطاعوا به الإجهاز على بقايا الصليبيين ومنهم الاسبتارية والقضاء على معظمهم .

أما القلة من أعضاء الجماعة التي تمكنت أن تنجو من هذا المصير عن طريق الفرار فقد آوت إلى جزيرة قبرص التي كان للاسبتارية فيها مقرا وأملاكا منذ بدايات القرن الثالث عشر . وفي قبرص أقام فرسان القديس يوحنا مؤقتا يترقبون الموقف عن كثب ويبحثون عن مقر جديد ينفردون به ويواصلون منه نشاطهم الصليبي وغير الصليبي (١) .

ولم يطل انتظار الاسبتارية ، إذ أسفرت مفاوضاتهم مع الجنوية عن اتفاق بين المقدم فولك فيلارت Foulques de Villaret واحد القراصنة الجنويين واسمه فيجنولو Vignolo على أحتلال جزيرة رودس ، وذلك بتشجيع من الكرسي البابوي ، وقد تم لهم ذلك في عام ١٣١٠م (٢) .

---

(١) أنظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ط٣ ص ١١٧٢ .
Also: Cf. Annuaire de L'Ordre Souverain Militaire Hospitalier de St. Jean de Jerusalem de Rhodes et de Malte, Rome 1978, P. 10.

(2) Cf. A.O.S.M H. Idem.
وايضا سعيد عاشور : المرجع السابق نفس الصفحة .

واستغل فرسان الجماعة قاعدتهم الجديدة في رودس في مواصلة الحرب ضد المسلمين برا وبحرا على أمل أن تتاح الفرصة للصليبيين مرة أخرى للعودة إلى بلاد الشام (١) وفى غضون القرن الرابع عشر قاموا بحملات ضد مصر والشام ، كما ساندوا أرمينيا ضد المسلمين (٢) .

واستمرت العلاقات بين الاسبتارية فى رودس وسلطنة المماليك في مصر والشام تتأرجح بقية القرن الخامس عشر بين الصداقة حينا والعداء أحيانا ، بحيث لم يحجم فرسان الجماعة في كثير من الأوقات عن الإغارة على سفن المسلمين ، كما حدث عامي ١٤٦٤، ١٥١٠ م حتى انتهى الأمر باستيلاء العثمانيين على الجزيرة في عام ١٥٢٢م (٣) .

وقد بقيت الجماعة بلا مأوى لأربع سنوات قبل حصولها على جزيرة مالطة ، وجوزو Gozo وكومينو Comino . وقلعة طرابلس فى أفريقيا كمنحة إقطاعية من شارل الخامس ، بصفته ملكا على صقلية ، وفى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٥٣٠م امتلك المقدم فيليير ادم Villiero de L,isle-Adam ، مالطة حيث اقسم الفرسان فى اتفاق مع البابا كلمنت السابع على البقاء على الحياد فى حالة حدوث اى حرب بين أمم مسيحية . وقد دأب الاسبتارية من خلال موقعهم فى مالطة على محاربة الأتراك إلى أن أتى الجنرال نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م فى حملة عسكرية ضد مصر فعرج على الجزيرة واحتلها (٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٧٣ .

(2) Cf. A.O.S.M H. Idem.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١٧٥ .

(4) Cf. A.O.S.M H. : P. 11.

وبعد البقاء فى روسيا ومسنيا وغيرها عام ١٨٣٤م ،أقامت الجماعة نفسها فى روما حيث يمتلك الفرسان مقاطعة إقليمية على تل افنتينو Aventino وفى شارع كوندوتى Condatti ومرة أخرى أصبح العمل الاسبتارى المتمثل فى التمريض وكرم الضيافة موضع الاهتمام الرئيسي للجماعة وتكفلت المستشفى وجهود أعضاء الاسبتارية من اجل تحقيق الرفاهية للمسيحيين الكاثوليك بحيز له اعتباره فى الحرب العالمية الأولى ، وكان أكثر قوة وانتشارا فى الحرب العالمية الثانية (١) .

وفى ظل نصوص القانون الدولي ، أقام الاسبتارية علاقات دولية عن طريق ممثلين معتمدين لدى القاصد الرسولى ولدى ست دول أوروبية ، وثماني عشرة دولة فى أمريكا الجنوبية ، وفى أسيا مع الفلبين واليابان ولبنان ، وفى أفريقيا مع الكاميرون واثيوبيا والجابون وساحل العاج ، وليبيريا وموريتانيا والنيجر والسنغال والصومال وغيرهم ، كما إن للجماعة حاليا ممثلا مقيما فى القاهرة داخل سفارة الصومال ، وينحصر عمل الاسبتارية فى الوقت الحالي فى تقديم المساعدات فى مجال الطب والتمريض ، والميادين الخيرية والاجتماعية بالمعنى الواسع الذي تعنيه هذه الكلمات ، وبصفة خاصة لمنكوبى الحروب والكوارث الطبيعية (٢) من النصاري الكاثوليك .

(1) Cf. A.O.S.M. H. P. 12.
(2) Ibid, PP. 12-13.

قائمـــة بأسماء مقدمـــي الاسبتاريـــة ، ومـن تقلدوا الـوظائف الهامة في الجماعة إبان القرنين الثاني والثالث عشر *

جيــــــرار	{ فبراير ١١١٣- يونيو ١١١٩م }	(١) Gerard , Giroldus
ريموند دي بوي	{ ديسمبر ١١٢٥- ١١٥٧م }	(٢) Raymond du Py
اوجــــر بالبيـــن	{ فبراير ١١٦٠- ١١٦٢م }	Auger de Balben, Otgerius
ارنولد دي كومب	{ ١١٦٢ }	Arnold de Comps
جيلبرت دي اسيلي	{ يناير ١١٦٣- ١١٧٠م }	Gilbert d`Assailly
كاسته دي مورو	{ ١١٧٠- ١١٧٢م }	Caste de Murols, Castus
جـــــوبـــرت	{ ما قبل أكتوبر ١١٧٣- يناير ١١٧٧م }	Jobert, Jasbertus
روجر دي مولين	{ أكتوبر ١١٧٧- أول مايو ١١٨٧م }	Roger des Moulins
ارمنجودي اسب	{ مايو ١١٨٨- ١١٩٠م }	(٣) Armeng and d`Aspe
جارنبير دي نابلس	{ أكتوبر ١١٩٠- أكتوبر ١١٩٢م }	Garnier de d`Aspe

(*) هذه القائمة مأخوذة عن :

Listes Des Dignitaires et Des Freres cf. Les Archives... PP. 210-227.

(١) أتخذ المؤرخ الإيطالي ب باولي تاريخ اعتراف البابوية رسميا بالاسبتارية كجماعة بداية بعهد جيرار رغم إن هذا الأخير كان علي رأس الاسبتارية قبل مجي الحملة الصليبية الأولي إلي الشام .

(٢) ذكر المؤرخ كينج في قائمتة إن الفترة التي شغلها ريموند دي بوي في هذا المنصب تمتد من عام ١١٢٠م إلي عام ١١٦٠م أنظر : King, E.J.: P.XV وهو الأرجح إذا ما تتبعنا نشاط ثاني مقدم للجماعة .

(٣) يلاحظ إن الفترات الشاغرة من منصب المقدم كان يتولاها من يليه في المرتبة من كبار موظفي الجماعة وهو " القائد الأعظم " وذلك حتى ينعقد المجلس العام للاسبتارية وتختار أحد أعضاء الجماعة لهذا المنصب " وكثيرا ما وقع الاختيار علي القائد الأعظم ليكون " المقدم " بحكم كفاءتة ولكونه الرجل الثاني في الجماعة ونظرة إلي قائمة أسماء كبار القادة تؤكد هذه الحقيقة حيث نجد علي سبيل المثال إن جارنير دي نابلس وبطرس دي فيليير ايد وهيوريفل كانوا في منصب " القائد الأعظم قبل اختيار كل منهم لمنصب " مقدم " .

جيوفـــري دونجون	{ يناير ١١٩٣- مايو ١٢٠١م }	Garnier de Nablus
الفونس البـــرتغالي	{ ديسمبر ١١١٣- ١٢٠٦م }	Geoffrey de Donjon
جيفري لـــــوراث	{ ١٢٠٦ - مايو ١٢٠٧م }	Alphonse de Portugal
جارين مــــونتاجو	{ سبتمبر ١٢٠٧- مايو ١٢٢٧م }	Geoffrey La Rath
بارتراند دي ثيسي	{ ١٢٢٨- ١٢٣٠م }	Bertrand de Thessy, de Texi
جـــــوريـــن	{ سبتمبر ١٢٣١- مايو ١٢٣٦م }	Guerin, Gerinus
براتران دي كومب	{ سبتمبر ١٢٣٦- ابريل }	Bertrand de Comps
بطرس دي فيليبرايد	{ ١٢٤٠- نوفمبر ١٢٤١م }	Pierre de Ville-Bride
وليــــم شاتونيف	{ مايو ١٢٤٣- يناير ١٢٥٨م }	Guillelmus de Castro Novo
هيـــوريفــــــل	{ أكتوبر ١٢٥٨- سبتمبر ١٢٧٦م }	Hugh Revel, Hugo Revel
نيقولا لورجـــــن	{ سبتمبر ١٢٧٧- سبتمبر ١٢٨٣م }	Nicholas le Largne
يــــوحنا فيليــه	{ أغسطس ١٢٨٥- أكتوبر ١٢٩٣م }	John de Villiers

<u>كبار القادة Grand Precepteurs</u>

ســيــيـــدول	{ ١١٤٥- ١١٥٠م }	Sedulus
بيــــربتجـــار	{ مايو ١١٥٠- فبراير ١١٥٢م }	Berengarius
جيرار هيـــــو	{ أغسطس ١١٥٥- ١١٥٧م }	Giroldus Hugo
جايين دي ميلينا	{ يناير ١١٥٨- ١١٦٣م }	Garinus de Melna
جودي ماهون	{ ١١٦٣- ١١٦٨م }	Guido de Moun, de Mahone
بــونـــزبلان	{ ١١٧٠- ١١٧٣م }	Pontius Blaneus

Garinus de Melinis	{ ١١٧٣ -١١٧٥م }	جاريـــــن دي ميلين
Garnier de Nablouse	{ ١١٧٦- أول يناير ١١٨٢م }	جارنييري دي نابلس
Erchenbaldus	{ابريل ١١٨٥- يناير ١١٨٦م }	ارشيـــنـــبـالـــــد
Guillaume de Burell	{ أول فبراير ١١٨٦- أكتوبر ١١٨٨م }	وليـــــم بورل
Guillelmus de Viliers	{ ١١٩٢ -١١٩٣م }	وليم فيلييـــــــه
Robertus Anglicus	{ فبراير ١١٩٤- ١٢٠١م }	روبرت انجليوس
Guillelmus Lombardus	{ ابريل ١٢٠١- ١٢٠٧م }	وليـــم لمبارد
Isembardus	{ ديسمبر ١٢٠٧- ١٢٢١م }	سمبـــــارد
Golferius	{ مايو ١٢٢١- ١٢٣١م }	جولفـــــري
Guillelmus de Tyneriis	{ سبتمبر ١٢٣١- ١٢٣٥م }	وليم دي تينيري
Andreas Polm	{ نوفمبر ١٢٣٥- ١٢٣٩م }	انـــدرو بولـــم
Pierre de Ville-Bride	{ ابريل ١٢٣٩- ١٢٤٠م }	بطرس دي فيليبراد
Guillelmus Silvanectenis	{ ١٢٤٠ -١٢٤٥م }	وليم سيلفانستين
Johannes de Ronay	{ ابريل ١٢٤٥- أغسطس ١٢٤٨م }	يوحنا روناي
Hugo Revel	{ ديسمبر ١٢٥٢- ابريل ١٢٥٦م }	هيـــوريفـل
Henricus Theotonicus	{ أكتوبر ١٢٥٩- ١٢٦٢م }	هنري ثيوتونـــي
Henry de Ferstinberg	{ ديسمبر ١٢٦٢- ١٢٦٤م }	هنري دي فير ستينبرج
Stephanus de Meses	{ سبتمبر ١٢٦٤- ١٢٦٩م }	ستيفن دي ميسي
Boniface de Calamandrane	{ نوفمبر ١٢٦٩- يونيو ١٢٧١م }	بونيفاس دي كالاماندران
Jacobus de Taxi	{ يونيو ١٢٨٦- ؟ }	يعقوب دي تاسي

بعض الذين تقلدوا الرتب العسكرية الهامة في الجماعة وتواريخ تعينهم :-

" رتبة المارشال " Marechal

ريمـــونـــد تيبيـــريـاد	{ ابريل ١١٦٥م }	Gerard , Giroldus
وليـــــم بـــــــــورل	{ يناير ١١٩٣م }	Guillaume de Burell
وليــــم دي مـــــارو	{ يناير ١١٩٤ م }	Guillelmus de Marolh
جاريـــــن دي مونتاجو	{ مايو ١٢٠٧ م }	Garinus de Monte Acuto
جفـــــــــــــــري	{ أغسطس ١٢١٠م }	Gofredus
فـــــريدي دي باراز	{ مايو ١٢٢١م }	Ferrandus de Baraz
ارنولد دي مونتي برونو	{ أكتوبر ١٢٣٢م }	Arnaldus de Monte Bruno
وليــــــم دي شاتونيف	{ نوفمبر ١٢٤١م }	Guillaume de Chastel-Neuf
وليــــــم دي كورسيل	{ أغسطس ١٢٤٨م }	Guillelmus de Corcellis
جـــــوازار دي لنتينو	{ أكتوبر ١٢٥٩م }	Guizardus de Lentino
جـــــــوسيم ديستورنل	{ ديسمبر ١٢٦٢م }	Josseanme Destornel
نيقولا لــــــــورجن	{ سبتمبر ١٢٦٤م }	Nicholas le Largne

تركبولي Turcoplier

بطرس دي ساردين	{ ١٧ أغسطس ١٢٣٨م }	

امير بحر Amiral

وليم دي فيلينشيا	{ ١٧ ابريل ١٢٣٤ }	Guillelmus de Valencia

كند سطبل Connetable

دوراند	{ ١٧ يناير ١١٢٦م }	Durandus

" بيان بالمختصرات الواردة في الكتاب "

" لبعض المصادر والدوريات "

A.H.R.	: The Amerieam Historical Review.
A.O.L.	: Les Archives de L'Orient Latin.
A.O.S.M.N.	: Annales de L'Ordre Souverain Militaire de Malta.
A.S.P.N.	: Archivio Sterico Per Le Province Napoletane.
Cod.Dipl. S.M.O.G.	: Codice Diplomatico del Sacro Militare Ordine Gerosolymitano.
E.H.R.	: The English Historical Review.
Ec.H.R.	: The Economic Historical Review
M.S.	: Mediaeval Studies.
N.R.S.	: Nuova Rivista Storica
P.E.F.	: Palestine Exploration Fund.
P.P.T.S.	: Palestine Pilgrims Test Society.

R.H.C.	: Recueil des Historiens des Croisades.
R.H.C. Occ.	: ,,, Historiens Occidentaux
R.H.C. Doc. Arm.	: ,,, Documents Armeniens
R.O.L.	: Revue de L`Orient Latin.
R.R.H.	: Regesta Regni Hierosolymitani.

المصادر والمراجع

أولا : مجموعات الحروب الصليبية : -

- Recueil des Historiens des Croisades, publie per les soins des I'Academie des Inscriptions et Belles Iettres, in 16 huge folio vols. *Paris* 1841-1906.

I . Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844"1695)

II. Documente Armeniens, 2 tomes (1869-1906) .

- Les Archives de L'Orient Latin, Publiees Par la Societe de L'Orient Latin, 2 Vols. Paris 1881 et 1887. Textes, Inventaires et Etudes Originales.
- Palestine Pilgrins`, Toxt Society, 13 Vels. and general Index. London 1887 - 1897.
- REVUE de L'Orient Latin, Publiee sous la direction de M.M. Le Marquis de Vogue et Ch. Schefer. .Paris, 1893 – 1911.

ثانيا : مجموعة وثائق الاسبتارية والمصادر الخاصة بتاريخ الجماعة : -

- Le Roulx J.D. (ed.): Gartulaire General de L'Ordre des Hospitaliers S: Jean de Jerusalem.

4 tomes (1100 - 1310) Paris 1894 - 1906.

I (A.D. 1100 - 1200) Paris 1894.

II (A.D. 1201 - 1260) Paris 1897.

III (A.D. 1261 - 1300) Paris 1899.

IV (A.D. 1301 -1310) Peris 1906.

- Paoli, (P.A. ed.) Codice Diplomatico del .Sacro Militare Ordine Gerosalimitano Oggi di Malta, Lucca 1733.

- Exordium Hospitalariorum *in* R.H.C,Occ,, Tome V (PP.399-435)
  I. De Prima institutione Hospitalariorum,
  II. Josphi Historiographi Tractatus de Exordio Sacrae Domus Hospitalis Jerosolimitani, cum duplici versione gallica coaeva
  III. Guillaume de Saint-Esteve : Comment La S,Maison de l'Hospital de S.Johan deJerusalem Commenca.
  IV. De primordiis et inventione sacrae religi-onis Jerosoyymmitanae.
  V. Primordium et, Orige S. Xenodochii et Ordinis Militae S. Johannis Baptistae Hospitalariorum, Hierosolymitani, cum versione gallica.

- Le Roulx J.D : Inventaire de Pieces de Torre Sainte de L'Ordre de L'Hopital cf. R.O.L. Tome III, Paris 1895. (PP. 36-106).

- Le Roulx J.D,(ed.) : Les Archives, La Bibliotheque oet Le Tresor de L'Ordre de Sanit-Jean de Jerusalem a Malte, Publie par Libraire des Ecoles Francai-ses. d'Athenes et de Rome. Paris, 1883.

- Archivio Storico di Malta, Organo della Regia Deputazione per la Storia di Malta, Roma 1929-1938.

- Bavdoin, J. : Lea Statvts de L'Ordre de Sainct-Jean de Hiervsalem, Paris, 1629.

- Bosio, Jacomo : Le Imagini de Beati, E Santi della. Sacra Religione di S. Gievani Gieriosolimitano, Roma. 1633.

- Le Roulx J.D Les Statuts de L'Ordre de L'HopitaldeSaint-Jean de Jerusalem, Publie par L'.Aecademie dea inscriptions et belles - Lettres, Paris 1887.

- Rohricht, R, (ed.): Regesta Rogni Hieraselymitani (1097-1291) Ooniponti 1904.

ثالثا : المخطوطات العربية (*) : -

- ابن الجوزي " سبط " (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" ج٨ شيكاغو ١٩٠٧م - مكتبة الجامعة الأمريكية القاهرة - تحت رقم (د) ١٥٧ت " تصوير شمسي " .
- ابن دقماق : (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) صارم الدين إبراهيم بن محمد " نزهة الأنام في تاريخ الإسلام " - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٤٣ تاريخ . " الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين " - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٥٢ تاريخ .
- أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين { صاحب حماه } " التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك " - دار الكتب المصرية رقم ٨٦م تاريخ .
- العمري : (ت ٧٤٧هـ /) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل الله . " رسالة تشتمل علي كلام إجمالي في أمر مشاهير ممالك عباد الصليب في البر ودون البحر " ومعها مقدمة وترجمة باللغة الإيطالية لميشيل أماري ، روما ١٨٨٣م - دار الكتب المصرية رقم ١٨٣١ تاريخ .
- العيني : (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسي " عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " ٢٣ جزء في ٦٩ مجلد - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ " تصوير شمسي " . ويهم موضوع البحث الأجزاء ١٦- ١٧- ١٨ .
- الكتبي : (ت ٧٤٦هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن " عيون التواريخ " الجزء العشرون (٦٤٥- ٦٧٠هـ) دار الكتب المصرية - رقم ١٤٩٧ تاريخ " تصوير شمسي " .

(*) اشار الباحث إلي المخطوطات في الكتاب بكلمة " لوحة " أو " ورقة " .

- النويري الكندي :" (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين احمد " نهاية الأرب في فنون الأدب " ٥٥ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٤٩ معارف عامة . ويهم موضوع البحث الأجزاء ٢٨ـ ٢٩ .
- بيبرس الداودار : (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري " زبدة الفكرة في تاريخ الهجـرة " ج٩ (٦٥٦ ـ ٧٠٩هـ) مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ " تصوير شمسي " .

رابعا : المصادر العربية : ـ

- ابن الأثير الجزري : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن علـي بـن أبي الكرم الملقب بعز الدين
" الكامل في التاريخ " ١٢ جزء في ١٢ مجلد ، ليدن ١٨٥٣م .
" التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل " تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣م
- ابن ايبك الدواداري : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) أبو بكر بن عبد الله " كنز الدرر وجامع الغرر "
ج٢ : الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، تحقيق الدكتور سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢م
ج٨ : الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ .
- ابن جبير : (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) أبو الحسن محمد بن احمد الاندلسي " الرحلة " { تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار } بيروت ١٩٦٤م .
- ابن خاكان : (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس احمد " وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان " ٣ أجزاء تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .
- ابن الشحنه : (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) أبو الوليد مجد الدين محمد الحلبي " الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب " نشرة الأستاذ يوسف سركيس . بيروت ١٩٠٩م .

- ابن شداد : (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع { سيرة صلاح الدين المعروفة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية } تحقيق الدكتور / جمال الدين الشيال ـ الطبعة الأولي ـ القاهرة ١٩٦٤م .
- ابن الفرات : (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم " تاريخ ابن الفرات " المجلدان السابع والثامن تحقيق الدكتور قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٤٢م .
- ابن العديم : (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن محمد " زبدة الحلب من تاريخ حلب " ٣ أجزاء عني بنشرها وتحقيقها ووضع فهارسها الدكتور سامي الدهان ، بيروت ١٩٥٤م .
- ابن عبد الظاهر : (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) محيي الدين " تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور " تحقيق الدكتور مراد كامل ـ الطبعة الأولي ـ القاهرة ١٩٦١م .
- ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) محمد بن علي بن يوسف " أخبار مصر " جزءان تصحيح ونشر هنري ماسيه القاهرة ١٩١٩م .
- ابن واصل: (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبد الله محمد " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " ٤ أجزاء الأجزاء الثلاثة الأولي تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠.

الجزء الرابع تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢م .
- ابن الوردي : (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩٤م) أبو حفص زين الدين عمر " تتمة المختصر في أخبار البشر " ويعرف بتاريخ ابن الوردي ، جزءان ، النجف { المطبعة الحيدرية } ١٩٦٩م .

■ أبو شامة : (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل .

ـ " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " جزءان في مجلد واحد ، بيروت { بدون تاريخ } .

■ أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل " المختصر في أخبار البشر " ٤ أجزاء في مجلد واحد - الطبعة الأولي - القاهرة { المطبعة الحسينية المصرية } ١٣٢٥ه / ١٩٠٧م .

■ أبو الفرج الملطي : (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) غريغوريوس " تاريخ مختصر الدول " وقف علي طبعه الأب أنطوان اليسوعي ، بيروت ١٨٩٠م .

■ أبو اليمن العليمي : (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل " جزءان ، المطبعة الوهبية بمصر ، ١٢٨٣هـ /١٨٦٦م

■ بنيامين التطيلي : (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) بنيامين بن يونه التطيلي الاندلسي " رحلة بنيامين " ترجمها عن الأصل العبري وعلق علي حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد - الطبعة الأولي - بغداد ١٩٤٥م .

■ الراوندي: (ت ٦٠١هـ / ١٢٠٤- ١٢٠٥م) محمد بن علي بن سليمان .

" راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية " نقلة إلي العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي وآخرون ، القاهرة - دار القلم - ١٩٦٠م .

■ العماد الكاتب الاصفهاني : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) محمد بن محمد بن حامد .

" الفتح القسي في الفتح القدسي " تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥م .

" تاريخ دولة آل سلجوق " - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٨م .

- القلقشندي: (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) احمد بن علي بن احمد " صبح الاعشي في صناعة الانشا " ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٣- ١٩٢٠م .
- المقدسي: (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشاري : " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " الطبعة الثانية ليدن ١٩٠٩م .
- المقريزي : (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس احمد بن علي " السلوك لمعرفة دول الملوك " جزءان في ست مجلدات صححه ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفي زيادة الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦م .
- ميخائيل أماري : المكتبة العربية الصقلية ، ليسك ١٨٥٧م .
- ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبو عبد الله ياقوت الملقب بشهاب الدين " معجم البلدان " خمسة أجزاء وفهرس ، ليبزج ١٨٩٠م .
- اليونيني : (٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) موسي بن محمد بن احمد قطب الدين " ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " المجلدان الأول والثاني ، حيدر آباد الدكن الهند ١٩٥٥م .

خامسا : المراجع العربية الثانوية :-

- إسحاق عبيد { دكتور } :

الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، مع دراسة في " مدينة الله " ، الطبعة الأولي ، القاهرة ١٩٧٢م .

- السيد عبد العزيز سالم { دكتور } :

طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧م .

- جوزيف نسيم يوسف { دكتور } :

ـ الدافع الشخصي في قيام الحملة الصليبية ـ مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ـ العدد ١٦ ، ١٩٦٢م ص ١٨٣ـ ٢٠٥ .

ـ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولي ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية .

ـ العدوان الصليبي علي مصر " هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكو " الطبعة الأولي ، الإسكندرية ١٩٦٩م .

ـ العدوان الصليبي علي بلاد الشام " هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة " الطبعة الثالثة ، الإسكندرية ١٩٧١م .

- حسن حبشي { دكتور } :

الحرب الصليبية الأولي ، الطبعة الأولي ، القاهرة ١٩٤٧م .

- رأفت عبد الحميد { دكتور } :

الدولة والكنيسة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٥م .

■ سامي سلطان سعيد { دكتور } :

الاسبتارية في رودس ١٣١٠- ١٥٢٢م ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

■ سعيد عبد الفتاح عاشور { دكتور } :

- أوربا العصور الوسطي

ج١ : التاريخ السياسي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٧٢.

ج٢ : النظم والحضارة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣م.

- الحركة الصليبية " صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطي " ، جزءان ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧١م .

- الإمبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي - مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الحادي عشر القاهرة ١٩٦٣ ص ١٩٥- ٢١٣ .

■ عبد الرحمن زكي { دكتور } :

- العمارة العسكرية في العصور الوسطي بين العرب والصليبيين مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع القاهرة ١٩٥٨ ص ١٠٦- ١٣٣ .

- القلاع في الحروب الصليبية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس عشر ، القاهرة ١٩٦٩م ص ٤٩- ٨٨ .

■ عمر كمال توفيق { دكتور } :

ـ مملكـــة بيت المقـــدس الصليبيـــة ، الإسكنـدرية ١٩٥٨ .

ـ مقدمات العدوان الصليبي علي الشرق العربي " الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية (٩٦٩- ٩٧٦م) ، الطبعة الأولي ، الإسكندرية ١٩٦٦م .

ـ المؤرخ الصليبي وليم الصوري ، مجلة كليـــة الآداب جامعة الإسكندرية ، العدد ٢١ لسنة ١٩٦٧م ، الإسكنـــدرية ١٩٦٨م ص ١٨١- ٢٠٠ .

■ محمد محمد مرسي الشيخ { دكتور } :

الجهاد المقـــدس ضــــد الصليبيين حتـــي سقـــوط الرها (١٠٩٧- ١١٤٤م) الإسكندرية ١٩٧٢م .

■ محمود سعيد عمران { دكتور } :

الحملة الصليبية الخامسة " حملة جان دي بيرين علي مصر " (١٢١٨- ١٢٢١م / ٦١٥- ٦١٨هـ) ، الإسكندريـــة ١٩٧٨م.

■ مكسيموس مونروند :

تاريخ الحروب المقدسة فـي المشرق المدعوة حـرب الصليب - ترجمة من الفرنسية إلي العربية مكسيموس مظلوم - جزءان في مجلد واحد - أورشليم ١٨٦٥م .

■ نبيلة إبراهيم مقامي :

فـــرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام فـــي القرنين الثاني عشر والثالث عشر - رسالة ماجستير لم تنشر - جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

سادسا : دوائر المعارف والدوريات :-

- Dictionary, (The Oxford) of the Chiristian Church. London, 1971.

- Dictionnaire de Theelogie Catholique, Paris 1922. (Tome VII Partie I) .

- Encyclopaedia OF Biblcal,Theelogical and Eeclesiastical Litcrature, New *York* 1873.

- Encyclopaedia Britannaica. 22 Vols, & Index. Chicago, 1968.

- Encyclopaedia *(The)* New Catholic, Vols. VII-VIII, Washington, 1967.

- Encyclopaedia of Roligien and Ethics, Vol, VIII, New York, 1926.

- American (The) Historical Review, Vol, XXVIII, U.S.A.1922.

- Annales de L' 0rdre Souverain Militaire de Malte-Rome I960-1962.

- Antiquity, A Quarterly Review of Archeology, Vol, XXIII, England, 1949.

- Archivio Storico Per Le Province Napoletane, Anno XXXIV. Napoli 1955.

- EConomic (The) History Review, Vol. IV, London & Now york, 1951.

- English (The) Histerical Review, Vol. XCI, London, 1976.

- Journal Asiatique, Tomes V & LXXXVII Paris 1855, & 1938.

- Mediaeval Studies, Vols, IX & XXIV Toronto Canada 1847,1962.

- NUOVA Rivista Storica, Supplemente, roma 1944-45.

- Speculum A Journal of Mediaeval Studies, Vol. XLII, Cambridge 1967.

سابعا : المصادر الأجنبية :-

- Ambroise : The Crusade of Richard Lion-Heart, Trans-from The Old French by M.J.Hubert, New York 1941.

- Bernard. the Monk : A Journey to the Holy Places and Babylon cf. John Wilkinsonm : Jerusalem Pilgrims Before the Crusades, England 1977.

- Burchard of Mount sion: A Description of the Holy Land, trans. from the Original latin "by Aubrey Stewart, London., 1696.

كلاري ، روبرت : سقوط القسطنطينية ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٤م .

- Charters, Fulcher of : A History of the Expedition to Jerusalem, trans. By Franco Rita Ryan, U..S.A.,19 69.

- Chronique do La Terre Sainte (A.D.1132-1224) cf. Livre Ide Les Gestes des Chiprois dens R.H.C.Doc.Arm. Tome II, Paris 1906.

- Einhard : 'The Lifo of Charlemagne, With *a* foreward by Sidney Painter : trans. from the original. Latin by Samuel Epos Turner, Michigan I960.

- Eracles : L' Estoire do Eracles Empereur et *La* Conqueste de La Terre d'Outremer, cf. R.H.C. Occ. Tome II (PP. 1-481) Paris 1859.

- Ernoul : Ernoul's Account of Palestino cf. P.P.T.s. Vol. VI, Trans. From the old French by C.R. Conder, London, 1897.

- Estoire de La Guerre qui fuentre L'Empereor Ferderic et Johan d'Ibelin cf. Livre II de Les Gestes des Chiprois dans R.H.C. Doc. Arm. Tome II, Paris 1906. (PP. 670-736).

- Fabri, Felix : The Book of the Wanderings, 2 Vols. 4 Parts, trans. By Aubrey Stewart, London, 1892.

- Gesta Francrum et Aliorum Hierasolimitanorum.

الترجمة العربية : " أعمال الفرنجه وحجاج بيت المقدس " للدكتور حسن حبشي "

- Gestes (Les) des chiprois cf. R.H.C. Doc. Arm. Tome II, Paris 1906.

- Gclubovich, P.G.: Biblioteca Bio-Bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francescano, Tome I (1215-1300) quaracchi Presso, Firenze 1906.

- Hoveden , Roger of : The Annals of Roger de Hoveden, Trans. From the Latin by Henry Rily, London, 1853.

- Joinville, J. : The Life of Saint Louis, Trans. By M.R.B. Shaw, Cf. Chronicles of the Crusades, Penguin Classics ed : England, 1973.

- Mandeville, John : The Travels of Sir John Mandeville, New York, 1964.

- Michel Le Syrien : Chronigue de Michel Le Syrien, Patriarche Jacobite d'Antioche, (1166-1199) editee en Francais par J.B. Chabot, Tome III, Paris 1905.

- Padenborn, Oliver of : The Capture of Damietta, Trans. By John J. Cavigan, Philadelphia 1948.

- Paris, Matthew of : English History from the year 1235. to 1273, trans, from the Latin by J.A. Giles, 2 Vols. London, 1852-53.

- Poloner, John : Doscription of the Holy Land, Trans. From the original Latin by Aubrey Stewart, cf, P.P.T.S. Vol. VI, London, 1894.

-Rothelin : (Dito du Manuserit) Continuaaation de Guillame de Tyrde 1229 A 1291 cf. R.H.C. Occ. Tome II (PP. 490-693) Paris 1859.

- Saewulf : The Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem (A.D. 1102-1103) trans. Y Rev, Canon Brownshow, cf, , P.P.T.S. Vol. V, London, 1891.

- Sanuto, Marino : Secret for True Crusaders to Help them to Recover the Holy Land, trans. From the Original Latin by Aubrey Stewart, Part XIV of Book III, London, 1896.

- Suchhem, Ludolph Von : Pilgrimage of Ludelph Von Suchem, cf. P.P.T.S. Vol. XII, London, 1896.

- Theoderich : Description of the Holy Places, (circa 1172 A.D.) trans. From the Latin by Aubrey Stewart, cf. P.P.T.S. Vol. V, London, 1892.

- Villehardouin : The Conguest of Constantinople, trans. With an introduction by M.R.B. Show cf. Chroniches of the crusades Penguin classics (ed.), England, 1973.

- Vinsauf, Geoffrey de : The Itinerary of Richard King of the English and Others to the Holy Land cf. Chroniclss of the Crusades, London, & New York, 1892.

Virty, Jacques de : The History of Jerusalem, trans. From the Original Latin by Aubrey Stewart, cf. P.P.T.S. Vol. XI, London, 1897.

- Wendover, Roger of : Flowers of History, 2 Vols. trans. From the Latin by J.A. Gilles London, 1849.

- William Archbishop of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols. Trans. And annotated by Emily Babcock and A.C.Krey, New York, 1943.

- Wurzburg, John of : Description of the Holy Land, cf. P.P.T.S. Vol. V, London, 1892.

ثامنا : المراجع الأجنبية الثانوية : -

- Archer, T.A. & Kingsford, C.L.: The Crusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, 5 th ed London, 1919.

- Atiya, A.S. : Cr
- usade, Commerce and Culture, Bleomington 1962.

: The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1983.

- Baldwin, M.: The Medieval Church, New York, 1953.

- Boase, T.S.R : Castles end Churches of the Cruscding Kjngdom, London,1967.

: l Kingdoms and Strongholds of the Cru.saders, London, 1971.

- Brehier, Louis : L'EgliSe et L'Orient an Hoyen-Age : Les Croisades, paris 1928.

- Brundage, Jamec : A Twelfth Century Oxford Disputation Concerning the Privilages of the Knights Hospitallers cf. M.S. Vol. XXIV Canada 1962.

: The Crusades : Motives and Achievements, U.S.A, 1966.

- Cahen, Claude : La Syrie du Nord a l' Epoque des Croisades et la Principaute Franque d' Antioche, Paris 1940.

: UA Texte Peu Connu Relatif au Commerce Oriental d' Amalfi au Xe Siecle cf, A.S.P.N No : XXXIV, Napoli 1955.

- Camera, Matteo : Memorie Storico-Diplomatiche dell' Antica Citta e Ducato di Amalfi, 2 Vols. Salemo 1972.

- Citarella, JArmand : The Relations of .Amalfi with the Arab World Before the Crusades, Cf. Spec alum Vol. XLII No. I, Cambridge, 1967.

- Conder, C.R. : The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897.

- Delaville Le Roulx, J. : Les Hospitaliers en Torre Sainte et a Chypre (110--1310) Paris 1904.

- Deschamps, Paul : Les Chateaux des croisés en Terre-sainte 2 Vols :
I . Le Crac des Chievaliers, Paris 1934,
II. La Défense du Royaume de Jerusalem, Paris 1939

- De Vertot, L` Abbe : Histoire de L`Ordre des Chevaliers Hospitaliers de S. Jean de Jerusalem, Tomes I-II, VI, Paris1726.
: Tomes VI : Anciens et Nouveaux Satuts de L`Ordre de Saint-Jean de Jerusalem, Paris 1726.

- Donnadieu, A.: LE Bienheureux Gérard Tenque : ses Origines et l`*authenticité* des reliques du Château de Manasque, cf. A.O.S.M. No. I Anné XVIII, Roma 1960.

- Duggan, Alfred : The Story of the Crusades, London 1969.

- Enlart, Camille : Les Monuments des Croisés dans lo Royaume de Jerusalem, 2 Vols, Paris 1925 .

- Fedden, Robin : Crusader Castles, London, 1950.

- Cabrieli, Francesco : Gli Ospitalieri di S. Giovanni Negli Storici Musulmani delle Crociate, Bergamo 1929.

- Heyd, W.: Histeire du Commerce du Levant au Moyen - Age, 2 Vols. Amsterdam 1959.

-Hume, Edgar, E. : Medical Work of the Knights Hospitallers of Saint John of Jerusalem, Baltimore 1940.

- King, Cathcart, D.J.: The Taking of Le Krak dos Chevaliers in 1271 Cf. Antiquity Vol. XXIII, Nowbury, England, 1949.

- King, E.J.: the Knights Hospitaliers an the Holy Land, London, 1931.

- Krey, Augast, C.: The International State of thé Middle Ages cf. A.H.R. Vol.XXVIII, London, 1923.

- Lacroix, P.: Vie Militaire et Religeuse au Mayen-age et a l' Epoque de La Renaissance, Paria 1873.

: La Chevalerie et les Croisades : Féodalité, Balson et Ordres Militaires, Paria 1887.

- Lamb, Harold : The Crusades : The Flame of Islam, London.1931.

: The Crusades : Jrom Men and Saints, London-,1930.

- La Monte, John : Feudal Menarchy in the Latin Kingdom cf. Jerusalem (1100-1291) Cambridge 1932.

- Lane-Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of erusalem Beirut 1964.

- Licinio, Vestri : Le Krak des Chevaliers, Château- Fort des Hospitaliers en Syrie cf. A.O.S.M. No. II Annee XVIII cme Rome I960.

- Mayer, H.: The Crusades, trans, from the German by John Gillingham, Oxford 1972.

- Michaud, J.F.: The History of the Crusades, 3 Vols. Trans. from the French by W.Robson, New York, 1881.

- Muller, Wiener : Castles of the Gruaders, Trans. From the germen by J.Maxwell Brownjohn, new –York 1966.

- Oman, Ch. A Hiestory of the Art of War in the Middle Ages, 2 Vols. 2 nd. ed., New york 1924.

- Palmer, A.T.: Criticism of the Crusades, Amsterdam,1940.

- Pernoud, R.: The Crusades, trans. from the French by Emid Mcleod, London 1962.

- Perter, Whiteworth : A History of the Knights of Malta or the Order of St. John of Jerusalem, London, 1883.

- Prawer, Joshua : The latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972.

- Rey, E.: Les Colonies Franques de Syrie AUX XIi me et XIII me siecles, Paris 1883.

- Rey, G.: Etude Sur Les Monuments de l'Architecture Militaire des croisés En syrie et dans l'Ile de Chypre, Paris 1871.

- Richard, Jean : Le Comte do Tripoli sous la Dynastie Toulousaine (1102 – 1187) Paris 1945.

- Rilley-Smith, J,: The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (1050-1310), Macmillan 1967.

- Rosebauit, C.J.: Saladin Prince of Chivalry, London, 1930.

- Schick, Conuad : The Muristan or the Site of the Hospital of St. John at Jerusalem cf. P.E.F., London, 1902.

- Setton, K.M. (ed.) : A History of the Crusades, Vols. I-II. London, 1969.

- Smail, R.C : The Crusades in the East, Cambridge, 1907.

Williams, Jay : Knights of the Crusades, New York, 1962.

Woodhouse, F.: The Military Religious Orders of the Middle Ages : The Hospitallers, the Templars, The Teutonic Kinghts and Others, London 1879.

المحتـــــــويات

الصفحة

☒ الفصل الثاني : ١٤٠-٢١١

" النشاط الحربي للاسبتارية "

حتى نهاية عهد الملك الصليبي عموري الأول

{ ١١١٩- ١١٧٤م / ٥١٣- ٥٧٠هـ }

- تحول الجماعة الي الجانب الحربي واسبابه .

- مقدمات هذا النشاط في العقدين الثاني والثالث من القرن الثاني عشر .

- حراسة الجماعة لبعض القلاع الصليبية الكبري .

- دور الاسبتارية في الحملة الصليبية الثانية .

- مساهمة الجماعة في التصدي لهجمات نور الدين والاستيلاء علي بعض البلاد والمدن الاسلامية .

- الاسبتارية وحملات عموري علي مصر .

نشاط الجماعة الحربي ضد المسلمين في شمال الشام .

A History of Relations Between East and West Vol.II

The Kingts Hosptiallers of St.John And Their Role in the Crusado - Islamic Confliet

By

Dr. Mustafa Moh. El-Hennawi

A. Prof. of Medieval History

Facult of Girls



Saudi Arabia 1424 (A.H)

2003 (A.D)